سلسلة الرسائل الجامعية (٣١)

عِلم المِلَل ومَنَاهِجُ العُلَماءِ فيه

إعداد
د/ أحمد بن عبد الله جود

إشراف
أ. د. ناصر بن عبد الكريم العقل
أستاذ العقيدة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

دار الفضيلة
الرياض - السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

أصـــل هذا الكتاب رسالة ماجستير قدمت إلى قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة الإمام بن سعود الإسلامية في الرياض ، ونقشت من لجنة المناقشة المكونة من:

١- الأستاذ الدكتور/ ناصر بن عبد الكريم العقل . مشرفاً ومقرراً

٢- الأستاذ الدكتور/ يوسف عبد الغنى نعيم . عضواً

٣- الأستاذ الدكتور/ ناصر بن عبد الله القفارى . عضواً

ونالت بتوفيق الله درجة "ممتاز" بتاريخ ١٤٢٠/١١/٨ هـــ .

الطَّبْعَةُ الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

الرياض ١١٥٤٣ - ص. ب ٥١١٤٢

تليفاكس ٢٣٣٣٠٦٣

المقـدّمـة

إن الحمـد لله نحمده ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالـنا ، مـن يهـده الله فـلا مضل لـه ومن يضلل فلا هادي لـه وأشهد أن لا إله إلا الله وحـده لا شـريك لــه وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِــهِ وَلاَ تَمُوتُــنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[1] . ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِــدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[2] .

فـإن المتتبـع لكـتاب الله تعـالى يجـد آيـات كثيرة تعرض عقائد الملل الأخرى وتناقش مقالاتهـا بأسـلوب حكـيم ، وتتصـدى لكل شبهة أثارها المغرضون ، وكل معارضة رامها المعـاندون ، يجد ذلك كله مشفوعا بدعوة أهل الملل إلى الدخول في الإسلام والإيمان بالنّبي الخـاتم محمـد بن عبد الله ﷺ دعوة منطلقها ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ ﴾[3] . وأن دين الله قـد ختم بالرّسالة المحمدية العالمية ، مع التأكيد بعدم إكراه أحد على قبول عقيدة الإسلام ، وبـيان أن سـنة الله قد اقتضت دوام الصّراع بين الحق والباطل إلى قيام السّاعة ، وأن الحق غالب بالحجة والبرهان مهما تراءى للناس قوة الباطل وظهوره .

كلّ ذلك يعطي هذا الدين ميزة بين الأديان والملل التي عرفتها البشرية ، ميزة هي أنه يعـترف بوجـود أديـان مخالفة لـه ، وأنه وضع لأتباعه أحكاما وضوابط لتعاملهم مع أتباع الأديـان الأخـرى ، في داخل دولته وفي خارجها في السّلم وفي الحرب . وقد طبق النّبي ﷺ هـذه الأحكـام في كل المجالات ، وفصل ما أجمله القرآن ، فترك أمته على المحجة البيضاء في شأن التعامل مع أهل الملل .

وفي ضـوء هـذا الهـدي انطلق علماء المسلمين في دراسة الأديان للحوار والمناظرة مع مختلف أهـل الملـل والنّحل داعين إلى الله ومدافعين عن الحق ، فنشأ العلم المعروف بعلم الملـل ، وقـام بـدور الدفـاع عـن الدين الحق ، وإقامة الحجة على المخالفين ، وردع حجج

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٠٢ .

(٢) سورة النساء الآية: ١ .

(٣) سورة آل عمران الآية: ١٩ .

الخصوم وشبهات المبطلين . ولئن ضعف الدور الوظيفي لهذا العلم في عصور الجمود الفكري في العالم الإسلامي كغيره من العلوم ، فإن ذلك لا يعني انتهاء دوره ، فدوره قائم ما دام النّاس في أديان مختلفة ، وما دامت دعوة الحق قائمة كما لا يقلل قيمته بسبب ما لحق به من الفرق المبتدعة التي نهجت به نهجا يخالف نهج القرآن . وحاجة المسلمين لهذا العلم في العصر الحديث أشد من أي عصر **مضى للأسباب الآتية:**

١ – تميز العصر الحديث بثورته القوية في الاتصال والعلاقات ، وسرعة نقل الأفكار والآراء ، حتى صار العالم كأنه شبه قرية ، مما أدى إلى زيادة الاحتكاك بين أتباع الأديان المختلفة والصّراع بين الثّقافات والحضارات الأمر الذي يدعو إلى أن يعرف كل طرف على ديانة خصومه وثقافتهم ليواجههم على علم وبصيرة .

٢ – أن علم الملل – علم مقارنة الأديان عند الغرب – صار في العصر الحديث من أهم العلوم التي أولاها الغرب اهتمامه ، فلا تكاد تخلو جامعة من جامعاته بدراسته[١] .

والغرض من دراسة الأديان خاصة الإسلام – في غالب الأمر – هو التوظيف لصالح أهدافه بل نجد من شدة اهتمامه أنه أسس لذلك مراكز للبحوث والدراسات ، ووضع تحت تصرفها من الإمكانات المادية والمبتكرات العلمية والاختصاصات الدراسية ما يمكنه من تحقيق أهدافه . . ففي القارة الأمريكية وحدها حوالي تسعة آلاف مركز للبحوث والدراسات منها حوالي خمسين مركزا مختصا بالعالم الإسلامي ووظيفة هذه المراكز تتبع كلّ ما يجري في العالم ورصده ، ثم دراسته وتحليله مقارنا مع أصوله التاريخية ، ومنابعه العقدية ثم مناقشة ذلك مع صانعي القرار السّياسي ومن ثم تبنى على أساس تلك الخطط والاستراتيجيات وتحدد وسائل التنفيذ[٢] . ولا يخفى على أحد ما للبعد الديني من تأثير في العلاقات الدولية المعاصرة و في القرارات السّياسية .

٣ – كثرة الحوارات واللقاءات بين أتباع الأديان في العصر الحديث ودعوة غير المسلمين إلى هذه الحوارات ومحاولتهم استغلال تلك اللقاءات .

---

(١) انظر: المدخل لدراسة الأديان ، د . محمد سيد أحمد المسير ص ٢٠٣ .

(٢) انظر: مقدمة ، د . عمر عبيد حسنة لكتاب الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، د . محمود حمدي زقزوق ص ٨ .

٤ – علم مقارنة الأديان هو أنسب علم يروج الأعداء من خلاله التشكيك والتشويه على الدين الحق، وقد فعلوا ذلك حيث روجوا من خلال هذا العلم أفكارا هدامة كالتقريب بين الأديان وفكرة التطور الديني.

كلّ هذه الأسباب تجعل هذا العلم أحد أهم مجالات التحدي الخارجي للإسلام ورغم أهمية هذا العلم وخطورته في مجال التحدي يجد الملاحظ لواقع هذا العلم في العالم الإسلامي في العصر الرّاهن أنه لم يأخذ من اهتمام المسلمين مكانه المناسب، ولقد لفت نظري أهمية هذا العلم وتوفر دواعي دراسته في العصر الرّاهن أيام دراستي في كلية أصول الدين بالرّياض - لا سيما في السّنة المنهجية - ورغم إشارة كثير من الباحثين على أهمية هذا العلم إلا أني لم أقف على بحث علمي عني بذكر أهميته في العصر الحديث والضّوابط الشرعية لدراسته، فعقدت العزم على بحث هذا الموضوع واستعنت بالله، قاصدا بيان مشروعية دراسته وضوابطها الشرعية مع بيان دواعي دراسته في العصر الرّاهن وقررت بعد الاستشارة أن يكون عنوان البحث: "علم الملل أهميته وضوابطه الشرعية".

وقد اشتملت خطة البحث على المقدمة العامة ثم تمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة.

أما المقدمة ففيها بيان أهمية الموضوع وسبب اختياره وعرض لخطة البحث.

أما التمهيد فيتضمن **على ثلاثة مباحث:**

الأول: تعريف علم الملل وتحديد مصطلحا ته، وقد عرفت فيه المصطلحات التالية:

الملة، الدين، النّحلة، المذهب، وبينت العلاقة بين تلك المصطلحات.

الثّاني: صلة علم الملل بعلم التوحيد "علم الكلام" ويتضمن تعريف علم التوحيد والعلاقة بينه وبين علم الملل.

الثّالث: صلة علم الملل بالفلسفة ويتضمن تعريف الفلسفة وموقف علماء المسلمين منها وبيان العلاقة بين الدين والفلسفة.

أما الباب الأول فبعنوان: مشروعية دراسة علم الملل وأهدافها الشرعية ، **وفيه تمهيد وأربعة فصول.**

أما التمهيد فقد ذكرت فيه الأسباب التي أدت إلى عزوف بعض طلاب العلم عن هذا العلم .

الفصل الأول: دلالة القرآن على مشروعية علم الملل **وفيه ثلاثة مباحث:**

الأول: الأديان في عهد النّبي ﷺ ، وهي: اليهودية ، والنّصرانية ، والمجوسية ، والصّابئة ، والمشركين ، وذكرت سبب تخصيص القرآن على تلك الأديان بالذكر دون الأخرى .

الثّاني: المنطلقات وهي عبارة عن أسس مستنبطة من القرآن ينبغي الانطلاق منها في مجال دراسة الأديان .

الثّالث: دلالة منهج القرآن في جدال الخصوم على مشروعية علم الملل وفي هذا المبحث ذكرت مسالك القرآن في جدال أتباع الملل المختلفة .

الفصل الثّاني: دلالة السّنة على مشروعية علم الملل وفيه مبحثان:

الأول: منطلقات دعوة النّبي ﷺ ودلالتها على مشروعية علم الملل .

الثّاني: اشتمال السّنة على مباحث علم الملل .

الفصل الثّالث: الأدلة من مواقف الصّحابة والسّلف على مشروعية علم الملل .

الفصل الرّابع: الأهداف الشرعية لدراسة الملل .

أما الباب الثّاني فبعنوان: مناهج العلماء في دراسة الملل وفيه تمهيد وفصلان:

أما التمهيد: فيتضمن عرضا موجزا لعوامل تدوين علم الملل عند علماء المسلمين ومراحله .

الفصل الأول: منهج علماء أهل السّنة في دراسة الملل **وفيه مبحثان:**

الأول: الأسس المنهية لدراسة الملل عند أهل السّنة وفيه عرضت مصادر

الاستدلال في دراسة الملل عند أهل السّنة ومنهجهم في الاستدلال ، كما بينت خصائص منهجهم .

المبحث الثّاني: الضّوابط الشرعية لدراسة الملل عند أهل السّنة وفيه سبعة ضوابط .

الفصل الثّاني: مناهج المخالفين لأهل السّنة في دراسة الملل ونقدها **وفيه مبحثان:**

الأول: اتجاهات المخالفين وأصنافهم .

الثّاني: الأسس المنهجية لدراسة الملل عند المخالفين ونقدها وعرضت فيه القواعد المنهجية عند علماء الكلام .

أما الباب الثّالث فبعنوان: دراسات الملل في العصر الحديث وتقويمها وفيه مقدمة وستة فصول:

الفصل الأول: دراسة الملل في العالم الإسلامي **وفيه مبحثان:**

الأول: دراسة الملل في المؤسسات العلمية وتقويمها .

الثّاني: الجهود الفردية لدراسة الملل وتقويمها .

الفصل الثّاني: دراسة الملل في الغرب وتقويمها **وفيه مبحثان:**

الأول: نشأة دراسة علم الملل في الغرب أسبابها وأهدافها .

الثّاني: منهج المستشرقين في دراسة الملل وتقويمه .

الفصل الثّالث: فكرة التقريب بين الأديان وصلتها بعلم الملل **وفيه ثلاثة مباحث:**

الأول: الجذور القديمة لفكرة التقريب بين الأديان .

الثّاني: فكرة التقريب بين الأديان في العصر الحديث .

الثّالث: نقد فكرة التقريب بين الأديان وبيان خطرها .

الفصل الرّابع: فكرة التطور الديني وصلتها بعلم الملل **وفيه خمسة مباحث:**

الأول: حقيقة التطور الديني .

الثّاني: آراء الباحثين الغربيين في مسألة التطور الديني .

الثّالث: آثار فكرة التطور الديني .

الرّابع: العالم الإسلامي وفكرة التطور الديني .

الخامس: نقد فكرة التطور الديني .

الفصل الخامس: الغزو الفكري وصلته بعلم الملل **وفيه مبحثان:**

الأول: الغزو الفكري المعاصر ويشتمل على عدة مطالب .

الثّاني: صلة الغزو الفكري بعلم الملل .

الفصل السّادس: صلة علم الملل بالسّياسة **وفيه ثلاثة مباحث:**

الأول: السّياسة في الأديان السّماوية .

الثّاني: السّياسة والدين في المجتمعات المعاصرة .

ثـم ذيلـت البحـث بسـت فهارس هى الآيات والأحاديث والآثار والأعلام وفهرس الملـل والمصـادر والمـراجع وكذلـك فهرس الموضوعات أبقيت الثلاث الأخيرة فقط لعدم إطالة الكتاب ، أما الخاتمة فقد تضمنت أهم نتائج البحث والمقترحات:

وقبل الختام أشير هنا إلى بعض الضوابط التي التزمت بها في البحث وهي كالآتي:

- عزوت الآيات إلى سورها وأرقام آياتها في الهامش .

- عـزوت الأحاديث والآثار ، ويكون ذلك بذكر الكتاب ثم الباب ثم رقم الحديث ثـم الجـزء والصـفحة ، هـذا في الكتـب الـتي التزمت بذكر هذه البيانات أما ما عداها فقد اكتفيت بما وجدت من البيانات .

- ترجمت لبعض الأعلام (ترجمة موجزة) إذا كانت الترجمة لها فائدة في الموضوع .

- بـيانات المـرجع أذكـرها كاملـة - غالـبا - في أول ورودهـا وتكون كالتالي: اسم الكتاب ، اسم المؤلف ، ثم اسم المحقق أو المصحح (إن وجد) والصفحة والجزء .

- اعـتمدت مسـند الإمـام أحمـد طـبعة دار إحـياء الـتراث العـربي واعـتمدت عـلى الترقـيم الخـاص بهـا للأحاديـث ، وكـتاب الجـواب الصـحيح طـبعة المدنـي

وطبعة دار العاصمة .

- في الختام أحمد الله تعالى وأشكره على ما منّ به عليّ من توفيق وتيسير في إنجاز هذا البحث ، وأرجو منه أن يجبر بما فيه من ضعف البشر .

كما أشكر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ممثلة في كلية أصول الدين قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة ، على ما تقدمه من خدمة للعلم وأهله فجزى الله القائمين عليها خير الجزاء . كما أشكر أستاذي الفاضل / المشرف على هذه الرّسالة: فضيلة الدكتور ناصر عبد الكريم العقل ، الذي بذل الكثير من وقته وراحته من أجل رفع مستوى هذه الرّسالة وقد أفدت من توجيهاته الكريمة ، وملاحظاته القيمة ، فجزاه الله خير الجزاء وأجزل له الثّواب إنه سميع قريب . كما أشكر كلّ من ساعدني في هذا العمل: أيا كانت هذه المساعدة ، فجزاهم الله خير الجزاء ، وضاعف مثوبتهم إنه كريم جواد ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وكتبه

أحمد عبد الله جود

* * * * *

المبحث الأول

مصطلحات علم الملل

لعلم الملل مصطلحات كثيرة يرى بعض الباحثين أنها مترادفة في معناها ومتطابقة في مضمونها، بينما يرى الآخرون أن بين تلك المصطلحات فروق كثيرة. ولا بد من تحديد مصطلحات الموضوع تحديداً دقيقاً وقاطعاً؛ لئلا يتطرق لبس إلى ما يرمى إليه ويقصد، من أهم ما تتطلبه البحوث؛ ولذا أقف وقفة اكتشافية مع مصطلحات "علم الملل" ومن أهمها: ١ - الملة[١]، ٢ - الدّين، ٣ - النحلة، ٤ - المذهب.

المطلب الأول: تعريف الملة:

الملة - بكسر الميم - في اللغة: السنة والطريقة[٢] تقول هذا طريق ممل أي لحب مسلوك وهي في الأصل من أمللت الكتاب بمعنى أمليته، وفي القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ ﴾[٣][٤]، ثم نقل إلى أصول الشرائع باعتبار أنها يمليها النبي ﷺ[٥].

وفي الاصطلاح: الملة: الشريعة والدّين، كملة الإسلام والنصرانية واليهودية. وقيل هي معظم الدّين، وجملة ما يجيء به الرسل[٦].

وهي اسم لما شرع الله لعباده بواسطة أنبيائه ليتوصلوا به إلى السعادة في الدّنيا والآخرة[٧] ويلاحظ على هذا التعريف؛ بأنه خاص بالملة الصحيحة، فلم تدخل فيه الملل الباطلة. والملة وردت في القرآن بإطلاق أعمّ وأشمل، من هذا التعريف؛ إذ جاء إطلاقها

---

(١) تقديم "الملة" هنا علي "الدّين" لا يعني أنها أشهر منه وإنما ذلك لكونها تدل على عنوان الرسالة.

(٢) انظر: لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ١١/ ٦٣١.

(٣) سورة البقرة الآية: ٢٨٢.

(٤) انظر: المفردات في غريب ألفاظ القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ص ٤٧٢.

(٥) انظر: موسوعة اصطلاحات العلوم الإسلامية (كشاف اصطلاحات الفنون) للمولوي محمد أعلى بن علي التهانوي ٦/ ١٣٣٦.

(٦) انظر: لسان العرب ١١/ ٦٣١، المعجم الوسيط ص٨٩٤، مجمع اللغة العربية - القاهرة، قام بإخراجه إبراهيم مصطفى وزملاؤه بإشراف عبد السلام هارون.

(٧) انظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٤٧١.

على الديانة الصحيحة كما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ ﴾[٢] كما ورد إطلاقها على الديانة الباطلة في مثل قوله تعالى: ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾[٤] . وعلى هذا فالملة هي الديانة سواء كانت صحيحة أم باطلة .

تعريف علم الملل باعتباره لقباً على العلم المدون: "لم أجد تعريفاً علمياً تحت مصطلح "علم الملل" باعتباره لقباً على الفن المستقل ، وإنما وجدته تحت مصطلحات ؛ "تاريخ الأديان" و"مقارنة الأديان" و"علم الأديان" وبما أن هذين المصطلحين "الملة" و "الدين" مترادفان في هذا الفن ، فإنه يمكن تعريف "علم الملل" بما ورد تحت تلك المصطلحات . يذكر الباحثون بأن "علم الأديان" يشتمل على ثلاثة مباحث[٥]:

المبحث الأول: تاريخ الأديان: وهي تلك الدراسات الوصفية ، التحليلية الخاصة بملة ملة ، وهي التي يمكن أن تعرفنا نشأة ديانة ما ، وحياة مؤسسها . . . وأسباب انتشارها وألوان تطورها[٦] .

المبحث الثاني: الأسس والمبادئ: وهي ما يسميه المعاصرون بفلسفة الأديان[٧] ، ويدرس في هذا المبحث العلاقات بين الأسس التي تستند إليها الأديان المختلفة ، من عقيدة وعبادة وشريعة وأخلاق ومعاملات ، والغايات التي تهدف إليها[٨] ، ومن أهم الموضوعات في هذا المبحث موضوع الألوهية .

---

(١) سورة الحج الآية: ٧٨ .

(٢) سورة يوسف الآية: ٣٨ .

(٣) سورة يوسف الآية: ٣٧ .

(٤) سورة الكهف الآية: ٢٠ .

(٥) اليهودية والمسيحية د . محمد ضياء الرحمن الأعظمي ص ١٦ ، الأديان دراسة تاريخية مقارنة - القسم الأول - د . رشدي عليان وسعدون الساموك ص ١٨ .

(٦) الدّين د . محمد عبد الله دراز ص٢٤ ، دار القلم ، الكويت ، ط الثانية ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م .

(٧) انظر: تاريخ الأديان وفلسفتها ، لطه الهاشمي ص ١٧ . اليهودية والمسيحية للأعظمي ص ١٧ .

(٨) الأديان دراسة تاريخية مقارنة - القسم الأول - ص ١٨ ، اليهودية والمسيحية للأعظمي ص ١٧ .

المبحث الثالث: مقارنة الأديان: ويدرس فيه خصائص ومميزات كل دين، ويوازن بينها وبين خصائص ومميزات الأديان الأخرى[١].

وهذه التقسيمات وتلك المصطلحات ظهرت في الغرب عندما بدأ اهتمامه بهذا العلم في الجامعات ومراكز البحوث، ثم انتقلت إلى العالم الإسلامي، لكن إذا نظرنا من الوجهة الشرعية الإسلامية؛ فإن أي دراسة للأديان لابد أن تتضمن تلك الأبحاث مجتمعة، إذ لا يجوز دراسة تاريخ الأديان مستقلة لغرض المعرفة فقط، كما لا تصح مقارنة الأديان بدون نقدها وتمييز الحق فيها عن الباطل، إذاً فالأبحاث الثلاثة متلازمة. والآن يمكن أن نستنتج مما سبق تعريفا "لعلم الملل" فنقول: هو علم يبحث في الملل من حيث منشأها، وتطورها وانتشارها، وأتباعها، وفي العقائد، والأصول التي ترتكز عليها الملل المختلفة، وفي أوجه الاختلاف والاتفاق فيما بينها مع المقارنة والمناقشة والرد[٢] وعرف (ا، رويستون بيك) **Roystonte pike**، علم الأديان أو تاريخ الأديان بقوله: «إنه دراسة علمية وموضوعية، تتناول ديانات العالم الماضية والحاضرة، وهذه الدراسة تتوخى دراسة الديانات في ذاتها، واكتشاف ما يقوم بينها من نقاط تشابه واختلاف، واستخلاص مفهوم الدين بوجه عام، عبر ذلك، وإيضاح السمات المميزة للشعور الديني»[٣]، وهذا التعريف الأخير يتناسب مع مفهوم الغرب لدراسة الأديان المبني بما يسمى بالمنهج التجردي أو ما يسمى بـ"فينومنولوجيا الدين"[٤].

أما بالنسبة للمنهج الشرعي الذي يجب أن يدرس على ضوئه الأديان، فيعتبر ناقصاً، إذ ليس فيه ما يدل على أن هدف الدراسة معرفة الحق من الباطل.

---

(١) انظر: الأديان دراسة تاريخية مقارنة - القسم الأول - ص ١٨.

(٢) انظر: الأديان دراسة تاريخية مقارنة - القسم الأول - ص ١٨.

(٣) علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي للمستشرق جيب، ومقدمة ترجمة د. عادل العوّا ص ٥.

(٤) الفينومنولوجيا" معناه علم الظواهر، أو المنهج المؤدي إلى فهم الجواهر الموضوعية المطلقة والمعاني المثالية.. انطلاقاً من واقع التجربة.." انظر: قاموس المصطلحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية د. سامي دبيان وآخرين ص ٣٥٥، الريس للكتب والنشر - لندن والرياض ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ويعني "فينولوجيا الدّين" دراسة الدّين دون مؤثرات سابقة وهو مايعنونه بالمنهج التجردي، وهو مخالف للمنهج الصحيح في دراسة الأديان.

المطلب الثاني: تعريف الدين لغة:

يطلق كلمة الدين في اللغة العربية على معان كثيرة، بل يعد «من أعمر الكلمات وأثراها بالمعاني المتعددة والمتنوعة»[١]. فقد جاء في القاموس «أن الدين الجزاء، والإسلام، والعادة، والعبادة، والطاعة، والذل، والداء، والحساب، والقهر، والغلبة، والاستعلاء والسلطان، والملك، والحكم، والسيرة، والتذبير، والتوحيد، واسم لجميع ما يتعبد اللّه عز وجلّ به، والملة، والورع، والمعصية، والإكراه...»[٢].

وقال ابن فارس: «الدال والياء والنون أصل واحد، إليه يرجع فروعه كلها، وهو جنس من الانقياد والذل، فالدين الطاعة، يقال: دان له يدين ديناً، إذا أصحب وانقاد وأطاع، قوم دين أي مطيعون...»[٣].

وعند التأمل في هذه المعاني الكثيرة لكلمة الدين، يظهر لنا أن بعضها يحمل في طياته علاقة التضاد مع البعض الآخر، بيد أن الدكتور "محمد عبد الله دراز" ذكر حل هذا الإشكال في كتابه "الدين" حيث قال: «والواقع أننا إذا نظرنا في اشتقاق هذه الكلمة ووجه تعريفها نرى من وراء هذا الاختلاف الظاهر تقاربا شديداً، بل صلة تامة في جوهر المعنى، إذ نجد أن هذه المعاني الكثيرة تعود في نهاية الأمر إلي ثلاثة معان تكاد تكون متلازمة، بل نجد أن هذا التفاوت اليسير بين هذه المعاني الثلاثة مرده في الحقيقة إلى أن الكلمة... ليست كلمة واحدة، بل ثلاث كلمات، أو بعبارة أدق أنها تتضمن ثلاثة أفعال بالتناوب وبيانه أن كلمة "الدين" تؤخذ من فعل متعد بنفسه "دانه يدينه" وتارة من فعل متعد باللام "دان له" وتارة من فعل متعد بالباء "دان به" وباختلاف الاشتقاق تختلف الصورة المعنوية التي تعطيها الصيغة)[٤]. ثم بين الدكتور "دراز" تلك الحالات الثلاث ومعانيها بقوله:

١ - فإذا قلنا: "دانه يدينه" عنينا بذلك أنه أملكه، وحكمه، وساسه، ودبره،

---

(١) الإنسان والأديان محمد كمال جعفر ص١٥، دار الثقافة، الدوحة، ط الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.
(٢) القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ص ١٥٤٦.
(٣) معجم مقاييس اللغة لأبي الحسن أحمد بن فارس ٢/ ٣١٩، دار الفكر ١٣٩٩هـ.
(٤) الدّين دراز ص ٣٠.

وقهره، وحاسبه، وقضى في شأنه، وجازاه، وكافأه. فالدين في هذا الاستعمال يدور على معنى الملك، والتصرف بما هو شأن الملوك من السياسة والتدبير، والحكم، والقهر، والمحاسبة، والمجازاة. ومن ذلك ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾[١]، أي يوم المحاسبة والجزاء وفي الحديث «الكيس من دان نفسه»[٢] أي حكمها وضبطها. والديان الحكم القاضي.

٢ - وإذا قلنا "دان له" أردنا أنه أطاعه، وخضع له. فالدين هنا هو الخضوع والطاعة والعبادة، والورع. وكلمة الدّين "الدّين لله" يصح أن منها كلا المعنيين الحكم لله، أو الخضوع لله. وواضح أن هذا المعنى الثاني ملازم للأول ومطاوع له. "دانه فدان له" أي قهر على الطاعة فخضع وأطاع.

٣ - وإذا قلنا "دان بالشيء" كان معناه أنه اتخذه ديناً ومذهباً أي اعتقده أو اعتاده أو تخلّق به، فالدّين على هذا هو المذهب والطريقة، التي يسير عليها المرء نظرياً أو عملياً. فالمذهب العملي لكل امرئ هو عادته وسيرته كما يقال: "هذا ديني وديدني" والمذهب النظري هو عقيدته ورأيه الذي يعتنقه ومن ذلك قولهم "دنيت الرجل. أي وكلته إلى دينه، ولم أعترض عليه فيما يراه سائغاً في اعتقاده[٣]. ثم بيّن أن الاستعمال خاضع للاستعمالين السابقين. فقال: «ولا يخفى أن هذا الاستعمال تابع أيضا للاستعمالين قبله؛ لأن العادة، أو العقيدة، التي يدان بها لها من السلطان على صاحبها، ما يجعله ينقاد لها، ويلتزم اتباعها»[٤].

معنى " الدّين " في القرآن الكريم: وردت لكلمة "الدّين" في القرآن الكريم بصيغة "الدّين" في (٦٢) مرة[٥] وعند تأمل معناها نجد أنها وردت في المعاني السّابقة الواردة في معاجم اللغة والتي أرجعها الدكتور "دراز" إلى المعاني الثّلاثة السّالفة الذّكر. ثم نجد أبا

---

(١) سورة الفاتحة الآية: ٤.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٥/ ١٠٥، والترمذي الحديث رقم ٢٥٧٧، وقال حديث حسن. انظر: تحفة الأحوذي لأبي العلا محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، ٧/ ١٣٢. وابن ماجه الحديث رقم ٤٢٦٠، ٢/ ١٤٢٣، صححه ورقمه محمد فؤاد عبد الباقي، وهو حديث ضعيف آفته أبو بكر بن أبي مريم الراوي عن شداد بن أوس، وضعفه الشيخ الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع الصغير، الحديث رقم ٤٣١٠.

(٣) الدين: دراز ص ٣٠ - ٣١

(٤) المصدر السابق ص٣٠

(٥) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدا لباقي: ٣٤٠ - ٣٤١.

الأعلى المودودي - رحمه الله تعالى - قد لخص المعاني اللغوية لكمة "الدين" بأربعة معان وهي:

١ - القهر، والسلطة، والحكم، والأمر، والإكراه على الطاعة، واستخدام القوة القاهرة فوقه، وجعله عبداً مطيعاً.

٢ - الطاعة والعبدية، والخدمة والتسخر، لأحد، والائتمار بأمر أحد، وقبول الذلة والخضوع تحت غلبته وقهره.

٣ - الشرع، والقانون، والطريقة، والمذهب، والملة، والعادة، والتقليد.

٤ - الجزاء، والمكافأة، والقضاء، والحساب[1]، وبعد ذكره لهذه المعاني ذكر أن كلمة "الدين" جاءت في القرآن الكريم على تلك المعاني.

١ - فالدين بالمعنيين الأول والثاني: جاء في قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاء بِنَاء وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ * أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾[3].

٢ - والدين بالمعنى الثالث: جاء في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[5].

٣ - والدّين بالمعنى الرابع: جاء في قوله: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ

---

(١) انظر: المصطلحات الأربعة في القرآن، لأبي الأعلى المودودي: ١٠٧ - ١١٨.

(٢) سورة غافر الآية: ٦٤ - ٦٥.

(٣) سورة الزمر الآية: ٢ - ٣.

(٤) سورة يونس الآية: ١٠٤ - ١٠٥.

(٥) سورة الروم الآية: ٣٠.

لَوَاقِـعٌ ﴾[١] وقولـه تعالى: ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾[٢] ثـم أعقب على ذلك - المودودي - استعمالاً آخر لكلمة "الدّين" وهـو أنهـا وردت بمعنى أشمل يراد به نظام الحياة كلها سواء كان ذلك ما يتعلق بالجوانب العقديـة أو الفكـرية أو الخلقـية . وأورد آيـات كـثيرة في هـذا المعـنى ، مـنها قولـه تعـالى: ﴿ قَـاتِلُواْ الَّذِيـنَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾[٣] وقولـه تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ ﴾[٤] . وقولـه تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِـنْهُ وَهُـوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[٥][٦] ومـن هـذا المفهوم اللغوي يتضح لنا أن كلمة "الدّين" تطلق ما عليه الإنسان من عقائد وشرائع سواء كان ذلك حقاً أم باطلاً .

تعريف الدّين اصطلاحاً: تباينت آراء الباحثين في تعريف الدّين اصطلاحاً ما بين مقتصر ومطول ومن أهم هذه التعريفات:

١ - الدّين هو "ما شرعه الله تعالى على لسان نبيه من الأحكام"[٧] .

٢ - وعـرف الجـرجاني الدّين بقولـه: "وضع إلهي يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند الرسول الله ﷺ"[٨]

٣ - وعـرّفه الـتهانوي بقولــه: " وضـع إلهـي سائق لذوي العقول باختيارهم إيّاه إلى الصلاح في الحال والفلاح في المآل"[٩] .

٤ - وعـرّفه أبـو الـبقاء بأنـه " وضـع إلهي سائق لذويَ العقول باختيارهم المحمود إلى

---

(١) سورة الذاريات الآية: ٥ - ٦ .
(٢) سورة الماعون الآية: ١ - ٣ .
(٣) سورة التوبة الآية: ٢٩ .
(٤) سورة آل عمران الآية: ١٩
(٥) سورة آل عمران الآية: ٨٥
(٦) المصطلحات الأربعة في القرآن ص ١١٨ - ١٢٠ ،
(٧) حاشية البيجوري على جوهرة التوحيد ، شيخ إبراهيم البيجور المسمات بتحفة المريد على جوهرة التوحيد ص ١٢ .
(٨) التعريفات ، للشريف علي بن محمد الجرجاني ، ص ١٠٥ .
(٩) كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ٢/ ٥٠٣ .

الخير بالذات قلبياً كان أو قالبياً كالاعتقاد والعلم والصلاة[١].

٥ - أما الدكتور محمد دراز فقد عرّف الدين بقوله: "هو الاعتقاد بوجود ذات - أو ذوات - غيبية علوية لها شعور واختيار ولها تصرف وتدبير للشؤون الّتي تعني الإنسان، اعتقاد من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية في رغبة ورهبة، وفي خضوع وتمجيد" ثمّ أوجز هذا التعبير بقوله: هو «الإيمان بذات إلهية جديرة بالطاعة والعبادة»[٢]

وهذا التعريف إذا نظرنا إلى الدين من حيث كونه حالة نفسية وهي "التدين" أما باعتباره حقيقة خارجة، فقد عرّفه بقوله: «هو جملة النواميس الّتي تحدد صفات تلك القوة الإلهية، وجملة القواعد العملية الّتي ترسم طريق عبادتها»[٣].

وهذه التعريفات غير شاملة وجامعة لتعريف الدين؛ إذ التعريفات الأربعة الأول تناولت تعريف الدين الذي مصدره من الله وهو الدين الحق فخرج منها الدين الباطل. أما التعريف الأخير فقد تناول الدين بمفهومه العام. وقد اعترض الدكتور رؤوف شلبي هذا التعريف، وذكر[٤] أن الآيات الّتي استدل بها الدكتور محمد دراز على تعريفه هذا، قد فرقت بين الدين الحق والدين الباطل وصوّب رأي الذين ذهبوا إلى التفريق كالشيخ مصطفى عبد الرازق في كتابه "الدين والوحي والإسلام" حيث قال فيه: «ولئن كان القرآن قد استعمل لفظ دين بهذا المعنى الشامل كما تدل عليه تسمية "نحل" المشركين أدياناً في قوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[٥] فإن القرآن قرر في أمر الدين أصولاً جعلت للدين معنى شرعياً خاصاً»[٦]

والصحيح في هذا الأمر أن للدين تعريفين تعريف عام ينطبق على جميع الأديان، وتعريف خاص بمفهوم الدين في الإسلام.

فالدين في التعريف العام: هو كل ما يعتقده الإنسان وينهجه في حياته العلمية

---

(١) الكليات، لأبي البقاء الحسني الكفوي ص ٣٢٧.

(٢) الدّين دراز ص٥٢.

(٣) المصدر السابق ص ٥٢.

(٤) انظر: الكتاب يا أهل الكتاب تعالوا د. رؤوف شلبي.

(٥) سورة الكافرون الآية: ٦.

(٦) الدين والوحي والإسلام، لمصطفى عبد الرازق ص ٢٩.

والعملية وفي التعريف الخاص: هو التصديق والاعتقاد بما جاء من عند الله تعالى واتخاذه منهجا للحياة . وهذا التعريف هو المراد عند إطلاق الدين في الإسلام

وبالنظر إلى هذين التعريفين يمكن الجمع بين الرأيين فالرأي الأول الذي قصر تعريفه للدين بالدين الحق نظر إلى المفهوم الخاص للدين ، بينما نظر الرأي الثاني إلى المفهوم العام للدين .

الفرق بين الدين والملة: يطلق كلاً من الملة والدين على المعتقدات الصحيحة والباطلة ، ويستعمل الملة مكان الدين كما يستعمل الدين مكان الملة . وبناءً على ذلك فلا فرق بينهما ، لكن بعض العلماء ، ذكروا فروقاً بين الكلمتين . ومن هؤلاء الجرجاني الذي قال: «الدين والملة متحدان بالذات ومختلفان بالاعتبار ، فإن الشريعة من حيث إنها تطاع تسمى ديناً ، ومن حيث أنها تجمع تسمى ملة ، ومن حيث إنها يرجع إليها تسمى مذهباً .

وقيل: الفرق بين الدين والملة والمذاهب أن الدين[١] منسوب إلى الله تعالى ، والملة منسوبة إلى الرسول ، والمذهب منسوب إلى المجتهد»[٢] .

أما الراغب الأصفهاني فقد اعتبر الفرق بين الدين والملة من وجهين:

الأول: من حيث الاشتقاق فالدين إذا اعتبر بمغزاه ومنهاه فهو الجزاء كما قيل: «كما تدين تدان»[٣] والدين يضاف تارة إلى الله عز وجل ، وتارة إلى العبد ، كما تضاف الطاعة والجزاء إليهما ، وأما الملة فمن أمللت الكتاب أي أمليته ولا يضاف إلا إلى الإمام - أو الجماعة - الذي يسند إليه نحو ملة إبراهيم وملة موسى . ولا يكاد يوجد مضافاً إلى الله عز وجل ولا إلى آحاد أمة النبي ﷺ ، فلا يقال: ملة الله ولا ملتي ولا ملة زيد كما يقال: دين الله وديني ودين زيد .

الثاني: أن الدين يقال: بكل واحد من الاعتقاد والقول والفعل أنه دين الله ولا يقال:

---

(١) هذا لا يمنع أن ينسب الدين إلى رسول الله ﷺ .

(٢) التعريفات للجرجاني ص ١٠٥ ، ١٠٦

(٣) ذكر ابن حجر أنه من كلام أبي عبيدة ثم قال وقد ورد هذا في حديث مرفوع أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن أبي قلابة عن النبي ﷺ وأنه مرسل رجاله ثقات ، وروى عبد الرزاق بهذا الإسناد عن أبي قلابة عن أبي درداء موقوفا . . لكن له شاهد موصول من حديث ابن عمر أخرجه ابن عدي وضعفه ، انظر: فتح الباري ٨/ ١٥٦ ، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة الحديث رقم ١٥٧٦ ، ٤/ ٧٧ .

ملة إلا باجتماع ذلك كله . . .»[1] .

المطلب الثالث: النحلة:

في اللغة: الدعوى يقال: انتحل فلان شعر فلان أو قول فلان إذا ادعاه أنه قائله، ويقال: فلان ينتحل مذهب كذا وقبيلة كذا إذا انتسب إليه . .

وفلان ينتحل كذا وكذا أي يتدين به[2] . وفي الكشاف أن النحلة بمعنى العطاء، وقيل إنها الملة[3] . وذكر الراغب أن النحلة عطية على سبيل التبرع وهو أخصّ من الهبة إذ كل هبة نحلة وليس كل نحلة هبة[4] ، وجاء في المعجم الوسيط: أن النحلة: «العطاء، والفرض، والدين، والعقيدة .»[5] فالنحلة تدور في اللغة العربية حول معاني: "العطاء، الفريضة، الدين، والملة . وعلى هذا فالنحلة مرادفة لكلمتي الدين والملة . ولكن المشهور عند علماء الملل والنحل أن النحلة أخصّ من الملة والدين، فالنحلة تطلق على العقائد والآراء الباطلة التي ليس لها حقيقة وتنتحلها فرقة من الفرق، بينما يطلق الملة والدين على معتقدات جماعة لها دين صحيحا كان أم باطلا كدين المسلمين ودين اليهود . وهذا هو ما سار عليه كثير من علماء الملل والنحل كالشهرستاني حيث ذكر في بيانه لتقسيم أهل العالم أنهم منقسمون بالقسمة الصحيحة إلى أهل الديانات والملل، وأهل الأهواء»[6] . ولابن حزم: فهم آخر لمعنى النحلة حيث يرى أن من النحل ما هو حق وهي نحلة أهل السنة والجماعة فيقول في هذا المعنى: «قال أبو محمد: قد أكملنا ولله الحمد كثيرا الكلام على الملل المخالفة لدين الإسلام الذي هو دين الله تعالى على عباده الذي لا دين له في الأرض غيره إلى يوم القيامة . . .» إلى أن قال: «فلنبدأ الآن بعون الله وتأييده في ذكر نحل المسلمين، وافتراقهم فيها وإيراد ما شغب به من شغب منهم فيما غلط في شيء من نحلته، وإيراد البراهين الضرورية على إيضاح نحلة الحق من تلك النحل، كما

---

(١) الاعتقادات لأبي القاسم الحسين بن محمد تحقيق د . شمران بن العجلي ص ١٠٧ - ١٠٨ دار الأشرف - بيروت .

(٢) انظر: لسان العرب ١١/ ٦٥٠ - ٦٥١ .

(٣) الكشاف، لأبي القاسم محمود عمر الزمخشري ١/ ٢٤٦ .

(٤) المفردات لراغب الأصفهاني ص٤٨٥ .

(٥) المعجم الوسيط ٢/ ٩٠٧ .

(٦) الملل والنحل لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني تحقيق عبد العزيز الوكيل ص ٣٦ .

فعلنا في الملل»[١].

ولعل ابن حزم - رحمه الله - يستعمل مصطلح "النحلة" هنا بمعنى "الفرقة" إذ تطلق النحلة على الفرق وعلى الأفكار وبما أن الفرق لم تطلق عليها اسم النحلة إلا لكونها انتحلت أهواءً وأفكاراً ليس لها أساس من الصحة فإن إطلاق هذا الاسم على أهل الحق مجانب للصواب. والله أعلم.

تعريف النحلة اصطلاحاً: النحلة في مفهومها الاصطلاحي: هي الأهواء والآراء والمعتقدات الّتي تنحلها جماعة ليس لها دين، كالفلاسفة والدهرية[٢].

المطلب الرابع: المذهب:

المذهب في اللغة: الطريقة والمعتقد الذي يذهب إليه[٣].

والمذهب اصطلاحاً: هو مجموعة من الآراء والنظريات العلمية والفلسفية ارتبط بعضها ببعض ارتباطاً يجعلها وحدة منسقة[٤]. إذاً المذاهب هي الآراء الشخصية وقد تكون حقاً كمذاهب الأئمة الأربعة في الفروع وقد تكون غير حق كما في مناهج المخالفين المنحرفين. وهو أخص مما سبق من المصطلحات حيث يمثل منحى خاصا لبعض الباحثين في إطار دين معين وبعد هذا الاستعراض نلخص بما يلي:

١ - الدين والملة بمعنى واحد ويمثل الأديان مطلقاً.

٢ - الدين والملة أعم من النحلة حيث تمثل النحلة الأهواء الباطلة وأصحابها.

٣ - المذهب أخصّ من الدين والملة والنحلة إذ يمثل على فكر خاص أو نهج معين يذهب إليه بعض الأشخاص.

* * * * *

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري، تحقيق د. محمد نصر ود. عبد الرحمن عميرة ٢/ ٢٦٣.

(٢) انظر: الملل والنحل ص ١١

(٣) المعجم الوسيط ١/ ٣١٧

(٤) المصدر السابق ١/ ٣١٧.

المبحث الثاني
صلة علم الملل بعلم التوحيد

مما لم يتحدد عند كثير من الباحثين علاقة علم الملل بعلم التوحيد ففي حين يرى بعضهم أنهما علمان منفصلان لا صلة بينهما يرى آخرون أن بين العلمين علاقة تجعلها كالعلم الواحد. وقد أدّى هذا الغموض وعدم التحديد مكانة علم الملل من علم العقيدة إلى عدم اهتمام كثير لهذا العلم، وإلى تشتت تصنيف كتب الملل في المكتبات، فإنك تجد كتب الملل في قسم العقائد.

والفرق وفي قسم الأديان كما تجد بعضها في أقسام الفلسفة والثقافة العامة أو الثقافة الإسلامية.

ولكي نعرف الصلة الحقيقية بين هذين العلمين فلا بد من تعريفهما وتحديد موضوعهما وغايتهما، وقد سبق تعريف علم الملل. أما تعريف علم الملل فهو الآتي.

المطلب الأول: تعريف علم التوحيد في اللغة:

قال ابن فارس: «وحد: الواو والحاء والدال أصل واحد يدل على الانفراد»[١].

وقال الراغب الأصفهاني: «الوحدة: الانفراد، والواحد في الحقيقة: هو الشيء الذي لا جزء له البتة، ثمّ يطلق على كل شيء موجود حتى أنه ما من عدد إلاّ ويصح أن يوصف به فيقال عشرة واحدة، ومئة واحدة، وألف واحد، فالواحد لفظ مشترك..»[٢]، وجاء في لسان العرب: والتوحيد الإيمان بالله وحده لا شريك له. وأنه الواحد الأحد، قال ابن سيده: والله الأحد، والمتوحد وذو الوحدانية ومن صفاته الواحد الأحد. والفرق بينهما كما قال أبو المنصور الأزهري وغيره إن "الأحد" بني لنفي ما يذكر معه من العدد تقول: ما جاءني أحد و"الواحد" اسم بني لمفتتح العدد، تقول: جاءني واحد من الناس، ولا تقول: جاءني أحد. فالواحد منفرد بالذات في عدم المثل والنظير والأحد منفرد بالمعنى... ولا يوصف شيء بالوحدانية غير الله تعالى فلا يقال: رجل أحد، كما يقال: رجل واحد أي فرد؛ لأن أحداً من صفات الله عز وجل الّتي استخلصها لنفسه ولا يشركه فيها شيء، ولا يجمع هذين الوصفين إلاّ الله عز وجل...[٣] إذاً

(١) معجم مقاييس اللغة ٦/ ٩٠
(٢) المفردات لراغب الأصفهاني ص ٥١٤
(٣) لسان العرب ٣/ ٣٥٠ - ٤٥١

التوحيد في اللغة: «الحكم بأن الشيء واحد، والعلم بأنه واحد»[١]

أمــا في الاصطلاح: فقـد اختلف الناس في تعريف التوحيد ومسماه عند أهل السنة يختلف عن مسماه عند المتكلمين الذين يقررون التوحيد في كتب الكلام.

وهو في الاصطلاح الشرعي: تفرد الله بالربوبية والإلهية والأسماء والصفات[٢].

قـال عبد الرحمن السعدي - رحمه الله -: «حد التوحيد الجامع لأنواعه هو اعتقاد العبد وإيمانـه بتفرد الرب بصفات الكمال وإفراده بأنواع العبادة»[٣]. أما علماء الكلام فقد عرفوه بتعريفات كثيرة فيها قصور حيث إنهم أهملوا توحيد الألوهية و من أهم هذه التعريفات:

١ - **تعــريف ابن خلدون:** أورد ابن خلدون في المقدمة بأنه «علم يتضمن الحجاج مـن العقـائد الإيمانـية بالأدلـة العقلـية والـرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات، عن مذاهب السلف وأهل السنة»[٤].

٢ - وجاء في غاية المرام في علم الكلام: "وأشرف العلوم، إنما هو العلم الملقب بعلم الكلام الباحث عن ذات واجب الوجود وصفاته، وأفعاله، ومتعلقاته"[٥].

٣ - وعـرفه الإيجي بقولــه: «هو الكلام الذي يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبهة»[٦].

٤ - أمـا محمـد بـن حسين الظواهري فقد عرف التوحيد بقولـه: «هو العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية، أو تقول: هو مسائل يبحث فيها عن وجود الواجب، وما يجب أن يثبـت لــه مـن الصـفات ومـا يجـب أن ينفى عنه، وما يجوز أن يوصف به منها، وما يـتوقف علـيه ذلك، عن الرسل من حيث رسالتهم، وما يجب اتصافهم به من الصفات، وما يجب نفيه عنهم منها، وما يجوز اتصافهم به منها»[٧].

---

(١) التعريفات للجرجاني ص ٦٩

(٢) علم التوحيد د. عبد العزيز بن الربيعة ص٢٩ - الرياض ط الأولى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

(٣) الفتاوى السعدية للشيخ عبد الرحمن ناصر السعدي ص ٧.

(٤) مقدمة ابن خلدون، لعبد الرحمن بن خلدون تحقيق حجر عاصي ص ٢٩٠.

(٥) غاية المرام في علم الكلام، لسيف الدين الآمدي تحقيق د حسن محمود عبد اللطيف الشافعي ص ٤.

(٦) المواقف في علم الكلام، لعبد الرحمن بن أحمد الإيجي ص ٧.

(٧) التحقيق التام في علم الكلام، لمحمد الحسن الظواهري ص ٢.

التوحيد بمعنى الفن المدون: أصل معنى التوحيد اعتقاد أن الله واحد لا شريك له[١] في ألوهيته وربوبيته وفي أسمائه وصفاته . لكن يتبين من التعريف السابق أن التوحيد صار مصطلحا يطلق على العلم الذي يبحث الجانب العقائدي من الدين المسمى عند علماء أهل السنة بالفقه الأكبر أو الإيمان أو السنة أو بعلم الشريعة أو علم العقيدة أو علم أصول الدين[٢] وتسمية هذا العلم بعلم التوحيد تسمية له بأهم أجزائه ، فهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل وهو إثبات وحدانية لله في العبادة و في الذات والفعل في خلقه الأكوان ، وأنه وحده مرجع كل كون ومنتهى كل قصد ، وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبي ﷺ كما تشهد آيات الكتاب العزيز[٣] إذاً فموضوع علم التوحيد: هو إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج النقلية والعقلية .

المطلب الثاني: غاية علم التوحيد:

لعلم التوحيد غاية عظيمة وثمرة جليلة في هذه الدنيا وفي الآخرة ، وغايته في الدنيا إفراد العبادة لله و صيانة عقيدة المسلم وحمايتها من جميع العوادي ، وأما ثمرته في الآخرة فهي النجاة من العذاب الهون ، وهذا ما ذكره الظواهري بقوله: «إحكام التصديق بحيث لا تزلزله شبه المبطلين ومنفعته في الدنيا انتظام أمر المعاش على الوجه الذي لا يؤدي إلى الفساد ، وفي الآخرة النجاة من العذاب المترتب على سوء الاعتقاد»[٤] . وإذا كان علم التوحيد يعنى فيه بحفظ العقائد الصحيحة ورد الأباطيل والشبهات ، فإن علم الملل يعنى بذلك أيضاً ومن ثم يمكن القول على هذا الاعتبار بأنهما علم واحد ولذا جعل كثير من الباحثين علم مقارنة الأديان فرعا من فروع علم الكلام ، فصحت دراسته في أقسام العقائد . لكن إذا نظرنا إلى أن علم الملل يشمل على العقائد وغيرها من جوانب الدين فإنه بهذا الاعتبار أعم من علم التوحيد فيكون علما مستقلا .

* * * *

---

(١) رسالة التوحيد ، لشيخ محمد عبده ص ٤ ، الناشر السيد محمد رشيد رضا .

(٢) انظر: مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية ، لعثمان جمعة ضميرية .

(٣) رسالة التوحيد ص ٨ .

(٤) التحقيق التام في علم الكلام ص ٢

المبحث الثالث

صلة علم الملل بالفلسفة

إن علاقة الدين بالفلسفة أمر اختلف فيه الباحثون في القديم والحديث، وقد أثير هذا الموضوع بين المسلمين، بعد أن دخلت الفلسفة اليونانية القديمة في العالم الإسلامي، واندمجت في كثير من العلوم الشرعية. فهبّ كثير من العلماء المسلمين في ردها وكشف حقيقتها، وأخرجوها من العلوم الشرعية، بل حرموا الاشتغال بها، لكن وجد من المسلمين من أعجب بها وسماها بـ"الحكمة" وقد ناسب عرض هذا المبحث في هذا المكان للأسباب الآتية:

١ - كون علم الملل والنحل من العلوم التي خالطت فيها الفلسفة إذ ذكر كثير من المصنفين في كتبهم مباحث من الفلسفة.

٢ - دخول الفلسفة في الأديان المحرفة والملل الوضعية.

٣ - كون كثير من الباحثين المعاصرين المهتمين بدراسات علم الملل ينطلقون في دراساتهم للأديان من منطلق فلسفي، وهم في هذا إما متأثرون بمناهج فلسفية معاصرة، أو منهزمون أمام هجمات المستشرقين وصيحاتهم المنادية بأن المسلمين ليس لهم فلسفة، فقام المهزومون، وقالوا: للمسلمين فلسفة! وليبرهنوا على ذلك رجعوا إلى التراث، فلم يجدوا من كتب التراث ما يقنع أو يرضي الخصوم إلاّ في كتب الفلاسفة المسمين بفلاسفة الإسلام وأبحاث الملاحدة والباطنيين كالحلاج وابن عربي، كما قدم بعضهم مباحث في علم مقارنة الأديان ونهج منهج الفلاسفة، وسموا هذا وذلك بفلسفة إسلامية.

وبما أن غاية الموضوع هو إبراز الضوابط الشرعية لدراسة الملل، تلك الضوابط التي تعصم من الباحث المسلم في هذا العلم الزلل والانحراف عن المنهج الصحيح - منهج القرآن - كان من الأهمية بمكان طرح هذا البحث الذي يعتبر مفرق الطرق بين مناهج الذين يرون عدم الصلة بين الدين والفلسفة والذين لا يرون ذلك.

ولعل من المهم قبل عرض أقوال وآراء العلماء في الموضوع، تحديد الفلسفة التي يعنى عند الحديث عن صلة الدين بالفلسفة؛ لأن كلمة الفلسفة تشتمل على أنواع من العلوم.

المطلب الأول: تعريف الفلسفة:

إن كلمة الفلسفة يونانية منحوتة من "فيلو" بمعنى محب و"صوفيا" بمعنى الحكمة، فمعناها محبة الحكمة[١] ومن تعريفاتها الاصطلاحية عند فلاسفة اليونان تعريف أرسطو الذي يقول: «أنها البحث عن الوجود بما هو موجود»[٢].

أما مفهومها عند سقراط فهي «البحث عن المدركات الكلية ومحاولة إدراك مباهيات الأمور، والأشياء، وإيجاد التعارف التامة التي تساعد الإنسان على أن يتبين معاني الأشياء واضحة وحقائق الأمور جلية...»[٣].

وقد وافق أقطاب فلاسفة المسمون بفلاسفة الإسلام في تعريفهم للفلسفة على التعريف السابق؛ فقد عرف كل من الفارابي وابن سينا الفلسفة أنها «العلم بالموجود بما هو موجود؛ أي العلم المطلق دون نظر إلى نوع هذا الوجود»[٤]. وهذا النوع من التعريف ينطبق على نوع من أنواع الفلسفة وهو ما يسمى بفلسفة ما وراء الطبيعة، أو الفلسفة الإلهية، أو العلم الأعلى، ويرى كثير من الباحثين أن الفلسفة في الحقيقة ما هي إلا هذا النوع وإطلاقها على غيرها إنما هو من باب التجوز. وفلسفة ما وراء الطبيعة هي التي يقال إنها تلتقي مع الدين في الموضوع والغاية.

يقول الدكتور دراز: «إذا نحن أحصينا ضروب المعرفة الإنسانية على كثرة اختلافها وفرط تنوعها، وجدنا من بينها ضربا يجري مع الأديان في مجال، ويكاد يعد من عصبتها أو من ذوي رحمها الأقربين، ولا نجد ضربا آخر يزاحمه أو يدانيه في هذا النسب، ذلك هو ما اصطلح العلماء على تسميته باسم "العلم الأعلى" أو "الفلسفة العامة". أليس موضوع الفلسفة هو نفسه موضوع الدين؟ أوليس المشكلة التي تعالجها الفلسفة هي بعينها المشكلة التي انتدبت الأديان لحلها؟ فمطلب الفلسفة هو معرفة أصل الوجود وغايته، ومعرفة سبيل السعادة الإنسانية في العاجل والآجل، هذان هما موضوعا الفلسفة بقسميها

---

(١) المعجم الفلسفي د. جميل صليبا ٢/ ١٦٠.
(٢) مقدمة في الفلسفة الإسلامية عمر الشيباني ص ١٩.
(٣) المصدر السابق. ص ١٩
(٤) انظر: المصدر السابق ص ٧٦.

العلمي والعملي، وهما كذلك موضوعا الدين بمعناه الشامل للأصول والفروع»[1].

تبين من كلام دراز أن الموضوع الذي تعالجه الفلسفة موافق لما يعالجه الدين، وأن غايتهما واحدة وهي معرفة السعادة الإنسانية في العاجل والآجل، لكن هل يعني ذلك أن الدين والفلسفة شيء واحد واسمان لمسمى واحد؟.

إن هذه الوحدة لا تقتضي بأي حال من الأحوال أن يكون الدين والفلسفة شيئا واحدا، «فإن الاختلاف بين الدين والفلسفة اختلاف كبير، فهما يختلفان في المصادر والمنابع، وفي المنهج والسبيل، وفي قوة التأثير والسيطرة، وفي الأسلوب وطريقة الاستدلال، وفي آثار كل منهما»[2] لذا شن علماء السلف على الفلسفة حربا لا هوادة فيه ووقفوا منها موقف الخصم

المطلب الثاني: موقف العلماء المسلمين من الفلسفة:

لما ترجمت الفلسفة من كتب اليونان إلى لسان العربي وحصل خلط بينها وبين العلوم الشرعية - وخاصة - في علم العقيدة تنبه العلماء إلى الخطورة التي تواجه الإسلام من الفلسفة فانبروا لها، وقاوموها، وحذروا منها تحذيرا شديدا وأظهروا للناس آثارها السيئة في الدين، لكن وجد في البيئة الإسلامية من فتن بالفلسفة ولم يرض إلا أن يخوض في غمارها. من هنا يمكن أن نقسم العلماء في موقفهم من الفلسفة إلى قسمين:

القسم الأول: العلماء الذين أنكروا الفلسفة وردوها بشدة، ورأوا أن الفلسفة تناقض الدين وتهدمه، وأنها مدخل إلى الشر. لذا رأوا أنها من المحرمات، وممن ذهب إلى هذا الرأي العلامة المحدث ابن الصلاح، فمن فتاواه أنه قال عن الفلسفة: «الفلسفة أس السفه والانحلال ومادة الحيرة والضلال، ومثار الزيغ والزندقة، ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المؤيدة بالحجج القاهرة، والبراهين الباهرة، ومن تلبس تعليما وتعلما قارنه الخذلان والحرمان، واستحوذ عليه الشيطان..»[3].

إن العلم الذي ثمرته السفه والانحلال.. وكان طريقا، إلى الزيغ والزندقة ويعمي

---

(١) الدين دراز ص ٥٩ - ٦٠.

(٢) العقيدة في الله د. عمر بن سليمان الأشقر ص٣٠.

(٣) فتاوى ابن الصلاح في التفسير والحديث تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي.

صاحبه عن الشريعة الغراء وعن محاسنها لجدير أن يكون محرما ، أما كون حقيقة الفلسفة كما ذكر ابن الصلاح فهذا مما لا شك فيه ومن أراد التأكد فليقرأ سيرة الذين خاضوا غمار الفلسفة ، وليتأمل كيف كان علمهم وإيمانهم .

أما الإمام النووي - رحمه الله تعالى - فقد عد الفلسفة من العلوم الخارجة عن أقسام العلم الشرعي ، بل جعلها من العلوم المحرمة فقال بعد أن ذكر أقسام العلم الشرعي: «ومن العلوم الخارجة عنه ما هو محرم أو مكروه أو مباح: فالمحرم كتعليم السحر فإنه حرام على المذهب الصحيح وبه قطع الجمهور . . . وكالفلسفة والشعبذة[1] والتنجيم ، وعلوم الطبائعين ، وكل ما كان سبباً لإثارة الشكوك . .»[2] .

وقال علاء الدين محمد بن علي الحصكفي كلاماً يشبه كلام النووي[3]

أما شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - فقد رد على الفلاسفة وفلسفتهم ، في كثير من كتبه وكشف عن أباطيلهم ، ونقض قواعدهم التي يعوّلون عليها ، وبيّن أن العلم الأعلى عندهم الذي يسمونه بالعلم الإلهيّ ، أو فلسفة الأولى لا يفيد معلوما في الخارج ، وإنما هو علم

بأمور كلية مطلقة ، والأمور الكلية ، إنما تكون في الأذهان فقط . يقول الشيخ ناعياً ما عند القوم من العلم «لكن الذي تبين به خساسة ما عند القوم ونقص قدره أن هذا الوجود الكليّ ، إنما يكون كلياً في الذهن ، لا في الخارج ، فإذا كان هذا هو "العلم الأعلى" عندهم ، لم يكن "الأعلى" عندهم علماً بشيء موجود في الخارج ، بل علماً بأمر مشترك بين جميع الموجودات ، وهو مسمى "الوجود" وذلك كمسمى الشيء ، والذات ، والحقيقة ، والنفس ، والعين ، والماهية ، ونحو ذلك من المعاني العامة ، ومعلوم أن العلم بهذا ليس هو علماً بموجود في الخارج ، لا بالخالق ولا بالمخلوق ، وإنما هو علم بأمر مشترك كلي تشترك فيه الموجودات ، لا يوجد إلا في الذهن . . . وهذا بخلاف العلم الأعلى عند

---

(١) الشعبذة: كالشعوذة وهي خفة في اليد وأخذ كالسحر يرى الشيء بغير ما عليه أصله في رأي العين ، انظر: القاموس المحيط لفيروز آبادى ص ٤٢٧ .

(٢) المجموع شرح المهذب: للإمام محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي ١/ ٤٥ .

(٣) انظر: مقدمة شرح الدر المختار شرح تنوير الأبصار ، علاء الدين الحصكفي ، ١/ ٨ .

المسلمين ، فإنه العلم بالله الذي هو في نفسه أعلى من غيره من كل وجه .

والعلم به أعلى العلوم من كل وجه . والعلم به أصل لكل علم ، وهم يسلمون أن العلم به إذا حصل على الوجه التام يستلزم العلم بكل موجود ، وهذا بخلاف العلم بمسمى الوجود . . .»[١] . ويتضح من هذا أن الفلاسفة فشلوا في بحوثهم ، ولم يصلوا إلى حقائق الأمور التي جعلوا الوصول إليها موضوعاً لبحوثهم ، ولم يحصل لهم اليقين التي زعموها . بل تناقضت آراؤهم وتضاربت أدلتهم ، فصاروا أكثر الناس حيرة وشكاً .

أما الجانب الآخر الذي هو تحقيق السعادة الإنسانية - وهو غاية الفلسفة - فإنهم أعجز من تحقيقها في هذه الحياة الدنيا فضلاً عن الحياة الآخرة وسبب ذلك يرجع إلى **ثلاثة أسباب هي:**

١ - أن الحكمة النظرية - أو الفلسفة عندهم - وهي أصل العمل لا تتضمن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وهو العلم الذي تهتدي به النفوس .

٢ - أن الحكمة لا تتضمن الأعمال التي تسعد بها النفوس الإنسانية .

٣ - أن غاية الحد الأوسط - عند أرسطو - ومن صار علي دربه هو تعديل الشهوة والغضب بالعفة والحكم - أي أن مقصودهم ترك الإسراف فيهما - أضف إلى ذلك أن الفلاسفة لم يضعوا حدا فاصلا قاطعا بين ما تحصل به النجاة والسعادة ، وما يسبب الشقاء والعذاب ، بينما فعل ذلك الرسل والأنبياء حيث بينوه وأوضحوه[٢] وفي القرآن بيان ذلك قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾[٣] ففي هذه الآية ربط السعادة بالعمل الصالح .

روي عن ابن عباس أن الحياة الطيبة هي السعادة - أي السعادة في الدنيا - وهو ما ذهب إليه أكثر المفسرين في تفسير الآية ؛ لأن حياة الآخرة قد ذكرت بقوله

---

(١) الرد على المنطقيين ، لشيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٢) قواعد المنهج السلفي د . مصطفى حلمي ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٣) سورة النحل الآية: ٩٧

تعالى: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[١][٢] .

القسم الثاني: وهم الفلاسفة الإسلاميين - ومن سار على دربهم - وهم على درجات ، فمنهم من يفضل الفلسفة على الدين - وهم غلاة الفلاسفة - ومنهم من يرى التوفيق بين الدين والفلسفة وعدم تعارضهما ، وقد بدأت هذه البدعة - بدعة التوفيق بين الدين والفلسفة - على يد الفيلسوف الكندي .

ثم الفارابي المسمى بالمعلم الثاني ، وابن سينا ، وابن رشد الحفيد[٣] . فالكندي مثلاً يرى أن الفلسفة أثبتت بالمقاييس العقلية ما أتت به الرسل وتنتهي بمقاييسها العقلية إلى النتائج التي أنزلت من السماء . وهي أشرف صناعة ، ودراستها واجبة على من أقرها ومن أنكرها ، وهي تسير في ركاب الدين[٤] .

ويلزم من هذا الكلام أن تكون الفلسفة موصلة إلى معرفة الله ومعرفة أمور المعاد وعموم الغيبيات ، وهذا مما لم يحصل ، ولو كانت كما يرى الكندي لأمكن أن يستغني الناس بها من الدين ومن الرسل والرسالات ، لكن إن ما أثبتته التجارب هو تهافت الفلاسفة وبعدهم عن الحق والحقيقة .

أما الفارابي: فهو يعتبر الفلسفة تضم جميع العلوم النظرية والعملية فهي لا تختلف عنده عن الدين في الغاية والموضوع إلا أنهما يختلفان في طريقة التفهيم والعرض للآراء فالفلسفة تستعمل البراهين المنطقية والشريعة تستعمل الجدل والتمثيل . يقول الفارابي: «وكل ما تعطيه الفلسفة من هذه معقولاً أو متصوراً فإن الملة تعطيه متخيلاً ، وكل ما تبرهنه الفلسفة من هذه فإن الملة تقنع وكل ما تعطي الفلسفة فيه البراهين اليقينية فإن الملة تعطي فيه الاقناعات والفلسفة تتقدم بالزمان الملة»[٥] .

---

(١) سور النحل الآية: ٩٧ .

(٢) انظر: فتح القدير ، للشيخ محمد بن علي الشوكاني ٣/ ١٩٣ .

(٣) انظر التفكير الفلسفي في الإسلام ، د . علي سامي النشار ص ٢٧ - ٢٨ ، ومجلة أصول الدين العدد الخامس ص ٢٩٥ العام الجامعي ١٤٠٣/ ١٤٠٤ هـ .

(٤) انظر: المجموعة الكاملة ، لمؤلفات الدكتور عبد الحليم محمود ص ٣١١ .

(٥) انظر: كتاب تحصيل السعادة ، لأبي نصر الفارابي تحقيق وتقديم د . علي أبو ملحم ص ٨٤ .

الردّ على رأي الفارابي: إن ما ذهب إليه الفارابي باطل من وجوه عدة:

الوجــه الأول: لـو كان صحيحاً أن طريقة الفلسفة في التفهيم يقينية لكان الفلاسفة أعـلم الـناس لرب العالمين، ولكن الواقع أنهم أجهل الناس بمعرفة الرب ومعرفة حقوقه قـال شـيخ الإسـلام ابـن تيمـية: «وأرسـطو أكـثر مـا يـبني الأمـور الإلهية على مقدمات سوفسـطائية في غايـة الفسـاد. . . وهذا ابن سينا أفضل متأخريهم الذي ضم إلى كلامه في الإلهـيات مـن القواعـد التي أخذها عن المتكلمين أكثر مما أخذه عن سلفه الفلاسفة، أكثر كلامـه فـيها مـبني عـلى مقدمـات سوفسـطائية ملبسـة، ليست خطابية، ولا جدلية، ولا برهانـية. . .»[1] إن ما يستعملونه من برهاني مزعوم لا يفيد علماً - كما سبق ذكره - إلاّ العلم بالكليات.

الوجــه الــثاني: إن التـناقض والاختلاف بين الفلاسفة وتعدد مذاهبهم في الشيء الواحـد لدليل واضح على أن الفلسفة لا تستند إلى براهين يقينية، يقول دراز: «ليس من الصـواب أن نقـول. . . إن التعلـيمات الفلسفية تستمد دائماً من نور العقل، وتستند إلى الـبراهين القطعـية، إذ لـو كانـت كـلها كذلـك مـا أمكـن أن يحدث بينها هذا الاختلاف والتضارب، فإن الحق لا يعارض الحق ولا يكذبه بل يسنده ويؤيده. . .»[2]

الوجــه الثالــث: يلـزم مـن كلامه أن تكون الفلسفة أفضل من الدين، وأن يكون الفلاسفة أفضل من الأنبياء.

الوجــه الــرابع: إن زعمه بأن الفلسفة تتقدم بالزمان الملة زعم باطل إذ إن الفلسفة بمفهومهـا عـند الفلاسـفة وبقواعدهـا المنطقية لم تبدأ وتنتشر في الناس إلا في وقت متأخر جداً، بينما الدين بدأ مع بدء بني آدم، فالدين هو الأساس أما الفلسفة فهي طارئة. وممن دافـع عـن الفلسـفة بشـدة وحـرص كـل الحـرص التوفـيق بين الدين والفلسفة ابن رشد الحفيد، فقد ألف في ذلك كتباً عدة[3] وذلك أنه كان يرى أن الشريعة توجب التفلسف إذ

---

(١) الرد على المنطقيين، لابن تيميه ص٣٩٥ - ٣٩٦

(٢) الدين د. دراز ص: ٦٣

(٣) ككتاب فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال' و كتاب الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة'

الفلسفة هي النظر في الموجودات، واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع.. والشرع دعا إلى اعتبار الموجودات وتطلب معرفتها، فتقرر أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل في الموجودات واعتبارها، ومن ثم وجب أن نجعل نظرنا في الموجودات بالقياس العقلي - وهذا ما يسمى البرهان - وما دام الأمر كذلك علم قطعاً أنه لا يؤدي النظر البرهاني إلى مخالفة ما ورد به الشرع، فإن الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له.. وإذا أدى النظر البرهاني إلى نحو ما من المعرفة بموجود ما، فلا يخلو ذلك الموجود أن يكون قد سكت عنه الشرع، أو عرف به، فإن كان مما سكت عنه، فلا تعارض هنالك وهو بمنزلة ما سكت عنه من الأحكام فاستنبطها الفقيه بالقياس الشرعي، وإن كانت الشريعة نطقت به، فلا يخلو ظاهر النطق أن يكون موافقاً لما أدى إليه البرهان فيه مخالفاً. فإن كان موافقاً فلا قول هنالك وإن كان مخالفاً طلب هنالك تأويله»[١].

هذا ملخص رأي ابن رشد عن علاقة الدين بالفلسفة، وواضح منه أن كلاً من الفلسفة والدين يؤديان إلى الحق، وأنه لا يمكن تعارضها، لكن لو وجد ظاهراً يخالف مؤدى النظر العقلي أوّل، وبذلك جعل الفلسفة أصلاً، والدين فرعاً، وقدم العقل على النقل[٢].

الرد على ابن رشد: إن النظر العقلي الذي دعا إليه الشرع، واعتبرها هو النظر العقلي الفطري، وهو الذي بنى عليه التكليف، أما النظر العقلي المتعمق فيه - أي الفلسفي - فلا حاجة إليه في معرفة العقائد في الإسلام، وهو مثار للشبهات والتشكيكات[٣]، والنظر العقلي العادي لا يخالف الشرع، وذلك إذا كان النقل صحيحاً، وكان العقل صريحاً، وإنما يرجع وهم التعارض إلى أمور أخرى فلا حاجة إذاً أن يقال بتأويل النقل أو العقل، وعلى فرض الحاجة إليه، فإن النقل هو المقدم؛ لأن النقل خبر المعصوم عن الله وعن رسوله ﷺ، والعقل ليس صريح الدلالة دائماً على المقصود[٤].

---

(١) فصل المقال، لأبي الوليد ابن رشد ص ١٣ - ١٩.

(٢) المصدر السابق ص ١٣ - ١٩.

(٣) القائد إلى تصحيح العقائد، لشيخ عبد الرحمن المعلمي اليماني ص٤٥.

(٤) منهج أهل السنة والجماعة في الرد على النصارى، د. عبد الراضي بن محمد بن عبد المحسن، ص ١٦٤.

تبين - مما مر - الانفصال التام بين الدين والفلسفة ، وألخص هنا أهم الفروق التي توضح ذلك:

١ - الدين السماوي حقيقة إلهية له من صفات الكمال والثبات ما ليس للفلسفة ، أما الفلسفة فهي ظن بشري لها من العثار الضعف ما للإنسان الضعيف الذي كتبها[١] .

٢ - أن من حق الدين السماوي أن يتحدث عن أمور ما وراء الطبيعة - الغيبيات - أما الفلسفة فليس ذلك من حقها ، إذ لا مجال للعقل فيه ولا يمكن له ذلك إلا عن طريق الوحي .

٣ - أن أدلة الدين يقينية ؛ لأنها من الوحي المعصوم ، أما أدلة الفلسفة فظنية ، لأنها من العقل المجرد المحدود إدراكه[٢] .

٤ - إن غاية الفلسفة المعرفة المجردة ، وغاية الدين المعرفة الإيمان ، فمطلب الفلسفة فكرة جافة ، ترتسم في صورة جامدة ، ومطلب الدين روح وثابة وقوة محركة .

٥ - إن غاية الفلسفة نظرية حتى في قسمها العملي ، وغاية الدين عملية في جانبه العملي . إذ أن أقصى مطالب الفلسفة محاولة معرفة الحق والخير مجرد المعرفة ، أما الدين فيعرفنا الحق لا لنعرفه فحسب ، بل لنؤمن به ونحبه ونمجده ، ويعرفنا الواجب لنؤديه ونوفيه ، ونكمل نفوسنا بتحقيقه[٣] .

تعقيب: إن عصر الحديث عصر صار كل شيء خاضعاً للتجربة والتحليل ، حتى القضايا العقدية والفكرية والثقافية صارت تخضع للمختبرات[٤] ، وذلك أن الحضارة المعاصرة لا تؤمن بشيئ ولا تقدسه غير العقل المجرد ، ومن ثم جاءت جميع فلسفاته مادية صرفة تتناول الأمور على ضوء النظر العقلي المتحرر من جميع القيود ، ودراسة الملل نالت أوفر القسط من تلك البحوث الفلسفية ، بل

---

(١) الأديان القديمة في الشرق د . رؤوف شلبي ، ص ٥٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٢ .

(٣) انظر: الدين د . دراز ص ٧١ ، بتصرف .

(٤) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ص ٨ .

يعد الأولى في قائمة العلوم المسماة بالعلوم الفلسفية ، لكن الضرر الذي لحق بالدين من تلك الدراسات يوازي بل يزيد النجاح الذي توصل به علماء الغرب في الجانب العلمي المادي ، ذلك لأن الدين يختلف عن أي علم آخر . فالدين وحي مصدره خالق الكون علام الغيوب ، هو لا يمت الفلسفة بصلة قريبة أو بعيدة ، لا من حيث المصدر ولا من حيث المنهج ، وأي محاولة للتوفيق بين المختلفين في الحقيقة محاولة غير مجدية وثمارها مرة ، ولهذا فإن من الواجب على الباحث المسلم أن ينطلق في دراسته لعلم الملل من منطلق شرعي بعيد عن الفلسفة ، وأن ينهج فيها نهج القرآن ، وأن يكون الهدف من دراسته الدعوة إلى الحق والحرص على كشف الباطل ورده ، وأن يبتعد عن المنهج الفلسفي سواء المعاصر منه أو القديم .

و من هذا العرض يتبين لنا خطأ الذين يسمون اليوم هذا العلم وغيره من العلوم الإسلامية بعلوم الفلسفة الإسلامية تأثراً بالمناهج الغربية المعاصرة التي تسميه ذلك .

إن على المسلمين أن يتحرروا من التبعية والتقليد للمصطلحات الغربية والغريبة على مفاهيم ديننا ومبادئه .

* * * * *

الباب الأول

مشروعية دراسة علم الملل

وأهدافها الشرعية

وفيه مقدمة وأربعة فصول.

الفصل الأول: دلالة القرآن على مشروعية علم الملل.

الفصل الثاني: دلالة السنة على مشروعية علم الملل.

الفصل الثالث: دلالة مواقف الصحابة والسلف على مشروعية علم الملل.

الفصل الرابع: الأهداف الشرعية من دراسة الملل.

*****

تمهيد:

إن المتأمل يدرك أن "علم الملل" لم يلق الاهتمام الكافي من قبل الباحثين المسلمين ولا العناية التي بذلوها في كثير من العلوم الشرعية، بل وغير الشرعية، ولعل السبب في ذلك يعود إلى كون بعض الباحثين وطلبة العلم الشرعي يشعرون بشيء من التحرج من هذا العلم، نظراً أن المشتغل فيه يتعرض لقراءة كتب أهل الكتاب، وكتب أهل الملل الأخرى كالمجوسية، وذلك لمعرفة ما فيها حتى يكون عند نقدها على علم وبصيرة، ويكون رده عليها رداً مبنياً على أسس علمية وذلك أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره.

وقد يصل الأمر إلى أن يناظر ويجادل الكفار، فيترتب من ذلك الاحتكاك بهم، والاجتماع معهم في مجالس المناظرات ومؤتمرات الحوار.

ومنشأ هذا التحرج هو النصوص التي تدل على النهي عن قراءة كتب أهل الكتاب أو النهي عن الجدال في الدين والحجاج فيه. ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - في مسنده من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن عمر الخطاب - رضي الله عنه - أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه النبي ﷺ فغضب فقال: **«أمتهوكون[1] فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى ﷺ كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني»**[2].

وكان ابن عباس - رضي الله عنهما - يقول: «يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب، وكتابكم الذي أنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله تقرأونه لم يشب؟ وقد حدثكم الله، أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله، وغيروا بأيديهم الكتاب، فقالوا ﴿ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾[3]، أفلا ينهاكم بما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم رجلاً قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم»[4].

---

(١) التهوك كالتهور: وهو الوقوع في الأمر بغير روية والمتهوك الذي يقع في كل أمر وقيل هو التحير انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لأبي سعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير ٥/ ٢٨٢.

(٢) مسند الإمام أحمد ٤/ ٣٧٦ - ٣٧٧.

(٣) سورة البقرة الآية: ٧٩.

(٤) أخرجه البخاري الحديث رقم ٢٦٨٥ انظر الفتح ٥/ ٣٤٤.

ودلالـة حديـث جابـر عـلى الـنهي عـن قراءة كتب أهل الكتاب التي لها أصل صحيح واضـحة فضلاً عن غيرها من الكتب التي يكتبها أهل الأوثان فلاشك أن النهي عنها أشد ، وغضـب الرسـول ﷺ لــه دلالته ، إذ الرسول ﷺ لا يغضب إلا عند انتهاك محارم الله تعالى وحصـول مخالفـة عـن أمـر الله سـبحانه . وكذلـك يظهر من الأثر شدة نكير الصحابة على الذيـن يقرأون أو يسألون عن أهل الكتاب ، إذاً هذه النصوص دلت على وجوب الاقتصار بالكتاب والسنة . ويفهم من هذا المنع عن قراءة الكتب غير الإسلامية والنظر فيها . .

والسـؤال الآن: كـيف نوفـق بـين هـذه النصـوص وبين ما ورد عن النبي ﷺ أنه أجاز التحديـث عـن أهل الكتاب بقولـه: «**بلغوا عني ولو آية: وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**»[١] وكذلـك ما ثبت أن السلف الصالح - رضوان الله عليهم - كـانوا يقرأون النصوص من كتب أهل الكتاب وينقدونها . وثبت أن الصحابة كانوا يسألون علماء اليهود الذين اعتنقوا الإسلام بعض القصص والأخبار الماضية[٢] .

نقـول إنـه لا تعـارض بـين النصـوص ؛ وذلك أن النهي الوارد كان في مبدأ الإسلام وقـبل اسـتقرار الأحكـام والإباحـة بعـد أن عرفـت الأحكـام واستقرت ، وذهب خوف الاخـتلاط[٣] يقـول الحـافظ ابـن حجـر في هذا: «وكأن النهي وقع قبل استقرار الأحكام الإسـلامية ، والقواعـد الدينـية خشية الفتنة ، ثم لما زال المحذور وقع الإذن في ذلك ، لما في سماع الأخبار التي كانت في زمانهم من الاعتبار . .»[٤] . ومما يمكن أن يقال **في هذا المقام:**

١ - إن الـنهي وارد عـلى مـا إذا جعـل المسـلم ذلك مصدراً من مصادر الدين التي يـأخذ مـنها عقـيدته وأحكـام الدين ، وهذا غير وارد على من يقرأ الكتب غير الإسلامية لقصد نقدها وتفنيدها .

٢ - المـنع يـرد لمـن يخشى عليه من التأثر بها أو إثارة الشبهات عليه كمن ليس عنده علم شرعي أو كضعاف الإيمان .

---

(١) أخرجه البخاري الحديث رقم ٣٤٦١ ، انظر الفتح ٦/ ٥٧٢ .
(٢) التفسير والمفسرون ، د . محمد حسين الذهبي ١/ ٧٣ .
(٣) المصدر السابق ص ١٧٣ .
(٤) فتح الباري ، لابن حجر ٦/ ٥٧٥ .

٣ - إذا كان ما يسأل عن أهل الكتاب أو يستشهد من كتبهم مما لا يمس بالعقيدة وأصول الدين ولم يتناف مع مقاصد الشريعة الإسلامية بأن كان فيما يتعلق بالأخبار التي كانت في زمانهم ونحوها مع عدم التسليم على أنه من الصواب الذي لا يتطرق إليه الشك، أو كان مما يوافق ما ورد فيه نص، فإن هذا من الأمور التي أباحها الشرع[١]. وبهذا نعرف أن قراءة الكتب غير الإسلامية والاطلاع على عقائد الأمم لقصد التحذير منها أوردها ونقدها من الأمور التي لا تدخل ما نهى عنه الشرع بل إن الشرع حث عليها قال تعالى: ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾[٢]، ولا جدال إلا مع العلم، قال النبي ﷺ «**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم**»[٣].

فالمسلمون مأمورون بجهاد المشركين، ومنهم أهل الكتاب، ومن جهاد اللسان الرد والنقد والجدال والمناظرة مع جميع المشركين لقصد بيان الحق و كشف الباطل. وهذا هو الغرض الأساس من دراسة الأديان والملل عند المسلمين. أما فيما يتعلق بالنهي عن الجدال والحجاج في الدين فنقول: بأن القرآن استثنى المجادلة بالتي هي أحسن، وأن هذا لا يكون أيضا مبرراً في عدم دراسة الملل، إذ أن من الجدال ما هو محمود مأمور به، ومنه ما هو مذموم منهي عنه[٤] والمحمود هو المقصود في قوله تعالى: ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾.

أما المذموم فهو الوارد في قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾[٥]. وقوله تعالى: ﴿ **وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ** ﴾[٦] والجدال الأول من النصيحة في الدين، أما الثاني فهو إما الجدال بغير علم، أو الجدال بالشغب والتمويه نصرة للباطل بعد ظهور الحق وبيانه[٧].

---

(١) التفسير والمفسرون ١/ ١٦٩.

(٢) سورة النحل ١٢٥.

(٣) أخرجه أبو داود الحديث رقم ٢٥٠١، النسائي مع زيادة لفظة "وأيديكم" بعد بأموالكم الحديث رقم ٣٠٩٦، للحافظ جلال الدين السيوطي٦/ ٣١٤.

(٤) مناظرات أئمة السلف، للشيخ سليم عيد الهلالي ص ٢٣.

(٥) سورة غافر الآية: ٣٥.

(٦) سورة الكهف الآية: ٥٦.

(٧) مناظرات أئمة السلف ص ٢٣.

وبذلك نعلم أن الباحث المتخصص في دراسة الملل إذا أخلص عمله لله تعالى ودافع عن الحق، وجادل للحق كان جداله من النوع الممدوح المأمور به، وكان فعله نوعا من أنواع الجهاد. وإذا كان ما سبق إشكال ممن ينظر إلى الموضوع من الجانب الشرعي، فهناك فريق آخر ينظرون إليه من الجانب المنهجي.

وهم الذين يشككون بصحة إطلاق لفظ العلم على هذا الفن، ويعللون ذلك بانعدام الموضوعية فيه، يقول العقاد: «علم المقارنة بين الأديان يسمى علماً مع الحيطة المتفاهم عليها بين الباحثين والقراء؛ لأنه من المعارف التي يقيمها المشتغلون به على أسس مختلفة، كاختلافهم في العقيدة الدينية وفي النظر إليها»(١) فلا يمكن للباحث في هذا الفن أن يطرح عقيدته وأفكاره جانبا ويتنازل عن موقفه السابق على البحث، بل لو حاول أي باحث الموضوعية والتجرد؛ فإنه لا يمكن أن ينتهي من البحث دون أن يتأثر بعقيدته ولو بطريقة لا شعورية، وبدون أن ينعكس إيمانه على طريقة عرضه وتوجيهه للأفكار والقضايا التي يعالجها، وما دام الأمر كذلك فالأولى ألا يسمى هذا النوع من المعارف علماً!.

إن القائلين بهذا القول هم الذين يتبنون بالمنهج التجردي أي أن يتجرد الباحث عن عقيدته ومبادئه عند البحث، وهذا المنهج مخالف للحق، والحق في ذلك هو التجرد في طلب الحق لا التجرد عن الحق، ومن أهم الضوابط عند الباحث المسلم في هذا الفن، أن دينه هو الدين الحق المهيمن على جميع الأديان، وأن غيره من الأديان باطل.

إذاً لا يعد هذا وذاك مبررا يحط قيمة هذا العلم أو يسلب نسبته إلى العلوم الشرعية.
وهناك عامل آخر لا يقل أهمية عما سبق وهو أن عدم إدراك أهمية هذا العلم ودوره في الصراعات العقدية والفكرية والسياسية، وتأثيره في مواقف الدول والشعوب.. إن عدم إدراك ذلك كله قد يقلل من قيمة هذا العلم عند البعض

إن الجواب الشافي لمن لديه غموض في الجانب الشرعي من هذا العلم، وتنبيه الغافلين على أهميته لما أرجو أن يتحقق في ثنايا هذا البحث.

* * * * *

---

(١) ما يقال عن الإسلام، عباس محمود العقاد ص ٢٧، منشورات المكتبة العصرية - بيروت صيدا.

الفصل الأول

دلالة القرآن على مشروعية علم الملل

المبحث الأول: الأديان في عهد النبي ﷺ

كان العالم قبيل بعثة النبي ﷺ في أسوء حالة من الناحية الدينية، وكانت الديانات العظمى كما يقول الندوي: «فريسة العابثين والمتلاعبين، ولعبة المحرفين والمنافقين حتى فقدت روحها وشكلها . . .»[(١)] «وكانت الملل ما بين وثنية في شبه الجزيرة العربية وغيرها، إلى عبادة للشمس والكواكب في بلاد سبأ وبابل وكلدانيا وغيرها، ومن مجوسية في بلاد فارس وما جاورها، إلى وثنية تقول بإله النور وإله الظلمة، إلى صابئة ليس لهم دين، ومن برهمية وعبادة للحيوان - ولاسيما البقرة - في بلاد الهند وما جاورها، إلى بوذية تقوم على تأليه "بوذا" وعبادته في بلاد الصين وما جاورها، ومن يهودية محرفة مبدلة يزعم أهلها أن عزيزاً ابن الله، إلى نصرانية مثلثة في بلاد الروم وغيرها، حتى اليونان، ومن مصر الفرعونية كانت تسودها الوثنية وتعدد الآلهة، وعبادة الحيوان مع أنها مهد الحضارات . . .»[(٢)].

وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - ذلك بقوله «واعلم أن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً ﷺ إلى الخلق على فترة من الرسل، وقد مقت أهل الأرض: عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب ماتوا - أو أكثرهم - قبيل مبعثه، والناس إذ ذاك أحد رجلين: إما كتابي معتصم بكتاب، وإما مبدل منسوخ، ودين دارس، بعضه مجهول، وبعضه متروك، وإما أميّ من عربي وعجمي، مقبل على عبادة ما استحسنه، وظن أنه ينفعه من نجم، أو وثن أو قبر، أو تمثال»[(٣)]. وقد ورد بيان هذا الحال في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم - رحمه الله - في صحيحه عن عياض بن حمار - رضي الله عنه - وفيه «... **وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب..** »

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، لأبي الحسن علي الندوي ص ٤١ .

(٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، ١/ ٢٤١ - ٢٤٣ .

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق د. ناصر بن عبد الكريم العقل، ١/ ٦٣ .

الحديث[١] والمراد ببقايا أهل الكتاب الباقون على التمسك بدينهم من غير تبديل[٢]، وهم كانوا قليلين كما يفهم من لفظ الحديث، وفي تلك الظروف والحالة هذه، بعث الله محمداً ﷺ وجاء الإسلام خاتماً للرسالات السماوية، ونزل القرآن على محمد ﷺ فارقاً بين الحق والباطل ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[٣].

وبما أن سنة الله القدرية قضت وقوع الصراع بين الحق والباطل، وكان الحق ممثلاً في الإسلام - رسالة الله الأخيرة - وكان الباطل ممثلا في تلك الملل المختلفة، فلابد من تدافع بين هذه الرسالة وتلك الملل، وقد حدث ذلك فعلاً حيث تعرض القرآن لنقد تلك الأديان والملل، لكن هناك أمر مهم وملفت للنظر، وهو أن القارئ للقرآن يجد أن القرآن قد أهمل بعض الملل التي كان لها وجود إذ ذاك، كالبوذية وأديان الهند الوثنية، وذكر بعضها بإشارات سريعة كالمجوسية والصابئة. بينما يجد مقابل ذلك ذكر القرآن لأديان أخرى بإسهاب وتفصيل كاليهودية والنصرانية، وعباد الأصنام، واهتم بنقدها ونقاش عقائدها ورد شبهاتها ومن ثم يأتي سؤال هو ما الحكمة وما السر وراء تفريق القرآن بين الأديان في نقده وتعرضه لبضعها دون بعض.

وقبل الإجابة عن هذا السؤال نذكر عرضاً موجزاً للأديان التي ذكرها القرآن. فأقول: لقد شغل ذكر الأديان في القرآن مساحة واسعة، حتى إن بعض الباحثين يذكر أن ثلث القرآن يشمل على قصص الأديان الأخرى[٤]، وقد جمعت آية واحدة ستة من الأديان وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[٥].

وسأقتصر في العرض هذه الأديان المذكورة في الآية، محاولاً كشف سر اقتصار القرآن بهذه الأديان الستة حتى قال قتادة - رحمه الله تعالى -: «الأديان ستة، خمسة للشيطان

---

(١) أخرجه مسلم الحديث رقم ١٨٦٥، انظر: شرح النووي ١٧/ ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٣.

(٣) سورة المائدة الآية: ٤٨.

(٤) اليهودية والمسيحية، د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي ص ١٤.

(٥) سورة الحج الآية: ١٧.

وواحـد للـرحمن»[١] ، وأرتـبها كما وردت في الآية ما عدا الإسلام الذي لا يدخل ضمن البحث .

المطلب الأول: اليهودية

أولاً: تعريف اليهودية: هـي الديانـة التي يدين بها العبرانيون المنحدرون من إبراهيم عليه السلام والمعروفون بالأسباط ، وهم أمة موسى عليه السلام وكتابهم التوراة[٢] وهذه الديانـة في الأصـل كانـت ديانـة صـحيحة ، أمـا الآن فهـي باطلة لكونها حرفت ولكونها نسخت بالإسلام[٣] .

ثانياً: سبب تسميتها بهذا الاسم . اختلفت الآراء حول تسمية اليهودية بهذا الاسم:

١ – قـيل نسـبة إلى "يهوذا" أكبر أولاد يعقوب عليه السلام ، وأبدلت الذال المعجمة دالاً مهملة ؛ لأن العرب كانوا إذا نقلوا أسماء أعجمية إلى لغتهم غيروا بعض حروفها[٤] .

٢ – وقـيل سمـوا بذلـك حـين تـابوا عن عبادة العجل وقالوا: ﴿ **إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ** ﴾[٥] والهـود في اللغـة العربـية الـتوبة والرجوع ، قال صاحب لسان العرب: «الهود التوبة ، هاد يهود هوداً ، تاب ورجع إلى الحق فهو هائد»[٦] .

٣ – وقـيل سمـوا بذلـك لأنهـم يـتهودون أي يـتحركون عـند قراءة التوراة[٧] وقد وردت لفظـة "يهـود" معـرفة في القـرآن الكـريم ، كما في قولـه تعالى ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَـارَى عَلَى شَيْءٍ** ﴾[٨] وكمـا وردت بلفـظ "يهوداً" وذلك في معرض حديث القرآن عن إبراهـيم علـيه السـلام قـال تعـالى: ﴿ **مَـا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا**

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ١٢/ ٢٣ .

(٢) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٥٦٥ ، إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة د . ناصر بن عبد الله القفاري ود . ناصر عبد الكريم العقل ص ١٨ .

(٣) الموجز في الأديان والمذاهب ص ١٨ .

(٤) لسان العرب ٣/ ٤٣٩ ، بنو إسرائيل في الكتاب والسنة ، د . السيد محمد الطنطاوي ١/ ٨ ط .

(٥) سورة الأعراف الآية: ١٥٦ .

(٦) لسان العرب ٣/ ٤٣٩ .

(٧) بنو إسرائيل في الكتاب والسنة ، الطنطاوي ١/ ٨ .

(٨) سورة البقرة الآية: ١١٣ .

مُسْلِمًا ﴾[١] ووردت على هذه الصيغ في السور المدنية ، كما عبر القرآن عن اليهود وعن معتنقي اليهودية ب ﴿ الَّذِينَ هَادُواْ ﴾[٢] وبـ ﴿ مَن كَانَ هُوداً ﴾[٣] و ﴿ كُونُواْ هُودًا ﴾[٤] و ﴿ كَانُواْ هُودًا ﴾[٥] وجملة ﴿ الَّذِينَ هَادُواْ ﴾ وردت في سورتي الأنعام[٦] والنحل[٧] وهما من السور المكية كما وردت في سور مدنية[٨] مما يدل على أن إطلاق لفظ "هادوا" على اليهود كان قبل لفظ "اليهود"[٩] .

ومن أسماء أتباع هذه الديانة "بنو إسرائيل" وسموا بذلك نسبة إلى أبيهم إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام[١٠] وقد أطلق القرآن عليهم تارة باسم اليهود ، وتارة باسم بني إسرائيل ، وأخرى باسم أهل الكتاب ، وفي إطلاقهم باسم اليهود إشارة إلى ما اشتهروا به في العصور المتأخرة خاصة بعد ظهور عيسى السلام ، بينما يشير إطلاقهم باسم "بني إسرائيل" إلى نسبهم وتاريخهم القديم ، أما تسميتهم بأهل الكتاب فهي إشارة إلى أن لهم كتاب سماوي ، وفي الغالب يدخل معهم في ذلك النصارى[١١] .

ومن أسماء اليهود أيضاً التي اشتهروا بها اسم العبرانيين وقد اختلف العلماء والمؤرخون في سبب تسميتهم به:

١ - فمنهم من يرى أن سبب التسمية بهم ذلك يرجع إلى الموطن الأصلي لبني إسرائيل وذلك أن بني إسرائيل كانوا في الأصل من الأمم البدوية الصحراوية التي لا

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٦٧ .

(٢) سورة البقرة الآية: ٦٢ .

(٣) سورة البقرة الآية: ١١١ .

(٤) سورة البقرة الآية: ١٣٥ .

(٥) سورة البقرة الآية: ١٤٠ .

(٦) الأنعام الآية: ١٤٦ .

(٧) النحل الآية ١١٨ .

(٨) البقرة الآية: ٦٢ ، النساء الآية: ٤٦ ، المائدة الآية: ٤١ ، ٤٤ ، ٦٩ ، الحج الآية: ١٧ ، الجمعة الآية: ٩ .

(٩) انظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، د. جواد علي ٦/ ٥١٢ ، دار القلم للملايين - بيروت - مكتبة النهضة - بغداد - ط الأولى ١٩٧٠ م .

(١٠) بنو إسرائيل ١/ ٦ .

(١١) انظر: الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة ص ١٩ .

تستقر في مكان، بل ترحل من بقعة إلى أخرى، بإبلها وماشيتها للبحث عن الماء والمرعى، وكلمة عبري في الأصل مشتقة من الفعل الثلاثي عبر بمعنى قطع مرحلة من الطريق أو الوادي أو النهر من عبره إلى عبره، أو عبر السبيل شقها، وكل هذه المعاني موجودة في هذا الفعل سواء في العربية أو العبرية... وقد كان الكنعانيون والمصريون والفلسطينيون يسمون بني إسرائيل بالعبريين لعلاقتهم بالصحراء، وليميزوهم عن أهل العمران...»[(١)] وهذا الرأي لإسرائيل ولفنسون، ولكن يرد عليه بأن التنقل ومظاهر البداوة لم تكن خاصة بالإسرائيليين، بل كان يشاركهم في ذلك كثير من الأمم السامية فلم خصت بالإسرائيليين[(٢)].

٢ - وقيل سموا بذلك نسبة إلى "عبر" وهو الجد الخامس لإبراهيم عليه السلام.

٣ - وقيل سموا بذلك نسبة إلى "إبراهيم" نفسه، وذلك لكونه عبر النهر، واختلف في النهر هل هو نهر الفرات أم نهر الأردن[(٣)].

ويرى بعض المعاصرين أن العرب و"العبري" من جنس واحد، وأول من أطلق عليه لفظ "عبري" هو إبراهيم عليه السلام، وذلك قبل أن يوجد اليهود علي وجه الأرض بقرون[(٤)] وهذا الرأي الأخير هو الراجح عند كثير من الباحثين[(٥)] وإذا كان العرب والإسرائيليون كلهم ينتسبون إلى إبراهيم - عليه السلام - فلا خصوصية لبني إسرائيل في إطلاق هذا الاسم عليهم دون العرب. ومن ثم فلا حجة لهم فيما يزعمون وهو أن فلسطين لهم بنص التوراة حيث ورد في سفر التكوين أن الرب قال لإبراهيم - عليه السلام -: «وأعطى لك ولنسك من بعدك أرض غربة كل أرض كنعان ملكا أبديا وأكون إلههم»[(٦)]. لليهود تاريخ طويل حافل بالأحداث والعبر، ومن غير الممكن عرضها في هذا

---

(١) انظر: موسوعة مقارنة الأديان "اليهودية" د. أحمد شلبي ص ٥٤ - ٥٥، مكتبة النهضة المصرية ط الثانية عشر ١٩٩٧م. نقلا د. ولفنسون ص ٧٧ - ٨٧، وانظر أيضاً: اليهودية والمسيحية للأعظمي ص ٥٣.

(٢) انظر بنو إسرائيل ١/ ٦.

(٣) المصدر السابق ١/ ٣.

(٤) انظر: اليهودية والمسيحية للأعظمي ص ٥٣.

(٥) بنو إسرائيل في الكتاب والسنة، للطنطاوي ١/ ٤ - ٥.

(٦) الكتاب المقدس - العهد القديم والعهد الجديد - سفر التكوين الأصحاح السابع عشر فقرة ٨ ص ٢٤ من العهد القديم.

المبحث ؛ إذ ليس المقصود هنا دراسة تاريخهم ، وإنما المقصود هو التدليل على وجود اليهودية في شبه الجزيرة العربية عند مبعث الرسول ﷺ:

والمؤرخون يبدأون تاريخ بني إسرائيل - في الغالب - من هجرة يعقوب - عليه السلام - وأولاده إلى مصر في عهد الهكسوسيين حوالي سنة ١٩٠٠ قبل الميلاد[١] عندما طلبهم يوسف - عليه السلام - الذي كان واليا على خزائن مصر . ثم مروراً بعهد موسى - عليه السلام - وخروجه ببني إسرائيل من مصر حوالي سنة ١٢١٣ قبل الميلاد[٢] . ثم قيادة يوشع بن نون لهم ودخولهم الأرض المقدسة ، فحياتهم في عهد القضاة من الكهنة ما بين ١١٣٠ - ١٠٢٠ قبل الميلاد[٣] فعهد الملوك وانقسامهم إلى مملكتين[٤]:

- ا لأولى: شمالية اسمها إسرائيل وعاصمتها شكيم .
- والأخرى: جنوبية اسمها يهوذا وعاصمتها أورشليم .

وانتهاء الأولى على يد الآشوريين سنة ٧٢١ قبل الميلاد والثانية على يد البابليين سنة ٥٨٦ قبل الميلاد . ثم عاش اليهود بين ناري الفرس والروم ، اللذين تداولا الحكم في فلسطين ، إلى أن جاء الإمبراطور تيطس فدمر بيت المقدس وأحرق الهيكل وقتل اليهود شر قتلة وذلك في سنة ٧٠م[٥] . إن هذا الاضطهاد الذي تعرض له بنو إسرائيل جعلهم يشردون إلى خارج فلسطين طالبين الأمان . ومن المناطق التي آوتهم الجزيرة العربية ، ولكن من العسير تحديد زمن دخول اليهود إلى الجزيرة . وما يذكر بعض الإخباريين من وصول اليهود إلى الجزيرة كان قبل ميلاد المسيح عليه السلام ، لا يستند إلى نصوص يمكن الاعتماد عليها . والمؤكد أن الجزيرة العربية عرفت اليهودية بعد تعرضهم للاضطهادات وخاصة بعد هزيمتهم أمام "بخت نصر" وهروب قسم منهم إلى الجزيرة[٦] واختاروا **أماكن عدة منها:**

---

(١) انظر: بنو إسرائيل في الكتاب والسنة ١/ ٩ .

(٢) موسوعة مقارنة الأديان - اليهودية - ص٧٣ .

(٣) انظر: اليهودية والمسيحية للأعظمي ص ٨٣ .

(٤) انظر: الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب المعاصرة ص ٥٦٦ .

(٥) انظر: مقارنة الأديان - اليهودية - ص ٩٥ ، تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ، لمحمد عزت دروزة ص ٣٨٣ .

(٦) انظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/ ٥١٧ ـ٥١٨ .

نجران، وتيماء، وفدك، وخيبر، ووادي القرى، ويثرب التي سكن منهم ثلاث قبائل وهـم بنو النضير، وبنو قينقاع، وبنو قريظة[١] كما كان يوجد عدد منهم في البحرين، وفي نجـد[٢] ولم يدخـل اليهود الجزيـرة العربيـة إلا بعـد أن تعـرض دينهم للتحريف والتغيير بدخول فلسفة اليونان والرومان فيه، وبتدخل أيدي أحبارهم، واختلافهم في الدين.

قـال تعـالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَـناً قَلِـيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾[٣]. وبعقيدة فاسدة وخلق منحرف عاش اليهود مع العرب في الجزيرة العربية، بيد أنهم كانوا يرون لأنفسهم الفضل على العرب ويقولون ليس علينا في الأميين سبيل فضلا أنهم كانوا يتوعدون عليهم بقرب زمان نبيّ قد قربت بعثته.

المطلب الثاني: تعريف النصرانية:

تطلق النصرانية على الديانة التي أنزلت على عيسى عليه السلام، مكملة لرسالة موسى عليه السلام، متممة لما جاء في التوراة من تعاليم موجهة إلى بني إسرائيل[٤].

سـبب تسميتها: ورد في القـرآن الكريم والسنة النبوية إطلاق اسم "النصارى" على الذيـن ينتسـبون إلى ديـن المسيح علـيه السـلام، ويلحظ من قولـه تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى ﴾[٥]، أن النصـارى هـم الذين أطلقوا هذا الاسم على أنفسهم، وقد ذكر العلماء سبب هذه التسمية ما يلي:

١ - قـيل إنهـم سمـوا بذلـك نسبة إلى قـرية تسـمى "ناصرة" كان ينزلها عيسى عليه السلام فنسب إليها، فقيل عيسى الناصرة، فلما نسب أصحابه إليه قيل "النصارى"[٦]

وقيل نسبة إلى قرية تسمى "نصران" فيقال نصراني وجمعه نصارى[٧]

---

(١) فجر الإسلام، أحمد أمين، ص ٢٤ الناشر دار الكتاب العربية - بيروت - ط الحادية عشرة ١٩٧٩م

(٢) انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/ ٥٤٢.

(٣) سورة البقرة الآية: ٧٩.

(٤) الموسوعة الميسرة ص ٤٩٩.

(٥) سورة المائدة الآية: ٨٢.

(٦) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٤٣٤.

(٧) المفردات للراغب الأصفهاني ص ٤٩٥.

٢ - وقيل إنهم سموا بذلك لنصرتهم بعضهم بعضاً[١] .

٣ - وقيل إنهم سموا بذلك بقول عيسى عليه السلام - كما ذكره القرآن - ﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾[٢][٣] ويزعم بعض المستشرقين أن لفظة "النصرانية" و"نصارى" من الألفاظ المعربة من أصل سرياني هو: "نصرويو"، "نصرايا"[٤]. وقدماء النصارى كانون يطلقون على أنفسهم بـ"تلاميذ" و"تلاميذ المسيح" أو بـ"الإخوة" وبـ"الإخوة في الله"[٥]

أما مصطلح "المسيحية" الذي اشتهروا به في العصر الحديث فهو مصطلح متأخر أطلقوه على أنفسهم، وسبب اشتهارهم به أنهم يفضلون أن يسموا به، إمعاناً منهم في الإنتساب إلى المسيح وتخلصاً من مقت المسلمين لاسم "النصارى" الذي جاء ذمه في القرآن والسنة؛ لذلك فالأولى على المسلمين أن يسموهم ما سماهم الله ورسوله وهو "النصارى"[٦]

نشأة النصرانية وتطورها: النصرانية في الأصل ديانة سماوية صحيحة، فقد أنزل الله على عيسى - عليه السلام - الإنجيل مصدقاً للتوراة ومؤيداً لها، ومصححاً ما حرفه اليهود من التوراة، قال تعالى: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[٧]

وقال تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[٨] فعيسى - عليه السلام - لم يأت بشريعة جديدة وإنما كانت رسالته امتداداً لرسالة موسى - عليه السلام - . وموجهة إلى بني إسرائيل خاصة فدعاهم

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٤٣٤ .
(٢) سورة الصف الآية: ١٤ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٤٣٤ .
(٤) انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/ ٥٨٢ .
(٥) المصدر السابق ٦/ ٥٨٤ .
(٦) انظر الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٦٥
(٧) سورة المائدة الآية: ٤٦ .
(٨) سورة آل عمران الآية: ٤٨ - ٤٩ .

إلى العقيدة الصحيحة، والتوحيد الكامل، قال تعالى على لسان عيسى - عليه السلام - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾(١).

كذلك دعاهم إلى الالتزام بالأخلاق الفاضلة، وأيده الله بالمعجزات الباهرات، لكن بني إسرائيل كفروا به وجحدوا رسالته، وأصروا على عصيانه، واستكبروا استكباراً، وأعلنوا الحرب على دعوته ولم يؤمن به منهم إلا الحواريون، ولم يكتف اليهود على تكذيبه فقط، وإنما حاولوا على قتله عليه السلام، فأغروا عليه الحاكم الروماني الوثني، الذي أصدر مرسوماً يأمر فيه القبض على عيسى - عليه السلام - وقتله، ولكن الله تعالى أنجاه منهم وألقى شبهه على يهوذا الإسخريوطي الذي تقول الأناجيل: إنه هو الذي دس عليه(٢)، فجعل الله كيده في نحره، ورفع نبيه عيسى - عليه السلام - قال الله تعالى: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾(٣).

وبعد رفع الله لعيسى - عليه السلام - بدأ حواريوه بنشر رسالته، ولكن اليهود واصلوا حربهم بدين المسيح - عليه السلام - تارة بالدس ويمثل ذلك دور "بولس" في نقل المسيحية من التوحيد إلى التثليث، وأخرى بالحرب العلني، فقد لقي النصارى صنوفاً من الاضطهادات المدمرة على يد اليهود وحكام الدولة من الرومان الوثنيين قرابة ثلاثة قرون، حتى لقد التهمت الاضطهادات كثيراً من كتبهم ومراجعهم، وقضت على أتباع المسيح الحقيقيين.

ففقدت النصرانية طابعها البسيط السهل، وامتلأت بكثير من الخرافات ممزوجة بالثقافات الوثنية التي كانت تسود الشعوب التي دخلت في النصرانية وقتئذ كالمصريين واليونانيين والرومانيين، خصوصاً ما اتصل بالمسيح نفسه، فقد كان بعضهم يراه عبداً رسولاً . . . بينما يراه آخرون من النصارى إلهاً، ورأى فريق ثالث أنهم ابن الله(٤) - تعالى الله عما يقولون الظالمون علواً كبيراً - وفي هذه الظروف التي نزعت النصرانية عن

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٥١ .

(٢) انظر: اليهودية والنصرانية للأعظمي ص ٢٥٣ .

(٣) سورة النساء الآيات: ١٥٧ - ١٥٨ .

(٤) انظر: الميزان في مقارنة الأديان لمحمد عزت الطهطاوي ص ١٤٦ .

مضمونها وحقيقتها اعتنق بها الإمبراطور الروماني قسطنطين ، ورغم أنه أعاد شيئاً من الطمأنينة والأمن لأتباع النصرانية إلا أنه ساهم في تحريف النصرانية حيث كان يقول: بمذهب بولس في النصرانية . ولما رأى ما يجري بين النصارى من اختلاف وتناقض في قضايا الدين دعاهم إلى عقد مجمع ، فكان مجمع "نيقية" سنة ٣٢٥ م[١] ، وتتلخص قرارات هذا المجمع ما يلي:[٢]

١ - القول بألوهية المسيح وتقرير عقيدة التثليث .

٢ - تكفير من يذهب إلى أن المسيح إنسان .

٣ - تكفير "أريوس" الذي كان يرى بأن المسيح بشر مخلوق ، وليس إلهاً .

٤ - إحراق جميع الكتب والرسائل التي لا تقول بألوهية المسيح أو تحريم قراءتها .

ثم عقد مجمع آخر في مدينة القسطنطينية سنة ٣٨١ م وانتهى هو أيضاً بتقرير ألوهية روح القدس ، فاكتمل بنيان الثالوث النصراني[٣] ، وما انفكت النصرانية تبتعد عن أصلها الصحيح ، حتى انتهت بتلك الصورة القائمة التي يعد منها علماء المسلمين مئات الأخطاء والتناقضات ،

وبتلك الصورة صدرت النصرانية إلى العالم فكانت منتشرة في كثير من مناطق العالم عند مبعث النبي ﷺ .

النصرانية في جزيرة العرب: تعتبر النصرانية الديانة الثانية الكتابية التي دخلت الجزيرة العربية في العهد الجاهلي ، واختلف المؤرخون في وقت دخولها ، ويعزى أسباب دخول النصرانية في بلاد العرب إلى ما يلي:

١ - الدعوة إلي النصرانية ، فقد دخل بعض الرهبان والنساك الجزيرة العربية[٤] فدعوا الناس إلى النصرانية ، رغم أن الصحيح أن النصرانية ديانة خاصة ببني إسرائيل كما

---

(١) انظر: هداية الحيارى لابن القيم الجوزي تحقيق أحمد حجازى السقا ص ٢٦٠ ، وانظر محاضرات في النصرانية محمد أبو زهرة ص ١٢٤ .

(٢) انظر: الميزان في مقارنة الأديان ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٣) المصدر السابق ص ١٤٨ .

(٤) انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/ ٥٨٧ .

جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم ﴾[١] وقال تعالى في حديثه عن عيسى - عليه السلام -: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾[٢] فهذه الآية نص على أن رسالة عيسى - عليه السلام - كانت خاصة ببني إسرائيل فقط، وهو ما ينص عليه العهد الجديد الذي عندهم ورد في إنجيل "متى" في حوار بين عيسى - عليه السلام - وأحد تلاميذه اسمه "بطرس" أن بطرس قال له: «ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك، فماذا يكون لنا، فقال لهم يسوع: الحق أقول لكم إنكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد، ومتى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده، تجلسون أنتم أيضاً على اثني عشر كرسياً تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر»[٣].

- وكذلك ورد في إنجيل متى نفسه وصية عيسى - عليه السلام - لتلاميذه أنه قال: «إلى أمم لا تمضوا إلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحريّ إلى خراف بني إسرائيل الضالة»[٤] فهذه النصوص وغيرها في كتبهم تدل دلالة واضحة على أن رسالة عيسى - عليه السلام - رسالة خاصة، ولكن السؤال هنا متى تحولت من هذه الخصوصية إلى العموم الذي يزعمه أتباع النصرانية قديماً وحديثاً، ومن الذي حولها إلى ذلك؟.

والجواب عن هذا أن فكرة عالمية النصرانية، فكرة ابتدعها "بولس" ولم يرد أي دليل لا من عيسى - عليه السلام - ولا من حوارييه الحقيقيين[٥].

٢ - كذلك دخلت النصرانية في شبه الجزيرة العربية للعلاقة التجارية، والتواصل الاقتصادي الذي كان بين العرب وبين الروم الذين انتشرت فيهم النصرانية، وكان من أهم ما كانت تستورده العرب من الشام الرقيق، فكان من هؤلاء الرقيق من كان يقرأ ويكتب ويفسر للناس ما جاء في التوراة والأناجيل، ويقص عليهم قصصاً نصرانياً ويتحدث إليهم عن النصرانية، ومنهم من تمكن من إقناع بعض العرب في الدخول في

(١) سورة الصف الآية: ٦.
(٢) سورة آل عمران الآية: ٤٨ - ٤٩
(٣) إنجيل متى الأصحاح ١٩ الفقرة ٢٧ - ٢٨.
(٤) المصدر السابق الأصحاح: ١٠، لفقرة: ٥ - ٦.
(٥) الميزان في مقارنة الأديان ص ٢٨٩.

النصرانية ومنهم من أثر على بعضهم، فأبعدهم عن الوثنية، وسفه رأيها عندهم، لكنهم لم يفلحوا في إدخالهم في دينهم، فبقوا في شك من أمر الديانتين، يرون أن الحق في توحيد الله، وفي اجتناب الأوثان[١] ومن هؤلاء الذين عرفوا باسم الحنفاء.

٣ - وفي جنوب الجزيرة - اليمن - كان سبب دخول النصرانية الغزو الحبشي على اليمن واحتلالهم سنة ٢٤٠ م حتى سنة ٣٧٨ م وفي تلك الفترة انتشرت النصرانية في ربوع اليمن،

ويقال أن زاهداً مستجاب الدعوة يسمي: "فيميون" دخل نجران، ودعاهم إلى الدين النصراني، فاعتنق أهل نجران النصرانية[٢].

ومن باب الأولى أن يكون انتشار النصرانية في قبائل العرب التي كانت تسكن في شمال الجزيرة، وفي عراق العرب واضحاً أكثر منه في أي منطقة أخرى؛ وذلك بحكم الجوار والاتصال التجاري، والثقافي، الذي كان بينهم وبين أهل النصرانية في بلاد الشام[٣] يقول الألوسي - رحمه الله تعالى -: «وصنف منهم - من العرب - على دين النصارى، فكانت النصرانية في ربيعة، وغسان، وبعض قضاعة، وكأنهم تلقوا ذلك عن الروم فقد كان العرب يكثرون التردد إلى بلادهم للتجارة، وقد اجتمع في الحيرة قبائل شتى من العرب يقال لهم "العباد"... وكان بنو تغلب أيضاً من نصارى العرب[٤].

وعلى أية حال: فقد كانت النصرانية عند العرب مصدراً مهماً من مصادر الدين والثقافة عن طريقها عرفوا كثيراً من أخبار بني إسرائيل، بل إن المشركين زعموا أن النبي ﷺ تأثر بهم وأن مصدر الوحي ما هو إلا من رجل من أهل الكتاب. وقد أشار زعمهم هذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/ ٥٨٩

(٢) السيرة النبوية لأبي محمد عبد الملك بن هشام مراجعة وتعليق محمد محيي الدين عبد الحميد ١/ ٣٠ - ٣٣، الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري ص ٣٢.

(٣) انظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/ ٥٩٠

(٤) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب لمحمود شكري الألوسي ٢/ ٢٤١ - ٢٤٢.

(٥) سورة النحل: الآية ١٠٣.

عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾[١] وقد اختلف الناس في اسم هذا الرجل، فقيل إن اسمه "جبر" وقيل: كان اسمه "يعيش"، وقيل "بلعام" وقيل غير ذلك، والمهم أنه كان نصرانياً[٢].

ومما يتأكد لنا من العرض السابق أن النصرانية كان لها حضور مباشر في الجزيرة العربية، وكان تأثيرها في العرب ظاهراً. وهذا مما يوضح لنا اهتمام القرآن في نقد هذه الديانة.

المطلب الثالث: الصابئة:

أولاً – تعريف الصابئة لغة: الصابئة جمع صابئ، والصابئ، اسم فاعل مشتق[٣]. من فعل صبأ بمعنى: خرج من دين إلى دين، تقول العرب: صبأ الرجل يصبأ وصبوء خرج من دين إلى آخر[٤] ولذا كانت العرب تسمى النبي ﷺ صابئاً والصحابة صباة[٥].

وهناك آراء أخرى تعيد اشتقاق هذا الاسم إلى لفظ غير عربي، ومن هذه الآراء:

١ – رأي "جنيوس" الألماني فقد زعم أن كلمة صابئ مشتقة من "صباؤث" العبرية بمعنى جند السماء دلالة على أنهم يعبدون الكواكب[٦].

٢ – وهناك من يرى أنه مشتق من كلمة "صبع" العبرية بمعنى غطس، وأسقطت العين، وهو إشارة إلى شعيرتهم الرئيسة وهي التعميد أو الغطس في الماء الجاري[٧].

٣ – لكن الرأي الذي ترجح لدى كثير من الباحثين المعاصرين هو أن كلمة "صابئ" مأخوذة من الفعل "صبا" الآرامي ومعناه: يرتمس، يغتسل، يعتمد[٨] وقد ذكر رشدي

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٤.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٥٣٩.

(٣) الصابئون، د. رشدي عليان، ص ٢٥.

(٤) دائرة معارف القرن العشرين محمد فريد وجدي ٥/ ٤٢٦.

(٥) انظر النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٣/ ٣.

(٦) الصابئون رشدي عليان ص ٢٦.

(٧) دائرة المعارف الإسلامية ١٤/ ٨٩ نقلها إلى العربية محمد ثابت وزملاؤه.

(٨) الصابئون ص٢٦.

عليان عدة أسباب لهذا الترجيح:(١)

أ - مطابقة معنى الفعل "صبا" المندائي الآرامي لما عليه الصابئة حتى اليوم من الارتماس والاغتسال في الماء الجاري.

ب - لورود هذه الكلمة بهذا المعنى في كثير من طقوسهم الدينية.

جـ - لإطلاق بعض المؤرخين والباحثين - قديما وحديثا - اسم المغتسلة وهو اسم يترجم عن حالهم وفي الوقت نفسه يطابق معنى الفعل "صبا" الآرامي(٢) أما المندائيون المعاصرون - وهم الصابئون - فيزعمون أن كلمة صابئ تعني المتعمد، لأن التعميد شعار كل صابئ، وبالتعميد يرتسم الصابئي بصابئته(٣) وعلى أية حال فإن كلمة الصابئ سواء كانت مأخوذة من الفعل العربي "صبأ" أم من الفعل الآرامي "صبا" فإن مصطلح "الصابئة" صار مصطلحاً يطلق على طائفة لها دينها، وكيانها المستقل.

وقد ورد ذكر الصابئة في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع(٤) مما يدل على أنهم أهل ديانة من الديانات التي كان لها وجود في التاريخ قبل الإسلام، ويأتي اختلاف العلماء حول حقيقة تلك الديانة. وأخيراً نسجل هنا رأياً آخر يرى أن معنى الفعل "صبأ" الميل والزيغ، وسميت الصابئة بذلك لميلها وزيغها عن سنن الحق ونهج الأنبياء(٥)

وهو معنى قريب لمعنى الخروج من شيء إلى شيء آخر، إذ أن من خرج من دين إلى دين آخر يكون قد مال وزاغ عن دينه الأول.

ثانياً: التحديد بحقيقة الصابئة: اختلف الناس في حقيقة دين الصابئة، وأشكل أمر الصابئة على الأئمة والمستعرض لأقوال علماء التفسير والفقه والملل يجد أن أقوال العلماء متباينة في شأن هذه الطائفة. وذلك للغموض الذي يكتنف في تلك الديانة وقد أرجع بعض الباحثين كثرة الاختلافات حول حقيقة دين الصابئة إلى عدة **أسباب أهمها:**

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦ - ٢٧.

(٢) المصدر السابق ص ٢٦ - ٢٧.

(٣) المصدر السابق ص ٢٨.

(٤) في سورة البقرة الآية: ٦٢، و في سورة المائدة الآية: ٦٩، وفي سورة الحج الآية: ١٧.

(٥) هذا الرأي للشهرستاني، انظر: الملل والنحل ص ٢٥٩.

١ - أن رجال الدين الصابئ لا يقرون علنية الدين، لأن ذلك يتعارض وباطنيته حتى يبقى تفسيره وقفاً عليهم[١].

٢ - كونها ديانة مغلقة لا تقبل أحداً في صفوفها[٢] وانطوائية الصابئة على أنفسهم وعدم مخالطتهم لغيرهم[٣].

٣ - عدم معرفة الناس بلغة كتبهم الدينية المكتوبة باللهجة المندائية، إحدى فروع اللغة الآرامية[٤].

ولمعرفة حقيقة هذه الديانة لابد أن نعرض هنا أقوال العلماء والمؤرخين للأديان، لنستكشف منها الأقوال الراجحة.

أ - **أقوال المفسرين**: كما سبق ذكره فقد ورد ذكر "الصابئة" في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع. وقد اختلف المفسرون - رحمهم الله - في تفسيرها، وإليك إيجاز لبعض أقوالهم:

١ - ذهب مجاهد: أن الصابئين قوم بين المجوس واليهود والنصارى ليس لهم دين[٥].

٢ - وذهب أبو العالية، والربيع بن أنس والسدي، وجابر بن زيد، والضحاك، وإسحاق بن راهويه: إلى أن الصابئين فرقة من أهل الكتاب يقرأون الزبور[٦].

٣ - وروي عن الحسن البصري أنه قال: «إنهم كالمجوس» وفي رواية أخرى عنه «إنهم قوم يعبدون الملائكة»[٧].

٤ - وقال أبو جعفر الرازي: بلغني أن الصابئين قوم يعبدون الملائكة، ويقرأون

---

(١) الصابئون رشدي عليان ص ٣٢ .

(٢) انظر: الصابئون لعبد الرزاق الحسيني ص ٧ .

(٣) الصابئون رشدي عليان ص ٣٢ .

(٤) المصدر السابق. ص ٣٢ .

(٥) انظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ١/ ٣١٩ ، شركة ومطبعة مصطفى الباب الحلبي وأولاده ط الثالث، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٩٠ .

(٦) المصدرين السابقين نفس الأجزاء والصفحات.

(٧) المصدرين السابقين نفس الأجزاء والصفحات.

الزبور ويصلون للقبلة[١] .

٥ - وذكر ابن أبي الزياد أن أباه قال فيهم: «هم قوم مما يلي العراق وهم بكوثي، وهم يؤمنون بالنبيين كلهم ويصومون من كل سنة ثلاثين يوماً ويصلون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات»[٢] .

٦ - وأجاب وهب بن منبه عندما سئل عن الصابئة بقوله: «الذي يعرف الله وحده وليست له شريعة يعمل، ولم يحدث كفراً»[٣] .

٧ - وقال عبد الرحمن بن زيد: «الصابئون أهل دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل يقولون: لا إله إلا الله، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي . إلا قول لا إله إلا الله»[٤] .

٨ - وقال الخليل «هم قوم يشبه دينهم دين النصارى إلا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب

يزعمون أنهم على دين نوح - عليه السلام»[٥] .

٩ - وحكى الإمام القرطبي عن مجاهد والحسن وابن أبي نجيع: «إنهم قوم تركب دينهم بين اليهود والمجوس، لا تؤكل ذبائحهم»[٦]

١٠ - أما الرازي فقد ذكر: «أن الصابئين قوم يعبدون الكواكب بمعنى أن الله جعلها قبلة للعبادة والدعاء أو بمعنى أن الله فوض تدبير أمر هذا العالم إليها»[٧]

١١ - وابن كثير - رحمه الله تعالى - رجح قول القائل بأنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين، وإنما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه[٨] وإذا كان القدامى قد اختلفوا - كما مر - في حقيقة دين

---

(١) جامع البيان للطبري ١/ ٣٢٠ .
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٩٠ .
(٣) المصدر السابق . ١/ ٩٠ .
(٤) جامع البيان ١/ ٣١٩ ، وتفسير القرآن العظيم ١/ ٩٠ .
(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٤٣٤ .
(٦) المصدر السابق . ١/ ٤٣٤ .
(٧) التفسير الكبير لأبي عبد الله محمد بن عمر فخر الدين الرازي ٣/ ١٠٥ .
(٨) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٩٠ - ٩١ .

الصابئة فإن علماء التفسير المعاصرين اختلفوا كذلك .

فقد ذهب ابن السعدي «أن الصابئين من جملة فرق النصارى على الصحيح»(١) في حين ذهب صاحب الظلال «أن الأرجح أنهم تلك الطائفة من مشركي العرب قبل البعثة ، الذين ساورهم الشك في ما كان عليه قومهم من عبادة الأصنام ، فبحثوا لأنفسهم عن عقيدة يرتضونها فاهتدوا إلى التوحيد ، وقالوا: إنهم يتعبدون على الحنفية الأولى ملة إبراهيم ، واعتزلوا عبادة قومهم دون أن تكون لهم دعوة فيهم . فقال عنهم المشركون: إنهم صبأوا - أي مالوا عن دين آبائهم ، كما كانوا يقولون عن المسلمين بعد ذلك ومن ثم سموا الصابئة . .»(٢)

واختلاف المعاصرين في الصابئة أدل بأن المفسرين - رحمهم الله تعالى - لم ينتهوا إلى أمر متفق عليه في دين الصابئة .

ب - **أقوال الفقهاء:** المعروف أن الإسلام فرق في التعامل بين أهل الكتاب ومن له شبه كتاب وبين من ليس له كتاب . وقد اختلف الفقهاء في حكم الصابئة هل هم من أهل الكتاب أم لا؟ يقول شيخ الإسلام: «للعلماء فيهم طريقتان: إحداهما: أنهم هل يقرون بالجزية أم لا؟ على قولين . والثانية: إنه يفصل الأمر فيهم ، فمن تدين بدين أهل الكتاب ألحق بهم ، وإلا فلا . وهاتان الطريقتان في مذهب الشافعي وأحمد وغيرهما ، والنزاع في إقرارهم بالجزية هو على قول من لا يقبل الجزية إلا من المجوس وأهل الكتاب . كقول الشافعي وأحمد في إحدى الروايتين . وأما من يقر مشركي العجم بالجزية ، كأبي حنيفة ومالك وأحمد في الرواية الأخرى فهؤلاء يتنازعون في حل ذبائحهم ونسائهم . .»(٣) ، **ويتلخص آراء أئمة الفقه ما يلي:**

١ - روي عن أبي حنيفة - رحمه الله - أنه عدهم من أهل الكتاب حينما ذهب صاحباه أبو يوسف ومحمد إلى أنهم ليسوا من أهل الكتاب وقد علل أبو الحسن الكرخي سبب الاختلاف بين أبي حنيفة وصاحبيه أن الصابئة الذين عناهم أبو حنيفة كانوا قوماً

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن ناصر السعدي ١/ ٩٢ .

(٢) في ظلال القرآن سيد قطب ١/ ٧٥ .

(٣) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ، تحقيق محمد سالم رشاد ٩/ ٢٠٨ .

ينتحلون دين المسيح ويقرأون الإنجيل، أما قول صاحبيه فيحمل على الصابئة الذين يعبدون الكواكب[(١)] .

٢ - أما الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى - فقال هم صنف من النصارى .[(٢)]

وله قول آخر يفصل فيه الحكم حيث قال: ينظر في أمرهم، فإن كانوا يوافقون النصارى في أصل الدين، ولكنهم يخالفونهم في الفروع فتؤخذ منهم الجزية، وإن كانوا يخالفونهم في أصل الدين لم يقروا على دينهم ببذل الجزية[(٣)] لكن خالفه في هذا الأمر أتباعه فقد أفتى أبو سعيد الإصطخري بعدم أخذ الجزية عنهم، لكونهم يزعمون أن الفلك حي ناطق، وأن الكواكب السبعة آلهة، فهم في حكمَ عبدة الأوثان[(٤)] .

٣ - وروي عن الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - أنه قال: «إنهم جنس من النصارى»[(٥)] وفي رواية أخرى له قال: «بلغني أنهم يسبتون»[(٦)] وهذا يعني أنهم يهود. وقال ابن قدامة المقدسي - رحمه الله -: «والصحيح فيهم أنهم إن كانوا يوافقون النصارى أو اليهود في أصل دينهم، ويخالفونهم في فروعه، فهم ممن وافقوه وإن خالفوهم في أصل الدين، فليسوا هم منهم[(٧)] .

٤ - أما الإمام مالك - رحمه الله - فقد روي أنه قال: «إنهم قوم من المشركين بين اليهود والنصارى، ليس لهم كتاب»[(٨)]

جـ - **أقوال علماء الملل والنحل:** لم تتفق كلمة علماء الملل والنحل عن الطائفة الصابئة على شيء معين، بل تضاربت آراؤهم في الصابئة كما كان شأن المفسرين والفقهاء كما مر بنا، فابن حزم الظاهري - رحمه الله تعالى - يرى أن الصابئة من جملة

---

(١) انظر: أحكام القرآن لأبي بكر أحمد بن علي الجصاص ٢/ ٣٢٨ .

(٢) أحكام أهل الذمة ابن قيم الجوزية ١/ ٨٤ .

(٣) المصدر السابق. ١/ ٨٤ .

(٤) المصدر السابق. ١/ ٨٤ .

(٥) المغني لابن قدامة تحقيق د. عبدالله التركي ٩/ ٥٤٦ - ٥٤٧ .

(٦) المصدر السابق ٩/ ٥٤٧ .

(٧) المصدر السابق ٩/ ٥٤٧ .

(٨) انظر: أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٩١ . أحكام الذميين والمستأمنين د. عبد الكريم زيدان ص ١٣ ، الصابئون د. رشدي عليان ص ٣٨ .

المذاهـب الثنوية ؛ لذا فهو يقول: «يضاف إلى جملة من قال: إن مدبر العالم أكثر من واحد " الصـابئون " وهـم يقولـون بقـدم الأصـلين - عـلى مـا قدمنا نحو قول المجوس - إلا أنهم يقولون بتعظيم الكواكب السبعة والبروج الاثني عشر ، ويصورونها في هياكلهم ، ويقربون الذبـائح والدخـن ، ولهـم صـلوات خمس في الـيوم والليلة تقرب من صلوات المسلمين ويصـومون شـهر رمضـان ، ويسـتقبلون الكعـبة البيـت الحـرام ويعظمـون مكـة والكعبة ويحـرمون الميـتة والـدم ولحـم الخـنزير»[1] ، ويقول مبيناً تاريخ الصابئة «وكان الذي ينتحله الصـابئون أقـدم الأديـان عـلى وجـه الأرض ، والغالـب عـلى الدنـيا إلى أن أحدثـوا فيه الحـوادث وبدلـوا شرائعه فبعث الله - عز وجل - إليهم إبراهيم خليله - عليه السلام - بدين الإسلام الذي نحن عليه الآن . . . وكانوا في ذلك الزمان وبعده يسمون الحنفاء منهم اليوم بقايا بحران وهم قليل جداً»[2] .

والظاهـر في كلام ابن حزم أن الصابئة سموا بعد دعوة إبراهيم - عليه السلام - لهم " الحـنفاء " والصـحيح أن الصـابئة كـلهم لم يسموا بهذا الاسم " الحنفاء " وإنما سمي بالحنفاء عـلى الذيـن استجابوا لدعوته ؛ ولذا يذكر الشهرستاني أن الصابئة في مقابل الحنفاء وأن الفـرق في زمـان إبراهـيم راجعـة إلى ذيـن الصنفين . وبين أن الصابئة هم الذين قالوا: إنا نحتاج في معرفة الله تعالى ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه إلى متوسط ، لكن ذلك المتوسط يجب أن يكون روحانياً لا جسمانياً . . . والحنفاء كانت تقول: إنا نحتاج في المعرفة والطاعة إلى متوسط من جنس البشر[3] .

أمـا ابـن القـيم الجوزية - رحمه الله تعالى - فقد ذكر أن الصابئة أنواع: صابئة حنفاء ، وصـابئة مشـركون . وذكـر أنهـا أمة قديمة قبل اليهود والنصارى[4] ، ويفهم من كلامه أن كـلمة " الصـابئة " لا تـدل عـلى إيمـان أو كفـر ، وهـو مفهوم يوافق معنى الكلمة في اللغة العربية إذ أن معنى الكلمة في اللغة " الميل " والميل يكون من الحق إلى الباطل كما يكون من الـباطل إلى الحـق ، ويوافق ابن القيم في رأيه هذا رأي شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ١/ ٨٨ .
(٢) المصدر السابق ١/ ٨٨ - ٨٩ .
(٣) انظر: الملل والنحل للشهرستاني ص ٢٣١ - ٢٣٢ .
(٤) انظر: أحكام أهل الذمة لابن القيم الجوزية ١/ ٨٥ .

تعـالى - . حيث يذهب ابن تيمية: أن من الصابئة الحنفاء الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ويعملون صالحاً . . كما أن منهم المشركين الذين يعبدون الكواكب والأوثان(١) .

نلاحـظ مـن العـرض السـابق لأراء أهل العلم في حقيقة ديانة الصابئة أن العلماء لم يختلفوا في حكـم ملـة مـن الملـل اخـتلافهم في تلـك الديانة ، ومن جانب آخر تدل كثرة أقوالهـم واجـتهاداتهم في هـذا . حرصـهم على معرفة الأمم وتمييز أهل الكتاب منهم من غيرهم ليكون تطبيق شريعة الله عليهم حسب مراد الله تعالى . ولكن المشكلة التي واجهت العلماء من الصابئة تتمثل - بالإضافة ما سبق الإشارة إليه من الأسباب - ما يلي:

١ - أن القـرآن ذكـرهم إجمـالاً ، ولم يفصـل أخـبارهم كمـا فصـل في قصص اليهود والنصارى والمشركين .

٢ - عـدم وجـود هذه الطائفة في مكة أو في المدينة ، فلم يحدث احتكاك بين المسلمين والصابئة في عهد النبي ﷺ .

٣ - تطور عقيدة الصابئة ومرورها بمراحل عدة كما يذكر المؤرخون للأديان فقد ذكر الـرازي تطـور عقـيدة الصـابئة بقولــه: «واعـلم أن عبادة الأصنام أحدث من هذا الدين لأنهـم كـانوا يعبدون النجوم عند ظهورها ولما أرادوا أن يعبدوها عند غروبها لم يكن لهم بد من أن يصوروا الكواكب صوراً ومثلاً فصنعوا أصناماً واشتغلوا بعبادتها فظهر من هنا عبادة الكواكب»(٢) .

والـتطور في العقـيدة يـؤدي دائمـاً إلى الـتفرق وظهـور فرق جديدة في الملة ، وهو ما حـدث في الصـابئة كما يذكر الشهرستاني بقولـه: «ثم لما لم يتطرق للصابئة الاقتصار على الروحانـيات البحـتة ، والـتقرب إلـيها بأعـيانها والـتلقي عـنها بذواتهـا فزعت جماعة إلى هياكلها ، وهي السيارات السبع ، وبعض الثوابت ، فصابئة النبط والفرس والروم مفزعها السيارات ، وصابئة الهند: مفزعها الثوابت . . . وربما نزلوا عن الهياكل إلى الأشخاص التي لا تسـمع ولا تبصـر ، ولا تغـني عنهم شيئاً ، والفرقة الأولى هم عبدة الكواكب ، والثانية

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل ٧/ ٣٣٤ .

(٢) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين لأبي عبد الله محمد بن عمر فخر الدين الرازي ص١٢٦ .

عبدة الأصنام»[١]، فهذا التطور أظهر فرقاً في الديانة الصابئة أشهرها[٢]:

١ - أصحاب الروحانيات.

٢ - أصحاب الهياكل.

٣ - أصحاب الأشخاص.

٤ - أصحاب الحلول "الحرانيون".

وتعدد فرق الصابئة كان مشكلاً وحاجزاً عن معرفة الصابئة معرفة دقيقة ذلك أن كل واصف للصابئة وصف ما وقف عليه من تلك الفرق وعقائدها مما أدى إلى تضارب الأقوال والآراء.

٤ - الظروف السياسية التي مرت بأهل تلك الملة، فقد خضع الصابئون لسيطرة النصرانية عليهم عندما اعتنق بها قسطنطين ملك الروم، فأظهروا النصرانية ظاهراً، وعندما فتح المسلمون بلادهم لم يميزوا بينهم وبين النصارى، كذلك كان لليهودية والنصرانية تأثير على الصابئة بحكم الجوار.

ومن هنا ندرك أن من قال بأنهم من اليهود، قد غلب تأثير اليهودية عليهم، ومن غلب تأثير النصرانية عليهم ألحق بهم. أما الذين قالوا: إنهم قوم بين اليهودية والنصرانية فربما نظروا تأثير اليهودية والنصرانية عليهم من جانب، ومن جانب آخر وجد مبادئ خاصة بهم تميزوا بها عن غيرهم.

وخلاصة القول أن الصابئة أمة من الأمم لها ديانتها المستقلة، بل ويعتبر من أقدم الديانات. وقد استوحى العلماء من آيتي البقرة والمائدة اللتين فيهما الوعد بالجزاء بأن الصابئة لهم كتاب أو شبه كتاب. قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - «الصابئة أمة كبيرة فيهم السعيد والشقي، وهي إحدى الأمم المنقسمة إلى مؤمن وكافر، فإن الأمم قبل مبعث النبي ﷺ نوعان:

نوع كفار أشقياء كلهم، ليس فيهم سعيد، كعبدة الأوثان والمجوس. ونوع منقسمون

---

(١) الملل والنحل ص: ٢٣٢.

(٢) الصابئون رشد عليان ص: ٤٧.

إلى سعيد وشقي، وهم اليهود والنصارى والصابئة، وقد ذكر الله سبحانه النوعين في كتابه فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[١] وكذلك قال في المائدة[٢] وقال في سورة الحج ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[٣] فلم يقل هنا من آمن منهم بالله واليوم الآخر، لأنه ذكر معهم المجوس والذين أشركوا، فذكر ست أمم، منهم اثنتان شقيتان، وأربع منقسمة إلى شقي وسعيد»[٤].

وقال محمد رشيد رضا: «هذا العطف في مقام تعداد أهل الملل يقتضي أن يكون كل من الصابئين والمجوس طائفتين مستقلتين ليستا من الصنف الذي يعبر عنه الكتاب بالمشركين، وبالذين أشركوا وذلك أن كلاً من الصابئين والمجوس عندهم كتب يعتقدون أنها إلهية، ولكن بعد العهد وطول الزمان جعل أصلها مجهولاً، ولا يبعد أن يكون من جاءوا بها من المرسلين»[٥].

ومما يؤيد هذا الرأي الدراسات الحديثة التي قدمها الصابئون أنفسهم عن ديانتهم، فقد تحدثوا عن ديانتهم، وزعموا أنها ديانة توحيدية، كما تحدثوا عن كتبهم الدينية وأعظمها "الكنزا ربا" أو "الكنز العظيم" ومعناه تعاليم سيدنا آدم[٦] وظهور كتب لأبناء الصابئة في العصر الحديث يدل على أنهم يريدون الخروج من الانطوائية وإظهار ديانتهم. كما ينبئ بخطورة الصابئة على المسلمين، فالصابئون يعيشون في بقاع من العالم الإسلامي وهذا يسهل لهم نشر عقائدهم بين المسلمين. وهذا يتطلب من علماء المسلمين عامة والمتخصصين منهم بعلم الملل خاصة أن يقوموا بتقديم دراسة علمية دقيقة حول تلك الديانة لكشف حقيقتها ولوضعها المكان المناسب في الشريعة الإسلامية. وهنا تظهر قيمة

---

(١) سورة البقرة الآية ٦٢.

(٢) سورة المائدة الآية ٦٩.

(٣) سورة الحج الآية: ١٧.

(٤) أحكام أهل الذمة لابن القيم ١/ ٨٥.

(٥) تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار للسيد محمد رشيد رضا ٦/١٧٨.

(٦) انظر: الموجز في تاريخ الصابئة المندائيين لعبد الفتاح الزهيري وفريد عبد الزهرة ص ٩٨.

هذا العلم وأهميته في كشف الباطل ورده .

لقد أطلت الكلام في الحديث عن الصابئة ، والسبب في ذلك هو الغموض الذي يكتنف بها فكان لابد أن نستعرض جميع الأقوال الواردة في الصابئة لنعرف الصابئة التي عناها القرآن ، وهل كان لها وجود في الجزيرة العربية ، ومدى تأثيرها في الناس في ذلك الوقت .

ثالثاً: الصابئة في الجزيرة العربية: إن المتتبع للمصادر الإسلامية ، لا يجد ما يثبت أن الجزيرة العربية عرفت طوائف تدين بديانة الصابئة ، ولم يؤثر عن العرب أن منهم من تدينوا بالصابئة كما وجد فيهم اليهود والنصارى والمجوس[١] ، والسبب في ذلك لما في دين الصابئة من شروط قاسية وأسرار لم تجد قبولا لدى العرب بيد أن كلمة "الصابئة" كانت شائعة بين العرب بمفهومها اللغوي ، فكانت العرب تطلق الصابئة من خرج عن دينه إلى دين آخر .

ولذا سموا النبي ﷺ بهذا الاسم كما سموا به المسلمين . وإطلاق المشركين المسلمين بهذا الاسم كان إهانة لهم وازدراء لشأنهم وعلى سبيل السبة ، لأنها كانت سبة عندهم[٢] وكان المسلمون يكرهون تلك التسمية ، فقد نادى جميل بن معمر الجمحي في قريش حين دخل عمر في الإسلام ، ألا إن ابن الخطاب قد صبأ ، فنادى عمر من خلفه: كذب ، ولكني أسلمت ، وقالت قريش صبأ عمر[٣] .

إن الصابئة وإن ذكر المؤرخون أن أكثر العرب كانوا يدينون لها منذ القرون الأولى ، واتخذوا لها هياكل سموها البيوت وجعلوها معابد يقدسونها[٤] ، إلا أن الملاحظ يرى أن تأثيرها في زمن بعثة النبي ﷺ كان محدوداً جداً ، وربما كان في حدود أعداد قليلة معزولة عن الناس .

وهذا ما جعل بعض المؤلفين المعاصرين[٥] يرجح أن المراد بالصابئة هي ديانة هؤلاء

---

(١) انظر: الديانات والعقائد في مختلف العصور لأحمد عبد الغفور عطار ٤/ ٥١ - ٥٢ .

(٢) انظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/ ٧٠٤ .

(٣) انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢/ ٨٦ دار صادر - بيروت ، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م .

(٤) انظر: محاضرات في تاريخ المذاهب والأديان لعبد العزيز الثعالبي ص ٢٥ .

(٥) كسيد قطب ومحمد عزت دروزة .

الأفـراد مـن العـرب الذيـن عـرفوا بالحـنفاء والذين رفضوا ديانة قومهم . والسؤال الذي يطـرح هـنا إذا كـان تـأثير الصـابئة محـدودا للغاية في وقت نزول الوحي فما الحكمة وراء اهـتمام القـرآن بالصـابئة حيـث ذكـرها في ثـلاث مواضع مع إهمال أديان أخرى كان لها تأثيرهـا في أوساط كثير من الناس كالديانات القديمة "الهندية والصينية والمصرية". وسيأتي جواب هذا السؤال في نهاية هذا المبحث .

المطلب الرابع: المجوسية

أولاً: تعـــريف المجوســـية: ورد في المصباح المـنير في مادة "مجس" أن كلمة "المجوس" فارسـية تطلـق عـلى أمة من الناس ، "وتمجّس" صار من المجوس كما يقال تنصر وتهود إذا صـار مـن النصـارى أو مـن الـيهود[1] وفي القـاموس المحـيط مجوس كصبور: رجل صغير الأذنـين ، وضع ديناً ، ودعا إليه ، معرب "منج كوش"[2] ، وقيل عربت عن لفظة "مغوس" الفرسية التي تعني "عابد النار"[3] .

ثانياً: حقيقة المجوسية: وأصـل دين المجوس مبني على تعظيم النور ، وإثبات إله قديم يسـمى "يـزدان" وعـلى التحرز من الظلمة ، التي قالوا بخلق إله محدث لها يسمى "أهرمن" ، ومن هنا نشأت عبادة النيران عندهم ، لأنهم لما عظموا النور عبدوا النار لأنها مصدره[4]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - وأما المجوس الثنوية فهم أشهر الناس قولاً بـإلهين ، لكـن القـوم متفقون على أن الإله الخير المحمود هو النور الفاعل للخيرات ، وأما الظـلمة - التي هي فاعل الشرور - فلهم فيها قولان: أحدهما أنه محدث حدث عن فكرة رديـئة مـن الـنور . وعـلى هذا فتكون الظلمة مفعولاً للنور . . . والقول الآخر قولهم: إن الظلمة قديمة كالنور ،

فهؤلاء أثبتوا قديمين لكن لم يجعلوهما متماثلين ، ولا مشتركين في الفعل ، بل يمدحون

---

(١) المصباح المنير لأحمد ابن محمد الفيومي ٢/ ٧٧٥ دار القلم - بيروت .

(٢) القاموس المحيط ص ٧٤٠ .

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/ ٦٩٢ .

(٤) العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وغير المسلمين ، لبدران أبو العينين ص٧٧ .

أحدهما ويذمون الآخر[١] وقال الشهرستاني في حديثه عن المجوسية: «ثم إن التثنية اختصت بالمجوس حتى أثبتوا أصلين اثنين، مدبرين، يقتسمان الخير والشر، والنفع والضر والصلاح والفساد، يسمون أحدهما: النور والآخر الظلمة.

وبالفارسية: يزدان، وأهرمن . . . ومسائل المجوس كلها تدور على قاعدتين اثنتين:

إحداهما: بيان سبب امتزاج النور بالظلمة .

والأخرى: بيان سبب خلاص النور من الظلمة، وجعلوا الامتزاج مبدأ والخلاص معاداً[٢] ثم ذكر أن المجوس لا يساوون بين النور والظلمة كما مر في كلام شيخ الإسلام، قال الشهرستاني: «إلا أن المجوس الأصلية زعموا أن الأصلين لا يجوز أن يكونا قديمين أزليين، بل النور أزلي والظلمة محدثة»[٣] .

وقال ابن حزم - رحمه الله -: «والمجوس يعظمون الأنوار والنيران والمياه . . .»[٤] . وجاء في المعجم الوسيط: تحديد لتاريخ هذا الاسم حيث جاء فيه «والمجوس قوم يعبدون الشمس والقمر والنار، وأطلق عليهم هذا اللقب منذ القرن الثالث للميلاد. وورد أيضاً أن المجوس: الكاهن عند الآشوريين، وقدامى الفرس، والكاهن الذي يقوم على النار. والمجوسية: عقيدة المجوس في تقديس الكواكب والنار[٥] ، إذاً المجوسية ديانة وثنية يدين أتباعها بعبادة الشمس والنيران.

ثالثاً: الموطن الأصلي للمجوسية: الموطن الأصلي لنحلة المجوسية هو بلاد الفرس، يقول أحمد عبد الغفور: والمجوسية الأولى في أساس كل ديانات فارس الثنائية[٦] ، ويتجوز كثير من المصنفين في الأديان والعقائد في تعريفهم للمجوسية قولهم: المجوسية ديانة الفرس، وذلك أن أصل هذه الديانة في الفرس ، وأن معظمهم يتدينون بها، وليس بلازم أن تكون عقيدتهم الوحيدة، أو ألا يتدين بها غيرهم. وقد تطورت المجوسية وتفرقت إلى

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل ٩/ ٣٤٦.

(٢) الملل والنحل ص ٢٣٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٣٤ .

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل ١/ ٢٨ .

(٥) انظر: المعجم الوسيط ٢/ ٨٦١ .

(٦) الديانات والعقائد في مختلف العصور ١/ ٢٤٢ .

فرق عديدة تجمعهم الثنوية فهي ألزم سمة للمجوسية باختلاف مذاهبها[١]

رابعاً: المجوسية في الجزيرة العربية: دخلت المجوسية وما تفرع عنها من المذاهب إلى بلاد العرب، فظهرت أول ما ظهرت في الحيرة ثم انتقلت منها إلى غيرها لكنها لم ترسخ إلا في بني تميم[٢] وقد أكد ذلك ابن قتيبة في كتابه "المعارف" حيث قال: «وكانت المجوسية في تميم منهم زرارة بن عدس التميمي وابنه حاجب ابن زرارة، كان تزوج ابنته ثم ندم، ومنهم أقرع بن حابس وكان مجوسياً، وأبو الأسود جد وكيع بن حسان»[٣]. ومن المناطق التي عرفت المجوسية: اليمن، وعمان، والبحرين، واليمامة[٤] وعرف بعض العرب تقديس النار وعبادتها، قال الألوسي: «وصنف منهم عبدوا النار وهم أشتات من العرب، وكأن ذلك إليهم من الفرس والمجوس»[٥] وكان معروفاً عندهم «نار الاستمطار ونار التحالف»[٦].

وبذلك تكون الديانة المجوسية من الديانات التي كانت تؤثر الناس في كثير من مناطق العالم، بل في البيئة العربية التي بعث منها النبي ﷺ.

المطلب الخامس: المشركون

أولاً: تعريف المشركين: المشركون: هم الذين عبدوا مع الله غيره، ممن لا يدعي اتباع نبي ولا كتاب.

وقيل: هم الذين عبدوا غير الله من الأصنام والأوثان والكواكب[٧]. والمشركون هم الصنف السادس من أهل الملل الوارد ذكرهم في سورة الحج[٨] وقد اعتبرهم القرآن صنفاً خاصاً، ولكن لا يعني ذلك أن غيرهم من أهل الملل الباطلة ليسوا بمشركين فأهل

---

(١) انظر: موسوعة عباس محمود العقاد الإسلامية ١/ ١١٩.

(٢) انظر: محاضرات في تاريخ المذاهب والأديان ص٦٣.

(٣) المعارف، لأبي محمد عبد الله مسلم بن قتيبة تحقيق د. ثروت عكاشة ص ٦٢١.

(٤) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/ ٦٩٣ - ٦٩٤.

(٥) بلوغ الأرب ٢/ ٢٣٣.

(٦) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/ ٦٩٦.

(٧) العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وغير المسلمين لبدران أبو العينين ص ٢٨.

(٨) ورد ذلك في آية: ١٧.

الكتاب مشركون ناهيك عن غيرهم من عبدة النيران .

ثانياً: نشأة الوثنية عند العرب: يقسم الأخباريون العرب إلى ثلاثة أقسام هي(١):

القسم الأول: العرب البائدة وهم العرب القدامى الذين لم يمكن الحصول على تفاصيل كافية من تاريخهم مثل عاد وثمود وطسم وجديس وعملاق ، وهؤلاء أخبارهم مضمورة في أعمار الدهور .

القسم الثاني: العرب العاربة وهم العرب المنحدرة من صلب يعرب بن يشجب بن قحطان وهم الذين يعرفون بالقحطانيين .

القسم الثالث: العرب المستعربة: وهي العرب المنحدرة من صلب إسماعيل وتسمى بالعرب العدنانية . وبها يدخل نسب النبي ﷺ وكانت هذه الأخيرة تقطن في الحجاز بينما كان القحطانيون في جنوب الجزيرة ثم انتشروا في أطرافها بعد انهيار سد مأرب . ومما لا شك فيه أن هؤلاء الذين من ذرية إسماعيل كانوا على دين جدهم إبراهيم - عليه السلام - وكان دينه التوحيد الخالص ، والسؤال هنا؟ كيف دخلت الوثنية في عقيدتهم؟ وعلى يد من؟ وهنا اختلف العلماء إلى **عدة آراء أهمها رأيان:**

الرأي الأول: أن أول من غير دين إسماعيل وإبراهيم وأدخل الأصنام والأوثان إلى بلاد العرب عمرو بن لحي الخزاعي فقد ذكر ابن إسحاق أنه خرج إلى الشام وبها يومئذ العماليق وهم يعبدون الأصنام فاستوهبهم واحداً منها وجاء به إلى مكة فنصبه إلى الكعبة وهو هبل(٢) .

الرأي الثاني: ذكر الكلبي: أن سبب نشأة عبادة الأصنام أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصبابة بمكة ، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، تيمنا منهم لها وصبابة بالحرم وحباً له ، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ، ويحجون ويعتمرون على إرث إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - ثم سلخ ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من

---

(١) انظر السيرة النبوية ، محمد محمد أبو شهبة ١/ ٤٦ ، ٤٧ ، والرحيق المختوم ، للمباركفوري ص ١٠ .

(٢) انظر فتح الباري ، لابن حجر كتاب المناقب باب قصة خزاعة ٦/ ٦٣٤ .

قبلهم(١) والراجح الرأي الأول، فقد ورد في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «**رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجر قصبه في النار وكان أول من سيب السوائب**»(٢) وأورد ابن إسحاق في السيرة الكبرى عن محمد بن إبراهيم التيمي عن أبي صالح بهذا اللفظ «سمعت رسول الله ﷺ يقول: لأكثم بن الجون: رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار؛ لأنه أول من غير دين إسماعيل فنصب الأوثان وسيب السائبة وبحر البحيرة ووصل الوصيلة وحمى الحامي»(٣).

وعلى أية حال فقد انتشرت عبادة الأصنام في العرب بعد التوحيد فعبدوا "هبل" في جوف الكعبة، وود بدومة الجندل، واللات بالطائف، والعزى بوادي النخلة، ومناة بالمشلل من قديد، وسواع في ينبع. كما كان منهم من عبدوا الملائكة أو الجن، وأنكروا الرسل والرسالات والبعث والنشور، وأما عقائدهم في التحليل والتحريم فحدث ولا حرج، فقد كان الميزان والحكم في شريعتهم الهوى. ولم ينج من هذا المستنقع الهابط إلا قليل ممن عرفوا بالحنفاء.

وهؤلاء هم العرب الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ كانوا قبيل بعثته في هذه الحالة التي لا يحسد عليهم. كان الشرك دينهم والظلم شيمتهم، كانوا في ضلال ما بعده ضلال، قال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾(٤).

إذاً فالجزيرة العربية كانت تئن تحت هذا الركام الهائل، من العقائد والتصورات.. والأساطير، والأفكار، والأوهام، والشعائر، والتقاليد، التي يختلط فيها الحق بالباطل، والصحيح بالزائف والدين بالخرافة، والضمير البشري - تحت هذا الركام الهائل - كان يتخبط في ظلمات وظنون لا يستقر منها على يقين. والحياة الإنسانية - بتأثير هذا الركام الهائل - كانت تتخبط في فساد وانحلال في ظلم وذل، وفي شقاء وتعاسة، لا تليق

---

(١) انظر: كتاب الأصنام، لأبي المنذر هشام بن محمد الكلبي ص ٦.
(٢) فتح الباري، لابن حجر ٦/ ٦٣٣ كتاب المناقب باب قصة خزاعة الحديث رقم ٣٥٢١.
(٣) المصدر السابق ٦/ ٦٣٤.
(٤) سورة الجمعة الآية: ٢.

بالإنسان، بل لا تليق بقطيع من الحيوان[١] .

وكان العالم كله - في تلك الفترة - وكأنه بناء أصيب بزلزال شديد فصار كل شيء فيه في غير محله[٢] فكان الإنسان معكوساً قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٣] وفي هذه الحقبة الحرجة - في تاريخ الإنسان - بعث الله نبيه محمداً ﷺ رحمة للعالمين، وأنزل عليه القرآن تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة، ومعجزة خالدة بخلود الزمن. وأمر أن يجاهد به ﴿ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾[٤] فواجه به تلك الطوائف باختلاف مللهم ونحلهم. فحدث ذلك الصراع الفكري والمعترك العقائدي بين القرآن وخصومه إذ أنهم وقفوا مواقف متباينة[٥] . وقد عالج القرآن تلك المواقف كلا بما يناسب، والبشر هو البشر مهما تطورت الحياة المادية، وتقدمت الحضارات.

وما يثيره الأعداء في العصر الحديث أو أثاروه بعد انقضاء عهد الوحي، لم يخرج عما أثاره هؤلاء الذين عاصروا نزول الوحي من شكوك وشبهات، وقد ناقشهم القرآن بطرق فذة وأساليب مقنعة ومناهج متنوعة. فكان لزاماً علينا أن نعرف المنهج القرآني الذي سلكه في معالجته للاتجاهات البشرية . . . لنتخذ منه منهجاً في رسم السلوك فيما يشجر بيننا وبين غيرنا[٦] من أهل الملل ولكن قبل أن نشرع ببيان ذلك المنهج لا بد أن نسجل هنا سؤالا وإشكالية قد تثاران هنا.

أما السؤال فهو: كان في العالم - عند مبعث النبي ﷺ أديان أخرى غير ما ذكره القرآن فلماذا أعرض القرآن عن نقدها وبيان بطلان عقائدها؟ وهل السبب في ذلك يرجع إلى العامل الجغرافي فترك لبعدها عن الجزيرة العربية؟ أم أن تلك الأديان كانت فقيرة في المبادئ فلا تستقطب أتباعا ومن ثم لا تستحق ذكراً، فترك زوالها لعامل الزمن؟ .

وأما الإشكالية فهي: هل نحن ملزمون بدراسة الأديان كلها في العالم أم نكتفي بتلك

---

(١) انظر: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص ٢٢ بتصرف.
(٢) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص١١٣ .
(٣) سورة الملك الآية: ٢٢
(٤) سورة الفرقان الآية: ٥٢ .
(٥) انظر: مناهج الجدل ص ٣ .
(٦) انظر: المصدر السابق ص ٤ .

التي ذكرها القرآن؟ أم نعطي الأولوية تلك التي تؤثرنا وتشكل خطورة على عقيدتنا؟ وهذا السؤال مهم جداً والجواب عنه في غاية من الأهمية ، ونحن بصدد حكم دراسة الملل ، والجواب عن السؤال يحل الإشكالية المطروحة .

فأقول: عند التأمل في القرآن الكريم نرجح أن السبب يعود - والله أعلم - إلى العامل الجغرافي وقلة تأثير تلك الأديان في البيئة التي نزل الوحي فيها ، والمعروف أن القرآن واقعي المنهج والموضوع فلا يطرح قضايا لا تمثل مشاكل حقيقية يعيشها المسلمون ؛ ولذلك لم يحدثنا القرآن عن تاريخ الأمم وعقائدهم إلا ما كان فيه عبرة وعظة . كذلك يجد المتأمل حديث القرآن عن الملل ونقده لها مرتبا حسب قوة تأثير تلك الملل ؛ فالمشركون واليهود كانوا أشد أعداء الإسلام فأخذوا مساحة لم يأخذها أي دين آخر من الأديان معاد للإسلام ثم تأتي النصرانية ثم نجد الصابئة ولم يذكر إلا في ثلاث مواضع من القرآن ، أما المجوسية فلم يرد ذكرها إلا في مكان واحد .

ولترجيحنا للعامل الجغرافي يسهل لنا الإجابة عن الإشكالية الواردة ، وهو أن العالم في هذا العصر صار كالقرية الواحدة بسبب وسائل المواصلات والاتصالات الحديثة ، وتعدد طرق النقل التي تزداد يوما بعد يوم في كفاءتها ، وسرعتها ، وسهولتها ، وقدرتها على نقل الأفكار والعقائد ، ومن ثم لم يعد للبعد المكاني دور ، بل نجد اليوم أن الغارة على العالم الإسلامي قد شنت من كل حدب وصوب ، من الشرق ومن الغرب ، ومن جميع طوائف أهل الملل والنحل ، وهم في هذا يعتمدون على دراسات وتحليلات مضنية عن الإسلام والمسلمين ، ومن ثم صار من الضروري أن يدرك المسلمون ما يكاد لهم ، وأن يأخذوا حذرهم ، وأخذ الحذر لا يكون بالاكتفاء بمواقف الرفض والإدانة ، وإنما يكون بتقديم دراسات عن الأديان والملل الباطلة ، دراسات توضح عقائد الأمم الحاضرة ، وتضع كل ملة مكانها من حيث خطورتها على الإسلام ، كما تحدد أساليب المواجهة الناجحة ، وعلم الملل هو المعني القيام بهذا الدور .

أما إذا حاولنا توضيح منهج القرآن في الرد والمناقشة والجدال مع خصوم الإسلام فإننا نجد أن القرآن الكريم قد أعلن بادئ ذي بدء منطلقات وقواعد أساسية ترسم الطريق وتضبط مواقف الإسلام من الأديان ، ومن أهم هذه المنطلقات أن الدين عند الله الإسلام وأن الرسالة المحمدية وحدها تمثل هذا الدين ، ومن ثم فهي المهيمنة لجميع الأديان السابقة

عـنها ، وأن عـلى الـناس جميعا أن يدخلـوا تحـت لـواء هـذه الرسـالة ، لكن مع بيان أن الاخـتلاف ووجود حق وباطل في هذا الكون سنة من سنن الله القدرية ، وأنه لا إكراه في الديـن مـع وجـوب الدعـوة إلى الله وإقامـة الحجـة عـلى الـناس . وهذه المنطلقات تعتبر الأرضـية الـتي يـنطلق مـنها الإسـلام في الـتعامل مع الأديان الأخرى وعلى ضوئها يحدد علاقته معها .

هـذا في الجانب النظري ، أما في الجانب العملي فإنه لما وجد خصوما أظهروا العداوة واللـدد في الخصـومة والجـدال بالباطل فإن القرآن الكريم جاء في رد هؤلاء بمنهج واضح المعـالم شـامل لجمـيع أنـواع الحجـج والـبراهين . قال السيوطي - رحمه الله تعالى -: «قد اشـتمل القـرآن العظـيم على جميع أنواع البراهين والأدلة ، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحذير يبنى من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله قد نطق به لكن أورده على عادة العرب دون دقائق طرق المتكلمين»[1] .

وسأوضـح هذيـن الجانـبين في المبحـثين الآتـيين مبيـناً مـن خلالها دلالة القرآن على مشروعية "علم الملل" .

* * * * *

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ١٣٥ .

المبحث الثاني

منطلقات قرآنية في دراسة الملل

المطلب الأول: دين الله واحد

من أهم المسائل التي يناقش الباحثون في علم الأديان: مسألة ماهية العلاقة بين الأديان خاصة السماوية منها، وتكثر الآراء حول هذه المسألة، وكثيراً ما ينتهز الأعداء الفرصة، فيزعمون أن الإسلام ما هو إلا مزيج من اليهودية والنصرانية، بيد أن المسلم والمنصف غير المسلم يجد في القرآن الكريم، حقيقة لا يختلف فيها عاقلان منصفان وهي أن القرآن حدد العلاقة بين رسالة الله الأخيرة وما سبقها من الرسائل السماوية، وذلك بوضع أسس ومعالم تحدد هذه العلاقة ومنها:

إن دين الله واحد، فقد جاءت نصوص الكتاب والسنة متضافرة ومقررة بذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ ﴾[1]. فالإسلام دين الله الذي لا يقبل الله ديناً سواه قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[2].

والإسلام دين الأنبياء جميعاً أساسه الدعوة إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة لا شريك له، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾[4].

فدلالة هذه النصوص واضحة على أن دين الأنبياء واحد وهو أن أسس رسالات الرسل ومبادئ دعوتهم واحدة؛ لأنهم رسل من مرسل واحد، فلا خلاف في العقائد التي دعوا إليها وأهمها عقيدة التوحيد، كما أنه لا خلاف في روح العبادات التي أمروا بها، ولا مبادئ التعامل المادي والأخلاقي والسياسي التي نادوا بها، وما نراه الآن من البون الشاسع في المعتقدات بين أتباع الرسالات السماوية الصحيحة الأصل فإنما يرجع

(١) سورة آل عمران الآية: ١٩ .

(٢) سورة آل عمران الآية: ٨٥ .

(٣) سورة النحل الآية: ٣٦ .

(٤) سورة الشورى الآية: ١٣ .

ذلك إلى التحريف والتبديل الذي دخل في مبادئ الديانات الأخرى من أتباع ذوي ا لغايات السيئة الذين حرفوا وبدلوا وفق شهواتهم وأغراضهم الخاصة[١] .

ومن هنا نعلم أن الإسلام ليس اسما لدين خاص ، وإنما هو اسم للدين المشترك الذي هتف به كل الأنبياء وانتسب إليه جميع الموحدين ، قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[٢] . وبالإسلام أمر الله تعالى إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[٣] . وبه قال يعقوب عليه السلام في وصيته لبنيه: ﴿ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[٤] . وبه أجاب الأبناء أباهم يعقوب عليه السلام ﴿ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾[٥] . وهو دين موسى فقد قال لقومه: ﴿ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾[٦] .

وبالإسلام أعلن الحواريون عقيدة التوحيد إذ قالوا لعيسى عليه السلام ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[٧] . فالإسلام شعار دعوة الأنبياء وأتباعهم جميعاً منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر النبوة المحمدية[٨] . ومن ثم فالإسلام بمعناه القرآني . . لا يصلح أن يكون محلاً للسؤال عن علاقة بينه وبين سائر الأديان السماوية ، إذ لا يسأل عن العلاقة بين الشيء ونفسه[٩] . إن هذا التعبير قد يكون غريباً عند بعض الناس لغياب التعبير القرآني للفظ الإسلام عندهم ، واستعمالهم له كالألفاظ التي تعبر عن الأديان الأخرى كاليهودية والنصرانية والمجوسية .

وقد يسأل سائل قائلاً إذا كان هذا هو التعريف العام للإسلام ، أوليس للإسلام

(١) دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم د . زاهر عواض الألمعي ص ٣٦٥ .
(٢) سورة يونس الآية: ٧٢ .
(٣) سورة البقرة الآية: ١٣١ .
(٤) سورة البقرة الآية: ١٣٢ .
(٥) سورة البقرة الآية: ١٣٣ .
(٦) سورة يونس الآية: ٨٤ .
(٧) سور آل عمران الآية: ٥٢ .
(٨) انظر الدين دراز ص: ١٧٥ وانظر الرسل والرسالات د عمر الأشقر ص ٢٤٣ .
(٩) انظر: الدين دراز ص ١٧٦ .

تعريف خاص يطلق على الشريعة التي جاء بها محمد ﷺ والتي أشار إليها بعض العلماء في تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم ﴾[1] . حيث ذكروا أن الشرائع التي جاء بها الأنبياء مختلفة في الأوامر والنواهي أي قد يكون الشيء في شريعة حراماً ، ثم يحل في شريعة أخرى ، والعكس ، وخفيفاً فيزاد في الشدة في هذه دون هذه ، وذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمة البالغة والحجة الدامغة[2] . فهل شريعة محمد ﷺ مستثناة من هذا الحكم فتكون مطابقة وشاملة لجميع الشرائع السماوية السابقة لها؟ .

أقول: إن هذا الأمر لم يقل به أحد ، وليس هذا هو الواقع ، بل إن القرآن يؤكد هذا الاختلاف الذي يكون في الشرائع ، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[3] . ففي قوله تعالى: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ﴾ دليل على أن الشريعة المحمدية أحلت لهم ما حرم عليهم من الأشياء الطيبة بشؤم ظلمهم[4] . وفي قوله: ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ ذكر العلماء أن الشريعة المحمدية خففت عنهم ما كلفوا من التكاليف الشاقة التي هي من قبيل ما كتب عليهم حينئذ من كون التوبة بقتل النفس كتعيين القصاص في العمد والخطأ من غير شرع الدية ، وقطع الأعضاء الخاطئة وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب وإحراق الغنائم[5] .

فهذه الأمور وغيرها منسوخ بالشريعة التي جاء بها محمد ﷺ لاقتضاء التيسير والسماحة إذاً ليس الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ بدعاً من كون الشرائع السماوية فيها اختلاف من رسالة إلى أخرى في الحلال والحرام وفي صور العبادات بحسب أصولها الصحيحة ، وهو أمر يرجع إلى الحكمة الدقيقة في موافقة وضع كل أمة لأساليب تربيتها

---

(١) سورة المائدة الآية: ٤٨ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٦٢ .
(٣) سورة الأعراف الآية: ١٥٧ .
(٤) انظر: تفسير ، لأبي السعود محمد العمادي ٣/ ٢٧٩ .
(٥) انظر الكشاف ، للزمخشري ٢/ ٩٧ .

وإصلاحها ، وامتحان طاعتها وامتثالها لأمر الله ونواهيه ، وذلك بالنظر إلى بيئة تلك الأمم[١] .

وهذا الاختلاف في الشرائع لا يزيل الوحدة في دين الله ولا يسلب اسم الإسلام من - أي دين - إذ الوحدة متحققة في الأصول الثابتة كما تتحقق في مضمون الشرائع ، فالشرائع ما هي إلا استسلام وخضوع وانقياد وطاعة وإخلاص لله سبحانه وتعالى ، قال تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾[٢] . وقال تعالى: ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾[٣] . هذا هو الإسلام في كل زمان ومكان ، وأي دين لا ينطبق عليه هذا المعنى فليس بدين الله ، وهذا الضابط يخرج جميع الملل الحائدة عن منهج الله ، بدءاً بالأديان الوضعية وانتهاء بالأديان السماوية الأصل التي انتهت بالتحريف والتبديل أو بنسخها بالرسالة الأخيرة .

وبذلك فإن الدين الذي جاءه به محمد صلى عليه وسلم دين الله وحده وهو المعيار والميزان الصحيح الذي يحاكم به الأديان والملل الشتى . ومن هذا المنطلق الشرعي ينبغي أن ينطلق المسلم في دراساته للأديان وفي مناظراته ومجادلاته مع أهل الملل والنحل والمذاهب الهدامة وأن يقدم للناس المقياس الذي يقيسون به صدق الأديان . وأن تكون مقارنته الإسلام بالأديان الأخرى من باب ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا ﴾[٤] .

المطلب الثاني: الإسلام هو الدين الخاتم

لم يكتف الإسلام بتصديق الأديان السماوية التي سبقته وهيمنته على أصولها وروحها ، وإنما تجاوز إلى مبدأ أساسي هو أنه خاتم تلك الأديان .

وقد قرر القرآن هذه الحقيقة بالنص قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ

(١) انظر: دراسات في التفسير الموضوعي ص ٣٦٦ .
(٢) سورة البينة الآية: ٥ .
(٣) سورة آل عمران الآية: ٨٤ .
(٤) سورة النساء الآية: ٨٢ .

﴿وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾(١) . قال ابن كثير - رحمه الله تعالى - «فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بالطريق الأولى والأحرى ؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبي ولا ينعكس»(٢) .

وقضية ختم النبوة لا تشكل في الأساس عند المؤمن مشكلة فالمؤمن بالله تعالى يؤمن بأن النبوة اختيار واصطفاء من الله تعالى ابتداءً فإذا ختمها لحكمة يعلمها - وهو الحكيم العليم - فليس لأحد أن يعترض على إرادته واختباره المطلق . وقد ظهرت هذه الحكمة في الرسالة الخاتمة التي اشتملت على مزايا وخصائص لم تسبق لأي دين أخر ، واختيار هذه الخصائص التي تفرد بها الإسلام ، والاقتناع بصدقها وواقعيتها يمنح الإنسان القناعة التامة بأن ديناً كهذا يستحق الانتماء إليه والإشادة به وهو ما تم بالفعل(٣) . قديماً وحديثاً ، ومن أهم هذه الخصائص: التي اختص بها الإسلام من بين الرسائل السماوية ما يلي:

أ - أن الله تعهد بحفظ الإسلام: صرح القرآن أن الله تكفل بحفظ الإسلام ، وذلك بحفظ مصدره وهو القرآن الكريم فسلم بذلك ما أفسد غيره من الأديان التي قبله ، من تحريفات البشر ، ومن عاديات الزمن ، التي أدت بالكتب السابقة إلى الضياع ، الدالة على عدم خلود تلك الأديان ، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك بأوضح بيان فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(٤) ، وبهذا الضمان الذي لم يمنح أي كتاب آخر بقي الإسلام غضاً طرياً كما أنزل من عند الله صافياً من الزيادة ، والنقص .

قال سيد قطب - رحمه الله - «ويستطيع الإنسان أن يقول - وهو مطمئن - إن التصور الإسلامي هو التصور الاعتقادي الوحيد الباقي بأصله الرباني ، وحقيقته الربانية ، فالتصورات الاعتقادية السماوية التي جاءت بها الديانات قبله قد دخلها التحريف في صورة من الصور . . وقد أضيفت إلى أصول الكتب المنزلة شروح وتصورات وتأويلات وزيادات ، ومعلومات بشرية ، أدمجت في صلبها ، فبدلت طبيعتها الربانية ، وبقي الإسلام وحده محفوظ الأصول لم يشب بنبعه الأصيل كدر ، ولم يلبس فيه الحق بالباطل ، وصدق

---

(١) سورة الأحزاب الآية: ٤٠ .
(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦٠ .
(٣) انظر: قالوا عن الإسلام د . عماد الدين خليل ص ٢٨ ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي - الرياض ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م .
(٤) سورة الحجر الآية: ٩ .

الله وعده في شأنه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ وهذه الحقيقة المسلمة التي تجعل لهذا التصور قيمته الفريدة»[1] . وهي برهان قاطع على صدق هذا الدين أولاً ، وعلى أنه خاتم الرسالات ثانياً ، وقد شهد للإسلام بهذه الخاصية خصومه قديماً وحديثاً وقادت كثيراً منهم باعتناق الإسلام ، ونجتزئ هنا طرفاً من شهادات هؤلاء الإيجابية عن القرآن المؤيدة بحفظ الله للقرآن .

فهذه قصة يهودي - أسلم قديماً - بعد أن اختبر الأديان في هذه الخاصية خاصية الحفظ والأصالة يرويها يحيي بن أكثم قال: "دخل يهودي على المأمون فتكلم بأحسن الكلام فدعاه المأمون إلى الإسلام فأبى فلما كان بعد سنة جاءنا مسلماً فتكلم فأحسن الكلام ، فقال له المأمون: ما كان سبب إسلامك؟ قال: انصرفت من حضرتك فأحببت أن أمتحن الأديان فعمدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسح فزدت فيها ونقصت وأدخلتها في الكنيسة فاشتريت مني . وعمدت إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت وأدخلتها في البيعة فاشتريت مني . وعمدت إلى القرآن فعملت ثلاث نسخ فيها نقص وزيادة وأدخلتها على الوراقين فتصفحوها فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها فعلمت أن هذا الكتاب محفوظ فكان هذا سبب إسلامي .

قال يحيي بن أكثم فحججت تلك السنة فلقيت سفيان بن عيينة فذكرت له الحديث ، فقال: مصداق هذا في كتاب الله تعالى قلت: في أي موضع؟ قال: قال الله تعالى في شأن التوراة والإنجيل: ﴿ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ ﴾[2] . فجعل حفظه إليهم فضاع . وقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[3] . فحفظه الله فلم يضع[4] .

أما شهادات المعاصرين المعلنين صراحة أن الإسلام هو الدين الوحيد المحفوظ فلا عد لها ولا حصر . وقد جمع الدكتور عماد الدين خليل حشداً كبيراً من أقوالهم في كتابه "قالوا عن الإسلام" ومما أورد في هذا الكتاب قول سهلب: «لم يقدر لأي سفر ، قبل الطباعة ، أيا

(١) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته سيد قطب ص ٤٣ .

(٢) سورة المائدة الآية: ٤٤ .

(٣) سورة الحجر الآية: ٩ .

(٤) انظر: أحكام القرآن ، للقرطبي ١٠/ ٥ - ٦ ، الخصائص الكبرى ، للسيوطي ، تحقيق د . محمد خليل هراس ٣/ ١٢٨ - ١٢٩ ، دار الكتب الحديث .

كان نوعه وأهميته، أن يحظى بما حظي به القرآن الكريم من عناية، واهتمام، وأن يتوفر له ما توفر للقرآن من وسائل حفظه من الضياع والتحريف، وصانته عما يمكن أن يشوب الأسفار عادة من شوائب[١].

وكذلك قول سوسه: «الواقع أن تحوير وتبديل مصاحف اليهود أثر أجمع عليه العلماء في عصرنا الحالي نتيجة الدرس والتنقيب، وقد جاء ذلك تأييداً علمياً للأقوال الربانية التي أوحت قبل نيف وثلاثة عشر قرناً على لسان النبي العربي الكريم ﷺ أما الفرقان المجيد.. فقد حافظ المسلمون عليه بحرص شديد وأمانة صادقة فهو الكتاب المقدس الفريد الذي أجمع الكل على سلامته وطهارته من التلاعب والتحوير»[٢].

وقال بشير أحمد شاد: «إن القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد الذي يحفظه عن ظهر قلب ألوف مؤلفة من البشر في مختلف بقاع الأرض، بينما نجد أن الكتب المقدسة الأخرى، محفوظة بالخط المطبوع فقط ومن هنا لو حدث لسبب أو لآخر أن اختفت الكتب المطبوعة يظل القرآن هو كتاب الله الوحيد المحفوظ في الصدور، وهكذا يحق له أن يتباهى بأنه ظل في مأمن من التحريف لم ينقص منه حرف واحد، ولم يزد فيه حرف واحد منذ أن نزل به الوحي على رسول الله ﷺ..»[٣]، فهذا الحفظ شرط لأن يكون الإسلام الدين الخاتم للأديان.

ب - **الكمال**: وخصلة فريدة - أخرى تؤهل رسالة محمد ﷺ أن تكون خاتمة الرسالات هي الكمال والشمولية، فالكمال ميزة لم تثبت لغير هذا الدين. قال تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا**﴾[٤].

وقد تنبه أحد أحبار اليهود بهذه الميزة واعترف أنها كرامة خص بها رسالة الله الأخيرة، فقد أورد البخاري - رحمه الله - في تفسير الآية «قالت اليهود لعمر: إنكم تقرأون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيداً. فقال عمر: «**إني لأعلم حيث أنزلت وأين أنزلت،**

---

(١) قالوا عن الإسلام ص ٧٠.

(٢) المصدر السابق ص ٧١.

(٣) المصدر السابق ص ٧٤.

(٤) سورة المائدة الآية: ٣.

وأين رسول الله ﷺ حين أنزلت يوم عرفه. وإنا والله بعرفة»[١].

وقال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[٢]. قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: «قد بين لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء»[٣]. وقال ابن كثير - رحمه الله - في تفسيرها: «فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وكل حلال وحرام وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم»[٤].

وقال تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٥]. وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[٦]. قال ابن تيمية - رحمه الله - بعد ذكره لهذه الآيات «ومثل هذا في القرآن كثير، مما يبين الله فيه أن كتابه مبين للدين كله، موضح لسبيل الهدى كاف لمن اتبعه لا يحتاج معه إلى غيره، يجب اتباعه دون اتباع غيره من السبل»[٧].

فهذا الكمال يستلزم أن يكون الإسلام رسالة الحاضر والمستقبل إلى أن تقوم الساعة فهي تملك القدرة على استجابة مطالب البشر في جميع المجالات سواء فيما يتعلق بالمصالح الدنيوية أو الدينية في المعاش والمعاد، وذلك بجمعها بين الثبات والمرونة، الثبات الذي يكون في الكليات، والأصول والمقومات والقيم الدينية والأخلاقية والمرونة التي تكون في الجزئيات والفروع والشؤون الدينية، وفي الوسائل والأساليب[٨].

جـ - العالمية: والعالمية خصيصة تستلزمها الرسالة الخاتمة، وقد لازمت هذه الخاصية هذه الرسالة في أول ما نزل الوحي على رسول الله ﷺ فهو دين عالمي في نظرته

---

(١) أخرجه البخاري الحديث رقم ٤٦٠٦ انظر: فتح الباري ٨/ ١١٩.
(٢) سورة النحل الآية: ٨٩.
(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٥٣٤.
(٤) المصدر السابق ٢/ ٥٣٥.
(٥) سورة المائدة الآية: ١٥ - ١٦.
(٦) سورة يوسف الآية: ١١١.
(٧) درء تعارض العقل والنقل ١٠/ ٣٠٤
(٨) انظر بحوث في الثقافة الإسلامية، د. حسن عيسى الطاهر وآخرين ص ٤١٤، ٤٥٢ - ٤٥٣.

وفي خطابه غير محدود بمكان ولا بأمة ولا بشعب ولا بطبقة والآيات التي تدل على عموم الإسلام كثيرة ومنها:

١ - قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[(١)] .

٢ - وقوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾[(٢)] .

٣ - وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾[(٣)] . فلفظ "العالمين" عام يشمل جميع العالم.

٤ - وقوله تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾[(٤)] . قال مقاتل: «من بلغه من العرب والعجم، وقيل: الثقلين، وقيل من بلغه إلى يوم القيامة»[(٥)] .

٥ - وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾[(٦)] .

٦ - وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾[(٧)] .

٧ - وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾[(٨)] .

٨ - وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾[(٩)] .

فاللفظة "الناس" لفظ عام وهو اسم جمع معرف بأل وذلك من صيغ العموم[(١٠)] .

---

(١) سورة الأنبياء الآية: ١٠٧

(٢) سورة الفرقان الآية: ١

(٣) سورة ص الآية: ٨٦ - ٨٧ .

(٤) سورة الأنعام الآية: ١٩ .

(٥) انظر: البحر المحيط، لابي حبان ٤/ ٩١، دار الفكر، ط الثانية، ١٤٠٣ / ١٩٨٣م.

(٦) سورة الزمر الآية: ٤١ .

(٧) سورة النساء الآية: ١٧٠ .

(٨) سورة النساء الآية: ١٧٤ .

(٩) سورة الأعراف الآية: ١٥٨ .

(١٠) انظر: منهج الرسول ﷺ في دعوة أهل الكتاب، د. محمد سيدي بن الحبيب الشنقيطي ١/ ٤٠ .

٩ - وقولـه تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾(١) .

فقال الزمخشري: في قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ «إلا إرسالة عامة لهم محيطة بهم لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم»(٢) . وقال ابن كثير في تفسير الآية «أي إلى جميع الخلائق من المكلفين»(٣) .

١٠ - وقولـه تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾(٤) .

١١ - وقولـه تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾(٥) . فالإظهار هو إعلاء هذا الدين على سائر الأديان والملل، وهو دليل واضح لعموم هذه الرسالة وعالميتها .

١٢ - وقولـه تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾(٦) ، ففي هذه الآية الدعوة موجهة لأهل الكتاب بأن يؤمنوا ما أنزل على محمد ﷺ ودخول غيرهم ممن ليس لهم كتاب سماوي في عموم الرسالة من باب الأولى، وإلى جانب ذلك بين القرآن الكريم أن دعوة الأنبياء السابقين كانت خاصة بأقوامهم .

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾(٧) . وقال تعالى عن رسالة عيسى عليه السلام: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾(٨) . فجميع الرسائل السابقة كانت خاصة ومحدودة زماناً ومكاناً، أما رسالة الله الخاتمة فهي عالمية شاملة لجميع الناس ولجميع الأزمنة إلى قيام الساعة ولم يرد نص واحد يخصص عمومها

---

(١) سورة سبأ الآية: ٢٨ .
(٢) الكشاف للزمخشري ٣/ ٢٦٠ .
(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٠٢ .
(٤) سورة التوبة الآية: ٣٣ .
(٥) سورة الفتح الآية: ٢٨ .
(٦) سورة النساء الآية: ٤٧ .
(٧) سورة العنكبوت الآية: ١٤ .
(٨) سورة آل عمران الآية: ٤٨ ، ٤٩ .

بقوم أو بزمان. وهذا ما أجمع عليه المسلمون وصار معلوماً من دين الإسلام ضرورة.

قال ابن تيمية: «إن الذي يدين به المسلمون أن محمداً بعث رسولاً إلى الثقلين الإنس والجن، أهل الكتاب وغيرهم، وأن من لم يؤمن به فهو كافر مستحق لعذاب الله مستحق للجهاد، وهو مما أجمع أهل الإيمان بالله ورسوله عليه»(١).

أما دعوى بعض خصوم الإسلام من أن في القرآن ما يدل على أن الإسلام مخصوص بالعرب فهي لا تستند إلا فهماً مغلوطاً لمعاني تلك النصوص التي زعم أنها تدل على ذلك ومنها: قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾(٢). وقوله: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾(٣). وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾(٤). وقوله تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾(٥). وقوله تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾(٦). قالوا: إن دعوة محمد ﷺ كانت موجهة إلى عشيرته وقومه العرب وبلسانهم، وهذا مما يدل على خصوصيتها.

وهذه الدعوى ليست إلا نتيجة لآفة منهجية عرف في أهل الكتاب هي تجزئة النصوص وإيمان بعضها دون بعض قال تعالى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾(٧). فهنا استدلوا النصوص التي يحتمل ظاهرها أنها تدل على أن الإسلام مخصوص بالعرب، وتركوا نصوصاً تدل دلالة صريحة على عمومية الإسلام. وقد أجاب العلماء عن هذه الفرية، وذكروا أن النذارة الخاصة لا تنافي العامة بل هي فرد من أجزائها(٨). وإنما خص بالأقربين لأن الاهتمام بشأنهم أولى وهدايتهم إلى الحق أقدم(٩). وقيل أمر بإنذار الأقربين لئلا يأخذه ما يأخذ القريب للقريب من العطف والرأفة ولا

---

(١) الجواب الصحيح لشيخ الإسلام ابن تيمية ١/ ١٢٦ مطبعة المدني، القاهرة.
(٢) سورة الشعراء الآية: ٢١٤.
(٣) سورة يوسف الآية: ٢.
(٤) سورة الشعراء الآية: ١٩٨، ١٩٩.
(٥) سورة القصص الآية: ٤٦.
(٦) سورة يس الآية: ٦.
(٧) سورة البقرة الآية: ٨٥.
(٨) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٢٨
(٩) انظر: فتح القدير ٤/ ١١٩ - ١٢٠

يحابيهم في الإنذار والتخويف[1] .

المطلب الثالث: الاختلاف والتعدد من سنن الله في الخلق

إن مقتضى كون رسالة محمد - صلى الله عليه - وسلم عامة للناس وخاتمة للرسالات السماوية أن يدخل الناس كلهم في هذا الدين ، ولكن لم يرد الله ذلك كوناً وقدراً - وإن أراده أمراً وشرعاً - وذلك أن «لله في خلقه وكونه سننا كونية يجري الكون بموجبها حسب أوامره وإرادته»[2] .

ومن تلك السنن سنة الله القدرية في اختلاف الناس ، وسنة التدافع بين الحق والباطل إلى قيام الساعة ، وأهم اختلاف يكون بين الناس هو الاختلاف في العقائد والأفكار والآراء . قال الله تعالى مبيناً هذه السنة الكونية التي اقتضت حكمته امتحاناً وابتلاء لعباده لا جبراً وقسراً: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾[3] .

قال الإمام الطبري في تفسير هذه الآية: «ولا يزال الناس مختلفين في أديانهم وأهوائهم على أديان وملل وأهواء شتى ، إلا من رحم ربك فآمن بالله وصدق رسله ، وللاختلاف بالشقاء والسعادة خلقهم ، لأن الله - جل ذكره - ذكر صنفين من خلقه ، أحدهما: أهل اختلاف باطل والآخر أهل حق»[4] . وقال الرازي: «والمراد افتراق الناس في الأديان والأخلاق والأفعال»[5] . وقال الشاطبي: «فأخبر - سبحانه - أنهم لا يزالون مختلفين أبداً مع أنه إنما خلقهم للاختلاف»[6] .

وقال ابن كثير: «يخبر - تعالى - أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة من إيمان وكفر - ولكن لم يرد ذلك كوناً وقدراً - فلا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقاداتهم ومللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم»[7] . وقال الحسن البصري في قوله

---

(١) انظر: الكشاف ٣/ ١٢٩ .

(٢) معالم قرآنية في الصراع مع اليهود ، د . مصطفى مسلم ص ١٥٨ .

(٣) سورة هود الآية: ١١٨ .

(٤) انظر: جامع البيان ٧/ ١٤٢ - ١٤٤ .

(٥) تفسير الرازي ١٨/ ٧٦ .

(٦) الاعتصام ، لأبي إسحاق الشاطبي ٢/ ١٦٥ .

(٧) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٢٣ .

تعالى: ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ أي مختلفون على أديان شتى. وقال في قوله تعالى: ﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ قال وللاختلاف خلقهم(١).

وقال ابن سعدي في تفسير الآية: «يخبر - تعالى - أنه لو شاء لجعل الناس أمة واحدة على الدين الإسلامي، فإن مشيئته غير قاصرة، ولا يمتنع عليه شيء، ولكنه اقتضت حكمته أن لا يزالوا مختلفين، مخالفين للصراط المستقيم، متبعين للسبل الموصلة إلى النار كل يرى الحق فيما قاله، والضلال في قول غيره»(٢).

وقال تعالى مبيناً لنبيه محمد ﷺ هذه السنة القدرية التي لا تتبدل ولا تتغير: ﴿ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾(٣). وقال: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾(٤). فلم يرد - سبحانه وتعالى - هدايتهم جميعاً ولم ينفعهم حرص النبي ﷺ على هدايتهم. وبنفس هذا التوجيه وجه الله المؤمنين فقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاء اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾(٥).

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أقسام الاختلاف الوارد في القرآن الكريم في معرض حديثه عن الاختلاف وأسبابه، ولولا خشية الإطالة لنقلته هنا لدقته وعظم فائدته ولكن نلخصه فيما يلي:

القسم الأول: اختلاف يذم فيه كلا الطائفتين المتنازعتين ويدخل فيه:

أ - الاختلافات التي تحدث بين أهل الباطل في أديانهم وأفكارهم الباطلة كاليهود والنصارى.

ب - ما يقع بين المسلمين من اختلاف التنوع، فحصل بغي من كلا الطرفين.

القسم الثاني: ما يذم فيه أحد الطائفتين المتنازعتين ويحمد الأخرى وهو اختلاف التضاد الذي يكون الحق عند طائفة من الطائفتين المتنازعتين كالخلاف الذي يقع بين

---

(١) المصدر السابق.
(٢) تفسير ابن السعدي ٣/ ٤٧٠.
(٣) سورة يونس الآية: ٩٩.
(٤) سورة يوسف الآية: ١٠٣.
(٥) سورة الرعد الآية: ٣١.

المسلمين وغيرهم من أهل الملل .

القسم الثالث: ما يحمد فيه كلا الطائفتين المختلفتين وهو من اختلاف التنوع الذي لم يحصل بغي من أحد الطرفين بل كل واحد منهما مصيب[(١)] . ومع أن الاختلاف مما قدره الله - عزوجل - على عباده إلا أنه لا يحب ولا يرضى لهم به ؛ ولذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب ليحكم بين الناس فيما كانوا فيه يختلفون ، قال الله تعالى: ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ** ﴾[(٢)] .

فمن وظيفة الأنبياء والرسل والمهمات التي بعث الله رسله - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - بيان مواطن النزاع والفصل في موارد الإشكال . وفي ذلك يقول الحق - عز وجل -: ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ * وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَاذِبِينَ** ﴾[(٣)] . ذكر العلماء في متعلق اللام في قوله تعالى: ﴿ **لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ** ﴾ تفسيران:[(٤)] .

الأول: أنها تتعلق بقوله: "بلى" أي يبعثهم "ليبين لهم" والضمير في قوله "لهم" عائد إلى من يموت ، لأنه شامل للمؤمنين والكافرين .

الثاني: الآخر أنها تتعلق بقوله ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً** ﴾ أي بعثناه ﴿ **لِيُبَيِّنَ لَهُمُ** ﴾ وقد رجح سليم الهلالي التفسير الأخير[(٥)] . واستدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾[(٦)] ، وبذلك يكون من الضروري أن يعلم المسلمون أنهم مطالبون القيام بهذه الوظيفة وظيفة البيان

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ١٣٠ - ١٣٩ ، مع هامش التحقيق ص ١٣٧ .

(٢) سورة البقرة الآية: ٢١٣ .

(٣) سورة النحل الآية: ٣٦ - ٣٩ .

(٤) أضواء البيان للشنقيطي ٣/ ٢٧١ .

(٥) انظر: مناظرات أئمة السلف سليم بن عبد الهلالي ص ١٥ .

(٦) سورة النحل الآية: ٦٤ .

والحكم بين الناس فيما كانوا فيه يختلفون ولا يدرك ذلك إلا بمعرفة أحوال الأمم وعقائدها، والحكم فيما بينهم بالحق.

المطلب الرابع: لا إكراه في الدين

سبق أن بينا أن الإسلام خاتم الأديان، وأن دعوته عالمية، وأن حكمة الله اقتضت ألا يؤمن الناس به جميعاً - لحكمة أرادها هو سبحانه - ومن ثم لم يجعل الله الإيمان جبراً وقسراً ولم يطلب من الناس جميعهم دخول هذا الدين قهراً أو كرهاً ليكون الدين الوحيد في العالم وإنما ترك لكل إنسان حريته الدينية بعد أن أوضح له طريق الهداية من طريق الضلال بالأدلة الواضحة والبراهين الساطعة، وبين أن من سلك طريق الخير نجا وفاز، وأن من سلك طريق الشر خاب وخسر ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾[1].

ومن هنا جاء القرآن مقرراً لمبدأ "الحرية في الاعتقاد" قال تعالى: ﴿ **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾[2]. قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسير هذه الآية «أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح، جليّ بدلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله الإسلام، وشرح صدره، ونور بصيرته دخل على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً»[3].

ونقل الرازي عن أبي مسلم والقفال في تفسير الآية «أن معناها أن الله تعالى أرشدنا إلى عدم اللجوء إلى الجبر والإكراه في الدين، وأرشدنا الله إلى ترك حرية الاختيار، ولما كان تبارك وتعالى قد عرض دلائل التوحيد بأسلوب واضح وطريقة قاطعة بحيث لم يعد هناك مجال لعذر، فقد ذكر بعدها أنه لم يعد هناك من سبب لأن يظل الكافر على كفره، وحتى إذا لم يؤمن فإنه لا يبقى إلا أسلوب واحد في التعامل معه، وهو إجباره على الإيمان، ولكن لا يجوز أن يحدث هذا في هذه الدنيا التي هي دار امتحان واختبار لأن

---

(١) سورة الزلزلة الآية: ٧ - ٨.

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٥٦.

(٣) تفسير ابن كثير ١/ ١٧٣.

الإكراه في الدين يلغي ويبطل الهدف من الامتحان والاختبار . وقد قال تعالى: ﴿ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ﴾[(١)] .

وقال في موضع آخر ﴿ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾[(٢)] . وقال في سورة الشعراء: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾[(٣)(٤)] .

وأيد الرازي هذا المعنى بقوله: «مما يؤكد هذا القول أنه تعالى قال بعد هذه الآية: ﴿ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ فظهرت الدلائل ووضحت البينات ولم يبق بعدها إلا طريق القسر والإلجاء والإكراه وذلك غير جائز لأنه ينافي التكليف»[(٥)] .

وبين صاحب المنار سبب منع الإكراه بقوله: «الإيمان وهو أصل الدين وجوهره إذعان النفس ويستحيل أن يكون الإذعان بالتزام الإكراه، وإنما يكون بالبيان والبرهان، ولذلك قال تعالى بعد نفي الإكراه: ﴿ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ أي قد ظهر أن في هذا الدين الرشد والهدى والفلاح والسير في الجادة على نور، وأن ما خالفه من الملل والنحل على غي وضلال»[(٦)] .

وبذلك صار عدم الإكراه في الدين قاعدة كبرى من قواعد دين الإسلام، وركن عظيم من أركان سياسته فهو لا يجيز إكراه أحد على الدخول فيه، ولا يسمح لأحد أن يكره أحداً من أهله على الخروج منه»[(٧)] . فالآية واضحة الدلالة في منع جميع أنواع الإكراه الهادفة إلى فرض اعتناق الإسلام ولكن هل هذا يعني أن جميع الناس لا يكرهون على الدين أم أن ذلك خاص ببعض؟ وللإجابة عن هذا لابد أن نرجع إلى أقوال أهل العلم في تفسير الآية: ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ .

اختلف العلماء في تفسير الآية إلى عدة أقوال أهمها:

---

(١) سورة الكهف الآية: ٢٩ .
(٢) سورة يونس الآية: ٩٩ .
(٣) سورة الشعراء الآية: ٣ - ٤ .
(٤) تفسير الرازي ٧/ ١٤ .
(٥) المصدر السابق ٧/ ١٤ - ١٥ .
(٦) تفسير المنار ٢/ ٣٧ .
(٧) المصدر السابق ٢/ ٣٩ .

١ - أن الآية منسوخة بآية القتال(١) . وذكر أهل العلم أن هذا القول ضعيف(٢) . قال عبد الرحمن بن السعدي «فمن ظن من المفسرين أن هذه الآية تنافي آيات الجهاد فجزم بأنها منسوخة فقوله ضعيف لفظاً ومعنى»(٣) .

٢ - أنها خاصة بأهل الكتاب ، ومن ألحق بهم كالمجوس فيكون «معنى الآية ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ إنما هو لا إكراه في الدين لأحد ممن حل قبول الجزية منه بأدائه الجزية ، ورضاه بحكم الإسلام»(٤) . وقد رجح كثير من أهل العلم هذا الرأي(٥) . قال أبو جعفر الطبري «وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: نزلت هذه الآية في خاص من الناس ، وقال عني بقوله تعالى ذكره ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ أهل الكتابين والمجوس وكل من جاء إقراره على دينه المخالف دين الحق(٦) . وعلى هذا الرأي الأخير يجوز الإكراه في الدين على كل من لم يقبل الجزية منه ، ولكن العلماء اختلفوا على من لا يجوز أخذ الجزية منه ، ويتلخص ذلك:

اتفق العلماء على جواز أخذ الجزية من اليهود والنصارى ، كما اتفقوا - أيضاً - على عدم أخذها من المرتدين وألحقوا المجوس باليهود والنصارى(٧) . لورود السنة على ذلك(٨) . أما ما عداهم فقد اختلفت فيهم آراء العلماء:

أ - فذهب الإمام الشافعي - رحمه الله - إلى أنها لا تؤخذ إلا من له كتاب أو شبه كتاب(٩) . وهو ظاهر مذهب الإمام أحمد(١٠) .

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٣/ ١٧ وتفسير ابن كثير ١/ ٢٧٣ ، وكتاب الناسخ والمنسوخ ، لأبي جعفر النحاس ص ٧٩ .

(٢) انظر: تفسير الطبري ٣/ ١٧ .

(٣) تفسير ابن السعدي ١/ ٣١٧ .

(٤) تفسير الطبري ٣/ ١٧ .

(٥) المصدر السابق ٣/ ١٧ .

(٦) انظر: تفسير الطبري ٣/ ١٧ .

(٧) انظر: الاستعانة بغير المسلمين في الفقه الإسلامي ، د . عبد الله بن إبراهيم الطريقي ص ٣٩ ، أحكام أهل الذمة لابن القيم الجوزية ١/ ١٨ .

(٨) ورد ذلك في صحيح البخاري ، الحديث رقم ٣١٥٧ ، انظر الفتح ٦/ ٢٩٧ .

(٩) انظر: كتاب الأم ، لأبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي ٤/ ١٥٨ ، وانظر: المهذب ، لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي ٢/ ٢٥٠ ، مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر .

(١٠) انظر: المغني ، لابن قدامة ١٣/ ٢٠٨

ب - وذهب الإمام أبو حنيفة - رحمه الله - إلى أنها تؤخذ من جميع أهل الملل إلا مشركي العرب والمرتدين[١] .

جـ - أما الإمام مالك - رحمه الله تعالى - فالمشهور من مذهبه أنه تؤخذ من كل كافر يصح سباؤه ولا يخرج من ذلك إلا المرتدون[٢] . وعلى هذا ذهب الإمام الأوزاعي والإمام الثوري[٣] .

وأدلة أصحاب القول الأول ظاهرة ، أما أصحاب القول الثاني فقالوا: إن النبي ﷺ لم يأخذ الجزية من أحد من مشركي العرب ، وقالوا: «العلة في عدم إلحاق عبدة الأوثان بأهل الكتاب ، هي أن كفر المشركين أغلظ من كفر أهل الكتاب ، فإن أهل الكتاب معهم من التوحيد وبعض آثار الأنبياء ما ليس مع عباد الأصنام . .»[٤] .

أما أصحاب الرأي الثالث ، فقد استدلوا حديث بريدة - رضي الله عنه - وفيه «وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم»[٥] . والخصال هي الإسلام ، الجزية ، القتال . وذكرت في الحديث على هذا الترتيب ، وظاهر الحديث يدل على جواز أخذ الجزية من عموم الكفار لقوله: "عدوك" وهو لفظ عام[٦] . لامخصص له[٧] . وقد أجاب هؤلاء عن الآية ﴿ قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾[٨] . بأنها - وإن ذكرت اليهود والنصارى - فإنها لاتنص على الحصر بدليل إلحاق المجوس بهم كما وردت به السنة[٩] .

وقد مال إلى هذا الرأي كثير من أ هل العلم منهم ابن القيم الجوزية ، فقد ذكر بعد إيراده لحديث "بريدة" السابق أن الجزية تؤخذ من كل كافر ، وأنه لايقال أن هذا مخصوص بأهل

---

(١) انظر: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ٩/ ٤٣٢٩ .

(٢) انظر: مواهب الجليل لشرح مختصر خليل ، لأبي عبد الله محمد بن محمد المعروف بالخطاب ٣/ ٣٨١ .

(٣) انظر: المغني ابن قدامة ١٣/ ٢٠٨ ، حرية الاعتقاد في الشريعة الإسلامية ص ٦٧ .

(٤) انظر: أحكام أهل الذمة ١/ ٢٤ .

(٥) أخرجه مسلم ، الحديث رقم ١٧٣١ ، مسلم للنووي ١٢/ ٢٨٠ - ٢٨٣ .

(٦) انظر: سبل السلام شرح بلوغ المرام ٤/ ٩٢ .

(٧) انظر السيل الجرار ، للشوكاني ٤/ ٥٧٠ تحقيق محمود إبراهيم زايد .

(٨) سورة التوبة الآية: ٢٩ .

(٩) انظر الاستعانة بغير المسلمين ص ٤١ .

الكتاب خاصة ؛ إذ اللفظ لا يتأتى . . . كما لا يقال إن القرآن يدل على اختصاصها بأهل الكتاب فإن الله سبحانه أمر بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، والنبي ﷺ أمر بقتال المشركين حتى يعطوا الجزية ، فيؤخذ من أهل الكتاب بالقرآن ومن عموم الكفار بالسنة .

وقد أخذها رسول الله ﷺ من المجوس وهم عباد النار ، ولافرق بينهم وبين عبدة الأوثان وأن عدم أخذ النبي ﷺ الجزية أحدا من عباد الأوثان ليس إلا أن آية الجزية نزلت عام تبوك في السنة التاسعة من الهجرة بعد أن أسلمت جزيرة العرب ولم يبق بها أحد من عباد الأوثان فأخذ من بقي على كفره من النصارى والمجوس . .»[١] . وهو ظاهر كلام ابن تيمية فقد ذكر أن جمهور العلماء على أنه لا يفرق بين العرب وغيرهم[٢] . وأنه لا يخص العرب بحكم[٣] . وقال ابن العربي: «والصحيح قبولها من كل أمة وفي كل حال عند الدعاء إليها والإجابة بها»[٤] .

وقال المودودي: وعلى هذا الأساس كان سلوك المسلمين منذ الصدر الأول للإسلام وحتى يومنا فقد أخذوا الجزية من الكفار جميعهم بمختلف الأنواع»[٥] . وإلى هذا ذهب وهبة الزحيلي فقال: «وأرجح الأقوال عندي أن الآية ليست منسوخة ولا مخصوصة ، إذ أن الآثار التي استند إليها المخصصون ليست قاطعة الدلالة على التخصيص ؛ لأن النص القرآني عام ، وإفراد فرد من العام بحكم العام لا يخصصه»[٦] . وصحح الدكتور عبد الله الطريقي هذا الرأي وقال: «وعليه . . فلا إكراه لأحد عل دين الله بل هو الاختيار ، والخيار بين الإسلام والجزية والقتال باستثناء المرتدين»[٧] .

* * * * *

---

(١) انظر: أحكام أهل الذمة ١/ ٢١ - ٢٢ بتصرف .

(٢) انظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٩ / ١٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٣ .

(٤) أحكام القرآن ٢/ ٩١٠ .

(٥) انظر: شريعة الإسلام في الجهاد والعلاقات الدولية لأبي الأعلى المودودي ، ص ١٢٣ .

(٦) آثار الحرب في الفقه الإسلامي ، د . وهبة الزحيلي ص ٨١ .

(٧) انظر: الاستعانة بغير المسلمين ص ٤١ .

المبحث الثاني

دلالة منهج القرآن في جدال الخصوم على مشروعية علم الملل

الأصل في دعوة الناس إلى الحق أن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة، قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[١]. بيد أن جدال الجاحدين الذين يعلنون الخصومة ضد الحق من الأمور اللازمة لدفع أباطيلهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «إن للإنسان ثلاثة أحوال: إما أن يعرف الحق ويعمل به، وإما أن يعرفه ولا يعمل به وإما أن يجحده، فأفضلها أن يعرف الحق ويعمل به، والثاني أن يعرفه لكن نفسه تخالفه فلا توافقه على العمل به، والثالث من لا يعرفه بل يعارضه، فصاحب الحال الأول هو الذي يدعى بالحكمة، فإن الحكمة هي العلم بالحق والعمل به، والأكمل من الناس من يعرف الحق ويعمل به فيدعى بالحكمة والثاني من يعرف الحق لكن تخالفه نفسه فهذا يوعظ بالموعظة الحسنة، والنفس لها أهواء تدعوه إلى خلاف الحق وإن عرفته.

وعامة الناس يحتاجون إلى الموعظة الحسنة وإلى الحكمة فلابد من الدعوة بهذا وهذا. وأما الجدال فلا يدعى به بل هو من باب دفع الصائل، فإذا عارض الحق معارض جودل بالتي هي أحسن ولهذا قال تعالى: ﴿ وَجَادِلْهُم ﴾ فجعله فعلاً مأموراً مع قوله: ﴿ ادْعُ ﴾ فأمره بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وأمره أن يجادل بالتي هي أحسن، وقال في الجدال ﴿ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ولم يقل "بالحسن" كما قال في الموعظة؛ لأن الجدال فيه مدافعة ومغاضبة فيحتاج أن يكون بالتي هي أحسن حتى يصلح فيه من الممانعة والمدافعة، والموعظة لا تدافع كما يدافع المجادل، فما دام الرجل مستعدا للحكمة أو الموعظة الحسنة أو هما معاً لم يحتج إلى مجادلة فإذا جودل، جودل بالتي هي أحسن...»[٢].

والمتأمل لآيات القرآن يجد هذه الطرق الثلاثة فقد دعا بالحكمة ووعد وذكر ليرد الناس إلى الحق، وعند ما أعلن أتباع الملل التي كانت سائدة عند نزول الوحي المعارضة للإسلام واحتدم الصراع العقدي بين تلك الديانات وبين الإسلام كان القرآن الكريم

---

(١) سورة النحل الآية: ١٢٥.

(٢) الرد على المنطقيين ٤٦٧.

يتنزل على رسول الله ﷺ محتوياً أفضل الأساليب وأحكم مناهج الجدل ملزماً للخصم ومفحماً له من أقرب الطرق وأشدها إلزاماً وقد يسلك مع الخصم مسلك المجارات والإمهال والتدرج ليستدرجه إلى التسليم أو الإلزام بطريق المنطق الصحيح[(١)].

ومن أهم مسالك القرآن في جدال أتباع الملل المختلفة ونقد عقائدها ما يلي:

١ - **الاستدلال بضرب الأمثلة:** والأمثلة ضرب من ضروب القرآن لتقريب الحقائق وتوضيح المعاني وقد اتخذ القرآن هذا المسلك مدخلاً لنقد أباطيل أهل الملل ودحض معتقداتهم الفاسدة انظر إلى قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[(٢)]. فالله - سبحانه - ضرب هذين المثلين لبيان بطلان عبادة الأوثان وهو أنه لا يستوي عند العاقل غير القادر مع القادر فكيف يسوي الوثني بين القادر - سبحانه - وبين أحجار لا تضر ولا تنفع. والأمثلة القياسية التي استخدمها القرآن كثيرة فقد استخدم الأقيسة الإضمارية التي تحذف فيها إحدى المقدمات مع وجود ما ينبئ عن المحذوف[(٣)].

وكذلك قياس الأولى؛ وهو الذي تكون العلة في الفرع أولى بالحكم منها في الأصل كما استخدم قياس الشبه الذي يوضح مشابهة الكفار بعضهم بعضاً[(٤)].

٢ - **الاستدلال بالقصص القرآنية:** القصص أحد المناهج التي اتخذها القرآن سبيلاً للإقناع والتأثير حيث يساق الدليل في قصة ويؤخذ صورته من واقع الحياة في حوادثها فتصغي إليه الآذان وتميل إليه النفوس وتكون في ضمن القصة أدلة على بطلان الشرك وعبادة الأوثان، وقد يكون موضوع القصة رسولاً يعرفون قدره ومكانته كإبراهيم عليه السلام فإن أغلب العرب كانت تعظمه وتنتسب إليه وتزعم أنها على ملته ومجيء الدليل

---

(١) انظر: تاريخ الجدل، لمحمد أبو زهرة ص ٧١.
(٢) سورة النحل الآية: ٧٥ - ٧٦.
(٣) انظر: مناهج الجدل في القرآن ص ٧٠.
(٤) انظر: الحوار مع أهل الكتاب د. خالد القاسم ص ١٩٠ - ١٩١.

على لسان رسول يقر بفضله المخالف كإبراهيم عند العرب.. يعطي الدليل قوة فوق قوته الذاتية[١].

٣ - السبر والتقسيم: والسبر والتقسيم باب من أبواب الاستدلال الكاشف للحقائق ويتخذه الجادل سبيلاً لإبطال حجة من يجادله، ويكون ذلك بحصر الأوصاف للموضوع الذي يجادل فيه ثم يبين أنه ليس في أحد هذه الأوصاف خاصية تسوغ قبول الدعوة فيه فتبطل دعوى الخصم عن طريق هذا الحصر المنطقي للموضوع[٢].

وقد ذكر السيوطي - رحمه الله تعالى - أن من أمثلته قوله تعالى: ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[٣].

ثم بين وجه الاستدلال بقوله: «فإن الكفار لما حرموا ذكور الأنعام تارة وإناثها أخرى رد تعالى عليهم بطريق السبر والتقسيم فقال: إن الخلق لله تعالى خلق من كل زوج مما ذكر ذكراً وأنثى فمم جاء تحريم ما ذكرتم أي ما علته؟ لا يخلو إما أن يكون من جهة الذكور أو الأنوثة، أو اشتمال الرحم الشامل لهما، أو لا يدري له علة وهو التعبدي بأن أخذ ذلك عن الله تعالى، والأخذ عن الله تعالى إما بوحي وإرسال رسول، أو سماع كلامه ومشاهدة ذلك عنه وهو معنى قوله: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَذَا ﴾. فهذه وجوه التحريم لا تخرج عن واحد منها:

الأول: يلزم عليه أن يكون جميع الذكور حراماً.

الثاني: يلزم عليه أن تكون جميع الإناث حراماً.

الثالث: يلزم عليه تحريم الصنفين معاً.

فبطل ما فعلوه من تحريم بعض في حالة وبعض في حالة، لأن العلة على ما ذكر

---

(١) انظر تاريخ الجدل ص ٦٥، مناهج الجدل في القرآن للألمعي ص ٧٣، بتصرف.

(٢) مناهج الجدل في القرآن للألمعي ص ٦٨.

(٣) سورة الأنعام الآية: ١٤٣ - ١٤٤.

تقتضي إطلاق التحريم، والأخذ عن الله بلا واسطة باطل، ولم يدعوه، وبواسطة رسول كذلك، لأنه لم يأت إليهم رسول قبل النبي ﷺ وإذا بطل جميع ذلك ثبت المدعى وهو أن ما قالوه افتراء على الله وضلال»[١].

٤ – **التحدي والمباهلة**: فقد تحدى الله الكفار أن يأتوا بمثل هذا القرآن[٢]. أو بعشر سور[٣]. أو بسورة من مثله[٤]. وذلك حينما زعموا أن القرآن مفترى. والمباهلة هي التلاعن وهي نوع من التحدي، وقد وردت في قوله تعالى ﴿ **فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ** ﴾[٥]. فقد أمر الله نبيه محمدا ﷺ المباهلة حين رفض وفد نصارى نجران الإيمان بعد الحوار واستبانة الحق لهم.

٥ – **القول بالموجب**: وهو الأخذ بموجب كلام الخصم واستنباط ما يريده من ذلك قوله تعالى في شأن المنافقين[٦]. ﴿ **لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾[٧]. فالأعز في كلام المنافقين وقعت كناية عن فريقهم والأذل كناية عن فريق المؤمنين، وأثبت المنافقون لفريقهم إخراج المؤمنين من المدينة فأثبت الله في الرد عليهم صفة العزة لغير فريقهم إذ أثبتها – تبارك وتعالى – له ولرسوله وللمؤمنين فكأنه قيل صحيح ذلك ليخرجن الأعز منها الأذل لكن الأعز هو الله ورسوله والمؤمنون وأنتم الأذلة وستخرجون منها[٨].

٦ – **التسليم**: والتسليم «هو أن يفرض المحال إما منفياً أو مشروطاً بحرف الامتناع لكون المذكور ممتنع الوقوع لامتناع وقوع شرطه، ثم يسلم وقوع ذلك تسليماً جدلياً

---

(١) انظر: الاتقان في علوم القرآن، للسيوطي ص ١٣٦ – ١٣٧ بتصرف بسيط.
(٢) ورد ذلك في سورة الاسراء الآية: ٨٨.
(٣) سورة هود الآية: ١٣.
(٤) سورة البقرة الآية: ٢٣.
(٥) سورة آل عمران الآية: ٦١.
(٦) تاريخ الجدل ص ٧٢.
(٧) سورة المنافقون الآية: ٨.
(٨) انظر: الإتقان في علوم القرآن ص ١٣٧، مناهج الجدل في القرآن الكريم ص ٧٤ – ٧٥.

ويدل على عدم فائدة ذلك على تقدير وقوعه»[١] . ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[٢] .

قال السيوطي في معنى الآية: «المعنى ليس مع الله من إله ولو سلم أن معه سبحانه وتعالى إلهاً لزم من ذلك التسليم ذهاب كل إله من الاثنين بما خلق وعلا بعضهم على بعض ، فلا يتم في العالم أمر ولا ينفذ حكم ولا تنتظم أحواله ، والواقع خلاف ذلك ففرض إلهين فصاعداً محال لما يلزم منه المحال»[٣] .

٧ – **الإسجال:** وهو أن تثبت على لسان خصمك ألفاظاً في سياق آخر تسجل به عليه ماكان عنده محل شبهة وإنكار[٤] .

قال السيوطي: «هو الإتيان بألفاظ تسجل المخاطب وقوع ما خوطب به»[٥] .

وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾[٦] .

٨ – **الانتقال في الاستدلال مراعاة لمداك الخصم:** «وهو أن ينتقل المستدل إلى استدلال غير الذي كان أخذاً فيه لكون الخصم لم يفهم وجه الدلالة من الأول[٧] . أو فهمه وجه الدلالة ؛ ولكنه يقصد المغالطة فيأتي بدليل أو مثال آخر لا يجد الخصم معه مفراً دون الانقطاع أو التسليم»[٨] .

ومثال ذلك ما حكاه القرآن عن مناظرة إبراهيم – عليه السلام – للنمرود حيث قال

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ص ١٣٧ .
(٢) سورة المؤمنون الآية: ٩١ .
(٣) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ١٣٧
(٤) مناهج الجدل في القرآن للألمعي ص ٧٦ .
(٥) الإتقان في علوم القرآن ، للسيوطي ٢/ ١٣٧ .
(٦) سورة الأعراف الآية: ٤٤ – ٤٥ .
(٧) الاتقان في علوم القرآن ، للسيوطي ٢/ ١٣٧ .
(٨) مناهج الجدل في القرآن ص ٧٦ .

تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[١].

٩ - المناقضة: «وهي تعليق أمر على مستحيل للدلالة على استحالة وقوعه»[٢]. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾[٣].

١٠ - مجارات الخصم لتبيين عثرته: «والمجارات هو أن تسلم للخصم بعض مقدماته على الإشارة إلى أنها لاتنتج ما يريده هو بل هي مساعدة على انتاج ما تريده أنت»[٤]. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾[٥]. يقول الشيخ محمد أبو زهرة: «فترى من ذلك أن الرسل سلموا بالمقدمة التي بنى عليها الأقوام رفضهم، ولكنهم نقضوا النتيجة بقولهم ﴿ وَلَكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ فكأنهم قالوا ما قلتموه من أننا بشر حق، ولكن ما تريدون أن تبنوه عليه من إثبات أننا لسنا برسل باطل به، لأن الله يمن على من يشاء من عباده، فلا مانع من أن يمن علينا بالرسالة»[٦].

١١ - مطالبة الخصم بتصحيح دعواه وبيان أنها خال من الحجة والبرهان: وذلك أن كثيراً من دعاوى أهل الملل كانت خالية من الدليل ولم تكن إلا مجرد أماني فطالبهم القرآن بتصحيح ذلك وإلا سقطت دعواهم ومن ذلك دعوى اليهود بأن النار لن تمسهم إلا في أيام معدودات كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٥٨.

(٢) انظر: الاتقان في علوم القرآن، للسيوطي ٢/ ١٣٧، ومناهج الجدل في القرآن ص ٧٧.

(٣) سورة الأعراف الآية: ٤٠.

(٤) انظر: الاتقان في علوم القرآن: ٢/ ١٣٧.

(٥) سورة إبراهيم الآية: ١٠ - ١١.

(٦) تاريخ الجدل ص ٧٣.

قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾[١] .

فهـذه الدعـوى كانت في أمر غيبي لا يثبت إلا بالوحي فكأن القرآن قال لهم: دعواكم هـذه مبنـية على أحد افتراضين: إما أن يكون عندكم عهد من الله وبرهان على ما تقولون فـيلزمكم الإدلاء بـه ، والله لا يخلف عهده ، وإما أن يكون قولكم هذا تقولا على الله بلا علم ، فتكون دعواكم خالية من الدليل . . . وبما أنه لم يثبت عندكم من الله عهد فقد انتفى هـذا الافـتراض وثبت الافتراض الثاني وهو أن دعواكم خالية من الدليل فبطلت لخلوها من العلم والبرهان[٢] .

١٢ - الاستدلال على الخصم بإظهار التشهي والتحكم: وهـو أن يقال للخصم: لا حجـة لـك عـلى مـا ادعيـت سوى التشهي والتحكم الباطل ، فإن جاءك ما لا تشتهيه دفعـته ورددتـه ، وإن كـان موافقـا ما تهواه وتشتهيه إما من تقليد من تعظمه أو موافقة ما تـريده قبلته وأجزته ، فترد ما خالف هواك وتقبل ما وافق هواك ، وهذا الاحتجاج مفحم للخصم لا جواب عليه البتة[٣] . ومن أمثلة ذلك قولـه تعالى: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ﴾[٤] .

١٣ - إبطال دعوى الخصم بإثبات نقيضها: لما قامت الحجة على أهل الكتاب ولم يجـدوا حجـة عـلى رفضـهم الإيمـان بمحمد ﷺ غير تعذرهم بأنهم يؤمنون بما أنزل عليهم فأثبـت الله عـز وجل نقيض دعواهم كما في قولـه تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَـالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاء اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٥] . ففـي هـذ الآية رد الله دعواهم بأنهم آمنوا بما أنزل إليهم بأمرين ينقض ادعاءهم:

الأول: أن مـا جـاء بـه محمـد ﷺ مصـدق لمـا معهم فمن تمام إيمانهم برسلهم إيمانهم بمحمد ﷺ

(١) سورة البقرة الآية: ٨٠ .
(٢) انظر: مناهج الجدل في القرآن الكريم ص ٧٤ .
(٣) بدائع الفوائد ، لابن القيم الجوزية ٤/ ١٤٤ ، دار الكتاب العربي - بيروت .
(٤) سورة البقرة الآية: ٨٧ .
(٥) سورة البقرة الآية: ٩١ .

الـثاني: أنهـم قتلوا أنبياءهم وهذا مناقض لدعواهم الإيمان بما أنزل إليهم إذ إن قتل الرسل غاية في التكذيب[١] .

هـذه بعض المسالك القرآن في جدال الخصوم ولا يمكن أن نحصر جميع مناهج القرآن في الجـدل وطـرقه في إلزام الخصم ، وإنما قصدت الإيضاح بأن القرآن الكريم قد أتى كافة طـرق الإقـناع والوعـظ والتذكير ، بل والتحدي تبيانا للحق وإقامة الحجة على الجاحدين المعاندين .

والملاحـظ من منهج القرآن في الجدل أنه قد سلك فيها سياسة جدلية بيانية يعالج بها أوضـاع الخصـوم ويناقشـهم بما يناسب مع أحوالهم في مقام المجادلة بعيدة عن طرق المنطق الـيوناني المعقـدة في ترتيب المقدمات والنتائج بأشكال منطقية مطولة . . . بل جار على ما هـو مـألوف مـن أسـاليب اللغـة العربـية الفصحى التي تجمع بين عمق المعنى والتصوير ، ووضـوح التعـبير وسـلامة التركيب دون إخلال بالصورة البيانية التي تثير الضمير وتوقظ المـدارك النفسـية وتدفـع العقـول إلى الـنظر دون ارتـباط بالمصـطلحات المنطقية الفلسفية المعقـدة ، سياسـة تجمـع بين الإنصاف في الدعوى والإلزام في النتيجة مع مراعاة أن يكون ذلك الجدال بالتي هي أحسن ، وإن خرج الجدل عن هذا الأصل فإنما يرجع إلى أمور ذاتية تـتعلق بالخصم المجادل الذي لم يصغ للحق ولم يستخدم عقله فيما يلقى إليه من بيان معزز بالـبراهين والحجج ، وهذا الاستثناء ما أشار إليه القرآن في قولـه تعالى: ﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِـتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنهُمْ ﴾[٢] . فظاهر الآية يقتضي مغالبة الظالمين المعتدين من أهل الكتاب بأي وسيلة حتى يذعنوا للحق ويظهر أمر الله[٣] .

ثـم إن من المسلمات عند المسلمين أن القرآن الكريم هو كتاب الله المعجز نزل ليرسم الطـريق الصـحيح للبشـرية ويعـالج مشـكلاتها ، ويضـع حلولا لها في كل زمان ومكان ، وكانـت أسـباب الـنزول هـي أشـبه مـا تكـون بـنماذج ووسائل إيضاح أو وسائل معينة لإيضـاح تطبيق الـنص وتـنـزيله عـلى الواقـع ، وتـبقى العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص

(١) الحوار مع أهل الكتاب ص ٢٠٨ .

(٢) سورة العنكبوت الآية: ٤٦ .

(٣) مناهج الجدل في القرآن ص ٤١٦ - ٤١٩ بتصرف .

السبب، ويعنى ذلك أن القرآن يعالج اليوم المشكلات والقضايا الإنسانية كحالات الكفر والنفاق التي جاء ليعالجها في ذلك الوقت، وذلك أن سمة الخلود سمة أساسية للقرآن، وهي تعني من وجه آخر خلود المشكلات المطلوب علاجها إلى قيام الساعة[١].

وعلى هذا فالواجب على كل من يريد مواجهة أهل الملل بالنقد والنقاش وبالجدال والمناظرة سواء كانت ذلك كتابة أو مشافهة أن يدرس منهج القرآن في نقد الملل وأن يسير على ضوئه في حواره وجداله مع أهل الملل، وأن يعلم أن من أهم معالم منهج القرآن في نقد الملل «معاملة الخصوم بما يناسب مع أحوالهم العلمية والاعتقادية حيث كان جدل القرآن مع المشركين جدل هداية ودلالة.

وقد يشتمل على تخطئة بعض مزاعمهم، بينما كان جدل القرآن مع أهل الكتاب جدل تخطئة وإلزام لأنهم على علم، في حين كان جدل القرآن مع المنافقين تبدو عليه سمات الشدة والقسوة مصحوبا بالتهديد والوعيد»[٢]. ويدل ذلك على أن منهج القرآن في هذا مبني على العلم.. لأنه جاء من عند العليم الخبير.. بل نجد في القرآن أن الله سبحانه وتعالى ذم الذين يجادلون بغير علم، قال تعالى: ﴿ **هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ** ﴾[٣].

قال ابن كثير - رحمه الله -: «هذا إنكار على من يحاج فيما لا علم له به، فإن اليهود والنصارى تحاجوا في إبراهيم بلا علم، ولو تحاجوا فيما بأيديهم منه علم مما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم إلى بعثة محمد ﷺ، لكان أولى بهم، وإنما تكلموا فيما لا يعلمون، فأنكر الله عليهم ذلك وأمرهم برد ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة الذي يعلم الأمور على حقائقها وجلياتها، ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾[٤]. ثم قال تعالى: ﴿ **مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا** ﴾[٥][٦].

---

(١) انظر: كيف نتعامل مع القرآن ص ٩٢.
(٢) مناهج الجدل في القرآن ص ٦ بتصرف.
(٣) سورة آل عمران الآية: ٦٦.
(٤) سورة آل عمران الآية: ٦٦.
(٥) سورة آل عمران الآية: ٦٧.
(٦) تفسير ابن كثير ١/ ٣٢٧.

فهنا نجد أن القرآن الكريم قد أنكر على أهل الكتاب جدالهم بالباطل حيث جادلوا فيما ليس لهم به علم، ثم ذكر الصواب فيما جادلوا وهو أن إبراهيم ما كان يهوديا ولا نصرانيا وإنما كان حنيفا مسلما.

ومن هذا المنهج القرآني نستنبط أنه يجب على من يقوم بالرد على أهل الملل أن يكون على علم فيما يرد وأن يكون جداله على علم سواء كان ذلك فيما يتعلق بالإسلام أو بالأديان الأخرى، فالجدل من غير علم مذموم مطلقا.

وإذا كان رد الباطل وإنكاره بكل الطرق المشروعة واجبا، وكان من هذه الطرق الجدل بأساليبه المختلفة التي استخدمها القرآن كما تبين لنا في هذا المبحث والتي لا تتأتى إلا لمن يعرف معرفة تامة بأحوال الخصوم وما يدافعون عنها من عقائد وأفكار، كان ذلك دالا بضرورة دراسة الملل الباطلة والاطلاع على أحوال الخصوم العقدية والعلمية والنفسية والفكرية وذلك لكى يكون الرد عليهم ردا مناسبا لهم، ولكي يكون تفنيد مزاعمهم صحيحا وتصحيحه صوابا فيكون بذلك موافقا للمنهج القرآني ذي الشقين:

الشق الأول: الهدم - أي هدم الباطل -.

والشق الثاني: البناء - أي بناء الحق -.

فالقرآن يشخص الداء ويقدم الدواء.

* * * * *

الفصل الثاني
دلالة السنة على مشروعية علم الملل

تمهيد:

بعث الله نبيه محمدا ﷺ بدين يخالف جميع الملل التي كانت في الجزيرةالعربية ، بل وفي العالم كله ، فمكث ﷺ يدعو إلى الله على بصيرة ثلاثة وعشرين عاما ، ثلاث عشرة سنة في مكة ، وعشر سنوات في المدينة المنورة ، وكان محور دعوته في عهده المكي التركيز على نقض عقائد المشركين الوثنيين ، وعلى ترسيخ عقيدة التوحيد ، والبعث ، والنشور ، وإثبات النبوات ، وطبعي أن يكون التركيز على هذه القضايا ، فقد كان النبي ﷺ يواجه أقواما وثنيين ، فكان المنهج المناسب لهؤلاء الدعوة إلى الإيمان بهذه الأصول ، وإلى أصول التشريعات العامة ، والآداب ، والفضائل التي لا تتغير بتغير الزمان ، والمكان ، وذلك كالحث على الثبات على العقيدة ، والصبر ، والتحمل في سبيلها ، والأمر بالصلاة ، والصدق ، والعفاف ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والعدل ، والإحسان ، والتواصي بالخير ، والنهي عن الرذائل ، كالقتل ، ووأد البنات ، والظلم ، والزنا ، وأكل أموال الناس بالباطل .

وفي هذا العهد تمت بناء الشخصية الإسلامية المتميزة من خلال التركيز على تلك الجوانب الأساسية: التوحيد ، اليوم الآخر ، النبوة ، الدعوة إلى الالتزام بأمهات الأخلاق ، أما في العهد المدني فقد أخذت دعوته ﷺ تتجه اتجاها آخر ، ولم تعد مقصورة على المشركين ، بل شملتهم ، وشملت غيرهم من أهل الكتاب ، وأخذت عالمية الإسلام تظهر بأوضح صورها ، وذلك بإرسال النبي ﷺ كتبه إلى الملوك ، والرؤساء داعيا إياهم إلى كلمة سواء: ﴿ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾[١] ، فمنهم من أطاع ، ومنهم من أبى ، ورد ردا سيئا ، ومنهم من رد ردا حسنا[٢] ، وفي هذا العهد كان بناء المجتمع الإسلامي على رأس الأولويات ، واقتضى الأمر بإنزال التشريعات التفصيلية في شؤون الحياة كلها ، سواء كان ذلك فيما يتعلق بالعبادات ، أو المعاملات ، أو

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٦٤ .

(٢) انظر: السيرة النبوية د . محمد محمد أبو شهبة ، ٢/ ١٣ - ١٤ بتصرف .

ما يتعلق بأحكام أهل الملل التي ترسم العلاقة بين الدولة الإسلامية وبين الدول والفئات الأخرى غير الإسلامية .

وإذا رجعنا إلى سيرة النبي ﷺ في هذه المسيرة ، ومنهجه في التعامل مع مخالفيه من أهل الملل والنحل نجد أنه ﷺ كان يسير وفق منهج القرآن ، فقد كان سلاحه القرآن الكريم ، قال تعالي: ﴿ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾[1] قال ابن عباس رضي الله عنه: «يعني بالقرآن»[2] ، فمنهج النبي ﷺ كان منهجا قرآنيا ، ومواقفه من المخالفين كانت توضيحا وتفصيلا لمواقف القرآن من أهل الملل ؛ لذا فإن الباحث عن الحكم الشرعي لدراسة الملل لا يعدم بغيته في السنة النبوية ، فإن السنة المطهرة قد اشتملت على جميع العناصر والأقسام التي يشملها علم الملل بمفهومه الاصطلاحي ؛ لذا عقدت هذا الفصل بعنوان "دلالة السنة على مشروعية علم الملل"، **وقد جاء في مبحثين:**

أولهما: منطلقات دعوة النبي ﷺ ، ودلالتها على مشروعية علم الملل .

وثانيهما: اشتمال السنة على مباحث علم الملل .

* * * * *

---

(١) سورة الفرقان الآية: ٥٢ .

(٢) انظر: تفسير الطبري ٩/ ٣٩٨ .

المبحث الأول

منطلقات دعوة النبي ﷺ ودلالتها على مشروعية علم الملل

كان النبي ﷺ في تعامله مع أتباع الملل الباطلة، وفي جداله ونقاشه، ودعوته إياهم إلى الإسلام يسير وفق منهج واضح المعالم، منهجا رسمه القرآن الكريم، ومن أهم معالم هذا المنهج وضوح المنطلق ووضوح المنطلق من الأمور المهمة في الصراع الفكري، حيث يكسب صاحبه الثقة الكاملة في مبادئه التي يدافع عنها، وسلامة المنهج، وثبات القدم فهو بمثابة ضابط يصون صاحبه من الانزلاق والانحراف عن الجادة. وقد كان النبي ﷺ في مواجهاته مع الخصوم ينطلق من منطلقات واضحة المعالم، وأبرزها:

المطلب الأول: دين الأنبياء واحد

جاء النبي ﷺ بدين الإسلام الذي جاء به من قبله من الأنبياء، فلم يكن بدعا من الرسل كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾[1] فهو ﷺ لم يكن أول رسول، ورسالته لم تكن أول رسالة إلى العالم حتى يستغرب ويستنكر بل كانت تحمل لبّ الرسالات السابقة، وهو الدعوة إلى توحيد الخالق العظيم وإفراد العبادة به. وكان النبي ﷺ يؤكد هذا الأمر - وحدة دين الأنبياء - في أحاديثه فهو القائل: «**الأنبياء إخوة من علات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد**»[2] قال ابن حجر: "ومعنى الحديث أن أصل دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت الشرائع"[3].

ومعنى هذا أن النبي ﷺ موصول بموكب الرسل والرسالات، ذلك الموكب الميمون الذي يمثل دين الله الذي لايقبل الله دينا سواه، واتصال النبي ﷺ بهذا الموكب الإيماني، وانقطاع سند الخصوم عنه، وإن زعموا أنهم على اتصال به، له قيمته في الرد على أصحاب الملل المنتحلين لأديان سماوية سابقة ففي حين يظهر صدق النبي ﷺ من خلال وحدة الرسالات السماوية، وبشارة الأنبياء السابقين به، وتصديقه بهم، وبما جاءوا به وموافقته لهم، يظهر كذب خصومه الذين يزعمون الانتساب إلى أديان هؤلاء الأنبياء،

---

(١) سورة الأحقاف الآية ٩.

(٢) أخرجه البخاري، الحديث رقم ٣٩٤٣، انظر فتح الباري ٧/ ٣٢١.

(٣) فتح الباري، لابن حجر، ٦/ ٥٦٤.

وذلك بمخالفتهم لهم، وتبديلهم لدينهم، وكتمهم بما ورد فيه من بشارات بالنبي ﷺ.

وإذا كان الأمر كذلك فإن هؤلاء ليسوا على شيء من أمر هذا الدين الذي ينتسبون إليه، والرسول ﷺ هو أولى بدفاع دينهم عنهم، فهوأولى بهؤلاء الأنبياء، أخرج البخاري - رحمه الله - في صحيحه عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسئلوا عن ذلك فقالوا: هذا اليوم الذي أظفر فيه الله موسى وبني إسرائيل على فرعون، ونحن نصوم تعظيما له. فقال رسول الله ﷺ: **«نحن أولى بموسى منكم فأمر بصومه»**[١] وكذلك أخرج بالسند إلى أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه ﷺ قال: **«أنا أولى الناس بابن مريم، والأنبياء أولاد علات ليس بيني وبينه نبي»**[٢].

ولما ادعى بعض أهل الكتاب أن إبراهيم كان على دينهم ردالنبي ﷺ على دعواهم، وبين أنه كان على الحنيفية التي جاء بها النبي ﷺ. فقد ذكر ابن جرير في تفسيره بالسند إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخل رسول الله ﷺ بيت المدراس[٣] على جماعة من اليهود فدعاهم إلى الله، فقال له نعيم بن عمرو، والحارث بن يزيد: على أي دين أنت يا محمد؟ فقال على ملة إبراهيم ودينه، فقالا: فإن إبراهيم كان يهوديا، فقال لهما رسول الله ﷺ: «فهلموا إلى التوراة، فهي بيننا وبينكم» فأبوا عليه فأنزل الله عز وجل: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ** ﴾[٤][٥].

فهذه النصوص تدل على أن النبي ﷺ كان على يقين تام بأنه وحده على الحق، وأن رسالته تمثل وحدها دين الله الذي جاء به الأنبياء، وأن أهل الكتاب - ناهيك عن غيرهم من الوثنيين - ليسوا في الحقيقة على شيء من هذا الدين، وانطلاقا من هذا الأساس واجه النبي ﷺ، خصوم الإسلام من أهل الكتاب.

---

(١) أخرجه البخاري، الحديث رقم ٣٩٤٣، انظر فتح الباري ٧/ ٣٢١.

(٢) أخرجه البخاري، الحديث رقم ٣٤٤٢، انظر فتح الباري ٦/ ٥٥٠.

(٣) بيت المدراس: هو البيت الذي يتدارس فيه اليهود تعاليمهم، والمدراس هو صاحب دراسة كتبهم وتعاليمهم، وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير ٢/ ١١٣.

(٤) سورة آل عمران الآية ٢٣ - ٢٤.

(٥) انظر: تفسير الطبري ٣/ ١٣٥.

المطلب الثاني: خاتمية رسالته للرسائل السماوية

لاشك أن دين الله الحق هو هذا الإسلام الذي مثلته كل رسالة في زمانها، ولكن بعد هذه الرحلة الطويلة، ختم الله تلك الرسالات برسالة محمد ﷺ، وتوفر لهذه الرسالة من الخصائص والمميزات ما لم يتوفر لغيرها من الرسالات[١] وكان النبي ﷺ في دعوته ومواجهته لأتباع الملل ينطلق من هذا الأساس. فيبين للناس أنه خاتم الأنبياء حتى بلغت الأحاديث الواردة في هذا حد التواتر، كما ذكره كثير من العلماء منهم:

١ - عبد القاهر البغدادي - رحمه الله - حيث قال: «وقد تواترت الأخبار عنه أي النبي ﷺ بقوله: لانبي بعدي»[٢].

٢ - ابن حزم الظاهري - رحمه الله - حيث قال: **«وقد صح عن رسول الله ﷺ بنقل الكواف التي نقلت نبوته وكتابه أنه أخبر أنه: لانبي بعدي»**[٣].

٣ - وقال ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره: «وقد أخبر الله تبارك وتعالى في كتابه، ورسوله ﷺ في السنة المتواترة عنه أنه لا نبي بعده ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال ضال مضل»[٤].

٤ - وممن ذكر هذا التواتر الإمام السيوطي - رحمه الله تعالى[٥].

أما الأحاديث الواردة من النبي ﷺ في هذا فقد جاءت بصيغ كثيرة وألفاظ متعددة منها:

١ - تصريحه بأنه خاتم النبيين، كما في حديث ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ **«إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها...»** إلى أن قال: **«وإنه سيكون في أمتي كذابون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، ولا نبي بعدي»**[٦].

---

(١) سبق بيان ذلك في الفصل الأول في المطلب الثاني من المبحث الثاني ص ٧٥.
(٢) أصول الدين لأبي المنصور عبد القاهر البغدادي، ص ١٦٣.
(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ١/ ٧٧.
(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٦١.
(٥) انظر: الأزهار المتناثرة في الأحاديث المتواترة لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي ص ٣٦ مطبعة دار التأليف.
(٦) أخرجه أبو داود، الحديث رقم ٤٢٤٤، الترمذي الحديث رقم ٢٣١٦ بلفظ قريب له مع اختصار.

٢ - تصريحه عليه الصلاة والسلام بانقطاع النبوة، وأنه لا نبي بعده كما في حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي»** قال فشق ذلك على الناس قال فقال: **«ولكن المبشرات قالوا يارسول الله، وما المبشرات؟ قال: رؤيا الرجل المسلم وهي جزء من أجزاء النبوة»**(١).

٣ - ضربه عليه الصلاة والسلام الأمثال لختم النبوة، كما في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: **«إن مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويتعجبون له ويقولون هلا وضعت اللبنة، قال فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين»**(٢).

٤ - تحذيره عليه الصلاة والسلام من المتنبئين بعده، كما في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريبا من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله»**(٣). وعن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن بين يدي الساعة كذابين فاحذروهم»**(٤).

٥ - تصريحه عليه الصلاة والسلام بأنه آخر الأنبياء. فقد ورد من حديث أبي هريرة ﷺ قوله ﷺ: **«فإني آخر الأنبياء وإن مسجدي آخرالمساجد»**(٥)(٦).

فهذه النصوص وغيرها تدل على اهتمام النبي ﷺ ببيان عقيدة ختم النبوة وحرصه الشديد على وضوحها ونصاعتها، وذلك لأهمية عقيدة الختم ودورها في مجال التحدي بين صاحب الرسالة وبين أتباع الملل المختلفة وذلك أن من أبرز معانيها أن هذه الرسالة خلاصة الرسالات السماوية، وأن لها من القدرة على قيادة الحياة البشرية، مالم يكن لغيرها، كما تعني أيضا استمرارية القيادة المحمدية ﷺ للأمة إلى قيام الساعة. ومواجهة أهل الملل تحت راية هذه العقيدة، تعني أيضا دعوتهم إلى هذا الدين الذي انتصر فيه

---

(١) أخرجه الترمذي الحديث رقم ٢٣٧٤، الإمام أحمد في مسنده ٤/ ١٧١.
(٢) أخرجه البخاري، الحديث رقم ٣٥٣٥، انظر فتح الباري ٦/ ٦٤٥.
(٣) أخرجه الإمام البخاري الحديث رقم ٣٦٠٩، انظر فتح الباري ٦/ ٧١٣.
(٤) أخرجه مسلم الحديث رقم ٢٢١٨، انظر شرح النووي ١٢/ ٤٤٥.
(٥) أخرجه مسلم الحديث رقم ٥٠٧، انظر شرح النووي ٩/ ١٧٣ - ١٧٤.
(٦) انظر: كتاب عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية لأحمد سعد الغامدي، فقد فصل فيه المؤلف عقيدة ختم النبوة وبينها بيانا شافيا.

الحق ، وترك ما سواه من الأديان ، وبناء على ذلك فإن الانطلاق من هذا المبدأ يعني أن لا مجال للمهادنة ، ولا مكان لأنصاف الحلول بين الإسلام وبين غيره من الأديان ، سواء كانت الأديان سماوية منسوخة أو وضعية بشرية .

المطلب الثالث: عالمية دعوته ﷺ (أي عمومها)

من الأمور المعلومة بالضرورة عند المسلمين عالمية رسالة محمد ﷺ وهو أمر يلزم من كون رسالته هي الخاتمة للرسالات .

وانطلاقا من مبدأ وجوب الدعوة ، وعالمية هذه الدعوة لعالمية الرسالة وجه النبي ﷺ دعوته إلى الخلق كله الجن والانس ، وقد دلت السنة المتواترة عنه - عليه الصلاة والسلام - ذلك ، فقد أخبر ﷺ أنه بعث إلى الناس عامة كما ورد في حديث جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «**أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي نصرت...** » إلى أن قال: «**وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة**»[١] .

ووجه الدلالة من الحديث أن لفظي "الناس" و "عامة" يدلان على العموم فدل الحديث على عموم دعوة النبي ﷺ وأخبر ﷺ أنه بعث إلى كل أحمر وأسود فقد روى عنه جابر بن عبد الله رضي الله عنه أيضا قوله عليه الصلاة والسلام «**أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة ويعثت إلى كل أحمر وأسود...** »[٢] . قال العلماء: المراد بالأحمر العجم وبالأسود العرب . وقيل الأحمر الإنس ، والأسود الجن ، والكل صحيح لأنه مرسل إلى الجميع[٣] .

وقال: النووي - رحمه الله - «قيل المراد بالأحمر البيض من العجم وغيرهم وبالأسود العرب لغلبة السمرة فيهم وغيرهم من السودان وقيل: المراد بالأسود السودان وبالأحمر من عداهم من العرب وغيرهم وقيل: الأحمر الأنس ، والأسود الجن ، والجميع صحيح فقد بعث إلى جميعهم»[٤] .

---

(١) رواه البخاري ، الحديث رقم ٣٣٥ انظر فتح الباري ١/ ٥١٩ .
(٢) أخرجه مسلم الحديث رقم ٥٢١ .
(٣) انظر فتح الباري ١/ ٥٢٣ .
(٤) شرح مسلم للنووي ٥/ ٧ - ٨ .

كذلك أخبر عليه الصلاة والسلام أنه بعث إلى الخلق كافة، فقد روى أبو هريرة - رضي الله عنه - أنه ﷺ قال: «**فضلت على الأنبياء بست...**» إلى أن قال: «**وأرسلت إلى الخلق كافة، وبي ختم النبيون**»[١] وهذا الحديث يدل أن النبي ﷺ بعث إلى الخلق كافة أي أرسل إلى جميع الخلق إرسالة عامة تمنعهم من الخروج عن الانقياد إليها[٢].

وأخبر ﷺ أن من لم يجب دعوته يدخل النار، فقد ورد في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه- أنه ﷺ قال: «**والذي نفس محمد بيده لايسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»[٣]. فلفظ "أحد" في الحديث نكرة في سياق النفي والنكرة في سياق النفي تفيد العموم عند الأصوليين، وعليه فكل من سمع به فإنه مطالب بالإيمان به، وتصديق ما أخبر به عن ربه عز وجل... ويشمل ذلك كل من كان موجودا في زمنه، وبعد ذلك إلى يوم القيامة، فكل الناس يلزمهم الدخول في طاعته والتصديق برسالته، وإنما خص اليهود والنصارى تنبيهاً على من سواهم، وذلك أن لليهود والنصارى كتباً، فإذا كان هذا شأنهم، ولهم كتب سماوية، أمروا باتباع ما فيها والإيمان بها، فغيرهم ممن لا كتاب له أولى[٤]. فهذه الأحاديث - وغيرها كثير - تدل على حرص النبي ببيان عالمية هذا الدين وعموم دعوته لجميع الخلق.

ومما يدل على عموم رسالته ﷺ أيضا إرسال كتبه إلى الملوك والأمراء، ففي آخر سنة ست بعد رجوعه من الحديبية كتب عليه الصلاة والسلام كتبه إلى ملوك الأرض وأرسل إليهم رسله[٥]، يدعوهم فيها إلى الإيمان بالله سبحانه، والإيمان برسوله الخاتم ﷺ، وقد ذكرت كتب الحديث والمغازي والسير والتاريخ مضمون تلك الكتب وأسماء الرسل، والملوك الذين وجهت إليهم، والردود المختلفة التي صدرت من تلك الملوك.

ومن الدلائل على عموم رسالته - عليه الصلاة والسلام - قدوم الوفود عليه، فقد

---

(١) أخرجه مسلم الحديث رقم ٥٢٤، شرح مسلم ٥/٨.
(٢) انظر: منهج الرسول ﷺ في دعوة أهل الكتاب، ١/ ٤٢.
(٣) أخرجه مسلم الحديث رقم ١٥٣، شرح مسلم ٢/ ٥٤٦.
(٤) انظر: منهج الرسول ﷺ في دعوة أهل الكتاب ص ١/ ٥٤ بتصرف بسيط.
(٥) انظر: زاد المعاد لابن القيم الجوزي ١/ ١١٩.

كثرت عليه ﷺ الوفود حتى بلغ عدد الوفود (٩٦ وفدا)[١] وكان أول ما يقابلهم به الدعوة إلى الإسلام، ثم الإكرام، وحسن المعاملة التي تبرز عظمة الإسلام.

والمتأمل لهذه المنطلقات يجد أنها نفس المنطلقات التي قررها القرآن ووضحها كما سبق بيانه في الفصل الماضي، وما ذلك إلا أن عماد النبي ﷺ في هذا كان القرآن الكريم.

أما كون هذه المنطلقات تدل على مشروعية علم الملل، فهو أن مجرد إعلان النبي ﷺ بهذه الأسس وانطلاقه منها في الدعوة إلى الله كان كافيا لإثارة غضب أتباع الأديان. وذلك أنهم كانوا يعتبرون ذلك تحديا لهم، وطعنا في دينهم، فأعلنوا الخصومة، وبدأوا إثارة الشكوك والشبهات حول الإسلام، فواجههم الرسول ﷺ بالحجة والبرهان، وفند أقاويلهم وأفكارهم وادعاءاتهم، وسلك معهم كل مسلك حكيم، وإذا كان من الحكمة والحنكة في مجال الحرب معرفة الطرفين بعضهم بعضا من حيث القوة ليكون الاستعداد والاعداد صحيحا، فإن هذه الحكمة أولى منه أن تكون بين الخصمين في مجال الفكر، وقد كان هذا الأمر متحققا بالنسبة للنبي ﷺ في مواجهته لأهل الملل المختلفة، فقد علم بالوحي علم اليقين حقيقة أديان خصومه، ماضيها عندما كانت صحيحة، وحاضرها بعد أن نالها التحريف، فكان ﷺ يناقشهم ويحاورهم على ضوء معطيات هذه المعرفة، ولهذا لما قال ﷺ لعدي بن حاتم: «**أسلم تسلم، فقال عدي: إني على دين، قال له: أنا أعلم بدينك منك، فقال عدي: أنت أعلم بديني مني؟ قال: نعم، أنت من الركوسية**[٢]**، وأنت تأكل مرباع قومك؟ فقال: بلى، قال: فإن هذا لا يحل في دينك، قال فلم يعد أن قالها فتواضعت لها**»[٣].

وبهذا يعلم أن جميع الاعتراضات، والتصحيحات والانتقادات التي وجهها النبي ﷺ لأصحاب العقائد المخالفة كانت مبنية على علم وبصيرة، وإذا كان هذا العلم ثبت للنبي ﷺ عن طريق الوحي فإنه لا يمكن لمن يعترض لنقدهم أن يعرف ما لديهم إلا باطلاعه على مصادرهم المعتمدة ليكون نقده صحيحا وصوابا.

* * * *

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية د. مهدي رزق الله أحمد ص ٦٧٢.
(٢) الركوسية: هي دين بين النصارى والصابئين، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ٣١٦
(٣) أخرجه أحمد في مسنده ٥/ ٣١٦.

المبحث الثاني

اشتمال السنة على مباحث علم الملل

المطلب الأول: عرض السنة لتاريخ الأمم والأديان

في التاريخ عبر وعظات جلية، ودروس إيمانية ودعوية، وأخلاقية، وتعليمية وسياسية، واقتصادية، وعسكرية، وجهادية، وحضارية، وإنسانية[١] فهي منهج تربوي متكامل، لهذا كان من منهج النبي ﷺ في تربية الأمة وتكوينها تربيتها من خلال التاريخ، وذلك بذكره أخبار الأمم السابقة، وما يتعلق بعقائدهم، وعباداتهم، وأخلاقهم، وسلوكهم، ومواقفهم من أنبيائهم سلبا وإيجابا، وكان هدفه ﷺ من هذا تكوين أمة متميزة عن الأمم أمة تستحق أن تكون خير أمة أخرجت للناس، وكان هذا من كمال بيانه للحق وحسن تربيته وتعليمه للأمة، فقد دل عليه الصلاة والسلام الأمة جميع أبواب الخير وحذرها من جميع أبواب الشر.

قال ابن القيم الجوزية - رحمه الله تعالى - «توفي رسول الله ﷺ وماطائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر للأمة منه علما، وعلمهم كل شيء حتى آداب التخلي وآداب الجماع والنوم والقيام والقعود، والأكل والشرب..» إلى أن قال: «وعرفهم معبودهم وإلههم أتم تعريف، حتى كأنهم يرونه ويشاهدونه بأوصاف كماله ونعوت جلاله، وعرفهم الأنبياء وأممهم، وما جرى لهم، وما جرى عليهم معهم، حتى كأنهم كانوا بينهم، وعرفهم طرق الخير والشر، دقيقها وجليلها مالم يعرفه نبي لأمته قبله... وبالجملة جاءهم بخير الدنيا والآخرة برمته، ولم يحوجهم الله إلى أحد سواه»[٢].

وتحقيقا لهذا الهدف وإدراكا منه ﷺ بدور القصص في التربية جاء إهتمامه بقصص السابقين وأخبارهم حتى صار يحدث الصحابة اليوم والليلة عن الأمم.

كما روى ابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه - أنه قال:

---

(١) انظر: مع قصص السابقين في القرآن الكريم د. صلاح عبد الفتاح الخالدي ص ١٥.

(٢) إعلام الموقعين لابن القيم الجوزية ٤/ ٢٨٥ - ٢٨٦.

«لقد كان رسول الله ﷺ يحدثنا اليوم والليلة عن بني إسرائيل لايقوم إلا إلى عظم[(١)] صلاة»[(٢)] . وروى الإمام أحمد في مسنده عن عمران بن حصين - رضي الله عنه - قال: **«كان النبي ﷺ يحدثنا عامة ليله عن بني إسرائيل لا يقوم إلا لعظم صلاة»[(٣)]** . بل إن النبي ﷺ أجاز لأصحابه الحديث عن بني إسرائيل كما في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال: **«بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار»[(٤)]** . وروى أبو داود في سننه وابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: **«حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج وحدثوا عني ولا تكذبوا عليّ»[(٥)]** .

ففي هذين الحديثين أجاز النبي ﷺ للمسلمين الحديث عن بني إسرائيل ورفع الحرج عمن فعل ذلك، ولكن لورود نصوص أخرى تدل على النهي عن ذلك فقد اجتهد العلماء في بيان معنى الحديثين ومراد النبي ﷺ في هذا، وفي الجمع بينهما وبين الأحاديث الدالة على النهي عن ذلك، وقد نقل ابن حجر - رحمه الله تعالى - أقوال أهل العلم في معنى قوله ﷺ: «حدثوا عن بني إسرائيل» في الفتح، وخلاصة هذه الأقوال ما يلي:

١ - قيل المراد ببني إسرائيل في الحديث، هم أولاد إسرائيل نفسه - يعقوب عليه السلام، والمراد: حدثوا عنهم بقصتهم مع أخيهم يوسف - عليه السلام -، وهذا أبعد الأوجه.

٢ - وقال مالك - رحمه الله -: المراد جواز التحدث عنهم بما كان من أمر حسن، أما ما علم كذبه فلا.

٣ - وقيل المعنى: حدثوا عنهم بمثل ما ورد في القرآن والحديث الصحيح.

٤ - وقيل المعنى: جواز التحدث بأي صورة وقعت، من انقطاع، أو بلاغ؛ لتعذر

(١) قال ابن الأثير: وعظم الشيء أكبره، كأنه أراد لا يقوم إلا إلى الفريضة، النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٣/ ٢٦٠ .

(٢) رواه أبو داود الحديث رقم ٣٦٥٨، عون المعبود ١٠/ ٧٠، ورواه ابن حبان في صحيحه في العلم - الموارد - ص ٥٧ .

(٣) رواه أحمد في مسنده ٥/ ٦٠٥، ورواه الحاكم في المستدرك في التفسير ٢/ ٣٧٩ وقال حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٤) أخرجه البخاري، الحديث رقم ٣٤٦١، انظر: فتح الباري ٦/ ٥٧٢ .

(٥) أخرجه أبو داود، الحديث رقم ٣٦٥٧، انظر: عون المعبود ١٠/ ٦٩ . ورواه ابن حبان في صحيحه - الموارد - في كتاب العلم ص ٥٧ برقم ١٠٨ .

الاتصال في التحدث بها الاتصال .

٥ - وقال الشافعي - رحمه الله -: من المعلوم أن رسول الله ﷺ لا يجوز التحدث بالكذب ، فالمعنى: حدثوا عن بني إسرائيل بما لا تعلمون كذبه ، وأما ما تجوزونه فلا حرج عليكم في التحدث به عنهم ، أما المراد من نفي الحرج الوارد في الحديثين فقد ذكر ابن حجر فيه أقوالا عدة أيضا منها:

١ - لا ضيق عليكم في الحديث عنهم ؛ لأنه كان قد تقدم منه ﷺ الزجر عن الأخذ عنهم ، والنظر في كتبهم ، ثم حصل التوسع في ذلك ، وكأن النهي وقع قبل استقرار الأحكام الشرعية ، والقواعد الدينية خشية الفتنة ، ثم لما زال المحذور وقع الإذن في ذلك ، لما في سماع الأخبار التي كانت في زمانهم من الاعتبار .

٢ - وقيل معناه: لا تضيق صدوركم في أن لا تحدثوا عنهم ؛ لأن قوله أولا: "حدثوا" صيغة أمر تقتضي الوجوب ، فأشار إلى عدم الوجوب ، وأن الأمر فيه للإباحة بقوله: "ولا حرج" أي في ترك التحدث عنهم .

٣ - وقيل: لا تضيق صدوركم بما تسمعون عنهم من الأعاجيب ، فإن ذلك وقع لهم كثيرا .

٤ - وقيل: المراد رفع الحرج عن حاكي ذلك ، لما في أخبارهم من الألفاظ الشنيعة نحو قولهم: اذهب أنت وربك فقاتلا ، وقولهم: اجعل لنا إلها[1] .

وعلى أي حال فإن التحدث عن قصص الأمم الماضية - لا سيما بني إسرائيل - ونقل أخبارهم ، وما جرى لهم من أخبار عجيبة ، وبيان ما حدث عنهم ، من انحرافات ، والكشف عن مخازيهم ، ومؤامراتهم لتحذر الأمة الإسلامية السير في طريقهم مما أرشدت إليه السنة ، ولعل مراد النبي ﷺ هو هذا ، ويؤيد هذا ما استقر عند الصحابة في عهد النبي ﷺ ومن بعده أنهم كانوا يحدثون عن أهل الكتاب ، وكان بعضهم يقرأ كتبهم كعبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: رأيت فيما يرى النائم وكأن في إحدى

---

(١) انظر: فتح الباري ٦/ ٥٧٥ بتصرف ، وانظر: مع قصص السابقين في القرآن ص ٥٧ - ٥٨ .

إصبعي سمنا، وفي الأخرى عسلا، فأنا ألعقهما، فلما أصبحت ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: **«تقرأ الكتابين التوراة والفرقان فكان يقرأهما»**(١) ومنهم عبد الله بن سلام - رضي الله عنه - فقد روى ابن ماجه في سننه، وأحمد في مسنده عن عبد الله بن سلام قال: «قلت ورسول الله ﷺ جالس: إنا لنجد في كتاب الله في يوم الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يصلي يسأل الله فيها شيئا إلا قضى له حاجته، قال عبد الله: فأشار إليّ رسول الله ﷺ أو بعض ساعة، فقلت: صدقت، أو بعض ساعة، قلت: أي ساعة هي؟ قال: **«هي آخر ساعات النهار»** قلت: إنها ليست ساعة صلاة، قال: **«بلى، إن العبد المؤمن إذا صلى ثم جلس لا يحبسه إلا الصلاة، فهو في صلاة»**(٢).

وروى أبو داود والنسائي في سننهما بالسند إلى أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «أتيت الطور فوجدت كعبا، فمكثت أنا وهو يوما أحدثه عن رسول الله ﷺ ويحدثني عن التوراة، فقلت له: قال رسول الله ﷺ: **«خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم وفيه أهبط، وفيه تيب عليه، وفيه قبض، وفيه تقوم الساعة، ما على الأرض من دابة إلا وهي تصبح يوم الجمعة مصيخة حتى تطلع الشمس شفقا من الساعة إلا ابن آدم، وفيه ساعة لا يصادفها عبد مؤمن وهو في الصلاة يسأل الله فيها شيئا إلا أعطاه إياه»** فقال كعب: ذلك يوم في كل سنة، فقلت: بل هي في كل جمعة، فقرأ كعب التوراة، ثم قال: صدق رسول الله ﷺ هو في كل جمعة، فخرجت فلقيت بصرة بن أبي بصرة الغفاري فقال: من أين جئت؟ قلت: من الطور، قال: لو لقيتك من قبل أن تأتيه لم تأته، قلت له: ولم؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا تعمل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي، ومسجد بيت المقدس»**، فلقيت عبد الله بن سلام فقلت: لو رأيتني خرجت إلى الطور، فلقيت كعبا، فمكثت أنا وهو يوما أحدثه عن رسول الله ﷺ ويحدثني عن التوراة.. وكمل القصة كما وردت في بداية الحديث إلى قوله: فقال: صدق رسول الله ﷺ، هو في كل جمعة، فقال عبد الله: صدق كعب، إني لأعلم تلك الساعة، فقلت: يا أخي حدثني بها، قال: **«هي آخر ساعة من يوم الجمعة قبل أن تغيب الشمس»**، فقلت: أليس

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٢/ ٤٤٤. وفي إسناده عبد الله بن لهيعة وهو ضعيف الحديث.

(٢) أخرجه ابن ماجه، الجمعة ١/ ٣٦٠ - ٣٦١، الحديث رقم ١١٣٩، أخرجه أحمد في مسنده ٦/ ٦٣٠ - ٦٣١. ورجال إسناده ثقات.

قد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يصادفها مؤمن وهو في الصلاة**» وليست تلك الساعة صلاة . قال: أليس قد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلى وجلس ينتظر الصلاة لم يزل في صلاته حتى تأتيه الصلاة التي تلاقيها؟

قلت: بلى ، قال: فهو كذلك[(١)] .

فهذه النصوص تدل على أخذ الصحابة هذا النهج ، وإقرار النبي ﷺ لهم ، ولكن هذا لا يعني التصديق والقبول بكل ما ينقل عن أهل الكتاب ، فقد ورد من النبي ﷺ نصوص أخرى تبين كيفية التعامل مع ما ينقل من أهل الكتاب من المعارف الدينية من تلك النصوص ما رواه البخاري بالسند إلى أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : «**لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم**» ﴿ قُولُوٓاْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ »[(٢)(٣)] .

وكذلك ما رواه أبو داو في سننه بالسند إلى أبي نملة الأنصار أنه بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ وعنده رجل من اليهود مر بجنازة فقال: يا محمد هل تتكلم هذه الجنازة؟ فقال النبي ﷺ: الله أعلم ، قال اليهودي: إنها تتكلم فقال رسول الله ﷺ: «**ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله ورسله، فإن كان باطلا لم تصدقوه، وإن كان حقا لم تكذبوه**»[(٤)] ففي هذين الحديثين يتبين أن النبي ﷺ قد وضع لنا ضابطا واضحا تجب مراعاته والتزامه عند نقل الأخبار من أهل الكتاب وهو التصديق بما عرفنا أنه حق والتوقف عما لم نعلم أنه حق ، ولتوضيح هذه المسألة فقد قسم العلماء الإسرائيليات وحكم روايتها إلى تقسيمات باعتبارات **ثلاثة:**

القسم الأول: باعتبار الصحة وعدمها ، وتنقسم بهذا الاعتبار **إلى قسمين:**

أ - صحيح مثل ما جاء مصدقا لما في القرآن من كلام عن صفات النبي ﷺ قال

---

(١) رواه أبو داود الحديث رقم ١٠٤٢ ، ورواه النسائي ، الحديث رقم ١٤٢٩ ، ٣/ ١٢٧ - ١٢٨ ، ورواه ابن الحبان في صحيحه الحديث رقم ١٠٢٤ ص ٢٥٢ - ٢٥٣ ، ورواه أحمد في مسنده ٣/ ٢٦٦ ، مختصرا .

(٢) سورة البقرة الآية: ١٣٦ .

(٣) أخرجه البخاري ، الحديث رقم ٤٤٨٥ ، انظر فتح الباري ٨/ ٢٠ .

(٤) رواه أبوداود الحديث رقم ٣٦٣٩ ، ابن حبان الحديث رقم ١١٠ ص ٥٨ مع زيادة "قاتل الله اليهود ، لقد أوتوا علما" ورواه أحمد في مسنده ٥/ ١٢٤ - ١٢٥ . ورجال إسناده ثقات .

تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾[١].

وقد وردت هذه الصفات في التوراة، وصرح بذلك المطلعون على التوراة، فقد روى البخاري عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ

- في التوراة، قال: أجل. والله إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن، يا أيها لنبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، اسمك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولن يقبضه الله حتى يقيم الملة العوجاء، بأن يقول لاإله إلا الله، ويفتح الله به قلوبا غلفا، وآذانا صما، وأعينا عميا. قال عطاء: ثم لقيت كعبا - كعب الأحبار - فسألته عن ذلك، فما اختلف حرفا[٢].

ب - موضوع: مثل خرافة جبل (ق) المحيط بالسماوات والأرض، كما زعم الكذابون.

القسم الثاني: باعتبار موافقتها لديننا، أو مخالفتها له. وتنقسم بهذا الإعتبار إلى **ثلاثة أقسام:**

أ - ما ورد منها موافقا لما في ديننا ومثال ذلك ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: **«تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة، يتكفؤها الجبار بيده كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلا لأهل الجنة فأتى رجل من اليهود فقال: بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة؟ قال: بلي قال: تكون الأرض خبزة واحدة، كما قال النبي ﷺ فنظر النبي ﷺ إلينا ثم ضحك حتى بدت نواجده، ثم قال ألا أخبرك بإدامهم؟ قال: إدامهم بالام ونون، قالوا: وما هذا؟ قال ثور ونون يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفا»**[٣].

ب - ما جاء مخالفا لما في شريعتنا ومثاله مانسبه اليهود إلى النبي هارون - عليه

---

(١) سورة الأحزاب الآية: ٤٥ - ٤٦.

(٢) أخرجه البخاري، الحديث رقم ٤٨٣٨ بلفظ قريب إليه انظر فتح الباري ٨/ ٤٤٩.

(٣) أخرجه البخاري الحديث رقم٦٥٢٠ انظر فتح الباري ١١/ ٣٧٩.

السلام - في سفر الخروج - من أنه هو الذي صنع العجل لبني إسرائيل، ودعاهم إلى عبادته[١] و ما نسبه سفر التكوين إلى الله - سبحانه وتعالى - من أنه لما خلق السماوات والأرض في ستة أيام، تعب - سبحانه وتعالى - فاستراح في اليوم السابع، الذي هو يوم السبت[٢].

جـ - ماسكت عنه شرعنا، وليس فيه ما يؤيده أو يفنده ومثاله ماروى من الإسرائيليات حول تفصيلات قصة بقرة بني إسرائيل، من قتل الرجل لعمه، ثم مطالبته آخرين بدمه، وذبح البقرة، وإحياء القتيل بها، وإخباره عن قاتله.

القسم الثالث: باعتبار موضوعها وقسم على هذا الاعتبار **إلى ثلاثة أقسام**:

أ - ما يتعلق بالعقائد، ومثاله: مارواه البخاري عنَ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «**جاء حبر من أحبار اليهود إلى رسول الله ﷺ فقال يا محمد: إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾**»[٣][٤].

بـ - ما يتعلق بالأحكام ومثاله ما رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - «أن اليهود جاءو إلى النبي ﷺ برجل منهم وامرأة قد زنيا، فقال لهم: كيف تفعلون بمن زنى منكم؟ قالوا: نحممهما ونضربهما، فقال: لا تجدون في التوراة الرجم؟ فقالوا: لا نجد فيها شيئا، فقال لهم عبد الله بن سلام: كذبتم، فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين، فوضع مدراسها الذي يدرسها منهم كفه على آية الرجم، فطفق يقرأ مادون يده وما وراءها ولا يقرأ آية الرجم، فنزع يده عن آية الرجم فقال ما

---

(١) انظر: سفر الخروج الإصحاح ٣٢ فقرة ١ - ٥.
(٢) انظر: سفر التكوين الإصحاح ٢ فقر ١ - ٣.
(٣) سورة الزمر الآية: ٦٧.
(٤) أخرجه البخاري، الحديث رقم ٤٨١١ انظر فتح الباري ٨/ ٤١٢ - ٤١٣.

هذه؟

فلما رأواذلك قالوا: هي آية الرجم ، فأمر بهما فرجما قريبا من موضع الجنازة عند المسجد قال: فرأيت صاحبها يجنأ عليها ، يقيها الحجارة»[(١)] .

جـ - ما يتعلق بالقصص والتاريخ: ومثاله: ماروته الإسرائيليات عن تفصيلات صنع سفينة نوح - عليه السلام - وخشبها وطولها وعرضها وما جرى فيها من أحداث[(٢)]

وخلاصة ما سبق في هذه الأقسام باعتباراتها الثلاثة:

١ - أن ما شهد له القرآن ، أوالسنة من الإسرائيليات مقبول ، وتجوز روايته عنهم

٢ - أن المخالف لديننا مردود ولا تجوز روايته إلا من باب التحذير منه وبيان كذبه وزيفه .

٣ - أن ما لم يشهد له الكتاب ، أو السنة بالصحة أو البطلان مما هو مسكوت عنه ، فهو محل الخلاف بين العلماء . وقد ذكر أهل العلم أن الصحيح هو التوقف والتثبت فيه لحديث أبي هريرة - رضي الله عنه - «لاتصدقوا أهل الكتاب ولاتكذبوهم»[(٣)]

قال بعض أهل العلم بجواز روايته وتناقله إذا كان مما لا تحيله العقول ، أوتستبعده[(٤)]

على أن يكون إيراده لمجرد الفائدة ، أو للعظة والاعتبار .

أو كما يقول الإمام ابن تيمية! للاستشهاد لا للاعتقاد[(٥)(٦)] وعلى أن يكون في باب الأخبار والقصص لا في باب العقائد والأحكام . وبهذه التوضيح ينجلي ما يشكل على بعض الناس في الأخبار الواردة بجواز قراءة كتب أهل الكتاب ، ونقل أخبارهم ، والأخبار الواردة في النهي عن ذلك . والسؤال المهم هنا: ما حدود الزمانية والمكانية

---

(١) أخرجه البخاري ، الحديث رقم ٤٥٥٦ انظر فتح الباري ٨/ ٧٢ .

(٢) انظر: الإسرئيليات في التفسير والحديث د . محمد الذهبي ص ٤٧ - ٥٤ ، وانظر مع قصص السابقين في القرآن الكريم ص ٤٧ - ٥١ بتصرف .

(٣) سبق تخريج الحديث .

(٤) انظر تفسير ابن كثير ٢/ ٢٨٧ .

(٥) مجموع الفتاوى لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم ١٣/ ٣٦٦ .

(٦) انظر: الثقافة والعالم الآخر د . عبد الله إبراهيم الطريقي ، وانظر مع قصص السابقين في القرآن الكريم ص ٥١ .

للأخبار والقصص التي تناولها النبي ﷺ؟ ويجيب عن هذا السؤال ماورواه الإمام البخاري بالسند إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه قال: «**قام فينا النبي ﷺ مقاما، فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه، ونسيه من نسيه**»[1].

وما رواه الإمام أحمد في سننه بالسند إلى أبي زيد الأنصاري، قال: «**صلى بنا رسول الله صلاة الصبح، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت الظهر، ثم نزل فصلى الظهر، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى العصر، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غابت الشمس فحدثنا بما كان، وما هو كائن فأعلمنا أحفظنا**»[2].

فهذان الحديثان يوضحان لنا الحدود الزمانية التي امتدت أخباره ﷺ حيث شملت الزمان كله بدءا من بداية الخليقة، وانتهاء بدار الآخرة، ويعني ذلك أنه ﷺ تناول الأخبار الماضية والأحداث المعاصرة والأخبار المستقبلة. ولا شك أن تاريخ، وأخبار الرسل والأمم مما يدخل في هذا دخولا أولياً، وبذلك تمثل السنة مع القرآن النص الوثائقي الذي لا يتطرق إليه شك لتاريخ العالم، فهما المصدران الأساسيان لتاريخ البشر، وتاريخ الأديان، أما غيرهما فإما مصدر ذات أصل سماوي لكنه حرف وبدل، وإما دراسات بشرية تعتمد على الظن والتخمين، والرجم بالغيب، إذ أن قصص السابقين تدخل في ضمن الغيب الذي لايمكن للإنسان أن يعرفه إلا عن طريق مصدر موثوق، وهذا المصدر لا يمكن أن يكون غير الوحي المعصوم.

أما إذا نظرنا من حيث توسع حديث النبي في هذه الأخبار، فإننا نجد أن السمة البارزة في منهجه ﷺ هي الإيجاز والإجمال وعدم الدخول في التفاصيل التي لا فائدة لها، والتركيز على مواقف العبر والعظة، والإهتمام بتاريخ الطوائف التي كان لها التأثير المباشر في الأمة في ذلك الوقت كاليهود والمشركين، وهذا ما دل عليه قول الصحابة _ رضوان

---

(١) أخرجه البخاري، الحديث رقم ٣١٩٢، انظر الفتح ٦/ ٣٣١.

(٢) أخرجه احمد في مسنده ٦/ ٤٦٧، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الفتن باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة الحديث رقم ٢٨٩٢، انظر شرح النووي ١٨/ ٢٣٣.

الله عليهم - «كان رسول الله ﷺ يحدثنا اليوم والليلة عن بني إسرئيل»[1].

لكن إن في هذا الإجمال ما يكفي تكوين تصور صحيح لدى المسلم عن تاريخ الخليقة ماضيا ومستقبلا، وتاريخ الأمم التي كانت لها تأثير في الأمة أيا كان نوعه.

المطلب الثاني: اشتمال السنة على المقارنة بين الأديان

المقارنة من أهم عناصر علم الملل، بل يعد عند بعض علما مستقلا، ومما يدل على أهمية هذا العنصر في مجال دراسة الأديان أنه صار لقبا لهذا العلم في العصر الحديث، خاصة في الغرب

والمتأمل لأحاديث النبوية التي تناولت الحديث عن الملل يجد أنها اشتملت على المقارنة بين الملل في مجالات كثيرة وبينت فضل الإسلام على سائر الملل في تلك المجالات، ومن صور المقارنة التي وردت في السنة مايلي:

أ - **المقارنة بين القرآن والكتب السابقة:** فقد بين النبي ﷺ فضل القرآن على الكتب السابقة التي أنزلت على الأنبياء السابقين. كالتوراة، والإنجيل، والزبور، وذلك لما اشتمل عليه القرآن من أحكام وشريعة كاملة شاملة لجميع جوانب الحياة، ومن الأحاديث التي وردت في هذا الشأن:

١ - ما رواه الترمدي والنسائي في سننيهما عن أبي هريرة عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ **«ما أنزل الله في التوراة، والإنجيل، مثل أم القرآن وهي: سبع المثاني وهي مقسمة بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل»**[2].

٢ - وحديث واثلة بن الأسقع - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: **«أعطيت مكان التورة السبع الطوال، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصل»**[3].

٣ - حديث عقبة بن العامر - رضي الله عنه - وفيه «... ثم لقيت رسول الله ﷺ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي، الحديث رقم ٣٣٣٢، ٤٣٩، وورواه النسائي، الحديث رقم ٩١٣، وراه أحمد في مسنده: ٣/ ١٣٦ بنحوه مع زيادة.

(٣) رواه أحمد في مسنده ٥/ ٧٨، وابن جرير الطبري في تفسيره ١/ ٣٤.

فقال لي: «**يا عقبة بن عامر، ألا اعلمك سورا ما أنزل في التورات ولا في الزبور ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلهن، لايأتين عليك ليلة إلا قرأهن فيها: قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس**»(١) .

فهذه المقارنة بين القرآن وبين الكتب السابقة عند ما كانت صحيحة ، وبيان ذلك الفضل يقتضي اتباع الفاضل - هذا على فرض لوكانت اليوم صحيحة - أما وهي محرفة مبدلة باعتراف أهلها فإن الواجب اتباع الفاضل الصحيح المحفوظ دون المنسوخ .

بـ - المقارنة بين النبي ﷺ والأنبياء السابقين في الفضل: فرسول الله ﷺ أشرف الخلق على الله وأكرم الرسل على الله ، بعثه الله بشرع كامل عظيم لم يعطه نبي قبله ولا رسول من الرسل(٢) .

قال السيوطي: قال العلماء: «ماأوتي نبي معجزة ولا فضيلة إلا ولنبينا ﷺ نظيرها أو أعظم منها»(٣) . وقد وردت عنه ﷺ أحاديث تدل فضله على سائر الأنبياء وبيان ما خص به دون الأنبياء من خصائص عظيمة ومن هذه الأحاديث:

١ - ما رواه البخاي ومسلم في صحيحهما من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه ﷺ قال: «**أنا سيد الناس يوم القيامة**»(٤) ووجه الدلالة أن لفظة "الناس" من ألفاظ العموم فيدخل جميع الناس حتى الأنبياء .

٢ - حديث أبي هريرة رضي الله عنة قال قال رسول الله ﷺ «فضلت على الأنبياء بست أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون»(٥) .

جـ - مقارنة الأمة الإسلامية بالأمم الأخرى: فضل الله الأمة التي آمنت بمحمد ﷺ على غيرها من الأمم السابقة وقد بينت السنة صور هذا التفضيل ومن ذلك:

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٥/ ١٦١ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٣٤٤ .

(٣) انظر تهذيب الخصائص النبوية لجلال الدين السيوطي ص ٣٤٦ ، دار البشائر الإسلامية ط الثانية ١٤١٠هـ

(٤) أخرجه البخاري ، الحديث رقم ٣٣٤٠ ، ومسلم الحديث رقم ٣٢٧ .

(٥) سبق تخريجه .

١ - عظم ثواب هذه الأمة مع قلة عملها، يدل على ذلك ماراه البخاري عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، وأوتي أهل التوراة التوراة، فعملوا حتى إذا انتصفت النهار عجزوا فأعطوا قيراطا قيراطا، ثم أوتي أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا إلى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطا قيراطا، ثم أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس فأعطينا قيراطين قيراطين، فقال أهل الكتابين: أي ربنا أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين، وأعطيتنا قيراطا قيراطا، ونحن أكثر عملا قال: قال الله عزوجل هل ظلمتكم من أجركم من شيء؟ قالوا: لا، قال فهو فضلي أوتيه من أشاء»**[1]. فهذا الحديث يدل على كرم الله وتفضله على هذه الأمة حيث ضاعف أجرها، مع قلة عملها، وفي هذا دلالة على فضل الإسلام على غيره من الأديان.

٢ - أخبر ﷺ أن أمته خير الأمم: ففي الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه قال ﷺ: **«أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء» فذكر الحديث، وفيه «وجعلت أمتي خير الأمم»**[2].

٣ - بين ﷺ أن هذه الأمة أكثر الأمم الداخلة في الجنة، فقد روى ابن حبان في صحيحه وغيره عن عبد الله بن مسعود - ر ضي الله عنه - قال: تحدثنا عند رسول الله ﷺ ذات ليلة حتى أكرينا الحديث[3] ثم رجعنا إلى منازلنا، فلما أصبحنا غدونا عليه، فقال رسول الله ﷺ: **«عرضت عليّ الليلة الأنبياء بأممها، فجعل النبي يمر ومعه الثلاثة من أمته، وجعل النبي يمر ومعه العصابة من أمته، حتى مر موسى ابن عمران في كبكبة[4]، فلما رأيتهم أعجبوني قلت: يا رب من هؤلاء؟ قال: أخوك موسى بن عمران، ومن تبعه من بني إسرائيل، قلت: يارب فأين أمتي؟ قال: انظر عن يمينك، فنظرت فإذا الظراب[5] ظراب مكة قد سد بوجوه الرجال**

---

(١) رواه البخاري، الحديث رقم ٥٥٧، انظر: الفتح ٢/ ٤٦.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١/ ١٥٧، قال ابن كثير تفرد به أحمد من هذا الوجه، وإسناده حسن، انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٣٤٤.

(٣) أكرينا الحديث: أي أطلنا فيه، انظر: النهاية في غريب الحديث ٤/ ١٧٠.

(٤) كبكبة: أي الجماعة المتضامة من الناس. المصدر السابق ٤/ ١٤٤.

(٥) الظراب: الظراب بكسر الظاء هي الجبال الصغار، المصدر السابق ٣/ ١٥٦

فقلت: يا رب من هؤلاء؟ قال هؤلاء أمتك، أرضيت؟ فقلت: يا رب قد رضيت، قال انظر عن يسارك، فنظرت، فإذا الأفق قد سد بوجوه الرجال، فقلت: يا رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء أمتك، أرضيت؟ قلت: رضيت، قال: إن مع هؤلاء سبعين ألفا يدخلون الجنة بلا حساب.. الحديث»[1].

٤ - وبين ﷺ أن من فضل هذه الأمة، ومزاياها العظيمة سبقها غيرها يوم القيامة إلى الجنة، رغم أنها آخر أمة في الدنيا، ورد ذلك فيما رواه الشيخان عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «نحو الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غدا، والنصارى بعد غد»[2].

وروى مسلم وغيره عن أبي هريرة، وحذيفة - رضي الله عنهما - قالا: قال رسول الله ﷺ: **«أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة. نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، المقضي لهم قبل الخلائق، وفي رواية واصل: المقضي بينهم»**[3].

فهذه الأحاديث بينت أن الأمة التي اتبعت منهج النبي ﷺ أفضل من جميع الأمم التي اتبعت الأنبياء السابقين، والمقارنة هناك مقارنة في النهج الصحيح، وأما المقارنة بين انحراف من انحرف عن النهج الصحيح من أمة محمد ﷺ وبين الانحراف الذي أصاب الأمم السابقة، فقد وردت به أحاديث عديدة جاءت في سياق التحذير عن سلوك الأمم السابقة المؤدي إلى الاختلاف والتنازع في الدين، ومن هذه الأحاديث:

١ - ما رواه أبو داود في سننه عن معاوية قال: قام فينا رسول الله ﷺ فقال: **«ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة»**[4].

---

(١) رواه ابن حبان، الحديث رقم ٢٦٤٤ ص ٦٥٧، وأحمد في مسنده ١/ ٦٦٢ - ٦٦٣، والحاكم في مستدركه ٤/ ٥٧٧.

(٢) رواه البخاري، الحديث رقم ٨٧٦، الحديث رقم ٢٠، ٦/ ٣٩٢.

(٣) رواه مسلم الحديث رقم ٢٢، ٦/ ٣٩٣.

(٤) رواه أبو داود الحديث رقم ٤٥٨٤، ١٢/ ٢٢٣، وأحمد في مسنده ٥/ ٧٠، والآجري في الشريعة ص ٢٦، تحقيق محمد حامد الفقي، والعبكري في الإبانة باب ذكر افتراق الأمم في دينهم وعلى كم تفترق هذه الأمة، تحقيق رضا نعسان

٢ - وروى أبو داود والترمذي عن أبي هريرة - أن رسول الله ﷺ قال: «**تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين، والنصارى مثل ذلك، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة**»[1] ووجه الدلالة من هذه الأحاديث أن النبي ﷺ حين أراد أن يبين للأمة ما يصيبها من افتراق وتنازع في الدين، وظهور أهل الأهواء، والبدع لم يكتف بذكر ذلك فقط، وإنما ذكر أولا افتراق الأمم السابقة، وكثرة فرقها، وفي ذلك إشارة إلى أن الأسباب التي أدت بالأمم السابقة إلى ذلك هي التي ستكون سببا في افتراق هذه الأمة، وبسبب تأثيرات تلك الأمم - اليهود والنصاري -، والنبي ﷺ يقصد من هذا التحذير حماية الأمة من تلك الأمراض، وحصانة فكرها من تلك العلل، وإذا كان النبي ﷺ قد أخبر الأمة بما حدث لأهل الكتاب، وما سيحدث لهذه الأمة من افتراق بإعلام الله له، فإن القائم بدور النبي ﷺ في حماية الأمة من مناهج الأمم الضالة، لا يمكن أن يعرف حقيقة ما عليه الأمم إلا بدراسته لعقائد وسلوك تلك الأمم، وبمعرفة طرق تعدية أفكار الأمم إلى الأمة الإسلامية، وهذه الدراسة هي عين دراسة علم الملل.

د - مقارنة الشريعة الإسلامية بالشرائع السابقة: يتميز الإسلام على سائر الأديان السابقة بخصائص عديدة، ومزايا كثيرة، منها: كونه جاء بشريعة سمحة، بعيدة عن التعنت والتشدد، وقد ذكر النبي ﷺ هذه الميزة في أحاديثه، كهذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي بن كعب - رضي الله عنه - قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى أمرني أن أقرأ عليك القرآن، قال: فقرأ ﴿ **لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ** ﴾[2]، قال فقرأ فيها: «**ولو كان ابن آدم سأل واديا من مال فأعطيه لسأل ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب، وإن ذلك الدين القيم عند الله**

معطي ١/ ٣٧١، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة، تحقيق د. أحمد سعد الغامدي ١/ ١١٢ - ١١٣، الحديث رقم ١٤٩. قال شيخ الإسلام: ((هذا حديث محفوظ...)) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ١٢٢.

(١) رواه أبو داود الحديث رقم ٤٥٨٣ انظر: ١٢/ ٢٢٢، والترمذي الحديث رقم ٢٧٧٨، الأحوذي ٧/ ٣٣٢، وأحمد في مسنده ٢/ ٦٣٦، والآجري في الشريعة ص ١٥.

(٢) سورة البينة الآية: ١.

الحنيفية غير المشركة، ولا اليهودية، ولا النصرانية، ومن يفعل خيرا فلن يكفره»[١] . وقال ﷺ في حديث أبي أمامة عند أحمد والطبراني في الكبير: «... **إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة**»[٢] .

ووجه الدلالة أن النبي ﷺ بين في هذه الأحاديث ونحوها أن الشريعة الإسلامية شريعة سمحة بعيدة عن الشدة التي اتسمت بها شريعة التوراة ، وعن اللين الذي كان طابعا لشريعة الإنجيل . قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن شريعة التوراة يغلب عليها الشدة ، وشريعة الإنجيل يغلب عليها اللين ، وشريعة القرآن معتدلة جامعة بين هذا وهذا»[٣] . فهي شريعة وسط ، هذا عندما كانت تلك الشريعتان صحيحتين . أما بعد تحريفهما فالأمر أشد .

المطلب الثالث: اشتمال السنة على جدال الكفار ومناظرتهم

المتتبع للسنة النبوية يجد في نصوصها قولا وفعلا وتقريرا أنها اشتملت على مشروعية الجدال والمناظرة ، والرد على المخالفين ، وسأورد هنا طرفا من تلك النصوص

أ - فمن أقواله ﷺ:

١ - قوله في حديث أنس رضي الله عنه: «**جاهدوا المشركين بأموالكم، وأنفسكم، وألسنتكم**»[٤] .

٢ - وقوله ﷺ: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الجاهلين وانتحال المبطلين وتأويل الغالين**»[٥] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٦/ ١٥٧ ، ورواه الحاكم في مستدركه في كتاب التفسير ٢/ ٢٢٤ ، وقال هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٦/ ٣٥٧ . والطبراني في المعجم الكبير ٨/ ٢٥٧ ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، وذكره الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، ، كتاب الجهاد ، باب فضل الجهاد ٥/ ٢٧٩ - ٢٨٠ ، وليس فيه أني لم أبعث باليهودية ' ثم قال: رواه البزار ورجاله ثقات . مكتبة القدس - القاهرة ١٣٥٢هـ

(٣) الجواب الصحيح ابن تيمية ٣/ ٢٤٠ .

(٤) سبق تخريج الحديث .

(٥) أخرجه الخطيب البغدادي بطرق مختلفة بعضها ضعيف وبعضها صحيحة في كتابه ' شرف أصحاب الحديث ' تحقيق عمرو بن عبد المنعم سليم ص ٦٧ - ٦٨ ، وقال المحقق: إسناد رجاله ثقات .

٣ - وكذلك عموم أقواله الدالة على وجوب النهي عن المنكر كقوله: **«من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»**[1].

ففي هذه الأحاديث أمر النبي ﷺ رد المخالفين، ومجاهدتهم باللسان، والمجاهدة باللسان تكون بمناظرتهم وجدالهم، ومدح القائمين بهذه الوظيفة.

ب - من فعله ﷺ، فقد ثبت من فعله ﷺ أنه جادل المشركين، واليهود، والنصارى في مقامات عديدة، وفي قضايا مختلفة، ومن ذلك:

أ - جداله مع المشركين: فقد ورد في كتب السير أن عتبة بن ربيعة زعيم بني أمية اغتاظ من خبر إسلام حمزة بن عبد الطلب - رضي الله عنه - فقال يوما وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ في المسجد وحده: "يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه، وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا... فقالوا: بلى، يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال يا ابن أخي: إنك منا حيث قد علمت من السطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضي من آبائهم، فاسمع مني، أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، فقال له رسول الله صلي الله عليه وسلم: قل يا أبا الوليد.. أسمع.

قال: يا ابن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، و إن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، و إن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا وإن كان الذي يأتيك رئياً تراه لاتستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه، أو كما قال له. حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني، قال عتبة: أفعل، قال:

---

(١) أخرجه مسلم، الحديث رقم ٧٨، مسلم للنووي ٢/ ٣٨٠ - ٣٨١.

فقال رسول الله ﷺ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم، حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ - إلى قوله تعالى: فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ ﴾[١] ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرأها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه على خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه، ثم انتهي رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك، فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولا، والله ما سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك - والله يا أبا الوليد - بلسانه، قال: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم[٢].

فهذه القصة إحدى الصور التي تعبر عن صور المجادلات، والمفاوضات التي كانت تحدث بين النبي - صلى الله عله وسلم - وبين كفار قريش، وفيها دلالة على أن النبي ﷺ كان يحاور، ويجادل مع هؤلاء المشركين الممثلين للعقلية الجاهلية التي لا تعرف من القيم شيئا، ولا تقيم وزنا إلا للأمور المادية بدليل تلك العروض الهزيلة السخيفة في جانب الحق، والمبادئ التي جاء بها النبي ﷺ. ومع ذلك فإن النبي ﷺ جلس يسمع لكلام عتبة، ولم يقاطعه في حديثه، حتى أنهاه، بل أبدى ﷺ احترامه الشديد لهذا الخصم حيث كان يكنيه بكنيته، ثم طلب في الخطوة الثانية أن يستمع له، فقرأ عليه بداية تلك السورة التي عرضت عقيدة الإسلام، وبيان موقف المشركين من الإسلام، ثم أعقبت قدرة الله تعالى، وإنذاره الشديد للكفار، وفي هذا بيان في غاية الكمال لما جاء به ﷺ من الحنيفية، وكانت النتيجة أن تغيرت وجهة نظر عتبة عن الإسلام وإن لم يدخل فيه، واكتفى بموقف الحياد. والمقصود هنا أن القصة أنموذج للحوار، والجدال الذي

---

(١) سورة فصلت الآية: ١ - ٣٨.
(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٣١٣ - ٣١٤.

وقع بين الإسلام، والشرك، وأن ذلك أمر مشروع .

ب - جداله مع أهل الكتاب:

١ - جداله مع اليهود: لم تذكر كتب السير شيئا من الاحتكاك المباشر بين النبي ﷺ واليهود في عهد مكة، لكن لما هاجر ﷺ إلى المدينة، فقد حدثت بينه وبين اليهود مواقف عديدة، كان الجدال والحوار يشتد فيها بينه وبينهم، وكان اليهود - في الغالب - وراء حدوث تلك اللقاءات، وذلك أنهم كانوا يقصدون إلى أسئلة يظنون أنها تحرج النبي ﷺ بغية إثارة البلبلة في صفوف المسلمين، وكانت هذه الأسئلة مباشرة، أو تصله عن طريق الصحابة، وكانت هذه الأسئلة تتطرق لقضايا مختلفة، وأجوبتها كانت معلومة لديهم، وأحيانا كانت تحمل سوء أدب مع الله، أو مع رسول الله ﷺ، لكن النبي ﷺ كان يرد عليهم بالحكمة، ويجادلهم بالتي هي أحسن، ومن أمثلة ذلك:

١ - ما رواه الإمام أحمد وغيره عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: «حضرت عصابة من اليهود نبي الله يوما، فقالوا: يا أبا القاسم، حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي . قال: سلوني عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله، وما أخذ يعقوب - عليه السلام - على بنيه، لئن حدثتكم شيئا فعرفتموه لتتابعني على الإسلام، قالوا: فذلك لك؟

قال: فسلوني عما شئتم، قالوا: أخبرنا عن خلال نسألك عنهن، أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل، كيف يكون الذكر منه، وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي في النوم، ومن وليه من الملائكة .

قال: فعليكم عهد الله وميثاقه، لئن أنا أخبرتكم لتتابعني؟ قال: فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق . . .» فلما أجابهم عن الأسئلة كلها نكثوا بعهودهم، وقالوا: لو كان وليك سواه - أي جبريل من الملائكة لتابعناك، وصدقناك، قال: فما يمنعكم من أن تصدقوه؟ قالوا: إنه عدونا، قال: فعند ذلك قال الله عز وجل ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ

عَلَــى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ ﴾ إلى قولـه عز وجل ﴿ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[١] فعند ذلك "باءوا بغضب على غضب"[٢][٣].

إن أخـذ الـنبي ﷺ العهـد والميـثاق عنهم في هذه القصة ليس إلا من باب حرصه ﷺ عـلى هداية اليهود، وإلا فقد كان يحاورهم ويجيب عن أسئلتهم دون ذلك، مثال ذلك، ما رواه مسـلم في صـحيحه عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال كنت قائما عند رسول الله ﷺ فجـاء حبر من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك يا محمد. فدفعته دفعة كاد يصرع منها، فقـال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول: يا رسول الله؟ فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سمـاه بـه أهلـه، فقـال رسـول الله ﷺ: إن اسمـي محمـد الـذي سمـاني بـه أهلي، فقال الـيهودي: جئت أسألك، فقال لـه رسول الله ﷺ: أينفعك شيء إن حدثتك؟ قال: أسمع بـأذني، فنكـت رسـول الله ﷺ بعـود معـه فقـال: سـل، فقـال الـيهودي: أيـن يكـون الناس ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾[٤].

فقـال رسـول الله ﷺ هم في الظلمة دون الجسر، قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: فقـراء المهاجـرين، قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: زيادة كبد النون، قال: فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها، قال: فما شرابهم عليه؟ قال: من عين فيها تسمى سلسبيلا، قال: صدقت.

قـال: وجئـت أسـألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي، أو رجل أو رجـلان، قـال: أيـنفعك إن حدثـتك؟ قـال: أسمع بأذني، قال: جئتك أسأل عن الولد، قـال: مـاء الـرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة أذكرا بإذن الله، وإذا علا مني المرأة مني الرجل أنثا بإذن الله، قال اليهودي: لقد صدقت، وإنك لنبي، ثم انصرف.

فذهـب، فقال رسـول الله ﷺ: **«لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه وما لي علم بشيء منه**

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٠١.

(٢) لفظ الآية: {فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ} في سورة البقرة الآية: ٩٠.

(٣) رواه أحمد في مسنده ١/ ٤٥٨ - ٤٥٩.

(٤) سورة إبراهيم الآية: ٤٨.

حتى أتاني الله به»[١] . فمثل هذه الأحاديث تبين أن النبي ﷺ جادل مع اليهود ، وأقام عليهم الحجة ، وألزم عليهم بطلان دعواهم بأنه غير مرسل إليهم ، وكان ﷺ يجادلهم بالقرآن .

٢ - جداله مع النصارى: لم يكن للنصارى في المدينة كيان ككيان اليهود ؛ ولذا كان احتكاكهم مع النبي ﷺ قليلا ، وأشهر حوار حدث بين النبي ﷺ وبين النصارى هو حواره مع وفد نجران الذي جاء إلى المدينة المنورة سنة عشر من الهجرة ، بقصد مناظرة النبي ﷺ ، وبقصد إظهار النصرانية التي ابتدعوها تحريفا لدين عيسى - عليه السلام - ، وكان على رأس هذا الوفد ثلاثة هم: عبد المسيح الملقب بالعاقب ، والأيهم الملقب بالصاحب ، وأبو حارثة بن علقمة ، وكان حبرهم وإمامهم ، وصاحب مدارسهم ، ولما وصل هذا الوفد المدينة المنورة دخل مسجد الرسول بعد صلاة العصر ، فصلوا متجهين جهة بيت المقدس ، ومنع الرسول ﷺ أصحابه من أن يمنعوهم ذلك ، ولما فرغوا من صلاتهم ، اختاروا رجلين منهم لمناظرة رسول الله ﷺ .

فقال لهما - عليه الصلاة والسلام -: أسلما ، قالا: أسلمنا قبلك ، فقال لهما: كذبتما ، منعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولدا ، وعبادتكما الصليب ، وأكلكما الخنزير ، ودار الحديث في أغلبه حول معتقدات النصارى في عيسى - عليه السلام - ونزل على رسول الله ﷺ في شأن هذه المناظرة صدر سورة آل عمران ، حتى الآية الثانية والثمانين . وبعد إقامة الحجة عليهم ، واستكبارهم عن الدخول في الإسلام ، أمر الله نبيه أن يباهلهم ، فاختاروا عدم المباهلة ، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ﷺ نبي من عند الله[٢] .

ذكر ابن القيم الجوزية بعد سرده قصة وفد نجران أن من فقهها «جواز مجادلة أهل الكتاب ، ومناظرتهم ، بل استحباب ذلك ، بل وجوبه إذا ظهرت مصلحته من إسلام من

---

(١) رواه مسلم في صحيحه الحديث رقم ٣٤ ، انظر: مسلم للنووي ٣/ ٢٣٠ - ٢٣٢ .

(٢) انظر: في تفاصيل هذه المناظرة وألفاظها في سيرة ابن هشام ، ٢/ ٢٠٤ - ٢١٦ ، السيرة لابن كثير ٤/ ١٠٠ - ١٠٨ ، تفسير ابن كثير ١/ ٣٦٧ - ٣٧١ ، زاد المعاد ٣/ ٦٢٩ - ٦٣٨ ، أسباب النزول للإمام أبي الحسن علي بن أحمد النسابوري ، تحقيق السيد أحمد ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

يرجى إسلامه منهم ، وإقامة الحجة عليهم»[1] .

والمقصود في هذا المطلب بيان أن النبي ﷺ جادل أهل الأديان سواء كانوا أهل كتاب ، أم كانوا مشركين وثنيين لا كتاب لهم ، والأمم لا تخرج في عقائدها عن هذين الصنفين ، فدلت مجادلة النبي ﷺ كلا الصنفين ، وإقامة الحجة عليهم ، ورد أباطيلهم ، وعدم تركه الإجابة عن أسئلتهم يدل على مشروعية علم الملل ، إذ ليست وظيفة هذا العلم عند المسلمين إلا الحجاج ، والدفاع عن العقيدة الصحيحة برد ما يثار حولها من شبهات وإقامة الحجة على منكريها ، ويكون ذلك بالجدال والمناظرة عند الحاجة ، وبيان حقيقة الأديان الباطلة وردها .

وبذلك نخلص من هذا الفصل إلى أن السنة قد دلت على مشروعية علم الملل ، باشتمالها عرض الأديان وتاريخها ، والمقارنة بين الإسلام والأديان الأخرى ، وعلى نقد تلك الأديان الباطلة ، والجدال مع أتباعها لإقامة الحجة عليهم .

* * * * *

(١) زاد المعاد ٣/ ٦٣٩ .

الفصل الثالث

الأدلة من مواقف الصحابة والسلف على مشروعية

المبحث الأول: حجيـة مواقـف السلف

توطئة:

أقصد مواقف السلف هنا المواقف التي تعبر عن علاقة السلف - بدءا من الصحابة - مـع أهـل الملـل الأخرى، فمن المهم ونحن بصدد البحث في الأصول الشرعية الدالة على مشـروعية عـلم الملـل أن نذكـر هنا مدى حجية مواقف السلف باعتبارهم الأنموذج الذي طـبق الإسـلام في عهـد الـنبي ﷺ وفي القـرون المفضلة من بعده، حيث مرت بهم أصول الحالات التي تمر بها البشرية جميعا والتي يمكن أن تعرض للمجتمعات الإنسانية.

المطلب الأول: حجية مواقف الصحابة

الصـحابة - رضـوان الله عليهم - هم الجيل الذي اختارهم الله لصحبة نبيه الكريم ﷺ قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: «إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خـير قلـوب العـباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسنا فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئا فهو عند الله سيئ»(١).

«فالله اختارهم لهذه الفضيلة وخصهم بها دون غيرهم لما علم فيهم من إخلاص وفقه ورجاحة عقول، وصفاء أذهان، وفصاحة اللسان وسعة العلم، وسهولة الأخذ، وحسن الإدراك وسرعته.. وحسن القصد، وتقوى الرب تعالى»(٢). وبناء على ذلك فإن أقوالهم في تفسـير النصـوص، وتطبـيقاتهم لهـا أصـوب، وصـارت حجـة على من بعدهم، وقد وردت أدلة من القرآن، والسنة النبوية، وأقوال أئمة الهدى على ذلك.

أ - مـــن القرآن: قولـه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ

---

(١) أخـرجه الإمـام أحمد في مسنده ١/ ٦٢٦، مجمع الزوائد ١/ ١٧٧ - ١٧٨، قال الهيثمي: رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير، ورجاله موثقون.

(٢) انظر: إعلام الموقعين ٤/ ١١٣.

﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[(١)]، ووجه الاستدلال بالآية هو - كما قال ابن القيم -: «أن الله تعالى أخبر أنه جعلهم أمة خيارا عدولا،.. فهم خير الأمم، وأعدلها في أقوالهم وأعمالهم، وإرادتهم ونياتهم، وبهذا استحقوا أن يكونوا شهداء للرسل على أممهم يوم القيامة، والله تعالى يقبل شهادتهم عليهم، فهم شهداؤه... والشاهد المقبول عند الله هو الذي يشهد بعلم وصدق؛ فيخبر بالحق مستندا إلى علمه، كما قال تعالى: ﴿إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[(٢)(٣)].

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[(٤)]، ومثله قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[(٥)]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

«والرضا من الله صفة قديمة، فلا يرضى إلا عن عبد علم أنه يوافيه على موجبات الرضا - ومن رضي الله عنه لم يسخط عليه أبدا... فكل من أخبر الله عنه أنه رضي عنه فإنه من أهل الجنة وإن كان رضاه عنه بعد إيمانه وعمله الصالح، فإنه يذكر ذلك في معرض الثناء عليه والمدح له، فلو علم أنه يتعقب ذلك بما يسخط الرب لم يكن من أهل ذلك»[(٦)]. قال ابن حزم: «فمن أخبرنا الله أنه علم ما في قلوبهم، ورضي عنهم، وأنزل السكينة عليهم، فلا يحل لأحد التوقف في أمرهم أو الشك فيهم البتة»[(٧)].

إن وصول الصحابة بهذه الدرجة - درجة رضا الله تعالى عنهم - ليس إلا بالعلم والإيمان، والعمل الصالح، والذين اتبعوهم، اتبعوهم في هذا، فدل ذلك على حجية أقوالهم على من بعدهم.

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٤٣.
(٢) سورة الزخرف ٨٦
(٣) انظر: إعلام الموقعين ٤/ ١٠١ - ١٠٢.
(٤) سورة الفتح الآية: ١٨.
(٥) سورة التوبة الآية: ١٠٠.
(٦) الصارم المسلول، ابن تيمية، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ص ٥٧٢ - ٥٧٣.
(٧) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/ ٢٢٥.

ب - من السنة: قال النبي ﷺ في وصف الصحابة بالنسبة للأمة: «**النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون**»[١]. إن ذهاب الصحابة يعني ظهور البدع والحوادث في الدين، والفتن، وطلوع قرن الشيطان[٢] وافتقاد الأمة القدوة، واعتلال ميزان التطبيق، والدخول في التنازع والحيرة، فهذا الوصف يعطي الصحابة التزكية التامة، ويجعل أقوالهم حجة.

قوله ﷺ: «**خير القرون قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[٣] فالنبي ﷺ أخبر أن خير القرون قرنه مطلقا، وذلك يقتضي تقديم الصحابة في كل باب من أبواب الخير[٤].

وقوله ﷺ: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»[٥]، ووجه الاستدلال بالحديث: أن النبي ﷺ قرن سنة خلفائه بسنته، وأمر باتباعها، كما أمر باتباع سنته، وبالغ في الأمر بها حتى أمر بأن يعض عليها بالنواجذ، وهذا يتناول ما أفتوا به وسنوه للأمة، وإن لم يتقدم من نبيهم فيه شيء وإلا كان ذلك سنته[٦].

جـ - أقوال أهل العلم: قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: «من كان منكم متأسيا فليتأس بأصحاب محمد ﷺ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، وأقومها هديا، وأحسنها حالا، قوما اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم»[٧]. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومن المعلوم بالضرورة لمن تدبر الكتاب والسنة، وما اتفق

---

(١) أخرجه مسلم، شرح النووي ١٥/ ٤١٦ حديث رقم ١٥٣١.

(٢) انظر: المصدر السابق ١٥/ ٤١٧.

(٣) أخرجه البخاري، حديث رقم ٢٦٥٢. انظر: فتح الباري ٥/ ٣٠٦.

(٤) انظر: إعلام الموقعين ٤/ ١٠٤.

(٥) رواه أبو داود، الحديث رقم ٤٦٠٧، ١٢/ ٢٣٤، وأخرجه الترمذي، الحديث رقم ٢٨١٥، وقال حديث حسن صحيح، ٧/ ٣٦٦ - ٣٦٨ وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ١/ ١٣ - ١٤، الحديث رقم ٤٠ - ٤١.

(٦) إعلام الموقعين ٤/ ١٠٧.

(٧) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١١٩، الناشر المكتبة السلفية لصاحبها محمد عبد المحسن الكتبي - المدينة المنورة، مجموع الفتاوى ٤/ ١٥٨، إعلام الموقعين ٤/ ١٠٦.

عليه أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف أن خير قرون هذه الأمة في الأعمال، والأقوال، والاعتقاد وغيرها من كل فضيلة أن خيرها - القرن الأول - ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ من غير وجه، وأنهم أفضل من الخلف في كل فضيلة من علم، وعمل، وإيمان، وعقل، ودين، وبيان، وعبادة، وأنهم أولى بالبيان لكل مشكل، هذا لا يدفعه إلا من كابر المعلوم بالضرورة من دين الإسلام، وأضله الله على علم»[(١)].

- وجاء في جواب عمر بن عبد العزيز لعدي بن أرطأة حين سأل رأيه عن قوم يقولون: لا قدر: «فإني أوصيكم بتقوى الله، والاقتصاد في أمره، واتباع سنة نبيه ﷺ، وترك ما أحدث المحدثون مما قد جرت سنته، وكفوا مؤنته، فعليكم بلزوم السنة، فإن السنة إنما سنها من قد عرف ما في خلافها من الخطأ، والزلل، والحمق، والتعمق، فارض لنفسك بمارضي به القوم لأنفسهم، فإنهم عن علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، ولهم كانوا على كشف الأمور أقوى بفضل لو كان فيه أجر، فلئن قلتم: أمر حدث بعدهم، ما أحدثه بعدهم إلا من اتبع غير سنتهم، ورغب بنفسه عنهم، إنهم لهم السابقون، فقد تكلموا فيه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم مقصر، وما فوقهم محسر، لقد قصر عنهم آخرون فضلوا، وإنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم...»[(٢)].

فهذه النصوص من الكتاب والسنة، وأقوال أهل العلم كلها قد دلت على مكانة الصحابة، وأنهم خير من يستن بسنتهم، وخير أنموذج فهم كتاب الله وطبقه على أرض الواقع، وهذا يدل على أن فهم الصحابة للنصوص وتطبيقهم لها حجة، وقد كان من الأحكام الشرعية التي طبقها الصحابة بعد النبي ﷺ الأحكام المتعلقة بأهل الملل، وقد كان لهم اجتهادات كثيرة حول كيفية تطبيق النصوص، كما كانت لهم مواقف دعوية وجهادية، سواء في عهد النبي ﷺ أو من بعده، وسأعرض طرفا من تلك المواقف في المبحث الآتي للاستدلال بها على مشروعية علم الملل.

---

(١) الفتاوى ٤/ ١٥٧ - ١٥٨.

(٢) الشريعة للآجري ص ٢١٢.

المطلب الثاني: حجية مواقف التابعين ومن بعدهم

إذا كـان الصحابة بتلك المكانة من الخيرية ، فإن الذين يلونهم في الخيرية هم التابعون الذيـن زاملـوا الصـحابة ، وتلقـوا العـلم عـنهم ، فهـم وإن كانـت أقوالهم ليست كأقوال الصـحابة في الحجية[1] إلا أنهم أفضل ممن جاء بعدهم علما ، ودينا ، وفهما ، ومن ثم فإن مواقفهـم واجـتهاداتهم أقـرب إلى الصـواب من غيرها ، ثمَ إن من رحمة الله لهذه الأمة أن جعـل فـيها طائفـة قائمـة عـلى الحـق إلى قـيام الساعة ، وهي الطائفة السالكة سبيل جيل الصـحابة "الطائفـة المنصورة" بإذن الله التي لا يضرها من خذلها ، والتي باستمرارها يتصل سند هذه الأمة إلى ذلك الجيل المبارك ، وإذا كان من أهم وظائف هذه الطائفة تبليغ الدين والدفـاع عنه ، فإن الباحث عن مواقف السلف عن أهل الملل لن يفقد أمثلة رائعة تترجم الموقف الشرعي من أهل الملل الباطلة .

* * * * *

(١) انظر: إعلام الموقعين ٤/ ١١٩ .

المبحث الثاني

مواقف السلف من أهل الملل ودلالتها على مشروعية علم الملل

المطلب الأول: الأسس في علاقة السلف بأهل الملل

تقوم العلاقة بين السلف وأهل الملل على أساسين مهمين هما:

الأول: الإيمـــان بوجوب الدعوة إلى الله: الإيمـان بوجوب دعوة أهل الملل والنحل المختلفة إلى الإسلام هو أساس الأسس التي بنى السلف - بدءا من الصحابة والتابعين - علاقتهم مع غير المسلمين، فالسلف مع إيمانهم بأن الدعوة أوجب الواجبات فقد كانوا يدركون أنها أقرب القربات، وأفضل الطاعات، ولم لا تكون كذلك وهي وظيفة الأنبياء، والمرسلين، من هنا جاء اهتمام السلف بالدعوة إلى الله، وحرصهم الشديد على هداية الناس، والمتأمل في سيرتهم يجد أن هذا المبدأ كان لازمهم في الحضر، والسفر، وفي السلم، والحرب.

فهذا المبدأ هو الذي تتحقق به خيرية الأمة ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[1]؛ فأداء شرط الخيرية لا يتم إلا بالدعوة.

وقد أدرك ذلك عمر حين قال: «أيها الناس من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله منها»[2]، وقال ابن عباس في معنى هذه الآية: «تأمرونهم بالمعروف أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، والإقرار بما أنزل الله، وتقاتلونهم عليه»[3].

إن هذا الأصل هو العامل الأول المؤدي إلى احتكاك السلف بغيرهم من أهل الملل، والذي يؤدي إلى أن تكون لهم مواقف مشهورة معبرة عن موقف الإسلام من أهل الملل.

الثاني: الإيمان بوجوب حراسة الدين وحمايته:

الأصل الثاني الذي تحددت العلاقة بين السلف وغيرهم من أهل الملل والنحل هو الإيمـان بوجوب حماية الدين وحفظه من العاديات عليه، وعلى أهله، وذلك بالقيام بالرد

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١١٠.

(٢) تفسير الطبري ٣/ ٤٣.

(٣) المصدر السابق ٣/ ٤٥.

على كل مخالف في كل خصومة ملدة لهذا الدين من: أهل الملل الكافرة، والأهواء الضالة، والبدع الزائفة[١] . وقد تضافرت أقوال السلف على أهمية هذا الأصل، وعلى وجوب القيام به، وأنه من أفضل الجهاد في سبيل الله . قال يحيى بن يحيى[٢]:«الذب عن السنة أفضل من الجهاد في سبيل الله»[٣] . والإمام أحمد بن حنبل لما قيل له: «الرجل يصوم ويصلي، ويعتكف أحب إليك، أو يتكلم في أهل البدع؟ فقال: إذا قام وصلى، واعتكف فإنما هو لنفسه، وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين، هذا أفضل»[٤] .

قال شيخ الإسلام بعد إيراده كلام الإمام أحمد: «فبين أن نفع هذا عام للمسلمين في دينهم من الجهاد في سبيل الله، إذ تطهير سبيل الله، ودينه، ومنهاجه، وشرعته، ودفع بغي هؤلاء، وعدوانهم على ذلك واجب على الكفاية باتفاق المسلمين، ولولا من يقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين، وكان فساده أعظم من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب، فإن هؤلاء إذا استولوا لم يفسدوا القلوب وما فيها من الدين إلا تبعا، وأما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداء»[٥] .

وإذا كان الكلام في أهل البدع من أفضل الجهاد في سبيل الله، فإن الكلام في رد أباطيل الطوائف الكافرة، وكشف شبهاتها من باب الأولى أن يكون أفضل الجهاد، وأوجب الواجبات . وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: « . . . فكل من لم يناظر أهل الإلحاد، والبدع، مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وفى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس، ولا أفاد كلامه العلم واليقين»[٦] .

وقال الإمام ابن القيم الجوزية: «ومن بعض حقوق الله على عبده رد الطاعنين على كتابه، ورسوله، ومجاهدتهم بالحجة، والبيان، والسيف، والسنان، والقلب، والجنان،

---

(١) انظر: الرد على المخالف من أصول الإسلام، د. بكر أبو زيد ص ١٢ دار الهجرة ط الثانية ١٤١١هـ.

(٢) يحيى بن يحيى النيسابوري علم من أعلام السلف، قال فيه إسحاق بن راهويه: أصبح يحيى بن يحيى إمام أهل الشرق والغرب، توفي سنة ٢٢٦هـ، انظر: سير الأعلام النبلاء للذهبي ١٠/ ٥١٢ .

(٣) الفتاوى ٤/ ١٣ .

(٤) المصدر السابق ٢٨/ ٢٣١ .

(٥) المصدر السابق ٢٨/ ٢٣١ .

(٦) درء تعارض العقل والنقل ١/ ٣٥٧ .

ولـيس وراء ذلك حبة خردل من إيمان»(١) ، وذكر في كتابه " زاد المعاد ": «أن الرسول ﷺ لم يـزل في جـدال الكفـار عـلى اختلاف مللهم ، ونحلهم إلى أن توفي ، وكذلك أصحابه من بعده»(٢) والتابعون لهم بإحسان .

ولا غـرابة أن تكـون حراسـة الديـن ، والدفـاع عـنه أصـلا ، وأساسا متينا في علاقة السلف مـع الأمـم الكافـرة ، ذلـك ؛ لأنــهم يجسـدون قول النبي ﷺ: «**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم، وألسنتكم**»(٣) ، وقولـه ﷺ: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**»(٤) .

وإذا كـان مـن سـنة الله دوام الصـراع بـين الحق والباطل إلى قيام الساعة ، مع التزام المسلم بهذا الأصل ، فلا شك أن ذلك يعني دوام المواقف الجهادية ضد المخالفين للإسلام إلى قيام الساعة .

المطلب الثاني: نماذج من مواقف السلف من أهل الملل

أ - نمـاذج من مواقف الصحابة في عهد النبي ﷺ . وأولها: حوار جعفر بن أبي طالب مع النجاشي(٥) ووفد قريش .

١ - أسبابه: أسـباب هذا الحوار وظروفه معروفة في كتب السيرة ، وهو أن النبي ﷺ أذن لأصـحابه بالهجرة إلى الحبشة لما رأى شدة عذاب وبلاء قريش عليهم ؛ فكانت الهجرة الأولى إلى الحبشـة في السنة الخامسة من البعثة النبوية ، بيد أن الصحابة - رضي الله عنهم - رجعـوا إلى مكـة لـما بلـغ بهـم إسلام قريش ، ولما كان هذا الخبر غير صحيح ، وطغيان قـريش قـد ازداد كانـت الهجرة الثانية ، لكن عز على كفار قريش أن يجد الصحابة ملجأ ،

---

(١) هداية الحيارى ص ٣٣ .

(٢) زاد المعاد ٣/ ٦٤٢ .

(٣) سبق تخريجه

(٤) أخـرجه الخطيب الـبغدادي في شرف أصحاب الحديث ، تحقيق عمرو عبد المنعم سليم ، ص ٦٧ - ٦٨ ، الحديث رقم ٥١ ، وقال المحقق: إسناد رجاله ثقات .

(٥) النجاشي هو أصحمة ملك الحبشة معدود في الصحابة - رضي الله عنهم - وإن لم يهاجر ولم ير النبي ﷺ فهو تابعي من وجـه ، صـحابي مـن وجـه ، تـوفي في حـياة الـنبي ﷺ فصلى عليه صلاة الغائب . كما في صحيح البخاري الحديث رقم ٣٨٧٧ ، فـتح الـباري ٧/ ٢٣٠ . سـير أعـلام النبلاء ١/ ٤٢٨ - ٤٢٩ . البداية والنهاية ، لابن كثير ٣/ ٦٩ - ٧٠ ، دار الريان ط الأولى ١٤٠٨هـ .

ومأمنا لأنفسهم، ودينهم؛ فأرسلوا رجلين جلدين: هما عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، وأرسلوا معهما الهدايا الكثيرة للنجاشي ولبطارقته آملين أن يسلم النجاشي المسلمين إليهم.

وقد روت أم سلمة - رضي الله عنها - قصة هذه الهجرة، وملاحقة قريش لهم، فقالت: «لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها

خير جار النجاشي، أمنا على ديننا، وعبدنا الله لا نؤذى، ولا نسمع شيئا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا، مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها إليها الأدم، فجمعوا له أدما كثيرا، ولم ينزلوا من بطارقته بطريقا إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك مع عبد الله بن أبي ربيعة المغيرة المخزومي، وعمرو بن العاص بن وائل السهمي، وأمروهما أمرهم، وقالوا لهما: ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم، ثم قدموا للنجاشي هداياه، ثم سلوه أن يسلمهم إليكم قبل أن يكلمهم، قالت:

فخرجا فقدما على النجاشي، ونحن عنده بخير دار، وعند خير جار، لم يبق من بطارقته بطريق، إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، ثم قالا لكل بطريق منهم: إنه قد صبا إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم؛ ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فتشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا، ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم، ثم إنهم قربا هداياهم إلى النجاشي، فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له:

أيها الملك إنه قد صبا[1] إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم حتى آباؤهم، وأعمامهم، وعشائرهم؛ لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه. قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشي كلامهم، فقالت بطارقته حوله:

---

(١) في سيرة ابن هشام لفظ "ضوى" بدل "صبا" أي آوى ولجأ.

صدقوا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما ، فليرداهم إلى بلادهم ، وقومهم . قالت:

فغضب النجاشي ، ثم قال: لاها الله ، أيم الله ، إذاً لا أسلمهم إليهما ، ولا أكاد قوما جاوروني ، ونزلوا بلادي ، واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم ما يقول هذان في أمرهم ؛ فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ، ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما ، وأحسنت جوارهم ما جاوروني . قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم . . .»[1] .

فكما يتبين من رواية أم سلمة - رضي الله عنها - كانت الظروف التي وقع فيها هذا الحوار ظروفا صعبة على المسلمين ، فهم بعيدون عن نبيهم ﷺ وعن ديارهم ، لاجئون عند قوم لا يعرفون لغتهم ، وعاداتهم ، فضلا عن اختلافهم في الدين ، والعدو يطاردهم ، ويريد الوقيعة بينهم وبين الملك الذي آواهم ، والأمر بين وفد قريش وإدارة دولة الحبشة ، والمفاوضة بين الطرفين في أمر تسليم الصحابة، وفي هذا الجو يدعو النجاشي أصحاب رسول الله ﷺ ؛ ليتبين من أمرهم ، فالصحابة لم يكونوا في هذا اللقاء مخيّرين ، وإنما فرض عليهم فرضا .

٢ - **أطراف الحوار**: الأمر في هذه القصة يهم ثلاثة أطراف يمثلون ثلاثة أديان ، الطرف الأول: وفد قريش ، ويمثل دين الشرك ، وعبادة الأوثان ، والطرف الثاني: النجاشي وقومه ، ويمثلون الدين النصراني ، والطرف الثالث: المهاجرون ، ويمثلون الإسلام

إذًا ، هذا اللقاء جمع بين ثلاث ديانات ، الأولى: الديانة الوثنية ، والثانية: الديانة السماوية المحرفة ، والثالثة: الديانة السماوية الصحيحة . والأديان لا تخرج عن هذه الأنواع .

٣ - **استعداد الصحابة للقاء والحوار**: لما جاء رسول النجاشي إلى الصحابة - رضي الله عنهم - يخبرهم الأمر أجرى الصحابة بينهم مشاورات فيما يفعلون ، وكيف

---

(١) سيرة ابن ، هشام لأبي محمد عبد الملك بن هشام ، ١/ ٣٥٧ - ٣٥٨ .

يواجهون هذا الأمر الصعب ، وليحققوا مبدأ إسلاميا هو مبدأ الشورى ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[١] . قالت أم سلمة في روايتها للقصة: «فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول: والله ما علمنا ، وما أمرنا به نبينا كائنا في ذلك ما هو كائن[٢] ، وبذلك انتهت مشاورات الصحابة على عدم التنازل عن شيء من الحق ، والتزام ما علمهم رسول الله ﷺ ، ويبدو أنهم اختاروا جعفر بن أبي طالب ليكون الناطق الرسمي بهم ، وفي هذا تقدير للكفاءة والأهلية[٣] .

٤ - **بداية الحوار**: بدأ النجاشي الحوار موجها كلامه للصحابة بقوله: «ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا في ديني ، ولا دين أحد من هذه الملل[٤] وفي هذا السؤال دقة وحسن اختيار حيث اكتفى بالمحور الأساسي للصراع بين الصحابة والمشركين[٥] ، فكأنه حدد محل النزاع الذي ينبغي أن لا يخرج عنه طرف من المتحاورين .

فأجاب عن هذا السؤال جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنه - وقدم الإسلام بصورة فريدة ، قلما نجد لها نظيرا في تاريخ المناظرات ، وعلى أربعة محاور عامة:

المحور الأول: انطلق فيه من قاعدة "التخلية قبل التحلية" وهي أن تفند ما لدى المخالف من أوهام يظنها حججا قبل أن تعرض حجتك[٦] . فقد وصف الجاهلية ، وبين عن مساوئها ، وكشف عن عوارها ، بحيث أصبح هذا الدين الذي يدين به وفد قريش مما تنفر عنه العقول الراجحة ، وتستقبحه الفطر السليمة ، ورد هذا بقول جعفر كما روته أم سلمة - رضي الله عنها -: «أيها الملك كنا قوما من أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف[٧] .

المحور الثاني: وبعد هدمه للركن الذي كان يفيء إليه وفد المشركين انتقل إلى المحور

(١) سورة الشورى الآية: ٣٨ .
(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٣٥٨ .
(٣) انظر: المنهج الحركي للسيرة النبوية منير ، محمد غضبان ١/ ٩٤ .
(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٣٥٨
(٥) انظر: معالم الهجرتين إلى أرض الحبشة ، د . علي الشيخ أحمد أبوبكر ص١١١ .
(٦) انظر: قواعد ومنطلقات في أصول الحوار د . عبدالله ابن ضيف الله الرحيلي ص ٣٢ .
(٧) سيرة ابن هشام ١/ ٣٥٨ - ٣٥٩ .

الثاني فوصف فيه الإسلام فبين أسسه وقواعده بدءاً من التوحيد والعبادات والأخلاقيات، والقضايا الاجتماعية، كما أوضح المنهيات في الإسلام عرض ذلك بهذا الايجاز الذي عبره بقوله: « . . فكنا على ذلك بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد من دونه، من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - قالت: فعدد عليه أمور الإسلام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا»(١).

المحور الثالث: ثم انتقل إلى عرض الظلم الذي لحق بالمسلمين بسبب دخولهم في هذا الدين وتركهم لدين الجاهلية، ومحاولة المشركين فتنتهم عن دينهم. قال جعفر معبرا عن ذلك: «فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان، من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث . . .»(٢)

إن عرض جعفر هذه الفقرة بهذه الصورة كان موفقا فيها وذلك أن النجاشي كان ممن يتصور أكثر من غيره لما تحمله هذه العبادات لكونه من النصارى الذين تاريخهم مليئة بالاضطهادات والحروب الدينية.

المحور الرابع: في هذا المحور قدم مدحا وثناء متزنا للملك مع البعد عن المبالغات الكاذبة التي يزخرف بها المتملقون كلامهم، مع وضعه موضع المؤمل فيه، وإثارة الشهامة والرجولة فيه(٣). قال جعفر في هذا: «فلما قهرونا وظلمونا وضيقو علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك»(٤). وبهذه الصورة الرائعة التي قدم فيها جعفر الإسلام وما يخالفه من دين المشركين اكتسب الجولة الأولى في ذلك الحوار، وتبين للملك حقيقة الفريقين وأدرك

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٥٩.
(٢) المصدر السابق ١/ ٣٥٩
(٣) انظر: المنهج الحركي للسيرة النبوة ١/ ٩٥ - ٩٦، معالم المجرتين إلى أرض الحبشة ص١١١ - ١١٢.
(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٣٥٩

الفرق بين الحق والباطل .

ومن ثم سأل النجاشي جعفرا إن كان معه شيء مما جاء به النبي ﷺ «فقال له جعفر: نعم . فقال له النجاشي (اقرأ) فقرأ عليه صدرا من "كهيعص" فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته ،

وبكت أساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلى عليهم ، ثم قال له النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، ثم قال مخاطبا عمرو بن عاص وصاحبه: انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون ، فخرجا مهزومين خائبين»[١] .

٥ - محاولة أخرى من عمر و بن العاص: لم يستطع عمرو بن العاص أن يتحمل مرارة هذه الهزيمة ، فعزم للتخطيط لمحاولة أخرى طمعا أن يكسب الموقف في هذه المرة ، فها هو يقول لصاحبه وقد بلغ به الغضب والحنق كل مبلغ: «والله لآتينه غدا بما أستأصل به خضراءهم . فقال له: عبد لله بن أبي ربيعة - وكان أتقى الرجلين في الصحابة - لا تفعل فإن لهم أرحاما وإن كانوا قد خالفونا . قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد»[٢] ، ونفذ عمرو عزمه حيث غدا إلى الملك في اليوم الثاني فقال له: «أيها الملك إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيما ، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه»[٣] إن عمرا - وهو من دهاة العرب - يدرك جيدا الفرق بين عقيدة المسلمين في عيسى - عليه السلام - المقرين بنبوته وبشريته ، وبين النصارى الذين يؤلهونه ويعبدونه . فظن أنه بإثارته ذلك بين المسلمين والنصارى يهز الأرض تحت أقدام المسلمين ، ويقلب النصر الذي أحرزه المسلمون هزيمة ، والبكاء الذي بكاه النجاشي وبطارقته من تأثرهم بالقرآن غضبا ، وبما أن هذا الأمر يمس أصلا عقديا عند النصارى .

فإن النجاشي لم يلبث أن أرسل إليهم ليسألهم عنه ، فأدرك المسلمون خطورة الموقف وأنه ، من الممكن أن تنقلب العلاقة بينهم وبين النجاشي إلى عكس ما كانت ، ويتحقق

---

(١) المصدر السابق ١/ ٣٥٩ - ٣٦٠ . بتصرف بسيط .
(٢) المصدر السابق ١/ ٣٦٠
(٣) المصدر السابق ١/ ٣٦٠

بذلك هدف المشركين، فاجتمع القوم للمشاورة في الأمر، وانتهى اجتماعهم على القول بالصدق والإلتزام بالحق. قالت أم سلمة في روايتها: «فأرسل إليهم - أي الصحابة - ليسألهم عنه، قالت: ولم ينزل بنا مثلها قط، فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله ما قال الله. وما جاء به نبينا، كائنا في ذلك ما هو كائن»[١].

الجولة الأخيرة من الحوار: بعد مشاورة الصحابة وعزمهم على الثبات بالحق دخلوا على الملك «فقال لهم: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟ فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاء به نبينا ﷺ يقول: هو عبد الله ورسوله، وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول»[٢] وهكذا نفذ الصحابة عزمهم دون تزعزع، أو مداهنة، أو إخفاء لعقيدة المسلمين في عيسى - عليه السلام - ولم يبالوا ما يحدث بعد ذلك.

موقف النجاشي: لقد حدث ما لم يتوقعه الأطراف الثلاثة، لقد انصاع الملك للحقيقة وعلم أن الحق لايعد ما قاله الصحابة. «وضرب بيده إلى الأرض فأخذ منها عودا، ثم قال: والله ما عدى عيسى بن مريم مما قلت هذا العود، فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، إذهبوا فأنتم شيوم بأرضي من سبكم غرم، من سبكم غرم، ماأحب أن لي دبرا من ذهب وإني آذيت رجلا منكم ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها. قالت - أم سلمة - فخرجا من عنده مقبوحين، مردودا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار»[٣] وبهذه النتيجة المفرحة لقلوب المؤمنين والمخزية لأعداء الله انتهى هذا الحوار.

٦ - دلالة هذه القصة على مشروعية علم الملل: دلالة هذه القصة على مشروعية علم الملل واضحة، ذلك أن موضوع علم الملل هو دراسة ديانة من الأديان، أو أكثر، من حيث تاريخه، ومبادئه، مع المقارنة مع دين آخر، أو أديان أخرى، وفي هذه القصة نجد أنها اشتملت على وصف دين المشركين وصفا دقيقا، والكشف عن حقيقتة، وعلى

(١) المصدر السابق ١/ ٣٦٠

(٢) المصدر السابق ١/ ٣٦٠.

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٣٦٠.

وصف الإسلام وبيان أركانه وأصوله العقدية والأخلاقية والتشريعية ، وعليه يمكن أن نقول إن جعفرا وصف الأديان ثم قارن بينها مقارنة موجهة ومتضمنة على نقد دين المشركين وإظهار دين الإسلام .

٧ - **قواعد منهجية مستفادة من هذه القضية:** في هذه القضية قواعد وأسس عظيمة تدل على التزام الصحابة - رضوان الله عليهم - بالمنهج الشرعي ومن أهمها ما يلي:

١ - الالتزام في الاستدلال على المصادر الشرعية ، نأخذ هذه الفائدة من اتفاق الصحابة قبل الحوار على القول بما جاء به النبي ﷺ وما جاء به النبي ﷺ هو الوحي - القرآن والسنة - وهذا يدل على أنهم قدموا الأدلة النقلية على الأدلة العقلية . وقد طبق ذلك جعفر حيث استدل بآيات من سورة " مريم " للاستدلال على عقيدة المسلمين في عيسى - عليه السلام .

٢ - التزام العدل والإنصاف . فقد التزمه جعفر حين وصف دين المشركين وعدد عيوبه حيث لم يوصفه ولم يذكره بما ليس فيه وإنما وصفه كما هو في الواقع .

٣ - التجرد للحق فقد عزم الصحابة قبل دخول المناظرة أن يقولوا الحق مهما كانت النتيجة وقد التزم ذلك جعفر حيث قرأ سورة مريم غير مبال برد فعل الطرف الثاني .

٤ - الاهتمام بالأهم فالأهم ، فقد ذكر جعفر في عرضه الإسلام على الأصول والقواعد الأساسية التي يقوم بها الدين وعلى وجه الخصوص التوحيد حيث كرره في عدة مرات ، وهذا يدل على سلوك جعفر - رضي الله عنه - منهج الأنبياء فالتوحيد هو أساس الدين ومفتاح دعوة الأنبياء ، وفي المقابل نجده قد قدم الشرك على غيره في تعداده أمور الجاهلية .

٥ - الالتزام بآداب الحوار والمناظرة القولية والفعلية - الآداب الإجرائية - .

٦ - الأهلية: فقد اختار الصحابة جعفرا لهذه المهمة الصعبة ، ولم يكن ذلك إلا لتقديرهم بكفاءته من حيث العلم ، والقدرة العقلية ، والفصاحة ، وهذا ما يلمس من خلال الحوار .

٨ - **نتائج الحوار:** رغم أن هذا الحوار قد وقع في ظروف كانت صعبة بالنسبة

للمسلمين، وأنهم أكرهوا إكراها إلا أن نتائجها - كما رأينا - كانت لصالح الإسلام والمسلمين. وأهم هذه النتائج مايلي:

١ - فقد أدى الصحابة واجب الدعوة إلى الإسلام، وقد كان هذا اللقاء فرصة للمسلمين لشرح الإسلام، وإبلاغه لنصارى الحبشة، وقد تم لهم هذا الأمر.

٢ - إسلام النجاشي وتصديقه بنبوة النبي محمد ﷺ وإن كان قد أخفى إيمانه عن قومه لما علمه فيهم من الثبات على الباطل، والجمود على العقائد الموروثة، وإن صادمت النقل والعقل[١].

٣ - ظهور حقيقة ديانة المشركين لنصارى الحبشة.

٤ - إخفاق حيلة المشركين، وفشل مكيدتهم، وتبين لهم أنهم لا يشيعون باطلهم إلا في حدود سلطانهم[٢].

الموقف الثاني: جدال أبي بكر مع اليهود: ذكره ابن هشام في السيرة عن ابن إسحاق، وابن جرير في تفسيره من طريقه بالسند إلى ابن عباس قال: دخل أبوبكر الصديق - رضي الله عنه - بيت المدراس، فوجد من اليهود ناسا كثيرا قد اجتمعوا إلى رجل منهم، يقال له فنحاص، وكان من علمائهم، وأحبارهم، ومعه حبر من أحبارهم يقال له أشيع، فقال أبوبكر لفنحاص: ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم، فو الله إنك لتعلم أن محمدا لرسول الله، وقد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص:

والله يا أبابكر، ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، وما هو عنا بغني، ولو كان عنا غنيا ما استقرضنا أموالنا، كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان عنا غنيا ما أعطانا الربا. قال: فغضب أبوبكر، فضرب وجه فنحاص ضربا شديدا، وقال: والذي نفسي بيده، لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت رأسك، أي عدو الله. قال: فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد انظر ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: ما حملك

---

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة د. محمد أبو شهبة ١/ ٣٨٠.

(٢) انظر: الرحيق المختوم ص ٨٥.

على ما صنعت؟ فقال أبوبكر:

يا رسول الله ، إن عدو الله قال قولا عظيما ، إنه زعم أن الله فقير ، وأنهم أغنياء ، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال ، وضربت وجهه ، فجحد ذلك فنحاص ، وقال: ما قلت ذلك ، فأنزل الله تبارك وتعالى فيما قال فنحاص ، ردا عليه وتصديقا لأبي بكر: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾[1] ونزل في أبي بكر وما بلغه في ذلك من الغضب ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾[2][3] .

فهذه القصة تؤكد لنا أن الصحابة - رضي الله عنهم - كانوا يذهبون إلى أهل الكتاب في بيوت المدارسة عندهم ، وهي أنسب الأماكن للحوار ، والجدال ، وأن الغرض من ذلك كان الدعوة إلى الله تعالى ، وإقامة الحجة عليهم ، لكن بما أن أهل الكتاب - لا سيما اليهود منهم من طبعهم العناد ، والمكابرة ، والجدال بغير علم ، كان يحدث الجدال والحوار بينهم وبين الصحابة ، وهذا الجدال بين أبي بكر وفنحاص من تلك المجادلة التي حدثت ، والتي تدل على سوء أدب اليهود مع الله ، ومع المحاورين لهم ، ففنحاص مع سوء عقيدته بالله إلا أنه أراد في هذا الجدال الإساءة إلى أبي بكر ، وإلى إغضابه ، لكن كان جزاؤه أن ضربه أبوبكر ؛ لأنه من الذين ظلموا ، فلا ينفع معهم الجدال بالتي هي أحسن الذي هو الأصل في المناظرات ، والجدال ، ومن ثم نزل القرآن منصفا لأبي بكر عندما سأله النبي ﷺ عن السبب الذي حمله على الخروج عن الأصل . والمقصود هنا هو أن جدال الصحابة مع أهل الأديان كان مشروعا في عهد النبي ﷺ .

الموقف الثالث: جدال عمر بن الخطاب مع اليهود: ذكر ابن جرير الطبري في

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٨١ .

(٢) سورة آل عمران الآية: ١٨٦ .

(٣) رواه ابن هشام في السيرة النبوية عن ابن إسحاق من غير إسناد ٢/ ١٨٧ - ١٨٨ ، وأخرجه ابن جرير الطبري بالسند إلى ابن عباس ورجال إسناده موثقون ، وقد صرح ابن إسحاق بالسماع فأمن تدليسه ، تفسير الطبري ٣/ ١٩٤ ، تفسير ابن كثير ١/ ٣٨٢ .

تفسيره عند قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾ الآية[1] . آثارا تدل على أن هذه الآية نزلت في شأن جدال وقع بين عمر واليهود في المدينة المنورة ، ومن هذه الآثار ما رواه ابن جرير الطبري بالسند إلى الشعبي **قال:**

«نزل عمر الروحاء ، فرأى رجالا يبتدرون إلى أحجار يصلون إليها ، فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: يزعمون أن رسول الله ﷺ صلى هاهنا ، فكره ذلك ، وقال: إنما رسول الله ﷺ أدركته الصلاة بواد فصلى ، ثم ارتحل فتركه ، ثم أنشأ يحدثهم فقال: كنت أشهد اليهود يوم مدراسهم فأعجب من التوراة كيف تصدق الفرقان ، ومن الفرقان كيف يصدق التوراة ، فبينما أنا عندهم ذات يوم قالوا: يا ابن الخطاب ما من أصحابك أحد أحب إلينا منك قلت: ولم ذلك؟ قالوا إنك تغشانا وتأتينا ، **قال قلت:**

إني آتيكم فأعجب من الفرقان كيف يصدق التوراة ومن التوراة كيف تصدق الفرقان ، قال: ومر رسول الله ﷺ فقالوا: يا ابن الخطاب ذاك صاحبكم فالحق به ، قال: فقلت لهم عند ذلك: أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو ، وما استرعاكم من حقه ، وما استودعكم من كتابه أتعلمون أنه رسول الله ، قال: فسكتوا ، قال: فقال عالمهم وكبيرهم: إنه قد عظم عليكم فأجيبوه ، قالوا: أنت عالمنا وسيدنا فأجبه أنت ، قال: أما إذا أنشدتنا به ، فإنا نعلم أنه رسول الله ، قال: قلت:

ويحكم: أي هلكتم ، قالوا: إنا لم نهلك ، قال: قالوا: إن لنا عدوا من الملائكة ، وسلما من الملائكة ، وإنه قرن به عدونا من الملائكة ، قال: قلت: ومن عدوكم ، ومن سلمكم؟ قالوا: عدونا جبريل ، وسلمنا ميكائيل ، قال قلت: وفيم عاديتم جبريل ، وفيم سالمتم ميكائيل؟ قالوا إن جبريل ملك الفظاظة ، والغلظة ، والإعسار ، والتشديد ، والعذاب ، ونحو هذا ، وإن ميكائيل ملك الرأفة والرحمة ، والتخفيف ونحو هذا .

قال: قلت: وما منزلتهما من ربهما؟ قالوا أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، قال: قلت فوالله الذي لا إله إلا هو إنهما والذي بينهما لعدو لمن عادهما وسلم لمن سالمهما ، ما ينبغي لجبريل أن يسالم عدو مكائيل ، ولا لمكائيل أن يسالم عدو جبريل ، قال ثم قمت فاتبعت النبي ﷺ فلحقته وهو في خارج من خرفة لبني فلان فقال لي ياابن

---

(١) سورة البقرة الآية: ٩٧ .

الخطاب ألا أقرئك آيات نزلن فقرأ علي ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ الآيات ، قال قلت بأبي وأمي يا رسول الله والذي بعثك بالحق لقد جئت وأنا أريد أن أخبرك الخبر فأسمع اللطيف الخبير قد سبقني إليك بالخبر»(١) .

وهناك روايات أخر لهذا الجدال وأنه كان سببا لنزول الآية السابقة وقد أوردها ابن جرير الطبري في تفسيره عن طريق قتادة وعن طريق السدي وكلها قريبة لهذا الرواية التي ذكرتها .

فالجدال في هذه القصة - كما هو واضح - دار حول إثبات نبوة النبي ﷺ والذي بدأ هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان هدفه إقامة الحجة على اليهودي ، وكما تفيد هذه الرواية فقد علم عمر مما كانوا يقرأون من التوراة ما يصدق القرآن ، كما كان يعلم ذلك من القرآن ، ومن ثم ناشد اليهود وحلفهم بالله ، إن كانوا يعلمون أن محمدا رسول الله ، فاعترفوا أنه رسول الله ، ثم انتقل معهم إلى وجوب اتباعه الذي يستلزمه الاعتراف به ، لكن تعللوا بما يدل على فساد اعتقادهم وكفرهم وهو تفريقهم بين الملائكة حيث زعموا أن جبريل عدوهم ومكائيل مسالمهم فانتقل معهم في الجدال إلى تصحيح عقيدتهم في الملائكة ، وهكذا أقام عليهم الحجة وظهر عنادهم ، وأنزل الله في شأن هذا الجدال قرآنا ، قال ابن عبد البر بعد إيراده لهذه القصة: فهذا مما صدق الله قول عمر واحتجاجه ، وهو باب من الاحتجاج لطيف مسلوك عند أهل النظر)(٢) .

الموقف الرابع: حوار حاطب بن أبي بلتعة(٣) مع المقوقس(٤): كان من جملة الملوك الذين أرسل إليهم النبي ﷺ رسله لدعوتهم إلى الإسلام المقوقس ملك مصر واختار لحمل هذا الكتاب حاطب ابن أبي بلتعة «فخرج به حتى وصل إلى الأسكندرية فانتهى إلى حاجبه فلم يلبث أن أوصل إليه كتاب رسول الله ﷺ ، ثم جرى بينهم هذا الحوار: قال

(١) تفسير الطبري ١/ ٤٣٣ - ٤٣٤ ، تفسير ابن كثير١/ ١١٤ وذكر ابن كثير في سند هذا الأثر أن فيه انقطاع وهو أن الشعبي لم يدرك عمر مع أن ظاهر الرواية يدل أنه سمع عنه .

(٢) جامع البيان العلم وفضله ٢/ ١٢٤ .

(٣) هو الصحابي الجليل حاطب بن أبي بلتعة بن عمرو بن عمير بن سلمة بن صعب بن سهيل اللخمي حليف بني أسد بن عبد العزى مات في سنة ثلاثين من الهجرة . انظر الإصابة في تميز الصحابة لأبن حجر ١/ ٣٠٠ .

(٤) هو جريج بن مينا الملقب بالمقوقس ملك مصر والأسكندرية ، سيرة ابن كثير تحقيق مصطفى عبد الواحد ٣/ ٥١٤ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه القاهرة ، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م وانظر: المنهج الحركي للسيرة النبوية ٣/ ٤٩

حاطب لـلمقوقس إنـه كـان قـبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فانـتقم منه ، واعتبر بغيرك ولايعتبر بك فقال: إن لنا دينا لن ندعه إلا لما هوخير منه .

فقـال حاطب: ندعوك إلى دين الله ، وهو الإسلام الكافي به الله فقد ماسواه ، إن هذا الـنبي دعـا الـناس ، فكـان أشـدهم عليه قـريش ، وأعداهـم لـه الـيهود ، وأقـربهم منه النصارى ، ولعمري مابشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك إلى القـرآن إلا كدعـائك أهـل الـتوراة إلى الإنجيل ، وكل نبي أدرك قوما فهم من أمته ، فالحق علـيهم أن يطـيعوه ، وأنـت ممـن أدركـه هـذا النبي ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ، ولكنا نأمرك به .

فقـال المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا النبي ، فوجدته لايأمر بمزهود فيه ولا ينهى عـن مـرغوب فـيه ، ولم أجـده بالسـاحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء والاخبار بالنجوى ، وسأنظر . . .»[1]

وذكـر ابـن اسـحاق القصـة مـع زيادات منها: «أن حاطب قال بعثني رسول الله إلى المقوقس ملك الأسكندرية ، قال فجئته بكتاب رسول الله فأنزلني في منزلـه وأقمت عنده ، ثـم بعث إلي وقد جمع بطارقته وقال إني سائلك عن كلام فأحب أن تفهم عني قال قلت: هـلم ، قال: أخبرني عن صاحبك أليس هو نبي؟ قلت: بلى هو رسول الله ، فما لـه حيث كان

هكـذا لم يـدع عـلى قومـه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها؟ قال: فقلت: عيسى بن مريم

ألـيس تشـهد أنـه رسـول الله؟ قـال بلى . قلت: فما لـه حيث أخذه قومه فأرادوا أن يصـلبوه ألا يكـون دعا عليهم بأن يهلكهم الله حيث رفعه الله إلىالسماء الدنيا؟ فقال لي: أنـت حكـيم من عند حكيم ، هذه هدايا أبعث بها معك إلى محمد ، وأرسل معك بذرقة[2]

(١) تـاريخ الطـبري ٢/ ١٢٨دار الكتب العلمية - بيروت ط الثانية ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م ، زاد المعاد ٣/ ٦٩١ ، إنسان العيون (السيرة الحلبية علي بن برهان الدين الحلبي ٣/ ٢٩٦ .

(٢) البذرقة: الحرس .

يبذرقونك إلى مأمنك . . .»[١] .

تبين من هذه القصة أن حاطب - رضي الله عنه - لم يكتف بتسليم رسالة النبي ﷺ إلى ذلك الملك وإنما حاوره حوارا مبنيا على العلم والبصيرة حتى انقطع النصراني بما يعتقد في عقيدته واعترف بالحق وإن لم يؤمن ، وهذا يدل على أن جواز الجدال مع أهل الكتاب كان أمرا مستقرا عند الصحابة .

ب - نماذج من مواقف السلف: إذا كان ما سبق من الصحابة في حياة النبي ﷺ فبعد وفاة النبي ﷺ وخروج المسلمين إلى البلاد المجاورة للدعوة والجهاد ، واختلاط المسلمين بأهل الملل والنحل المختلفة ، وظهور بوادر البدع ، فقد أصبحت الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه وتطبيقه على الأمم التي دخلت في دولة الإسلام من أهم المهمات عند الصحابة والتابعين ، فكثرت الحوارات ، والردود والمواقف الدعوية والدفاعية ، والحالات المتطلبة للاجتهاد . وسأورد طرفا من هذه المواقف:

أ - الردود والحوارات المباشرة ومن ذلك:

١ - حوار علي بن طالب - رضي الله عنه - مع أحد اليهود: ذكر صاحب كتاب عيون المناظرات أن يهوديا قال لعلي: «ما نفضتم أيديكم من تراب دفن نبيكم حتى قلتم منا أمير ومنكم أمير . فقال له: ما جفت أقدامكم من فلق البحر حتى قلتم: "اجعل لنا إلها كما لهم آلهة". فانقطع اليهودي ولم يجد جواباً»[٢] . ولا مقارنة بين الموقفين حيث أن موقف اليهود يؤدي إلى الكفر والخروج عن الدين ، وهدمه ، أما موقف الصحابة فهو موقف اجتهادي ، ثم انتهي باتباع النص . وهذه القصة تدل على حقد اليهود ، وتصيدهم الفرص ، وشماتتهم بالمسلمين ، كما تدل على سرعة حضور بديهة علي ، وقوة رده .

٢ - ومن الحوارات حوار: ربعي بن عامر ، وحذيفة بن محصن ، والمغيرة بن شعبة ، مع رستم قائد جيش الفرس في غزوة القادسية[٣] .

---

(١) سيرة ابن كثير ٣/ ٥١٤ - ٥١٥ .

(٢) عيون المناظرات ، أبو علي عمر السكوني ، تحقيق سعد غراب ص ١٨٥ ، منشورات الجامعة التونسية ، تونس ١٩٧٦ م .

(٣) انظر: تاريخ الطبري ٢/ ٤٠١ - ٤٠٣ .

٣ - رد عمــر بن الخطاب على الجاثليق[١] في إنكار القدر: روي الآجري بالسند إلى الحـارث بن نوفل قال: خطبنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بالجابية ، والجاثليق مـاثل بـين يديـه ، والترجمـان يترجم ، فقال عمر: من يهده الله فلا مضل لـه ، ومن يضلل فـلا هادي لـه ، فقال الجاثليق: إن الله لا يضل أحدا ، فقالَ عمر: ما يقول؟ فال الترجمان: لا شيء ، ثم عاد في خطبته ، فلما بلغ: من يهده الله فلا مضل لـه ، ومن يضلل فلا هادي لــه ، قـال الجاثـليق: إن الله لا يضـل أحدا ، فقال عمر: ما يقول؟ فأخبره ، فقال: كذبت يـاعدو الله ، ولـولا عهـدك لضربت عنقك ، بل الله خلقك ، والله أضلك ، ثم يميتك ، ثم يدخلـك الـنار[٢] إن شاء الله ، ثم قال: إن الله عز وجل لما خلق آدم - عليه السلام - نثر ذريـته ، فكتب أهل الجنة ، وماهم عاملون ، وأهل النار ، وماهم عاملون ، ثم قال: هؤلاء لهـذه ، وهـؤلاء لهـذه[٣] . فهذه القصة تدل على حزم عمر في الرد على أهل الملل ، وشدة نكيره على اعتارضاتهم الباطلة مع بيان الحق لهم .

٤ - حوار أبي حنيفة - رحمه الله تعالى - مع الملاحدة: مـن المواقـف الحكيمة التي تذكـر لأبـي حنيفة «أنـه اجـتمع بـه طائفـة مـن الملاحدة ، فقالوا: ما الدلالة على وجود الصانع؟ فقال: دعوني ، فخاطري مشغول بأمر غريب ، قالوا: وما هو؟ قال: بلغني: أن في دجلـة سفينة عظيمة مملوءة من أصناف الأمتعة العجيبة ، وهي ذاهبة وراجعة من غير أحد يحـركها ولا يقـوم علـيها ، فقـالوا لــه: أمجنون أنت؟ قال: وما ذاك؟ قالوا: إنه لا يصدقه عـاقل ، فقـال لهم: فكيف صدقت عقولكم أن هذا العالم بما فيه من الأنواع ، والأصناف ، والحـوادث العجيـبة ، وهـذا الفلـك الدوار السيار يجري ، وتحدث هذه الحوادث من غير محـدث ، وتتحرك هذه المتحركات بغير محرك؟! فرجعوا على أنفسهم بالملام»[٤] . فهذه من لطـائف المناظرات الدالة على حكمة السلف في الرد على الدهريين ، والحوار معهم ، فقد

---

(١) الجاثلـيق: بفـتح الـثاء المثلـثة: لقب كبير أمراء النصارى في بلاد الشام ، واسم البطريك الذي استقبل عمر بن الخطاب "سـفرونيوس" ، انظر: القاموس المحيط ص ١١٢٥ ، الأوضاع القانونية للنصارى واليهود في الديار الإسلامية حتى الفتح العثماني د . حسن الزين ص ٦٦ دار الفكر الحديث ، بيروت ، ط ١٩٨٨م .

(٢) هذا إذا مات على كفره .

(٣) الشريعة للآجري ص ١٨٦ - ١٨٧ .

(٤) ذكـر شـيخ الإسـلام ابن تيمية هذه المناظرة في درء تعارض العقل والنقل ٣/ ١٢٧ ، ولم ينسبها إلى أحد ، وعد صاحب كتاب "الحكمة في الدعوة إلى الله" من مواقف أبي حنيفة الحكيمة انظر: الحكمة في الدعوة إلى الله ص ٢٧٨ .

استدل على الخالق بوجود المخلوق، فليس هناك من مخلوق إلا وله خالق ومدبر، وهو الله - عز وجل - كما أنه ليس هناك من صنعة إلا ولها صانع، ولله المثل الأعلى..[١].

والرد بهذا المسلك مناسب لهذا الصنف من الكفار، وهو مسلك من مسالك القرآن في تقرير توحيد الربوبية.

ب - الردود غير المباشرة: من المشهور في سير السلف أنهم قدموا أروع المناظرات، والردود ضد طوائف المبتدعة، والسلف وإن كان مرادهم في هذه الردود مقصودا بكسر شبهات تلك الطوائف، لكن كانت - أيضا - ردودا على أهل الملل التي تأثرت بها تلك الفرق بصورة غير مباشرة، وذلك أن السلف كانوا يبينون الصلة بين فرق الأهواء والبدع، وبين تلك الملل، فيكون ذم أهل الأهواء ذما لتلك الملل الباطلة أيضا، ومن الأمثلة على ذلك:

١ - ما رواه اللالكائي بالسند إلى ابن عباس أنه قال: «اتقوا الإرجاء، فإنها شعبة من النصرانية»[٢]. فذم الإرجاء هنا والتحذير منه من باب الأولى ذم للنصرانية، وتحذير منها.

قال الدكتور عبد العزيز العبد اللطيف في توجيه هذا الارتباط بين النصرانية والإرجاء الذي أشارت إليه مقالة ابن عباس: «أن من القواسم المشتركة بين الطائفتين أن النصارى زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، كما ادعى المرجئة لأنفسهم.. أنهم كاملو الإيمان، كما يغلب على النصارى التفريط والتقصير، فلا يرون شيئا حراما ولا نجسا، ويأكلون الخبائث، وشابههم المرجئة في هذا التفريط، فضيعوا الواجبات، وانتهكوا المحرمات»[٣].

٢ - وقال سعيد ابن جبير: «المرجئة يهود القبلة»[٤]، ولعل توجيه الارتباط بين اليهود والمرجئة هو ادعاء اليهود لأنفسهم بأنهم أبناء الله، وأحباؤه، وادعاء المرجئة

---

(١) انظر: الحكمة في الدعوة إلى الله ص ٢٧٨.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ٥/ ١٠٥٩ - ١٠٦٠. الحديث رقم: ١٨٠١

(٣) انظر: مجلة البيان، التي تصدر من المنتدى الإسلامي، لندن ص ٩٨ العدد ٩٥ رجب ١٤١٦هـ

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٥/ ١٠٦١ رقم ١٨٠٩.

بكمال الإيمان مع العصيان، وكلاهما يزكي نفسه ويشبه قولهم قول اليهود.

٣ - وقال أيضا: «مثل المرجئة مثل الصابئين»[١]. وفي توجيه هذا التمثيل أقول: لعل ابن جبير نظر إلى المعنى اللغوي لكلمة الصابئة التي تعني الخروج والميل، فالمرجئة خرجت عن السنة ومالت عن المنهج المستقيم، كما مالت الصابئة عن الأديان الأخرى المعروفة، يؤكد ذلك التفصيل الذي ذكره ابن جبير بعد ضربه لهذا المثل، حيث ذكر: «أنهم - أي الصابئة - أتوا اليهود، فقالوا: ما دينكم، قالوا: اليهودية، قالوا: فمن نبيكم؟ قالوا: موسى، قالوا: فماذا لمن تبعكم، قالوا: الجنة، ثم أتوا النصارى، فقالوا: ما دينكم؟ قالوا النصرانية، قالوا: فمن نبيكم؟ قالوا: عيسى قالوا: فماذا لمن اتبعكم؟ قالوا: الجنة، قالوا: فنحن بين دينين»[٢]

فلم يدخل الصابئة اليهودية ولا النصرانية، وإنما اتخذوا دينا بين الدينين، فكذا المرجئة لم يلتزموا السنة، ولم يدخلوا في دين آخر.

٤ - قال ابن عمر - رضي الله عنهما -: «مجوس هذه الأمة القدرية»[٣]، وذلك لزعم المجوس بوجود إلهين، وزعم القدرية بخلق العباد أفعالهم، فكأنهم أثبتوا إلهين خالقين.

فذكر مصادر أفكار أهل الأهواء عند ردها يتضمن ردا، وتحذيرا من تلك المصادر

٥ - ومن وجوه الردود غير المباشرة على أهل الملل تعليل السلف النهي عن بعض الأمور بأنها من أعمال الكفار، ونكيرهم الشديد على كل أمر يؤدي إلى التشبه بغير المسلمين، وأقوالهم في هذا لا يعد ولا يحصي، ومنها:

أ - قول أبي بكر - رضي الله عنه - للمرأة التي حجت مصمتة «تكلمي، فإن هذا لا يحل، هذا عمل الشيطان»[٤]. فتعقيب أبي بكر النهي بأنه من عمل الشيطان يدل على علة النهي، كما تدل أن كراهية مشابهة الجاهلية عند أبي بكر كانت أمرا مستقرا.

---

(١) المصدر السابق ٥/ ١٠٦٣ رقم ١٨١٣.
(٢) المصدر السابق ٥/ ١٠٦٣ رقم ١٨١٤.
(٣) المصدر السابق ٤/ ٧١١ الحديث رقم ١١٦٠.
(٤) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٣٣١.

بـ - ترك عمر بن الخطاب الصلاة خلف الصخرة حين أشار إليه كعب الأحبار، وقصة ذلك أن عمر بن الخطاب حين فتح بيت المقدس قال لكعب: أين ترى أن أصلي؟ فقال: إن أخذت عني صليت خلف الصخرة، فكانت القدس كلها بين يديك، فقال عمر - رضي الله عنه - «ضاهيت اليهودية، لا، ولكن أصلي حيث صلى رسول الله ﷺ فتقدم إلى القبلة، فصلى...»[١] فعلل عمر تركه الصلاة خلف الصخرة لما فيه من تشبه باليهود الذين يقدسونها[٢]، ولأنها قبلتهم[٣].

جـ - كراهة عائشة - رضي الله عنها - أن يجعل المصلي يده على خاصرته، وذكرها: «أن اليهود تفعله»[٤]، فعللت النهي بكون ذلك من فعل اليهود مما يدل على كراهيتها سنن أهل الكتاب.

د - وكان ابن مسعود يكره الصلاة في الطاقة، ويقول: «إنه في الكنائس، فلا تشبهوا بأهل الكتاب»[٥]. ذكر شيخ الإسلام بعد إيراده لأقوال الصحابة الدالة على تقرير الإجماع بتحريم التشبه بالكفار، ووجوب التميز عنهم، أن في هذا الباب نقول كثيرة عن الصحابة، وقضايا بعضها في مظنة الاشتهار[٦]. وقال: «وما علمنا أحدا من الصحابة، ولا التابعين خالف ما ذكرناه من كراهية التشبه بالكفار، والأعاجم في الجملة، سواء كانت المخالفة في الهيئة، واللباس وغيرها، فعلم إجماع الصحابة على ذلك...»[٧].

ثم ذكر شيخ الإسلام أقوال عامة علماء المسلمين الدالة على إجماعهم على وجوب مخالفة المشركين، وقال: «وما من أحد له أدنى نظر في الفقه إلا وقد بلغه من ذلك طائفة، وهذا بعد التأمل، والنظر، يورث علما ضروريا، باتفاق الأئمة على النهي عن موافقة الكفار، والأعاجم، والأمر بمخالفتهم»[٨].

---

(١) مسند الإمام أحمد ١/ ٦٣ الحديث رقم ٢٦٣، البداية والنهاية ٧/ ٦٠، وقال هذا إسناد جيد
(٢) انظر: الأهواء والفرق والبدع عبر تاريخ الإسلام د. ناصر العقل ص ٢٧.
(٣) انظر: البداية والنهاية ٧/ ٥٧، اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٣٣٦.
(٤) أخرجه البخاري، الحديث رقم ٣٤٥٨، فتح الباري ٦/ ٥٧١.
(٥) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٣٤٩.
(٦) المصدر السابق ١/ ٣٤٩.
(٧) المصدر السابق. ١/ ٣٤٩
(٨) المصدر السابق ١/ ٣٥٠.

جـــ - تطبــيق الشريعة الإسلامية على أهل الملل: لما تـوفي رسول الله ﷺ بعد اكـتمال الدين، وانتقلت أمانة تبليغه، وحفظه إلى الصحابة، قام الصحابة بهذه المسؤولية خير قـيام، فدعـوا الناس إلى الإسلام، وجاهدوا في سبيله، وطبقوا شريعته على الناس عامة، مؤمنهم وكافرهم، وقد تميز عهد الصحابة بأنه عهد تطبيق الشريعة الإسلامية على أهـل الملـل المخـتلفة، وذلك لانتشار الإسلام في ربوع كثيرة، ودخول أهل ملل كثيرة في ظـل الدولة الإسلامية. وقد بذل الصحابة جهودا كثيرة في سبيل إنزال أحكام الله في أهل الملـل مواقعهـا، فتطلـب ذلك منهم معرفة الناس، وأديانـهم، ومعرفة الحكم الشرعي في كل أهل دين.

وهـذا يفسـر لـنا توقـف عمر بن الخطاب عن أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الـرحمن بـن عـوف - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر[١]، بينما سـارع إلى تنفيذ وصية النبي ﷺ في إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب[٢]، وأشهر وثـيقة عـند أهـل العلم حددت منهج الصحابة في التعامل مع أهل الذمة بشكل مفصل، هـي الشروط العمرية[٣]، وهي الشروط التي اشترطها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على أهـل الذمة، ووافق عليها سائر الصحابة، وعامة الأئمة من بعدهم، وهي أشهر شيء في كتـب الفقـه والعـلم، ومجمع عليها في الجملة[٤]، ويدور مضمون هذه الشروط كما يذكر ابن القيم على ستة أمور:

الأول: أحكام البيع، والكنائس، والصوامع وما يتعلق بذلك.

الثاني: أحكام ضيافتهم للمارة بهم وما يتعلق بها.

الثالث: فيما يتعلق بضرر المسلمين والإسلام.

الرابع: فيما يتعلق بتغيير لباسهم وتمييزهم عن المسلمين في المركب واللباس وغيرهم

الخامس: فيما يتعلق بإظهار المنكر من أفعالهم، وأقوالهم مما نهوا عنه.

---

(١) أحكام أهل الذمة ١/ ١٨.

(٢) انظر: الحديث الوارد في هذا من صحيح مسلم، الحديث رقم ١/ ١٧٦٧، شرح النووي ٢١/ ٣٣٥.

(٣) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٣٢٥ - ٣٢٦، أحكام أهل الذمة ٢/ ١١٣ - ١١٥، الفتاوى ٢٨/ ٦٥٢ - ٦٥٣

(٤) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٣٢٥ - ٣٢٦.

السادس: في أمر معاملتهم للمسلمين بالشركة ونحوها[1] .

والمقصود في هذا الفصل هو: بيان أن السلف - رضوان الله عليهم - تعاملوا غير المسلمين - أهل الكتاب ، والمجوس ، والمشركين ، والدهريين - وفق الشريعة الإسلامية ، وأن سيرهم مليئة بالمجادلات والحوارات الهادفة ، والردود القوية .

وأن هذه المحاورات بعضها وقعت في ديار الإسلام ، وبعضها في ديار الكفر ، وأن الهدف الحقيقي من ورائها كان:

١ - بيان الحق والدعوة إليه ، والدفاع عنه .

٢ - الكشف عن حقيقة الأديان الباطلة ، ودحض حجج أتباعها ، وأن منهجهم كان مبينا على:

١ - العلم .

٢ - العدل والإنصاف .

٣ - التزام المنهج الشرعي في الاستدلال .

وبذلك يكون السلف أول من طبق المنهج الشرعي في التعامل مع أهل الأديان ، والملل ، وأول من وضع قواعده ، وضوابطه ، وذلك قبل كتابة هذا العلم ، وجعله فنا مستقلا عند المسلمين . وعليه فإن على كل باحث في علم الملل أن يرجع إلى مواقف السلف من أهل الأديان ، وأن يقف على تفسيرهم للنصوص الشرعية التي تتناول موقف الإسلام من الأديان الأخرى .

* * * * *

(١) أحكام أهل الذمة ٢/ ١١٦ .

الفصل الرابع
الأهداف الشرعية لدراسة الملل

توطئة:

إن علـم الملـل - كمـا أسلفت - علم شرعي ذو صلة وثيقة بعلم العقيدة بل هو منه وهـو بهـذا الاعتـبار يـأتي في مرتبة مميزة من بين العلوم الشرعية ، ولا شك أن لكل علم فوائـد وثمـار وتأثير في حياة الفرد والجماعة ، ولا بد من وراء دراسة أي علم من العلوم تحقيق أهداف وغايات . فما هي غاية علم الملل؟ وما هي ثمار دراسته؟ .

لذا ستناول أبرز أهداف هذا العلم في هذه المباحث الآتية بإيجاز .

* * * * *

المبحث الأول

دعوة غير المسلمين إلى الإسلام

إن الهدف الأول والأساس من دراسة الملل عند المسلمين هو دعوة أهل الملل إلى الإسلام وذلك انطلاقا من الإيمان بوجوب الدعوة، فقد ورد في الأمر بالدعوة نصوص كثيرة منها: قوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾(١) . وقال تعالى: ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾(٢) .

فهذه الآيات وأمثالها تفيد وجوب الدعوة إلى الله . فالأمر يفيد الوجوب إلا أن يكون ما يصرفه إلى معنى آخر ولاصارف هنا، وقد قام النبي ﷺ بالدعوة إلى الله امتثالا لأمر ربه فدعا جميع أهل الملل إلى الإسلام، فأرسل رسله إلى جميع ملوك الأرض، وحاور جميع الأصناف المخالفين للحق، وخاصة أهل الكتاب قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾(٣) .

ولم يزل رسول الله ﷺ يدعو أهل الأرض إلى الحق ويجادلهم حتى بلغ به الأمر تلك الحالة التي وصفها به القرآن . ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾(٤) . ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾(٥) . بل يجد المتأمل للآيات القرآن حصر وظيفة الأنبياء والرسل بالتبليغ والتبشير والإنذار، قال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾(٦) . وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾(٧) . وقال تعالى: ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾(٨) . وقال تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ

---

(١) سورة النحل الآية: ١٢٥

(٢) سورة الشورى الآية: ١٥ .

(٣) سورة آل عمران الآية: ٦٤ .

(٤) سورة الكهف الآية: ٦ .

(٥) سورة النحل الآية: ١٢٧ .

(٦) سورة النحل الآية: ٣٥ .

(٧) سورة النحل الآية: ٨٢ .

(٨) سورة النور الآية: ٥٤ .

مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾[١] .

وقال تعالى: ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾[٢] . فمهمة الأنبياء والرسل هي البلاغ عن الله والتبشير لمن استجاب لدعوة والإنذار لمن أعرض عنها ورفض . وإذا كانت الدعوة هي وظيفة الأنبياء والرسل فهي أيضا من أولى خصائص الأمة المسلمة فإنها أمة داعية[٣] . قال: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[٤] . وقال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾[٥] . فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شرط أساس لتحقيق هذه الميزة التي ميزت بها هذه الأمة لذا قال عمر بن الخطاب حين قرأ تلك الآية: «يا أيها الناس من سره أن يكون من تلكم الأمة فليؤد شرط الله فيها»[٦] .

فالدعوة هي الأصل في العلاقة بين المسلمين وغيرهم ، ومن العلاقة الدعوية تنبثق العلاقات الجزئية التفصيلية ، وعلى أساسها تتنوع مواقف الناس منها تتحدد العلاقات الأخرى[٧] . والدعوة إلى الله تعالى لابد أن تكون بالحكمة قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾[٨] . والحكمة هي: «الإصابة في الأقوال والأفعال ، ووضع كل شيء في موضعه»[٩] . ولها درجات ثلاثة[١٠] .

منها: البصيرة وهي قوة الإدراك والفطنة والعلم والخبرة[١١] . فهي أعلى درجات العلم التي تكون نسبة العلوم فيها إلى القلب كنسبة المرئي إلى البصر . والبصيرة في الدعوة

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٤٨ .
(٢) سورة البقرة الآية: ٢١٣ .
(٣) انظر: الأصول الشرعية للعلاقات بين المسلمين وغيرهم في المجتمعات غير المسلمة د . محمد أبو الفتوح البيانوني ص ٣٨ وهو بحث منشور في مجلة جامعة الإمام العدد السادس المحرم ١٤١٣هـ يوليو ١٩٩٢م .
(٤) سورة آل عمران الآية: ١١٠
(٥) سورة آل عمران الآية: ١٠٤ .
(٦) انظر تفسير الطبري ٣/ ٤٥ .
(٧) انظر: الأصول الشرعية ص ٣٨ .
(٨) سورة النحل الآية: ١٢٥ .
(٩) انظر: الحكمة في الدعوة إلى الله ص ٢٧ .
(١٠) انظر: الحكمة في الدعوة إلى الله ص ٣٧
(١١) انظر المعجم الوسيط ١/ ٥٩ .

إلى الله في ثلاثة أمور .

الأمر الأول: أن يكون الداعية على بصيرة فيما يدعوا إليه بأن يكون عالما بالحكم الشرعي فيما يدعو إليه .

الأمر الثاني: أن يكون على بصيرة في حال المدعو .

الأمر الثالث: أن يكون على بصيرة في كيفية الدعوة[1] .

وكون البصيرة في حال المدعو أمرا ضروريا لنجاح الدعوة ومن مقتضيات الحكمة في الدعوة يفسر لنا اهتمام الرسول ﷺ بمعرفة أحوال المدعوين وتدريب أصحابه على ذلك . فها هو القائل لأصحابه عندما أمرهم بالهجرة إلى الحبشة «الحقوا بأرض الحبشة فإن بها ملكها لا يظلم عنده أحد ، فأقيموا ببلاده حتى يجعل الله لكم مخرجا مما أنتم فيه فقدمنا عليه ، فاطمأننا في بلاده»[2] .

فهذا النص يدل على أن النبي ﷺ كان ملما بأحوال أهل الحبشة رغم أنه لم يكن في ذلك الزمن من وسائل الاتصال ما نجد اليوم وكان ﷺ يحرص أن يكون الصحابة على بصيرة بمن يدعونه إلى الإسلام فقد قال: ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثة إلى اليمن: «**إنك ستأتي قوما أهل الكتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد إلى فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم..** »[3] . فهذا الحديث يحمل منهجا متكاملا في الدعوة إلى الله فهو يشتمل معرفة ما يدعى إليه ومعرفة حال المدعو وكيفية الدعوة .

إن سيرة النبي ﷺ مليئة بالأدلة على أنه كان على بصيرة في حال المدعوين فقد كان يعرف أحوالهم الدينية ، والاجتماعية ، والنفسية ، والعلمية ، وكان يقدم لكل أحد ما

---

(١) انظر: الحكمة في الدعوة إلى الله ص ٣٨ بتصرف .

(٢) تاريخ الإسلام للحافظ الذهبي ص ١٨٤ ، تحقيق عبد السلام تدمري ط الأولى ١٤٠٧هـ ، دار الكتاب العربي بيروت لبنان .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في مواضع كثيرة بألفاظ متقاربة ، الحديث رقم ١٤٩٦ ، ٣/٤١٨ . وأخرجه مسلم ، الحديث رقم ٢٩ ، ١/ ٣١٠ .

ينبغي أن يقدم له وبالأسلوب المناسب له، وكان على بصيرة في أمور الدعوة كلها قال تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾[١] .

وإذا كانت معرفة حال المدعو مما لا بد منه في الدعوة وكانت لا تتم إلا بدراسة ومعرفة أحوال المدعوين الدينية، والاجتماعية، والاعتقادية، والنفسية، والعلمية، والاقتصادية ومعرفة لغاتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وإذا كان علم الملل هو المعنى بهذه الأمور أو أغلبها وأخطرها وهو الجوانب الدينية والعقدية؛ فإن ذلك يدل على أن علم الملل وسيلة من أهم الوسائل التي توصل إلى مقصد عظيم من مقاصد شرع الله وهو الدعوة إلى الله على بصيرة، ولقدكان علماء المسلمين في مناظراتهم وحوارهم مع أهل الملل يستحضرون هذا الهدف النبيل، فهذا أبو عبد الله فخر الدين الرازي يناظر أحد النصارى فلما انقطع النصراني، وقال: «غلبتني وأفحمتني» يقول له: «إذا اعترفت بذلك تعين عليك الرجوع إلى ديني دين الإسلام، والاعتراف بأنه خير الأديان[٢] . وآمن على يديه ذلك النصراني، وصار منه إماما في العلم يقتدى به»[٣] . فهذا يدل بأن الهدف من المناظرات والجدال مع أهل الملل كان الدعوة إلى الإسلام.

ولا شك أن إظهار قوة الإسلام بإظهار قوة حججه وأدلته وإظهار ضعف الباطل وكشف عواره من أهم الأسباب في دخول غير المسلمين في الإسلام. فإن لم يكن ذلك فقد قامت الحجة والمعذرة إلى الله «رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل»[٤] .

* * * * *

(١) سورة يوسف الآية: ١٠٨ .

(٢) مناظرة في الرد على النصارى، للرازي تحقيق، د. عبد المجيد النجار ص ٥٠، دار الغرب الإسلامي - بيروت - ١٩٨٦م

(٣) المصدر السابق ص٧٧ .

(٤) سورةالنساء الآية: ١٦٥ .

المبحث الثاني

الرد على شبهات أهل الملل

في تاريخ الأديان والملل لم يتعرض دين ولا ملة مثلما تعرض له دين الإسلام من خصومه من محاولات لتشويهه وتحريفه، وإثارة الشبهات حوله، فقد تعرضت له أصوله وفروعه هجوما شرسا منذ أن وقف النبي ﷺ يصدع بدعوة الحق مبلغا رسالة ربه، ومناديا للناس أن يدخلوا دين الله الحق، وأن ينبذوا ما سواه من الأديان والملل.

من ذلك الوقت أعلن أهل الباطل حربهم على الإسلام، وكانت إثارة الشبهات، والشكوك أهم الأسباب، وأنجع الوسائل عندهم، فكانت قريش هي الرائدة في هذا المجال في العهد المكي، بينما كانت اليهود في الطليعة في العهد المدني، وكان القرآن يتصدى لشبهاتهم، ويفندها بالحجج، والبراهين القاطعة، قال تعالى: ﴿ **وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا** ﴾[1].

فالله يخبر رسوله بأنهم لا يأتون بحجة، أو شبهة، ولا يقولون قولا يعترضون به الحق، إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر، وأبين، وأوضح، وأفصح من مقالاتهم[2].

والشبهات التي رد عليها القرآن كثيرة جدا، منها شبهات حول رسالة الرسول ﷺ وإنكارهم بأن مصدر القرآن الوحي، والزعم بأنه إفك افتراه. قال تعالى حكاية عن شبهتهم تلك: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ** ﴾[3]. فرد القرآن هذه الفرية التي لا أساس لها من الصحة بقوله: ﴿ **فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْمًا وَزُورًا** ﴾[4].

وزعموا أن القرآن أساطير وأوهام كتبها محمد ﷺ كما أخبر تعالى عنهم: ﴿ **وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً** ﴾[5]. فرد الله عليهم بقوله: ﴿ **قُلْ أَنزَلَهُ**

---

(١) سورة الفرقان الآية: ٣٣.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٢٩٨.

(٣) سورة الفرقان الآية: ٤.

(٤) سورة الفرقان الآية: ٤.

(٥) سورة الفرقان الآية: ٥.

الَّـذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[١] . وأنكروا رسالة الرسول ﷺ متعللين ببشرية محمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴾[٢] .

فرد الله عليهم تعجبهم بأن الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق بقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ ﴾[٣] . وبقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾[٤] . وقوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾[٥] .

ورد الله زعمهم بعدم إنزال الملائكة معه بقوله: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴾[٦] . وبقوله: ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾[٧] . ورد عليهم ما زعموا بأن النبي ﷺ لا يملك من الأمور المادية شيئا ﴿ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ ﴾ بقوله: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾[٨] . أما افتراؤهم بأن الرسول ﷺ مسحور، فقد رد - سبحانه - هذه الفرية، ووصف قاذفيها بأنهم "ظالمون" فاكتفى بأنهم ظالمون؛ لأنهم لا يستندون قولهم هذا بأي دليل بل يعرف أقلهم عقلا أن هذا كذب وافتراء، وما حملهم على هذا القول إلا ظلمهم لا اشتباه منهم[٩] . ومن مماحكاتهم، واعتراضاتهم على الرسول ﷺ أن القرآن لم ينزل جملة واحدة، قال تعالى حكاية عنهم: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً

---

(١) سورة الفرقان الآية: ٦ .
(٢) سورة الفرقان الآية: ٧ - ٨ .
(٣) سورة الفرقان الآية: ٢٠ .
(٤) سورة يوسف الآية: ١٠٩ .
(٥) سورة الأنبياء الآية: ٨ .
(٦) سورة الإسراء الآية: ٩٥ .
(٧) سورة الأنعام الآية: ٨ - ٩ .
(٨) سورة الفرقان الآية: ١٠ .
(٩) انظر: تفسير ابن السعدي ٥/ ٤٦٢ .

وَاحِدَةً ﴾[١] . فرد الله عليهم مبينا الحكمة من نزوله مفرقا بقوله: ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾[٢] . هكذا كان القرآن يتولى الرد ، وإبطال شبه الكافرين والجاحدين ، وما قدمت ليس إلا أمثلة فقط تدل على أن القرآن كان يعنى عناية تامة برد شبهات أهل الملل .

ولما اتسعت رقعة دولة الإسلام ، وأزالت عروش الأكاسرة والقياصرة ، وتحقق لدى خصومه من مجوس الفرس ونصارى الروم ، وبقايا اليهود ، أنهم لا يستطيعون النزال مع الإسلام في ميدان المعركة ، بدأوا يفكرون في أسلوب آخر ينقمون به عن الإسلام ، وأهله ، فتظاهر بعضهم بالدخول في الإسلام ، فبدأوا إثارة الشبهات ، والشكوك بين المسلمين ، وبدأوا يبتدعون أمورا لا أصل لها في الدين ، ويفرقون بين المسلمين ، لكن علماء المسلمين قاموا بحق الله عليهم ، فكشفوا صنوف المؤامرات التي كانت ضد الإسلام ، فردوا الشبهات التي كان أهل الملل يبثونها بين المسلمين في محاولاتهم اليائسة لوقف زحف الإسلام ، وبذلك انتصر الإسلام في ميدان الفكر كانتصاره في ميدان الجهاد بالسنان .

لكن بما أن الصراع بين الحق والباطل لا يقف ما دامت السماوات والأرض ؛ فإن أعداء الإسلام ما فتئوا يحاولون فتنة المسلم عن دينه ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء ﴾[٣] . ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً ﴾[٤] ، وهم في هذا العصر أشد ، وأشرس من أي وقت مضى ، وذلك لما تميزوا من دقة في أساليب التمويه ، والتحريف ، وحنكة في إثارة الشبهات ، وهو ثمرة من ثمار تخصص بعضهم في العلوم الإسلامية ، ونبوغهم فيها ، مما أكسبهم مقدرة لم تكن لمن سبقهم ، ومما زاد الأمر سوءا الفتور ، والتراخي الذي أصاب المسلمين في هذا الزمن ، واكتفائهم بمواقف الرفض والإدانة للمستشرقين والمستغربين التي لا تعدو أن تكون نوعا من الراحة النفسية ، والتي لا تعني في النهاية إلا إعفاء النفس من المسؤولية .

---

(١) سورة الفرقان الآية: ٣٢ .
(٢) سورة الفرقان الآية: ٣٢
(٣) سورة النساء الآية: ٨٩
(٤) سورة البقرة الآية: ١٠٩ .

إن العجز والتفريط الذي يعيشه المسلمون بجانب الجهود التي يبذلها المستشرقون في دراسة الإسلام وعلومه المختلفة، مما جعل المسلمين أن يكونوا أتباعا لا متبوعين، وأن تسود فيهم التبعية، والتقليد للأعداء، فلا تعدم من أن تجد مسلمين يردون الشبهات التي يثرها المستشرقون، والعلمانيون حول الإسلام، كما أن الفكر الإسلامي ومناهجه صار أسيرا لمناهج الغرب - إلا ما رحم الله - وأصبحت كثير من العلوم الإسلامية تقدم بمناهج المستشرقين، وتعتمد فيها مصادرهم، وعلم الملل أكثر العلوم خضوعا للمنهج الغربي في هذا العصر، مما جعله وسيلة، وأداة يستغله الأعداء في حربهم مع الإسلام، ففيه يبثون سمومهم، ويثيرون شبهاتهم، وينشرون الفتنة بين المسلمين، والأصل في هذا العلم عند المسلمين أنه وجد ليكون آلة يدافع بها عن الحق، ويقطع بها شبه المبطلين، فكيف الأمر إذا كان الأعداء هم الذين يقدمونه للمسلمين؟!.

إن كشف زيف الباطل، وبيان الشبهات التي يختلقها أهل الباطل، وردها ردا محكما، أصل عظيم من أصول الإسلام، وباب من أبواب الجهاد، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فالراد على أهل البدع مجاهد»[1]. ونقل عن يحيى بن يحيى أنه قال: «الذب عن السنة أفضل الجهاد»[2]. وقال الشيخ بكر أبو زيد: «فالرد على أهل الباطل، ومجادلتهم، ومناظرتهم حتى تنقطع شبهتهم، ويزول عن المسلمين ضررهم مرتبة من منازل الجهاد باللسان، والقلم أحد اللسانين»[3]. وبهذا تتم حماية الدين وحراسته.

* * * * *

(١) انظر: الفتاوي ٤/ ١٣.

(٢) المصدر السابق ٤/ ١٣

(٣) الرد على المخالف من أصول الإسلام ص ٢٩

المبحث الثالث

استبانة سبيل المجرمين

من أهم الأهداف، وأجل الغايات التي تحصل من دراسة الملل معرفة سبيل المجرمين، قال تعالى عقب حديثه عن الرسل والرسالات: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾[١]. «والله قد بين في كتابه سبيل المؤمنين مفصلة، وسبيل المجرمين مفصلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة، وأعمال هؤلاء، وأعمال هؤلاء، وأولياء هؤلاء، وأولياء هؤلاء، وخذلانه لهؤلاء، وتوفيقه لهؤلاء، والأسباب التي وفق بها هؤلاء، والأسباب التي خذل بها هؤلاء... والعالمون بالله وكتابه، ودينه، عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية، وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية، فاستبانت لهم السبيلان، كما يستبين للسالك الطريق الموصل إلى مقصوده، والطريق الموصل إلى الهلكة، فهؤلاء أعلم الخلق، وأنفعهم للناس، وأنصحهم لهم، وهم الأدلاء الهداة، وبذلك برز الصحابة على جميع من أتى بعدهم إلى يوم القيامة، فإنهم نشأوا في سبيل الضلال، والكفر، والشرك، والسبل الموصلة إلي الهلاك، وعرفوها مفصلة، ثم جاءهم الرسول، فأخرجهم من تلك الظلمات إلى سبيل الهدى، وصراط الله المستقيم»[٢].

وبذلك صار الصحابة - رضوان الله عليهم - أعلم الناس بالسبيلين، والله - سبحانه - لم يكتف ببيان الحق دون بيان ضده، ذلك أن الأشياء تتبين بأضدادها، قال سيد قطب: «إن القرآن لا يعني ببيان الحق، وإظهاره حتى يستبين طريق الحق، ومن يسلكه من المؤمنين فقط. إنما يعني كذلك ببيان الباطل وكشفه حتى تستبين سبيل الضالين المجرمين أيضا... إن استبانة سبيل المجرمين ضرورة لاستبانة سبيل المؤمنين، والله - سبحانه وتعالى - عندما يقرر هذا المنهج القرآني يعلم أن إنشاء اليقين الاعتقاد بالحق، والخير يقتضي رؤية الجانب المضاد من الباطل والشر، والتأكد من أن هذا باطل ممحض، وشر خالص، وأن ذلك حق ممحض، وخير خالص، كما أن قوة الاندفاع بالحق لا تنشأ

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٥٥.

(٢) انظر: الفوائد لابن القيم الجوزية، تحقيق محمد عثمان الخشب ص ١٦١، دار الكتاب العربي - بيروت، ط الرابعة ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

من شعور صاحب الحق أنه على الحق ، ولكن كذلك بشعوره بأن الذي يحاده ، ويحاربه إنما هو على الباطل ، وأنه يسلك سبيل المجرمين . . والله - سبحانه - قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾[١] .

وبذلك تستقر في نفس المؤمن أن الذين يحاربونه ، ويعادونه إنما هم مجرمون . .»[٢] .«والله - سبحانه - يحب أن تعرف سبيل أعدائه لتجتنب ، وتبغض ، كما يحب أن تعرف سبيل أوليائه ، لتحب وتسلك ، وفي هذه المعرفة من الفوائد ، والأسرار ما لا يعلمه إلا الله . .»[٣] .

إن تميز أهل الحق عن أهل الباطل من أهل الأهواء والبدع ، ومن أهل الملل والنحل الباطلة ، قضية في غاية الأهمية ، فقد حرص السلف - رضوان الله عليهم - ذلك ، وما تسمية أهل الحق بألقاب " أهل السنة والجماعة " و" السلف " و" أهل الحديث " و " أهل الأثر " إلا من باب التمايز ، وتبين سبيل الحق عن سبل أهل الضلال ، وإذا كان التمايز عن أهل البدع الذين هم من أهل القبلة مطلوبا شرعا فإن غيرهم من أهل الملل والنحل الباطلة من باب الأولى .

* * * * *

---

(١) سورة الأنعام الآية: ١١٢ .

(٢) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٢/ ١١٠٥ .

(٣) الفوائد لأبي بكر بن القيم الجوزية ص ١٦٤ .

المبحث الرابع

العبـرة والعظـة

لقد تحدث القرآن كثيرا من قصص السابقين، فقال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾[١]. وقال عقب حديثه عن الأمم السابقين: ﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾[٢]. وأمر الله - سبحانه - نبيه محمدا ﷺ أن يقص على الناس القصص: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾[٣]. ووصف سبحانه وتعالى تلك القصص الواردة في القرآن بأنه قصص حق فقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللّهُ ﴾[٤]. وذلك لمطابقتها الواقع، ووصف سبحانه كذلك بأنه أحسن القصص؛ فقال: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾[٥]. وفي الآية إشارة تدل بأنه يجب أن نكتفي من القصص السابقين ما ورد في القرآن؛ لأنه كاف عن كل ما سواه من الكتب[٦].

ولأن ما عداه إما كتب غير موثوقة، أو مشكوكة فيها، كما أن أخبار السابقين صارت بالنسبة لنا من أمر الغيب الذي لا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق مصدر

---

(١) سورة طه الآية: ٩٩.

(٢) سورة الأعراف الآية: ١٠١.

(٣) سورة الأعراف الآية: ١٧٥ - ١٧٧.

(٤) سورة آل عمران الآية: ٦٢.

(٥) سورة يوسف الآية: ٢.

(٦) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٢٥.

موثـوق ، قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾[1] .

وقـد أشـار القرآن الكريم في أثناء إيراده للقصص إلى أن أهداف ثلاثة تحقق من ذكر تلك القصص:[2] .

- **الهـــدف الأول**: الـتفكر والـتدبر "لعلهم يتفكرون" فالتفكر ، والتعقل ، والاتعاظ ثمـرة من ثمار قراءة قصص السابقين في القرآن ، ونتيجة من نتائج سماع قصص القرآن ، وهـدف رفـيع يجـب أن يهـدف إلـيه كل من قرأ قصص القرآن ، أو سمعه ، أو قصه على السامعين . . .

- **الهـــدف الـــثاني**: تثبيـت الفـؤاد: قـال تعـالى: ﴿ وَكُـــلاًّ نَّقُـــصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُـــلِ مَـــا نُثَبِّـــتُ بِـــهِ فُـــؤَادَكَ وَجَـــاءكَ فِـــي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3] . فـالمؤمن يـأخذ مـن قصـص السـابقين مـا يثبـت بـه فـؤاده عـلى الحـق ، والخطـاب في الآيـة وإن كـان موجهـا أساسـا للرسـول ﷺ إلا أنـه شـامل للمسـلمين أيـنما كـانوا . وموجه لكل مسلم في كل زمان ومكان . . .

- **الهـــدف الثالـــث**: عـبرة لأولـي الألـباب ، قـال تعـالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِـبْرَةٌ لأُوْلِـي الأَلْـبَابِ مَـا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُـدًى وَرَحْمَـةً لِّقَـوْمٍ يُؤْمِـنُونَ ﴾[4] . إن قصـص السابقين التي يقدم لنا القرآن الكريم تمثل نماذج بشرية ، تمثل الإيمان والكفـر ، والصـراع بـين الحـق والكفـر ، وهـي نماذج مكـررة ، ومـن خلالهـا تـدرك سـنن الله في الخلق قـال تعـالى: ﴿ قَـدْ خَلَـتْ مِن قَبْلِكُمْ سُـنَنٌ فَسِـيرُواْ فِـي الأَرْضِ فَانْظُـرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[5] . وقـال تعالى: ﴿ فَهَلْ

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٤٤ .
(٢) انظر: مع قصص السابقين في القرآن ص ٢٤ - ٢٩ ، بتصرف .
(٣) سورة هود الآية: ١٢٠ .
(٤) سورة يوسف الآية: ١١١ .
(٥) سورة آل عمران الآية: ١٣٧ .

يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾[1] .

فالقصص بما تحوي من الحوادث المتشابهة تساعد الإنسان على معرفة السنن الربانية التي لا تتخلف - إلا أن يشاء الله - وذلك بقياس الحاضر على الماضي ، قال ابن تيميه - رحمه الله -: «ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا ، ولولا القياس ، واطراد فعله وسنته لم يصح الاعتبار بها ؛ لأن الاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره كالأمثال المضروبة في القرآن»[2] .

وعلم الملل ما دام يتناول التأريخ للأديان ولأتباع الأديان فلا شك أنه وسيلة ضرورية لتحقيق هذه الأهداف الشرعية التي أشار إليها القرآن ، شريطة أن يقدم بمنهج سليم موافق لمنهج القرآن في القصص ، وهذا ما يؤمل من دارسي علم الملل المتخصصين فيه .

* * * * *

(١) سورة فاطر الآية: ٤٣ .

(٢) جامع الرسائل ، لابن تيمية ، تحقيق محمد رشاد سالم ص ٥٥ .

الباب الثاني

مناهج العلماء في دراسة الملل

تمهيد: عناية علماء المسلمين بعلم الملل.

الفصل الأول:

منهج علماء أهل السنة في دراسة الملل وفيه مبحثان:

المبحث الأول:

الأسس المنهجية لدراسة الملل عند أهل السنة.

المبحث الثاني:

الضوابط الشرعية لدراسة الملل عند أهل السنة

الفصل الثاني:

مناهج المخالفين لأهل السنة في دراسة الملل ونقدها وفيه مبحثان:

المبحث الأول:

اتجاهات المخالفين وأصنافهم.

المبحث الثاني:

الأسس المنهجية لدراسة الملل عند المخالفين ونقدها

*****

تمهيد

عـــناية علماء المسلمين بعلم الملل: بعـد الحديـث عن الأصول الشرعية الدالة على مشـروعية عـلم الملـل نشرع هنا الحديث عـن مناهج علماء المسلمين في دراسة الملل وقبل الحديـث عـن تلـك المـناهج الـتي تنقسـم إلى مـناهج أهـل السنة لدراسة الأديان ومناهج المخـالفين لمـنهج أهل السنة نلقي الضوء أولا عناية علماء المسلمين ودورهم في علم الملل بشـكل عـام . ويدخل قضايا رئيسة أهمها الأسباب التي أدت إلى قيام علم الملل ، وأطوار هذا العلم في العالم الإسلامي ، وأهم مناهج البحث لدى علماء المسلمين في هذا العلم .

أولا: دواعي دراسة الملل عند علماء المسلمين:

١ - الاحتكاك بين المسلمين وأهل الملل:

كـان مـن نتيجة الفتوحات الإسلامية على رقعة كبيرة من الأرض التي كانت مأهولة بـأهل ملل شتى ممن يدينون ، باليهودية ، أو النصرانية ، أو المجوسية ، أو الصابئة أن اختلط المسـلمون بغيرهـم فحـدث تأثير وتأثر بين المسلمين و بين غيرهم وكان لهذا التأثير والتأثر جوانـب إيجابـية تتمثل بإسلام كثير من أهل تلك الملل وجوانب سلبية تتمثل بدخول كثير مـن هـؤلاء: في الإسـلام مـع رواسب من عقائدهم السابقة مما أدى إلى ظهور بدع هي في حقيقتها تمثل انعكاسات تلك الأديان في المسلمين ، كما أن منهم من بقي على دينه . وملأ الغـيظ قلـبه فكـاد للإسـلام بشتى الصور ، ومن هؤلاء من كان يرى أن أفضل وسيلة في مواجهـة الإسـلام هي الكيد من داخله ، فتظاهر بالدخول في الإسلام ، وأقام بإثارة الفتن والخلافـات ، وتشـكيك المسـلمين في ديـنهم ، وأبرز مثال لذلك ما قام به عبد الله بن سبأ اليهودي[1] .

ومـنهم مـن كـان يستفيد من سماحة الإسلام مع أهل الملل فمارس حياته بكل حرية لكـن لم يـرع حـرمة المعـاهدات التي أبرمت معه وراح يختلق الافتراءات والأكاذيب حول الإسـلام وحـول نـبي الإسلام محمد ﷺ من خلال هجوم مكثف يستهدف جوهر الإسلام

---

(١) عـبد الله بـن سـبأ كـان يهوديا من أهل اليمن أظهر الإسلام وابتدع ببدعة ألوهية علي - رضي الله عنه - وهو مؤسس الطائفة السبئية . انظر: الأعلام ، لخير الدين الزركلي ٤/ ٨٨ .

وحقائقه[١] . ولقد مثل هذا الهجوم من أصحاب الملل الباطلة تحديا للإسلام وعلمائه فكان ذلك باعثا وعاملا مهماً لعلماء الإسلام على التصدي له بل وهدمه . فبدأ ما يسمى بالجدل الديني .

٢ - دعوة غير المسلمين إلى الإسلام:

كان علماء المسلمين يدركون أنهم مسئولون عن الدعوة إلى الإسلام ، وأنه لابد أن تكون هذه الدعوة بالحكمة ، ومن الحكمة معرفة حال المدعو وهذا يستلزم دراسة دينه وفهم ثقافته وحضارته ، لأن فهم الإنسان - من حيث هو إنسان - يستلزم فهم عقيدته الدينية ، إذ التدين نزعة فطرية أصيلة في الإنسان[٢] .

وبناء على ذلك كان علماء المسلمين يدرسون ديانة من يدعونه إلى الإسلام . من جانب آخر كان على من فضل من أهل الملل البقاء على دينهم بعد دعوتهم إلى الإسلام أن يجيبوا عن هذا السؤال: لماذا لم يختاروا الإسلام؟ فكان عليهم أن يشرحوا موقفهم ويبرروه وكان شرحهم وتبريرهم مشتملا بالضرورة على نقد للإسلام[٣] . وكان ذلك أيضا حافزا لعلماء المسلمين في دراسة الأديان .

إن هذه العوامل وغيرها كانت وراء توجيه علماء المسلمين نحو إنشاء هذا الحقل العلمي الجديد وتنميته وتطويره موضوعا ومنهجا[٤] . فكان بذلك علما دفاعيا جاء استجابة لظروف التحدي التي واجهتها العقيدة الإسلامية ، ومعلما من معالم المواجهة الفكرية التي واجه بها المسلمون التحديات الفكرية الواردة على العقيدة فهو علم غايته دفاعية - وإن زعم بعض الباحثين غير ذلك ، أو جانب بعضهم الصواب فيه - فروح الدفاع هي التي تسيطر على هذا العلم وتسيّر دفته وتضبط طرائقه وترسم مناهجه عند كلّ من اشتغل به على مختلف الفرق .

---

(١) انظر: منهج أهل السنة والجماعة في الرد على النصارى ص ٢٦ .

(٢) مناهج مقارنة الأديان في الفكر الإسلامي د. محمد عبد الله الشرقاوي ص ٥٠٧ وهو بحث منشور مع أبحاث المؤتمر الدولي الأول للفلسفة الإسلامية المنعقد في ٢٠ - ٢٢ - إبريل ١٩٩٦م في جامعة القاهرة .

(٣) انظر: مقدمة كتاب الرد على النصارى ، لأبي البقاء الجعفري ص ٢٥ تحقيق د. محمد بن محمد حسانين .

(٤) انظر: مباحث في منهجية الفكر الإسلامي د. عبد المجيد النجار ص ٩٨ .

واستمر هذا العلم سلاحا قويا في أيدي جهابذة العلماء ضد كلّ طامع النيل من عقيدة هذا الدين الخالد وما زال مؤديا وظيفته حتى جاء عهد الركود الذي أصاب سائر العلوم الإسلامية فلم يشذ هذا العلم عما أصاب غيره من العلوم من الضعف والانحطاط بل وصف بعض الباحثين هذا العلم بالاختفاء(١)، ولكي ندرك الوجه الناصع لجهود علماء المسلمين في علم الملل والتي تبرهن حرصهم وعنايتهم بهذا الحقل لا بد أن نعرف الصور التي تدل على ريادة علمائنا في هذا العلم ويظهر لي أن ذلك يبرز في أن علماء المسلمين هم أول من دون علم الملل وجعله علما مستقلا، كما أنهم أول من وضع لهذا العلم قواعد منهجية(٢)، وأسسا سليمة لدراسته.

ثانيا: دور علماء المسلمين في علم الملل:

١ - علماء المسلمين أول من دون في علم الملل:

يرى أكثر الباحثين في دراسات علم الأديان أن علم الملل إسلامي النشأة، وأن المسلمين أول من جعله علما مستقلا، قائما بذاته، بعد أن كان مبثوثا في ثنايا العلوم الأخرى؛ فكان بذلك للمسلمين فضل السبق والريادة(٣) ويقسم الباحثون مراحل هذا العلم إلى خمسة مراحل هي:

المرحلة الأولى: مرحلة التكوين. **المرحلة الثانية:** مرحلة التدوين.

المرحلة الثالثة: مرحلة الازدهار والاستمرار. **المرحلة الرابعة:** مرحلة الهبوط والضعف.

المرحلة الخامسة: مرحلة العودة إلى الساحة الإسلامية(٤).

فالمرحلة الأولى: تبدأ من نزول الآيات القرآنية التي تناولت عقائد الأمم بالنقاش والرد - كما سبق أن بينا في الباب الأول - وتنتهي بظهور أول مصنف مستقل صنف في

---

(١) انظر: موسوعة مقارنة الأديان - اليهودية ص ٣٢.

(٢) انظر: مقدمة المحقق لكتاب: الرد الجميل، لأبي حامد الغزالي تحقيق وتقديم عبد العزيز عبد الحق حلمي، ص ٧٧.

(٣) انظر: الدين دارز ص ١٤، مقارنة الأديان (اليهودية) ص ٣١، مناهج مقارنة الأديان في الفكر الإسلامي الشرقاوي ص ٥٠٨ - ٥٠٩، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام آدم متز، ترجمة د. محمد عبد الهادي أبو ريدة ص ٤٤.

(٤) مقدمة في علم مقارنة الأديان د. السيد محمد عقيل المهدي، ص ٣٠ - ٣١.

هذا الفن .

المـــرحلة الثانية: يـرى كـثير من الباحثين أن هذه المرحلة تبدأ في منتصف القرن الثاني الهجـري ، واختلف الباحثون في أول كتاب ظهر في هذا العلم ، فمنهم من يرى - كالدكتور أحمد شلبي - أن كتاب "الآراء والديانات" للنوبختي هو أول كتاب في هذا المجال[(١)] .

ومـن البـاحـثين[(٢)] من ذهب إلى أن أول كتاب هو كتاب الجاحظ "المختار في الرد على النصارى" . كما نجد من[(٣)] يرى أن كتاب "الدين والدولة في إثبات نبوة سيدنا محمد" لعلي بـن ربـن الطـبري هو أول كتاب ظهر في هذا العلم ، وللترجيح بين هذه الآراء نرجع إلى تـراجم هـؤلاء المصـنفين وتـاريخ وفـياتـهم . وبعد تأمل ذلك اتضح لي أن ما ذهب إليه الدكتور شلبي ومن اتبعه إما أن يكون المراد منه أن كتاب "النوبختي" هو أهم كتاب ألف في هـذا العـلم في مـراحله الأولى لاسيما إذا نظرنا أهميته عند القدامى حيث كانوا يعتمدون عليه في نقل المقالات[(٤)] . وقد وصفه شيخ الإسلام ابن تيميه بأنه كتاب كبير[(٥)] .

أمـا إذا كان المراد أنه أول كتاب على الإطلاق فهذا غير صحيح إذ أن النوبختي عاش في أواخر المائة الثالثة كما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية[(٦)] وذكر محقق كتاب الفهرست أنه تـوفي بعـد المائـة الثالـثة[(٧)] وكذلك الدكتور محمود علي حماية[(٨)] وخطأ شلبي يرجع إلى أنه اعـتمد عـلى تـاريخ وفـاة خاطـئة حيـث ذكر أن وفاة "النوبختي" كانت سنة "٢٠٢ هـ"[(٩)] ،

---

(١) انظر: موسوعته مقارنـة الأديـان - اليـهودية - ص ٣١ . واتـبعه عـلى ذلـك د . عبد الحليم عويس في كتابه "ابن حزم الأندلسي" انظر: ص٣١٥ .

(٢) منهم د . محمود علي حماية في كتابه "ابن حزم ومنهجه في دراسة الأديان" انظر: ص ١٤٥ .

(٣) ذهـب إلى هـذا الرأي الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي محقق كتاب الجاحظ "المختار في الرد على النصارى" انظر "المختار في الرد على النصارى" ص٥ .

(٤) انظـر مثلا القاضي عبد الجبار المعتزلي في كتاب "المغني في أبواب التوحيد والعدل ، للقاضي عبد الجبار المعتزلي ، تحقيق محمـود محمـد الخضـري حيث قال "ونعتمد في كلّ ما نحكيه على ما أورده الحسن بن موسى في كتابه "الآراء والديانات" لأنه موثوق بحكايته" انظر المغني ٥/ ٩ .

(٥) انظر: منهاج السنة النبوية ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق د . محمد رشاد سالم ٢/ ١٠٤ .

(٦) انظر: منهاج السنة النبوية ، لابن تيمية ١/ ٧٢

(٧) انظر: هامش الفهرست ، لابن النديم بتعليق الشيخ إبراهيم رمضان ص ٢٢٠ .

(٨) انظر: ابن حزم ومنهجه في دراسة الأديان ، د . محمود علي حماية ص ١٤٥ .

(٩) انظر: مقارنة الأديان - اليهودية ص ٣١ .

والصحيح أن وفاة "النوبختي" كانت بعد الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ[١] وكذلك بعد علي بن ربن الطبري الذي عاصر الجاحظ[٢]. أما الترجيح بين كتابي "الجاحظ" وعلي بن ربن الطبري" فهي من الصعوبة بمكان فالمؤلفان تعاصرا، فقد ولد الجاحظ سنة ١٥٠ هـ[٣] وتوفي سنة ٢٥٥هـ[٤].

أما علي بن ربن فإن تاريخ مولده ووفاته مجهولة بيد أن بعض الباحثين قدر أن مولده كان بين ١٥٣هـ - ١٦٤[٥]. وقيل كان مولده بين ١٥٨هـ - ١٥٩هـ[٦] وكان نصرانيا فأسلم على يد الخليفة العباسي المعتصم[٧] وقيل أسلم على يد خليفة المتوكل[٨] وفي كلا الحالين يكون قد ألف كتابه بعد المائة الثانية[٩] ولهذا فلا يظهر ما يرجح أسبقية أحد الكتابين. ومهما يكن من أمر فإن هذين الكتابين ليسا أول ما ألفه المسلمون في علم الملل بل هناك رسائل ألفه المسلمون قبل ذلك على سبيل مثال كتاب جواب قسطنطين عن الرشيد لأبي الربيع محمد بن الليث الخطيب[١٠]. وقد كتب هذا الكتاب بطلب من هارون الرشيد وأرسله إلى ملك الروم. بل يذكر لواصل بن عطاء مؤسس المعتزلة المولود سنة ٨٠هـ والمتوفى سنة ١٣١هـ[١١] كتاب "ألف مسألة" للرد على المانوية[١٢].

والذي نخلص إليه هنا هو أن مرحلة تدوين علم الملل بكتب مستقلة قد بدأت في القرن الثاني، وإن كانت تلك الكتب عبارة عن رسائل عني بها جوانب معينة، ولم

---

(١) انظر: معجم الأدباء، لياقوت الحموي ١٦/ ١١٤ مطبوعات دار المأمون.

(٢) انظر: مقدمة المختار في الرد على النصارى ص ٥.

(٣) انظر: معجم الأدباء ١٦/ ٧٤.

(٤) المصدر السابق ١٦/ ١١٤.

(٥) انظر: مسلمو أهل الكتاب وأثرهم في الدفاع عن القضايا القرآنية، د. محمد عبد الله السحيم ١/ ١٥٩.

(٦) المصدر السابق ص ١/ ١٥٩، وانظر: الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، لعبد المجيد الشرفي ص ١٢٨ - ١٢٩.

(٧) انظر: الفهرست، لابن النديم ص ٣٥٨.

(٨) انظر: تاريخ الأدب العربي، لكارل بروكلمان، ترجمة د. يعقوب بك ود. رمضان عبد التواب ٤/ ٣٦١ - ٣٦٣، دارالمعارف - القاهرة، ط الثالثة.

(٩) كانت خلافة المعتصم ما بين ٢١٨هـ - ٢٢٧هـ، انظر: البداية والنهاية، لابن كثير ١٠/ ٣٠٩. أما خلافة المتوكل فقد كانت ما بين ٢٣٢هـ - ٢٤٧هـ انظر البداية والنهاية، لابن كثير ١٠/ ٣٦٤ - ٣٦٦.

(١٠) كانت خلافة هارون الرشيد ما بين ١٧٠هـ - ١٩٣هـ، انظر البداية والنهاية، لابن كثير ١٠/ ٢٢٢ - ١٠/ ٢٣٢.

(١١) انظر: المعتزلة وأصولهم الخمسة، لعواد بن عبد الله المعتق ص ١٤.

(١٢) انظر: تاريخ المذاهب الإسلامية، لشيخ محمد أبو زهرة ص ١٤٠، دار الفكر العربي ١٩٨٩م.

تستوعب كلّ جوانب هذا العلم ، وهذا شأن كلّ فن في بداية نشأته ، ثم جاءت المرحلة الثالثة التي تبدأ من القرن الثالث لتستمر حتي القرن التاسع الهجري ، وقد تطور علم الملل في هذه المرحلة ، وازدهر ازدهارا عظيما ، وكثرت فيه الأبحاث ، وداسات ذات الشمولية والعمق ، وسيظهر لنا ذلك عند سردنا لمؤلفات هذه المرحلة ، وتنتهي بآخر كتاب وصل إلينا ، وهو كتاب "تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب" لعبد الله الترجمان المتوفي سنة ٨٢٣هـ ، ثم تأتي المرحلة الرابعة: فيدخل هذا العلم طور الضعف والانحطاط بعد هذا الازدهار والنجاعة والحيوية التي شهدها في الطور السابق ، وتبدأ هذه المرحلة في النصف الأخير من القرن التاسع الهجري . أي بعد آخر كتاب وصل إلينا - كما سبق - وتنتهي بالعصر الحديث ، حيث استيقظ المسلمون بصيحات التنصير ، وجحافل الاستعمار .

ثم تأتي المرحلة الخامسة: مرحلة عودة هذا العلم في الساحة ، وتبدأ بظهور حركات الإصلاح ، والتجديد التي قامت بمقاومة التنصير والاستعمار ، وسنتناول بالتفصيل عند حديثنا عن دراسة علم الملل في العالم الإسلامي في العصر الحديث . وفيما يلي سأقدم أهم مؤلفات علم الملل التي سطرتها أقلام علماء المسلمين كدليل على صدق تلك المراحل المذكورة ، وسأقتصر على مراحل ما قبل العصر الحديث ، وأؤجل المرحلة الخامسة إلى الباب الثالث - إن شاء الله .

٢ - أهم مؤلفات المسلمين في علم الملل من بداية التدوين حتى القرن التاسع الهجري:

وأود أن أشير قبل سرد تلك المؤلفات إلى ثلاثة أمور:

الأول: ما سأذكره من المؤلفات ليس على سبيل الحصر والاستقصاء .

الثاني: يشمل جميع مؤلفات علماء المسلمين بغض النظر عن اتجاهه العقدي والفكري .

الثالث: المؤلفات مرتبة على حسب تاريخ وفياة المؤلفين ، فمن وجدت أنه توفي في القرن الثالث صنفته في هذا القرن ، وإن عاش في القرن الثاني ، وذلك أنه من الصعب تحديد تاريخ المؤلفات إن لم ينص على ذلك مؤلفوها . وها أنا أشرع في سرد هذه المؤلفات - مستعينا بالله .

ففـــي القرن الثاني الهجري: كما سبقت إليه الإشارة فإن التصنيف في علم الملل قد بدأ في القرن الثاني الهجري، وأهم المؤلفات التي ألفت في هذا القرن ما يلي:

١ - كتاب "جواب قسطنطين عن الرشيد" لمحمد بن الليث الخطيب المكنى أبو الربيع، تـوفي بعـد سـنة ١٧٠هـ[(١)]، كتبه بطلب من هارون الرشيد؛ ليبعث به إلى قسطنطين ملك الروم، يدعوه فيه إلى الإسلام مبينا مناقب عقيدته، ومثالب عقيدة النصرانية.

٢ - رسـالة الهـاشمي إلى عـبد المسـيح الكـندي، لأبـي عـبد الله بـن إسماعـيل الهاشمي[(٢)].

في القرن الثالث: في هذا القرن ألف كتب كثيرة من أهمها:

١ - الـرد عـلى النصـارى: للقاسم بن إبراهيم بن إسماعيل الشيعي الزيدي، المتوفى ٢٤٦هـ[(٣)].

٢ - الـرد عـلى الـزنديق اللعين ابن المقفع للمؤلف السابق، وهو عبارة عن رد على الديانة الثنوية متمثلة في شخص ابن المقفع[(٤)] الذي كتب كتابا ينتصر فيه للثنوية[(٥)].

٣ - المختـار في الـرد عـلى النصارى، لأبي عثمان عمرو بن بحر بن المحبوب الكناني المشهور بالجاحظ، المتوفى ٢٥٥هـ[(٦)].

٤ - الديـن والدولـة، لأبـي الحسن علي بن سهل بن ربن الطبري[(٧)]، المتوفى ٢٦٠

---

(١) انظر: الفكر الإسلامي في الرد على النصارى ص ١٦٣.

(٢) انظر: المصدر السابق ص ١٢٣.

(٣) انظر: منهج أهل السنة والجماعة في الرد على النصارى ص٢٦، الفكر الإسلامي في الرد على النصارى ص ١٣٥.

(٤) هـو عـبد الله بـن المقفـع، كـان من الكتاب المشهورين، وأحد نقلة من اللسان الفارسي إلى العربي، ا انظر: الفهرست ١٥٠.

(٥) مناهج الاستدلال وصوره لدى المتكلمين والفلاسفة د. مختار محمود عطا الله، ص ١٠١ رسالة دكتوراة، بدار العلوم، جامعة القاهرة مكتوب بالآلة الكاتبة، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.

(٦) انظر: معجم الأدباء، لياقوت الحموي ١٦/ ٧٤، ١٦/ ١١٤ مطبوعات دار المأمون.

(٧) انظر: الفهرست، لابن النديم ص ٣٥٨، معجم المؤلفين لعمر رضا كحاله ٧/ ١٠٦، دار إحياء التراث العربي، وهدية العـارفين، إسماعيل باشـا البغدادي ١/ ٦٦٩ مكتبة المثنى ببغداد "مسلمو أهل الكتاب وأثرهم في الدفاع عن القضايا القرآنية" ١/ ١٥٧.

هـ[(١)] أو ٢٥٣هـ. وهو ما رجحه صاحب كتاب "مسلمو أهل الكتاب"[(٢)].

٥ - الرد على النصارى للمؤلف نفسه[(٣)]

٦ - الكتاب الأوسط في المقالات، لأبي العباس عبد الله بن محمد الأنباري الناشئ الأكبر، المتوفى ٢٩٣هـ، متكلم من المعتزلة[(٤)]، عرض في جزء من كتابه هذا عقائد النصارى، واهتم بتبيين فسادها[(٥)].

٧ - الرد على النصارى، لأبي عيسى محمد بن هارون الوراق، المتوفى ٢٩٧هـ، كان معتزليا في أول أمره، ثم عدل عنها إلى الإلحاد، أو إلى المانوية والزندقة[(٦)]، ألف ثلاثة كتب في الرد على النصارى[(٧)]، ولم تصل إلينا هذه الكتب، والمحفوظ عنها هو ما ورد في رد يحيى بن عدي النصراني على الوراق[(٨)]، بالإضافة إلى ذلك فإن له كتابا بعنوان "المقالات"[(٩)].

في القرن الرابع: أما في القرن الرابع فقد شهدت ساحة العالم الإسلامي مؤلفات، ودراسات في علم الملل، **من أهمها:**

١ - الآراء والديانات لأبي محمد الحسن بن موسى النوبختي الشيعي المتوفى ٣٠٢هـ[(١٠)].

٢ - الفصول لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر - إسحاق - سالم بن

---

(١) انظر: هدية العارفين ١/ ٦٦٩.

(٢) انظر: مسلمو أهل الكتاب ١/ ١٧٢.

(٣) انظر: الفكر الإسلامي في الرد على النصارى ص ١٣٠.

(٤) انظر: الفهرست، لابن النديم ص ٤١١، الفكر الإسلامي في الرد على النصارى ص ١٤٠ - ١٤١، بركلمان ٢/ ٢٣٤ - ٢٣٥.

(٥) انظر: الفكر الإسلامي في الرد على النصارى ص ١٤٠ - ١٤١.

(٦) انظر: الفهرست ص٤١١ وانظر: الفكر الإسلامي في الرد على النصارى ص ١٤١ - ١٤٢

(٧) انظر: الفكر الإسلامي في الرد على النصارى ص ١٦٥.

(٨) انظر: المصدر السابق ص ١٤٢.

(٩) انظر: منهج أهل السنة والجماعة في الرد على النصارى ص٢٨.

(١٠) انظر: الفهرست ص ٢٢٢، وانظر: ابن حزم ومنهجه في دراسة الأديان، ص ١٤٤ - ١٤٥، الأعلام للزركلي ٢/ ٢٢٤.

إسماعيل، المشهور بأبي الحسن الأشعري، والمؤسس لمذهب الأشاعرة، المتوفى سنة ٣٢٠هـ، وقيل: سنة ٢٣٠هـ، وهو أرجحها[١]، وقد رد في كتابه هذا على الملحدين، والخارجين عن الملة، كالفلاسفة، والطبائعيين، والدهريين، وأهل التشبيه، والقائلين بقدم الدهر على اختلاف مقالاتهم، وأنواع مذاهبهم، كما رد فيه على البراهمة، واليهود، والنصارى، والمجوس[٢].

٣ - جمل المقالات للأشعري أيضا، اشتمل هذا الكتاب على جمل مقالات الملحدين، وجمل أقاويل الموحدين[٣].

٤ - مقالات غير الإسلاميين للأشعري، قال الدكتور عبد المجيد الشرفي: انفرد بذكره ابن تيمية في منهاج السنة ووصفه بأنه أكبر من مقالات غير الإسلاميين[٤].

٥ - المقالات في أصول الديانات لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي المتوفى ٣٤٦هـ[٥]. الشيعي تناول المسعودي الفرق الإسلامية والأديان، والمذاهب غير الإسلامية، كاليهودية، والنصرانية، والثنوية، والديصانية، والصابئة، والمجوس، والخرمية. وهو من أعظم مؤلفات المسعودي لكنه في عداد كتبه المفقودة[٦].

٦ - الإعلام بمناقب الإسلام لأبي الحسن محمد بن يوسف العامري[٧] المتوفى سنة ٣٨١هـ وهو فيلسوف ينتمي إلى مدرسة الكندي الفلسفية.

القرن الخامس الهجري: وإذا انتقلنا إلى القرن الخامس الهجري نجد أن علماء الذين

---

(١) انظر: تاريخ بغداد لحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ١١/ ٣٤٧ دار الكتاب العربي، سير أعلام النبلاء ١٥/ ٩٠، البداية والنهاية لابن كثير ١١/ ١٨٧.

(٢) انظر: تبيين كذب المفتري لابن عساكر ص ١٢٩ - ١٣٠، مقدمة كتاب الإبانة عن أصول الديانة، د. فوقية حسين محمود، محققة الكتاب ص ٤٢.

(٣) انظر: تبيين كذب المفتري لابن عساكر ص ١٣١، ومقدمة محققة كتاب الإبانة ص ٤٩

(٤) انظر: الفكر الإسلامي في الرد على النصارى ص ١٦٦. وقد راجعت كتاب المنهاج ولم أجد اسم "مقالات غير الإسلاميين" وإنما وجدت اسم "المقالات الكبير" وقد جعل المحقق كتاب المنهاج "المقالات الكبير" وجمل مقالات "كتابا واحدا، انظر: المنهاج ٢/ ٢٢٤.

(٥) انظر: الأعلام للزركلي ٤/ ٢٧٧.

(٦) انظر: منهج المسعودي في كتابة التاريخ د. سليمان بن عبد الله السويكت ص١٣٦ ط الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

(٧) انظر الاعلام للزركلي ٧/ ١٤٨

توفوا في هذا القرن قد تركوا لنا مؤلفات كثيرة في علم الملل من أهمها .

١ - كتاب التمهيد لأبي بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣هـ[١] وهو أحد المتكلمين الأشاعرة ، فقد خصص جزءا كبيرا من كتابه في الكلام عن الأديان الأخرى .

٢ - المغني في أبواب التوحيد والعدل ، للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني المعتزلي المتوفى سنة ٤١٥ هـ[٢] .

خصص الجزء الخامس من هذا الكتاب للفرق غير الإسلامية[٣] وللقاضي كتب أخرى تناول فيها الكلام عن الأديان الأخرى كـ «تثبيت دلائل النبوة»[٤] .

٣ - درك البقية في الوصف الأديان والعبادات لمحمد بن عبيد الله بن أحمد المسبحي المتوفى سنة ٤٢٠هـ[٥] والمسبحي شيعي وصفه الذهبي بأنه رديء الاعتقاد على دين بني عبيد وأقل ذلك الرفض[٦] .

٤ - الملل والنحل لأبي المنصور عبد القاهر بن طأهر بن محمد البغدادي التميمي المتوفى سنة ٤٢٩هـ[٧] . وهو من أعلام الأشاعرة .

٥ - تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة لمحمد بن أحمد أبو الريحان

---

(١) انظر البداية والنهاية ١١/ ٣٧٣ ، الأعلام للزركلي ٦/ ١٧٦ .

(٢) انظر: الأعلام للزركلي ٣/ ٢٧٣ .

(٣) انظر: الفلسفة الإسلامية مدخل وقضايا للدكتور حامد طاهر ص ١١٥ .

(٤) انظر: الفكر الإسلامي في الرد على النصارى ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(٥) انظر: الوافي بالوفيات لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ٤/ ٧ ، دار النشر فرانز شتايز بفيسبادن ط الثانية ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤م ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب لأبي الفلاح عبد بن العماد الحنبلي ٣/ ٢١٦ ، النجوم الزاهرة لجمال الدين أبي الحسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي ٤/ ٢٧١ ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة ١/ ٧٥٢ .

(٦) انظر: أخبار مصر للمسبحي ، مقدمة المحقق لجزء الأربعين ، تحقيق أيمن سيد ونباري بيانكي ، صفحة نْ الناشر ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة .

(٧) انظر: سير الأعلام النبلاء محمد الذهبي ١٧/ ٥٧٢ - ٥٧٣ ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس أحمد بن خلكان تحقيق د . إحسان عباس ٣/ ٢٠٣ .

البيروني الخوارزمي والمتوفى سنة ٤٤٠هـ[١] وهو كتاب خاص بعقائد الهند وعاداتهم.

٦ - الفصل في الملل والأهواء والنحل لأبي محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري المتوفى سنة ٤٥٦هـ[٢] ويعد هذا الكتاب من أعظم كتب علم الملل من حيث الشمول والدقة والمنهجية.

٧ - رسالة في الرد على راهب فرنسا لأبي الوليد سليمان بن خلف الباجي الأندلسي المتوفى سنة ٤٧٤هـ[٣].

٨ - شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل لأبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني النيسابوري[٤]. المتوفى سنة ٤٧٨هـ[٥] أحد أعلام الأشاعرة.

القرن السادس الهجري: أما إذا جئنا إلى القرن السادس فنجد من أهم هذه الكتب ما يلي:

١ - الرد الجميل لألوهية عيسى بصريح الإنجيل لأبي حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الغزالي[٦] المتوفى سنة ٥٠٥هـ[٧] وهو من أعلام الأشاعرة.

٢ - الملل والنحل لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني[٨] المتوفى سنة ٥٤٨هـ[٩].

ويعد هذا الكتاب من أوسع كتب علم الملل والنحل فهو "دائرة معارف لمعرفة الأديان والفرق"[١٠] والشهرستاني من علماء الأشاعرة أيضا.

---

(١) انظر: الأعلام ٥/ ٣١٤.

(٢) انظر: وفيات الأعيان ٣/ ٣٢٥، ٣/ ٣٢٨، الأعلام للزركلي ٤/ ٢٥٤، البداية والنهاية لابن كثير ١٢/ ٩٨.

(٣) انظر: البداية والنهاية ١٢/ ١٣٠.

(٤) انظر: سير الأعلام النبلاء ١٨/ ٤٦٨، وفيات الأعيان ٣/ ١٦٧.

(٥) انظر: سير الأعلام ١٨/ ٤٧٦، وفيات الأعيان ٣/ ١٦٩، تبيين كذب المفتري ص ٢٨٤ - ٢٨٥.

(٦) انظر: سير الأعلام النبلاء ١٩/ ٣٢٢ - ٣٢٣، وفيات الأعيان ٤/ ٢١٦.

(٧) انظر: سير الأعلام النبلاء ١٩/ ٣٤٣ وفيات الأعيان ٤/ ٢١٨.

(٨) انظر: سير الأعلام النبلاء ٢٠/ ٢٨٦.

(٩) المصدر السابق ٢٠/ ٢٨٧.

(١٠) اليهودية والمسيحية للأعظمي ص ٢٧.

٣ - إفحام اليهود للمهتدي أبي نصر السموءل ابي البقاء يحيى بن المغربي[(١)] المتوفى سنة ٥٧٠هـ تقريبا[(٢)] كان يهوديا فهداه الله إلى الإسلام فألف كتابه لبيان فساد عقائد اليهود .

٤ - الداعي إلى الإسلام لكمال الدين أبي البركات عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنباري النحوي[(٣)] المتوفى سنة ٥٧٧هـ[(٤)] رد الأنباري هذا الكتاب على جميع أهل الملل الباطلة والنحل الفاسدة وألفه على طريقة الأشاعرة[(٥)] .

٥ - مقامع هامات الصلبان ورواتع روضات الإيمان لأبي جعفر أحمد بن عبد الصمد بن أبي عبيدة الأنصاري الخزرجي ، المتوفى سنة ٥٨٢هـ[(٦)] وقد حقق هذا الكتاب الدكتور محمد عبد الغني شامة باسم "بين الإسلام والمسيحية" واعتبر بعض الباحثين ذلك تحريفا[(٧)] كما حققه الدكتور عبد المجيد الشرفي بعنوان "مقامع الصلبان في الرد على النصارى"[(٨)] .

٦ - النصيحة الإيمانية في فضيحة الملة النصرانية ، وهو لأحد علماء النصارى المهتدين ، قيل إن اسمه "نصر بن يحيى بن سعيد المتطبب ، وقيل: "نصر بن عيسى المتطبب "وقيل: "نصر بن يحي بن عيسى المتطبب ، وهذه الروايات الثلاثة وردت في ثلاث نسخ خطية لكتاب "النصيحة الإيمانية[(٩)] . أما وفاته فيظهر أنه توفي سنة ٥٨٩هـ[(١٠)] .

---

(١) انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء لأحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة ٣/ ٤٦ - ٤٧ ، دار الثقافة ط الثانية ١٩٨١م . كشف الظنون ١/ ١٣٢ ، وانظر: مسلمو أهل الكتاب ١/ ١١٥ .

(٢) انظر: مسلمو أهل الكتاب ١/ ١٣٢ .

(٣) انظر: شذرات الذهب ١/ ٥١٩ ، الأعلام ٣/ ٣٢٧ .

(٤) انظر: بغية الوعاة لجلال الدين السيوطي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ٢/ ٨٨ ، المكتبة العصرية - بيروت . وفيات الأعيان ٢/ ٣٢٠ .

(٥) انظر: الداعي إلي الإسلام لكمال الدين عبد الرحمن بن محمد الأنباري دراسة محقق الكتاب سيد حسين باغجوان ص ٣٤ - ٣٥ .

(٦) انظر: مقدمة د . عبد المجيد الشرفي محقق الكتاب ص ٢ - ٥ .

(٧) انظر: دراسة الدكتور الشرقاوي على كتاب "الرد الجميل للغزالي" ص ٢١ .

(٨) يرى المحقق أن هذا العنوان يجمع روايات مختلفة لعنوان الكتاب .

(٩) انظر: مسلمو أهل الكتاب ١/ ١٩٢ .

(١٠) المصدر السابق ١/ ١٩٤ .

القرن السابع الهجري: وإذا انتقلنا إلى القرن السابع فنجد أن أهم هذه الكتب كالتالي:

١ - اعتقادات فرق المسلمين والمشركين لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي فخر الدين الرازي[١]، المتوفى سنة ٦٠٦هـ[٢]

أحد أعلام الأشاعرة. وهو كتاب شامل، كما يدل عليه اسمه، لكنه مختصر جدا.

٢ - مناظرة في الرد على النصارى للمؤلف السابق[٣].

٣ - تخجيل من حرف الإنجيل[٤]. لأبي البقاء صالح بن الحسين الجعفري، توفي بعد سنة ٦٣٢هـ، كما ذكر محقق كتابه "الرد على النصارى"[٥].

٤ - "الرد على النصارى" وهو لأبي البقاء أيضا، وله كتاب آخر بعنوان "الواضح المشهود في فضائح النصارى واليهود" والكتابان الأخيران ملخصان لكتاب "التخجيل"[٦]

٤ - الأجوبة الفاخرة في الرد على الأسئلة الفاجرة لأبي العباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن بن عبد الله القرافي، نسبة إلى القرافة، من بقاع مصر، الملقب بشهاب الدين، المتوفى سنة ٦٨٢هـ[٧].

٥ - البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان لأبي الفضل عباس بن منصور بن عباس الشريمي السكسكي، المتوفى سنة ٦٨٣هـ[٨]، والسكسكي من علماء أهل السنة والجماعة[٩]، والكتاب شامل للفرق، والأديان، لكنه مختصر جدا.

القرن الثامن: في القرن الثامن نجد أن أهم الكتب التي ترك لنا العلماء في هذا القرن ما يلي:

١ - الانتصارات الإسلامية في كشف شبه النصرانية لأبي الربيع سليمان بن عبد

---

(١) انظر: وفيات الأعيان ٤/ ٢٤٨، سير الأعلام ٢١/ ٥٠٠ - ٥٠١.
(٢) الأعلام للزركلي ٦/ ٣١٣ وفيات الأعيان ٤/ ٢٥٢.
(٣) حقق هذا الكتاب الدكتور عبد المجيد النجار، وصدر عن دار الغرب الإسلامي سنة ١٩٨٦م.
(٤) انظر: كشف الظنون ٢/ ٢٤٩.
(٥) انظر: مقدمة محقق الكتاب "الرد على النصارى" د. محمد محمد حسانين ص ١٣.
(٦) انظر: المصدر السابق ص ٦ - ٧.
(٧) الأعلام للزركلي ١/ ٩٤ - ٩٥.
(٨) انظر: معجم المؤلفين ٥/ ٦٥، هدية العارفين ٥/ ٤٣٧.
(٩) انظر: دراسة وتحقيق الدكتور علي بن حسن بن ناصر العسيري على الكتاب ص ٦٢ مكتوب بالآلة الكاتبة.

القوي بن عبد الكريم الطوفي الصرصري نجم الدين البغدادي المتوفى سنة ٧١٦هـ[(١)] .

٢ - مسالك النظر في نبوة سيد البشر لسعيد بن حسن الأسكندراني توفي بعد سنة ٧٢٠ هـ[(٢)] . وهو أحد علماء اليهود المهتدين .

٣ - الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام وإثبات نبوة محمد عليه السلام للقرطبي[(٣)] رد عليه صاحبه على كتاب "تثليث الوحدانية" لأحد علماء النصارى .

٤ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لشيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني[(٤)] المتوفى سنة ٧٢٨هـ[(٥)] وهذا الكتاب موسوعة علمية في علم الملل .

٥ - اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم لشيخ الإسلام أيضاً .

٦ - "هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى" لشمس الدين محمد بن أبي بكر ابن

---

(١) انظر: شذرات الذهب ٦/ ٣٩ ، الدرر الكامنة للحافظ أحمد بن حجر العسقلاني تحقيق محمد سيد جاد الحق .

(٢) لا يعرف تاريخ وفاة صاحب الكتاب بالتحديد والمؤكد أنه ألف هذا الكتاب في سنة ٧٢٠هـ انظر: مسلمو أهل الكتاب بـ ١/ ١٤٣ ، دراسة الدكتور محمد الشرقاوي لكتاب "إفحام اليهود لسموءل" تحقيق محمد عبد الله الشرقاوي ، الناشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - الرياض ١٤٠٧هـ

(٣) اختلف الباحثون هل المراد بالقرطبي القرطبي المفسر فذهب صاحب هدية العارفين ٢/ ١٢٩ ، وبركلمان في تاريخ الأدب العربي ٣/ ٢٧٦ ، والدكتور . عبد الراضي محمد في كتابه منهج أهل السنة والجماعة في الرد على النصارى ص ٣١ إلى أن المراد بالقرطبي هو الإمام القرطبي المفسر المعروف ، ولكن عارض هذا الرأي آخرون منهم الدكتور علي بن سليمان العبيد في رسالته الماجستير (القرطبي مفسرا) ص ٧٩ - ٨٢ مكتوبة بالآلة الكاتبة جامعة الإمام - كلية أصول الدين ، وكذلك أحمد المزيد في رسالته "منهج الإمام القرطبي في أصول الدين" ٦٢ - ٦٣ جامعة الإمام - كلية أصول الدين ١٤١٢هـ . أما الدكتور أحمد حجازي السقا محقق الكتاب - وهو ممن يرى أن الكتاب لغير القرطبي المفسر - فقد ذكر أن المؤلف ذكر أنه فرغ منه سنة سبعمائة وست وعشرين من الهجرة ، ومعنى هذا أن القرطبي مؤلف كتاب الإعلام ليس هو القرطبي الإمام الفقيه المفسر للقرآن الكريم . لأن القرطبي الإمام توفي سنة ستمائة وواحد وسبعين من الهجرة ، بالإضافة إلى أن أسلوب الكتاب غير أسلوب الإمام القرطبي المفسر" . انظر "مقدمة الدكتور في كتاب "الإعلام" ص ٥ ، دار التراث العربي . قلت: فإذا كان كاتب هذا التاريخ هو المؤلف حقيقة فلا شك أن المؤلف غير القرطبي المفسر ، وإذا احتمل أنه لأحد نساخ الكتاب فلا شك أن الأمر يحتاج إلى مزيد من التحقيق والدراسة .

(٤) انظر: وفيات الأعيان ١/ ٧٤ ، الدرر الكامنة ١/ ١٥٤ ، البداية والنهاية لابن كثير ١٤/ ١٣٥ ، الأعلام للزركلي ٤/ ٦ .

(٥) انظر: الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام بن تيمية للبزار ، تحقيق صلاح الدين المنجد ص ٧٣ .

قيم الجوزية[١]، المتوفى سنة ٧٥١هـ[٢].

٧ - "إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان" لابن القيم نفسه، وفي هذا الكتاب تناول الحديث عن الأديان جزءا كبيرا.

٨ - أحكام أهل الذمة" لابن القيم أيضا جمع فيه كلّ ما يتعلق بأحكام أهل الذمة.

القرن التاسع: وفي هذا القرن لا نجد كتبا في علم الملل ذات أهمية، ما عدا كتاب واحد، هو "تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب" لعبد الله بن عبد الله الترجمان الميورقي، كان نصرانيا، اسمه "إنسلم تورميدا" هداه الله إلى الإسلام، وألف هذا الكتاب سنة ٨٢٣هـ[٣].

وبعد القرن التاسع، يرى الباحثون أن علم الملل بدأ بمرحلة الضعف والجمود، ولم يسجل لعلماء المسلمين جهودا، وإبداعات في هذا الميدان[٤]، وانتقل هذا العلم إلى الغرب؛ فظهر بمناهج تنبثق من تصوراته، وتوافق فلسفاته، وظن الغربيون أن هذا الفن فن جديد، ابتكره علماء الغرب، بيد أن كلّ منصف له إلمام بتراث المسلمين يجزم أن علماء المسلمين هم أول من ابتكروا دراسة أديان العالم، وعقائد شعوبه، دراسة علمية موضوعية، وهذه المؤلفات التي ذكرتها في الصفحات السابقة لدليل وبرهان على ذلك، ثم إن أسبقيتهم في هذا الميدان لم تكن في التأليف فقط، وإنما كانت أيضا في وضع القواعد المنهجية السليمة لدراسة الأديان، والتي بدونها لا تتحقق أهداف هذا العلم، وفوائده.

والحق أن المناهج التي نهجها العلماء المسلمون في دراسة الأديان كثيرة، وبعضها مخالف لمنهج القرآن في عرض ونقد الأديان، وسأذكر تلك المناهج على وجه الإجمال.

---

(١) الأعلام ٦/ ٥٦.
(٢) انظر: الدر الكامنة ٤/ ٢٣.
(٣) انظر: كشف الظنون ١/ ٣٦٢، معجم المؤلفين ٦/ ٧٨، مقدمة الرد الجميل للغزالي د. محمد الشرقاوي ص ٨٣.
(٤) لكن هذا لا يمنع أن يكون لبعض العلماء جهود في هذا الحقل وإن كانت ضعيفة، ومن الجهود التي تذكر بعد القرن التاسع ما قام به المهتدي زيادة النصب الراسي في القرن الحادي عشر من تأليف كتابيه "البحث الصريح" و"الأجوبة الجلية" انظر: كتاب مسلمو أهل الكتاب ١/ ٢٢٥ - ٢٢٦.

٣ - مناهج البحث لدى علماء المسلمين في علم الملل:

عند قراءتنا لتراث علماء المسلمين في علم الملل قراءة فاحصة، نجد أنهم في دراساتهم للأديان قد نهجوا مناهج متعددة، تتوزع بين المنهج التاريخي، والتحليلي، والمقارنة، والنقدي، أو الجمع بينها. وأقدم هنا نبذة موجزة عن هذه المناهج:

المنهج التاريخي أو الوصفي: هذا المنهج يقدم أصحابه الأديان والمذاهب دون رد أو نقض، ويترك القارئ ليميز بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال، وهو منهج مخالف لمنهج القرآن الكريم، الذي لا يعرض الأديان الباطلة دون نقد ورد، وهو مجانب لغاية دراسة الأديان التي تتلخص في بيان الحق من الباطل، بإظهار الحق وتقريره، وكشف الباطل وهدمه.

ومن نماذج هذا الاتجاه "الشهرستاني" في كتابه "الملل والنحل"؛ فهو القائل مشيرا إلى أسس منهجه: «وشرطي على نفسي أن أورد مذهب كلّ فرقة على ما وجدته في كتبهم، من غير تعصب لهم، ولا كسر عليهم، دون أن أبين صحيحه من فاسده، وأعين حقه من باطله، وإن كان لا يخفى على الأفهام الذكية في مدارج الدلائل العقلية لمحات الحق، ونفحات الباطل...»[١]. وسواء التزم الشهرستاني بهذا الشرط أم لم يلتزم، وهو ما حدث حيث «لا يخلو كتابه من بعض الردود والمناقشات، والإشارات النقدية»[٢]، إلا أن هذا الشرط مما يؤخذ عليه.

ومن هذا الاتجاه أيضا "البيروني" في كتابه "تحقيق ما للهند من مقولة" حيث صرح ذلك في بداية الكتاب «وليس الكتاب كتاب جدل وحجاج، حتى استعمل فيه بإيراد حجج الخصوم ومناقضة الزائغ منهم عن الحق، وإنما هو كتاب حكاية، فأورد كلام الهند على وجهه...»[٣]

---

(١) انظر: الملل والنحل ص ١٤

(٢) انظر: مقالات في المذاهب والفرق د. عبد العزيز بن محمد العبد اللطيف ص ٤٩.

(٣) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل، ومرذولة لأبي الريحان محمد بن أحمد البيروني تحقيق علي صفا ص ١٥ - ١٦.

واستطرد قائلا: «وأنا في أكثر ما سأورده من جهتهم حاك غير منتقد»[١] .

وهذا المنهج هو أوفر مناهج المسلمين حظا ، وإشادة عند علماء الغرب ، وبه يرتضون أن يتناول علماء المسلمين الأديان .

منهج التحليل والمقارنة: يعد المنهج المقارن في دراسة الأديان من أبرز مناهج علماء المسلمين في دراسة الأديان ، وهم في ذلك مقتدون بالقرآن الكريم ، فهذا الشهرستاني ، أحد أساطين علم الملل يقول: «إنه ما من قصة ذكرت في القرآن إلاّ وفيها تقابل الطريقين ، وأنه كما يوجد التضاد في الموجودات يوجد أيضا في الأمريات . . .» ثم قال: «حتى لو تفحصت لكلمات القرآن وجدت التضاد في كلّ كلمة ، إلاّ ما شاء الله ، وما من آية في حق المؤمنين إلاّ ويعقبها آية في حق الكافرين ، وما من خصلة من خصال الخير إلاّ ويذكر عقبها خصلة من خصال الشر»[٢]

وهدف علماء المسلمين في مقارنة الأديان هو إبراز فضل الإسلام ، وسموه على غيره من الأديان ، والنحل . ولعل كتاب "الإعلام بمناقب الإسلام" خير أنموذج لهذا ، فقد حدد العامري في هذا الكتاب الأديان التي سيقارن بينها ، كما بين موضوع المقارنة ، ومنهجها ؛ فالأديان التي قارن بينها هي: الإسلام ، واليهودية ، والنصرانية ، ودين الصابئة ، ودين المجوس ، والشرك أو عبادة الأوثان .

وموضوع المقارنة يتمثل في العناصر الرئيسة للدين التي يسميها: أركان الدين ، وهي الجوانب ، أو العناصر التي تشكل جوهر الدين ، ومن ثم تشترك فيها ، أو ينبغي أن تشترك فيها جميع الأديان ، وهي: «الاعتقادات ، والعبادات ، والمعاملات ، والمزاجر» ثم يقارن بين بعض العناصر المهمة المكملة لتلك ، مثل: النظام الاجتماعي ، والنظام الاقتصادي ، والانجازات الحضارية ، والثقافية لهذه الأديان الستة .[٣] .

وقد أعلن العامري أسس منهجه في صدر كتابه ، قائلا: «وقبل أن نشرع فيما وعدناه من مقابلة ركن بركن . . . يجب أن نقدم مقدمة ، فنقول: «إن تبيان فضيلة الشيء على

---

(١) المصدر السابق ص ٢٢ .

(٢) انظر: منهج الشهرساني في كتابه الملل والنحل ، لمحمد ناصر السحيباني ص ٢٨٦ .

(٣) انظر: مقدمة محقق الكتاب ص ٢٢ ، وانظر: مناهج مقارنة الأديان في الفكر الإسلامي للشرقاوي ص ٥١٩ - ٥٢٠

الشيء بحسب المقابلات بينها قد يكون صوابا ، وقد يكون خطأً ، وصورة الصواب معلقة بشيئين:

أحدهما: ألاّ يوقع المقايسة إلاّ بين الأشكال المتجانسة ، أعني ألاّ يعمد إلى أشرف ما في هذا فيقيسه بأرذل ما في صاحبه ، ويعمد إلى أصل من أصول هذا فيقابله بفرع من فروع ذاك

ثانيهما: إلاّ يعمد إلى خلة موصوفة في فرقة من الفرق ، غير مستفيضة في كافتها ، فينسبها إلى جملة طبقاتها . ومتى حافظ العقل في المقابلة بين الأشياء على هذين المعنيين فقد سهل عليه المأخذ في توفية حظوظ المتقابلات ، وكان ملازما للصواب في أمره(١) .

فمقارنة الأديان الستة في الموضوعات المحددة ، والتزام مقارنة الأصل بالأصل ، والمهم بالمهم ، وعلى أساس المبادئ ، والأحوال المقبولة لدى جمهور معتنقي كلّ دين ، هي القواعد المنهجية التي وضعها العامري ، والتزم بها(٢) .

ولا شك أن علماء المسلمين قد أفادوا من تلك المقابلات ، والمقارنات بين الملل ، حيث أضفت على دراستهم للأديان عمقا وثراء ، وأتاحت لهم رؤية نافذة ، ودراية كاملة ، بعقائد وأفكار أهل الملل المختلفة ، مما مكنهم من الوقوف على حقيقة تلك الملل ، وما بينها من أوجه اختلاف ، أو اتفاق ، وتأثير ، أو تأثر ، ودرجات تفاوتها في القرب ، والبعد عن الحق .

المنهج التحليلي النقدي: التحليل والنقد من أبرز الخصائص التي تميزت بها دراسة علماء المسلمين في علم الملل ، فلم يكن علماء المسلمين يقتصرون بعرض الأديان ، ووصفها ، بل كانت دراستهم تتسم بالاستقصاء ، والشمول ، والتحليل العميق ، والنقد العلمي الرصين المبني على الحجج والبراهين .

ويمكن أن نمثل لهذا منهج الإمام ابن حزم في كتابه " الفصل في الملل والأهواء والنحل " فقد خصص ابن حزم مساحة كبيرة من كتابه هذا لدراسة الأديان ، وتناولها بتحليل نقدي منهجي ، مستخدما بعملية استقراء تاريخي دقيق ، خاصة فيما يتعلق بكتب أهل الكتاب ،

---

(١) انظر: الإعلام بمناقب الإسلام لأبي الحسن العامر تحقيق د . أحمد عبد الحميد غراب ص ١٢٥ .
(٢) انظر: مقدمة المحقق ص ٢٣ - ٢٤ .

حيث نقدها سندا، ومتنا، يقول الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي: «لقد تشكل منهج ابن حزم التحليلي من النقد الخارجي، أو بحث السند والرواية، ومن النقد الداخلي، أو فحص متن النص، أو المحتوى. ويعد ابن حزم الأندلسي أول باحث - فيما نعلم - يدرس العهد القديم، والأسفار الخمسة، خصوصا دراسة تحليلية نقدية، ويوظف هذا المنهج الرصين..»(١)

وكان ابن حزم في هذا يرتكز على قواعد، وأصول منهجية لا يختلف عليها دارسان مثل: التناقض الذاتي، ومناقضة بدهيات العقول، ووقائع التاريخ الثابتة، ومقررات الواقع الملموس. وقد انتهى ابن حزم من خلال الدراسة التحليلية النقدية إلى نتيجة عبر عنها بقوله: «إنها تاريخ مؤلف ألف بعد موت موسى بقرون عديدة...»(٢)،(٣).

منهج الحوار والجدال والرد والمحاجة: سلك بعض علماء المسلمين في دراستهم للأديان اتجاها دفاعيا، يواجه حملات التنصير، والتشكيك التي تتربص للمجتمع الإسلامي، وتثير الفتنة بين المسلمين، واتخذ هذا الاتجاه شكل مناظرات حية بين علماء المسلمين وغير المسلمين، من أصحاب الملل والنحل المختلفة، وبالمحاورات، والرد على الشبهات المكتوبة في رسائل، أو في كتب(٤)، ويمثل هذا المنهج أغلب كتب علماء المسلمين.

المنهج الشامل في دراسة الأديان: والمراد بالمنهج الشامل هو المنهج الذي يشمل جميع المناهج السابقة، حيث يهتم بعرض ما يتناوله بالدراسة عرضا أمينا، مع المناقشة، والمقارنة، والتحليل النقدي، ورد الباطل وبيانه، وقد يتم ذلك في قالب حوار، أو مناظرة.

وهذا المنهج الشامل هو الأمثل في تناول دراسة الأديان، إذ وصف الأديان وحده لا يغني، كما أن المقارنة غير الموجهة غير مجدية، وأن النقد والردود قبل استيفاء العرض

---

(١) انظر: مناهج مقارنة الأديان في الفكر الإسلامي ص ٥٢٢، وانظر: منهج نقد النص بين ابن حزم الأندلسي، واسبينوزا، د. محمد عبد الله الشرقاوي ص ١٩، وكذلك ص ٣٩.

(٢) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل. ١/ ٢٨٥

(٣) انظر: مناهج مقارنة الأديان في الفكر الإسلامي ص ٥٢٣.

(٤) انظر: المدخل لدراسة الأديان، ص ١٤٠، مناهج مقارنة الأديان في الفكر الإسلامي د. الشرقاوي ص ٥٢٣

والمناقشة قد يكون فيها مجانبة للأمانة والإنصاف، ومن تتبع كتب المسلمين في دراسة الأديان يجد هذا المنهج الشامل، ولعل خير أنموذج لهذا المنهج كتاب "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح" لشيخ الإسلام ابن تيمية.

تعقيب: يتضح مما سبق من سرد بعض مؤلفات علماء المسلمين في الملل، وعن تلك اللمحة الموجزة عن مناهجهم: أن أغلب فرق الأمة الإسلامية قد شاركت في هذا المجال، وأن المعتزلة كانت لهم اليد الطولى في هذا العلم عند نشأته، وأن علماء الأشاعرة، وعلماء أهل السنة والجماعة، قد بذلوا جهدا كبيرا في تطوير هذا العلم، بالإضافة إلى إسهامات الشيعة، والفلاسفة.

ويأتي هنا تساءل مهم هو: إذا كان علماء المسلمين قد ساهموا في هذا العلم الذي غرضه الدفاع عن الدين الإسلامي ضد الأديان الباطلة على اختلاف مناهجهم، واتجاهاتهم الفكرية، والعقدية، فهل يمكن أن يفهم من ذلك أنهم استخدموا في هذا مناهج وأساليب تختفي فيها الآراء، والاختلافات المذهبية؟.

وفي هذا يرى بعض الباحثين أن هناك تقاربا في المناهج، والأدلة، وأن ذلك جاء نتيجة طبيعية لوحدة الموضوع والهدف، واتفاق الدوافع والمنطلقات، والاشتراك في نفس المصادر[(١)]

يقول الدكتور حامد طاهر «وهناك نلاحظ ظاهرة هامة، وهي اختفاء الخلافات المذهبية بين العلماء الذين تصدوا لهذا العمل الجليل، وتقاربهم في المنهج والأدلة»[(٢)].

ولكن لاأوافق هذا الرأي؛ ذلك أن كلّ فريق، أو اتجاه، عندما يتناول دراسة الأديان، يتناوله على ضوء منهجه المبني على مذهبه العقدي، فالمعتزلي عندما يتحدث، ويدافع عن التوحيد يخالف في مفهوم التوحيد، وفي طرق الاستدلال عليه عن مفهوم التوحيد عند السلفي، وعن منهجه في الاستدلال على مسائل الدين ودلائله، وكذلك الشيعي يخالف السني في فهمه للإسلام عقيدة ومنهجا.

وأخيرا، إن هذه الجهود التي بذلت في مجال علم الملل لتعطينا يقينا جازما باهتمام

---

(١) انظر: منهج أهل السنة والجماعة في الرد على النصارى ص ٤١٤.

(٢) انظر: الفلسفة الإسلامية مدخل وقضايا د. حامد طاهر ص ٢٦.

علمائـنا السـابقين في هذا الحقل . ومن نافلة القول أن نقول: إن هذا التراث العظيم الذي تـركوه لنا ليقدم لنا أهم العناصر للدفاع عن الإسلام ضد التحديات الشرسة التي تواجهه في العصر الحاضر .

لكن هذا العلم لا يؤدي دوره إلاّ بعد تقويمه ، وتنقيته عن الشوائب ، وهذا يتطلب قيام دراسـات تأصـيلية تقعـيدية ، يتميز فيها المنهج الصحيح - مَنهج القرآن الكريم _ في تناول دراسـة الأديـان ، عـن المناهج التي سلكها أهل الأهواء في دراساتهم للأديان ، ولا يتم ذلك إلاّ ببيان الضوابط المنهجية ، وأسسها لكل من المنهج الصحيح ، والمناهج المخالفة لـه .

وفي محاولـة متواضعة ، سأحاول الكشف عن أهم ملامح منهج علماء أهل السنة في عـلم الملل ، مع التركيز لأهـم الضوابط التي يمكن أن تستنتج من هذا المنهج ، ثم أثني بذكر أهم ملامح مناهج المخالفين ، وذلك في الفصلين الآتيين .

* * * * *

الفصل الأول

منهج علماء أهل السنة فى دراسة الملل

المبحث الأول: الأسس المنهجية لدراسة الملل عند أهل السنة

مقدمة: قبل الدخول في مطالب المبحث أود توضيح المراد من "الأسس المنهجية" و"أهل السنة".

فالأسس المنهجية" مركب من كلمتين "الأسس" و"المنهجية" والأسس في اللغة جمع مفردها "الأساس"[١] والأساس أصل البناء وأصل شيء[٢].

أما المنهجية: فهي مصدر صناعي من فعل "نهج" والنهج السبيل والطريق المستقيم والمنهاج والمنهج بمعنى واحد، وهو الطريق الواضح، ويقال أنهج الطريق أي استبان وصار شيئا واضحا بينا، ونهجت الطريق إذا أبنته وأوضحته، ونهجت الطريق أيضا إذا سلكته وفلان يستنهج سبيل فلان أي يسلك مسلكه[٣].

والمنهج في المعنى الاصطلاحي يعني "الطريق المؤدي إلى التعرف على الحقيقة في العلوم؛ بواسطة طائفة من القواعد العامة؛ والتي تهيمن على سير العقل، وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة[٤] وبعبارة أخرى يعني المنهج الطرق والخطوات العملية التي يتبعها الباحث في الوصول إلى معرفة شيء ما. وكان علماء المسلمين يعبرون عن المنهج بالأصول والقواعد، ولذلك وضعوا أصولا وضوابط للبحث في مختلف العلوم مثل أصول الحديث "المصطلح" وأصول التفسير وأصول الفقه[٥]

وأعني بالأسس المنهجية في دراسة الملل هنا القواعد والضوابط التي ينبغي مراعاتها في دراسة الملل، وهذه القواعد والضوابط بعضها يرجع إلى مصادر الاستدلال في دراسة

---

(١) انظر: المصباح المنير ١/ ٢٠

(٢) انظر: لسان العرب ٦/٦، القاموس المحيط ص ٦٨٢

(٣) انظر: لسان العرب ٢/ ٣٨٣.

(٤) انظر: العلم والبحث العلمي - دراسة في مناهج العلوم - لحسين عبد الحميد رشوان ص ١٤٣ - ١٤٥ ومنهج البحث العلمي عند العرب، د. جلال محمد موسى: ٢٧٣.

(٥) منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص ٨٩

الأديان وكيفية الاستدلال "منهج الاستدلال" وبعضها يرجع إلى المشتغل بعلم الملل .

أهـــل السنة: مصـطلح "أهل السنة" مركب من "أهل" و "السنة" وكلمة "أهل" يكون معناها علـى حسـب مـا يضـاف إلـيها" ومعناها هنا المستحقون للقب السنة "كقوله تعالى ﴿ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾[1][2] والمتصفون بها كما يقال أهل العلم: أي المتصفون به[3] ولكن ماالمراد بالسنة ومن هم هؤلاء الذين يصح أن يطلق عليهم هذا اللقب؟ السنة في اللغة: الطريقة والسيرة[4] حميدة كانت أوذميمة[5] .

السنة في الاصطلاح: يختلف تعريف السنة في الاصطلاح باختلاف المعرفين لها تبعا لاختلاف العلوم ، والذي يهمنا هنا هو تعريفها في مجال العقائد وتقرير المذاهب العقدية والسنة في هذا المجال يراد بها طريقة النبي ﷺ التي كان عليها هو وأصحابه السالمة من الشبهات والشهوات[6] .

وإطلاق مصلح أهل السنة في هذا البحث هو الإطلاق الخاص الذي يكون في مقابل أهل الأهواء ، وهناك مصطلحات أخرى مرادفة لهذا المصطلح في المعنى . كالسلف ، وأهل الحديث ، وما يرد في صلب هذا البحث من هذه الألقاب فهو كلقب أهل السنة عندي .

المطلب الأول: مصادر الاستدلال على دراسة الملل عند أهل السنة:

توطئة:

إن الاختلاف في المصادر يؤدي إلى اختلاف في المناهج والنتائج فربما يبحث شخصان موضوعا واحدا مع اختلاف مصادرهما فيكون ذلك سببا لاختلافهما ، في النتائج ، من هنا كان تحديد المصادر ، من الأمور الضرورية وإذا كانت المصادر تختلف حسب طبيعة موضوع البحث فإن أهل السنة اتفقوا على أن المصادر التي تستند على قضايا أصول

---

(١) سورة المدثر الآية: ٥٦ .
(٢) انظر: لسان العرب ١١/ ٢٩ .
(٣) انظر: المصباح المنير ١/ ٣٩ .
(٤) انظر: لسان العرب ١٣/ ٢٢٥
(٥) المصباح المنير ١/ ٣٧٩ - ٣٩٧ .
(٦) موقف ابن تيمية من الأشاعرة ، د . عبد الرحمن بن صالح المحمود ١/ ٢٥ .

الديـن هـي الـنقل والعقـل وبهمـا استندوا على دراسات الملل ، ولاشك أن تحرير صحة المصادر وصدق قضاياها أمر مهم لاسيما - في مجال دراسات الأديان ؛ إذ تسقط حجة أي طـرف مـن الأطـراف ألـتي تمـثل الأديـان بصـحة طعن الطرف الآخر على مصدره الذي اسـتمد مـنه ، ديـنه من هنا كان أول ما اهتم به أهل السنة والجماعة تحديد مصادر المعرفة الدينية ، وقد جاء مصادرهم في أمور الدين كالآتي:

أولا: القرآن الكريم:

القـرآن الكـريم عـند أهـل السـنة والجماعـة هو المصدر الأول لمعرفة الحق والباطل ، والخـير والشـر ، وهـو الفيصـل في كلّ ما يحدث بين العباد ، وهو "عمدة الشريعة الجامعة لأصـول العـلم والديـن ، وهو حجة الله بين عباده علم ذلك من علم وجهله من جهله ، وقـد أمـر بالاعتصـام بـه في غـير موضع من كتابه وعلى لسان رسوله[١] ومن ذلك قولـه تعالى: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾[٣]

وقـال الـنبي ﷺ: **«ألا وإني تارك فيكم ثقلين أحدهما كتاب الله - عز وجل - هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى من تركه كان على ضلالة»**[٤] .

لــهذا فقـد استمد علماء السلف أحكامهم على الأديان الأخرى من القرآن الكريم فالقـرآن إلى جانـب كونـه خـبرا عـن المعصوم فقد امتاز عند علماء السلف بميزات عديدة منها:

١ - الصدق والإنصاف: فهو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

٢ - الشمول: إذ تضمن حديثه عن الملل والعقائد والكتب والأنبياء والشرائع .

٣ - الدلالـة العقلـية المتضـمنة فـيه ، والـتي بهـا يعـرف العـدل والقياس الصحيح ،

---

(١) انظر: تكـامل المنهج المعرفي عند ابن تيمية ، لإبراهيم عقيلي ص ٢٢٥ المعهد العالمي للفكر الإسلامي ط الأولى ١٤١٥ هـ ١٩٩٤م .

(٢) سورة الأنعام الآية: ١٥٥ .

(٣) سورة آل عمران الآية: ٣٢ .

(٤) أخرجه مسلم ، الحديث رقم ٣٧ ، انظر: شرح النووي ١٥/ ١٩٠ .

ويستدل بها على المطالب الدينية .

٤ - أنه دليل جزئي معين يدل على جزئي متعين ، والدلالة الجزئي على الجزئي لابد فيه أن يكون عين الدليل يلزم عنه عين المدلول وهذا عين اليقين في كلّ برهان إذ يكون العلم - فيه - بعين الدليل موجب العلم بعين المدلول .(١) .

والقرآن قطعي الثبوت عند جميع المسلمين ؛(٢) لذا ينحصر نظر الباحث فيه في أمر واحد وهو تحقيق دلالته متى كانت الدلالة غير قطعية(٣) لكن في مجال دراسة الملل ومواجهة الخصوم قد يحتاج إلى بيان كيفية ثبوته وهذا ما فعله ابن حزم في مقارناته بين كيفية التي تم نقل القرآن وكيفية التي نقلت كتب أهل الكتاب . يقول ابن حزم: «ونحن - إن شاء الله تعالى - نذكر صفة وجوه النقل الذي عند المسلمين لكتابهم ودينهم ، ثم لما نقلوه عن أئمتهم حتى يقف عليه المؤمن والكافر ، والعالم والجاهل ، عيانا إن شاء الله تعالى فيعرفون أين نقل سائر الأديان من نقلهم»(٤) .

والمقصود هنا أن القرآن الكريم يأتي على رأس المصادر التي يستقي منها أهل السنة والجماعة أمور دينهم ويميزون على ضوئها العقائد الصحيحة من العقائد الباطلة .

ثانيا: السنة النبوية:

والسنة هي كلّ ما صدر عن النبي ﷺ من قول ، وفعل ، و تقرير ، وهي بهذا المعنى العام تطلق على الواجب وغيره وهذا هو الذي عليه أهل اللغة والحديث وأما عند الفقهاء فيطلقون لفظ السنة على ما ليس بواجب(٥) .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " السنة هي ما سنه الرسول وما شرعه ، فقد يراد به ما

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل ، لابن تيمية ١/ ٢٧ - ٢٩ ، الرد على المنطقيين ، لابن تيمية ص ٣٨٢ ، نظرية المنطق د . محمد السيد الجليند ص ١٩٢ - ١٩٧ ، منهج أهل السنة والجماعة في الرد على النصارى ص ١٠٧ - ١٠٨

(٢) أثارت الرافضة بعض الشبهات حول تواتر القرآن وسلامته من التحريف ، ولكن كلها شبهات داحضة لا تستند إلى دليل صحيح . انظر: البرهان في علوم القرآن ، لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ١ / ٢٤١ ، منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد د . عثمان علي حسن ١/ ٦٦ - ٧١ .

(٣) انظر: ضوابط للدراسات الفقهية ، لسلمان فهد العودة ص ١١٩ .

(٤) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل ، لابن حزم ٢/ ٢١٩ .

(٥) انظر: إرشاد الفحول ، للشيخ محمد بن علي الشوكاني ، تحقيق أحمد عبد السلام ص ٥٣ .

سنه وشرعه من العقائد، وقد يراد به ما سنه وشرعه من العمل، وقد يراد به كلاهما. فلفظ

السنة يقع على معان كلفظ الشرعة، ولهذا قال ابن عباس وغيره في قوله تعالى: ﴿ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[(١)] سنة وسبيلا، ففسروا الشرعة بالسنة والمنهاج بالسبيل، واسم السنة والشرعة قد يكون في العقائد والأقوال وقد يكون في المقاصد والأفعال[(٢)].

وبناء على هذا فإن السنة تشتمل على أصول الدين وهي وحي كالقرآن قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾[(٣)] وهي كالقرآن في الحجية وإن كانت متأخرة عنه من حيث الرتبة؛ لكونها وحيا بالمعنى فقط، قال النبي ﷺ «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه...»[(٤)].

من هنا اعتبر المسلمون السنة المصدر الثاني للمعرفة الدينية وأهل السنة والجماعة لا يفرقون بين الآحاد والمتواتر، ولا في مجالات الاحتجاج، وإنما العبرة صحة ثبوتها، والتأكد من دلالتها، وبناء على هذا اعتمدوا عليها في مجال دراسة الملل.

ثالثا: الإجماع: الإجماع لغة يأتي لمعنيين:

أ - العزم المؤكد والتصميم كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ﴾[(٥)] أي اعزموا وصمموا على كيدكم.

ب - الاتفاق: يقال: أجمع القوم على كذا، أي صاروا ذوي جمع[(٦)].

وأما في الاصطلاح: فقد اختلف الأصوليون على تعريفه على أقوال عدة، منها:

- أن الإجماع معناه: أن تجتمع علماء المسلمين على حكم من الأحكام[(٧)].

---

(١) سورة المائدة الآية: ٤٨.

(٢) الفتاوى ١٩/ ٣٠٧.

(٣) سورة النجم الآية: ٣ - ٤.

(٤) أخرجه أبو داود، الحديث رقم ٤٥٩١، انظر: عون المعبود. ١٢/ ٢٣١.

(٥) سورة يونس الآية: ٧١.

(٦) انظر: إرشاد الفحول ص ١٠٩.

(٧) الفتاوى ٢٠/ ١٠.

- إن الإجماع هو اتفاق مجتهدي أمة محمد ﷺ بعد وفاته في عصر من الأعصار على أمر من الأمور[١].

- إن الإجماع عبارة عن اتفاق أهل الحل والعقد من أمة محمد، في عصر من الأعصار على حكم واقعة من الوقائع[٢].

حجية الإجماع: الإجماع حجة بدلالة القرآن، والسنة، والعقل، فمن القرآن قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾[٣]. ووجه الدلالة أن متبع غير سبيل المؤمنين مستحق للوعيد، كما أن من شاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى مستحق للوعيد[٤]، فدل ذلك أن مخالفة سبيل المؤمنين غير جائزة، كما أن مشاقة الرسول لا تجوز.

ومن السنة قوله ﷺ: «**إن الله لا يجمع أمتي أو قال أمة محمد ﷺ على ضلالة، ويد الله مع الجماعة، ومن شذ شذ في النار**»[٥]، وجه الدلالة من الحديث أن عمومه أفاد بنفي وجود الضلالة، والخطأ ضلالة فلا يجوز الإجماع عليه؛ فيكون ما أجمعوا عليه حقا فوجب اتباعه[٦].

أما دلالة العقل: إن المعلوم من الدين بالضرورة أن رسالة محمد ﷺ خاتمة الرسالات السماوية، وأن شريعته دائمة إلى قيام الساعة، والمعلوم وقوع حوادث ليس فيها نص قاطع من كتاب، أو سنة، وأجمعت الأمة على حكمها، فلو قلنا: إن إجماعهم ليس بحجة، وإن الحق قد خرج عنهم، أو إنهم أجمعوا على الخطأ للزم أن تكون شريعته غير دائمة؛ فيؤدي ذلك إلى الخلف في أخبار الشارع، أو أن يكون إجماعهم حجة مثبتا للحق لئلا يؤدي إلى المحال، وهو انقطاع الشريعة، وعدم بقائها واستمرارها[٧]. من هنا اعتبر

---

(١) إرشاد الفحول ص ١٠٩.

(٢) الإحكام في أصول الأحكام، لسيف الدين أبي الحسن علي بن علي بن محمد الآمدي تحقيق إبراهيم العجوز ١/١٦٨.

(٣) سورة النساء الآية: ١١٥.

(٤) انظر: الفتاوى ١٩/١٧٨ - ١٧٩.

(٥) أخرجه الترمذي، الحديث رقم: ٢٢٥٥، وقال هذا حديث غريب من هذا الوجه، انظر: تحفة الأحوذي ٦/ ٣٢٢، مشكاة المصابيح، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، الحديث رقم ٢٤، وصححه الألباني انظر هامش ١/ ٦١.

(٦) انظر: شرح الورقات في أصول الفقه، عبد الله بن صالح الفوزان، ص ١٣٨.

(٧) انظر: كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي علاء الدين عبد العزيز أحمد البخاري ٣/ ٢٦٠.

المسلمون الإجماع المصدر الثالث من المصادر التي تعتمد عليها في أمور الدين .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «والإجماع هو الأصل الثالث الذي يعتمد عليه في العلم والدين»(١) ، ولم يعبأ قول من قال: «بإحالة إمكان الإجماع»(٢) أو عدم حجته مع تسليم إمكانه(٣) ، والإجماع قطعي إذا اتفق عليه المعتبرون ، وظني فيما اختلفوا فيه ، كالإجماع السكوتي وما ندر مخالفه(٤) ، واختلف في حكم من خالف الإجماع لكونه ينكر أن يكون الإجماع دليلا ، فقال بعض العلماء: إنه أبطل دينه ؛ لأن مدار أصول الدين كلها مرجعها إلى إجماع المسلمين(٥) .

والصحيح أنه لا يكفر(٦) . وإنما يبدع أو يفسق(٧) . وكذلك اختلف في حكم من خالف حكم ما ثبت بالإجماع فقيل:

إن كان ما انعقد عليه الإجماع في حكم أمر معلوم من الدين بالضرورة ، كوجوب اعتقاد التوحيد ، والرسالة . . فهذا منكره كافر ، أما إذا كان ما أنكره حكما ثبت بالإجماع الظني كالإجماع السكوتي ، أو ما ندر فيه مخالفه ؛ فإن منكر ذلك يفسق أو يبدع(٨) .

وأهل السنة والجماعة لا يفرقون في حجية الإجماع بين الأمور الاعتقادية ، وبين غيرها ، خلافا لما ذهب إليه بعض المتكلمين بمنع الإجماع في أمور العقائد ، زاعمين أن مسائل الاعتقاد يثبت العلم بها عن طريق العقل ، وما يثبت بالعقل لا يحتاج إلى دليل آخر ، وهذا من فرط جهلهم ، واعتدادهم بالعقل ، والحق أن الإجماع يدخل في أبواب الاعتقاد ، ويكون ذلك «من باب تضافر الأدلة ، وتعاضدها . . . كما أن الإجماع يدفع احتمال الخطأ الذي قد يتطرق للظنيات ؛ فيرتفع - بفضل الإجماع - إلى مقام

---

(١) الفتاوى ٣/ ١٥٤ .

(٢) انظر: إرشاد الفحول ص ١١٠ .

(٣) المصدر السابق ص ١١٢

(٤) انظر: المصدر السابق ص ١١٧ - ١١٨ .

(٥) انظر: كشف الأسرار ٣/ ٢٦٦ .

(٦) انظر: البرهان في أصول الفقه لإمام الحرمين الجويني تحقيق د . عبد العظيم الديب ١/ ٧٢٤ .

(٧) منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد ١/ ١٥٠ .

(٨) انظر: الفتاوى ٧/ ٣٩ ، ٩/ ٢٧٠ ، الإحكام في أصول الأحكام ١/ ٢٣٩ ، منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد ١/ ١٥٠ .

القطعيات»[١] .

والمقصود هنا هو بيان أن الإجماع مصدر من مصادر المعرفة الدينية عند أهل السنة والجماعة ، وأنه يستند في جميع أبواب الدين ، ويدخل ذلك الأحكام الشرعية التي تتعلق بأهل الملل الأخرى ، فينبغي على كلّ من يشتغل بدراسة الأديان أن يعرف مواطن الإجماع في أحكام أهل الملل . وقد كان العلامة شيخ الإسلام ابن تيمية من أعلم الناس في هذا ؛ لذا كثيرا ما تجده يقول: وهذا ما أجمع عليه المسلمون[٢] ، بل ويتعدى علمه إلى مواطن اتفاق أهل الملل[٣] .

رابعا: العقل:

من القضايا التي شغلت أذهان الباحثين قديما وحديثا ، قضية العقل ، واختلف فيها اختلافا شديدا من حيث تحديد ماهيته ، ومدى قدرته على تحصيل المعرفة . ولا يمكن أن نستعرض هنا تعريفات هذه الكلمة اللغوية والاصطلاحية ، وما بينهما من علاقة . والذي يهمنا هو تحديد مفهوم العقل الذي يمكن أن يطلق عليه مصدرا من مصادر المعرفة ، وتحديد هذا المفهوم مهم في هذا البحث لأمرين:

الأمر الأول: أن المخالفين لأهل السنة يتهمون بهم بتعطيل العقل ، ورفض أحكامه .

الأمر الثاني: أن الأدلة العقلية ، والاحتجاج بها في مجال دراسة الملل أمر مهم ، إذ أن المخالفين لا يسلمون للمسلم الأدلة الشرعية ؛ فتكون الحاجة إلى الأدلة العقلية هنا أشد من غيرها .

مفهوم العقل عند أهل السنة والجماعة: يقول شيخ الإسلام ابن تيمية مبينا مفهوم العقل عند أهل السنة: «العقل شرط في معرفة العلوم ، وكمال صلاح الأعمال ، وبه يكمل العلم والعمل ، لكنه ليس مستقلا بذلك ، لكنه غريزة في النفس ، وقوة فيها بمنزلة قوة البصر ، التي في العين ، فإن اتصل به نور الإيمان ، والقرآن كان كنور العين إذا اتصل

---

(١) انظر: منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد ١/ ١٥١ - ١٥٤ .

(٢) انظر: الجواب الصحيح ١/ ٣٦١ .

(٣) المصدر السابق ٢/ ٤٤٠ .

به نور الشمس والنار ، وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عند دركها ، وإن عزل بالكلية كانت الأقوال ، والأفعال مع عدمه أمورا حيوانية ، قد يكون فيها محبة ، ووجد ، وذوق ، كما يحصل للبهيمة ، فالأحوال الحاصلة مع العقل ناقصة ، والأحوال المخالفة للعقل باطلة . . .»[١] .

فالعقل إذاً عند أهل السنة عبارة عن غريزة فطرية في الإنسان ، يستطيع بها أن يميز بين الحق والباطل ، في المعتقدات ، والصواب والخطأ في الأقوال والأفعال[٢] ، لكن دون استقلال عن الوحي ، وهذا التحديد لمفهوم العقل يدل على أن السلف اهتموا بالعقل إدراكا منهم بمكانته العظيمة .

مفهوم العقل عند الفلاسفة وموقف أهل السنة منه: يرى الفلاسفة أن العقل جوهر قائم بنفسه مجرد عن المادة ، يتعلق بالبدن تعلق التدبير ، والتصرف ، وهذا التعريف يقوم عندهم على أساس مذهب الفلاسفة في التفرقة بين الماهية والوجود ، وهو تفريق باطل ، حيث أن ماهية الشيء عين وجوده . فليس في الخارج الحسي شيء يسمى ماهية الشيء ، وآخر يسمى عين الشيء ووجوده منفصلا أحدهما عن اللآخر ، فهذه التفرقة إن صحت ذهنا وعقلا ، فلن تصح واقعا ووجودا[٣] وقد رفض أهل السنة هذا المفهوم الفلسفي للعقل ، وبينوا بطلانه .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «ما يثبته المتفلسفة من العقل باطل عند المسلمين ، بل هو من أعظم الكفر فإن العقل الأول عندهم مبدع ، كلّ ما سوى الله والعقل العاشر مبدع ماتحت فلك القمر وهذا من أعظم الكفر عند المسلمين واليهود

والنصارى»[٤] وذكر أن «العقل في لغة المسلمين . . مصدر عقل يعقل عقلا ، وهو صفة تقوم

بالعاقل ، فسماه من باب الأعراض ، لا الجواهر القائمة بأنفسها ، ولم يرد في كلام الله

---

(١) الفتاوى ٣/ ٣٣٨ - ٣٣٩ .
(٢) انظر: منهج السلف بين العقل والتقليد د . محمد السيد الجليند ص ٢٩ .
(٣) انظر: التعريفات للجرجاني ص ١٥١ - ١٥٢ ، منهج السلف بين العقل والتقليد ص ٢٧ - ٢٨ .
(٤) انظر: الرد على المنطقيين لابن تيمية ، ص ١٩٦ .

ورسوله إلاّ بـهذا المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[١][٢]. فأهل السنة لا يرفضون العقل مطلقا، ولا يردون أحكامه، وإنما يردون هذا المفهوم الباطل الذي أتى به الفلاسفة، وهذا ما استغله المخالفون لأهل السنة؛ فأشاعوا أنهم أعداء للعقل، ورافضون لأحكامه، ولم يستطع هؤلاء المخالفون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث، فيفرقوا بين العقل الذي يرفضه أهل السنة، والذي يقبلونه.

حدود المعرفة العقلية ومجالاتها: إن عدم تحديد المجال الذي يرتاده العقل، ويبحث فيه، لهو أكبر خطأ منهجي يرتكبه الباحث في اعتماده على هذا المصدر المعرفي، وتحديد المجال الذي ينبغي أن يعمل فيه العقل متوقف على النظر في حدود طاقته، وإمكاناته، حتى لا يخوض في بحث يخرج عن حدود طاقته. فالعقل في الإنسان له حدود لا يتجاوزها؛ لذلك فإنما يحكم في القضايا التي يتصورها تصورا كاملا، إذ الحكم على الشيء فرع عن تصوره، وأما القضايا التي لا يتصورها ألبتة، أو كان تصوره لها ناقصا؛ فلا يجوز له الحكم عليها، لا بالنفي، ولا بالإيجاب[٣]؛ لهذا فقد ذكر العلماء أن العلوم تنقسم من حيث إدراك العقل لها إلى ثلاثة أقسام:

الأول: العلوم الضرورية التي لا يمكن التشكيك فيها، كعلم الإنسان بوجوده، وعلمه أن الاثنين أكثر من الواحد، وأن الضدين لا يجتمعان.

الثاني: قسم لا يعلمه العقل ألبتة، إلاّ أن يعلم به، أو يجعل له طريق إلى العلم به، وذلك كعلم المغيبات عنه، سواء كانت من قبيل ما يعتاده علم العبد: كعلمه بما تحت رجليه، وعلمه بالبلد القاصي عنه، الذي لم يتقدم له به عهد، أولا: كعلمه بما في اليوم الآخر، من بعث، وحساب، وجزاء، وتفاصيل ذلك، فهذا لا يعلم إلاّ عن طريق الخبر.

الثالث: العلوم النظرية وهي التي يمكن العلم بها وتكسب بالنظر والاستدلال، وهذا النظر لا بد من تحصيله من علم ضروري يستند إليه حتى يعرف وجه الصواب فيه، وهذا

---

(١) سورة البقرة الآية: ٧٣.

(٢) الفتاوى ٩/٣٨٦. وانظر: تكامل المنهج المعرفي عند ابن تيمية ص ٢٩٦.

(٣) انظر: تكامل المنهج المعرفي عند ابن تيمية ص ٣٠٣.

القسم تدخل فيه كثير من العلوم كالطبيعيات، والرياضيات، والطب، والصناعات، وهو نوعان:

نوع يتمخض العمل فيه للعقل، وهذا عادة يكون في العلوم المفضولة - كما تقدم - والآخر يكون بالنظر في أدلة الشرع وبدل الوسع لإقامة العبودية[1].

وبناء على هذا التقسيم فقد جادل علماء المسلمين أصحاب الملل على ضوء معطيات العلوم الضرورية وحاكموهم إليها، لأنها قوانين فطرية لاينكرها إلامكابر أو جاهل لايتصور ما يقول، فكانوا يطالبونهم بالجمع بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين، وإلحاق الشيء بنظيره، والفرع بأصله، والاستدلال بالأثر على المؤثر، ويذكرونه بتحكيم العقل، والبعد عن الهوى، والتعصب إلى ما ليس له دليل نقلي ولا عقلي، فيلجأونهم إلى موقف حرج مع أنفسهم، حتى يظهر لهم التناقض والتنافر بين ما يعتقدونه من عقائد وبين القوانين العقلية التي يستوي فيها كلّ الناس فلايبقى أمامهم إلى الكفر بعقائدهم، وموافقة الأحكام العقلية، ومن ثم الدخول في دين الله تعالى، دين الفطرة أو البقاء على ماهم عليه، مع شهادتهم على أنفسهم بالتناقض والاضطراب[2]. وفي هذا المجال جعل علماء أهل السنة العقل أحد دعائمهم في دراسة الأديان فهذا ابن تيمية يقول موضحا أسس منهجه في الرد على النصارى: «ونبين - إنشاء الله تعالى - أن ما عليه النصارى من التثليث والاتحاد لم يدل عليه شيء من كتب الله، لا الإنجيل ولا غيره، بل دلت على نقيض ذلك، ولا دل على ذلك عقل، بل العقل الصريح مع نصوص الأنبياء يدل على نقيض ذلك»[3] فبين أن المصادر التي يتحاكم إليها الوحي والعقل الصريح، وكذلك نجد ابن حزم أكثر الناس احتجاجا بالمعقولات الصريحة فيسميها بالبراهين الجامعة الموصلة إلى معرفة الحق"[4] أو "مقدمات الصحاح"[5] ويرى أن ما شهدت له مقدمة من هذه

---

(١) انظر: الإعتصام للشاطبي ٢/٣١٨، ٣١٩، منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد ١/ ١٧٦ - ١٧٧،

(٢) انظر: منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد ١/ ١٧٧، بتصرف

(٣) انظر: الجواب الصحيح ١/ ٢٣.

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل ١/ ٣٨.

(٥) المصدر السابق ١/ ٤١.

المقدمات بالصحة فهو الصحيح متيقن ، ومالم تشهد لـه بالصحة فهو باطل ساقط[١] .

فـالعقل في هذه المجال مصدر من مصادر الاستدلال . أما العلوم التي لايدركها العقل كتفاصيل الاعتقاد فإن العقل لايعلمها إلاّ عن طريق الوحي ، وهو تبع للنقل ، فالعقل لـه حـدود معيـنة لايـتعداها ، وهـو مصـدر غير مستقل في هذه الحدود حيث يحتاج إلى تأييد الشرع وترشيده ، وتنبيهه وإكمال مايخشى من نقص ، فإذا انقاد العقل للشرع وامتثل هداه واستضاء بنوره فقد أمن ما يخشى من قصوره[٢] .

كتـــب أهل الملل ليست مصدرا من مصادر المعرفة الدينية: كـلّ أمة من الأمم لها كتـب تستمد منها تعالمها ومبادئها الدينية والفكرية وتحترمها وتدافع عنها ، فأهل الكتاب لهـم مايسـمى بالكتـب المقدسـة - الـتوراة والإنجـيل - ومـا يلحقونها من كتب ومصادر مقدسـة عـندهم ، وكذلـك للأمم الأخرى كتب يتلقون منها عقائدهم ، والسؤال هنا ، ما موقـف المسـلم اتجـاه تلـك الكتـب عـند ما يتعرض لدراستها ونقدها وهل يمكن أن يعد مصـدرا مـن مصادره في تقرير الأحكام الدينية في مجال دراسة الأديان؟ والجواب عن هذا السؤال: أن الكتب تنقسم إلى قسمين:

الأول: كتب لها أصل سماوي ، ككتب اليهود والنصارى .

الثاني: كتب ليس لها أصل سماوي .

فالأخيرة باطلة من أساسها جملة وتفصيلا ؛ لأنـها لم تستند إلى دين إلهي[٣] .

أمـا الكتـب ذات الأصل السماوي فقد مر بنا تفصيل ذلك[٤] والضابط الذي وضع لمـا يؤخـذ عـنها وقـد التزم علماء السلف على هذا الضابط فهذا ابن حزم يقول: "ما نزل القـرآن والسـنة عـن الـنبي ﷺ بتصديقه ، صدقنا به ، وما نزل النص بتكذيبه ، أوظهركذبه كذبـنا بـه ، ومـا لم يـنزل نـص بتصـديقه ، أو تكذيـبه ، وأمكن أن يكون حقا ، أو كذبا لم

(١) الفصل ١/ ٤١ - ٤٢ .

(٢) انظر: القائد إلى تصحيح العقائد لشيخ عبد الرحمن بن يحيي المعلمي اليماني ص ٣٩ .

(٣) انظر: الثقافة والعالم الآخر ، ص ٨٢ .

(٤) الباب الأول ، الفصل الثاني ، ص ١١٠ .

نصدقهم ولم نكذبهم»[١] .

ويقول ابن تيمية: «وما أخبرونا به عن الأنبياء ، إن علمنا صدقهم فيه ، صدقناهم فيه ، وإن علمنا كذبهم فيه ، كذبناهم فيه ، وإن لم نعلم صدقه ولا كذبه ، لم نصدقه ولم نكذبه ، بل نقول: ﴿ آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾[٢][٣] . وبهذا يتبين لنا أن كتب أهل الكتاب ليست بمصادر يمكن الاعتماد عليها في أمور الدين ، كما نعرف من هذا خطأ الذين يعتمدون على تلك الكتب دون الرجوع إلى المصادر الشرعية بدعوى أن الموضوعية تقضي ذلك في مجال دراسة الأديان ، وهو خطأ وقع عليه كثير من المعاصرين في مجال "علم مقارنة الأديان" مقلدين بمنهج الغربيين في هذا .

المطلب الثاني: منهج الاستدلال على دراسة الملل عند أهل السنة وقواعده:

توطئة:

بعد بيان مصادر المعرفة الدينية عند أهل السنة والجماعة ، يحسن هنا بيان منهجهم في الاستدلال ، وكيفية إعمال الأدلة ، وترتيبها[٤] . ومعرفة هذا المنهج مهم ، إذ أن كلّ من ينتسب إلى الإسلام يدعي أنه يستمد أحكامه من الكتاب والسنة ، ويعتمد عليهما ، والاختلاف في منهج الاستدلال هو الفيصل بين منهج أهل السنة في التعامل مع الأدلة ، وبين مناهج المخالفين ، فلأهل السنة قواعد منهجية تميز منهجهم في الاستدلال وتضبطه ، والتزامهم بهذه القواعد جنبهم من الاضطراب في المنهج ، والحيرة الفكرية التي لازمت الفرق الأخرى ، وسألخص هنا أهم هذه القواعد مع بيان التزام علماء أهل السنة بها في

---

(١) الفصل في الملل والأهواء ١/ ٣١٩ .

(٢) سورة العنكبوت الآية: ٤٦ .

(٣) الجواب الصحيح ٢/ ٤٩ .

(٤) ذكر كثير من العلماء والباحثين هذه القواعد كالدكتور/ عثمان علي حسن في كتابه "منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد" ١/ ٢١٩ ، والدكتور/ عبد الرحمن المحمود في كتابه "موقف ابن تيمية من الأشاعرة" ١/ ٢١٧ ، وقد مثله بمنهج ابن تيمية ، والدكتور/ سليمان الغصن في كتابه "موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة" ١/ ٦١ ، دار العاصمة . والدكتور/ إبراهيم البريكان في كتابه "القواعد الكلية للأسماء والصفات" ص ١٢٩ - ١٣٠ ، وهو كما يدل عنوانه عليه خاص بالأسماء والصفات . وكذلك ذكرها شيخي الدكتور/ ناصر العقل في سلسلة رسائله "رسائل ودراسات في الأهواء والافتراق والبدع ، وموقف السلف منها" .

مجال دراسة الأديان:

١ - الإيمان بجميع نصوص الكتاب والسنة والتسليم لها:

الواجب على كلّ مؤمن الإيمان بجميع ما ورد في الكتاب والسنة الصحيحة، دون تفريق بين النصوص، ولا تردد، ولا معارضة برأي، أو اجتهاد؛ لأن الله ذم الذين يؤمنون ببعض النصوص دون بعض. فقال تعالى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴾[1]. وقد التزم أهل السنة والجماعة على هذه القاعدة امتثالا لأمر الله، واحترازا من هذا الوعيد الذي وجه إلى من آمن ببعض الكتاب وكفر ببعضه، وقد تضافرت أقوال السلف على هذه القاعدة. قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فما جاء في الكتاب والسنة وجب على كلّ مؤمن الإيمان به وإن لم يفهم معناه»[2]، والمراد بالإيمان هنا: الإيمان المجمل، أما الإيمان الكامل لجميع أجزاء المعنى فهو من فروض الكفاية، يختلف باختلاف القدر والملكات[3]. وقال ابن أبي العز: «فالواجب كمال التسليم للرسول ﷺ والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول، والتصديق، دون أن نعارضه بخيال باطل نسميه معقولا، أو نحمله شبهة، أو شكا، أو نقدم عليه آراء الرجال، وزبالة أذهانهم، فنوحده بالتحكيم والتسليم، والانقياد والإذعان»[4].

وقد خالف أهل السنة في هذه القاعدة فريقان:

الأول: أهل الأهواء الذين ردوا النصوص إلاّ ما وافقت أهواءهم.

الثاني: أهل الكتاب، الذين اعترضوا الأنبياء بآرائهم الفاسدة، حتى قال بعضهم كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾[5] وبقوله: ﴿ كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾[6].

---

(١) سورة البقرة الآية: ٨٥.
(٢) الفتاوى ٣/ ٤١.
(٣) انظر: القواعد الكلية في الأسماء والصفات د. إبراهيم بن محمد البريكان، ص ١٢٩ - ١٣٠.
(٤) شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي تحقيق د. التركي و الأرناؤوط ١/ ٢٢٨.
(٥) سورة البقرة الآية: ٥٥.
(٦) سورة المائدة الآية: ٧٠

إن عدم الإيمان بجميع ما جاء به الأنبياء لهم هو السبب في تناقضهم، وتكذيبهم لبعض الأنبياء دون بعض، وقد أدرك علماء السلف أهمية هذه القاعدة وقيمتها بالنسبة للمسلمين في مواجهة مخالفيهم من أهل الكتاب؛ فكان من صور الرد عليهم أن طالبوا من أهل الكتاب أمرين:

الأول: الالتزام بجميع ما أنزل إليهم، ومما أنزل إليهم التبشير بالنبي محمد ﷺ والإيمان به، قال تعالى: ﴿ **وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ** ﴾[1]. قال ابن حزم موضحا المراد من الآية: «... إن الله تعالى أنزل فيه الإيمان بمحمد ﷺ واتباع دينه، ولا يكونون أبدا حاكمين بما أنزل الله تعالى فيه إلاّ باتباعهم دين محمد ﷺ، فإنما أمرهم الله تعالى بالحكم بما أنزل في الإنجيل الذي ينتمون إليه، فهم أهله، ولم يأمرهم قط تعالى بما يسمى إنجيلا، وليس بإنجيل، ولا أنزل الله تعالى كما هو قط... فالآية موافقة لقولنا، وليس فيها أن الإنجيل لم يبدل، لا بنص ولا بدليل، إنما فيها إلزام النصارى الذين يتسمون بأهل الإنجيل: "أن يحكموا بما أنزل الله فيه" وهم على خلاف ذلك»[2].

وبهذا الطريق يثبت المسلمون على أن أهل الكتاب ليسوا على شيء من دينهم، بخلاف المسلمين الذين آمنوا بكل ما أنزل الله إليهم، قال تعالى: ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا** ﴾[3].

الثاني: رفض علماء المسلمين احتجاج أهل الكتاب على صحة دينهم بشيء من القرآن، وطالبوا منهم إما أن يحتجوا بكله، أو لا يحتجوا بشيء منه. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض رفضه احتجاج النصارى على صحة دينهم بشيء من القرآن: «إن احتجاجهم بكلمة واحدة مما جاء به محمد ﷺ لا يصح بوجه من الوجوه، فإنه إن كان رسولا صادقا في كلّ ما يخبر به عن الله عز وجل، فقد علم كلّ واحد أنه جاء بما يخالف دين النصارى، فيلزم إذا كان رسولا صادقا أن يكون دين النصارى باطلا، وإن قالوا في

---

(١) سورة المائدة الآية: ٤٧ .

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل ١/٣١٧ .

(٣) سورة البقرة الآية: ٢٨٥ .

كـلمة واحدة مما جاء به أنها باطلة، لزم أن يكون عندهم رسولا صادقا مبلغا عن الله... وإن كـانوا مكذبين لـه في قولـه: إنه رسول الله وأنه بلغ هذا القرآن عن الله، فإنه من كان كاذبا في قولـه: إنـه رسول الله لم يكن من الأنبياء، والمرسلين، ومن لم يكن منهم لم يكن قولـه حجة ألبتة»[1].

٢ - اشتمال الكتاب والسنة على أصول الدين:

يؤمـن أهـل السـنة والجماعة أن الكتاب والسنة وافيان لأمور الدين أصولا وفروعا، قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[2] وقال تعـالى: ﴿ مَـا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَـوْمٍ يُؤْمِـنُونَ ﴾[3] وقال تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾[4]. وقال ﷺ: «... لقد تركتكم على مثل البيضاء، ليلها ونهارها سواء»[5].

وقـد شهد هذا الكمال والوفاء، بكل شيء، حتى الخصوم من الأمم الأخرى؛ فقد قال أحد اليهود لسلمان الفارسي - رضي الله عنه -: «قد علمكم نبيكم ﷺ كلّ شيء حتى الخراءة، فقال: أجل، لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول»[6]، فـإذا كان النبي ﷺ قد علم الأمـة حـتى الخـراءة فإنـه مـن باب الأولى أن يعلمهم كليات هذا الدين. وهذا ما يعتقده أهـل السـنة اعتقادا جازما، لا تزلزله الشبهات، ولا تزعزعه الفتن وقد تضافرت أقوالهم عـلى هذا: يقول ابن حزم: «كتاب الله عز وجل.. هو جامع علوم الأولين والآخرين.. لم يفـرط فـيه مـن شـيء.. مـن فهمـه كفـاه، وسـنن رسـول الله ﷺ هي بيان الحق ونور الألباب»[7]. ويقول أيضا: «هذا قول الله عز وجل، وما جاء به نبيه ﷺ وفي ذلك الكفاية

---

(١) انظر: الجواب الصحيح ١/ ٣٨ - ٣٩، بتصرف.

(٢) سورة النحل الآية: ٨٩.

(٣) سورة يوسف الآية: ١١١.

(٤) سورة الأنعام الآية: ٣٨.

(٥) أخرجه ابن ماجه في مقدمة سننه، ١/ ٤ الحديث رقم ٥.

(٦) أخرجه الإمام مسلم في كتاب الطهارة في باب الاستطابة ٣/ ١٥٤ - ١٥٥ الحديث رقم ٢٦٢. انظر: شرح النووي ٣/ ١٥٤ - ١٥٥.

(٧) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢/ ٢٣٤، بتصرف.

والغناء عن قول كلّ قائل بعده»[١] . ويقول ابن تيمية: «فكل ما يحتاج الناس إليه في دينهم فقد بينه الله ورسوله بيانا شافيا»[٢] .

وبهذه الروح التي تملأها الثقة بكمال هذا الدين لكمال مصدريه، واشتمالهما على كلّ شيء انطلق علماء السلف في مواجهة أهل الأديان، خلافا لأهل الأهواء الذين ينظرون إلى الدين بعين النقصان.

وقد ظهرت قيمة هذه القاعدة، وفائدتها العظيمة لدى علماء السلف في مجال دراسة الأديان، لا سيما في المقارنة بين الإسلام وبين اليهودية والنصرانية. فهذا شيخ الإسلام ابن تيمية في رده على دعاوى النصارى في تكذيب النبي ﷺ، يرد على دعواهم بكمال الشريعة، وعدم الحاجة إلى رسالة محمد ﷺ، حيث زعموا «أن الشرائع شريعتان: شريعة عدل - وهي شريعة موسى عليه السلام -، وشريعة فضل، وهي الشريعة المنسوبة إلى عيسى - عليه السلام -، وأن ما يأتي بعد هذا الكمال لا يحتاج إليه»[٣] فيرد الشيخ بقوله:

«بل الشرائع ثلاثة: شريعة عدل فقط، وشريعة فضل فقط، وشريعة تجمع العدل والفضل، فتوجب العدل، وتندب إلى الفضل، وهذه أكمل الشرائع الثلاث، وهي شريعة القرآن الذي يجمع فيه بين العدل والفضل، مع أننا لا ننكر أن يكون موسى - عليه السلام - أوجب العدل، وندب إلى الفضل، وكذلك المسيح أيضا أوجب العدل وندب إلى الفضل.

لكن قد يقال: إن ذكر العدل في التوراة أكثر، وذكر الفضل في الإنجيل أكثر، والقرآن جمع بينهما على غاية الكمال»[٤] .

وفي مقارنة أخرى بين الإسلام وبين اليهودية والنصرانية يوضح الشيخ فضل الإسلام عليهما، فيقول: «والكتاب الذي أرسل به أشرف من الكتاب الذي بعث به

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٢٣٧ .
(٢) الفتاوى ١٧/ ٤٤٣ .
(٣) انظر: الجواب الصحيح ٣/ ٢٢٨ .
(٤) انظر: الجواب الصحيح ٣/ ٢٢٩ .

غيره، والشريعة التي جاء بها أكمل من شريعة موسى وعيسى - عليهما السلام - وأمته أكمل في جميع الفضائل من أمة هذا وهذا، ولا يوجد في التوراة والإنجيل علم نافع وعمل صالح إلاّ وهو في القرآن مثله أو أكمل منه، وفي القرآن من العلم النافع والعمل الصالح ما لا يوجد في التوراة والإنجيل»(١).

٣ - أصول الدين واحدة لا نسخ فيها ولا في الأخبار:

النسخ في اللغة يطلق بمعنى الإزالة، وبمعنى نقل الشيء وتحويله من حالة إلى حالة أخرى مع بقائه في نفسه(٢)

واصطلاحا: هو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر(٣). والنسخ وقع في الشرائع السابقة، ووقع في الشريعة الإسلامية، ووقع بها(٤).

لكن أهل الكتاب - أخزاهم الله - رفضو أن تكون الشريعة المحمدية ناسخة لشرائعهم؛ لهذا اشتد النقاش والجدال حول مسألة النسخ بين المسلمين وبين أهل الكتاب بدءا من عهد النبي ﷺ حين أنكر اليهود قضية النسخ، وجعلوها مطعنا في القرآن الكريم فقالوا: «ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه، ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولا، وغدا يرجع عنه، ما هذا شأن الأنبياء، وما هذا إلاّ من كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه، وهو كلام يناقض بعضه بعضا»(٥)، وتولى القرآن الرد عليهم ردا مفحما(٦) وقصد أهل الكتاب من إنكار النسخ في الشرائع أحد أمرين:

١ - إنكار رسالة محمد ﷺ جملة وتفصيلا، بدعوى أن الشرائع السابقة قائمة، وأن النسخ لا يرد على الشرائع، فدعواه الرسالة غير صحيحية.

٢ - في حالة صحة رسالته، وتأييدها بالمعجزات، فهي رسالة خاصة بالأميين

---

(١) المصدر السابق ١/ ١٦٧.

(٢) انظر: الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ٣/ ٩٦.

(٣) حاشية التفتازاني سعد الدين التفتازاني، تصحيح شعبان محمد إسماعيل ٢/ ١٨٥.

(٤) الجواب الصحيح ٢/ ٣٨٧ دار العاصمة

(٥) انظر: تفسير الرازي ٣/ ٢٢٦، وتفسير الألوسي ١/ ٣٥١.

(٦) كقوله تعالى: {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} سورة آل عمران الآية: ٩٤.

«العرب» ، وأما أهل الكتاب فلا تشملهم هذه الرسالة بناء على أن النسخ لا يقع في الشرائع ، فشرائعهم لا تزال قائمة ، وهذا يعني تناقض محمد ﷺ في كلامه[١] .

وقد فند القرآن شبههم من خلال كتبهم وتحداهم أن يأتوا بحجة تثبت ما ادعوا فقال تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[٢] وذلك بعد أن أثبت وقوع النسخ في كتبهم . ولكن ما زالت قضية النسخ مثار الجدال بين المسلمين وأهل الكتاب على مدار التاريخ ، من هنا تأتي أهمية معرفة النسخ وتحديد ما يدخله وما لا يدخله ومذاهب أهل الأديان فيه .

مذاهب الناس في النسخ: ذكر العلماء أن مذاهب أهل الأديان في النسخ ثلاثة:

١ - جواز النسخ عقلا ووقوعه سمعا وعليه إجماع المسلمين قبل أبي مسلم الأصفهاني[٣] وكذلك إجماع النصارى سابقا والعيسوية[٤] من اليهود .

٢ - النسخ ممتنع عقلا وسمعا ، وعليه النصارى المتأخرون والشمعونية[٥] .

٣ - النسخ جائز عقلا ممتنع سمعا وعليه العنانية[٦] من اليهود . ويعزى هذا القول إلى أبي مسلم الأصفهاني من المسلمين[٧] .

ما يدخله النسخ من الشريعة: معرفة ما يدخله النسخ مما لايدخله من الشريعة ، أمر في غاية الأهمية ؛ لأنه من خلاله يدرك أن النسخ لا يستلزم على أمر محال وإنما هو لحكمة ومصلحة ، كما يعرف به كذب من يدعي نسخ مالا يدخله النسخ من أمور الدين وحقيقة الأمر أن الشريعة نوعان:

---

(١) انظر: مناهج الجدل في القرآن ص٣٢٤ - ٣٢٥ .

(٢) سورة آل عمران الآية: ٩٤ .

(٣) اسمه: محمد بن بحر مفسر من علماء المعتزلة توفي: ٣٢٢هـ ، انظر: النسخ في القرآن الكريم د . مصطفى زيد ١/ ٥٠ .

(٤) أتباع أبي عيسى بن يعقوب الأصبهاني ، انظر: الملل والنحل للشهرستاني ص ٢١٦ ، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين فخر الدين الرازي ص ١١٣ .

(٥) الشمعنية إحدى فرق اليهود تنسب إلى شمعون بن يعقوب ويسميها ابن حزم "الأشعنية" وهم الربانيون ، انظر: الفصل لابن حزم ١/ ١٧٨ ، غاية المرام الآمدي ص٣٤١ .

(٦) نسبة إلى عنان بن داود ، انظر: الملل والنحل للشهرستاني ص ٢١٨ .

(٧) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ٢/ ١٨٦ - ١٨٧ ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، مناهج الجدل الألمعي ص ٣٢٦ .

الأول: خبر: ويدخل فيه كلّ ما أخبرنا الله تعالى، أنه سيكون، أوكان، أو وعدنا، أو قص علينا من أخبار الأمم الماضية، وما قص علينا من أخبار الجنة والنار، والحساب، والعقاب، والبعث والحشر، وخلق السماوات والأرض.. وكذلك ما أخبرنا الله تعالى به عن ذاته وصفاته، وأفعاله، فهذا وشبهه من الأخبار المحضة لايجوز دخول النسخ عليه[1].

الثاني: أمر: فالأوامر والنواهي - لأنها أمر أيضا - سواء كانت صريحة في الطلب أم كانت بلفظ الخبر الذي بمعنى الأمر أو النهي يجوز دخول النسخ فيها شريطة ألا تتعلق بالاعتقادات، وأمهات الأخلاق وأصول العبادات والمعاملات؛ لأن الشريعة مبنية على حفظ هذه الكليات[2]. وبناء على هذا فإن الكلام ينصرف إلى النوع الأول عندما يقال أصول الأديان السماوية واحدة ولا نسخ فيها، وإلى النوع الثاني عند ما يقال الإسلام ناسخ للأديان السابقة، وإذا كان علماء المسلمين - سواء الأصوليون والفقهاء والمفسرون - قد اهتموا بموضوع النسخ، كلّ في مجال بحثه، فإن علماء علم الملل قد أولوا عناية خاصة بهذا الموضوع[3].

وانطلاقا من هذه القاعدة واجه علماء السلف اليهود الذين أنكروا النسخ استنادا منهم إما على أقوال منسوبة إلى موسى - عليه السلام -[4] وإما على ربطهم النسخ بالبداء، وقد كشف علماء المسلمين زيف حجج اليهود في هذا، وأثبتوا النسخ من خلال كتبهم وبينوا أن البداء[5] الذي من أجله منعوا النسخ موجود في كتبهم.

---

(١) انظر: الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه أبي محمد مكي ابن أبي طالب القيسي تحقيق أحمد حسن فرحات ص ٥٧.

(٢) المصدر السابق ص ٧٥، مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٢١١، مباحث في علوم القرآن للشيخ مناع القطان ص ٢٣٣.

(٣) انظر: الفصل ١/ ١٧٩، الداعي إلى الإسلام ص ٣١٧، الرسالة السبعينية بإبطال الديانة اليهودية إسرائيل شموئيل الأورشليمي، ص ٢٨ تحقيق عبد الوهاب طويلة، دار القلم، دمشق، بذل المجهود في إفحام اليهود للسموءل بن يحيى المغربي ص١٩، تحقيق عبد الوهاب طويلة، الملل والنحل للشهرستاني ص ٢١٢ - ٢١٣، الجواب الصحيح ٣/ ١٣٧ دار العاصمة، وقد أشار إليه في مواضع مختلفة لكنها إشارات سريعة. بل إن كلّ من تناول ديانة اليهود قد تناول النسخ ردا على اليهود الذين ينكرونه أو بيانا لعقيدتهم في النسخ.

(٤) من ذلك ما ورد في توراتهم ((هذه شريعة مؤبدة عليكم مادامت السماوات والأرض)). مناهل العرفان ١/ ٩٨

(٥) البداء: بفتح الباء يطلق على الظهور بعد الخفاء ومنه قوله تعالى: {وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} سورة الزمر الآية: ٤٧، وعلى نشأة رأي جديد لم يكن موجودا، ومنه قوله تعالى: {ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ

يقول ابن حزم: موضحا تناقض اليهود في موضوع النسخ وملزما عليهم: «ما تقولون فيمن كان قبلكم من الأمم المقبول دخولها فيكم إذا غزوكم؟ أليس دماؤهم لكم حلالا، وقتلهم حقا وفرضا وطاعة؟ فلا بد من بلى. فنقول لهم فإن دخلوا في شريعتكم أليس قد حرمت دماؤهم، وصار عندكم قتلهم حراما، وباطلا ومعصية بعد أن كان فرضا وحقا وطاعة؟ فلا بد من بلى. ثم إن عدوا في السبت وعملوا أليس قد عاد قتلهم فرضا بعد أن كان حراما؟ فلا بد من بلى؟

فهذا إقرار ظاهر منهم ببطلان قولهم وإثبات منهم لما أنكروه من أن الحق يعود باطلا، والأمر يعود نهيا، وأن الطاعة تعود معصية، وهكذا القول في جميع شرائعهم، لأنها إنما هي أوامر في وقت محدود بعمل محدود، فإذا خرج ذلك الوقت عاد ذلك الأمر منهيا عنه، كالعمل هو عندهم مباح في الجمعة محرم يوم السبت، ثم يعود مباحا يوم الأحد، وكالصيام والقرابين وسائر الشرائع كلها، وهذا بعينه هو نسخ الشرائع الذي أبوه وامتنعوا منه...»[(١)].

ثم أورد أمثلة كثيرة من شريعتهم، ثم ذكر البداء فقال: «وفي توراتهم "البداء" الذي هو أشد من النسخ، وذلك أن فيها: أن الله تعالى قال لموسى - عليه السلام -: سأهلك هذه الأمة وأقدمك على أمة أخرى عظيمة، فلم يزل موسى يرغب إلى الله تعالى في أن لا يفعل ذلك حتى أجابه وأمسك عنهم، وهذا هو "البداء" بعينه والكذب المنفيان عن الله تعالى لأنه ذكر أن الله تعالى أخبر أنه سيهلكهم، ويقدمه على غيرهم ثم لم يفعل فهذا هو الكذب بعينه تعالى الله عنه»[(٢)].

وهذا النقاش والأمثلة التي قدمها ابن حزم يدور كله في إطار ما يدخله النسخ، أما ما لايدخله النسخ فقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية بطلان ماينقل عن الأنبياء السابقين إذا نقض ما علم من أخبار محمد ﷺ سواء كان البطلان من جهة اللفظ بأن لم يقله ذلك النبي أو قد قال لفظا وغلط المترجمون له من لغة إلى لغة، أو كان اللفظ وترجمته صحيحين

لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ} يوسف الآية: ٣٥، انظر: لسان العرب ١/ ٢٧ وكلا المعنيين مستحيل على الله لما يلزمهما من سبق الجهل وحدوث العلم "انظر مناهل العرفان ٢/ ١٨١.

(١) الفصل ١/ ١٨٠.

(٢) المصدر السابق ١/ ١٨١.

لكن وقع الغلط في معرفة مراد ذلك النبي بذلك الكلام[١].

والمقصـود هـنا بيان أن علماء المسلمين حددوا مايدخله النسخ مما لايدخله، فانحصر مـا ينقل عن الأنبياء السابقين إما أن يكون من النوع الذي يدخله النسخ، فإذا خالف هذا حكمـا ثابـتا في الإسـلام عـلم إمـا نسـخه أو تـبديله، أمـا إذا نقـل شـيئا يخالف الشريعة الإسلامية مما لايدخله النسخ علم بطلان هذا المنقول قطعا، وهذا النهج لايستقيم إلاّ لمن انطلـق مـن هذه القاعدة دون من يرى جواز "البداء" كالرافضة[٢] أو ممن منع وقوع النسخ مطلقا.

٤ - رد التنازع إلى الكتاب والسنة:

تميز منهج أهل السنة تحكيم الشريعة والتحاكم إليها في ما تنازع الناس فيه من أمور الديـن امتثالا لأمر الله تعالى: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّـهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾[٣] وإدراكا منهم بأن ذلك مقتضى الإيمان كما قـال تعـالى: ﴿ إِنَّمَـا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾[٤].

ويقينا منهم أن الكتاب جاء للفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَنزَلْـنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[٥] ولفهمهم قـول الـنبي ﷺ المبين أن العصمة من الضلال التمسك بالكتاب والسنة «**تركت فيكم أمرين لن تضلوا، ما مسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه**»[٦] ففيهما الحل الصحيح فيما اختلف الناس فيه.

---

(١) انظر: الجواب الصحيح ٢/ ٣٨٧ - ٣٨٨، دار العاصمة.

(٢) الروافض: أثبتو ا النسخ لكن قالوا يستلزم البداء فأجازوه على الله - سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون - انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ١٨٢.

(٣) سورة النساء الآية: ٥٩.

(٤) سورة النور الآية: ٥١.

(٥) سورة النحل الآية: ٦٤.

(٦) رواه الإمام مالك في الموطأ بلاغا - كتاب القدر باب النهي عن القول بالقدر، الحديث رقم ٣، تصحيح وترقيم محمد فؤاد عبدا لباق ٢ / ٨٩٩.

وقـد اتفقـت أقوالهـم عـلى هذا الأمر - وجوب التحاكم إلى الكتاب والسنة قال ابن حـزم: «فـلم يسـع مسـلما يقـر بالتوحـيد أن يرجع عند التنازع إلى غير القرآن والخبر عن رسـول الله ﷺ، ولا أن يـأبى عمـا وجـد فيهما، فإن فعل ذلك بعد قيام الحجة عليه فهو فاسـق، وأمـا مـن فعله مستحلا للخروج عن أمرهما، وموجبا لطاعة أحد دونهما، فهو كافر لاشك عندنا في ذلك»[1].

وإذا كـان اسـتعمال عـلماء السـلف هذه القاعدة مع خصومهم من أهل الأهواء من الأمـور المشـهورة فـإنهم اسـتعملوها مـع أهـل الملـل أيضا. فقد طالبوا من أهل الكتاب الـتحاكم إلى كلام الله وكلام الأنبياء في الأمور المختلف فيها، وهم في هذا الأمر مقتدون بالقـرآن الـذي طالب منهم إقامة دينهم والتحاكم بما أنزل الله إليهم. قال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِـتَابِ لَسْـتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[2]، وقـال تعـالى: ﴿ وَلْـيَحْكُمْ أَهْـلُ الإِنجِـيلِ بِمَـا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[3]، ففـي هـذه الآيات ومثلها دعوة أهل الكتاب إلى إقامة دينهم، والعودة إلى التوراة والإنجيل. ولكن كيف يتأتى لهم ذلك بعد تحريف وتبديل الكتابين؟ وهل يمكن أن يطالب التحالكم إلى القرآن، والسنة؟. وللإجابة على ذلك أقول:

إن في دعوتهـم إلى الـتوراة والإنجيل دعوة إلى حكم الله، وهو أن في التوراة والإنجيل مـا هـو حكم الله[4]، وقد أبقى الله ذلك؛ ليكون حجة عليهم[5]. وهذا الحق شاهد على ضـلالهم، وتحريفهم، وتبديلهم للكتب، كما يشهد على نسخ كتبهم؛ لهذا كانت دعوتهم إلى الحكـم بما في كتبهم دعوة إلى حكم الله، وبذلك يكون من المحال أن يقيم أهل الكتاب التوراة، والإنجيل إلا أن يدخلوا في الإسلام.

أمـا الشـطر الـثاني مـن الجـواب فـأقول: لا مانع أن يدعوا إلى الكتاب والسنة لرفع الخلاف،

---

(١) الإحكام لابن حزم ١/ ٩٩.
(٢) سورة المائدة الآية: ٦٨.
(٣) سورة المائدة الآية: ٤٧.
(٤) انظر: الجواب الصحيح ٢/ ٤٢١، دار العاصمة.
(٥) انظر: الفصل ١/ ٣١٧.

والتنازع الذي يحدث بينهم وبين المسلمين، ولا يعبأ في ذلك قول من يقول: كيف نطالبهم إلى التحاكم بما لا يؤمنون به؟ فالله سبحانه وتعالى أمر نبيه محمدا ﷺ أن ينذر بالقرآن الكفار الذين يكذبون بالله، وبالقرآن، وبالرسول، فقال على لسان رسوله ﷺ: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾[1][2].

٥ - درء التعارض بين نصوص الكتاب والسنة:

من منطلقات منهج أهل السنة ومسلماته الجزم على استحالة تعارض نصوص الكتاب والسنة بعضها ببعض، إذ كلها وحي من عند الله، والله يقول: ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا ﴾[3]، فالآية دلت على أن القرآن من عند الله، فلا يمكن أن يقع فيه اختلاف أو تعارض، وكذلك السنة وحي بدلالة القرآن، ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾[4] فإن ظن ظان أن ثم تعارضا بين بعض النصوص فهو في فهم الناظر، وليس في نفس الأمر. قال الشاطبي: «أدلة الشريعة لا تتعارض في نفس الأمر، ولذلك لا تجد ألبتة دليلين أجمع المسلمون على تعارضهما، بحيث وجب عليهم الوقوف، لكن قد يقع التعارض في فهم الناظر»[5].

وبين في مكان آخر أن على الناظر في الشريعة «أن يوقن أنه لا تضاد بين آيات القرآن، ولا بين الأخبار النبوية، ولا بين أحدهما مع الآخر، بل الجميع جار على مهيع واحد، ومنتظم إلى معنى واحد، فإذا أداه بادئ الرأي إلى ظاهر اختلاف فواجب عليه أن يعتقد انتفاء الاختلاف؛ لأن الله شهد له ألا اختلاف فيه، فليقف وقوف المضطر السائل عن وجه الجمع أو المسلم من غير اعتراض، فإن كان الموضع مما يتعلق به حكم عملي فليلتمس المخرج حتى يقف على الحق اليقين، أو ليبق باحثا إلى الموت»[6].

---

(١) سورة الأنعام الآية: ١٩.

(٢) انظر: العقيدة في الله ص ٥٧.

(٣) سورة النساء الآية: ٨٢.

(٤) سورة النجم الآية: ٣ - ٤.

(٥) الموافقات في أصول الشريعة، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي ٤/ ٢٩٤.

(٦) الاعتصام للإمام الشاطبي ٢/ ٣١٠.

وقد حكى بعض العلماء اتفاق الأمة على هذه القاعدة[(١)] لكن خالفها فرق المبتدعة الذين أخذوا ببعض النصوص دون بعض، وتوهموا التعارض بينها، والحق أنه لا تعارض بين نصوص الكتاب والسنة بعضها ببعض، إذ يستلزم ذلك التكذيب ببعض؛ لأنه من باب معارضة حق بحق، وهذا يقتضي التكذيب بأحدهما، أو الاشتباه، والحيرة، والواجب التصديق بهذا الحق، وبهذا الحق، قال تعالى: ﴿ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ * وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾[(٢)(٣)] .

وقد استخدم المسلمون هذه القاعدة في الرد على أهل الكتاب، وبيان بطلان أديانهم، وذلك بإثبات الاختلافات، والتناقضات الموجودة في كتبهم، والتي تدل على أن هذه الكتب قد حرفت وبدلت، ولا تمثل بأي حال وحيا منزلا من عند الله، يقول ابن حزم بعد فحصه توراة اليهود: «هنا انتهى ما أخرجناه من توراة اليهود، وكتبهم من الكذب الظاهر، والمناقضات اللائحة التي لا شك معه في أنها كتب مبدلة محرفة مكذوبة، وشريعة موضوعة، مستعملة من أكابرهم، ولم يبق بأيديهم بعد هذا شيء أصلا، ولا بقي في فساد دينهم شبهة بوجه من الوجوه، والحمد لله رب العالمين»[(٤)] .

وقد بلغت الاختلافات التي أخرجها الشيخ رحمت الله خليل الهندي من كتبهم في هذا العصر مائة وخمسا وعشرين اختلافا[(٥)] . والاحتجاج بهذه الاختلافات على بطلان دين أهل الكتاب لا يسلم إلا لمن ينطلق من هذه القاعدة، إذ لا يسلم لك خصمك أن تحتج عليه في أمر أنتم فيه سواء، من هنا تظهر أهمية هذه القاعدة في مجال دراسة الأديان

٦ - درء التعارض بين أدلة النقل وأدلة العقل:

من الأسس المنهجية في التعامل مع الأدلة عند أهل السنة والجماعة الجزم بعدم التعارض بين الأدلة الشرعية (السمعية) وبين الأدلة العقلية، ذلك أن النقل الصحيح

---

(١) انظر: الكفاية في علم الرواية لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي ص ٤٣٣ .

(٢) سورة الزمر الآية: ٣٢ - ٣٣ .

(٣) درء تعارض العقل والنقل ٨/ ٤٠٤ ، ومنهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد ١/ ٣٤٦ .

(٤) الفصل ١/ ٣٢٩ .

(٥) انظر: الفصل الثالث من كتاب "إظهار الحق" للشيخ محمد رحمت الله بن خليل الهندي، تحقيق د. محمد أحمد ملكاوي ١/ ١٦٨ .

والعقل الصريح دليلان شرعيان ، والأدلة الشرعية كلها جاءت من عند الله ؛ فيستحيل تعارضها ، وما توهم من المسائل أنه قد تعارض فيها العقل والنقل ، فلا يخلو الأمر: إما أن لا تكون من المسائل البينة المعروفة بصريح العقل ، كمسائل الحساب ، والهندسة ، والطبيعيات الظاهرة ، والإلهيات البينة ونحو ذلك . . . وإما أن يكون النقل المستدل به مكذوبا موضوعا يعلم أهل النقل أنه كذب ، أو يكون النقل صحيحا ، لكن في دلالة ضعيفة غلط المستدل بها على الشرع[1] . فكل عقل صريح صحيح خالص من الشبهات فإنه يطابق النقل الصحيح الصريح[2] .

وقد خالف أهل السنة في هذه القاعدة كثير من أهل الأهواء الذين توهموا تعارض العقل والنقل ، كالمتكلمين ، والمتصوفة ، والذين زعمت كلّ طائفة منهم وجوب تقديم ما لديها من دليل العقل ، أو كشف مزعوم على الأدلة النقلية ؛ لكونها - حسب زعمهم - أدلة ظنية ، وقد تصدى علماء السلف لهذه الفرية ، وكشفوا زيفها ، ويأتي في مقدمة هؤلاء الإمام ابن تيمية ، فقد قرر هذه القاعدة في عامة كتبه ، وخص بها موسوعته "درء تعارض العقل والنقل" وتحقق من هذه المسألة ، فقال:

«وقد تأملت ذلك في عامة ما تنازع الناس فيه ، فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة ، يعلم بالعقل بطلانها ، بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع . وتأملته في مسائل الأصول الكبار ، كمسائل التوحيد ، والصفات ، ومسائل القدر ، والنبوات ، والمعاد ، وغير ذلك ، ووجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط»[3] . ومما ينبغي التنبه له هنا أن الدليل النقلي واجب التقديم ، على الدليل العقلي عند أهل السنة والجماعة ، فالدليل النقلي حاكم بإطلاق ، بخلاف الدليل العقلي ؛ للأسباب الآتية:

١ - الأدلة النقلية قد تأتي من الأخبار ما تعجز العقول عن معرفته ، فهي تأتي

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل ١/ ١٤٨ .

(٢) انظر: الفتاوى ١٨/ ٢٤٠ ، منهج ابن تيمية في الدعوة د . عبد الله بن رشيد الحوشاني ١/ ١٦٠ .

(٣) درء تعارض العقل والنقل ١/ ١٤٧ .

بمحارات العقول، لا بمحالات العقول[1].

٢ - العقول تتفاوت، وليس هناك العقل المطلق الكامل الذي يحاكم إليه الشرع[2].

٣ - العقول لا تستقل بمعرفة تفاصيل أمور الدين.

٤ - العقول معرضة للخطأ، أما ما ثبت من النقل فلا يمكن أن يوجد فيه خطأ[3].

ومن هذه القاعدة، وعلى هذا الترتيب للأدلة انطلق علماء السلف في دراساتهم للملل. وقد بين ذلك ابن تيمية عند بيان منهجه في الرد على النصارى بقوله: «ونحن - ولله الحمد والمنة - نبين أن كل ما احتجوا به من حجة سمعية من القرآن، أو من الكتب المتقدمة على القرآن، أو عقلية، فلا حجة لهم في شيء منها، بل الكتب كلها مع القرآن، والعقل حجة عليهم لا لهم، بل عامة ما يحتجون به من نصوص الأنبياء، ومن المعقول فهو نفسه حجة عليهم، ويظهر منه فساد قولهم»[4].

٧ - الجمع بين الإيمان بالمتشابه والعمل بالمحكم:

أخبرنا الله تعالى أن في القرآن آيات محكمات، هن أم الكتاب؛ أي بينات واضحات الدلالة، لا التباس فيها على أحد، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس، أو بعضهم، فمن رد ما اشتبه إلى الواضح منه، وحكم محكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى، ومن عكس انعكس[5].

وقد اختلف العلماء في المراد من المحكم والمتشابه، وقد فصله العلماء في الكتب، ككتب علوم القرآن والأصول، وبينوا أن في القرآن إحكاما عاما، وتشابها عاما، وإحكاما خاصا، وتشابها خاصا، وهو المراد في آية سورة آل عمران[6]. وهو الذي يعنينا هنا، وأهم أقوالهم في الإحكام الخاص، **والتشابه الخاص مايلي:**

---

(١) انظر: المصدر السابق ١/ ١٤٧.

(٢) انظر: مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية ص ١٩٥.

(٣) انظر: موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة ١/ ٦٨.

(٤) الجواب الصحيح ١/ ١٠٤، دار العاصمة.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٣٠٣.

(٦) الآية في سورة آل عمران{هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} الآية ٧.

أ - المحكم ما عرف المراد منه - والمتشابه مااستأثر الله بعلمه .

ب - المحكم مالا يحتمل إلا وجها واحدا ، والمتشابه مااحتمل أوجهاً .

جـ - المحكـم ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان ، والمتشابه مالا يستقل بنفسه واحتاج إلى بيان غيره[١] .

الاختلاف في معرفة المتشابه: اختلف العلماء في إمكان معرفة المتشابه ، ومنشأ هذا الاختلاف اختلافهم في الوقف في قوله تعالى: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ هل هو مبتدأ خبره "يقولون" والواو للاستئناف والوقف على لفظ الجلالة "إلاّ الله"؟ أو هو معطوف "ويقولون" حال والوقف على قوله "والراسخون في العلم"[٢] .

فذهب إلى الرأي الأول جمهور الصحابة والتابعين وكثير من أهل العلم ، قال شيخ الإسلام ابن تيميه «والوقف هنا "يقصد لفظ الجلالة" ما دل عليه أدلة كثيرة ، وعليه أصحاب رسول الله ﷺ وجمهور التابعين وجماهير الأمة[٣] .

وذهب إلى الرأي الثاني طائفة من أهل العلم وهو مذهب كثير من علماء التفسير وأهل الأصول[٤] . وهو ما اختاره شيخ الإسلام فقال: «والثاني - وهو الصحيح - أن التشابه أمر نسبي فقد يتشابه عند هذا مالا يتشابه عند غيره ، ولكن ثم آيات محكمات لا تشابه فيها على أحد وتلك متشابهات إذا عرف معناها صارت غير متشابهة بل القرآن كله محكم كما قال تعالى: ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾[٥][٦] .

الجمع بين الرأيين: ذكر العلماء أنه بالرجوع إلى معنى (التأويل يتبين أنه لا منافاة بين الرأيين ، فإن لفظ التأويل ورد لثلاثة معان[٧] وهي:

الأول: تأويل بمعنى صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل

---

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن ص ٢١٦ .
(٢) المصدر السابق ص ٢١٧ .
(٣) الفتاوى ١٣/ ٢٧٥ .
(٤) انظر: تفسر ابن كثير ١/ ٣٠٥ .
(٥) سورة هود الآية: ١
(٦) انظر: الفتاوى ١٣/ ١٤٤ .
(٧) انظر: الجواب الصحيح ٤/ ٧٢ - ٧٣ ، دار العاصمة ، مباحث في علوم القرآن ص ٢١٨ .

يقترن به ، وهذا هو اصطلاح أكثر المتأخرين[١] وهذا إنما يكون في الاجتهادات أما العقيدة فليس فيها راجح ومرجوح .

الثاني: تأويل: بمعني الحقيقة التي يؤول إليها الكلام ، كما قال تعالى: ﴿ **يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا** ﴾[٢] .

الثالث: تأويل: بمعنى التفسير ، كقوله تعالى: ﴿ **نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ** ﴾[٣] . وعلى هذا فإن من أراد بالتأويل على المعنى الثاني وقف على لفظ الجلالة ، والمتشابه لا يعلمه إلا الله ، بمعنى لا يعلم حقيقته التي هو عليها إلا الله ، وذلك كأسماء الله وصفاته ، وحقائق يوم الآخر . . . ومن أراد بالتأويل على معنى الثالث وقف على قوله " والراسخون في العلم " . والمتشابه هو ما يخفى على بعض الناس ، فيعلمه الراسخون[٤] . وبهذا يتبين أنه لا تعارض بين المذهبين ، ولهذا قال شيخ الإسلام: «وكلا القولين حق باعتبار»[٥] .

مواقف الناس تجاه المحكم والمتشابه: وقف أهل السنة والجماعة موقفا صحيحا من المحكم والمتشابه تمثل الإيمان بالكتاب كله محكمه ومتشابهه ، مع العمل بالمحكم ، والإيمان بالمتشابه الحقيقي مع تفويض حقيقة علمه إلى الله تعالى[٦] ، والإيمان بالمتشابه الإضافي في الجملة حتى يتبين معناه ويتضح مدلوله . وذلك بالتدبر فيه ، ومتابعة النظر ، أو برده إلى المحكمات من النصوص ، فإن النصوص تفسر بعضها بعضا[٧] أما الطوائف المبتدعة من الجهمية ، والقدرية ، والجبرية ، والخوارج ، والمعتزلة ، والرافضة ، وغيرهم ، فقد ابتغوا الفتنة حيث تركوا النصوص المحكمة التي لا اشتباه فيها ، وابتغوا المتشابه[٨] .

فأولت كلّ طائفة منهم النصوص الصريحة التي لم توافق هواها وعدتها من المتشابهات . وقد استعمل أهل السنة هذه القاعدة بعد تحريرها وتحديدها على هذا الوجه

---

(١) لم يكن السلف يطلق بالتأويل على هذا المعنى ، انظر: الجواب الصحيح ٤/ ٧٣ .
(٢) سورة يوسف الآية: ١٠٠ .
(٣) سورة يوسف الآية: ٣٦ .
(٤) انظر: الفتاوى ٣/ ٢٧٥ ، مباحث في علوم القرآن ص ٢١٨ ، منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد ٢/ ٤٨٤ .
(٥) الجواب الصحيح ٤/ ٧٢ ، دار العاصمة .
(٦) انظر: الفتاوى ١٧/ ٣٨٦ . الاعتصام: ٢/ ٣٣٦ .
(٧) انظر: منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد ٢/ ٤٩١ .
(٨) انظر: الفتاوي ١٣/ ٧٧ .

في الرد على أصحاب الأديان من اليهود، والنصارى، الذين كان دأبهم اتباع المتشابهات وترك النصوص الصريحة سواء كان ذلك في أديانهم أو فيما احتجوا من نصوص القرآن على صحة أديانهم. فقد بين ابن تيمية أن الضلال من أهل الكتاب يذكرون في احتجاجاتهم آيات تشتبه عليهم معرفة معانيها، فيتبعون تأويلها ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويلها، مع أنهم ليسوا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويلها..

وذكر أن هذا الذي سلكوه في القرآن هو نظير ما سلكوه في الكتب المتقدمة، وكلام الأنبياء من التوراة، والإنجيل، والزبور وغيرها، فإن فيها من النصوص الكثيرة الصريحة بتوحيد الله وعبودية المسيح ما لا يحصى إلابكلفة، وفيها كلمات قليلة فيها اشتباه، فتمسكوا بالقليل المتشابه الخفي المشكل من الكتب المتقدمة، وتركوا الكثير المحكم المبين الواضح[1].

ولهذا أنزل الله على النصارى الذين ناظروا النبي ﷺ بالمتشابه وعدلوا عن المحكم قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾[2][3].

قال ابن كثير في معنى قوله: ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾ أي إنما يأخذون منه المتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة، وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه، لأنه دافع لهم وحجة عليهم. ولهذا قال الله تعالى: ﴿ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ ﴾ أي لإضلال أتباعهم إيهاما لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهو حجة عليهم لا لهم، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم، وروح منه، وتركوا الاحتجاج بقوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾[4] وبقوله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن

---

(١) انظر الجواب الصحيح ١/ ١٣٢.
(٢) سورة آل عمران الآية: ٧
(٣) انظر: الجواب الصحيح ١/ ١٣١ - ١٣٢.
(٤) سورة الزخرف الآية: ٥٩.

فَيَكُونُ ﴾[١] . وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله وعبد ورسول من رسل الله[٢] .

٨ - الأخذ بظواهر النصوص:

المراد بظواهر النصوص هو ما يتبادر إلى ذهن المخاطب من المعاني وليس المراد بالظاهر الاصطلاحي عند الأصوليين الذي يقابل النص[٣] . والمقصود هنا أن ظواهر النصوص مفهومة لدى المخاطبين[٤] .

فيجب أخذها ، ودليل ذلك أن الله أرسل رسله على لغات أقوامهم قال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[٥] . فعلة إرسال الرسل على لغات أقوامهم هي أن يحصل التبيين ، وهو التوضيح الذي يحصل به المقصود ، وتقوم به الحجة ، وتنقطع به المعذرة . ويلزم من هذا أن الأنبياء جاءوا بكلام مبين يفهمه المخاطبون به ، إذاً لا فائدة لهذا التعليل بدون هذا . وعلى هذا ذهب السلف . فلم يصرفوا النصوص عن ظواهرها التي دلت عليها اللغة العربية ، وفهموها على حسب معهود العرب من الخطاب . وخالفهم في هذه القاعدة المفوضة الذين يفوضون العلم بمعاني النصوص كنصوص الصفات ، والمؤولة الذين يصرفونها عن ظاهرها ، وأهل الإلحاد الذين زعموا أن للنصوص باطنا يخالف ظاهرها .

وقد استعمل شيخ الإسلام ابن تيمية في الرد على النصارى هذه القاعدة ، فقد بين أن من أسباب ضلال النصارى صرفهم نصوص الإنجيل عن ظاهرها الصحيح . ومن أمثلة ذلك القول المنسوب إلى عيسى - عليه السلام - «عمدوا الناس باسم الآب والابن والروح القدس»[٦] . يقول الشيخ «مراده مروا الناس أن يؤمنوا بالله ونبيه الذي أرسله وبالملك الذي أنزل عليه الوحي الذي جاء به ، فيكون ذلك آمرا لهم بالإيمان بالله

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٥٩ .

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٣٠٣ .

(٣) انظر: بدائع الفوائد ٤/ ٩ .

(٤) انظر: منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد ٢/ ٤٣٧ .

(٥) سورة إبراهيم الآية: ٤ .

(٦) إنجيل متى الإصحاح ٢٨ فقرة ٢٠

وملائكته ، وكتبه ، ورسله . وهذا هو الحق الذي يدل عليه صريح المعقول وصحيح المنقول . فتفسير كلام المعصوم بهذا التفسير الذي يوافق سائر ألفاظ الكتب التي عندهم ، ويوافق القرآن ، والعقل أولى من تفسير بما يخالف صريح المعقول وصحيح المنقول .

وهذا تفسير ظاهر ليس فيه تكلف ، ولا هو من التأويل الذي هو صرف الكلام عن ظاهره إلى ما يخالف ظاهره ، بل هو تفسير له بما يدل ظاهره عليه باللغة المعروفة ، والعبارة المألوفة في خطاب المسيح ، وخطاب سائر الأنبياء . وأما تفسير النصارى بأن الابن مولود قديم أزلي هو العلم ، أو كلمة الله فتفسير للفظ بما لم يستعمل هذا اللفظ فيه لا في كلام أحد من الأنبياء ولا لغة أحد من الأنبياء ، وكذلك تفسير روح القدس بحياة الله .

فالذي فسر النصارى به ظاهر كلام المسيح هو تفسير لا تدل عليه لغة المسيح وعادته في كلامه ولا غيره من الأنبياء والأمم ، بل المعروف في لغته وكلامه وكلام سائر الأنبياء تفسير بما فسرناه ، وبذلك فسره أكابر علماء النصارى .

وأما ضلال النصارى المحرفون لمعاني كتب الله عز وجل ، فسروه بما يخالف معناه الظاهر وينكر العقل والشرع»[1] . فليس لديهم لا عقل ولا سمع . فكان هؤلاء المحرفة أبعد الناس عن الحق ، بينما الذين تمسكوا بظاهر نصوص كتبهم كانوا أقرب إلى الحق من غيرهم ، ففرقة القراؤون من اليهود كانت ممن تمسك بالظواهر كما يقول العلامة ابن القيم فنفعهم ذلك فدخل أكثرهم في دين الإسلام[2] .

٩ - الإسلام هو الدين المهيمن لغيره من الأديان:

الإسلام بمعناه الخاص هو الرسالة الأخيرة من سلسلة الرسالات السماوية . فتضمن بذلك أصول ومبادئ الرسائل السابقة مع الإضافات التي تؤهله للدوام إلى قيام الساعة ، وبناء على هذا فإن الإسلام هو الدين الوحيد الذي من خلاله يعرف حقيقة الأديان السابقة فهو المصدر والوثيقة لها ؛ لذا قال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ

---

(١) الجواب الصحيح ٢/ ٩٨ - ٩٩ .

(٢) انظر: هداية الحيارى ص ٢٠٣ .

كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾[١]
وقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[٢] .

فالقرآن هو المهيمن أي الشاهد المؤتمن ، الحاكم ، يشهد بما في كتب أهل الكتاب من الحق ، ويبين ما حرف فيها ، ويحكم بما أقره الله ، وأمر به من أحكامها ، وينسخ ما نسخه الله ، وهو مؤتمن عليها في ذلك كله[٣] . ولهذا قال ابن جريج: «القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله ، فما وافقه منها فهو حق ، وما خالفه منها فهو باطل»[٤] .

وقال ابن كثير: «جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتاب ، وخاتمها ، وأشملها ، وأعظمها ، وأكملها حيث جمع فيه محاسن قبله ، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره ؛ فلهذا جعله شاهدا ، وأمينا ، وحاكما عليها كلها ، وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة»[٥] . وانطلاقا من هذا الوضوح للنصوص القرآنية في التأكيد على أهمية هذا الأصل المنهجي في دراسة الملل أرسى علماء السلف دعائم هذه القاعدة في مجال دراسة الملل مخالفين من نزع من علماء الفرق بإقصاء الأدلة القرآنية عن هذا المجال بدعوى أن المخالفين لا يسلمون لنا بحجية تلك النصوص . ويعد الدكتور عبد الراضي محمد أن الإمام ابن تيمية أول من تنبه إلى هذه القاعدة ، واستعملها في حقل الجدل الديني ، ومقارنة الأديان ، منطلقا في ذلك من أن:

أ - الإسلام هو الطريق الوحيد الذي يثبت من خلاله نبوة الأنبياء ، والرسل المتقدمين ، وكذلك صحة رسالاتهم ، فالمسلمون قد عرفوا صدق هؤلاء الأنبياء بإخبار محمد ﷺ عنهم[٦] .

ب - القرآن الكريم قد اشتمل على جميع ما في كتب الأنبياء السابقين من المحاسن ، وعلى زيادات كثيرة ، لا توجد في تلك الكتب ، ولهذا كان مصدقا لما بين يديه من الكتب

---

(١) سورة المائدة الآية: ١٥ .
(٢) سورة المائدة الآية ٤٨ .
(٣) مناظرة بين الإسلام والنصرانية إعداد جمال عبد الهادي ص ٤٠٢ .
(٤) انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٦٢ .
(٥) المصدر السابق ٢/ ٦٢ .
(٦) انظر: الجواب الصحيح ١/ ١٧٦ .

ومهيمنا عليها ، يقرر ما فيها من الحق ، ويبطل ما حرف منها ، وينسخ ما نسخه الله ؛ فيقر دين الحق ، ويبطل دين المبدل ، الذي لم يكن فيها[١] .

جـ - الله تبارك وتعالى يبين في القرآن ما خالف أهل الكتاب به الأنبياء ، ويذمهم على ذلك[٢] .

المطلب الثالث: خصائص منهج أهل السنة في دراسة الملل

يلاحظ المتأمل في كتب السلف في الملل أن منهجهم في عرض الأديان ، والنقاش ، والرد ، والمناظرات ، قد تميز عن غيره من المناهج بخصائص تمثل قواعد ، وضوابط ، في العرض ، والنقاش ، والرد ، والمناظرة ، ومنهج أهل السنة كما سبقت الإشارة إليه منهج شمولي ، يعرض الملل المطلوب دراستها ؛ فيناقش مبادئها ، ويحللها تحليلا نقديا ، ثم يرد ما فيها من باطل ، وسنلقي الضوء هنا على هذه الخصائص:

أولاً: العرض وخصائصه:

العرض هو الشكل ، أو القالب الذي يقدم بواسطته المصنف موضوعه ، وتختلف أساليب العرض من مصنف إلى مصنف ، كما تختلف تبعا لاختلاف موضوع البحث ، من هنا كان حسن العرض مما ينبغي أن يعتني به المؤلفون بحيث يقود أسلوب العرض القارئ إلى الهدف المطلوب تحقيقه: وبما أن الاشتغال بعلم الملل في تصور الباحث المسلم مرتبط بعقيدته بكونه أداة من أدوات الدعوة إلى الله تعالى ، والدفاع عن الدين ، فإنه يجب عليه أن يكون عرضه للملل عرضا يحقق الأهداف الشرعية التي من أجلها يدرس هذا العلم ، وأن يكون موافقا لمنهج القرآن في عرض الملل ونقدها والملاحظ لكتب السلف يجد أن عرضهم للملل يتميز بأمور منها:

١ - **الوضوح**: والوضوح الذي تميز به العرض في المنهج السلفي لدراسة الملل يرجع إلى كونهم اتبعوا المنهج القرآني الذي يعرض قضايا الدين بالأسلوب السهل الواضح الذي يفهمه جميع الناس ، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن**

---

(١) انظر: معارج الوصول لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٢٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٣ ، و منهج أهل السنة في الرد على النصارى ص ١٢٢ - ١٢٣ .

مُّدَّكِرٍ﴾(١)، وبمنهج النبي ﷺ الذي كان يعالج الأمور بالكلام القليل الواضح الذي يجري مجرى الأمثال، والحكم؛ لقلة ألفاظه، وكثرة معانيه، ووضوحه؛ فإنك لو تأملت قوله ﷺ: **«ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم»**(٢).

تجد أن هذا الحديث بهذه العبارات القليلة قد شمل على جوانب كثيرة من الشريعة، فالشريعة إما خبر، أو أمر، وقد اشتمل الحديث كلا الجانبين. حيث بين النبي ﷺ الواجب على المسلم تجاه ما جاء به من الأوامر، والنواهي، والأحكام لا تخرج من ذين الأمرين، ثم بين منهج الأمم السابقة مع أنبيائهم، وأن سبب هلاكهم كان التشدد، والتعمق في الأمور، والاختلاف على ما جاء به الأنبياء.

وفي هذا الخبر المتضمن للتحذير إشارة إلى الجانب الخبري من الشريعة، ويلاحظ في الحديث أن النبي ﷺ لم يدخل في تفاصيل صور هذه الاختلافات، وإن كان قد بين ذلك في أماكن أخرى لاقتضاء الحاجة بذلك، بل إن غرض النبي ﷺ في هذا الحديث كان لبيان أن الالتزام بالنهج النبوي والتقيد في حدود ما جاء به، هو طريق العصمة والنجاة من الهلاك، وهذا الغرض قد حصل في هذه الكلمات، وقد أحسن النووي حين قال في تعليقه لهذا الحديث: «هذا من قواعد الإسلام المهمة، ومن جوامع الكلم التي أعطيها ﷺ ويدخل فيه ما لا يحصى من الأحكام»(٣).

فالإيجاز، والإيضاح منهج قرآني نبوي في تقرير الدين، وعرض قضاياه، وقد اقتدى به السلف فأعلنوا كراهيتهم لتعقيد الكلام، وإغماض الألفاظ، واعتبروها نوعا من الشح بالعلم، والضن به(٤) بل إن مما يوضح لنا رغبة علماء السلف، وحرصهم على تسهيل العلم، وإيضاحه، أن التسهيل كان أحد البواعث لتأليفهم الكتب، فهذا ابن حزم يعد من الأسباب التي كانت وراء تأليفه لكتابه "الفصل" أن الكتب التي ألفت في افتراق الناس

---

(١) سورة القمر الآية: ١٧

(٢) أخرجه الإمام مسلم حديث رقم ١٣٣٧، انظر: شرح صحيح مسلم للنووي ١٥/ ١١٨.

(٣) انظر: المصدر السابق ١٥/ ١١٧، وانظر أيضا: الوافي في شرح الأربعين النووية ص ٤٨، د. مصطفى البنا و محي الدين مستو.

(٤) انظر: التقريب لحد المنطق، لابن حزم، نشر وتحقيق د. إحسان عباس ص ٨.

في دياناتهم، ومقالاتهم كثيرة جدا.

لكنها تتسم بالغموض والتعقيد - إلا القليل منها - الذي يجعل هذه الكتب متعذرة حتى على كثير من أهل الفهم، يقول ابن حزم موضحا ذلك: «وكلهم - إلا تحلة القسم - عقد كلامه تعقيدا يتعذر فهمه على كثير من أهل الفهم، وحلق على المعاني من بعد حتى صار ينسى آخر كلامه أوله، وأكثر هذا منهم ستائر دون فساد معانيهم فكان هذا عملا منهم غير محمود في عاجله وآجله»[١]. ولابن حزم أن يقول ذلك فإن الكتب في هذا المجال كان أغلبها لعلماء الفرق المبتدعة الذين غلب على أكثرهم «التكلف، والتعمق، واتباع الصعاب»[٢].

وقد وجه ابن تيمية أيضا نقده إلى الذين يتبعون المسالك الصعبة في التأليف والعمد إلى الألفاظ المجملة المشتبهة التي تؤدي إلى الغموض في المعنى والمعارضة لنصوص الشرع الصحيحة والعقول الصريحة يقول موضحا ذلك: «ولكن هؤلاء عمدوا إلى ألفاظ مجملة تحمل في لغات الأمم معان متعددة، وصاروا يدخلون فيها من المعاني ما ليس هو المفهوم منها في لغات الأمم، ثم ركبوها وألفوها تأليفا طويلا بنوا بعضه على بعض، وعظموا قولهم وهولوه في نفوس من لم يفهمه، ولا ريب أن فيه دقة وغموضا لما فيه من الألفاظ المشتركة، والمعاني المشتبهة، فإذا دخل معهم الطالب وخاطبوه بما تنفر عنه فطرته، فأخذ يعترض عليهم قالوا له: أنت لا تفهم هذا، وهذا لا يصلح لك، فيبقى ما في النفوس من الأنفة والحمية [ما] يحملها على أن تسلم تلك الأمور قبل تحقيقها عنده وعلى ترك الاعتراض عليها خشية أن ينسبوه إلى نقص العلم والعقل»[٣].

وهذا نوع من تلبيس الحق بالباطل المنهي شرعا ويقول المهتدي الطبري: «ومن ألف كتابا في مثل هذا الفن الجليل الهادي المستنير العام المنفعة لأهل الأديان كلهم كان جديرا أن يجعله مفهوما سهلا، وأن يخاصم ويساجل خصمه، ولا يعلو عليه ولا يربي بل يفهم ولا يبهم، وينصف ولا يظلم، ويستعمل الرفق ويحسن سياقه»[٤] ويظهر مما سبق أن من

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ١/ ٣٦.

(٢) مناهج أهل الأهواء والافتراق والبدع ص ١٤٢.

(٣) درء تعارض العقل والنقل ١/ ٢٩٥

(٤) الدين والدولة في إثبات نبوة النبي ﷺ، لعلي بن ربن الطبري تحقيق عادل نويهض ص ٣٥.

الأسباب المساعدة في وضوح العرض، والتي تميز بها منهج علماء السلف ما يلي:

أ - الالتزام بالألفاظ الشرعية والبعد عن الأساليب الكلامية والفلسفية المعقدة.

بـ - التعبير بالألفاظ السهلة والعبارات التي يستوي في فهمها العامي والخاص، والعالم والجاهل، حسب إدراكنا وما منحنا خالقنا تبارك وتعالى من القوة والتصرف(١).

جـ - الإيجاز، وعدم الإسهاب والإطالة، قال ابن حزم منتقدا على الذين يسهبون في الكلام ويطولونه «فبعض، أطال، وأسهب، وأكثر، وهجر»(٢)

وقال ابن تيمية: محذرا عن التطويل بلا فائدة «بعض طرق الفلاسفة والمتكلمين وإن كانت صحيحة فإنها لا تسلك لما فيها من التطويل بلا فائدة»(٣)، ومثل ابن تيمية مسلك الأنبياء ومسلك الفلاسفة في تقرير الأمور بهذا المثل فقال: «ومثال النبي ﷺ مثال طبيب دخل على مريض، فرأى مرضه فعلمه فقال له: اشرب كذا واجتنب كذا، ففعل ذلك فحصل غرضه من الشفاء، والمتفلسفة يطول معه الكلام في سبب ذلك المرض وصفته وذمه وذم ما أوجبه ولو قال له مريض فما الذي يشفيني منه؟ لم يكن له ذلك علم تام»(٤).

٢ - الدقة والشمولية في العرض: الدقة والشمولية من مقتضيات الأمانة العلمية، وهي مطلوبة في كلّ ما يعرض مهما كانت عداوة الخصم، فلا يجوز الكذب عليه، بل يعرض عقيدته، وأفكاره كما هي في المصادر المعتبرة لديه. والدقة والشمولية لما يعرض قبل النقاش خصيصة من خصائص منهج أهل السنة والجماعة في تعاملهم مع المخالفين أيا كانوا، وإذا تأملت في كتب الملل فإنك تجد أن التزامهم، الدقة، والشمولية، كانت السمة البارزة في منهجهم قولا وعملا، وهذا الالتزام إنما هو نتيجة طبيعية لإيمانهم بوجوب العدل مطلقا، وإدراكهم أن نقد الملل لا يستقيم لهم مع الإخلال في عرضها؛ لأن ذلك يتيح للخصم أن يحتج عليهم بأن العرض ناقص، والنقد كاذب(٥). **نماذج من**

---

(١) التقريب لحد المنطق ص ٨.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل ١/ ٣٥

(٣) درء تعارض العقل والنقل ٣/ ٩٦، منهج ابن تيمية في الدعوة ١/ ٢٣٢.

(٤) اقتضاء الصراط المسقيم ٢/ ٨٩٨.

(٥) انظر: مسلمو أهل الكتاب ٢/ ٧٧٤.

صور دقتهم في العرض:

أ - عرض أقوال أهل الملل بألفاظهم: من شدة دقتهم، ومزيد عنايتهم في التثبت أنهم كانوا ينقلون أقوال أهل الملل كما هي، وبألفاظها.

يقول ابن تيمية في رده على النصارى: «وأنا أذكر ما ذكروه بألفاظهم بأعيانها فصلا فصلا، وأتبع كلّ فصل بما يناسبه من الجواب فرعا وأصلا، وعقدا وحلا»[١].

وقد وفى وعده هذا فعرض شبهاتهم، ودعاويهم بألفاظهم، ثم عقب على ذلك بقوله: «هذه ألفاظهم بأعيانها في الفصل الأول»[٢].

بـ - نقل النصوص من كتبهم: فابن حزم - رحمه الله - قد قرأ كتب النصارى، واليهود، بل سعى إلى كثير من علماء اليهود للاستفسار عن المعاني الغامضة، والموهمة[٣]، ولم يكن غرضه سوى بيان تحريف كتب أهل الكتاب من خلال نصوصها، ومن قرأ أي فصل من فصول كتاب "الفصل" التي عرض فيها "الملل" يرى مدى ما حواه الكتاب من نصوص التوراة والإنجيل.

أما ابن تيمية - رحمه الله - فقد أورد نصوصا كثيرة من كتب النصارى منها: نصوص الأمانة[٤] ونصوص كتاب[٥] سعيد بن البطريق[٦] التي جاوزت أكثر من مائة صفحة[٧].

ومن رواد هذا الميدان العلماء المهتدون الذين أولوا اهتمامهم بعد إسلامهم بنقد أديانهم السابقة، فقد تيسر لهم ما لم يتيسر لغيرهم من معرفة اللغات التي دونت بها كتب أهل الكتاب؛ فكانوا ينقلون النصوص في هيئتها الأصلية من لغتها الأساسية كالعبرية، أو السريانية، أو اللاتينية، ثم يترجمون النص ترجمة

---

(١) الجواب الصحيح ١/ ٩٩، دار العاصمة

(٢) المصدر السابق ١/ ١٢٣، دار العاصمة.

(٣) انظر: الفصل ١/ ٢٣٢ - ٢٣٣

(٤) الجواب الصحيح ١/ ١١٥، ٢/ ١١٦.

(٥) اسم الكتاب ((جوهر النظم)).

(٦) هو سعيد بن البطريق طبيب ومؤرخ من أهل مصر ولد بالفسطاط سنة ٢٦٣هـ/ ٥٨٧م، وأقيم بطريقا في الأسكندرية، توفي سنة ٣٢٨هـ/ ٩٤٠م، انظر: طبقات الأطباء ٢/ ٨٦، الأعلام للزركلي ٣/ ١٤٤.

(٧) انظر الجواب الصحيح ٣/ ٥ - ١٢٥.

صحيحة تكون شاهدة لما أرادوا إثباته أو نفيه[١].

جـ - **الرجوع إلى أكثر من نسخة:** فقد ذكر ابن حزم أنه اطلع على نسخ مختلفة من نسخ التوراة[٢]، ووصف إحدى هذه النسخ وصفا دقيقا فقال في وصفها: «هي مقدار مائة ورقة وعشرة أوراق في كلّ صفحة منها ثلاثة وعشرون سطرا إلى نحو ذلك بخط هو إلى الانفساح أقرب، يكون في السطر بضع عشرة كلمة[٣]، ولكمال أمانته العلمية ذكر أنه لم يقف على التوراة السامرية، وعلل ذلك بأنهم لا يستحلون الخروج عن فلسطين والأردن[٤].

أما ابن تيمية فقد كان مطلعا على كتب أهل الكتاب، وعلى نسخها المختلفة، فقد ذكر أن بين نسخ التوراة اختلافا، كما أن بين نسخ توراة اليهود، والنصارى، والسامرة اختلافا، وأن الاختلاف في نسخ الزبور أكثر[٥].

ويؤكد أنه رجع إلى بعض هذه النسخ بقوله: «وقد رأيت أنا من نسخ الزبور ما فيه تصريح بنبوة محمد ﷺ باسمه، ورأيت نسخة أخرى بالزبور، فلم أر ذلك فيها، وحينئذ فلا يمتنع أن يكون في بعض النسخ من صفات النبي ﷺ ما ليس في أخرى»[٦].

أما أصحاب القدح المعلى في هذا المجال فهم مسلمو أهل الكتاب، فقد بلغت دقة هؤلاء أنهم قاموا بعملية المقابلة بين نسخ كتب أهل الكتاب، سواء المكتوبة باليونانية مع المكتوبة بالعبرية، أو المكتوبة بالعبرية مع المكتوبة بالعربية، كما كانوا يرجعون إلى قواميس اللغتين:

العبرية واليونانية؛ للتأكد من أصل كلمة ما، أو اشتقاقها[٧]، ذلك ليكون العرض الذي يبنون عليه نقاشهم ونقدهم صحيحا دقيقا.

---

(١) انظر: مسلمو أهل الكتاب ٢/ ٧٧٤.
(٢) انظر: الفصل ١/ ٢٠٢
(٣) المصدر السابق ١/ ٢٨٥.
(٤) المصدر السابق ١/ ٢٠٢
(٥) انظر: الجواب الصحيح ٣/ ٥٠، دار العاصمة.
(٦) المصدر السابق ٣/ ٥٠ - ٥١، دار العاصمة.
(٧) انظر: مسلمو أهل الكتاب ٢/ ٧٨١.

د - الدقة في نسبة الآراء إلى أهلها: أسلوب التعميم قبل حصول الاستقراء من الأخطاء المنهجية المنافية للعدل والإنصاف، من ذلك إطلاق حكم عام على أهل ملة ما قبل حصول البحث والاستقراء. وقد انتبه علماء السلف لهذه الآفة، فحرصوا على شمولية الاستقراء، وعدم إطلاق الأحكام العامة، إلا بعد التثبت والتدقيق، ومن الأمثلة التي تدل على ذلك ما فعله ابن حزم، حيث صنف بعض النصارى ضمن الفرقة الرابعة القائلين بإثبات الحقائق مع القول بأن للعالم أكثر من مدبر[1]، ولم يعمم هذا الحكم على النصارى كلهم، ولم يكتف عرض فرق النصارى في هذا الموضع فقط، وإنما صنف من أنكر التثليث منهم مع اليهود ضمن الفرقة السادسة القائلين بإثبات الحقائق مع القول بحدوث العالم، وأن له خالقا واحدا[2]. وهذا دليل على دقة التقسيم، وحسن العرض.

أما إذا جئت إلى ابن تيمية، وكتابه "الجواب الصحيح" فتجده دقيقا في نسبة الآراء إلى أصحابها، فهو يقول إذا حكى أقوالهم، ومذاهبهم المختلفة بعبارة تشير إلى ذلك، انظر مثلا كلامه في ذكر اختلاف النصارى حول طبيعة عيسى - عليه السلام - حيث يقول: «فلهذا صار كلّ منهم يقول ما يظن أنه أقرب من غيره، فمنهم من يراعي لفظ أمانتهم، وإن صرح بالكفر الذي يظهر فساده لكل أحد، كاليعقوبية، ومنهم من يستر بعض ذلك، كالنسطورية، وكثير منهم وهم الملكانية بين هؤلاء وهؤلاء، ولما ابتدعوا ما ابتدعوا من التثليث، والحلول كان فيهم من يخالفهم في ذلك»[3].

أما إذا وجد لهم اتفاق في شيء فهو يحكي اتفاقهم هذا بعبارة دالة عليه كأن يقول: هذا قول أهل الملل، أو أن يقول: هذا ما اتفق عليه النصارى. بل يذهب ابن تيمية إلى أبعد من ذلك؛ فينتقد بعض نظار المسلمين الذين عمموا أحكامهم فيما نقلوا عن النصارى مما هم فيه مختلفون، أو مخالف لمذاهبهم أصلا. فيقول:

---

(١) انظر: الفصل ١/ ٣٧، ١/ ١٠٩.
(٢) المصدر السابق ١/ ٣٧، ١/ ١٧٦.
(٣) الجواب الصحيح ٤/ ٧٧، دار العاصمة.

«والقول الذي يحكيه كثير من نظار المسلمين يوجد كثير منهم على خلافه»[١]، ثم أورد مما نقل عنهم ما ذكره أبو المعالي[٢]، وصاحبه أبو القاسم[٣][٤]. ثم أعقب بهذا النص مصححا، ومنتقدا: «فهذا نقل طائفة من نظار المسلمين، وهذا قول لمن قاله من النصارى، وفيه ما هو مخالف لصريح أمانتهم، وما عليه جمهورهم، مثل قوله: إنهم لا يسمون العلم قبل تدرعه بالمسيح ابنا، بل المسيح مع ما تدرع به ابن، فإن هذا خلاف ما عليه فرق النصارى من الملكانية، واليعقوبية، والنسطورية، وخلاف ما تضمنته أمانتهم، إذ صرحوا فيها بأن الكلمة ابن قديم أزلي، مولود قبل الدهور، وهذه صفة اللاهوت عندهم، وفيها أشياء يقولها بعض النصارى لا كلهم، وكذلك نقل عنهم أنهم لا يريدون بالكلمة الكلام، فإن الكلام عندهم صفة فعل، وهذا قول طائفة منهم، ومن اليهود، وكثير منهم، أو أكثرهم يقولون: إن كلام الله غير مخلوق، وينكرون على من يقول: إنه مخلوق»[٥].

وبهذه الدقة الناتجة عن سعة الاطلاع، وشمول الاستقراء كان السلف يعرضون عقائد أهل الملل، وآراءهم، ومما ينبغي أن يتنبه له أن المراد بالشمولية هنا شمولية ما يعرض، وهذا يختلف باختلاف المقام، فمن قصد رد شبهات ودعاوى محدودة عليه أن يعرض هذه الشبهات، وتلك الدعاوى كما هي، كما فعل ابن تيمية في رده على دعاوى النصارى في كتابه "الجواب الصحيح". أما من كان غرضه تأليف كتاب في ديانة معينة، أو في الأديان عموما، فلابد أن يدرك جميع جوانب تلك الديانة، أو الديانات، وأن يعرف مواضع الاختلاف، والاتفاق بين تلك الديانات، وأن تتضح لديه خريطة الأديان في العالم وهذا صنيع ابن حزم الذي قسم رؤوس الفرق المخالفة لدين الإسلام إلى ست فرق،

---

(١) انظر: المصدر السابق ٤/ ٧٧.
(٢) هو إمام الحرمين صاحب كتاب "شفاء الغليل" سبقت ترجمته ص ١٨٢.
(٣) هو أبو القاسم سليمان بن ناصر بن عمران بن محمد الأنصاري النيسابوري أحد علماء علم الكلام وأحد تلاميذ إمام الحرمين، توفي سنة ٥١١، وقيل: ٥١٢، انظر: والأعلام للزركلي ٣/ ١٧٠.
(٤) انظر: الجواب الصحيح ٤/ ٧٧.
(٥) الجواب الصحيح ٤/ ٨٠ - ٨١.

تتفرق كلّ فرقة من هذه الفرق إلى فرق[١]، فدخل في هذه الفرق الست كلّ أهل الملل، وجميع أهل الأهواء والنحل، وعلى ضوء هذا التقسيم عرض عقائد أهل الملل، وأفكارها.

٣ - العرض الموحي بالحكم الشرعي: من خصائص منهج أهل السنة في عرض عقائد، وأفكار المخالفين للإسلام أن الحكم الشرعي للأديان التي تدرس يظهر من خلال العرض، والسياق، الذي يوردون فيه، وما يعرضون من مقدمات ومنطلقات[٢] توحي إلى حكم ما سيعرض، ومن خلال الالتزام بالألفاظ الشرعية التي أطلق الشارع على أهل الملل كتسميتهم بالكفار، والأعداء، ثم بحرصهم أن يعرض الباطل في صورته الحقيقية التي تظهر فساده، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فأما القول الباطل فإذا بين فبيانه يظهر فساده»[٣]. ومما يدل على تميز منهج علماء السلف في هذا، أن القارئ يجد ذلك في الغالب جليا في عناوين كتبهم قبل قراءة مضمونها، مثال ذلك: "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح" و"منحة القريب في الرد على عباد الصليب" و"تحفة الأريب في الرد على عباد الصليب" و"إفحام اليهود". ففي هذه العناوين دلالة على الموضوع الذي يتناوله الكتاب، والقارئ يفهم الحكم الذي سيتوصل إليه الباحث، خذ مثلا: عنوان كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح" فإن هذا العنوان يدل على أن النصرانية ديانة مبدلة.

ثانياً - في المناقشة والرد:

إذا كان بعض مؤرخي الملل اكتفى بوصف الملل، وعرضها دون بيان صحيحها من فاسدها؛ فإن علماء السلف كانوا يصفون الملل، ويعرضونها من أجل المناقشة والنقد، وإذا تأملت في مناقشاتهم - لاسيما مناقشات ابن حزم وابن تيمية - وجدت أنهم كانوا أهل براعة في النقاش والجدل، وأصحاب دربة ومران، وقد كانوا يملكون زمام الأمر في

---

(١) انظر: الفصل ١/ ٣٦.

(٢) من ذلك المنطلقات التي بينها ابن تيمية في صدر كتابه "الجواب الصحيح قبل عرضه شبهات النصارى.

(٣) الفتاوى ٢/ ١٤٥.

كلّ المناقشات، وترجع قدرتهم على المناقشة إلى الأمور الآتية:

١ - كونهم أصحاب منهج واضح، سليم من الأخطاء، والمتناقضات، والاضطراب.

٢ - شدة حماسهم، وحرصهم على حماية الدين، وتفانيهم في الدفاع عنه ضد كلّ الخصوم، وقد دفعهم هذا الحماس إلى خوض المناقشات، والمناظرات مع المخالفين، وبالتالي أكسبهم خبرة ودراية في أساليب الحوار، والمناقشة.

٣ - سعة اطلاعهم، وعلو كعبهم في العلوم الشرعية.

وعلى العموم فإنهم ناقشوا عقائد الأمم، وأفكارها نقاشا قائما على العلم، والعدل، وبعيدا عن العاطفة المثيرة، أو الادعاء والتشهي، وكان من ركائز هذا النقاش التحليل النقدي، والمقارنة العلمية، البعيدة عن التعصب الممقوت، والرد المحكم، والمقارنة عند علماء السلف تارة تكون بين الحق والباطل، كالمقارنة بين الإسلام والأديان المحرفة[1]، وتارة تكون بين حقين كالمقارنة بين الإسلام وبين الديانة اليهودية قبل تحريفها ونسخها، وتارة تكون بين باطلين كالمقارنة بين الأديان الباطلة، وذلك لبيان أن كفر بعضها وفساد عقائدها أشد من بعض، وهو منهج قرآني، قال تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾[2].

والقصد من هذه المقارنات كلها بيان الحق، وكشف الباطل، أما النقد فهو قائم على الهدم والبناء - أي هدم الباطل وإحلال الحق محله - هذا من حيث الهدف، أما من حيث المسلك فقد اتخذوا المنهج النقدي الشامل لنقد السند والمتن، أو ما يسمي عند المعاصرين بالنقد الخارجي، وهدفه دراسة الوثائق والنصوص، والظروف التي كتبت فيها، والطريقة التي حفظ بها، وكيفية روايته، ووصوله إلينا، والنقد الداخلي وهدفه دراسة مضمون النصوص، ومنطقيته، وخلوه من التناقض الذاتي، ومن مناقضة الحقائق العلمية المقررة،

---

(١) الجواب الصحيح ٢/ ٤، ٢/ ٥٢، ٤/ ٤٦.

(٢) سورة المائدة الآية: ٨٢.

المبرهنة والوقائع التاريخية الثابتة . .[١] .

ولعل منهج ابن حزم في كتابه "الفصل" يصور هذا المنهج بأجلى صورة وأدقها ، ثم إن النتيجة والمحصلة النهائية لعرض الأديان وإخضاعها للنقاش والنقد ، هو رد الباطل وقبول ما هو حق ، وقد تميز الرد عند علماء السلف بأمور أهمها:

١ - قوة الرد ، وإحكام النقض لشبهات أهل الملل ، بحيث لا تقوم قائمة لما يظنه أهل الباطل حججا ، وبراهين ، ولأهمية هذا الأمر نهى السلف أن يناظر من ليس له أهلية في المناظرة .

قال شيخ الإسلام: «وقد ينهون عن المجادلة ، والمناظرة إذا كان المناظر ضعيف العلم بالحجة وجواب الشبهة . . .»[٢] ، وقال: «فكل من لم يناظر أهل الإلحاد ، والبدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطى الإسلام حقه . . .»[٣] ، وقد أنحى السلف باللائمة على منهج أهل الأهواء لعدم قدرته على رد شبه أهل الباطل ردا شافيا[٤] .

وهذه الخصائص تظهر في المناظرات والمؤلفات على السواء .

* * * * *

(١) انظر: منهج نقد النص بين ابن حزم الأندلسي واسبينوزا ص ١٣ .

(٢) درء تعارض العقل والنقل: ٧/ ١٧٣

(٣) الفتاوى ٢٠/ ١٦٤ - ١٦٥ .

(٤) انظر: تأويل مختلف الحديث ، لأبي مسلم عبد الله بن مسلم بن قتيبة ص ٥٩ - ٦٠ ، دار الجيل - بيروت ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٢م .

المبحث الثاني

الضوابط الشرعية لدراسة الملل عند أهل السنة

توطئة:

من خلال ما سبق في الباب الأول تبين لنا مشروعية "علم الملل" وأن أصل مشروعيته من الكتاب والسنة، ومن مواقف السلف، ولكن المتأمل للنصوص الدالة على مشروعيته، ولطبيعة مواقف السلف من أهل الملل يجد أن هذه المشروعية مضبوطة بضوابط وأصول شرعية ينبغي مراعاتها في تناول هذا العلم، وهذا ليس غريبا، بل شأنه شأن كثير من الأمور الشرعية في الإسلام التي يتوقف تنفيذها بضوابط شرعية وشروط معروفة، وذلك كتنفيذ الحدود والجهاد مثلا .

ومن أهم الضوابط، والشروط اللازمة توفرها على من يدرس علم الملل، أو فيما يدرس من الملل - وهذه الضوابط بعضها واجب توفرها، وبعضها كمالية - ما يلي:

الضابط الأول: تقدير المصلحة والمفسدة في دراسة الملل:

فدراسة الأديان، والملل غير الإسلامية، والاشتغال بها لا تخلو من مخاطر ومزالق قد تضر المشتغل بها، كأن تترك شبهات أهل تلك الأديان في قلبه شيئا، وقد يلحق ضررا منها بالحق الذي معه، وذلك فيما إذا ضعف عن رد شبهات الخصوم، كما يمكن أن تؤدي دراستها إلى نشرها، وترويج مبادئها، لا سيما إذا لم يحكم الرد عليها .

لهذا ينبغي قبل التعرض إلى دراسة أية ملة أن يقدر في هذه الدراسة المصلحة، والمفسدة، وقول المعتمد في تقدير المصلحة، والمفسدة قول العلماء المؤتمنين على دينهم، ويخرج بهذا الضابط ما يلي:

١ - دراسة الأديان المندثرة ؛ لأن دراستها تؤدي إلى إحياء أفكارها، وعقائدها .

٢ - الاهتمام بدراسة الأديان التي ليس لها أثر على المسلمين ؛ لأن دراستها قد تؤدي إلى ترويج عقائدها وأفكارها .

٣ - الاهتمام بتفاصيل الأديان التي تدرس، كذكر عاداتهم، وتفاصيل أخبار حياتهم اليومية، فهذه مما ليس له فائدة في دراسته، ولا يدخل تحته عمل .

الضابط الثاني: الإخلاص:

والإخلاص هو أن يبتغي الإنسان بعلمه وعمله وجه الله تعالى، وقد تضافرت نصوص الكتاب، والسنة على تأكيد أهمية الإخلاص ومنها: قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾[1]، فالعمل المتقبل من العبد ما كان موافقا

للشرع، مرادا به وجه الله وحده[2]، كما بينت الآية. وفي الحديث الصحيح عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»[3]. فمدار صحة الأعمال أو فسادها النية؛ لذا فإن تصحيح النية هي الخطوة الأولى، والكبرى في طريق التوفيق، والوصول إلى الحق[4].

والقائم بالدفاع عن الحق، والدعوة إليه، والمجادلة من أجله أشد حاجة إلى الإخلاص من غيره، وذلك أنه في مجال ظهور حظ النفس أقوى فيه من غيره. لذا فإن توفر سلامة النية، والقصد شرط أساسي لمن يشتغل بدراسة الأديان، فلابد أن يكون قصده في هذا حراسة الدين، والذب عنه، ودلالة الناس على الهدى، وتثبيتهم عليه[5]، وألا يكون له أي غرض آخر، كالأغراض الشخصية، من انتصار للنفس، وطلب للشهرة، ولا بد أن يكون أمينا على الحق الذي يحمله إلى الخصم، والأمين هو الذي لا غرض له، ولا هوى.

قال ابن القيم - رحمه الله - في فوائد: "قصة وفد نجران" عندما بعث النبي ﷺ أبا عبيدة بن الجراح معهم، وقال: «لأبعثن معهم رجلا أمينا»[6] "ومنها بعث الإمام الرجل العالم إلى أهل الهدنة في مصلحة الإسلام، وأنه ينبغي أن يكون أمينا، وهو الذي لا غرض

---

(١) سورة الكهف الآية: ١١٠.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٣.

(٣) أخرجه البخاري، حديث رقم ١، انظر: فتح الباري ١/ ١٥.

(٤) ضوابط الدراسات الفقهية، سلمان بن فهد العودة ص: ٤١

(٥) الرد على المخالف من أصول الإسلام بكر أبو زيد ص ٥٤.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ باب مناقب أبي عبيدة بن الجراح، الحديث رقم: ٣٧٤٥، انظر الفتح ٧/ ١١٦ - ١١٧.

لـه ، ولا هـوى ، وإنما مـراده مجرد مرضاة الله ، ورسوله ، ولا يشوبها بغيرها ، فهذا هو الأمين حق الأمين ، كحال أبي عبيدة بن الجراح . . .»[١] . وقال الخطيب البغدادي في شأن آداب الجـدل والمناظرة: «ويخلـص النيـة في جدالـه ، بأن يبتغي به وجه الله تعالى ، وليكن قصده في نظره إيضاح الحق ، وتثبيته دون المغالبة للخصم»[٢] .

وقـال إمـام الحرمين الجويني موضحا آداب الجدل: «فأول شيء فيه مما على الناظر أن يقصد التقرب إلى الله – سبحانه – وطلب مرضاته في امتثال أمره – سبحانه – فيما أمر به مـن الأمـر بالمعـروف ، والنهي عن المنكر ، والدعاء إلى الحق عن الباطل ، وعما يخبر فيه ، ويـبالغ قـدر طاقـته في البـيان والكشـف ، عن تحقيق الحق وتمحيق الباطل ، ويتقي الله أن يقصـد بـنظره المـباهاة وطلـب الجـاه والتكسـب والممـاراة ، والمحك ، والرياء ، ويحذر أليم عقـاب الله – سـبحانه – ولا يكن قصده الظفر بالخصم ، والسرور بالغلبة ، والقهر ، فإنه من دأب الأنعام الفحولة ، كالكباش ، والديكة»[٣] .

والإخـلاص لله ، والبعد عن الانتصار للنفس ، لقمين أن يجعل الجدال ، والحوار بين المسـلم وغـيره مـن أتـباع الملـل الجـدال بالحسنى ، الذي لا يقصد فيه إلا كشف الحقيقة ، والوصـول إلى الحـق كمـا يجعـل المخـالف أقـرب إلى الانصياع لـلحق ، قال سيد قطب: «والجـدال بالتي هي أحسن بلا تحامل على المخالف ، ولا ترذيل لـه ، وتقبيح حتى يطمئن إلى الداعـي ، ويشـعر أن لـيس هدفـه هـو الغلبة في الجدل ، ولكن الإقناع ، والوصول إلى الحـق ، فالنفس البشرية لها كبرياؤها ، وعنادها ، وهي لا تنـزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالـرفق حـتى لا تشـعر بالهـزيمة ، وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأي ، وقيمتها عـند الـناس ، فتعتـبر التـنازل عـن الرأي تنازلاً عن هيبتها ، واحترامها وكيانها ، والجدل بالحسـنى هـو الـذي يطـامن مـن هذه الكبرياء الحساسة ، ويشعر المجادل أن ذاته مصونة ، وقيمـته كريمة ، وأن الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها ، والاهتداء إليها في سبيل الله ، لا في سـبيل ذاتـه ، ونصـرة رأيـه ، وهـزيمة الـرأي الآخر ، ولكي يطامن الداعية من

---

(١) انظر: زاد المعاد ، لابن القيم ٣/ ٦٤٤ .

(٢) الفقيه والمتفقه ، للخطيب البغدادي ، تصحيح إسماعيل الأنصاري ٢/ ٢٥ – ٢٦ .

(٣) الكافية في الجدل ، لإمام الحرمين الجويني ، تحقيق د . فوقية حسين محمود ص ٥٢٩ ، طبع بمطبعة عيسى البابي ، القاهرة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .

حماسته ، واندفاعه يشير النص القرآني إلى أن الله هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وأعلم بالمهتدين ، فلا ضرورة للجاجة في الجدل ، إنما هو البيان ، والأمر بعد ذلك لله»[١] .

وخلاصة القول أن الإخلاص ضروري لمن يشتغل في مجال دراسة الأديان:

١ - لكونه بابا من أبواب الجهاد ، والجهاد طاعة ، وقربة ، والطاعة يجب أن تكون خالصة لله .

٢ - الإخلاص طريق إلى التوفيق ، والسداد ، فالله سبحانه يعين عبده المخلص بتقوية ذهنه ، وإيراد خواطره ، والكشف عن الحق على لسانه[٢] . أما إذا أخل إخلاصه فقد يحرم الله عنه نصرته .

الضابط الثالث: الاستقامة:

الاستقامة كما قال ابن رجب الحنبلي: «هي سلوك الصراط المستقيم ، وهو الدين القويم من غير تعويج عنه ، يمنة ، ويسرة ، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها ، الظاهرة ، والباطنة ، وترك المنهيات كلها كذلك»[٣] ، وهي من الصفات الكمالية التي ينبغي أن تتوفر على من يشتغل بدراسة الملل ، ويقوم برد المخالفين ، وذلك أن من يقوم بهذه الوظيفة داع إلى الله تعالى ، والداعي ينبغي أن يكون قدوة فيما يدعو إليه ، لكن العلماء ذكروا: «أن الاستقامة صفة كمال ، وليست شرط وجوب أو صحة»[٤] .

قال الإمام النووي - رحمه الله تعالى -: «قال العلماء لا يشترط في الآمر بالمعروف ، والناهي عن المنكر أن يكون كامل الحال ، ممتثلا ما يأمر به ، مجتنبا ما ينهى عنه ، بل عليه الأمر وإن كان مخلا بما يأمر به ، والنهي وإن كان متلبسا بما ينهى عنه ، فإنه يجب عليه شيئان: أن يأمر نفسه وينهاها ، ويأمر غيره وينهاه ، فإذا أخل بأحدهما فكيف يباح له الإخلال بالآخر»[٥] .

---

(١) انظر: في ظلال القرآن سيد قطب ٤/ ٢٢٠٢ .

(٢) انظر: الكافية في الجدل ص ٥٣٠ .

(٣) جامع العلوم والحكم ، لعبد الرحمن بن شهاب الدين بن رجب الحنبلي ص ١٩٣ .

(٤) انظر: فقه التعامل مع المخالف د . عبد الله الطريقي ص ٣٥ .

(٥) شرح صحيح مسلم ، للنووي ٢/ ٢٣ .

وقال العلماء في توجيه معنى الذم الوارد في قولـه تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾[١] وقولــه تعالى: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾[٢]«أن الذم إنما يقع عـلى ارتكـاب ما نهى عنه، لا على نهيه عن المنكر»[٣]، والمقصود هنا من الاستقامة، أنه ينبغي على المسلم المشتغل بدراسة الأديان أن يكون مستقيما على الحق معتصما به، حتى لا يكون عمله مصرفا الناس عن الحق.

الضابط الرابع: الأهلية:

الأهلـية مـن الأمـور الضـرورية، والضوابط المهمة لمن يشتغل بعلم الملل، وذلك أن المشـتغل بدراسـة الملل إذا لم يكن مؤهلا لها كان ضره أكثر من نفعه، ومن أهم المؤهلات المطلوبة لـه:

أ - **الاســتعداد العقلي**: فالعالم الذي يتصدى لدراسة الملل يحتاج إلى مواهب تجعله قـادرا على القيام بأعباء هذا العلم، ذلك أن هذا العلم من العلوم التي تتطلب قدرا كبيرا مـن الذكـاء، وحضـور الذهن لما يشتمله عليه من حجاج، ومناقشات عقلية، ومناظرات يحتدم فيها الجدال

بـ - **العــلم**: فالعـلم من أهم الشروط التي يجب توفرها على من يقوم بوظيفة الدفـاع عـن الديـن، وذلـك أن العـلم قـبل العمـل، قال تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْـتَغْفِرْ لِذَنــبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾[٤]، وقـد تنبه الإمام البخاري - رحمه الله - لهذا، فبوب لهذه الآية بقولـه: "باب العلم قبل القول والعمل"[٥]. فالعـلم مقـدم عـن القـول والعمـل؛ لأنه شرط في صحة القول والعمل، فلا يعتبران إلا به[٦].

ومـن الأدلـة الدالـة على ذم القول قبل العلم قولـه تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي

---

(١) سورة البقرة الآية: ٤٤.
(٢) سورة الصف الآية: ٣.
(٣) انظر: تفسير القرطبي ٤/ ٤٧.
(٤) سورة محمد الآية: ١٩.
(٥) صحيح البخاري مع فتح الباري كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل ١/ ١٩٢.
(٦) انظر: فتح الباري ٢/ ١٩٣.

اللّــه بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾[١]، فالآيـة دلت على ذم المجادل بغير علم، وقال تعـالى في ذم أهـل الكـتاب الذين جادلوا بغير علم: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَـآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾[٢]، وقـال تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾[٣].

قال الشوكاني: «ومعنى الآية: النهي عن أن يقول الإنسان ما لا يعلم، أو يعمل ما لا عـلم لــه بـه»[٤] والـتزاما بهـذا الشـرط كـان السلف - رضوان الله عليهم - يمنعون عن الجـدال، لئلا يجادل، ويناظر، من لا يقوم بواجبها، قال شيخ الإسلام: «وقد ينهون عن المجادلـة، والمناظرة، إذا كان المناظر ضعيف العلم بالحجة، وجواب الشبهة، فيخاف عليه أن يفسـد ذلـك المضـل، كمـا يـنهى الضـعيف في المقاتلـة أن يقاتل علجا قويا من علوج الكفار، فإن ذلك يضره ويضر المسلمين بلا منفعة»[٥].

بـل نجد أن شيخ الإسلام ابن تيمية يرى أن من يحكم في الملل، والأديان بغير علم، ولا عدل، أولى بالنار، ممن يقضي بين الناس، في الأموال والدماء والأعراض، بغير علم ولا عدل، فيقول: «ولما كان أتباع الأنبياء هم أهل العلم والعدل، كان كلام أهل الإسلام والسنة مـع الكفـر وأهـل البدع بالعلم والعدل، لا بالظن وما تهوى الأنفس، ولهذا قال الـنبي ﷺ: «القضـاة ثلاثـة: قاضـيان في النار، وقاض في الجنة، رجل علم الحق وقضى به فهـو في الجـنة، ورجل علم الحق وقضى خلافه، فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار»[٦].

فـإذا كان من يقضي بين الناس في الأموال، والدماء، والأعراض - إذا لم يكن عالما

---

(١) سورة الحج الآية: ٨ .
(٢) سورة آل عمران الآية: ٦٥ - ٦٦ .
(٣) سورة الإسراء الآية: ٣٦ .
(٤) فتح القدير، للشوكاني ٣/ ٢٢٧ .
(٥) درء تعارض العقل والنقل ٧/ ١٧٣ .
(٦) أخرجه أبـو داود، الحديث رقـم ٣٥٧٣ انظر: عـون المعـبود ٩/ ٣٥٣، وأخرجه ابن ماجه في سننه في الأحكام باب الحـاكم يجتهد فيصيب الحـق الحديـث رقـم ٢٣١٥، ٢/ ٧٧٦، وأخرجه الحاكم في الأحكام ٤/ ٩٠ وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه

عادلا - كان في النار، فكيف بمن يحكم في الملل، والأديان، وأصول الإيمان، والمعارف الإلهية، والمعالم الكلية، بلا علم ولا عدل»[١]. وبهذا يتبين أن العلم شرط ضروري لمن يشتغل بنقد الملل، والأديان، والحكم عليها.

والعلم ينقسم إلى نافع، وغير نافع، كما في حديث زيد بن أرقم أن النبي ﷺ كان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها**»[٢]. والعلم النافع هو العلم الذي يولد عملا، وينفع صاحبه في الدنيا، والآخرة، والعلم غير النافع لا ينفع صاحبه في الدنيا، أو لا ينفع صاحبه في الآخرة[٣]. والعلم النافع يقتضي أمرين متلازمين:

أحدهما: العلم بشرع الله المطهر كتابا وسنة، ويقتضي ذلك العلم بمنهج السلف قولا واعتقادا وعملا.

والآخر: العلم بالواقع الذي يراد تطبيق شرع الله عليه[٤].

والعلم يشمل في مجال دراسة الملل - إذاً - العلم بالإسلام من مصادره الأساسية من الكتاب، والسنة، وما يفسرهما من أقوال السلف، أو يساعد على فهمهما من علوم الآلة كاللغة العربية، كما يشمل العلم بشبهات أهل الملل، وطرق الرد عليها. وهذا يتطلب أن تكون ثقافة المشتغل بعلم الملل ثقافة موسوعية تشمل على:

١ - **معرفة تفسير القرآن الكريم وعلومه**: ولا ينبغي أن يقتصر على معرفة الآيات التي تناولت الحديث بأحكام أهل الملل، وعلاقة الإسلام بالأديان الأخرى.

٢ - **معرفة السنة النبوية**: لكونها المصدر الثاني من مصادر الشريعة، ولكونها تناولت الأديان السابقة، والملل الباطلة، عرضا، ومقارنة، ونقدا، وبيانا لموقف الإسلام من الأديان، فالسنة مصدر ثري لمعرفة الأديان.

---

(١) الجواب الصحيح ١/ ١٠٧ - ١٠٨، دار العاصمة.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء. باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل الحديث رقم ٢٧٢٢، انظر: شرح النووي ١٧/ ٤٥.

(٣) انظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة ١/ ٥٥.

(٤) الحوار أصوله المنهجية وآدابه السلوكية د. أحمد بن عبد الرحمن الصويان ص ٤٥.

٣ - معــرفة عــلم أصول الفقه والقواعد الفقهية ومقاصد الشريعة: والقواعـد الأصـولية هي الموازين، والضوابط التي يتوصل بها إلى استفادة الأحكام الشرعية العملية مـن أدلـتها التفصـيلية كـالقول: الأمـر للوجـوب، والـنهي للتحريم، وحمل المطلق على المقيد، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . . . الخ .

أمـا القواعـد الفقهية: فهي الضوابط الكلية الفقهية التي يندرج تحتها أحكام تشريعية عامـة، كقـول الفقهـاء مـثلا: الأمور بمقاصدها، واليقين لا يزول بالشك، والمشقة تجلب التيسير، والعادة محكمة . . . الخ .

أمـا المقاصـد: فهـي المعـاني والحكـم المـلحوظة للشـارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها[(١)]

٤ - معـــرفة علم التوحيد: فعلم التوحيد يدرس فيه أهم القضايا التي يتناولها علم الملـل، وهـي قضـايا العقائد، وقد تناول أغلب علماء السلف، في كتب التوحيد مباحث تـتعلق بمناقشـة الأديـان، كمـا أن أغلـب الذيـن أرخوا للملل، والنحل، من علماء علم التوحـيد؛ لهذا فإن المشتغل بعلم الملل ينبغي أن يكون ملما بعلم التوحيد، ومناهج علماء المسلمين فيه، مع التفريق بين منهج علماء السلف، ومنهج أهل الكلام المبتدع .

٥ - معرفة الأديان المنحرفة والمذاهب الهدامة: كمـا سبق بيانه فإن علماء المسلمين تركوا لنا مصادر ثرية في علم الملل والنحل، و الملل الموجودة اليوم ليست إلا تلك الملل، ومـا اسـتجد، من العقائد، والأيدلوجيات، لا يخرج في غالبه عن أصول تلك الملل، لذا ينـبغي لكـل مـن يشتغل بدراسة ديانة من الأديان أن يعرف أولا كتب علماء المسلمين في الملل، وأن يفيد من مناهجهم .

٦ - معــرفة كتـــب أهل الملل: كتب غير المسلمين ليست مصادر يعتمد عليها في تقريـر حكـم مـن الأحكـام، لكـن معرفة مصادر أهل دين ما، ضرورية لمن يشتغل بالرد عليها، وذلك لكي يتمكن من معرفة حقيقتها؛ فيكون رده عليها ردا علميا .

٧ - معــرفة لغـــات أهل الملل: معـرفة لغة أهل دين ما بالنسبة لمن يرد عليها أمر

---

(١) انظر: فقه التعامل مع المخالف ص ١٢٣

جائز ، فقد تعلم زيد بن ثابت اللغة العبرية بأمر من النبي ﷺ كما روى الترمذي[١] ، وقد تكون واجبة[٢] . قال شيخ الإسلام: «ومعرفتنا بلغات الناس واصطلاحاتهم نافعة في معرفتنا مقاصدهم ثم نحكم فيها كتاب الله تعالى فما وافقه فهو حق وما خالفه فهو باطل»[٣] ويظهر لي أن تعلم المتخصصين بعلم الملل في هذا العصر باللغات الأجنبية الأكثر انتشارا من الأمور المهمة ، وذلك أن معرفة لغتهم من الأمور المساعدة على إبلاغ الدعوة لهم ومعرفة مخططاتهم ، والكشف عن أساليبهم في حرب الإسلام .

الضابط الخامس: التزام المنهج الشرعي في تقرير الأحكام:

وأعني بالمنهج الشرعي: منهج أهل السنة والجماعة الذي يعتمد على الكتاب والسنة ، والإجماع المبني عليهما ، والقائم من حيث الاستدلال على حصر الاستدلال في الدليل الشرعي مع مراعاة ترتيب الأدلة الشرعية ، وعدم التفريق بين متواتر ، وآحاد ، والمعتمد على تفسير النصوص بعضها ببعض ، ثم على تفسيرالصحابة وفهمهم للنصوص[٤] ، وقد سبق بيان طرف لهذا المنهج في المبحث السابق ، وبيان التزام علماء السلف به ، وفائدته في مجال دراسة الأديان

الضابط السادس: العدل والإنصاف[٥]:

العدل ، والإنصاف ، والأمانة العلمية من أهم الخصال التي ينبغي أن يتحلى بها المختلفون ، والمختصمون ؛ لئلا يقع ظلم على أي طرف منهما ، وليكون الحوار والنقاش بينهم مبنيا على أسس سليمة ، وحضارية ، لكن قلما توجد هذه الخصال بين المختصمين ، وذلك أن الخصومة تدفع كلّ طرف إلى أن يتناسى محاسن الطرف الآخر ، وأن يهضم حقوقه ، وإذا كان ذلك قد يقع بين من هم في دين واحد فلا شك أن الظلم يكون أشد بين من هم مختلفين في الدين ، لكن المسلم الملتزم بشرع الله هو الذي يتصف بهذه الخصال ، فهو في التزامه للعدل ،

---

(١) سنن الترمذي ، الحديث رقم ٢٨٥٨ ، انظر: تحفة الأحوذي ٧/ ٤١٢ - ٤١٣ .

(٢) انظر: الفتاوى الكبرى ، لابن تيمية ٥/ ٣٢٥ .

(٣) المصدر السابق ٥/ ٣٢٦ .

(٤) انظر: مناهج أهل الأهواء والافتراق والبدع ص ١٣ - ١٥ .

(٥) هذا الضابط والذي بعده يدخلان في الضابط الخامس لكن خصصتهما بالذكر لأهميتهما في مجال دراسة الأديان

والإنصاف لا يفرق بين عدو، وصديق، فالتزامه إنما ينبع من امتثاله لأمر الله الوارد في قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[2]، فالعدل واجب في كلّ حال، ولكل أحد، والظلم محرم مطلقا، والبغض لأعداء الله، والبراءة منهم، لا يسوغان للمسلم أن يظلمهم، فالله - سبحانه - حرم الظلم على نفسه، وجعله محرما بين عباده.

وقد كان الصحابة، والسلف الصالح من بعدهم خير مثال في هذا، فهذا عبد الله بن رواحة - رضي الله عنه - لما بعثه النبي ﷺ ليخرص على أهل خيبر ثمارهم، وزروعهم فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم، فقال: «والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلي، ولأنتم أبغض إلي من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملني حبي إياه، وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم، فقالوا: فبهذا قامت السموات والأرض»[3].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - مبينا وجوب العدل في كلّ حال، وتحريم الظلم مطلقا: «ومعلوم أنا إذا تكلمنا فيمن هو دون الصحابة، مثل الملوك المختلفين على الملك، والعلماء والمشايخ المختلفين في العلم والدين، وجب أن يكون الكلام بعلم وعدل، لا بجهل وظلم، فإن العدل واجب لكل أحد على كلّ أحد في كلّ حال، والظلم محرم مطلقا، لا يباح قط بحال، قال تعالى: ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾[4]، وهذه الآية نزلت بسبب بغضهم للكفار، وهو بغض مأمور به، فإذا كان البغض الذي

---

(١) سورة النساء الآية: ١٣٥.

(٢) سورة المائدة الآية: ٨.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٥٠٣.

(٤) سورة المائدة الآية: ٨.

أمر الله به قد نهي صاحبه أن يظلم من أبغضه فكيف في بغض مسلم»[١] . ومن هذا ندرك أن العدل مبدأ من مبادئ هذا الدين ، ويتساوى فيه المسلم والكافر .

وإذا كان العدل للكفار من الأمور الصعبة على نفوس المسلمين لبغضهم وغيظهم لهم ، وإذا كان هذا أشد ما يكون عند المجادلات ، والمناظرات ، أو الرد عليهم شفاها ، أو كتابة ، وكان الناس غير سواء في هذا ، إذ منهم شديد الحدة الذي ينسيه غضبه التقيد بحدود الشرع ؛ فينفعل عندما يرى فحش كلام الكفار وعظم جرمه في الدين ، فيتعدى هو أيضا الحدود في القول ، أو في الكتابة ، أو يؤديه إلى ارتكاب الظلم ، وإذا كان هذا خروجا عن حدود الشريعة ؛ فإن هذا الضابط - العدل والإنصاف - يعد من أهم الضوابط التي ينبغي أن تتوفر على من يشتغل بدراسات الملل ، مقارنة ، ومناقشة ، ونقدا .

الموضوعية والتجرد والحياد وعلاقتها بالعدل والإنصاف: كثير من الباحثين المعاصرين يستعملون في مجال البحث العلمي هذه المصطلحات: الموضوعية ، التجرد ، الحياد ، مكان مصطلح العدل والإنصاف ، وهذا أمر غير سديد **للأسباب الآتية:**

١ - أن السلف - رحمهم الله - لم يستعملوا هذه المصطلحات ، وإنما استعملوا لفظ الأمانة ، والإنصاف ، والصدق ، والعدالة ، وهذه التعابير تؤدي إلى المعنى الصحيح الذي تحمله المصطلحات الحديثة ، وتزيد عليه لما لتلك التعابير من الدلالة الشرعية ، والشمول ، والإحاطة ، بالمعنى المقصود[٢] .

٢ - أن هذه المصطلحات الحديثة مصطلحات غربية ، وتحمل من المفاهيم ما لا يتفق مع المفهوم الإسلامي ، فالموضوعية تعني عند الغربيين: التجرد من المقررات ، والأحكام الدينية ، وأن يبحث الموضوع بحثا عقليا مجردا ، والتجرد يعني عندهم الانفصال عن كلّ المؤثرات النفسية ، والاجتماعية ، والتصورات السابقة من العقائد ، والأهواء ، والميول ، والرغبات ، أما الحياد فيعني: عدم

---

(١) منهاج السنة ٥/١٢٦ - ١٢٧ .

(٢) انظر: منهج كتابة التاريخ الإسلامي ، لمحمد بن صامل العلياني السلمي ص ١٣٧ .

انتصار الباحث لرأي أو مذهب ضد الآخر حتى ولو بعد تبين الحق[١] . إن مكمن الخطر في هذه المصطلحات أنها تطالب من المسلم أن يتحرر عن عقيدته قبل أن ينزل إلى ميدان البحث ، وأن يكون هو وغيره من الملحدين والمشركين سواء في هذا ، والحق أن تجرد الإنسان عن عقيدته بغض النظر عن نوعها من الأمور المستحيلة[٢] .

فلا يخلو الأمر إما أن يتجرد عنها ؛ فيترك بذلك دينه كليا ، وإما أن تسيطر على أحكامه ، وتقود فكره فتأتي أحكامه في البحث على ضوء ما تمليه عقيدته ، ومن المفارقات العجيبة التي تقع من بعض المتأثرين بالمنهج التجردي الغربي ، أن منهم من يرى أنه من المستطاع أن يؤرخ الملحدون تاريخ الديانات بطريقة موضوعية خالصة ، لا تتدخل فيها ذات المؤرخ ، وعقيدته الخاصة ، ولكن من المستحيل أن يؤرخ للآداب غير الأديب ، بدعوى أن المؤرخ للآداب مضطر معها إلى الذوق الأدبي[٣] .

الضابط السابع: الالتزام بالمصطلحات الشرعية:

المصطلحات الشرعية نوعان:

النوع الأول: مصطلحات توقيفية ، وهي التي جاءت بها النصوص مثل ألفاظ الإيمان ، والإسلام ، والإحسان ، والتقوى ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، والبيع ، والنكاح ، أو الزواج ، والخمر ونحو ذلك .

النوع الثاني: مصطلحات وضعية اجتهادية ، مثل مصطلحات أسماء بعض العلوم ، والفنون: كالعقيدة ، وأصول الفقه ، والنحو ، أو قواعد اللغة ، وتخريج الأحاديث ، وغير ذلك .

فالنوع الأول: يجب التزامه ، ولا يجوز تبديله وتحريفه ، فلا يسمى الربا بيعا ،

---

(١) انظر: المصدر السابق ص ١٣٨ - ١٤٥ بتصرف .

(٢) انظر: مدخل إلى الدراسات الإسلامية ، د . محمد بلتاجي ص ٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٨ .

والخمر نبيذا، أو مشروبا روحيا[١]. قال تعالى ردا على الذين زعموا أن البيع مثل الربا: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾[٢]، فالمشركون جعلوا "الربا" نظير "البيع" اعتراضا على شرع الله[٣].

ففي حديث أبي مالك الأشعري أن النبي ﷺ قال: «**ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها**»[٤]، ففي هذا الحديث علم من أعلام النبوة، وهو إخباره ﷺ أن بعض الناس سيشربون الخمر، ويغيرون اسمها الشرعي، وهو ما حدث، فقد شاع في هذا العصر تسمية الخمر مشروبا روحيا.

أما النوع الثاني: وهوالمصطلحات الوضعية الاجتهادية فإنها وإن كانت ليست من وضع الشارع لكن كثيرا منها أقره أهل العلم فكان إجماعا أو كالإجماع . . . فلا يجرؤ على تحريفها وتغييرها - في الغالب - إلا من كان ضعيف الصلة بالعلم الشرعي إما لجهل أو لمرض قلب[٥]، وهو منهج أهل الأهواء والبدع.

هذه عن المصطلحات الشرعية التي تعبر عن الحقائق الشرعية، أما المصطلحات المتواضعة بين الناس والتي تعبر عن الحقائق العرفية أو اللغوية، فميزانها الشرع نفيا وإثباتا.

والسلف - رضوان الله عليهم - كانوا شديدي الحرص على ضبط المصطلحات، والتعبير عن الحقائق بالألفاظ الشرعية، وذلك أن الألفاظ لها دور أساسي في تجلية الحقائق، وضبط المعاني، أو تعقيدها، واضطرابها، فالمصطلحات هي الوعاء التعبيري الذي تطرح من خلاله الفكرة، وتنفذ عن طريقه إلى العقل، فإذا اضطرب ضبط هذا الوعاء، أو اختلت مدلولاته التعبيرية اختل البناء الفكري ذاته، واهتزت قيمته في الأذهان[٦].

---

(١) فقه التعامل مع المخالف، ص ١٢٤.

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٧٥.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٢٨٧.

(٤) أخرجه أبو داود، انظر: عون المعبود ١٠/ ١٠٩ - ١١٠.

(٥) فقه التعامل مع المخالف ص ١٢٥.

(٦) دفاع عن ثقافتنا، لجمال سلطان ص ٢٤، دار الوطن، ط الأولى ١٤١٢هـ.

وقضية ضبط المصطلحات أمر نبه القرآن الكريم عليه المؤمنين في عهد نزول الوحي، فقد نهي الله المؤمنين أن يقولوا ﴿ رَاعِنَا ﴾ وأمرهم أن يقولوا ﴿ انظُرْنَا ﴾ فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا ﴾[1]، وذلك أن اليهود كانت تستخدم كلمة "راعنا" لمعنى فاسد يحمل مسبة للنبي ﷺ.

وللمصطلحات ارتباط وثيق بالبيئة التي تنبع منها أو الاتجاه الفكري الذي يبتدعها، فقد يكون اللفظ الذي يستعمله اتجاه مخالفا في المعنى في استعماله عند اتجاه آخر مثال ذلك معاني مصطلحات "التوحيد، والعدل، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر" فهذه المصطلحات يختلف معناها عند المعتزلة عن معناها عند أهل السنة والجماعة - كما سيأتي بيانه -، والمصطلحات تتجدد وتتطور، حتى في داخل الاتجاه الواحد، والمدرسة الفكرية الواحدة، وعدم تحديد معانيها، وما تحملها من معان باطلة يؤدي - في الغالب - إلى الاختلاف والتنازع. ومما يعظم شأن أمر المصطلحات عند أهل السنة أن أهل الأهواء استحدثوا في الإسلام مصطلحات مبتدعة، ووصفوا بها ما هم عليها من العقائد الباطلة والأفكار المنحرفة، ولبسوا فيها الحق بالباطل، حيث استخدموا الفاظا شرعية لمعان باطلة، وألفاظاً ذميمة لمعان صحيحة، وكل هذا من باب التلبيس والإيهام على الناس، وتحريف الكلم عن مواضعه، كما أن أهل الكتاب هم سلف لكل خلف في هذا الباب.

موقف أهل السنة من المصطلحات: يتلخص موقف أهل السنة من أمر المصطلحات التي تنسب إلى الأنبياء أو السلف، أو إلى الخصوم بما يلي:

١ - التأكد من صحة نسبة المصطلح ومعناه: قال شيخ الإسلام: «المنقول عن السلف والعلماء يحتاج إلى معرفة بثبوت لفظه، ومعرفة دلالته، كما يحتاج إلى ذلك المنقول عن الله ورسوله»[2] والأمر في هذا أن العلم يحتاج إلى نقل

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٠٤.

(٢) الفتاوي ١/ ٢٤٦.

مصدق، ونظر محقق[١].

٢ - اتباع المنقول من المصطلحات: وذلك أن اتباع ألفاظ الكتاب والسنة أولى من أي ألفاظ أخرى في تقرير أمور الدين لأن ذلك يؤدي إلى موافقة النصوص لفظا ومعنا.

٣ - فهم المصطلحات: وذلك بمعرفة دلالة المصطلح ومعرفة مراد المتكلم به، فعند تناول مصطلحات علماء المسلمين نفهمها بهذين الاعتبارين. «وذلك أن دلالة الخطاب إنما تكون بلغة المتكلم وعادته المعروفة في خطابه، لا بلغة وعادة واصطلاح أحدثه قوم آخرون بعد انقراض عصر الذين خاطبهم بلغته وعادته كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[٢][٣].

٤ - الاستفسار والاستفصال عند الإجمال: يلتزم السلف إزاء الألفاظ المجملة التي يوردها أهل الباطل بهذه القاعدة فلا يوافقون على إثبات لفظ مجمل أو نفيه، إلا بعد الاستفسار عن مراد صاحبه، وذلك كألفاظ الجوهر والجسم، والجهة، وهي من الألفاظ المبتدعة عند أهل الأهواء وأهل الكتاب. قال ابن تيمية: «وما تنازع فيه المتأخرون، نفيا وإثباتا، فليس على أحد، بل ولا له أن يوافق أحدا على إثبات لفظ أو نفيه، حتى يعرف مراده، فإن أراد حقا قبل، وإن أراد باطلا رد، وإن اشتمل كلامه على حق وباطل لم يقبل مطلقا، ولم يرد جميع معناه، بل يوقف اللفظ ويفسر المعنى»[٤].

مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم ولغتهم: يستثنى مما سبق مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم عند الحاجة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم ولغتهم فليس بمكروه إذا احتيج إلى ذلك وكانت المعاني صحيحة، كمخاطبة العجم من الروم والفرس والترك بلغتهم وعرفهم، فإن هذا جائز حسن للحاجة..»[٥] لاسيما «إذا كان المناظر معارضا للشرع بما

---

(١) المصدر السابق ١/٢٤٦.

(٢) سورة إبراهيم الآية: ٤

(٣) درء تعارض العقل والنقل ٧/١٢٣، منهج ابن تيمية في الدعوة ١/٨٧ - ٨٩.

(٤) التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق د. محمد بن عودة السعوي ص ٦٥ - ٦٦.

(٥) درء تعارض العقل والنقل ١/٤٣.

يذكره أو ممن لا يمكن أن يرد إلى الشريعة، مثل من لا يلتزم الإسلام ويدعو الناس إلى ما يزعمه من العقليات، أو ممن يدعي أن الشرع خاطب الجمهور، وأن المعقول الصريح يدل باطنا يخالف الشرع، ونحو ذلك، أو كان الرجل ممن عرضت له شبهة من كلام هؤلاء، فهؤلاء لابد في مخاطبتهم من كلام على المعاني التي يدعونها: إما بألفاظهم، وإما بألفاظ يوافقون على أنها تقوم مقام ألفاظهم...»[1].

وعلى العموم فإن مخاطبة أهل الاصطلاح بلغتهم واصطلاحهم يفيد من وجوه:

١ - أنهم يفهمون الحجة.

٢ - أن ذلك أبلغ في الرد عليهم، وكسرهم.

٣ - بيان تمكن أهل الحق من معاني مسائلهم وعرضها بأي أسلوب يقتضيه الموقف[2]

وقد استعمل علماء السلف هذا المنهج مع أهل الأهواء، ومع أهل الكتاب[3]. والمقصود في هذا الضابط بيان أن الأصل في دراسة الملل الالتزام بالمصطلحات الشرعية.

* * * * *

---

(١) المصدر السابق ١/ ٢٢١.

(٢) منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة ٢/ ٧٠٩.

(٣) من ذلك على سبيل المثال مناقشة ابن تيمية للنصارى في قضية الجوهر والأقانيم، انظر: الجواب الصحيح ٢/ ١٤٣.

الفصل الثاني

مناهج المخالفين لأهل السنة فى دراسة الملل ونقدها

توطئة:

وبعد الحديث عن منهج أهل السنة في دراسة الملل والضوابط الشرعية لهذا العلم نلقي الضوء هنا وبشكل مختصر على مناهج المخالفين لمنهج أهل السنة، وهو أمر مهم إذ إن لبعض الفرق المبتدعة القدح المعلى في هذا العلم، مما يجعل ضرورة لكل باحث في مناهج علماء المسلمين في علم الملل أن يتناولها بالدراسة والنقد والتمحيص ليبين الحق عن الباطل وليتميز الغث من الثمين، وبيان أن خطأ مناهج المخالفين لمنهج أهل السنة والجماعة تأكيد لصواب منهجهم وصحته.

ثم بما أن فصلا واحدا لا يفي تناول دراسة تلك المناهج كلها فإن الدراسة هنا تقتصر على أمرين هما:

الأول: ذكر أهم الاتجاهات المخالفة لمنهج أهل السنة.

الثاني: بيان الأسس المنهجية لدراسة الملل عند المخالفين.

* * * * *

المبحث الأول

اتجاهات المخالفين وأصنافهم

الاتجاهات المخالفة لمنهج أهل السنة في دراسة الملل هي نفس الاتجاهات التي خالفت نهج أهل السنة في أصول الدين، وهي كثيرة لكن يمكن أن تصنف في ثلاث اتجاهات رئيسة، وكل اتجاه من هذه الاتجاهات يشمل على أصناف من طوائف المخالفين لأهل السنة والجماعة وهذه الاتجاهات هي:

الأول: الاتجاه الصوفي. **الثاني**: الاتجاه الفلسفي. **الثالث**: الاتجاه الكلامي.

المطلب الأول: الاتجاه الصوفي

فالاتجاه الصوفي يدخل فيه أقسام الصوفية المختلفة؛ إذ الصوفية أنواع وأقسام - كما ذكر أهل العلم -[1] تختلف في قربها وبعدها عن الحق حيث إن منها طرقاً معتدلة[2] كما أن منها طرقاً غالية[3].

منهج الصوفية: بدأ التصوف في بداية نشأته في صورة من النسك والزهادة، ولم يكن مخالفا لمنهج أهل السنة والجماعة في العقائد والأصول، وإن كانت له مخالفات في بعض مظاهر التعبد والسلوك[4]. لكن في القرن الثالث الهجري بدأ التصوف مرحلة جديدة في الانحراف بسبب التأثيرات الخارجية من عقائد الأمم كاليهود والنصارى ومن فلسفات الهنود والفرس حتى صار للإسلام عند - غالب - الصوفية فهم خاص حيث زعموا أن للدين ظاهر وباطن، وأن الظاهر هو الشريعة، بينما الباطن هو الحقيقة، وهو ما يكشف عن معاني الغيب وما يلقى في القلب إلقاء قال: رويم البغدادي "ت ٣٣ هـ" كلّ الخلق قعدوا على الرسوم وقعدت هذه الطائفة "الصوفية" على الحقائق طالب الخلق كلهم بظواهر الشرع، وهم طالبوا أنفسهم بحقيقة الورع ومداومة الصدق[5].

---

(١) انظر: الفتاوى ١١/١٨ - ٢٠، التفسير والمفسرون للذهبي ٢/٣٣٩.

(٢) كالجنيدية المنسوبة إلى جنيد بن محمد، انظر: الصوفية معتقدا ومسلكا د. صابر طعيمة ص ٤٠.

(٣) كطرق وحدة الوجود، والاتحاد والحلول، انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب العاصرة ص ٣٤٧

(٤) انظر: في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق د. إبراهيم مدكور ٢/٦٨.

(٥) انظر: في الفلسة الإسلامية منهج وتطبيق ص ١٣٧.

وقـد أدى ذلك إلى أن يكون لهذا الاتجاه منهج خاص في طرق اكتساب المعرفة وتقرير ما يعتقدونه ، وهو ما يعرف بمنهج التأويل الباطني أوالإشاري والرمزي[١] .

ولـيس للصـوفية جهود ظاهرة في مجال علم الملل كبعض الفرق الكلامية الأخرى مما جعل

الكـثير مـن الباحثين لا يصنفونهم ضمن الفرق الكلامية عند الحديث عن فرق الأمة التي برزت في الكلام عن أصول الدين ولعل السبب في ذلك يعود إلى ما يلي:

أ - **انعـــزالهم عن المخالطة**: فالتصـوف في الأصل العكوف على العبادة والانقطاع عـن الخلـق والانشـغال بالأوراد والأذكار[٢] وهذا أدى إلى انفرادهم وانعزالهم عن مخالطة الخلق .

ب - **منهجهم**: ثـم إن مـنهج الصوفية في اكتساب المعرفة لـه إسهام في ذلك ؛ إذ إن معظـم الصـوفية يفرقون بين العلم والمعرفة حيث زعموا أن المعرفة تتطلب اتصالا مباشرا - أي دون واسطة بين العبد وخالقه - وأن لفظ العلم غير مرادف للفظ المعرفة ومعنى أن الصـوفية لم يعولـوا عـلى الحـس ولا عـلى العقـل والـنقل ، وإنما اعتمدوا على الأحوال والأذواق والمواجـيد الـتي مـن قبـيل الوجدانيات التي لاتعرف بالعقل وإنما بالقلب فقط ، والـتي لا تسـتمد مـن تجـربة ولا معـلم ولا كتاب ، وإنما عن تجربة ذوقية باطنية ، ومعرفة القلب الذي يعرف ويشاهد[٣] .

قـال الغـزالي موضـحا مـنهج الصـوفية في المعرفة: «فاعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلـوم الإلهامـية دون التعليمـية ، فلذلـك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصـنفون والبحـث عـن الأقاويل والأدلة المذكورة بل قالوا: الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصـفات المذمومـة وقطع العلائق كلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، ومهما حصل ذلـك كان الله هو المتولي لقلب عبده والمتكفل لـه بتنويره بأنوار العلم ، وإذا تولى الله أمر القلـب فاضـت علـيه الـرحمة وأشـرق النور في القلب وانشرح الصدر ، وانكشف لـه سر

---

(١) انظر: المصدر السابق ص ١٣٧ ، مناهج اهل الأهواء والافتراق والبدع ص ١٧ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٩٥ .
(٣) أنظر: الفرق الكلامية الإسلامية د . علي عبد الفتاح المغربي ص ١١٩ .

الملكوت وانقشع عن القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية، فليس على العبد إلا بالاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله من الهمة . .»[١] ومن هذا النص يتبين لنا أن منهج الصوفية في المعرفة هو ما يسمونه الإلهام أو الكشف المقابل لمنهج الاستدلال النظري العقلي[٢] .

جـ - موقفهم من الأدلة الشرعية والعقلية: لقد أدى اعتماد الصوفية على المواجيد والأحوال طلبا للكشف إلى إنكار العلوم الشرعية والعقلية، واعتبارها من جملة الحجب والعوائق التي يجب على السالك التخلص منها وتجاوزها، إن هو أراد الوصول إلى حقيقة المعرفة، بل تجدهم قد وصفوا ما عندهم بالمعرفة والقطع، وما عند غيرهم بالعلم والظن، فالعلم طريق الخبر، أما المعرفة فطريقها الكشف والعيان، والعلم - عندهم - حجاب على المعرفة[٣] .

والخلاصة أن انعزال الصوفية وابتداعهم هذا المنهج الذي أدى بهم إلى إنكار المنهج الشرعي المعتمد على النقل والعقل أدى إلى عدم بروزهم في مجال علم الملل إذ إن هذا العلم من العلوم التي تعتمد على النقل والعقل .

ولعل سائلا يسأل لم أوردت هذا الاتجاه إن لم يكن له جهود في علم الملل، وللإجابة على التساؤل أقول: ذكرت هذا الاتجاه هنا للأسباب الآتية:

١ - لكون هذا الاتجاه يمثل قطاعا كبيرا في الأمة ينهج في تفسير الإسلام تفسيرا مخالفا لما عليه أهل السنة والجماعة .

٢ - كونه من الفرق الكلامية الأخرى من جمع بين الكلام والتصوف وله جهود في مجال علم الملل[٤] .

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ٢١ .

(٢) انظر: الفرق الكلامية الإسلامية ص ١٢١ .

(٣) انظر: مدارج السالكين لابن القيم الجوزية تحقيق محمد المعتصم بالله ٣/ ١٦٧، منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد ٢/ ٦٤٥ .

(٤) مثال ذلك الغزالي رحمه الله تعالى والرازي .

٣ - كون بعض المؤسسات العلمية في العالم الإسلامي تتبنى منهجه وتسعى إلى إحيائه فضلا عن المنهج الغربي الوافد الذي ركز على التصوف - لاسيما التصوف الفلسفي - في دراساته للإسلام(١) .

٤ - بيان أن هذا الاتجاه لا يمكن أن يمثل الإسلام ومنهجه في مجال دراسات الأديان لمخالفته منهج أهل السنة والجماعة مسلكا ومعتقدا .

المطلب الثاني: الاتجاه الفلسفي

سبق الحديث عن الفلسفة والفلاسفة والعلاقة بين الدين والفلسفة في مبحث صلة علم الملل بالفلسفة ، وتبين لنا مناقضتها للدين ومخالفتها لمنهج الأنبياء ، كما بينا موقف علماء المسلمين من الفلسفة ، وأنه موقف العداء والرفض ، وفي الحديث عن الاتجاه الفلسفي يتبادر إلى الذهن الفلاسفة المسمون بفلاسفة الإسلام ، أمثال الكندي ، الفارابي ، وابن سينا . ولا شك أن الحديث هنا يقصدهم بالدرجة الأولى ، وقد يقال هنا إذا كان هؤلاء الفلاسفة قد قلدوا فلاسفة اليونان الوثنيين أمثال أرسطو(٢) واتبعوهم حذو النعل بالنعل إلا في القليل(٣) فأخطأوا الصراط المستقيم معتقدا ومسلكا ، فصاروا ممن إذا أطلق لقبهم عني بالخارجين عن الأديان السماوية - في عرف كثير من الناس -(٤) فما مناسبة ذكرهم هنا ، وهل المقصود من ذكرهم لمجرد أنهم من المخالفين لمنهج أهل السنة ، أم لهم جهود في مجال دراسة الأديان؟

وللإجابة عن ذلك أقول: إن ذكر هذا الاتجاه هنا مهم للأسباب الآتية:

١ - إن هذه الطائفة من الفلاسفة خاضت في أبحاثها قضايا الدين ، وتوسعت فيها أكثر من سلفها أرسطو ، يقول شيخ الإسلام: «كلام أرسطو في الإلهيات في غاية القلة مع كثرة الخطأ فيه ، ولكن ابن سينا وأمثاله وسعوه وتكلموا في الإلهيات والنبوات وأسرار الآيات ومقامات العارفين ، بل وفي معاد الأرواح بكلام لا يوجد لأولئك - يعني فلاسفة

---

(١) أخطاء المنهج الغربي الوافد لأنور الجندي ص ١٣٧ ، دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٨٢م .
(٢) انظر: إغاثة اللهفان ٢/ ٣٨٠ .
(٣) انظر: مقدمة ابن خلدون ص ٣٢١ ، الملل والنحل ص ٤١٤ .
(٤) انظر: إغاثة اللهفان ٢/ ٣٦٩ .

اليونان - وما فيه من الصواب ، فجروا فيه على منهاج الأنبياء وما فيه من خطأ بنوه على أصول سلفهم الفاسدة . .»[١] .

إن الفلاسفة المتأخرين وإن كانوا مقلدين لفلاسفة اليونان الذين ليس لهم مذهب معين في الدين ينصرونه ، إلا أن المتأخرين بسبب نشأتهم في البيئة الإسلامية ومعرفتهم بعض آثار الرسل أقرب إلى الحق من سلفهم المتقدمين ، بل إن هؤلاء المتأخرين بعضهم أقرب للحق من بعض ، فأبو البركات الذي نشأ بين علماء السنة ليس كابن رشد الذي نشأ بين الكلابية ، وابن رشد ليس كابن سينا الذي نشأ بين المتكلمين النفاة للصفات[٢] وللحق الذي معهم مع تمسكهم للفلسفة حاول بعضهم التوفيق بين الدين والفلسفة ، لكن كانت هذه المحاولة محاولة توفيق بين متناقضين ، يضاف إلى ذلك أن بعض الفلاسفة كانوا ينتسبون إلى بعض فرق المبتدعة كالكندي المسمى بفيلسوف العرب والذي يعده بعض الباحثين أنه كان همزة الوصل بين تعاليم المعتزلة ومذهب الفلاسفة[٣] .

وقد ألف هذا الفيلسوف رسالة في الرد على النصارى وإبطال عقيدة التثليث النصرانية ، وهذه الرسالة وإن كانت في عداد الكتب المفقودة ، لكن الباحثين استنتجوا منهجه مما أثبته منها يحيى بن عدي في رده عليها ، قال الدكتور عبد المجيد الشرفي واصفا منهج الكندي في هذه الرسالة: «ويبدو منها جليا أن الكندي يطبق بصفة شبه آلية المقولات المنطقية اليونانية اعتمادا على كتابي "برفيروس" و"يساغوجي" أو المدخل" وأرسطو: "طوبيقا" أو الجدل"[٤] .

ثم قال الشرفي معلنا إعجابه على تعدد اتجاهات أصحاب المقالات والردود: «وتلك ظاهرة جديرة بالاهتمام حيث نجد سجلات دلالية مختلفة باختلاف ثقافة أصحاب الردود ، فمنهم من يعتمد الحجج النقلية في المرتبة الأولى ، ومنهم من يميل إلى الحجج العقلية الكلامية ، ومنهم - كما هو الشأن بالنسبة إلى الكندي - من يوظف ثقافته

---

(١) منهاج السنة ١/ ٣٤٨ .
(٢) انظر: المصدر السابق ١/ ٣٥٤ .
(٣) انظر: أبحاث ندوة نحو فلسفة إسلامية معاصرة ص ٨٣ .
(٤) الفكر الإسلامي في الرد على النصارى ص ١٣٧ .

الفلسفية في سبيل معتقده»[١] .

وليس الكندي وحده من الفلاسفة الذين صنفوا في مجال علم الملل ، فهناك أبو الحسن العامري " الفيلسوف النيسابوري " ، وصاحب كتاب " الإعلام بمناقب الإسلام " و " الإبانة عن علل الديانة " و" الإرشاد لتصحيح الاعتقاد "[٢] . وهذه الكتب كلها في مجال علم الملل ، ففي الأول قارن بين الأديان الستة كما سبق تفصيله ، وفيه حاول العامري التوفيق بين الدين والفلسفة على غرار محاولات معاصريه[٣] ، وفي الثاني تناول مقارنة بين الشريعة الإسلامية والشرائع في الأديان الأخرى ، بينما في الثالث تناول في بعض موضوعاته دراسة مقارنة لعقيدة البعث والمعاد عند المجوس والمانوية واليهود والنصارى[٤] .

وهذا يدل على أن الفلاسفة سواء كانوا من الفلاسفة الخلص أو الذين خلطوا بين الفلسفة والآراء الكلامية لم يكونوا بعيدين عن مجال علم الملل وأن الفلسفة بطبيعة موضوعها والبيئة العلمية التي كانت سائدة بالفرق الكلامية ساعدا الفلاسفة في الإسلام الخوض في ميدان علم الملل .

٢ - تأثير الفلاسفة على بقية الفرق: إن ضرر منهج الفلاسفة على الدين لم يقتصر على أنفسهم فحسب وإنما تعدى إلى الطوائف الأخرى - لاسيما المتكلمين - فالفلسفة هي المعين الأول والمورد الأساس لمنهج المتكلمين في تقرير العقيدة الصحيحة أو نفي العقائد الباطلة ، والفلاسفة هم الذين كانوا همزة الوصل بين الفلسفة ومسالكها وبين الفرق الإسلامية ، لذا ينبغي الكشف عن حقيقتها وعن منهجها وتنقيته العلوم الشرعية منها .

ونخلص مما سبق إلى أن علم الملل عند هذا الاتجاه الذي نزع منزع الفلاسفة الأقدمين وأخذ بطريقتهم في تقرير الحقائق الغيبية والبحث عن أمور الدين والدفاع عنه لم يكن إلا

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٧ .
(٢) انظر: مقدمة د . أحمد غراب لكتاب الأعلام ص ١٣ - ١٥ .
(٣) انظر: الفكر الإسلامي في الرد على النصارى ص ١٥٠ .
(٤) انظر: مقدمة د . أحمد غراب لكتاب الأعلام ص ١٤ - ١٥ .

مجموعة من الآراء والأقيسة المنطقية والتعليلات الفلسفية، وعلم الملل على منهاج هذا القوم غير مجد في تقرير الحق والدفاع عنه لأنه مبني على منهج أجنبي عن الحق، فينبغي استبعاده، ولعل مكمن الخطأ والخطورة في هذا الاتجاه يتلخص فيما يلي:

١ - أن أقوال الفلاسفة في الألوهية والنبوة والمعاد يصطدم بأصول الدين الإسلامي حيث يزعم الفلاسفة بقدم العالم، وأن الله يعلم الكليات دون الجزئيات وحشر الأرواح دون الأجساد، وجعل النبوة من جنس المنامات.

٢ - الاعتماد على العقل في تقرير العقائد، وللتدليل على ذلك لنأخذ منهجهم في الاستدلال على وجود الله.

حيث إن منهجهم في البرهنة على وجود الله منهج موغل في التجريد معتمد على العقل المجرد، فقد سلكوا ما يسمى بطريق الوجوب والإمكان وهو تقسيم الموجودات إلى واجب وممكن خلافا للمتكلمين الذين قسموا إلى قديم وحادث، والسبب أن بعض الفلاسفة يقول بقدم العالم.

يقول الزركان مبينا مسلك الفلاسفة هذا: «ويتلخص هذا المسلك المسمى بالدليل الوجودي، بأن الله تعالى - وإن يمكن الاستدلال عليه عن طريق العالم أو الصعود من المحدثات إليه - فإن الطريق الأوثق إلى معرفة وجوده هو أن نبدأ بالوجود ذاته، فإذا وجدنا من هذا الوجود العام وجودا واجبا فقد وصلنا إلى المطلوب، لأن هذا الوجود الواجب إنما هو الله تعالى، وإلا التفتنا إلى الوجودات الممكنة، وبما أن كلّ ممكن فله علة هي سبب وجوده، فإنا نرتقي في سلسلة المعلولات والعلل، ولكن لا بد أن تنتهي هذه السلسلة إلى علة هي واجب الوجود ذاته، وذلك بعد بطلان الدور والتسلسل»[1] يقول ابن سينا مبينا هذا المنهج: «لا شك أن هنا وجودا، وكل وجود، فإما وجود واجب وإما ممكن، فإن كان واجبا فقد صح الواجب، وهو المطلوب وإن كان ممكنا فإنا نوضح أن الممكن ينتهي وجوده إلى واجب الوجود»[2]. ونلاحظ من هذا النص أن غاية ما يطلبه

---

(١) فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية لمحمد صالح الزركان ص ١٧٥ - ١٧٦، دار الفكر.

(٢) المصدر السابق ص ١٧٧ نقلا عن النجاة.

الفلاسفة هو إثبات وجود مطلق[1] مجرد عن الصفات والأسماء، بل هو وجود في الذهن، وعليه فإن منهج الفلاسفة قاصر عن تحقيق اليقين بالله، وعن إثبات توحيد الله تعالى في الألوهية، ومنهج هذا حاله مع أصل الأصول في الدين ينبغي أن يهجر.

المطلب الثالث: الاتجاه الكلامي

الاتجاه الكلامي هو أهم الاتجاهات الثلاثة لكون أغلب الفرق المبتدعة تندرج تحته، فالشيعة، والماتريدية، والكلابية، والخوارج، والمعتزلة، والأشاعرة، وغيرها من الفرق المبتدعة التي نحت منحىً عقليا تصنف في هذا الاتجاه، كما أن هذا الاتجاه يعد من أكثر الاتجاهات اهتماما بعلم الملل، ومع أن كلّ صنف من هذه الأصناف قد تناول تقرير العقيدة الإسلامية، ورد على خصومها وفق المنظار الذي ارتضاه، إلا أن الإطار الذي يجمعها هو المنهج الكلامي، وإذا كان ذكر مذاهب تلك الأصناف وعقائدهم هنا من الصعب بمكان لضيق المكان فإني سأقتصر على ذكر أهم فرقتين من هذه الفرق وهما المعتزلة والأشاعرة لكونهما أكثر الفرق جهودا في علم الملل وذلك للتدليل على أن كلّ فرقة من هذه الفرق تناولت علم الملل متأثرة على آرائها العقدية.

١ - المعتزلة:

نشأتها: اختلف المؤرخون لعلم الفرق في تاريخ ظهور فرقة المعتزلة، فذهب الأكثرون إلى أن نشأتها ترجع إلى أواخر العصر الأموي وبالتحديد ما بين ١٠٠ - ١١٠هـ[2] ولكن ظهر دورها الفكري في العصر العباسي حيث شغلت الفكر الإسلامي ردحا طويلا من الزمن[3].

تسميتها: واختلف الباحثون أيضا في سبب تسمية المعتزلة بهذا الاسم الذي اشتهرت به دون ألقابها الأخرى[4]، والراجح أن هذه التسمية مما أطلق عليهم خصومهم

---

(١) التدمرية ص ١٧.

(٢) المعتزلة لزهدي جار الله ص ١٢.

(٣) انظر: تاريخ المذاهب الإسلامية ص ١٢٤.

(٤) من ألقابها الأخرى: الجهمية، القدرية، الثنوية والمجوسية، الوعيدية، المعطلة، وهذه كلها ألقاب أطلق عليهم خصومهم، أما ما أطلقوه على أنفسهم فمنها: المعتزلة، أهل العدل والتوحيد، أهل الحق، الفرقة الناجية، والمنزهون الله عن النقص، انظر: المعتزلة لعواد بن عبد الله المعتق ص ٢٢ - ٢٦.

من أهل السنة وأنها تتعلق بنشأة المعتزلة، فقد ذكر مؤرخو الفرق أن هذه التسمية تعود إلى اعتزال واصل الذي يعد رأس المعتزلة من مجلس الحسن البصري حين اختلفا في أمر مرتكب الكبيرة، إذ زعم واصل أن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن مطلقا ولا كافر مطلقا، بل هو في منزلة بين المنزلتين[1].

فطرده الحسن من مجلسه بسبب تلك المقولة، فصار الناس يطلقون على واصل ومن اتبعه بالمعتزلة.

أصول المعتزلة العقدية: برغم أن المعتزلة تفرقت إلى فرق كثيرة عدها بعض العلماء نحو عشرين فرقة[2] إلا أن هذه الفرق تجتمع في الجملة على أصول خمسة هي: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولأهمية هذه الأصول عندهم ذكر الخياط المعتزلي: «أن اسم الاعتزال لا يستحقه إلا من يجمع القول بالأصول الخمسة»[3]. وهذه الأصول واجبة عندهم، وهي وإن وافقت في ألفاظها ألفاظا شرعية إلا أن معناها عند المعتزلة يختلف عن معناها عند أهل السنة والجماعة. والمعتزلة عند ما يناقشون خصومهم من الفرق الإسلامية أو غيرالإسلامية فإنما يناقشون على ضوء مفاهيمهم لتلك الأصول. لذا فإن من المهم ذكر المفاهيم التي تحمل هذه الأصول عند المعتزلة وهي على سبيل الاختصار:

الأصل الأول: التوحيد: وهو رأس هذه الأصول ولب مذهبهم، ويدور الحديث في هذا الأصل حول ما يثبت لله وما ينفي عنه من الصفات، وقد نفى المعتزلة صفات الله تعالى زاعمين أن إثباتها يستلزم إثبات تعدد القدماء[4] وذلك أن الصفات عندهم أعراض للأجسام وهي محدثة، ومن ثم فمن أثبت لله تعالى صفة قديمة فكأنه قال بقديمين، وذلك حيث إن الصفات زائدة عن الذات لما عرف من اختلاف الصفة عن الموصوف[5] وهم في

---

(١) انظر: الملل والنحل ص ٤٨.

(٢) انظر: الفرق بين الفرق ص ٢٤.

(٣) انظر: الانتصار لأبي الحسين عبد الرحيم بن محمد الخياط ص ١٢٦.

(٤) انظر: الملل والنحل ص ٤٤، التدمرية ص ١١٧، التبصير في الدين لأبي المظفر الاسفرائيني، تعليق محمد الكوثري ص ٣٧.

(٥) التبصير في الدين ص ٣٧.

هـذا الأمـر يقيسـون الخـالق عـلى مخلوقاته[١] . وبذلك عطلوا الصفات عن الله عز وجل وخالفوا أهل السنة والجماعة في مسمى التوحيد .

إن مسـمى التوحـيد عـند المعتزلة على ما سبق نفي الصفات عن الله عز وجل ، ومما يدخل في هذا الأصل مما خالفوا فيه أهل السنة ما يلي:

١ - القـــول بخلق القرآن: قال الاسفرائيني: «ومما اتفقوا عليه من فضائحهم قولهم أن كـلام الله تعـالى مخلوق لـه»[٢] وقال القاضي عبد الجبار المعتزلي: «وأما مذهبنا فهو أن القـرآن كـلام الله تعـالى ووحـيه ، وهـو مخلـوق محـدث»[٣] ، وقال ابن متويه: «وقد أطلق مشـايخنا كـلهم في القـرآن أنـه مخلـوق»[٤] ، ورأيهـم في هـذا متسـق مع مذهبهم في مسألة الصـفات إذ لـو كـان القـرآن كـلام الله غـير مخلـوق لكان قديما مع الله وهذا - على حد زعمهم - قول بإلهين ،

كذلـك فالقـرآن يشـتمل عـلى أوامـر ونـواه وحـوادث وقصـص قد وقعت في أزمنة مـتعددة فلا يمكن أن يكون الله لم يزل متكلما بها منذ الأزل[٥] لذلك فإن الله ما كلم أحدا وإنما خلق لنفسه كلاما في جسم من الأجسام فيكون فيه متكلما[٦] .

٢ - نفـــي رؤية الله تعالى في الآخرة: ممـا بنوا على أصل التوحيد عندهم استحالة رؤيـة الله سـبحانه وتعالى يوم القيامة لاقتضاء ذلك الجسمية والجهة[٧] ، قال القاضي عبد الجبار: «فأما أهل العدل بأسرهم والزيدية ، والخوارج ، وأكثر المرجئة فإنهم قالوا: لا يجوز أن يـرى الله تعـالى بالبصـر ولا يـدرك بـه عـلى وجـه لا لحجـاب ومانع ولكن لأن ذلك يستحيل»[٨] وقال في شرح الأصول: «ومما يجب نفيه عن الله تعالى الرؤية»[٩] .

---

(١) انظر: المعتزلة بين القديم والحديث ص ٥٥ .

(٢) التبصير في الدين ص ٣٧ ، الملل والنحل ص ٤٥ .

(٣) شرح أصول الخمسة ص ٥٢٨ .

(٤) المحيط بالتكليف للقاضي عبد الجبار بن أحمد ، جمع الحسن بن أحمد بن متويه .

(٥) المعتزلة بين القديم والحديث ص ٥٣ .

(٦) التبصير في الدين ص ٣٧ .

(٧) انظر: تاريخ المذاهب الإسلامية لأبي زهرة ص ١٢٧ .

(٨) المغني في أبواب التوحيد والعدل ٤/ ١٣٩ .

(٩) شرح أصول الخمسة لعبدالجباربن أحمد ، تحقيق عبدالكريم العثمان ص٢٣٢ مكتبة وهبة ط الأولى١٣٨٤هـ .

الأصل الثاني: العدل: قال القاضي عبد الجبار مبينا الأصل الثاني ومناسبته للأصل الأول: «وأما الأصل الثاني من الأصول الخمسة وهو الكلام في العدل وهو كلام يرجع إلى أفعال القديم تعالى وما يجوز عليه وما لا يجوز فلذلك أوجبنا تأخير الكلام في العدل عن الكلام في التوحيد»[1] ففي هذا الأصل يزعم المعتزلة تنزيه أفعال الله تعالى عن كلّ معاني الظلم أو كلّ ما يخل بعدل الله. ومفهوم العدل عندهم هنا هو «أنه سبحانه لا يفعل القبيح ولا يختاره، ولا يخل بما هو واجب عليه وأن أفعاله كلها حسنة»[2]. وقد ارتكب المعتزلة في هذا الأصل أخطاء خطيرة ووقعوا في مغالطات كثيرة كان منشأها قياسهم الفاسد لعدل الله تعالى على عدل البشر، ومن عدم تفريقهم بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية.

والبدع التي تضمن هذا الأصل هي:

١ - إنكار خلق الله تعالى لأفعال العباد[3] زاعمين أن في ذلك نفيا لنسبة الفعل القبيح إلى الله تعالى، وبذلك نفوا القدر، وزعموا أن الإنسان خالق لأفعاله خيرها وشرها[4] فأثبتوا مع الله خالقين لا يحصون ولا يحصرون[5].

٢ - القول بوجوب فعل الأصلح على الله[6] بناء على عدله سبحانه حيث لا يفعل إلا ما فيه صلاح العبد وخيره، والغريب في هذا الموضوع أنهم أثبتوا للعبد الحرية المطلقة في جميع أفعاله حتى نفوا معها القضاء والقدر، وقيدوا قدرة الله وحريته تحت ستار العدل المزعوم[7]، فقد قال النظام: «إن الله لا يقدر أن يفعل بعباده خلاف ما فيه صلاحهم... ولا يقدر أن يزيد في عذاب أهل النار ذرة... ولا يقدر أن يخرج أحدا من أهل الجنة، ولا يقدر على أن يلقي في النار من ليس من أهل النار... كما أن الله لا يقدر أن يعمي بصيرا، أو يزمن صحيحا، أو يفقر غنيا إذا علم أن البصر والصحة والغنى أصلح

---

(١) شرح أصول الخمسة ص ٣٠١.

(٢) المصدر السابق ص ٣٠١.

(٣) انظر: شرح الأصول الخمسة ص ٣٤٥

(٤) الملل والنحل ص ٤٥.

(٥) التبصير في الدين ص ٣٨.

(٦) الملل والنحل ص ٤٥.

(٧) انظر: موقف المعتزلة من السنة النبوية لأبي لبابة حسين ص ٦٤ - ٦٥.

لهم . . .»[١] .

٣ - الحسن والقبح العقليان: فقد زعم المعتزلة أن العقل يمكنه وحده أن يدرك الحسن والقبح في الأشياء كلها، وذلك لما فيها من صفات تدل على أنها حسنة أو قبيحة، فالصدق حسن والكذب قبيح والعقل يدرك ذلك وحده حتى قبل ورود الشرع بذلك، فالشرع إنما يأتي ليقرر ما يراه العقل وليس ليثبته ابتداء، وقد بنوا على ذلك أمرين[٢]:

الأول: وجوب معرفة الباري تعالى بالنظر والاستدلال قبل ورود السمع، قال أبو الهذيل: «يجب على المكلف قبل ورود السمع . . . أن يعرف الله تعالى بالدليل من غير خاطر، وإن قصر في المعرفة استوجب العقوبة أبداً»[٣] .

وقال النظام: «إن المكلف - قبل ورود السمع - إذا كان عاقلا متمكنا من النظر يجب عليه تحصيل معرفة الباري تعالى بالنظر والاستدلال»[٤] .

الثاني: أن العقل هو الفيصل في مجال التحسين والتقبيح، وأن الحكم النهائي له في ذلك[٥]، قال القاضي عبد الجبار: «وكل عاقل يعلم بكمال عقله قبح كثير من الآلام كالظلم الصريح وغيره، وحسن كثير منها كذم المستحق للذم وما يجري مجراه»[٦] والحق أن العقل يدرك قبح بعض الأمور، أو حسنها، لكن مع ذلك لا يرتب عليه ثوابا أو عقابا، كما عليه منهج أهل السنة، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[٧] .

الأصل الثالث: الوعد والوعيد: يتصل هذا الأصل عند المعتزلة بالأصل السابق ومتناسق مع فهمهم للعدل، فالعدل يقتضي عندهم بوجوب مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. «فالمؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب والعوض، وإذا خرج من الدنيا من غير توبة عن كبيرة ارتكبها خلد في النار وكان عذابه

---

(١) انظر: الفرق بين الفرق ص ١٣٣ - ١٣٤ .

(٢) انظر: المعتزلة بين القديم والحديث ص ٧١ .

(٣) الملل والنحل ص ٥٢ .

(٤) المصدر السابق ص ٥٨ .

(٥) موقف المعتزلة من السنة النبوية ص ٦٧ . المعتزلة بين القديم والحديث ص ٦٧ .

(٦) شرح الأصول الخمسة ص ٤٨٤ .

(٧) سورة الإسراء الآية: ١٥ .

أخف من عذاب الكفار»[١] ، قال القاضي عبد الجبار مبينا مذهبهم في هذا الأصل: «وأما علوم الوعد والوعيد فهو أن الله وعد المطيعين بالثواب ، وتوعد العصاة بالعقاب ، وأنه يفعل ما وعد به وتوعد عليه لا محالة ، ولا يجوز غليه الخلف والكذب»[٢] ، وأن إنفاذ ذلك يجب على الله للعبد عن طريق الاستحقاق[٣] ، وقد أوّل المعتزلة النصوص التي تدل على عفو الله لبعض العصاة وخروج العصاة من النار ، وزعموا أن عفو صاحب الكبيرة إغراء له على فعل القبيح[٤] .

والفرق بين مذهب أهل السنة ومذهب المعتزلة في هذه المسألة أن أهل السنة: «يرون أن الله إذا وعد عباده لشيء كان وقوعه واجبا بحكم الوعد لا بحكم الاستحقاق ، فإن العبد لا يستحق بنفسه على الله شيئا ، وأما الوعيد فيرى أهل السنة أنه يجوز أن يعفو الله عن المذنب ، وأن يخرج من أهل الكبائر من النار ، فلا يخلد الله فيها من أهل التوحيد أحدا»[٥] .

قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - موضحا رأي أهل السنة في الوعد: «واتفقوا على أن الله تعالى إذا وعد عباده بشيء كان وقوعه واجبا بحكم وعده فإنه الصادق في خبره الذي لا يخلف الميعاد»[٦] ، وقال ابن القيم موضحا الفرق بين الوعد والوعيد من حيث الإنفاذ والخلف: «وإخلاف الوعيد لا يذم ، بل يمدح ، والله تعالى يجوز عليه إخلاف الوعيد ولا يجوز عليه خلف الوعد ، والفرق بينهما أن الوعيد حقه فإخلافه عفو وهبة وإسقاط وذلك موجب كرمه وجوده وإحسانه والوعد حق عليه أوجبه على نفسه ، والله لا يخلف الميعاد»[٧]

الأصل الرابع: المنزلة بين المنزلتين: بين القاضي عبد الجبار مفهوم هذا الاصطلاح

---

(١) الملل والنحل ص ٤٥ ، المعتزلة ص ٥١ .

(٢) شرح الأصول الخمسة ص ١٣١ - ١٣٦ .

(٣) انظر: المعتزلة وأصولهم الخمسة ص ٢٥٢ ، الفرق الكلامية الإسلامية ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٤) انظر: الفرق الكلامية الإسلامية ص ٢٥٤ ،

(٥) الموسوعة العربية العالمية ٢٣/ ٤٤١ - ٤٤٢ ، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع - الرياض ط الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦ م.

(٦) منهاج السنة ١/ ٤٤٨ .

(٧) مدارج السالكين ١/ ٣٩٩ .

عـند المعـتزلة بقولــه: «والأصـل في ذلك أن هذه العبارة إنما تستعمل في شيء بين شيئين ينجذب إلى كـلّ واحـد منهما شبه، هذا في أصل اللغة، وأما في اصطلاح المتكلمين فهو العـلم بـأن لصـاحب الكـبيرة اسـم بـين الاسمين وحكم بين الحكمين..»(١)، ثم شرح القاضـي هـذا التعريف بقولـه: «إن صاحب الكبيرة لـه اسم بين اسمين، فلا يكون اسمه اسـم الكافـر ولا اسـم المؤمـن، وإنما يسمى فاسقا وكذلك صاحب الكبيرة لـه حكم بين الحكمـين، فـلا يكـون حكمـه حكـم الكافر ولا حكم المؤمن، بل يفرد لـه حكم ثالث، وهـذا الحكـم الـذي ذكـرناه هـو سبب تلقيب المسألة بالمنـزلة بين المنـزلتين، فإن صاحب الكـبيرة لــه مـنـزلة تـتجاذبها هاتـان المنـزلـتان، فليست منزلته منزلة الكافر ولا منـزلة المؤمـن، بـل مـنـزلة بيـنهما»(٢). إن هـذا الأصـل يمثل البداية التاريخية للمعتزلة(٣) حيث خـرجوا بسـببه عن صف الجماعة كما سبقت الإشارة إليه، وقد وافقوا الخوارج في حكم صـاحب الكبيرة في الآخرة حيث زعم كلا الفريقين بخلوده في النار، وخالفوا في اسمه في الدنـيا حيـث قـال الخـوارج كافـرا، بيـنما المعـتزلة سمـوه فاسقا. وبذلك خالف المعتزلة مذهـب أهل السنة في حكم مرتكب الكبيرة، فأهل السنة يرون أن مرتكب الكبيرة مؤمن نـاقص الإيمـان، وأنه لا يخلد في النار إذا مات موحدا، وإنه تحت مشيئته وحكمه إن شاء غفـر لــه وعفـا عـنه بفضـله، وإن شـاء عذبـه في الـنار بعدله، ثم يخرجه منها برحمته إلى الجـنة(٤)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومذهب أهل السنة والجماعة أن فساق أهل الملة ليسـوا مخلديـن في الـنار، كمـا قالت الخوارج والمعتزلة، وليسوا كاملين في الدين والإيمان والطاعة، بل لهم حسنات وسيئات ويستحقون بهذا العقاب، وبهذا الثواب...»(٥)

الأصل الخامس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: هـذا الأصـل مهم عند المعتزلة لأنـه يمـثل الجانـب التطـبيقي في أصـولهم(٦)، والمعـروف عند المعتزلة هو ما أجمعوا عليه،

---

(١) شرح الأصول الخمسة ص ١٣٧.

(٢) المصدر السابق ص ٦٩٧.

(٣) الفرق الكلامية الإسلامية ص ٢٥٨.

(٤) انظر: المعتزلة وأصولهم الخمسة ص ٢٦٤.

(٥) الفتاوى ٧/ ٦٧٩.

(٦) انظر: الفرق الكلامية الإسلامية ص ٢٦٢.

والمنكر هو ما يراه مخالفوهم[١] سواء كانوا كفارا أو مسلمين[٢] وقد أجمعت المعتزلة إلا الأصم، على وجوب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر مع الإمكان والقدرة: باللسان واليد والسيف كيف قدروا على ذلك[٣]، قال القاضي عبد الجبار موضحا حكم هذا الأصل: «اعلم أنه لا خلاف في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . .»[٤] لكن الزمخشري ذكر أن هذا الوجوب وجوب كفائي[٥]. ومهما يكن من أمر فإن المعتزلة خالفوا مذهب أهل السنة في هذا الأصل فيما يلي:

أ - طريقة تغيير المنكر، فطريقة تغيير المنكر عندهم تبدأ باللسان ثم باليد ثم بالسيف في حين تبدأ طريقة تغيير المنكر عند أهل السنة باليد، فإن لم يستطع فباللسان وإلا فبالقلب.

ب - أوجب المعتزلة الخروج على السلطان الجائر، أما أهل السنة فلا يرون الخروج على السلطان ما لم يروا منه كفرا بواحا، وذلك أن الخروج على السلطان يؤدي إلى ضرر أعظم، قال شيخ الإسلام: «والأئمة لا يقاتلون لمجرد الفسق إذ فساد القتال أعظم من فساد كبيرة يرتكبها ولي»[٦].

جـ - حمل السلاح على وجوه مخالفيهم سواء كانوا كفارا أو من أصحاب المعاصي من أهل القبلة[٧]. تلك هي الأصول التي مثلت الإطار العام لعقائد المعتزلة عرضتها بإيجاز شديد، ولم أدخل في تفصيلاتها وتفريعاتها الكثيرة إذ ليس الغرض من ذكرها هنا إلا بيانا أن للمعتزلة مبادئ وقواعد ينطلقون منها في فهم الدين وأن مناهجهم في دراسة الأديان تشكلت وفق تلك الأصول، وبعد أن عرفنا أصول المعتزلة التي أجمعوا عليها ننظر دور المعتزلة في مجال دراسة الأديان.

---

(١) موقف المعتزلة من السنة النبوية ص ٧٠.
(٢) انظر: العقل والحرية د. عبد الستار الراوي ص ٤٣٤.
(٣) مقالات الإسلاميين للأشعري ١/ ٣٣٧، تحقيق محمد محيي الدين.
(٤) شرح الأصول الخمسة ص ١٤٢.
(٥) انظر: الكشاف ١/ ٢٠٨.
(٦) الفتاوى ٢٢/ ٦١.
(٧) انظر: الموسوعة العربية. ٢٣/ ٤٤٢.

جهود المعتزلة في علم الملل: كان للمعتزلة جولات وصولات في التصدي لأهل الملل والنحل قل أن تجد لها نظيرا في الفرق الكلامية الأخرى، ومن تأمل في حركة الجدل الديني - في البيئة الإسلامية - يجد أن علماء المعتزلة ومنتحلي مذهبهم من الفلاسفة كانوا أكثر الناس إطلاعا على الأديان - خاصة قبل ظهور الأشاعرة وضعف المعتزلة -، بل إن الباحث في علم الملل قل أن يجد معتزليا ليس له إسهام في هذا الحقل، فواصل بن عطاء، وضرار بن عمرو، وأبو الربيع بن الليث، وبشر بن المعتمر، وأبو موسى المردار، والكندي الفيلسوف، وأبو عيسى الوراق، والنظام، والإسكافي، والجاحظ، وأبو القاسم البلخي، والقاضي عبد الجبار، وغيرهم من أعلام المعتزلة كان لهم جهود واضحة في هذا المجال.

وقد شملت جهودهم في الرد على اليهود والنصارى، وعلى الأديان الوضعية كالمجوسية والصابئة والزرادشية، والبراهمية، وعلى الزنادقة وغيرهم من مخالفيهم في الإسلام أو في المذهب[1]، وقد حدت هذه الجهود الكثير من الباحثين إلى مدح المعتزلة وجعلهم الرواد والمثال في الدفاع عن الإسلام، وإلى غض النظر عن أخطائهم، وإذا كان من العدل والإنصاف أن نعترف للمعتزلة بالجهود التي قدموها في الذب عن الدين وعن دورهم في كشف الزنادقة والملحدين وقوة إلزامهم للخصوم، إذا كان هذا من العدل فإن من العدل أيضا والإنصاف للحق ألا نبرأهم من الانحرافات العقدية والأخطاء المنهجية التي وقعوا فيها، وما نتج عن ذلك من أضرار لحقت بالإسلام والمسلمين، وعلى علم الملل بوجه خاص إذ كان الدور الوظيفي لهذا العلم مواجهة الخصوم من أهل الملل في ميدان الحجة والبيان، وإظهار تناقض الخصوم وإلزامهم بالحجة، وتمثيل الإسلام كما أنزل.

ولما تأثرت المعتزلة وغيرها من فرق الكلام بأتباع الأديان الأخرى وبالفلسفات الوثنية، وحاولوا الدفاع عن الإسلام بأسلحة الخصوم أوقعهم ذلك

---

(١) انظر: تاريخ المذاهب الإسلامية لأبي زهرة ص ١٣١، مقدمات العلوم والمناهج ٢/ ٩٦ - ٩٩.

في النتاقض، وضعفوا عن المقاومة، مما أدى أخيرا عن تحول المعركة بين المسلمين والكفار، إلى المعارك الكلامية بين فرق الأمة. وعلى أية حال فإن أخطاء المعتزلة في مجال دراسة الأديان يتمثل في أمرين:

الأول: دراسة علم الملل على ضوء أصولهم الخمسة: فقد آمن المعتزلة بالأصول الخمسة التي ذكرتها آنفا وأخضعوا نصوص الوحي لهذه الأصول، إما بالتأويل أو برد السنة التي زعموا أنها أحاديث آحاد، ثم قاموا على ضوء تلك الأصول في مقاومة التحديات العقدية التي كان مصدرها من أهل الأديان المختلفة، فالتوحيد أو التنزيه المطلق لله الذي يقصد عند المعتزلة نفي صفات الرب كان في مواجهة القول بتعدد الإله الذي كان يعتقده النصارى والثنوية، والتجسيم والتشبيه الذي كان معروفا في عقائد اليهود، والاتحاد والحلول الذي كان مصدره إما عن اليهود وإما عن أديان الهند من البراهمة والبوذية[1]. والخطأ الذي وقع فيه المعتزلة أنهم واجهوا خطأ بخطأ الثاني: المنهج الذي تناولوا به دراسة الأديان، وهذا ما سأتناوله في المطلب الثاني.

٢ - الأشاعرة:

نشأت فرقة الأشاعرة في القرن الرابع الهجري[2] وتنتسب إلى آراء أبي الحسن الأشعري بعد رجوعه عن الاعتزال واستقلاله عن الكلابية، وقبل كتابته بكتاب" الإبانة" الذي ذكر فيه

انتهاجه بمنهج أهل السنة والجماعة[3]، ويعد الباحثون أن الأشعري توسط في هذه الآراء بين أهل السنة والمعتزلة، فهو وإن كان قليل المعرفة بأقوال أهل السنة خبير بأقوال أهل الكلام

ودقائقها بسبب نشأته في أحضان المعتزلة ومنتهج نهج ابن كلاب فيما يتعلق بالصفات الاختيارية إلا أنه يوافق أهل السنة في:

---

(١) مباحث في منهجية الفكر الإسلامي ص ٨٣.

(٢) في الفلسفة الإسلامية: منهج وتطبيق ص ٤٧.

(٣) انظر: الفرق الكلامية الإسلامية ص ٢٦٩ - ٢٧٠، والإبانة في أصول الديانة ص ٢٠.

١ - إثبات الصفات لله ومنها الصفات الخبرية وإقرارها كما جاءت .

٢ - إثبات العلو والاستواء والرؤية خلافا للمعتزلة .

٣ - إثبات السمعيات ومنها أمور خالف فيها المعتزلة أو بعضهم مثل الشفاعة وعذاب القبر وغيرها .

٤ - الاستدلال بالنصوص من الكتاب والسنة وموافقة إجماع السلف[1] .

ولكن السؤال المهم هنا هو: هل التزم الأشاعرة بأقوال الأشعري الذي ينتسبون إليه أم طوروا مذهبه حتى صاروا مخالفين لما كان عليه الأشعري؟ وهنا تتفق رؤى الباحثين على أن المذهب الأشعري تطور على أيدي أعلام توالت عليه ، ولم يكن تطوره كما يقول الدكتور عبد الرحمن المحمود: «في مسألة من المسائل بحيث لا يؤبه له ولا يلتفت إليه ، بل كان تطورا في الأصول والمناهج»[2] . أما صور هذا التطور فتتلخص بما يلي:

الطور الأول: القرب من مذهب المعتزلة: فقد تطور المذهب الأشعري بعد مؤسسه على يد الباقلاني الذي «وضع المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة والأنظار ، وذلك مثل إثبات الجوهر الفرد والخلاء ، وأن العرض لا يقوم بالعرض ، وأنه لا يبقى زمانين ، وأمثال ذلك مما تتوقف عليه أدلتهم وجعل هذه القواعد تبعا للعقائد الإيمانية في وجوب اعتقادها لتوقف الأدلة عليها وأن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول»[3] وهذه الآراء هي التي جعلت الباقلاني مؤسسا ثانيا للمذهب الأشعري[4] ، كما أن هذه القواعد الكلامية التي نتجت في الحقيقة عن مناظرات الباقلاني للمعتزلة وتأثره بهم[5] قد أدت إلى قرب المذهب الأشعري نحو المذهب الاعتزالي الكلامي ، وعلى ضوء هذا المنهج الكلامي واجه الباقلاني الأشعري خصومه سواء كانوا من الكفار أو من الفرق

---

(١) انظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة ١/ ٤١١ - ٤١٢ .

(٢) المصدر السابق ٢/ ٥١١ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٢٤٩ .

(٤) في الفلسفة الإسلامية: منهج وتطبيق ٢/ ٤٧ .

(٥) انظر: المصدر السابق ٢/ ٥١ .

الإسلامية ، فمن قرأ كتابه "التمهيد" يرى تقرير الباقلاني تلك القواعد قبل بدء رده على أتباع الملل والنحل المختلفة ، ثم تطبيقها في المناقشات والردود .

ثم جاء إمام الحرمين فانتهج منهج الباقلاني ، وفي عهده اصطبغ علم الكلام بصبغة عقلية أشد صرامة مما قبلها واختلط المنطق بعلم الكلام حتى بلغ مرحلة يصعب التمييز بينهما قال ابن خلدون: «ثم جاء بعد القاضي الباقلاني إمام الحرمين أبو المعالي فأملى في الطريقة كتاب "الشامل" وأوسع القول فيه ثم لخصه في كتاب الإرشاد ، واتخذه الناس إماما لعقائدهم ثم انتشرت من بعد ذلك علوم المنطق في الملة . . .»(١) كما أفسح الجويني المجال للآراء الفلسفية التي انتشرت في عهده على أيدي الفلاسفة المشائيين ، فمهد لطريقة المتأخرين التي خلطت بين علم الكلام والفلسفة(٢) .

الطور الثاني: قرب المذهب الأشعري من التصوف: وفي عهد أبي حامد الغزالي مر المذهب الأشعري منعطفا آخر هو قرب المذهب من التصوف ؛ وذلك على يد "الغزالي" الذي كان من أبرز أعلام الأشاعرة وأبدعهم في الجدل والمنطق والفلسفة ، فقد اختار الغزالي طريقة التصوف ونقد جميع الطرق الأخرى - خاصة الفلسفة وعلم الكلام -(٣) . لكن من يتأمل تصوفه يجد أنه كان تصوفا فلسفيا ، فهو زعيم مدرسة الكشف والمعرفة والتي تقوم على اعتبار أن المنطق العقلي وحده لا يكفي في تحصيل المعرفة وإدراك حقائق الموجودات ، وأن المرء يتطور بالرياضة النفسية حتى تنكشف عن بصيرته غشاوة الجهل وتبدو له حقائق منطقية في نفسه . . .(٤) وهذه الحقائق أو الكشوفات يعدها الغزالي من العلم الخفي كما بينه في إحياء علوم الدين حيث قال: «وهذه هي العلوم التي لا تسطر في الكتب ، ولا يتحدث من أنعم الله عليه بشيء منها إلا مع أهله ، وهو المشارك فيه على سبيل المذاكرة وبطريق الأسرار وهذا العلم هو العلم

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٩٤ .

(٢) انظر: المصدر السابق ص ٢٩٤ ، في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق ٢/ ٥٢ .

(٣) انظر: الفرق الكلامية الإسلامية ص ٢٧٣ .

(٤) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب ص ٣٤٧ .

الخفي»[١] ، ويعد الغزالي أول من نقل التصوف من التصوف المعروف قبله إلى تصوف فلسفي إشراقي[٢] ، وامتد هذا النوع من التصوف إلى من جاء بعده من الأشاعرة كالرازي[٣] .

الطور الثالث: دخول الفلسفة في أراء المذهب: دخلت الفلسفة في منهج الأشاعرة في وقت مبكر ولازمته في مراحله المختلفة لكن بلغت أوجها في عهد " فخر الدين الرازي " الذي عني بالفلسفة عناية كبيرة ودرس المنطق وحاول التوفيق بين الفلسفة والدين وخلط الفلسفة بعلم الكلام[٤] ، والرازي رغم توغله في الفلسفة دراسة ونقدا[٥] كان وفيا منافحا لمذهبه الأشعري منطلقا منه في مؤلفاته ومناقشاته ، مما جعل له مكانة في قلوب الأشاعرة الذين جاءوا من بعده إلا أنه لم ينج من نقد بعض الأشاعرة ، فقد قال السنوسي في أم البراهين: «وليحذر المبتدئ جهده أن يأخذ أصول دينه من الكتب التي حشيت بكلام الفلاسفة وأولع مؤلفوها بنقل هوسهم وما هو كفر صراح من عقائدهم التي ستروا نجاستها بما ينبههم على كثير من اصطلاحاتهم وعباراتهم التي أكثرها أسماء بلا مسميات ، وذلك ككتب الإمام الفخر في علم الكلام ، وطوالع البيضاوي ومن حذا حذوهما في ذلك ، وقل أن يفلح من أولع بصحبة الفلاسفة[٦] .

والمقصود أن المذهب الأشعري مر في عهد الرازي مرحلة خطيرة في تاريخ المذهب ، مرحلة مزج الفلسفة بعلم الكلام ، وهذه المرحلة لم تنته في عصر فخر الدين وإنما امتدت إلى من جاء بعده[٧] من علماء الأشاعرة كالبيضاوي والتفتازاني والإيجي ، فكتبهم مليئة بمزج علم الكلام بالمسائل الفلسفية ،

---

(١) إحياء علوم الدين ١/ ٣٢ .
(٢) موقف ابن تيمية من الأشاعرة ٢/ ٦٤٤ .
(٣) المصدر السابق ٢/ ٦٦٨ .
(٤) انظر: في الفلسفة الإسلامية ٢/ ٥٣ .
(٥) انظر: اعتقادات الفرق المشركين ص ١٢٨ .
(٦) انظر: حاشية شرح أم البراهين ص ٧٠ - ٧١ للسنوسي دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي
(٧) انظر: مقدمة ابن خلدون ص ٢٩٤ .

وصارت الفلسفة جزءا من علم الكلام[1] .

من هذه اللمحة السريعة على مراحل تطور المذهب الأشاعرة يتضح لنا أن مذهب الأشاعرة تطور تطورا غريبا قربه إلى الاعتزال تارة وإلى التصوف الفلسفي أو الفلسفة والمنطق أخرى مما أبعده عن منهج مؤسسه ناهيك عن منهج أهل السنة .

ولقد لخص الدكتور عبد الرحمن المحمود الأرضية التي استقر عليه مذهب الأشاعرة بما يلي:

١- ضرورة المقدمات المنطقية والعقلية لتحديد المصطلحات .

٢- التمسك بدليل حدوث الأجسام والتركيز على ضرورته لأجل الرد على القائلين بقدم العالم .

٣- استقرار القانون العقلي - عند تعارض العقل والنقل - الذي جاءوا به على أنه قانون مسلم ، يلجأون إليه عندما يواجهون بالنصوص .

٤- خبر الآحاد لا يفيد اليقين فلا يحتج به في العقائد ابتداء ولا مانع من الاحتجاج به في مسائل السمعيات أو فيما لا يعارضه قانون عقلي .

٥- نفي العلو والجهة .

٦- التوحيد هو توحيد الربوبية فقط ويدخلون فيه نفي الصفات الخبرية التي تقتضي عندهم تجسيما .

٧- في الصفات استقر الأمر عندهم على السبع العقلية وتأويل الباقي .

٨- الصفات الخبرية: فيها قولان التأويل أو التفويض .

٩- نفي الصفات الفعلية الاختيارية وهي ما تسمى بمسألة حلول الحوادث .

١٠- الإيمان ، مالوا فيه إلى مذاهب المرجئة فقالوا إنه التصديق .

١١- إثبات النبوات بدلائلها التي هي المعجزات[2] .

---

(١) انظر: المصدر السابق ص ٢٩٤ ، وموقف ابن تيمية من الأشاعرة ٢/ ٦٧٧ - ٦٧٨ .

(٢) انظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة ٢/ ٦٩٤ - ٦٩٦ بتصرف .

فهذه الأمور وغيرها مما ذكره الدكتور عبد الرحمن هي الخطوط العامة لمذهب الأشاعرة وعلى ضوء معطياتها تعاملوا مع خصومهم ، كما أن الملاحظ مجمل هذه الآراء يجزم أن مذهب الأشاعرة لم يكن إلا مجموعة آراء كلامية تشكلت من خلال الأطوار التي مر بها المذهب وإن زعم أعلامهما أنه مذهب أهل السنة والجماعة .

دور الأشاعرة في علم الملل: قدم الأشاعرة جهودا كبيرة في مجال علم الملل وتمثلت هذه الجهود في مصنفات مستقلة لهذا العلم ، وفي مباحث ضمنت في العلوم الأخرى ، خاصة في علم الكلام وفي الردود والمناظرات التي كانت تحدث بين أعلام الأشاعرة وبين أتباع الملل والنحل ، وقد بدأ هذا الاهتمام من لدن أبي الحسن الأشعري مؤسس المذهب ، ثم جاء بعده أعلام حازوا قصب السبق في هذا المجال فقدموا أروع إنتاج وأوسعه ، منهم الباقلاني الذي رد على جميع أصناف الملل والنحل وذلك من خلال كتابه التمهيد ، كما جاء الجويني فقدم جهودا كثيرة من خلال كتبه الكلامية كالشامل والإرشاد ومن خلال كتابه "شفاء الغليل" ، والغزالي الذي ألف في الرد على النصارى ، ثم الشهرستاني صاحب الموسوعة ودائرة المعارف في الأديان والفرق ، ولا ننسى البغدادي صاحب كتاب الملل والنحل ، ثم جاء فخر الدين الرازي صاحب المناظرات ، وكتاب اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، وبذلك يمكن أن نقول إن علم الملل كفن مستقل بدأ على أيدي المعتزلة ، لكنه ازدهر على أيدي الأشاعرة .

* * * * *

المبحث الثاني

في الأسس المنهجية لدراسة الملل عند المخالفين ونقدها

بينا في الفصل الماضي الأسس المنهجية لدارسة الملل عند أهل السنة وعرفنا مصادر الاستدلال عندهم وطرق إعمالها، ونبين هنا المنهج المقابل لهم وهو منهج المتكلمين أو أهل الأهواء عموما.

المطلب الأول: مصادر الاستدلال عند المخالفين

المقرر في هذه المسألة عند أغلب الفرق أن مصادر الاستدلال هي: نفس مصادر أهل السنة، قال زعيم المعتزلة واصل مبينا مصادر الاستدلال: «إن الحق يعرف من وجوه أربعة: كتاب ناطق، وخبر مجمع عليه، وحجة عقل، أو إجماع من الأمة»[1]. وورد في شرح الأصول الخمسة: أن الأدلة أربعة: حجة العقل، والكتاب، والسنة، والإجماع[2]. هذا عند المعتزلة أما إذا جئنا إلى الأشاعرة فنجدهم يزيدون على الأربعة السابقة مصدرا آخر وهو القياس[3]. ولكن بعضهم ردّ "القياس" إلى النص والإجماع فانحصرت الأدلة عنده بالأربعة الأخرى[4]. وبصفة عامة نرى مما سبق أن مصادر الاستدلال عندهم هي:

١ - الكتاب.

٢ - السنة المتواترة كما دل كلام واصل والأشاعرة يوافقون معهم في هذا[5].

٣ - الإجماع وإن أنكر فريق من المعتزلة وجوز إجماع الأمة على الضلال[6].

٤ - العقل.

---

(١) انظر: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام د. على سامي النشار ١/ ٤٠٣.

(٢) شرح الأصول الخمسة ص ٨٨.

(٣) انظر: الإحكام في أصول الأحكام ١/ ١٣٥.

(٤) انظر: الإحكام في أصول الأحكام الآمدي ١/ ١٣٦.

(٥) انظر: الشامل في أصول الدين للإمام الحرمين الجويني تحقيق على سامي النشار، فيصل بديرعون، سهير محمد مختار ص ٥٥٧ - ٥٥٨.

(٦) انظر الفرق بين الفرق ص ١٣٢.

وهي من الناحية النظرية قريبة إلى منهج أهل السنة وإن خالفت في التفريق بين الأحاديث المتواترة والآحاد، لكن إذا انتقلنا إلى موقف أهل الأهواء من دلالة النصوص وكيفية ترتيبها نجد أنه مخالف لمنهج أهل السنة.

المطلب الثاني: تقديم العقل على النقل

يخالف المعتزلة والأشاعرة وغيرهم من المبتدعة أهل السنة في ترتيب مصادر الاستدلال وفي حجية دلالتها، حيث قدموا العقل على النقل بناء على فكرة الدور عند المعتزلة "والتي تقوم على أن العقل أصل للشرع؛ إذ به عرفت صحة الشرع، ومن ثم فلا يصح الاستدلال بدليل سمعي على أية مسألة من المسائل الكلامية المتعلقة بوجود الله تعالى وصفاته وكل ما تتوقف عليه صحة النبوة، وإلا صار الأصل فرعا، وذلك دور باطل ومتناقض؛ والنتيجة اللازمة لذلك ألا يستدل الدليل السمعي في أمهات مسائل "العدل والتوحيد" وأن يقتصر مجاله على السمعيات التي لا مجال للعقل فيها، وعلى المسائل التي لا تتوقف عليها ثبوت صحة النبوة"[1]. وبناء على ذلك قسم المعتزلة وتبعهم الأشاعرة مسائل العقيدة إلى **ثلاثة أقسام:**

١ - قسم يدرك بدليل العقل دون الشرع كالمسائل التي تتوقف عليها صحة النبوة وكحدوث العالم ووجود المحدث وقدرته وإرادته وعلمه.

٢ - قسم يعرف بالشرع دون العقل كمسائل السمعيات كمقدار الثواب والعقاب وأحوالهما.

٣ - قسم يعلم بهما جميعا كبعض صفات الله التي لا تتوقف عليها صحة النبوة[2].

بل لقد بلغ الشطط ببعض المتكلمين حيث حاولوا توهين الدليل السمعي وإضعافه مطلقا كتابا كان أو سنة في قضايا العقيدة، وتقديم الدليل العقلي عليه، كما فعل الرازي حيث قال: «إن الأدلة السمعية لا تفيد اليقين أو القطع"

---

(١) انظر: المدخل إلى دراسات علم الكلام، د. حسن محمود الشافعي ص ١٥١.

(٢) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد لأبي حامد الغزالي ص ١٢١، الإرشاد للجويني تحقيق د. محمد يوسف موسى، وعلي عبد المنعم عبد الحميد ص ٣٥٨ - ٣٥٩، المدخل إلى علم الكلام ص ١٥٢.

زاعما أن "الأدلة اللفظية مبنية على مقدمات ظنية والمبني على المقدمات الظنية ظني: فالاستدلال بالخطاب لا يفيد إلا الظن»[١].

وهذا القاضي عبد الجبار يقول في معرض حديثه عن صفة الاستواء «إن الاستدلال بالسمع على هذه المسألة غير ممكن، لأن صحة السمع موقوفة عليها، لأنا ما لم نعلم القديم تعالى عدلا حكيما لا نعلم صحة السمع، وما لم نعلم أنه غني لا تجوز عليه الحاجة لا نعلمه عدلا وما لم نعلم أنه ليس بجسم لا نعلمه غنيا فكيف يمكن الاستدلال بالسمع على هذه المسألة، وهل هذه إلا استدلال بالفرع على الأصل»؟[٢]

وعلى ضوء هذا النهج الموهن لنصوص الشرع المفرط في تعظيم العقل ناقش المتكلمون أتباع الأديان الأخرى فهذا القاضي عبد الجبار يقول في معرض نقاشه عقائد النصارى: «فأما من عول منهم في هذا الباب على اتباع من سلف والرجوع إلى الكتب وتقليد التلاميذ فقوله ساقط، لأن الكلام في صفة القديم - عز وجل - وما يصح عليه وما لا يصح لا يجوز أن يرجع فيه إلى السمع . .»[٣]

بل نجده يصرح أن استدلاله للنصوص حتى في المسائل التي أورد فيها نصوصا أنه أوردها من باب الاعتضاد لا الاعتماد، يقول القاضي في فصل «إثبات أنه ﷺ مبعوث إلى الناس كافة" بعد إيراده نصوصا نقلية كثيرة" وإنما نذكر هذه الألفاظ تأكيدا والعمدة ما ذكرناه من العلم الضروري بدينه وقصده . .»[٤] وهكذا أخضع أهل الكلام نصوص الشرع للعقل، بسبب هذا الخطأ المنهجي في ترتيب مصادر الاستدلال .

المطلب الثالث: التأويل الكلامي

انطلاقا من وجوب تقديم العقل على النقل ذهب المتكلمون إلى وجوب تأويل

---

(١) المحصول في علم أصول الفقه، للفخر الرازي تحقيق، د. طه جابر العلواني ١/ ٥٤٧ .

(٢) انظر: شرح الأصول الخمسة، ص ٢٢٦، وموقف المتكلمين من الاستدلال ١/ ٣٤٠ - ٣٤١ .

(٣) المغني في أبواب التوحيد والعدل تحقيق محمود محمد الخضير ٥/ ١٤٢ .

(٤) المصدر السابق ١٦/ ٤٢٤، تحقيق أمين الخولي .

النصوص التي رأوا أن ظاهرها يخالف العقل ، يقول الغزالي: «كلّ خبر مما يشير إلى إثبات صفة للباري - عز وجل - يشعر ظاهره بمستحيل في العقل نظر إن تطرق إليه التأويل قبل وأول ، وإن لم يندرج فيه احتمال تبين على القطع كذب الناقل»[١] فهو يرى أن المنقول قد يكون كذبا أما برهان العقل فلا يكذب عنده أصلا ، لأن العقل لا يكذب ، ولو كذب العقل فلعله كذب في إثبات الشرع فكيف يعرف صدق الشاهد بتزكية المزكي الكاذب ، والشرع شاهد بالتفاصيل ، والعقل مزكي الشرع[٢] .

أما الرازي فقد زعم أن المصير إلى التأويل أمر لا بد منه[٣] وجاء بـ " القانون الكلي " القائم بوجوب تقديم العقل وتأويل النقل أو تفويضه وقد جعل الرازي وأتباع مذهبه قانونا كليا فيما يستدل من كتب الله تعالى وكلام أنبيائه عليهم السلام وما لا يستدل به[٤] وقد استعمل الطوائف المبتدعة التأويل في مناقشاتهم مع غير المسلمين سواء في أجوبتهم عن الأسئلة الموجهة إليهم أو في النقد الذي كانوا يوجهون للأديان الأخرى . فانظر أجوبة فخر الدين الرازي في مناظرته مع النصراني حين زعم النصراني أن في القرآن آيات موهمة للتشبيه ومثل بقوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿ وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[٦] وقوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾[٧] وآيات من الآيات الدالة بصفات الرب الاختيارية[٨] ، فقال الفخر الرازي مجيبا وفق مذهبه النافي للصفات الاختيارية: «وأما الجواب عن الأحاديث والآيات الموهمة للتشبيه ، فاعلم أنه إذا ثبت عند كلّ عاقل مثلا أن الجدار جماد لا حي ثم يوصف بعد

(١) المنخول من تعليقات الأصول ، لأبي حامد الغزالي تحقيق محمد حسن هيتو ص ٢٨٦ .
(٢) قانون التأويل ، لأبي حامد الغزالي ص ٢٤٠ مطبوع في ذيل معارج القدس ، مكتبة الجندي .
(٣) انظر: أساس التقديس لفخر الرازي تحقيق د. أحمد حجازي السقا ص ٩٥ دار الجيل - بيروت
(٤) انظر: درء تعارض العقل والنقل ١/ ٤ - ٥ .
(٥) سورة طه الآية: ٥ .
(٦) سورة الفجر الآية: ٢٢ .
(٧) سورة الزمر الآية: ٦٧ .
(٨) انظر: منظرات في الرد على النصارى ص ٥٧ - ٥٨ .

ذلك بالإرادة في قوله تعالى: ﴿ . . جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ ﴾(١) علم قطعا بضرورة العقل أن وصفه بالإرادة إنما هو على سبيل المجاز لا على سبيل الحقيقة»(٢) .

واستمر في الإجابة حتى قال: «فكذلك إذا علم أن الباري تعالى منزه عن الجسمية والعرضية والحد والجهة والأعضاء والجوارح والحركة والسكون ومنزه عن الميل والحظ والنفور والرقة، ثم إنه وصف بعد ذلك بالمحبة والرضا والسخط والهمة أو بالحركة والجارحة علم قطعا أن إطلاق ذلك عليه مجاز لا حقيقة . .»(٣) .

كذلك نجد القاضي عبد الجبار يسلك نفس المنهج مع النصارى فيقول في مناقشته معهم: «ولو ثبت ما ادعوه سمعا، لوجب أن يتأول على وفق ما يقتضيه . .»(٤) وإذا جئنا إلى الغزالي في كتابه الرد الجميل فإننا نجد لفظ "التأويل" تكرر في الكتاب فتجدها في ديباجة الكتاب كما تجدها في خاتمته، بل نجد الغزالي يقرر أصلين ذكر أنهما متفق عليهما بين أهل العلم: أحدهما: أن النصوص إذا وردت فإن وافقت المعقول تركت وظواهرها . وإن خالفت صريح المعقول وجب تأويلها، واعتقاد أن حقائقها ليست مرادة، فيجب ردها إذ ذاك إلى المجاز .

الثاني: أن الدلائل إذا تعارضت، فدل بعضها على إثبات حكم، وبعضها على نفيه، فلا نتركها متعارضة، إلاّ وقد أحسسنا من أنفسنا العجز باستحالة إمكان الجمع بينها، وامتناع جمعها متظافرة على معنى واحد(٥) .

ثم شرع نقد عقائد النصارى على ضوء هذين الأصلين حيث أول نصوص الأناجيل التي ظاهرها يدل على ألوهية عيسى - عليه السلام - مستدلا النصوص الدالة على إنسانيته، وخطأ الغزالي هنا، هو الانطلاق من "التأويل الكلامي" الذي يخضع النصوص للعقل، أما رده النصوص بعضها إلى بعض وإثباته ببشرية عيسى - عليه السلام -، فهذا

---

(١) سورة الكهف الآية: ٧٧ .
(٢) مناظرات في الرد على النصارى ص ٦٩ .
(٣) المصدر السابق ص ٧٠
(٤) المغني في أبواب التوحيد والعدل ٥/ ١٤٢ .
(٥) الرد الجميل، لأبي حامد الغزالي ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

عمل جليل يحمد عليه .

والمقصود هنا بيان أن " التأويل الكلامي " الذي بسببه عطل عموم أهل الأهواء والمتكلمون بوجه خاص النصوص الشرعية كان أحد الأسس المنهجية في دراسة الأديان عند المتكلمين .

المطلب الرابع: الاعتماد على المنطق والفلسفة

الأساس الثالث الذي يقوم عليه منهج المخالفين هو الاعتماد على القواعد المنطقية والطرق الفلسفية واستخدام مصطلحاتها في تقرير العقائد ، وهذا أمر يدركه من له أدنى إلمام بكتب الفرق والمقالات ، فقد حاول أصحاب المقالات الدفاع عن الإسلام وحقائقه بالمنطق ، واستعملوا الأسلوب الفلسفي لمواجهة الاستدلالات الفلسفية التي استعملها أتباع الأديان ، وأهل الإلحاد ، وقد أخطأ المتكلمون حيث استعاضوا تلك الطرق التي لا تغني ولا تسمن عن الاستدلال بحجج القرآن ، والأقيسة العقلية البرهانية المذكورة فيه ، من دلائل ربوبيته سبحانه وإلهيته ووحدانيته وعلمه وقدرته ، وإمكان المعاد ، وغير ذلك من المطالب العالية السنية ، والمعالم الإلهية التي هي أشرف العلوم ، وأعظم ما تكمل به النفوس من المعارف[١] .

وقد لا نجد عناء في ضرب أمثلة تدل على استعمال أهل الكلام الفلسفة في دراسة الأديان إذ أن كلّ كتب أهل الأهواء في المقالات - إلاّ ما ندر - بنيت على هذا الأساس ، فألفاظ: الجوهر ، والعرض ، والجسم ، والمتحيز ، والمركب ، والأحوال المتضادة هي ما يقابلك في افتتاح تلك الكتب عند أول أصل يجب إثباته وهو وجود الله ، فهذا الفخر الرازي يقول في صدر مناظرته مع النصراني: «فقلت له الكلام في النبوة لابد وأن يكون مسبوقا بمعرفة الإله ، وهذا الذي تقوله باطل ، ويدل عليه وجوه:

الوجه الأول: أن الإله عبارة عن موجود واجب الوجود لذاته ، بحيث لا يكون

(١) انظر: الرد على المنطقيين ص ١٥٠ .

جسما ولا متحيزا ولا عرضا . . .»[١] . فهذه الألفاظ هي معتمدهم في الاستدلال فيما يثبتون وفيما ينفون .

المطلب الخامس: النقد

يتبين لنا مما سبق أن منهج علماء الكلام قد انحرف عن المسار الصحيح بسبب انتهاجه ذلك النهج المغرق في الاستدلالات الإرسطية والمقدمات العقلية الموغلة في الجدل والمراء ، ولقد وجه إلى هذا المنهج نقد لاذع من قبل أساطين علم الكلام قبل معارضيه وتاب عنه كثير ممن ملك ناصيته ، أمثال أبي حامد الغزالي ، وفخر الدين الرازي ، وإمام الحرمين الجويني[٢] .

فعلم أن النهج الكلامي - وإن قصد به الدفاع عن الإسلام - قد أدى إلى نقيض القصد وانكشفت أخطاؤه للعيان ، ولعل أهم هذه الأخطاء تتلخص فيما يلي:

أولا: أنه نأى عن منهج القرآن في الدعوة إلى تثبيت العقيدة أو الدفاع عنها وآثر عليه نظريات وبراهين تثير من الشبه أكثر مما تثير من الإقناع[٣] فأوقعت أهلها في الحيرة والشك - فضلا عن غيرهم - ، قال شيخ الإسلام: «إنك تجد أهل الكلام أكثر الناس انتقالا من قول إلى قول وجزما بالقول في موضع ، وجزما بنقيضه وتكفير قائله في موضع آخر ، وهذا دليل عدم اليقين»[٤] ، وصرح الشهرستاني كما ذكر ابن تيمية: «أنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم»[٥] ، فعلم أهله في حيرة وشك كيف يضمن بر الأمان لمن يتبعه ، وعن أي حق يدافع إذا كان أهله في انتقال دائم؟! .

إن الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية التي لا تشفي عليلا ولا تروي غليلا كما صرح به الرازي[٦] ، عاجزة أن تحقق حقا أو تبطل باطلا في حقل دراسة

---

(١) مناظرة في الرد على النصارى ص ٢٢ .

(٢) انظر: الفتاوى ٤/ ٧٢ - ٧٣ .

(٣) منهج البحث في العلوم الإسلامية ص ٣٤٤ .

(٤) الفتاوى ٤/ ٥٠ .

(٥) المصدر السابق ٤/ ٧٣ .

(٦) المصدر السابق ٤/ ٧٢ .

الأديان .

ثانيا: إن مناهج المخالفين بعد أن اختلطت فيها طريقة الكلام وطريقة الفلسفة أصبحت مناهج نظرية بحتة تنظم المقدمات وتستخلص النتائج كما تفعل ذلك الآلات الحاسبة في عصرنا خلافا للمنهج القرآني الذي يخاطب العقل ويستثير العاطفة والفكر في تكوينه للعقيدة[١] .

ثالثا: إن أهل الأهواء باعتمادهم على العقل وحده وتحكيمه في كلّ شيء حتى فيما لا يقدر عليه كالأمور الغيبية ، قد جنوا على العقل والشرع معا ، إذ حرفوا الشرع بسبب تأويل الباطل ، وفرقوا الناس كلّ تفريق ، وأوقعوهم في شنئان وبغضاء[٢] مما أعطى الأعداء فرصة للشماتة على الإسلام وأهله .

رابعا: إن مناهج أهل الأهواء جنت على الإسلام حيث قدمته إلى الناس في غير حقيقته بسبب تأويل أو رفض بعض النصوص كما جنت على غير المسلمين حيث حجبت عنهم حقيقة الإسلام ودعتهم إلى البدع والآراء المتناقضة .

خامسا: ضعف مناهج أهل الأهواء في الدفاع عن الحق وقصورهم في الرد على الباطل قال شيخ الإسلام: «ومن أعظم أسباب بدع المتكلمين من الجهمية وغيرهم قصورهم في مناظرة الكفار والمشركين ، فإنهم يناظرونهم ويحاجونهم بغير الحق والعدل لينصروا الإسلام ، زعموا بذلك فيسقط عليهم أولئك لما فيهم من الجهل والظلم ويحاجونهم بممانعات ومعارضات ، فيحتاجون حينئذ إلى جحد طائفة من الحق الذي جاء به الرسول ﷺ والظلم والعدوان لإخوانهم المسلمين بما استظهر عليهم أولئك المشركون فصار قولهم مشتملا على إيمان وكفر وهدى وضلال ورشد وغي ، وجمع بين النقيضين وصاروا مخالفين للكفار والمؤمنين كالذين يقاتلون الكفار والمؤمنين . . .»[٣] .

---

(١) انظر: مباحث في منهجية الفكر الإسلامي ص ١١٩ ، منهج البحث في العلوم الإسلامية ص ٣٤٦ - ٣٤٧

(٢) انظر: فصل المقال في الشريعة والحكمة من الاتصال ص ٦٣ ، الأصول الفكرية عند شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ، لخالد عبد الصمد العك ص ١٤ ، المكتب الإسلامي ، ط الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م .

(٣) الفتاوى الكبرى ٥/ ٣٥ .

إن هـذا المثل العجيب ينطبق على كلّ الفرق المبتدعة الذين خاضوا في ميدان دراسة الأديان ، فقدموا الإسلام أمام الأديان في صورة مشوهة قاتمة .

و في ختام هـذا المطلب أقـول: إن مـن العـدل والإنصـاف أن نذكـر هـنا لعـلماء الكـلام فضـلهم في مجـال عـلم الملـل ، فقـد كـان لهـم جـولات وصـولات في الـرد على الـباطل وقطـع حجـج المـبطلين ، وهـذا مما يحمـد لهـم ، قـال شيـخ الإسـلام: «وكذلك متكـلمة أهـل الإثـبات مـثل الكلابـية ، والكرامـية ، والأشـعرية ، إنمـا قـبلوا واتـبعوا واسـتحمدوا إلى عمـوم الأمـة بمـا أثبـتوا مـن أصـول الإيمـان مـن إثـبات الصـانع وصـفاته ، وإثـبات النـبوة ، والـرد عـلى الكفـار مـن المشـركين وأهـل الكـتاب وبـيان تـناقض حججهـم . .»[1] . لكـن هـذا الجهـد لا يعفـيهم عـن الـنقد بسـبب أخطـائهم المنهجية والعقدية التي أسلفت ذكرها .

كـلّ مـا سـبق يؤكـد لـنا أن المـنهج السـلفي الموافق لمنهج القرآن المنضبط بالضوابط الشـرعية هـو المـنهج الوحـيد الـذي يـنبغي أن يـدرس عـلى ضوئه الأديان ، وهو المنهج المناسب لمواجهة التحديات المعاصرة في مجال دراسة الأديان .

* * * * *

(١) درء التعارض ٨/ ٢٧٥ .

الباب الثالث

دراسات علم الملل في العصر الحديث

مقدمة:

الفصل الأول: دراسة الملل في العالم الإسلامي.

الفصل الثاني: دراسات الملل في الغرب.

الفصل الثالث: فكرة التقريب بين الأديان وصلتها بعلم الملل.

الفصل الرابع: فكرة التطور الديني وصلتها بعلم الملل

الفصل الخامس: الغزو الفكري وصلته بعلم الملل.

الفصل السادس: صلة علم الملل بالسياسة.

* * * * *

مقدمة

مفهوم عصر الحديث

يحسن أن نبين قبل أن ندلف إلى دراسات الملل في العصر الحديث المقصود من مصطلح "العصر الحديث" فأقول: إن حقيقة مفهوم هذا المصطلح عند المسلمين يختلف عن مفهومه عند الغربيين فهو في إطلاقه عند الغربيين يصدق على تلك المرحلة التي تبدأ من بداية ما يسمى بالنهضة الأوروبية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين[١] والتي تستمر حتى اليوم، تلك المرحلة التي حاول الإنسان الأوروبي مرة إصلاح دينه الفاسد فلم يفلح فيها[٢] ثم تمرد عليه، وعلى سلطة رجاله معاوضاً به الإلحاد وإحياء التراث اليوناني القديم، وقد تتابع في هذه المرحلة من التاريخ الغربي فلسفات وآراء مدمرة للبشرية وتقدم علمي من الناحية المادية ولا مجال هنا لمناقشة هذه الأمور والذي يهمنا هنا هو أن ظهور "علم مقارنة الأديان" عند الغرب كان في تلك المرحلة.

أما مفهوم هذا المصطلح - إن صح إطلاقه - عند المسلمين فهو يقع على الفترة التي تبدأ من يقظة المسلمين وعودتهم إلى الإسلام من جديد، بعد فترة من الزمن عاش فيها المسلمون في حالة من الضعف والجمود الفكري والانحرافات العقدية وتبدأ هذه اليقظة من حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب[٣] في شبه الجزيرة العربية، وليس صحيحاً أن اليقظة الإسلامية بدأت بدخول الحملة الفرنسية في مصر سنة ١٧٩٨م للأسباب الآتية:

١ - أن حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أول حركة ظهرت إبان عهود التخلف

---

(١) اختلفت آراء الباحثين حول تحديد بداية النهضة فمنهم من حددها بظهور الشاعر "دانتي" (١٢٦٥ - ١٣٢١م) ومنهم من يرى أنها بدأت قبل ذلك، ومنهم من حددها بظهور (روجر بيكون: ١٢١٤ - ١٢٩٤م رائد مدرسة البحث العلمي والطريقة التجريبية) ومنهم من ذهب إلى أنها بدأت بثورة الإصلاح الديني في أوروبا عام ١٥١٧م وهناك آراء أخرى. انظر: تاريخ أوربا الحديث والمعاصر د. عبد الفتاح أبو علية، ود. إسماعيل أحمد ياغي ص ١٩ - ٢٠، و دراسات في الفلسفة الحديثة د. محمود حمدي زقزوق ص ١٦.

(٢) كانت هناك محاولات عدة لإصلاح الديانة النصرانية أو ثورات احتجاج بالأصح، و أشهر ثورة (ثورة مارتن لوثر: ١٤٨٣ - ١٥٤٦م) سنة ١٥١٧ م.

(٣) هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي المشرفي التميمي رائد الدعوة السلفية في العصر الحديث ولد في العيينة سنة ١١١٥هـ/ ١٧٠٣م وتوفي سنة ١٢٠٦هـ/ ٧٩١ م في الدرعية بعد جهاد طويل ودعوة في سبيل الله انظر: الأعلام للزركلي، ٦/ ٢٥٧.

والجمود الفكري في العالم الإسلامي[١] فنادت بتصحيح العقيدة وتحرير الفكري من الخرافات .

٢ - انتشار أثر هذه الحركة في العالم الإسلامي .

٣ - امتداد أثرها حتى اليوم دون القطاع .

٤ - أن تأثر الحركات الإصلاحية التي ظهرت في العالم الإسلامي بهذه الحركة أمر شهد به الأعداء قبل الأصدقاء .

يقول " سيرتوماس أرنولد «مبيناً ذلك هناك في الوقت الحاضر عاملان رئيسيان يعملان على تنشيط الدعوة في العالم الإسلامي:

أولهما: انتعاش الحياة الدينية التي بدأت تاريخها من حركة الإصلاح الوهابية في القرن الثامن عشر الميلادي ، وعلى الرغم أن هذا الانتقال الجديد قد فقد كلّ معنى سياسي في خارج حدودها زمناً طويلاً ، نرى تأثيرها من حيث هي نهضة دينية ملموساً في كافة الأنحاء الإفريقية والهند وأرخبيل الملايو حتى الوقت الحاضر ، كما أحيت كثيراً من الحركات التي أحرزت قصب السبق بين أقوى المؤثرات في العالم الإسلامي»[٢] .

ويقول آخر: «وفيما العالم الإسلامي مستغرق في هجعته ، ومدلج في ظلمته ، إذا بصوت يدوي من قلب صحراء شبه الجزيرة مهد الإسلام يوقظ المؤمنين ويدعوهم إلى الإصلاح والرجوع إلى سواء السبيل والصراط المستقيم ، فكان هذا الصوت إنما هو المصلح المشهور محمد بن عبد الوهاب الذي أشعل نار الوهابية فاشتعلت واتقدت ، واندلعت ألسنتها إلى كلّ زاوية من زوايا العالم الإسلامي ، ثم أخذ هذا الداعي يحض المسلمين على إصلاح النفوس واستعادة المجد الإسلامي القديم والعز التليد ، فتبدت تباشير الإصلاح ، ثم بدأت النهضة الكبرى في العالم الإسلامي»[٣] .

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب العاصرة ص ٢٧٣ .

(٢) انظر: الدعوة إلى الإسلام لتوماس أرنولد ترجمة د . حسن إبراهيم حسن وآخرون ص ٤٦٨ ، مكتبة النهضة الحديثة - القاهر ، ط الثالثة ١٩٧٠م

(٣) حاضر العالم الإسلامي ، للوثروب ستودارد ، ترجمة الأستاذ عجاج نويهض ١/ ٢٦٠ ، دار الفكر ، ط الثالثة ، ١٣٩١ هـ/ ١٩٧١ م .

ويقـول خـير الديـن الزركـلي: «كانـت دعوته الشعلة الأولى لليقظة الحديثة في العالم الإسـلامي كلـه، تأثر بها رجال الإصلاح في الهند ومصر والعراق والشام وغيرها، فظهر الألوسـي الكـبير في بغـداد، وجمـال الديـن الأفغـاني بأفغانستان، ومحمد عبده في مصر، وخـير الديـن التونسي بتونس، وجمال الدين القاسمي بالشام، وصديق حسن في بهو بال وأمير علي في كلكته، ولمعت أسماء آخرين»[1].

ويقـول أنـور الجندي: «وتشكلت الدعوة إلى اليقظة في صورة حركة حين نجح الإمام محمد بن عبد الوهاب في دعوته...»[2]

والمقصـود هـنا أن الـيقظة الإسـلامية المعاصـرة التي نؤرخ بها لتاريخنا المعاصر كانت يقظة انبثقت من داخل هذه الأمة وهو أمر طبيعي جاء وفق وعد الله في حفظ هذا الدين. وانطلاقاً من هذا المفهوم فإن المرحلة الخامسة التي سميناها مرحلة عودة علم الملل تبدأ مع هذه المرحلة التاريخية. وبها نعني دراسة علم الملل في العالم الإسلامي في العصر الحديث.

* * * * *

(١) انظر الأعلام، للزركلي ٦/ ٢٥٧.

(٢) انظر: حركة اليقظة الإسلامية، لأنور الجندي ص ٦ دار الاعتصام.

الفصل الأول

دراسة علم الملل في العالم الإسلامي

المبحث الأول: دراسة الملل في المؤسسات العلمية وتقويمها

المـراد بالمؤسسـات العلمـية هـنا الجامعات وقدمتها عن الجهود الفردية مع أن بعض الجهـود الفـردية أقـدم مـن الجامعـات من حيث الزمن نظراً لعظم دور الجامعات . ولكي نعـرف دور الجامعـات في دراسـة عـلم الملـل لابـد أن نتـناول ولـو بشـكل موجز مفهوم الجامعات الإسلامية ، وأهدافها ، ومناهجها .

المطلب الأول: مفهوم الجامعة الإسلامية

يطلـق اسم الجامعة بصفة عامة على المؤسسة الثقافية التي تشتمل على معاهد التعليم العـالي في أهـم فـروعه علوم الدين ، الفلسفة ، والطب ، والحقوق ، والهندسة والآداب[1] وتختلف وتـتعدد رؤيـة الباحـثين لمفهـوم الجامعـة الـتي يمكن أن يطلق عليها اسم الجامعة الإسـلامية . والسـبب في هـذا وجـود أنـواع من الجامعات في العالم الإسلامي ، وقد ذكر الدكتور عز الدين إبراهيم أنها تنحصر في خمسة أنواع:

١ - جامعـات إسـلامية متخصصـة تختص بعلـوم الشـريعة ، ومـا يتصل بها كاللغة العربية وآدابها .

٢ - جامعـات إسـلامية شـاملة تجمـع بـين التخصصـات الإسلامية ، والتخصصات المدنية الصرفة .

٣ - جامعـات إسـلامية شـاملة ولكـنها قاصـرة لا تتوسـع كـثيراً في الدراسـات الإسلامية ، بل تكتفي في الدراسات الإسلامية بكلية شريعة ، وربما تكتفي بقسم دراسات إسـلامية وتكـون فـيها التخصصـات المدنية والمهنية المختلفة ، لكنها مع ذلك تحرص على الالتزام بآداب الإسلام وأحكامه في كلّ أمورها .

٤ - جامعـات مدنـية صـرفة تقـوم أساسـاً على العلوم والتخصصات المدنية ولكنها ليست جامعات جحود وعلمانية . . . وإن وقعت فيها مخالفات للإسلام في الأنظمة .

---

(١) انظر: المنجد في اللغة والأعلام ص ١٠١ ، دار الشروق ، ط الثامنة والعشرون ١٩٨٦م .

٥ - جامعات علمانية صريحة[١] وقد استبعد الدكتور عز الدين وصف الجامعة الإسلامية النوع الرابع والخامس من هذه الأنواع الخمسة التي ذكرها واقترح أن يطلق على الثلاثة الباقية[٢] ، أما الدكتور محمد جميل خياط فيرى لتكون الجامعة جامعة إسلامية فلابد أن يكون نظامها العام إسلامياً من حيث الروح والأهداف والغايات والوسائل والأساليب وطرق التدريس[٣] . وذكر أنه من الخطأ أن يعتقد أن الجامعة الإسلامية هي الجامعة التي تضم كليات العلوم الشرعية واللغة العربية دون أن تكون هناك أهمية لهذه العلوم في الكليات الأخرى بالجامعة . إذ مثلها مثل الجامعات الغربية التي تقدم فيها دراسات شرعية حتى على مستوى الدراسات العليا[٤] ، فهذه الازدواجية تمنع من استحقاق صفة الإسلامية ، وإن كان بعض كلياتها إسلامية أو بعض مواد مناهجها دينية ، وقد يقال إن الفرق بين هذه الجامعة وبين غيرها من الجامعات الغربية هو في هذا الحيز الذي تشغله الدراسة الشرعية إذا كانت المقاصد منها صحيحة لكن لا تستحق وصف الإسلامية بها .

المطلب الثاني: أهداف الجامعة الإسلامية

هناك أهداف عامة تشترك في أغلبها الجامعات في العالم ومن أهمها:

١ - الحفاظ على تراث الأمة الثقافي وتنميته وتطويره .

٢ - نشر الثقافة في المجتمع ونقلها من جيل إلى جيل آخر .

٣ - سد حاجات المجتمع من الكفاءات المتخصصة في جميع فروع المعرفة .

٤ - التخطيط والتنظيم لعمليات التطور والتقدم التي تسعى إليها الدولة .

٥ - تطوير البحث العلمي[٥] .

والجامعة الإسلامية مع أنها تسعى إلى تحقيق هذه الأهداف السابقة إلاّ أن لها أهدافاً

---

(١) انظر: معالم في مسيرة الجامعات الإسلامية ، للدكتور عز الدين إبراهيم ص ٣٠ - ٣٢ .

(٢) انظر: المصدر السابق ص ٣٢ .

(٣) انظر: الجامعات الإسلامية ، للدكتور محمد جميل خياط ص ٤٨ .

(٤) انظر: المصدر السابق ص ٤٨ - ٤٩ .

(٥) انظر: المصدر السابق ص ٦٠ .

أسمى تمتاز بها عن جميع الجامعات الأخرى من أهمها:

١ - إعداد الإنسان المسلم القادر على القيام بمقتضيات العبودية لله، ومقتضيات الخلافة في الأرض ويتطلب هذا إيصال كلّ متعلم إلى درجة كماله الخاصة التي هيأه الله لها[١].

٢ - تبليغ رسالة الإسلام الخالدة إلى العالم عن طريق الدعوة[٢]

٣ - هيمنة الفكر الإسلامي في كلّ فروع المعرفة التي تقدم في الجامعة[٣].

المطلب الثالث: المناهج الدراسية في جامعات العالم الإسلامي

المنهج الدراسي يسعى دائماً إلى تحقيق الأهداف التي تضعها المؤسسة التعليمية ولا شك أن كلّ مؤسسة تضع منهجها حسب عقيدة مجتمعها وتجاهه الفكري فالمناهج في الدول الاشتراكية يبنى على ضوء نظرية الشيوعية، وأما دول العالم الإسلامي فالأصل أن تكون مناهجها الدراسية مستنبطة من عقيدتها، ومحققة للغاية الكبرى التي خلق من أجلها الخلق، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[٤]. ولكن - وللأسف - يرى الملاحظ «لواقع المناهج في جامعات العالم الإسلامي أنها تختلف من حيث التزامها بالروح الإسلامية من جامعة إلى أخرى وفي داخل الدولة الواحدة، ويمكن أن يصنف هذه الجامعات على ضوء المناهج إلى **أنواع ثلاثة:**

النوع الأول: جامعات تنطلق موادها الدراسية النظرية والعملية من فكر إسلامي، ففي جميع التخصصات تظهر الروح الإسلامية على المادة العلمية المقدمة. فالأهداف والوسائل كلها تؤكد الجانب الديني، وكذلك جميع الوسائل والطرق المتبعة في التدريس تلتزم بتعاليم الإسلام وليس هناك اختلاط بين الذكور والإناث، ولا يسمح بممارسة أي نشاط أو عمل أو أسلوب مناف لتعاليم الإسلام وهذا النمط من الجامعات يتمثل في

---

(١) انظر: محتوى منهج العلوم الشرعية في الجامعات، د. علي أحمد مدكور، بحث منشور ضمن بحوث مؤتمر علوم الشريعة في الجامعات المنعقد في عمان الأردن ١٦ - ١٩ ربيع الأول ١٤١٥هـ، ١/ ٣٧٤. جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية، والمعهد العالي للفكر الإسلامي ط الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

(٢) انظر: دليل الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ص ١٧ العام ١٤٠٩هـ إدارة التخطيط والميزانية.

(٣) انظر: الجامعات الإسلامية، للخياط ص ٦٢.

(٤) سورة الذاريات الآية: ٥٦.

المملكة العربية السعودية بصورة واضحة وشاملة وفي بعض الجامعات الأهلية في الباكستان والهند وفي جامعة الأزهر إلى حد ما .

النوع الثاني: جامعات تتمثل فيها الازدواجية بصورة واضحة فتجد بها كليات وأقساماً للدراسات الإسلامية تدرس بها المقررات الإسلامية كما أن المواد الأخرى في هذه الكليات والأقسام تنطلق من الروح الإسلامية إلاّ أننا نجد في الجانب الآخر كليات وأقساماً أخرى تنطبق عليها الصفة العلمانية فمقرراتها ومنهجها ينطلق من الفكر الغربي أو الشرقي غير الإسلامي ، بل والمنافي للفكر الإسلامي فلا تجد للإسلام نصيباً في أهدافها ووسائلها وأساليب التدريس فيها وهذا النمط - وللأسف الشديد - هو السائد في معظم جامعات عالمنا الإسلامي .

النوع الثالث: جامعات يمكن وصفها بأنها علمانية غير إسلامية وهي لا تقف عند الفصل بين الدين والعلم فحسب أو أن مقرراتها لا تشم فيها رائحة الإسلام ، بل أن الإسلام يحارب فيها محاربة علنية ويجاهر فيها بالمعاصي . وهذا النوع من الجامعات موجود في العالم الإسلامي»[1]

أغلب المناهج في الجامعات في العالم الإسلامي قامت على أسس علمانية: بما أن المناهج التعليمية والتربوية هي البوتقة التي تصهر الأمم بشكلها وروحها ، فإن أعداء الإسلام الذين استعمروا العالم الإسلامي قاموا بتغيير مناهج التعليم والتربية[2] لذا فإن معظم الجامعات في العالم العربي والإسلامي نشأت على أسس علمانية وذلك بحكم تسلط القوى الاستعمارية على العالم الإسلامي وقت تكوينها فتطبعت بطابع الحضارة الغربية وتولت شئونها قيادات تخرجت من الجامعات الغربية لذلك لم يكن للإسلام دور هام في صياغة مناهج التعليم ، ولا في وضع أهداف التعليم الجامعي ، ومن ثم فقد لا نجد ورود اسم الإسلام على لوائح هذه الجامعات فضلاً عن أن يكون محوراً للأهداف وأساساً للمناهج ، والتعليم العلماني في العالم الإسلامي كان يستهدف إنشاء أجيال المسلمين في أحضان هذه الجامعات منسلخة عن الإسلام جاهلة به تسخر منه وتعاديه

---

(١) انظر: الجامعات الإسلامية ص ٧٧ - ٧٨ .

(٢) انظر: دور جامعات العالم الإسلامي في مواجهات التحديات المعاصرة ، د . مقداد يالجن ص ٢٧ .

دون أن تعرف عنه وعن رجالاته الكثير ولا القليل فهي متعلقة برجال الفكر في التاريخ الأوروبي[١].

وتكثر الشكوى المرة من علماء التربية والكتاب في العالم الإسلامي حين يشهدون الواقع المرير لمناهج التعليم والتربية في الجامعات في العالم الإسلامي. يقول محمد الأفندي:

«وما تزال صورة التعليم في كثير من بلاد العالم الإسلامي هي الصورة الشوهاء التي نقلها عن غير المسلمين، فلا هو بلغ ما بلغوا، ولا هو احتفظ بأصالته، وحافظ على كيانه وإذا نظرنا من حولنا في هذه البلاد الإسلامية لوجدنا عجباً حيث إن مناهج التعليم قد انشطرت شطرين متميزين، كلّ منها يسير في واد، ولا تربطه في الآخر رابطة، فهناك التعليم المدني، والتعليم الديني، تماماً كما هي الحال عند غير المسلمين. وللتعليم المدني مدارسه ومعاهده وكلياته وجامعاته، وللتعليم المدني مثل ذلك من المدارس والمعاهد والكليات والجامعات.

وأصبحنا نجد في العالم الإسلامي رجال دين ورجال دولة وثقافة دينية وأخرى مدنية، وكل ذلك بعيد عن مبادئ ديننا منقول عن غير وعي وبغير تفكير ولا تدبر. وهذه الحقيقة الواضحة التي لا تقبل الجدل، ولا تحتمل المناقشة، تدعو إلى تغيير جذري وأساسي في مناهج التعليم ونظمه في البلاد الإسلامية التي سارت وراء غايات غير غاياتها واتخذت وسائل تختلف عما تقتضيه طبيعة أهدافها»[٢].

لقد تنبه كثير من أهل العلم والفكر في العالم الإسلامي على خطورة تلك المناهج وبدأت الندوات والمؤتمرات تعقد لهذا وتنشأ مؤسسات تهتم بأسلمة العلوم الإنسانية بيد أن أغلب الجامعات في العالم الإسلامي لا تزال تسير وفق المناهج العلمانية. وهكذا يجد المتأمل لواقع التعليم في العالم الإسلامي أن أغلب مناهجه بعيدة عن أن تحقق ما تنشده الأمة وتهدف إليه. ولعل معترض يعترض على تناول الكلام بالجامعات التي تنهج نهجاً

---

(١) واقع التعليم ومسئولية الجامعات في العالم الإسلامي، د. أكرم ضياء العمري.

(٢) انظر: الجامعات الإسلامية محمد خياط ص ٧٩ نقلا عن نحو مناهج إسلامية من سلسلة بحوث المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي المركز العالمي للتعليم الإسلامي جامعة أم القرى ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م.

علمانياً فيقول ما علاقة تلك الجامعات بعلم الملل أليس محله في الجامعات الإسلامية التي تهتم بالعلوم الشرعية؟

والجواب عن هذا الاعتراض هو أن علم الملل له صلة بعلوم كثيرة تدرس في تلك الجامعات كالتاريخ وعلم الاجتماع، وذلك أن الغرب لما درس هذا العلم واهتم به درسه باعتباره ظاهرة إنسانية فتناوله علماء التاريخ والاجتماع والتربية وعلم النفس. ثم قدم مناهجه ونظرياته الفلسفية وكان من ضمن ما قدمه لنا "علم مقارنة الأديان" إما مبثوثاً في ثنايا علوم أخرى أو مستقلاً تحت أسماء مختلفة تارة تحت اسم فلسفة الأديان وأخرى تحت اسم مقارنة الأديان أو علم تاريخ الأديان، وبمناهج تتغير بتغير الفلسفات فهنالك الطريقة السيكولوجية والاجتماعية والفلسفية والفينومينولجية والتاريخية[(١)] . و من ثم فإن الواجب على أية دراسة تقويمية في علم الملل لابد وأن تتناول كلّ الجامعات التي تدرسه بغض النظر عن اتجاهها بل إن التقويم والتصحيح أولى أن يكون على الجامعات التي تدرسه على ضوء الفكر الغربي الكافر ومنهجه الذي ينطلق من أساس غير ديني في تفسير نشأة الخليقة والمجتمع والتاريخ[(٢)] .

المطلب الرابع: الجامعات الإسلامية ودورها في دراسة علم الملل

رغم كثرة الجامعات التي طبعت بطابع علماني في العالم الإسلامي فإن هناك جامعات إسلامية قامت لتؤكد على أصالة هذه الأمة وتوثيق ارتباطها بماضيها الإسلامي المجيد وتحيي شخصيتها على هدى الكتاب الكريم والسنة المطهرة وصارت أملاً يرتجى ومطمعاً للخيرين[(٣)] ، وتطورت هذه الجامعات وانتشرت في طول العالم الإسلامي وعرضه، وبالرجوع إلى خططها ولوائحها الدراسية نجد أن دراسة علم الملل موجودة وإن كانت بأسماء مختلفة وتحت أقسام مختلفة . وأشير هنا إلى عدد من الجامعات التي عني بها علم الملل .

---

(١) انظر: في تاريخ الأديان (رؤوس أقلام)، د. إسماعيل راجي الفاروقي مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ص ٦٦ المجلد ٢١ الجزء الأول مايو سنة ١٩٥٩م، طبعة ١٩٦٣م.

(٢) انظر: التراث والمعاصرة، د. أكرم العمري ص ١٠٣ .

(٣) انظر: المصدر السابق ص ١٠٦ .

١ - جامعة الأزهر ويدرس علم الملل في أغلب كلياتها الشرعية ككلية أصول الدين بالقاهرة، وكلية الدراسات الإسلامية، وكلية الدعوة[١] كما يدرس في فروع الأزهر في المحافظات.

٢ - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ويدرس في كلية أصول بالرياض، وكلية الدعوة والإعلام[٢] و معهد تعليم اللغة العربية وفي بعض كليات الجامعة في الفروع.

٣ - جامعة أم القرى مكة المكرمة ويدرس في كلية الدعوة وأصول الدين قسم العقيدة[٣].

٤ - الجامعة الإسلامية - ويدرس في كلية الدعوة وأصول الدين - قسم العقيدة[٤].

٥ - جامعة قطرالدوحة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم العقيدة ومقارنة الأديان[٥].

٦ - جامعة مرمرة - استنبول - كليات الإلهيات قسم الحضارة الإسلامية والعلوم الاجتماعية شعبة تاريخ الأديان[٦].

٧ - جامعة هداية الله الإسلامية - في جاكرتا - كلية أصول الدين - قسم مقارنة الأديان[٧].

٨ - الجامعة الإسلامية العالمية - إسلام آباد - كلية أصول الدين[٨].

٩ - جامعة عمر الفاروق - كراتشي - كلية الشريعة وأصول الدين[٩].

---

(١) انظر: مقارنة الأديان اليهودية والمسيحية والإسلامية، د. أحمد سعد الدين البساطي ١/٨ مطبوعات معهد الدراسات الإسلامية ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، دليل الجامعات العربية ص ٦١٦ - اتحاد الجامعات العربية - الأمانة العامة ١٩٧٦م.

(٢) انظر: دليل جامعة الإمام ص ٨٢ - ٨٣ لعام ١٤١٥هـ إدارة الدراسات العليا والمعلومات.

(٣) انظر: دليل جامعة أم القرى ص ٢٧٩ - ٢٨١، ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦م وكالة الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي.

(٤) انظر: نشرة العام الدراسي ١٤٠٢هـ - ١٤٠٣هـ ص ٢٧ إدارة التخطيط والميزانية والمتابعة.

(٥) انظر: الدليل المختصر عن: جامعات العالم: حسين عبد الجليل علي ص ٤٦، دار الاعتصام.

(٦) انظر: الجامعات الإسلامية للخياط ص ٤٦٥ - ٤٦٦.

(٧) المصدر السابق ص ١٨٤ و ١٨٧.

(٨) المصدر السابق ص ٣٦٠ - ٣٦٣.

(٩) المصدر السابق ص ٣٥٦.

١٠ - جامعة دمشق - كلية الشريعة - قسم العقائد الإسلامية والأديان[١].

١١ - كلية أصول الدين - تطوان - قسم تاريخ الأديان[٢].

١٢ - الجامعة الزيتونية - تونس - كلية الشريعة و أصول الدين[٣].

١٣ - جامعة الأردن - عمان - كلية الشريعة قسم أصول الدين[٤].

١٤ - جامعة أم درمان الإسلامية - خرطوم - كلية الدراسات الإسلامية قسم الفكر والدعوة الإسلامية وأصول الدين[٥].

١٥ - جامعة القاهرة - القاهرة - كلية دار العلوم، قسم الفلسفة الإسلامية.

١٦ - كما يدرس هذا العلم في أغلب كليات الآداب في الجامعات العربية، كجامعة القاهرة، وبغداد، وعين الشمس، والأسكندرية وغيرها. وهكذا وجد هذا العلم طريقه في الجامعات العربية والإسلامية في العالم الإسلامي، ولكن كلّ جامعة من هذه الجامعات تقوم بتدريسه بالطريقة التي تراها، وعلى ضوء المنهج الذي يوافق اتجاهها، وتحت العنوان الذي تريدها، وفي القسم الذي ترى أنه مناسب له، ففي جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية مثلاً نجده يدرس في كلية أصول الدين في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة وفي مادة الملل، كما يدرس في كليات الشريعة وأصول الدين في فروع الجامعة، وكلية الدعوة والإعلام ومعهد تعليم اللغة العربية أما في الأزهر فنجده يدرس في كلية أصول الدين وفي قسم العقيدة والفلسفة كما يدرس في كلية الدعوة والثقافة الإسلامية باسم مادة مقارنة الأديان. وفي كليات الإلهيات في تركيا نجده يدرس في قسم الحضارة الإسلامية والعلوم الاجتماعية باسم تاريخ الأديان. وهكذا تقوم الدراسة بهذا العلم تحت مصطلحات مختلفة في المؤسسات التعليمية. ولكن مع ذلك فإن بعض الباحثين المعاصرين يشكك في هذا العلم ويعارض على تدريسه.

---

(١) انظر: دليل الجامعات العربية ص ٢٦٥.

(٢) المصدر السابق ص ٩٣٢.

(٣) المصدر السابق ص ٤٤.

(٤) الدليل المختصر عن جامعات العالم ص ٦٦.

(٥) دليل الجامعات العربية ص ١٧٨.

المطلب الخامس: تدريس علم مقارنة الأديان بين المؤيدين والمعارضين

استخدمت هنا مصطلح "مقارنة الأديان" لأن المعنيين هنا يستخدمونه وربما مفهوم هذا المصطلح يختلف عندهم عن مفهوم علم الملل، والبعض يطلق هذا المصطلح ويقصد علم الملل، ولذا نجد إطلاقهم بكتب الملل ككتاب "الملل والنحل" للشهرستاني وكتاب "الفصل" لابن حزم بكتب مقارنة الأديان، والحقيقة أن ذلك من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل إذ أن "المقارنة" مبحث من مباحث علم الملل ومهما يكن من أمر فإن بعض الباحثين قد عارض دراسة "علم مقارنة الأديان" في الجامعات الإسلامية وأثاروا حوله شبهات، بينما ينادي آخرون بتدريسه فما هي حجج كلّ من الفريقين وما الصواب في المسألة؟:

الفريق الأول: المعارضون وهذا الفريق كما يذكر الدكتور بكر زكي عوض يشمل على بعض الغيورين على العقيدة الإسلامية، وبعض الموالين لتيارات غير إسلامية وقد أضرب عن ذكر حجج الموالين للتيارات غير الإسلامية، وربما لضعف حججهم وتفاهتها، إذ أن أقوى حجج هؤلاء أنهم يقولون إن دراسة الأديان تؤدي إلى التعصب الديني. أما أهم الحجج التي احتج بها الغيورون فهي:

١ - إن الدين واحد وليس هناك أديان فكيف نقارن؟.

٢ - كيف نناقش ونستشهد بما لا نعتقد صحته؟.

٣ - أي فائدة تعود على الدعوة الإسلامية على إثر تدريس هذا العلم[(١)]؟.

٤ - إنه علم ولد يهودياً وأن أكثر من روج له هم اليهود وأنه وسيلة من وسائل هدم الدين الإسلامي[(٢)].

الفريق الثاني: فقد ذهب إلى أن هذا العلم علم إسلامي أصيل، وكان الريادة فيه للمسلمين، وأن أصوله موجودة في القرآن الكريم[(٣)].

---

(١) انظر: حولية كلية أصول الدين بالقاهرة ص ٢٠٢، ٢٣، ٢٥ العدد الرابع ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(٢) انظر: الإسلام دين الله في الأرض وفي السماء، د. جمال عبد الهادي محمد ود. وفاء محمد رفعت ص ٥٠، دار الوفاء للطباعة والنشر ط الثانية ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

(٣) انظر: مقارنة الأديان "اليهودية" ص ٣١، الدين دراز ص: ٢١، الميزان في مقارنة الأديان حقائق ووثائق، لمحمد عزت الطهطاوي ص ١٠.

الرد على حجج المعارضين:

١ - يقال لهم في الشبهة الأولي . إن التسميات الوضعية قد أقرها الإسلام كتسميات ، وقد سمى عقيدة غير المسلمين ديناً دون أن يقر صحة هذا الاعتقاد[(١)] فقد أمر الله رسوله محمد ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[(٢)] فالتسميات لا تغير عن الحقيقة شيئاً .

٢ - يقال لهم عن الشبهة الثانية إن التدرج مع الخصم من سنة الأنبياء فقد جاري إبراهيم قومه في معتقدهم وسلم من حيث الظاهر واستشهد بما يرون صحته وأحقيته بالعبادة ثم كر عليهم بالحق ، مبيناً لهم الفرق بين معتقده ومعتقدهم وكان ذلك بوحي الله إليه ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[(٣)] .

واستمرت الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ . ﴾[(٤)(٥)] .

٣ - أما عن شبهتهم الثالثة فإن فوائد هذا العلم جمة وقد وضحنا ذلك في فصل الأهداف الشرعية لدراسة الملل .

٤ - ويقال عن الحجة الرابعة إن هذه الحجة صحيحة على من يصدر من التصور الغربي لعلم مقارنة الأديان ، ويدرس على وفق مناهجهم ، أما إذا كانت دراسته على وفق المنهج الإسلامي فهذه الحجة غير مسلمة .

---

(١) حولية كلية أصول الدين العدد الرابع ص ٢٠٢ .
(٢) سورة الكافرون الآية: ٦ .
(٣) سورة الأنعام الآية: ٧٤ - ٧٨ .
(٤) سورة الأنعام الآية: ٨٣ .
(٥) انظر: حولية أصول الدين العدد الرابع ص ٢٠٣ .

والظاهـر أن منشأ الخلاف هو الخلط بين مفهوم علم مقارنة الأديان "علم الملل" عند المسـلمين وبـين مفهومـه عـند الغربـيين . وعلى أي حال فإن هذا العلم سلاح ذو حدين والصـواب والخطأ فيه يرجع إلى المقارِن لا إلى المقارَن[1] من هنا ينبغي أن يحدد الباحث ما يقبل من هذا العلم مما لا يقبل منه ، وأن يحدد مصطلحاته تحديداً دقيقاً ، إذ إن عدم تحديد المصطلحات يوقع الباحث في أخطاء منهجية كالتعميم في الأحكام . مثال ذلك قول بعض الباحـثين إن عـلماء السـلف يـنكرون دراسـة علم الكلام ، وعلم الكلام في مفهوم بعض الناس هو "علم التوحيد" فمن أخذ هذا الكلام على إطلاقه سيقول علماء السلف لا يرون بدراسـة "عـلم التوحـيد" وهـذا التعمـيم غـير صحيح إذ أن علماء السلف لم ينهوا من هذا العلم إلاّ ما خالف منهج أهل السنة .

المطلب السادس: علم مقارنة الأديان في جامعات المملكة العربية السعودية

وقد أدى عدم تحديد مصطلح "علم مقارنة الأديان" ومفهومه ببعض الباحثين أن ينفي وجـود هـذا العـلم في جامعـات المملكـة العربـية السعودية ، فقد ذكر أحد الباحثين[2] أن دراسـة علم مقارنة الأديان لم يقم به أحد تدريسه في المملكة العربية السعودية . وأن سبب ذلـك أن عـلماء المملكـة يعتـبرون المقارنـة بـين الإسلام وغيره من الأديان السماوية غير جائـزة ، وذلـك لأن نصـوص التوراة والأناجيل محرفة . وعلى هذا فلا يجوز عمل مقارنة بيـنها وبـين الإسـلام[3] . وذكـر أن المقارنـة تدرس بطريقة غير مباشرة ، عن طريق بعض عـلماء الأزهـر الذيـن يدرسـون في جامعـات المملكـة . وتكـون عندما يجيبون عن أسئلة الطـلاب المتعلقة بالأديـان السـماوية ، حيـث تكـون الإجابـة بذكـر مـا يوجد عند تلك الديانـات ، ثم بذكر المقابل لها في الإسلام ، ثم المقارنة بين ما يوجد في الديانات الأخرى . واسـتمر الأمر على ذلك حتى عقدت الندوة العالمية للشباب الإسلامي ندوة واقترح أحد الحاضرين إدخال مادة باسم "مقارنة الأديان" ضمن الخطط الدراسية لجامعات المملكة . . . فأرسـل الأمـين العـام للندوة خطابا إلى مسؤولي جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

---

(١) انظر: ما يقال عن الإسلام ، لعباس محمود العقاد ص ٥٧ المكتبة العصرية - بيروت .

(٢) هـو الدكتور أحمد سعد الدين البساطي أستاذ العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين جامعة الأزهر وأستاذ مقارنة الأديان بمعهد الدراسات الإسلامية - القاهرة .

(٣) انظر: مقارنات الأديان "اليهودية والمسيحية والإسلام ص ٥ .

يطلب منهم فيه أن تقوم تلك الجامعة بتدريس مادة "مقارنة الأديان" لأهمية هذه المادة[1] ثم نقل نص الخطاب الموجه من وكيل الجامعة إلى عميد كلية الشريعة وأصول الدين بالقصيم

وهو عبارة عن تعميم على بعض المعاهد العليا والكليات وهو بتاريخ ١٨جب ١٤٠٧هـ الموافق مارس ١٩٨٧م يقول فيه: «فضيلة عميد كلية الشريعة وأصول الدين في القصيم ، وفقه الله .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

فقد تلقت الجامعة خطاب الأمين العام لندوة العالمية للشباب ذا الرقم والتاريخ ٢٩ / ٣ / ١٤٠٧هـ بشأن الاقتراح المقدم له من أحد الإخوة حول إدخال مادة "مقارنة الأديان" ضمن خطط الجامعة الدراسية . وبدراسة الموضوع من قبل الجهة المختصة في الجامعة رئي ما يلي:

١ - ليس هناك مادة في أقسام الجامعة باسم "مقارنة الأديان" .

٢ - أهمية علم "مقارنة الأديان" إذا تم تحديده بدقة وكان الهدف منه هو بيان كمال الإسلام ، ونسخه للديانات السابقة مع ما في هذا من مزالق خطرة .

٣ - ليس معنى عدم وجود مادة باسم "مقارنة الأديان" أن موضوعات هذا العلم لا يدرس مطلقاً في الجامعة ، بل الحقيقة ، أن بعض موضوعاته تدرس من خلال مواد أخرى ، كالثقافة الإسلامية ، والمذاهب المعاصرة ، والملل والنحل والعقائد .

٤ - إحالة الموضوع إلى أقسام العقيدة والمذاهب المعاصرة وأقسام الدعوة والإعلام والثقافة الإسلامية ، في كليات الجامعة ، والمعهد العالي للدعوة الإسلامية في المدينة ، لدراسة الموضوع دراسة متأنية مع الإفادة بالنتيجة حول ضرورة إدخال المادة المذكورة ضمن خطة الدراسة في الجامعة ، نأمل بعد إطلاعكم إحالة الموضوع إلى القسم المختص لديكم لدراسته وموافاتنا بما يتم ولكم تحياتي .

التوقيع: وكيل الجامعة للشئون التعليمية[2]

---

(١) المصدر السابق ص ٦ - ٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٦ - ٧ .

وكما ذكر الباحث وصل هذا الخطاب إلى الكلية المذكورة بتاريخ ٢٣/ ٧/ ١٤٠٧هـ وقام عميد الكلية بتعميمه على أقسام الكلية لدراسته وموافاته بآراء أعضاء هيئة التدريس.

وبعد الدراسة وافق أكثر الأقسام إدخال تلك المادة ضمن خطط الجامعة الدراسية[١].

قلت إن القول بعدم وجود دراسة "علم مقارنة الأديان" في جامعات المملكة قول مجانب للحقيقة، كما أن الحكم على علماء المملكة برفض دراسة علم مقارنة الأديان يحتاج إلى تفصيل وتحديد. وهو أن منعهم له إما أن يكون مطلقاً، أو يكون على نوع معين من هذا العلم، ولا شك أن المنع بإطلاق غير صحيح لمخالفته بالواقع، أما إن كان المنع يقع على "علم مقارنة الأديان" المتأثر بمنهج الغربي الوافد فهذا صحيح. ثم إن مما يدل على أن هذا المقترح الذي جاء عن طريق "الندوة العالمية" كان غير مصيب ما ذكر في توصيف منهج مقرر مادة "الملل والنحل" وأهدافها في قسم العقيدة في كلية أصول الدين.

مما يوضح أن المراد من علم الملل والنحل هو "علم دراسة الأديان ومقارنتها". فقد ورد في مقدمة خطة مادة "الملل والنحل": «ومن العلوم التي عنيت بها الكلية من خلال قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة بها علم الملل والنحل، لأنه من العلوم التي جمعت بين الأصالة والمعاصرة فهو يعنى بدراسة الأديان ومقارنتها»[٢] وورد أن من أهداف تدريس هذه المادة: «بيان أن دراسة الملل والنحل أمر نابع من القرآن الكريم الذي حدثنا في كثير من آياته عن الملل والنحل التي شهدتها البشرية عبر تاريخها الطويل، وقد فتح القرآن أمامنا الطريق، وحفزنا إلى تتبع هذه الملل، ومعرفة عقائدها، والوقوف على مفاهيمها؛ فإن دراستنا لما عليه غيرنا من عقائد وملل يقوي لدينا جانب العقيدة، ويخدم قضية الإيمان؛ لأننا عن طريق هذه الدراسة الجادة المقارنة سنقف على ما عند غيرنا من ضعف وانحراف فتتجلى قوة إيماننا فيما ندين به ونعتقده»[٣].

كما ورد فيها تأكيد على أهمية هذا العلم في هذا العصر حيث ذكرت المقدمة: «إن

---

(١) المصدر السابق ص ٧.

(٢) انظر: مقدمة خطة مقرر مادة "الملل والنحل" في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة ص أ.

(٣) انظر: المصدر السابق ص ج.

البحث في علم الملل والنحل ومقارنة الأديان وتاريخها، قد غدا في هذا العصر من أخصب مجالات البحث الإنساني لدى العلماء والباحثين ونحن نرى أننا أولى الناس جميعاً بهذه الدراسات ومقاليدها، وذلك لأننا أصحاب الرسالة الخاتمة»[1] . وإذا جئنا إلى محتوى مقرر مادة "الملل والنحل" نجد اشتماله على موضوعات الأديان، سواء الأديان السماوية المحرفة[2]، أو الأديان الوثنية[3] . ولعل في هذا ما يزيل ذلك التوهم، ويؤكد لنا قيام الدراسة علم الملل في جامعات المملكة العربية السعودية كغيرها من الجامعات الإسلامية وبعد أن بدا لنا واضحاً إدراك الجامعات الإسلامية بأهمية علم الملل، نتساءل هنا ما هو الدور الذي تؤدي هذه الجامعات في هذا المجال، وما هو جوانب القوة والضعف؟ .

المطلب السابع: الجوانب الإيجابية لدور الجامعات في دراسة الملل

قامت الجامعات الإسلامية بدور مهم في دراسة علم الملل وتتلخص أهم الجوانب الإيجابية في هذا الدور فيما يلي:

١ - إعداد علماء متخصصين في مجال علم الملل حيث تخرج تلك الجامعات المعنية بهذا العلم أفواجاً من طلاب العلم المتخصصين بعلم الملل والذين يؤدون بعد نيلهم المراتب العليا في هذا العلم بدور نشره ودراسته .

٢ - دراسة وتحقيق كتب الملل فقد حققت كثير من تلك الكتب حيث اختار كثير من طلاب دراسات العليا تحقيقها لنيل درجة الماجستير أو الدكتوراه، ولا شك أن في هذا خدمة جليلة لهذه الكتب بصفة خاصة وعلى فن علم الملل بصفة عامة .

٣ - دراسة بعض مناهج العلماء المسلمين في علم الملل سواء كانت هذه الدراسة خاصة بمنهج عالم واحد، أو كانت دراسة مقارنة بين مناهج بعض العلماء، أو كانت دراسة اتجاه من اتجاهات الفرق الإسلامية التي كان لها إسهام بارز في مجال علم الملل وإن كانت الرؤية النقدية في هذا النوع الأخير تختلف من جامعة إلى أخرى تبعاً لاختلاف

(١) المصدر السابق ص د .

(٢) انظر: المصدر السابق المنهج المقرر على طلاب المستوى الأول الفصل الأول ص ١ - ٣، المادة: الملل والنحل في قسم العقيدة والمذاهب، كلية أصول الدين بالرياض .

(٣) انظر: المصدر السابق المنهج المقرر على طلاب المستوى الأول الفصل الثاني .

الاتجاهات .

٤ - دراسة موضوعات جديدة لم يتناولها العلماء القدامى كالمذاهب العقدية التي استجدت في بعض الملل كالبروتستانتية عند النصارى مثلا .

٥ - دراسة موضوعات قديمة وتناولها بأسلوب جديد أكثر عمقاً ودقة واستقصاء وأجود عنصرة وإخراجاً ، وغالبا يكون ذلك في الرسائل التي تبحث لنيل درجة علمية .

المطلب الثامن: جوانب القصور والضعف في دراسة علم الملل

رغم هذه الجهود الطيبة والتي برزت في تلك الجوانب الإيجابية - آنفة الذكر - فإن هناك جوانب أخرى تعبر عن ضعف هذا العلم في المؤسسات العلمية ، وعدم تبوئه على المكان اللائق به ، يقول الدكتور أحمد شلبي: «عاد علم مقارنة الأديان للظهور في معاهد العلم الإسلامية ، ولكنه في الحق لم يأخذ بعد مكانه اللائق»(١) ، ويقول الدكتور بكر زكي عوض: «نرى أن هذا العلم بحاجة إلي التعريف به وتعميم تدريسه»(٢) وقبل أن أدلف إلى بيان الأسباب التي أدت إلى الضعف ومظاهر هذا الضعف أثير بعض تساؤلات تستثير أذهان المهتمين بهذا العلم فأقول:

- هل أولت الأقسام المتخصصة بعلم الملل في الجامعات الإسلامية اهتماماً بدراسة الجهود التي بذلها أعداء الإسلام في هذا العلم والتي يقصدون من وراءها تشويه الإسلام وإثارة الشبهات عليه ومن ثم هل قامت بالتصدي لها .

- هل قامت تلك الأقسام بإعداد علماء متخصصين بعلم الملل يجيدون اللغات الأجنبية العالمية بحيث يتمكنون التأليف بها وترجمة الكتب إليها .

- هل قامت تلك الأقسام رصد ما يقوم به الأعداء من خطط وتغييرها بين حين وحين تبعاً للتطورات ونتيجة لدراسات وتقريرات عن فاعلية وسائلهم القديمة .

- ما دور هذه الأقسام في خارج قاعات الدراسات المنهجية في الجامعات ، وأين دورها في إعداد مؤتمرات ، وندوات ، ومحاضرات ، خاصة بعلم الملل وتطويره ، يشارك

---

(١) مقارنة الأديان اليهودية ص ٣٤ .

(٢) حولية كلية أصول الدين بالقاهرة العدد الرابع ص ٢١٠ - ٢١١ .

فيها العلماء المؤهلون في هذا المجال، الذين يجمعون بين العلم الشرعي وفقه الواقع.

- ما دور هذه الأقسام في التأليف ونشر كتاب الموجه في هذا المجال.
- ما مدى صلة الأقسام في عالم الإعلام الذي يبث من خلاله العقائد والأفكار.
- ما مدى التعاون والتنسيق الذي يتم بين هذه الأقسام.

إن هذه التساؤلات كلها في إطار مهام الجامعات الإسلامية المهام التي ينبغي أن تتحقق من خلال الأقسام العلمية بدءاً بتلك المتخصصة في الملل والعقائد.

والحقيقة أن واقع هذه الأقسام يجيب عن تلك التساؤلات.

وما يمكن أن أقول هنا هو أن ما قامت به هذه الأقسام من تلك الأمور لا يصل في غالبه الحد الأدنى. وقد لفت ذلك الواقع أنظار كثير من الباحثين والمهتمين في مجال التربية، وتضافرت شكواهم المرة من هذا الواقع. وتأكيدهم بأن مؤسسات التعليم الإسلامية المعاصرة ليست بمستوى العصر وأنه أمر لا بد من الاعتراف به عن قناعة(١).

يقول الدكتور محمد جميل خياط في هذا - وهو من أشد المنتقدين لواقع الجامعات الإسلامية من حيث نظمها وخططها ومناهجها وأعضاء التدريس فيها وطلابها(٢)«والواقع القائم في معظم الجامعات الإسلامية، وعلى ضوء المنهج العام المطبق بها وعلى ضوء أنظمتها وبرامجها، يثبت أن خريجيها يكون عالة على دولهم لأن مستوى العلم الذي تلقوه في جامعاتهم متدني جداً فمناهج هذه الجامعات لا تخرج لنا مثقفين على مستوى العصر يشاركوا في نهضة وتقدم الأمة الإسلامية واستعادة مجدها، وبالتالي فهم لا يستطيعون تحقيق الهدف العام من وجود هذه الجامعات وهو تخريج الدعاة إلى الله والذين يقومون بنشر الإسلام بين الأمم والشعوب وبتوضيحه لأبناء أمتهم... فهذا واقع الدعاة في العالم وهذا نتاج عملهم يشهد بأن الغالبية العظمى، منهم غير مؤهلة للقيام بهذه المهمة... وفاقد الشيء لا يعطيه... فلا يمكن لهؤلاء الخرجين عمل المعجزات فإعدادهم العلمي... لم يكن كافياً حيث أنه لم يبن على أسس وقواعد

(١) انظر: التراث والمعاصرة د. أكرم ضياء العمر ص ١٠٦.
(٢) انظر: الجامعات الإسلامية ص ٥.

صحيحة . إذاً فلا بد للجامعات الإسلامية من أن تراجع مناهجها وبرامجها وأنظمتها ولترفع من مستواها العلمي والثقافي حتى تخرج لنا أناساً صالحين أكفاء مؤهلين لحمل الرسالة وتأدية الأمانة واستيعاب المشكلات والأخطار التي تهدد الأمة الإسلامية[١] .

إن الأقسام العلمية المتخصصة بعلم الملل تدخل في هذا الوصف الذي وصفه الدكتور خياط دخولاً أولياً وذلك أن علم الملل يعد من العلوم الصعبة التي تحتاج إلي جهد ومصابرة ، فإذا كان واقع التعليم ضعيفاً فلاشك أن أول علم يضره هذا الضعف هو علم الملل .

المطلب التاسع: أسباب ضعف علم الملل في الجامعات الإسلامية

هناك أسباب كثيرة وراء ضعف هذا العلم وهذه الأسباب بعضها خاص وبعضها عام يشمل علم الملل وغيره ومن أهم الأسباب العامة ضعف التنسيق بين الجامعات الإسلامية .

١ - **ضعف التنسيق بين الجامعات:** إن التنسيق والتعاون بين الجامعات الإسلامية من الأمور الضرورية ، ذلك أن هذه المؤسسات ليست على مستوى واحد في القدرة والإمكانات فهناك جامعات إسلامية نشطة تجد من حكوماتها دعماً سخياً ورعاية كاملة ، وهناك جامعات أهلية تحارب من قبل حكوماتها فضلاً عن دعمها . ولاشك أن التعاون والتآزر والتنسيق التام بين هذه المؤسسات يحل بعض الصعوبات التي تعترض سير التعليم الإسلامي . ولعل إدراك ذلك من قبل مسئولي الجامعات الإسلامية كان وراء تأسيسهم للمؤسسة الواحدة التي تهتم في هذا المجال ، والمسماة برابطة الجامعات الإسلامية ، والتي تأسست سنة ١٣٨٩هـ حيث اجتمع ممثلو ثلاث وعشرين جامعة إسلامية ، إضافة إلي مجموعة من الشخصيات البارزة في مدينة "فاس" فأنشأوا تلك المؤسسة والتي حددت أهدافها بما يلي:

١ - العمل على تنمية الروح الإسلامية وإشاعتها والاعتزاز بالقيم الإسلامية والتمسك بها .

---

(١) انظر: الجامعات الإسلامية ص ١٤٤ - ١٤٥ .

٢ - تنمية التعاون بين مؤسسات التعليم الجامعي في الدراسات الإسلامية والعربية فيما يعود بالنفع عليه في أداء رسالتها لخير الإسلام والمسلمين.

٣ - تجميع البيانات عن التعليم الجامعي والبحث العلمي وعن كلّ ما يتعلق بالإسلام من دراسات وبحوث ووثائق وتدوينها في سجل خاص ترسل منه نسخة للمؤسسات الثقافية الإسلامية.

٤ - تنمية الاتصالات بين الجامعات الإسلامية وبين مؤسسات التعليم الجامعي في الدراسات الإسلامية وغيرها من المؤسسات الثقافية الأخرى، وبين هذه المؤسسات من ناحية والاتحادات والمؤسسات الثقافية الإسلامية والعالمية من ناحية أخرى وذلك كله في حدود ما يتفق مع رسالة الإسلام وخير المسلمين.

٥ - العمل على تيسير تبادل الأساتذة بين المؤسسات التعليم الجامعي في الدراسات الإسلامية والعربية بكافة الطرق المنتجة، وعلى الأخص عن طريق إنشاء سجل خاص يتضمن بياناً عن المؤسسات الإسلامية التي تكون في حاجة إليهم وعن تلك التي يوجد من أساتذتها فائض لسد تلك الحاجة.

٦ - دعم المؤسسات الثقافية الإسلامية وحمايتها والعمل على سد حاجتها.

٧ - التنسيق في توزيع المنح الطلابية بين الجامعات الإسلامية[1].

لاشك أن تلك الأهداف التي تسعى الرابطة لتحقيقها يعد نوعاً من التنسيق بين الجامعات الإسلامية يمكن أن يسهم في توحيد الجهود ويحقق التعاون وبالرغم أن هذه الرابطة قامت بإنجازات لا ينكر وعقدت مؤتمرات لتحقيق أهدافها، فإننا نجد قصوراً وضعفاً في مجال التنسيق بين الجامعات لاسيما في مجال البحث العلمي فقد ذهب كثير من الباحثين أن التنسيق في هذا المجال يكاد يكون معدوماً فهذا الدكتور عباس محجوب يقول: «والمتتبع لمسيرة البحث العلمي والرسائل الجامعية في الجامعات عامة، والإسلامية خاصة **يلحظ ما يأتي:**

---

(١) انظر: دليل رابطة الجامعات الإسلامية، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ص ٢٧، ط الأولى ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م.

١ - ضعف التنسيق والتعاون بين الجامعات الإسلامية فيما يقدم فيها من بحوث ورسائل، الأمر الذي يؤدي إلى تكرار البحوث، ليس في الجامعات بل أحياناً في جامعة واحدة، وذلك لانعدام الضوابط التي تحكم وتوجهها، ولانعدام الفهرسة الدقيقة للبحوث بحيث يسهل على طالب الدراسات العليا أن يلم بطبيعة الموضوعات التي عولجت في الجامعات الأخرى حتى لا يقدم موضوعاً مشابهاً أو مكرراً لما قدم من قبل(١) وهذا الدكتور أكرم ضياء العمري يتحدث عن الأعمال المكررة والجهود الضائعة في مجال البحث فيقول: «وهنا تطالعنا صورة أليمة عن ضياع الجهود الكثيرة في الأعمال المكررة وأحياناً يعمل ثلاثة أو أربعة من الباحثين في نشر كتاب واحد، وفي الغالب يكون مستواهم متقارباً، ونسخهم متشابهة . . . . في الوقت الذي نحن بحاجة فيه إلى جهد لإنجاز مهمة تحقيق التراث في مدة زمنية مناسبة ولو نسقت الطاقات فربما وصلنا إلى مكتبة عربية تراثية متكاملة، خلال ربع قرن من الزمان . . . والمشكلة ليست من المعضلات، ولا تحتاج سوى الاتفاق بين الجامعات ومراكز التحقيق المختلفة على ترشيح معنية . . .»(٢).

وهذه المشكلة عامة بيد أن علم الملل أشد العلوم تضرراً بها لكونه علم قليل المراجع بالنسبة للعلوم الشرعية الأخرى مما يجعل بحوث المقدمة فيه إما مكررة أو متقاربة.

٢ - **المواقف السياسية**: من العقبات التي تقف في طريق دراسة علم الملل بعض المواقف السياسية التي تزعم أن في دراسته إثارة للتعصب الديني وتفتيت للوحدة الوطنية وهذه الدعوى يؤيدها القوميون والعلمانيون والطوائف الدينية التي تعيش في بعض أقطار العالم الإسلامي، وتستخدم هذه الجهات السلطة والإعلام ضد انتشار هذا العلم. يقول المستشار محمد عزت الطهطاوي:

«ومن العجب في بلادنا الإسلامية أنه إذا ألف أحد المتخصصين بحثاً أو كتاباً في "علم مقارنة الأديان" نجد المسؤولين في وزارات الإعلام يقفون أمام نشره بمقولة الخشية من تفتيت الوحدة الوطنية، وأن منع نشر مثل هذه الأبحاث والكتب داعية من دواعي

---

(١) انظر: البحث العلمي في مناهج الجامعات الإسلامية د. عباس محجوب.
(٢) التراث والمعاصرة ص ٨٣.

الأمن، ولكن هذه حجة واهية وتبرير مدحوض»(١).

ونجد الدكتور يحيى هاشم فرغلي مستنكراً ما تثيره وسائل الإعلام من البلبلة والتشويش حول علم الملل فيقول: «هناك سؤال مطروح الآن حول علاقة الجدل العقدي بين الإسلام وأديان أهل الكتاب... يهودية أو مسيحية! هناك فكرة طرحت فعلاً تصرح بأنه «من حق أي إنسان أن يتحدث - حتى بمنطق الجهل في تمجيد دينه، وجنسه، وقومه، ولكن ليس من حقه أن يتحدث مهاجماً دينا آخر، ولابد من تجريم ذلك بالقانون»(٢).

فالنقد العلمي المنصف للأديان في منطق هؤلاء يعد هجوماً. ويواصل الدكتور يحيى كلامه فيقول: «والسؤال المطروح علينا هو: كيف يرسم قسم مقارنة الأديان - بكلياتنا ومعاهدنا - طريقه بين هذه المحاذير؟ أيكون ذلك بالانكباب على الإسلام دون تعرض لغيره؟ وإذاً فكيف تتم المقارنة، وهي حق الأجهزة البحث العلمي على مستوى العالم؟ وهي ضرورة "داخلية" قائمة في نصوص الدين؟! أو بشرح العقيدة بكل أبعدها وعلاقاتها وملابساتها، مع المحافظة على الصلات الطيبة، وطنياً، واجتماعياً، وفردياً، وبخاصة في الإسلام الذي يحرص على الأمرين معاً، حرية تامة في توصيف العقيدة والحكم عليها وعلى غيرها دون أن يمثل ذلك نوعاً من الإثارة، كالذي توهمه نصارى نجران، إذ جاءوا إلى رسول ﷺ يعاتبونه قائلين: «مالك تشتم صاحبنا؟ قال ﷺ ما أقول؟ قالوا تقول إنه عبد الله! قال: أجل هو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول فغضبوا».

إذاً فمجرد قول المسلم عن عيسى - عليه الصلاة والسلام - إنه عبد الله ورسوله أثار غضباً في الطرف الآخر. فهل يمكن أن تدفعنا هذه الحساسيات إلى السكوت عن تقرير ما هو صريح في الدين؟ إذاً فلتغلق معاهد الدين، ولتطمس

---

(١) الميزان في مقارنة الأديان ص ١١ - ١٢.

(٢) نشر هذا الكلام في اليوميات بالأهرام في ٢٧ / ٢ / ١٩٨٧م

صفحات من الكتب، وليكف القارئ عن تلاوة بعض الآيات...»[١] وهذا لازم موقف هؤلاء الذين يرفضون دراسة الملل وبيان الحق عن الباطل فيه، ويكمل الدكتور كلامه بقوله: «... نعم فليكن الجدل بالحسنى، ولكن بالحسنى لا يعني طمس الحقيقة، لأن الحقيقة سوف تعلن عن نفسها في نهاية الأمر، رضي الناس أم سخطوا والجدل بالحسنى في باب العقيدة بالذات لن يخلو قط من استعمال كلمات من باب بنات هذا الميدان ومفرداته التي لاغنى عنها من قبيل هذا "إيمان" وهذا "كفر" وهذا "مؤمن" وهذا "كافر" هذا مصيره إلى "الجنة" وهذا مصيره إلى "النار". فكيف يمكن أن يقال انكبوا على أنفسكم ولا تتعرضوا للأديان الأخرى»[٢].

والعجيب أن هذا التضييق السياسي والتشويه الإعلامي على هذا العلم يحصل في الوقت الذي يفتح له أقساماً في الجامعات الغربية ويخصص له المعاهد والمراكز ويتلقى بكل الدعم والتشجيع، وتيسير لطلابه سبل الحياة، وهذه الجامعات والمعاهد تدرس الإسلام دراسة بعيدة عن الإنصاف والعدل بل وتفتري عليه وتغير حقائقه. ومما يزيد المسلم حسرة وأسى أن يجد بعض طوائف الدينية التي تسكن في العالم الإسلامي تتصدى للدراسات النقدية التي تقدم عن دينها وأن تنال من الباحثين المسلمين وأساتذة الجامعات الإسلامية حتى وصل الأمر بالبعض أن يحجم عن إعادة طبع الكتب بسبب ما وجه إليه من نقد[٣]. وأحياناً يتعرض للتهديد أو التعريض بالأذى، كما اشتكى البعض من كثرة رسائل النصارى عليهم التي حملت لهم ألواناً من الشتائم والهجوم[٤].

٣ - الصعوبة المتوهمة لدى بعض طلبة العلم تجاه علم الملل: يعد بعض طلاب العلم علم الملل علماً صعباً إذا قيس بالعلوم الشرعية الأخرى حيث يدرس فيه عقائد باطلة مختلفة، وقد يحتاج الدارس فيه مطالعة كتب أهل الملل

---

(١) انظر: مقدمة كتاب اليوم الآخر بين اليهودية والمسيحية والإسلام، د. فرج الله عبد الباري أبو عطا الله ص ٧ - ٨.
(٢) المصدر السابق ص ٨.
(٣) انظر: محاضرات في النصرانية محمد أبو زهرة ص ٧.
(٤) أنظر: مقارنة الأديان "المسيحية"، د. أحمد شلبي ص ١٨.

والبحوث العقدية التي تتناول قضايا الجدل العقدي بين أهل الملل، كما قد يحتاج إلى الإلمام بعدة لغات، بالإضافة إلى تحرج البعض منه من الناحية الشرعية، وقد أدت هذه إلى عزوف بعض طلاب العلم عن هذا العلم، وإلى عدم اهتمامهم به لاسيما في الدراسات العليا ومن العجائب التي مرت بي في حياتي الدراسية في هذا المجال أنني كنت أسمع كثيراً من بعض زملائي في أيام دراستي الجامعية في كلية أصول الدين بالرياض وصف بعض الطلاب بمادة الملل - بكسر الميم - مادة الملل - بفتح الميم - وهذا ينبئ عن عدم إدراك هؤلاء الطلبة بقيمة هذه المادة، وجفافها عندهم، وضيق صدورهم عنها، هذا في دراسة يتلقونها عن الأساتذة، فكيف يكون الأمر لو كان في مجال البحث الذي تقع المسئولية على عاتق الطالب بالدرجة الأولى، لا شك أنه من الصعب أن يتجرأ من يحمل تلك المفاهيم عن هذا العلم في البحث عن مسائله المعقدة.

إن علم الملل صار رمزا للصعوبة عند بعض الناس وكم من زميل أشفق عليّ من تسجيل هذه الرسالة! وما ذلك إلاّ أنه وجد كلمة "الملل" في عنوان الرسالة. إن هذا المسألة تحتاج من مسئولي الجامعات الإسلامية وعلماء التربية الإسلامية إجراء تقويم تربوي على مادة "الملل" من حيث المنهج، وأساليب تدريسها والمقرر أو المحتوى، والأساتذة الذين يزاولون تدريسها، والطلاب الدارسين بها؛ ليدرك الأسباب الحقيقية وراء هذه المفاهيم.

وتعليقي على هذه القضية: أن صعوبة هذا العلم صعوبة متوهمة أكثر مما تكون حقيقة. ومنشأ هذا التوهم إما خلل في المنهج أو حب للراحة والكسل المطبوع على بعض طلاب العلم. لذا أقول إن دراسة هذا العلم وفق المنهج الصحيح (منهج القرآن) البعيد عن الطرق الكلامية والأساليب الفلسفية مع ربط هذه الدراسة بالواقع، وجعله من الوسائل الفعالة في مواجهة التحديات الخارجية التي تأتي من أهل الملل، مع تقديمه بأسلوب سهل وشيق لما يزيل هذه الصعوبة المتوهمة. ويجعله علماً محبوباً.

ثم إن مقارنة منهجنا بمناهج هؤلاء الغربيين المهتمين بدراسة الأديان الذين يمضون حياتهم في الترحال، بحثاً عن الحفريات والنحوت، والبحث عن عقائد

البدائيين ومحاولة فك ألغازهم العقدية واللغوية علّهم يجدون ما يشير إلى تاريخ الدين والتدين والدوافع إلى التدين فتنهى حياتهم ولم يصلوا غير أراء متضاربة متناقضة وأنى لهم أن يصلوا إلى الحقيقة ولم يسلكوا مسالكها ، إن مقارنة منهج هؤلاء بمنهج المسلمين الواضح الذي يقوده الوحي في مجال دراسة الملل لمما يبين سهولة منهج المسلمين في دراسة الأديان . ومهما يكن فإن مسألة الصعوبة مسألة نسبية ، ولا شك أن علم الملل من العلوم التي تحتاج من المتخصصين به مزيد صبر وتحمل بيد أن صعوبته لن تعجز بأهل الحزم والعزم .

إن هذه الأسباب الثلاثة في رأيي من أهم الأسباب التي تلعب دوراً في ضعف علم الملل وعدم أدائه دوره المطلوب ولعل أهم مظاهر ضعف هذا العلم تبرز ما يلي:

١ - قلة الإنتاج حيث تشكو المكتبة الإسلامية فقرها من كتب الملل وهذا يدل على غياب دور أساتذة علم الملل في إثراء المكتبة ، كما لا تجد مشروعات علمية جماعية تبنتها هذه الأقسام وأفادت عنها المكتبة ، ولاشك أن قلة المصادر والمراجع سيكون له أثره العكسي على ضعف تطور هذا العلم .

٢ - غياب دور هذا العلم في مجال الدعوة إلى الله ، فالأولى أن يكون المتخصصون في واجهة الدعوة في الخارج ، لكن الملاحظ في وواقع الدعوة المعاصرة يرى عدم وجود مميز لهم .

* * * * *

المبحث الثاني

الجهود الفردية لدراسة الملل وتقويمها

توطئة:

والمقصود بالجهود الفردية هنا هو الإسهامات التي قدمها علماء المسلمين في مجال دراسات الملل في العصر الحديث، والتي تبرهن على عودة علم الملل في الساحة الإسلامية وعلى أداء دوره الوظيفي. وعرض هذه الجهود وتقويمها أمر ضروري للأسباب الآتية:

١ - لإبراز دور هؤلاء العلماء والباحثين في دفاعهم عن الإسلام والإنصاف لهم.

٢ - لاحتواء مناهج الجامعات على كثير من كتب هؤلاء وتدريسها في المدارس.

٣ - لاحتواء المكتبة الإسلامية سواء الجامعية أو العامة أو التجارية على عدد كبير من كتب هؤلاء العلماء.

٤ - كون هؤلاء على مناهج مختلفة بعضها مخالف للمنهج الصحيح.

٥ - لإبراز الجوانب الإيجابية في مناهج هؤلاء العلماء والباحثين والاستفادة منها في مجال الدعوة إلي الله تعالى والدفاع عن الإسلام.

وبما أن الاستعراض لكل جهود علماء المسلمين المعاصرين في هذا المجال لا يمكن أن يحصر في مثل هذا المبحث فإني أكتفي بالإشارة إلى جهود بعض الرواد وزعماء الإصلاح في هذا المجال، ثم أذكر دور أساتذة الجامعات الإسلامية والعربية.

المطلب الأول: زعماء الإصلاح في العصر الحديث وعلم الملل

في العصر الحديث بدأت اليقظة الإسلامية، بعد طول جمود وضعف عمّ العالم الإسلامي، وبعد انحرافات حظيرة أصابت الأمة فأبعدتها عن النهج القويم، وكانت الريادة - كما أشرت سابقاً - للحركة السلفية التي قادها الشيخ محمد عبد الوهاب - رحمه الله - في الجزيرة العربية، ثم تتابعت الحركات الإسلامية في العالم الإسلامي واكتملت معالم اليقظة الإسلامية، بعد الغزو الغربي العالم الإسلامي فظهرت أعلام حملوا لواء الدفاع عن الدين الإسلامي، وارتفعت صيحات هؤلاء الأعلام بدعوة المسلمين إلي تصحيح عقيدتهم والتمسك بالكتاب والسنة وترك البدع والخرافات، كما ارتفعت ضد

الغزاة المعتدين الذين حاولوا النيل من الإسلام واتهموا بشتى الاهتمامات وافتروا عليه زوراً وبهتاناً ، في حين يظهرون بإعلاء شأن دياناتهم المحرفة ، آملين صرف المسلمين عن الإسلام وإدخالهم في الديانة النصرانية أو جعلهم بدون عقيدة ودين .

وفي هذا الصراع العقدي والفكري والسياسي بين المسلمين والمستعمرين المعتدين يظهر علم الملل ليبدأ مسيرته بأقوى ما يكون وليؤدي دوره الدفاعي ، فصار سلاحاً قوياً في أيدي علماء المسلمين ضد المتطاولين على الإسلام والمنصرين وأذنابهم وسأذكر هنا أبرز الأعلام والرواد الذين دافعوا عن الإسلام والذين لهم آثار تصنف في علم الملل . وسأرتب ذلك حسب تاريخ وفاتهم ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ، أما العلماء الذين مازالوا في قيد الحياة فسأكتفي بذكرهم أو بذكرهم في المجال الذي اشتهروا به . وأجعل اسم المؤلف قبل اسم الكتاب مخالفاً منهجي في الباب الثاني وذلك أن بعض أعمال المعاصرين في هذا مصنفة ضمن كتب أخرى ، ثم إن ما أذكر لبعضهم خاصة الرواد منهم قد يكون ضئيلاً إذا قورن بأعمال من جاء بعدهم ، ممن لم يذكر والسبب في ذلك أنني اعتبرت السبق ميزة في هذا .

١ - عبد العزيز بن حمد بن معمر ت: ١٢٤٤هـ ١٨٢٨م[١]:

كان الشيخ عبد العزيز بن حمد بن معمر فقيهاً أديباً . . . ذا شهرة في علوم الشريعة ومطلعاً إطلاعاً واسعاً على مختلف المذاهب والنحل وعلى الديانات الأخرى وبخاصة الديانة اليهودية والنصرانية[٢] وليس ذلك غريباً عليه فهو أحد أبناء الحركة السلفية التي ازدهر علمها في الجزيرة العربية لا سيما في الدرعية الموطن الأصلي للشيخ عبد العزيز بن حمد وتلقى علماً غزيراً أساسه الكتاب والسنة من شيوخ هذه المدرسة وكل ذلك جعله مؤهلاً لأن يكون أحد أعلام العصر ، والمدافعين عن الإسلام .

جهود الشيخ عبد العزيز بن معمر في علم الملل: سبق أن أشرت أن حركة الشيخ

---

(١) هو عبد العزيز بن حمد بن معمر من علماء نجد ولد في الدرعية سنة: ١٢٠٣هـ ، ثم انتقل إلى البحرين وتوفي فيها سنة: ١٢٤٤هـ ، انظر الأعلام ، للزركلي ٤/ ١٧ ، علماء نجد خلال ستة قرون ، للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام ٢/ ٢٤٥ و٢/ ٢٤٨ ، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة - مكة المكرمة - ١٣٩٨هـ .

(٢) انظر: كلمة الناشر في مقدمة كتاب "منحة القريب في الرد على عباد الصليب ، لابن معمر" .

محمد بن عبد الوهاب كانت أول حركة إصلاحية ظهرت في العالم الإسلامي، ومن الطبعي أن تكون لهذه الدعوة جهود في مقاومة أعداء الإسلام في جميع الميادين، وهذا ما آل على نفسه مؤسسها ثم أتباعها من بعده والمتأمل لتاريخ هذه الدعوة يجد أن جهودها بهذا الصدد كانت مركزة على تصحيح عقيدة المسلمين وتحصينها من العقائد الفاسدة وذلك بتقرير العقيدة الإسلامية، وبيان ما يضادها، وما يجب على المسلم إتباعه تجاه الأمم الكافرة ومن فسدت عقيدته من المسلمين، ومن يقرأ كتب الشيخ محمد بن عبد الوهاب، خاصة كتاب "التوحيد" و"كشف الشبهات" و"فضل الإسلام" يجد صورة ناصعة لمنهج واضح في الرد على عقائد أهل الملل، والتحذير عنها.

وهذه الدعوة لم تغفل عن مقاومة الهجوم الخارجي الذي بدت طلائعه في ضعف الخلافة العثمانية[(١)]، وما صاحبه من تحد عقدي نصراني، بل انبرا على تصدي هذا الغزو العقدي أعلام من هذه الحركة، يأتي على رأسهم العلامة عبد العزيز بن حمد الذي تصدى لشبهات النصارى في كتابه "منحة القريب في الرد على عباد الصليب" ولعل هذا الكتاب - حسب إطلاعي - أول كتاب ألف في علم الملل في العصر الحديث. وسبب تأليف هذا الكتاب أنه دخل في الخليج العربي كتاب منسوب لقسيس هولندي هو "قودي قروت" اسمه "حقيقة الديانة النصرانية" وترجمه القسيس "أدورد بوكوك" إلى العربية وسماه "مفتاح الخزائن ومصباح الدفائن"[(٢)].

وقد صادف دخول هذا الكتاب في البحرين ارتحال الشيخ عبد العزيز إليها، فلما كان الشيخ معروفاً لدى أهل البحرين بسعة العلم طلب منه أن يرد على هذا الكتاب، فلما علم الشيخ ما يحمله الكتاب من تهجم على الإسلام وشبهات وافتراءات، قام الشيخ بدافع الإيمان الرد عليه. سالكاً منهج الحق ملتزما بالعدل والإنصاف ففند شبهاته، وافتراءاته بالحجج النقلية والعقلية، وقد اكتفى الشيخ بالرد على القسم الثاني من المقالة الثانية وذلك أن كتاب القسيس اشتمل على مقالين وكل مقال اشتمل على قسمين ففي المقال الأول ذكر:

---

(١) انظر: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، د. محمد البهي ص ٦٥.

(٢) انظر: دراسة، د. محمد بن عبد الله السكاكر محقق الكتاب ص ٦٥ وما بعده رسالة دكتوراه في قسم العقيدة والمذاهب بكلية أصول الدين مكتوبة بالآلة الكاتبة.

١ - ادعاءه بصحة الشريعة المسيحية .

٢ - زعمه بصحة الكتب العهد الجديد "الأناجيل" .

وفي المقال الثاني:

١ - الرد على اليهود المكذبين .

٢ - الرد على المسلمين(١)

يقول الشيخ: «وهذا القسم - القسم الأخير من المقال الثاني - أرشدك الله لما يرضيه هو الذي قصدنا الرد عليه فيه»(٢)

وقد قسم رده إلى خمسة مقامات ورد في كلّ مقام فصلاً من فصول هذا القسم هذا وقد يرد رد لبقية الأقسام الأخرى ، لكن بصفة غير مباشرة . إن وجود مثل هذا الكتاب لدليل على عودة دور هذا العلم ، في وقت مبكر من عصر اليقظة الإسلامية وأن ذلك كان قبل حملة الفرنسية ، كما يرد على من ذهب أن أول محاولة في الرد على التحديات العقدية في العصر الحديث كانت "رسالة جمال الدين الأفغاني في الرد على الدهريين"(٣) .

٢ - محمد رحمت الله بن خليل الكيرانوي ت ١٣٠٨هـ(٤):

عاش "رحمت الله" في الهند في القرن الثالث عشر الهجري تحت سيطرة الاستعمار الإنجليز البروتستانتي على البلاد والعباد ، ولما رأى تطاولاً من علماء النصارى على الدين الإسلامي ، شمر عن ساعد الجد لمقاومتهم ، وتفرغ لمقارعتهم والرد عليهم بالقلم واللسان ، فدرس النصرانية في مصادرها الأصلية حتى فاق علماءها المتخصصين فيها ، ثم بدأ يؤلف كتبه للرد على المنصرين ، ولم يكتف في التأليف فقط ، بل أسس مراكز تدريب الدعاة المسلمين على مقاومة التنصير ، وكان لهذة المراكز الأثر الكبير في نفوس المسلمين

---

(١) انظر: منحة القريب ص ١٥ .

(٢) انظر المصدر السابق ص ١٥ .

(٣) انظر: الفلسفة الإسلامية: مدخل وقضايا ، د . حامد طاهر ص ٦٥ .

(٤) ولد الشيخ رحمت الله بحي (دربـاركلان) في قرية كيرانة بمحافظة مظفر ناجار من توابع دلهي العاصمة الهندية في غرة جمادى الأولى سنة: ١٢٣٣هـ الموافق ٩ آذار سنة ١٨١٨م بأسرة عرفت بالعلم والطب ، وتوفي في مكة سنة ١٣٠٨هـ الموافق ١٨٩١م . انظر مقدمة إظهار الحق ١/ ٩ ، ١/ ١٥ . الأعلام ، للزركلي ٣/ ١٨ .

وتبصيرهم بأهداف التنصير ، وكانت هذه المراكز القاعدة الصلبة لجميع جمعيات الإسلام في الهند فيما بعد . ومن أساليب مقاومته للتنصير إجراء المناظرات مع المنصرين فناظر في "أكرا" القسيس "كثي وفرنج" وذلك في شهر ربيع الآخر سنة ١٢٧٠هـ وكانت الغلبة فيها للشيخ رحمت الله . ويسمى هذه المناظرة بالمناظرة الصغرى . وبعد ثلاثة أشهر تناظر مع القسيس فندر وفرنجي في "أكرا" كذلك وكانت الغلبة فيها للشيخ أيضاً ويسمى هذه المناظرة بالمناظرة الكبرى وقد اعترف القسيسان في هذه المناظرة بتحريف الكتاب المقدس ، في سبعة أو ثمانية مواضع أصلية ، وبوجود أربعين ألف اختلاف عبارة[1] . وقد ترك لنا الشيخ في هذا المجال مؤلفات عديدة أهمها:

١ - إزالة الأوهام . وهو أول كتاب ألفه الشيخ لتفنيد حجج المنصرين ، وألفه باللغة الفارسية ثم ترجمه إلى الأردية الشيخ نور محمد[2] .

٢ - إزالة الشكوك . ألفه بالأردية للإجابة على أسئلة أوردها بعض المنصرين وهو مجلدين كبيرين[3] .

٣ - الإعجاز العيسوي . أثبت فيه بالأدلة القاطعة الواضحة على نسخ الأناجيل وتحريفها وألفه بالأردية[4] .

٤ - أحسن الأحاديث في إبطال التثليث . رد فيه عقيدة التثليث وألفه بالأردية[5] .

٥ - البروق اللامعة أثبت فيه بشارات النبي ﷺ من كتب العهدين وألفه بالعربية لكنه مفقود[6] .

٦ - معدل اعوجاج الميزان . ألفه بالأردية للرد على نسخة جديدة من ميزان الحق "لفندر" أصدرها بعد تغييره لبعض موضوعات النسخة[7] .

---

(١) انظر: المصدر السابق ١/ ١٦ - ١٧ .
(٢) المصدر السابق ١/ ١٨ .
(٣) المصدر السابق ١/ ١٨
(٤) المصدر السابق ١/ ١٩ .
(٥) المصدر السابق ١/ ١٩
(٦) المصدر السابق ١/ ١٩ .
(٧) المصدر السابق ١/ ٢٠ .

٧ - تقليب المطاعن: ألفه بالعربية للرد على كتاب القسيس "إسمث" المسمى "تحقيق الدين الحق" وهو مفقود[١] .

٨ - معيار التحقيق: ألفه للرد على كتاب "تحقيق الإيمان" للقسيس "صفدر علي" ولم يطبع وربما هو مفقود أيضا[٢] .

٩ - التنبيهات في إثبات الاحتياج إلى البعثة والحشر: رد فيه على الدهريين المنكرين للبعث والقيامة ألفه بالعربية[٣] .

١٠ - إظهار الحق: يعد إظهار الحق أشهر مؤلفات (رحمت الله) ألفه بالعربية وهو كما يقول محقق الكتاب الدكتور "ملكاوي "نتيجة من نتائج المناظرة الكبرى التي جرت بين الشيخ وبين القسيس "فندر"[٤] والكتاب مكون من الموضوعات الخمسة التي حددها الشيخ مع القسيس فندر في المناظرة التي أغلقها القسيس معلنا هزيمته بعد المناظرة في الموضوع الثاني والموضوعات هي: «النسخ والتحريف والتثليث وألوهية المسيح ونبوة محمد ﷺ وإعجاز القرآن»[٥] .

وبهذه الجهود المباركة صار الشيخ رحمت الله رائد علم الملل في عصر الحديث وصار اسمه مقرونا بأسماء جهابذة "علم الملل "كابن حزم ، وابن تيمية - رحمهم الله - عند المتخصصين في هذا العلم . وقد استخدم في كتابه "إظهار الحق" منهج النقد التحليلي ، فناقش وقارن مع الالتزام بالعدل والعلم ومتحليا بآداب الجدل والمناظرات[٦] . ومن أهم مميزات التي يلاحظ على منهج الشيخ رحمت الله في هذا الكتاب: الاعتزاز بالإسلام ، فهو لا ينطلق من موقف الضعف ولا يقف موقف المتهم ، وإنما يندفع مهاجما ، وهذه الميزة قلما تجد فيمن جاء بعده من المعاصرين الذين حاولوا الدفاع عن الإسلام مع الاستحياء .

---

(١) المصدر السابق ١/ ٢٠ .

(٢) المصدر السابق ١/ ٢٠ .

(٣) المصدر السابق ١/ ٢١ .

(٤) المصدر السابق ١/ ٢١ - ٢٢ .

(٥) المصدر السابق ١/ ٤٠ .

(٦) انظر: المصدر السابق ١/ ٨٢ - ٨٤ .

٣ - جمال الدين الأفغاني ت (١٣٥١هـ - ١٨٧٩م)[١]:

يعد جمال الدين الأفغاني من أشهر المقاومين للاستعمار الغربي في العصر الحديث وإن كانت حقيقة الرجل مثار جدل بين الباحثين، فهو عند البعض مصلح كبير وباعث اليقظة الشرقية، وعند آخرين ماسوني باطني ظاهره يخالف باطنه، والحق أن الرجل قد قدم إلى ما قدم، والمطلوب في مثل هذا المقام هو اتباع منهج السلف في نقد الرجال وتقويم أعمالهم، ذلك المنهج الذي يوازن بين الحسنات والسيئات دون تفريط ولا إفراط. ونحن هنا لسنا في صدد البحث عن حقيقة جمال الدين الأفغاني، وإنما الذي يهمنا هو ما إذا كان له أعمال تصنف في مجال علم الملل.

جهود جمال الدين في علم الملل: ظهر جمال الدين في ساحة العالم الإسلامي بعد تمكن الاستعمار الغربي النصراني من السيطرة سيطرة تامة على المسلمين في وسط آسيا وشرقيها، واتخذ له نقطة ارتكاز رئيسة في إفريقية، كما تمكن من نفوذه إلى قلب العالم الإسلامي ومركزه الرسمي في منطقة الشرق الأدنى فطوق بذلك العالم الإسلامي من الشرق والغرب[٢].

وكان مما كان يحمل الاستعمار النصراني في أعماقه ومفاهيمه أمورا عدة على ضوئها وضع خطته في التعامل مع المسلمين، وأهم هذه الأمور:

١ - أن القرآن مصدر القوة الإسلامية وأنه لا أمل في استعباد المسلمين ما دام هذا الكتاب باقيا في الأرض.

٢ - أن الإسلام دين العزة والقوة والجهاد فلن يستسلم المسلمون ما داموا على هذا الفهم له.

٣ - أن اللغة العربية هي رابطة الأمة العربية، وقوام الإسلام، ومفتاحه في العالم

---

(١) هو محمد بن صفدر الحسيني جمال الدين ولد في أسعد آباد بأفغانستان سنة ١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م، وتوفى في تركيا سنة ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م، من أهم آثاره "العروة الوثقى" بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده، انظر الأعلام للزركلي ٦/ ١٦٨ - ١٦٩.

(٢) انظر: الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي، د. محمد البهي ص ٢٣.

الإسلامي . . "[١] . وكان يحمل في جانب آخر:

١ - تعصبا كاملا وعداء سافرا ضد المسلمين .

٢ - وإيمانا بسيادة الرجل الأبيض على غيره .

٣ - وإيمانا بالحضارة الغربية المطبوعة بطابع العلماني .

٤ - والإيمان بمذهب الغاية تبرر الوسيلة[٢] .

جاء الغرب إلى العالم الإسلامي يحمل هذه الأفكار والمفاهيم . وعلم أنه لن يستطيع بتحقيق أهدافه دون أن يجد من المسلمين منافقين أو مخدوعين يساعدونه في سلخ المسلمين من عقيدتهم ومبادئ الإسلام ، فوجد الاستعمار الإنجليزي ذلك في المسلمين الهنود بيئة خصبة لتقبل أفكاره الملوثة ، فبث فيهم مذهب الإلحاد .

وكان جمال الدين في تلك الفترة ثائرا ضد الاستعمار الغربي ، وداعياً إلى تحرير عقول المسلمين من الأوهام والخرافات ، وكان يجوب العالم منفياً أو مختاراً ، وفي إحدى رحلاته إلى الهند سئل عن حقيقة "الدهريين" المسمون في الهند "النيشريين" نسبة إلى الكلمة الإنجليزية **NATURE** ومعناها الطبيعة[٣] . فألف جمال الدين رسالته "الرد على الدهريين"[٤] . وبين فيها حقيقة مذهب الدهريين ، وفند آراءهم وأفكارهم الخبيثة بالأدلة العقلية والبراهين المنطقية ، ووضح ضرر هذا المذهب على الإنسان من خلال عرض تاريخي له قديما وحديثاً[٥] .

وبين حاجة الناس إلى التدين ، وأن الدين نظام الحياة ، ثم تحدث عن الإسلام وبين مزاياه وفضله على سائر الأديان ، وذلك لما توفر فيه دون غيره من: صقل العقول بصقال التوحيد وتطهيرها من لوث الأوهام[٦] . ومحق امتياز الأجناس وتفاضل الأصناف بغير

(١) مقدمات العلوم والمناهج ، لأنور الجندي ١/ ١٩٢ ، دار الأنصار - القاهرة ، .

(٢) المصدر السابق ١/ ١٩٢ .

(٣) انظر: الفلسفة الإسلامية مدخل وقضايا ص ٦٤ .

(٤) ألفها بالفارسية وترجمها إلى العربية الشيخ محمد عبده سنة ١٨٨٠م .

(٥) انظر: الرد على الدهريين لجمال الدين الأفغاني ترجمة الشيخ محمد عبده ص ٤٥ .

(٦) انظر: المصدر السابق ص ٧٨ - ٧٩ .

العقل والفضيلة[١]. وجعل العقيدة قائمة على الإقناع لا على التقليد واتباع الآباء[٢].

ونصب المعلم ليؤدي التعليم وأقام المؤدب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٣].

ولم ينس احتجاج الغربيين بواقع المسلمين في طعن الإسلام فقال مفرقا بين واقع المسلمين وبين حقيقة الدين: «فإن قال قائل: إن كانت الديانة الإسلامية على ما بينت فما بال المسلمين على ما نرى من الحالة السيئة وشأن الحزن؟؟ فجوابه: أن المسلمين كانوا كما كانوا وبلغوا بدينهم ما بلغوا والعالم يشهد وأكتفي الآن من القول بهذا النص الشريف: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[٤][٥].

والقارئ لأفكار جمال الدين في هذه الرسالة يرى أن نقد جمال الدين لم يكن موجها إلى المذهب الدهري بل وجه أيضا إلى جميع الملل ويظهر ذلك من خلال المقارنة التي أجراها بين الإسلام وغيره على ضوء تلك المزايا التي سبق ذكرها، كما يظهر من منهجه الاعتداء بالعقل وجعله من خصال التفضيل بين الناس، والحق أن التفضيل بين الناس إنما هو بالتقوى، ويلاحظ أيضا أن نقده للملل الباطلة نقد تلميحي حيث لم يصرح ببطلان النصرانية واليهودية، وإنما فضل الإسلام فقط لتوفر بعض المزايا فيه، وهذا لا يكفي في النقد.

ومهما يكن فإن قيمة هذه الرسالة تكمن في كونها من باكورة الأعمال التي قدمها الفكر الإسلامي في الدفاع عن الإسلام في زمن التحدي والصراع بين الحق والباطل، ومع ذلك ليست هذه الرسالة وحدها هي التي عرضت جهود الأفغاني في هذا الميدان، بل نجد ذلك مبثوثا في "العروة الوثقى التي كانت منبرا لآرائه وأفكاره فقد تناول فيها موضوعات قارن فيها بين الإسلام والنصرانية، فهو يقول في أحد موضوعاتها: « . . . وبعد، فموضوع بحثنا الآن: الملة المسيحية الإسلامية»[٦]. ثم يبدأ يقارن بين الديانتين لا

---

(١) المصدر السابق ص ٨٠ - ٨١.
(٢) المصدر السابق ص ٨٣ - ٨٥.
(٣) المصدر السابق ص ٨٦ - ٨٧.
(٤) سورة الرعد الآية: ١١.
(٥) الرد على الدهريين ص ٨٧.
(٦) مجموعة العروة الوثقى جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده ص ٦٥.

سيما في الجانب السياسي[١].

وكذلك نجدها في مناقشاته مع الأوروبيين وردوده في المحاورات، فقد كان يجادلهم فيفحمهم، فقد حدث مرة أنه ناقش أحد الغربيين في المفاضلة بين الشرق والغرب فأفحم جمال الدين خصمه بنبرة حادة وقال: «كفى الشرق شرفا أن قام منه رجل ما زالت أمم أوروبا تعبده إلى اليوم - يقصد المسيح عليه السلام -»[٢].

ورد على المستشرق الفرنسي "رينان" الذي اتهم الإسلام بعدم تشجيعه للعلم بما فيه من اعتقاد للغيبيات وخوارق العادات، والإيمان بالقضاء والقدر[٣].

٤ - نعمان بن محمود الألوسي البغدادي ت ١٣١٧هـ[٤]:

هذا العالم هو ابن العلامة الشيخ محمود الألوسي المفسر، عاش في هذا العصر الذي كثرت فيه دسائس النصارى وتلفيقاتهم وتطاولهم على الإسلام، وقد أدلى بدلوه في الدفاع عن الإسلام؛ فألف في علم الملل كتابا سماه "الجواب الفسيح لما فقه عبد المسيح"[٥].

وقد ذكر في سبب تأليفه له: أنه رأى في السنة ١٣٠٤هـ أوراقا مطبوعة في لندن سنة ١٨٨٠م تتضمن - زورا وبهتانا - على تقديم دين النصارى على سائر الأديان، وطعناً لدين الإسلام، وهي أوراق منسوبة إلى "عبد المسيح بن إسحاق الكندي" مجيبا في زمن المأمون العباسي "رسالة "عبد الله بن إسماعيل الهاشمي" لكن الشيخ رأى أن هذه الرسالة من تدليس أبالسة النصارى وتزويرهم في هذا العصر، فالذي كتب الرسالتين هو أحد النصارى البروتستانتيين[٦]. وأدلة الشيخ على ذلك ما يلي:

---

(١) انظر المصدر السابق ص ٦٥ - ٦٦.

(٢) انظر: أعلام وأصحاب أقلام أنور الجندي ص ١١٤.

(٣) انظر: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ٨٨ - ٨٩.

(٤) وهو خير الدين أبو البركات نعمان بن محمود بن عبد الله الألوسي، ولد سنة ١٢٥٢هـ وأخذ العلم عن والده الشيخ محمود الألوسي، توفي سنة ١٣١٧هـ انظر: أعلام العراق ص ٥٧ - ٦٨ لمحمد بهجة الأثري، المطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٤٥هـ، الأعلام، للزركلي ٨/ ٤٢.

(٥) طبع الكتاب بتحقيق، د. أحمد حجازي السقا، طبعته.

(٦) انظر: الجواب الفسيح ١/ ٣٤.

١ - بداية الرسالة المنسوبة إلى "عبد الله بن إسماعيل الهاشمي" ونصه "بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: «فقد افتتحت كتابي هذا إليك بالسلام عليك والرحمة تشبيها بسيدي وسيد الأنبياء محمد رسول الله ﷺ. فإن ثقاتنا ذو العدالة عندنا الصادقين الناطقين بالحق، الناقلين إلينا أخبار نبينا ﷺ قد رووا لنا عنه، أن هذه كانت عادته وأنه كان ﷺ إذا افتتح يبادئهم بالسلام والرحمة في مخاطبتهم إياهم، ولا يفرق بين الذمي والأمي ولا بين مؤمن ومشرك»[1]. انظر إلى شدة مكر هذا المزور حيث زخرف الكلام بما يشعر أن الرسالة صادرة من مسلم وهو أنه ذكر أن محمدا ﷺ سيد الأنبياء وهو كذلك رغم أنوف الجميع، ثم انكشفت سوءة المزور من كلامه من قول "بالسلام عليك والرحمة" وهو أن النبي ﷺ كان يفتتح "السلام على من اتبع الهدى" كما يظهر كذبه من كلامه "ولا يفرق بين الذمي والأمي ولا بين مؤمن ومشرك" ومخالفة هذا الكلام للشريعة المحمدية التي فرقت بين أهل الملل واضحة.

٢ - أن المؤلف عبد المسيح بن إسحاق الكندي يقول في نهاية رده على رسالة المسلم: أن المأمون لما بلغه خبر الرسالة "عبد الله" ورده عليها، علم أن دين النصارى دين صحيح[2]. وهذا أمر باطل لا يمكن من مسلم عادي فضلا عن خليفة المسلمين.

٣ - مما يدل تزويرها أن المؤلف إذا ذكر فقرة ممن فقرات التوراة والإنجيل ذكر بجوارها اسم السفر ورقم الأصحاح، والرقم الذي يذكره مطابق للرقم المذكور الآن في طبقات البروتستانت للكتاب المقدس. وهذا يدل على أن المؤلف ممن البروتستانت، وأنه من المعاصرين[3]. فلما تبين "لنعمان الألوسي" ما تحمله تلك الأوراق أو هذا الكتاب المزور من باطل، استعان بالله في رده فعرض نص النصراني ثم عقب عليه بالنقد والرد مقتدياً بمن سبقه من العلماء أو المعاصرين له كالشيخ رحمت الله. وبذلك يكون قد أضاف لبنة في صرح علم الملل عند المسلمين.

---

(١) انظر: الجواب الفسيح ١/ ٣٩.
(٢) انظر مقدمة محقق الكتاب ١/ ٤.
(٣) المصدر السابق ١/ ٥

٥ - الشيخ محمد عبده ت ١٣٢٣هـ ١٩٠٥م[١]:

يعد الشيخ محمد عبده من أشهر المفكرين المعاصرين الذين قاوموا الاستعمار الغربي، بل لا يبلغ شهرته سوى أستاذه جمال الدين الأفغاني، فهو عالم وسياسي، وتربوي. ومصلح اجتماعي، دعا إلى تحرير الفكر من قيد التقليد، كما دعا إلى إصلاح اللغة العربية[٢]. وقد نهج في إصلاحها نهج أستاذه جمال الدين[٣].

جهــود الشيخ محمد عبده في علم الملل: قد يعجب الإنسان ويتحير فكره عندما يكتب عن أمثال الشيخ محمد عبده وأستاذه جمال الدين وذلك لما يجد في آثارهما ومواقفهما من تناقضات وما يجده تبعا لذلك من اختلافات الباحثين حول حقيقة أفكارهما، التي تمثل بعضها قمة في الأصالة والدفاع عن الحق، بينما تمثل بعضها فكراً دخيلاً ومنعطفاً خطيراً في الفكر الإسلامي، وما أقوله هنا في هذا الأمر ما قلته عند الحديث عن جمال الدين الأفغاني.

أما إذا نظرنا إلى جهود محمد عبده في مجالنا فنجده قد قدم جهوداً مشكورة كما أن عليه مآخذ في المجال ذاته. وسوف يرد نقاش بعضها في أماكن من هذه الرسالة. وإن أبرز هذه الجهود هي:

١ - مقالاته في الرد على المسيو هانوتو[٤]. وهو أن هانوتو تناول في مقال طويل تاريخ الصراع بين الإسلام والنصرانية، وزعم أن الظفر تحقق للنصرانية في القرن التاسع عشر. وأطال الحديث عن واقع المسلمين في تلك الفترة وعداءهم للنصرانية، ثم قارن بين الديانتين في قضايا ترتبط بالقدر، والمغفرة، والحساب، وقال: إن نظرة الأديان والمفكرين إلى هذه المسائل تتمثل في اتجاهين:

أ - اتجاه يقول بتناهي الربوبية في العظمة والعلو، ويجعل الإنسان في حضيض

---

(١) هو محمد عبده بن حسن خير الله، من آل التركمان. مفتي الديار المصرية، ولد في شنرا (من قرى الغربية بمصر سنة ١٢٦٦هـ ١٨٤٩م وتوفي بالاسكندرية سنة ١٣٢٣هـ ١٩٠٥م ودفن بالقاهرة. انظر الأعلام للزركلي ٦/ ٢٥٢.

(٢) انظر: الفكر الإسلامي وصلته، بالاستعمار الغربي د. محمد البهي ص ١١١.

(٣) انظر: المصدر السابق ص ١١٢.

(٤) هو أحد وزراء فرنسا وكتابها في الإسلام والعقائد السامية والآرية. انظر تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده لمحمد رشيد رضا ٢/ ٤٠٠ ط الثانية بمطبعة المنار بمصر ١٣٤٤هـ.

الضعف ودرك الوهن.

ب - اتجاه آخر يرفع مرتبة الإنسان ويخوله حق القربى من الذات الإلهية، بما فطر عليه من إيمان وإرادة، وبما أتاه من أعمال صالحة ومن حسنات.

ثم زعم هانوتو أن نتيجة الاتجاه الأول هو تحريض الإنسان على إغفال شئون نفسه. وبث القنوط في نفسه وتثبيت همته. أما الاعتقاد بمذهب الفريق الثاني فهو يؤدي إلى الجلاد والعمل. ومثل للاتجاه الأول بالديانة البوذية كما مثل للاتجاه الثاني بالثقافة اليونانية. ثم قال: إن المسيحية هي الوارثة لأثار الآريين، وهي منقطعة الصلة بالمذاهب السامية وإن كانت مشتقة منها. أما الإسلام فهو متأثر بالمذهب السامي؛ ولذلك فهو ينزل بالإنسان إلى أسفل الدرك، ويرفع الإله عنه في علاء لا نهاية له، وأصول الثالوث السري مشتقة من ضرورة وجود إله بشري يمحو ذنب الجنس البشري، ويحمل المسيحي على إتيان الأعمال التي تقربه من الله.

أما الإسلام فهو يتمسك بالوحدانية ويرفض ذلك، فيجعل المسلم كمن يهوي في الفضاء بحسب ناموس لا يتحول ولا يملك في ذلك من حيلة غير متابعة الصلوات، فلفظ الإسلام معناه: الاستسلام المطلق لإرادة الله، ثم عرض آراء الباحثين والسياسيين الفرنسيين عن الإسلام وعلاقاتهم به ودعا في آخر المقال إلى سلخ المسلمين من الإسلام[1]. فتصدى الشيخ محمد عبده لهذا الأفاك الأثيم في ثلاث مقالات فند فيها آراءه الباطلة وصحح أغاليطه الفاحشة، ورد كيده في نحره، ولفت أنظار المسلمين المنبهرة بالغزاة الغربيين إلى هذا الحقد والعداء السافر الذي يحملونه للإسلام والمسلمين، وجاءت هذه المقالات على النحو التالي:

في المقال الأول: أثبت نقيض مقصود هانوتو وبين أخطاءه من الناحية التاريخية فقال: إن أصل التمدن الآري هو الهند وهم يعتقدون بفناء العالم وأنه لا يليق بالإنسان أن يهتم بشؤون العيش، وذكر أن الإسلام هو الذي نقل الحضارات السابقة بعد تهذيبها وتطويرها إلى أوروبا، ثم بين عدم صحة ربط الديانة النصرانية بالمدنية الحاضرة إذ الإنجيل

---

(١) انظر: ترجمة المقال كاملا بقلم محمد مسعود تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده: ٢/ ٤٠١ - ٤٢٠، والاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر د. محمد محمد حسين ١/ ٣٢٦ - ٣٢٨.

عـندهم يأمر أتباعه بالانسلاخ عن الدنيا والزهادة فيها ، وبذلك انهار أساس تلك المقارنة التي حاول فيها "هانوتو" أن يظهر فيها أن دين الإسلام دين التخلف وأن دين النصارى دين الحضـارة والمدنـية ، ثم رد ما قرره هانوتو من أن دين الإسلامي يراد به التوحيد ، والدين الآري يقصـد بـه ما يقابله حيث بين أن أصل دين النصرانية كان أيضا دين التوحيد ، وأن أمم الساميين من عرب وفينيقيين كانوا من المشبهة ، وهذا خلاف ما قرره هانوتو[١] .

أمـا في المقـال الثاني فقد تناول فيه مناقشة قضية القدر والجبر عند الآريين والساميين أو النصـارى والمسـلمين ، وأثبت أن الجبر والاختلاف فيه عن النصارى أعظم وأكثر عند أي أمة أخري[٢] .

أمـا في المقـال الثالـث: فقـد ناقش فيه ا لتوحيد والتنزيه وبين أن دين التنزيه هو دين الله مـن لـدن آدم ونـوح وإبراهـيم وموسـى وعيسى وأنه دين محمد ﷺ وتطرق إلى مسألة التشـبيه وتاريخهـا عند الأمم وبين أنها طرأت على النصرانية بعد عيسى عليه السلام وأن بعـض النصـارى - بروتستانتيين - اعترفوا اليوم أن عيسى لم يكن إلاّ نبيا مختارا[٣] . ومن جهـوده أيضا رده على النصراني "فرح أنطون" صاحب مجلة الجامعة ، فيما كتبه في مجلته من مقابلـة بين الإسلام والنصرانية في التسامح الديني والعلم والمدنية[٤] . وقد صدر هذا الرد في كـتابه " الإسـلام والنصرانية بين العلم و المدنية"[٥] . وفي هذا الكتاب تحدث الشيخ محمد عـبده موقف الإسلام من العلم وقارن بذلك موقف النصرانية من العلم ، فكشف موقف الكنيسة المخزي عن العلم[٦] . وبين طبيعة دين الإسلام وأنه دين العلم والحضارة[٧] . إلاّ أن الشيـخ - غفر الله لـه - سلك في هذه الرسالة مسلك المدرسة العقلية التي تقدم العقل على النقل مطلقا[٨] .

---

(١) انظر: تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ٢/ ٤١٥ - ٤٢٠ .

(٢) المصدر السابق ٢/ ٤٢٠ - ٤٢٤ .

(٣) انظر: تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ٢/ ٤٢٥ - ٤٣٢ .

(٤) انظر المصدر السابق ٢/ ٤٠٠ .

(٥) طبع بدار الحداثة - لبنان - بيروت .

(٦) انظر: الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية ص ٩ وما بعدها ط الثالثة .

(٧) انظر: المصدر السابق ص ٦٥ .

(٨) المصدر السابق ص ٧٣ - ٧٤ .

٦ - الشيخ: عبد الرحمن بن سليم ابن باجة جي: ت ١٣٣٠هـ ١٩١١م[١]:

يعد ا لشيخ ابن باجة أحد أعلام العراق في ا لعصر الحديث ، كان عالما بالعلم الشرعي ، ومطلعا على الأديان الأخرى ، ومتربصا لكل ما يصدر من الأعداء من كتب و مقالات مما يبثون فيها سمومهم ، ومن يطلع على مقدمة كتابه "الفارق بين الخالق والمخلوق"[٢]. يرى كم كان ابن ماجة ملما بتراث المسلمين في علم الملل ومدركا مدى قوة الصراع العقدي بين المسلمين والنصارى في العصر الحديث ، من هنا قدم إسهامات قيمة في هذا الميدان .

جـهـــــوده في علم الملل: ترك ابن باجة - رحمه الله تعالي - في مجال علم الملل آثارا طيبة كلها ردود على النصرانية ، ومن أهمها ما يلي:

١ - كتاب "الفارق بين الخالق والمخلوق"[٣]. وسبب تأليفه لهذا الكتاب هو أن ابن باجة اطلع على بعض الكتب التي ألفها رؤساء الملة النصرانية في الطعن على الحنيفية السمحاء والإنكار بنبوة خاتم الأنبياء ، وما تضمنته من تكذيب المسيح وتحقيره ، والقول بألوهيته وتشهيره ، واطلع ردود المسلمين المعاصرين له على النصارى[٤]. فأحب أن يسهم مع إخوانه في هذا المجال فألف هذا الكتاب مقتفيا منهج من سبقه في هذا كابن تيمية ، والشيخ رحمت الله الهندي ، وبدأ كتابه بمقدمة طويلة ثم ذكر عقائد النصارى باختلاف مشاربهم ثم أورد الاختلافات الواردة في الأناجيل ، ثم شبههم حول صلب المسيح .

٢ - للمؤلف أربع رسائل وردت في ذيل الكتاب الفارق بين الخالق والمخلوق[٥]. وهي كالآتي:

---

(١) هو عبد الرحمن بن سليم بن عبد الرحمن بن باجة جي ولد في الموصل بالعراق سنة ١٢٤٨هـ ١٨٣٢م ثم انتقل إلى بغداد وتوفي فيها سنة ١٣٣٠هـ ١٩١١م ، ا نظر: الأعلام للزركلي ٣/ ٣٠٧ .

(٢) انظر الصفحات ٣ ، ٦ من الكتاب .

(٣) طبع بمطابع البيان التجارية دبي بتصحيح ومراجعة عبد المنعم فرج درويش سنة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م وعلى هامشة كتابي هداية الحيارى لابن القيم والأجوبة الفاخرة للقرافي .

(٤) كردود الشيخ رحمت الله ، ورد نعمان الألوسي على رسالة المنسوبة إلى عبد المسيح الكندي ، ورد محمد عبده على هانوتو .

(٥) انظر: كتاب الفارق ص ٤٠٩ .

أ - رسالة في الرد على رسالة شرح التعليم المسيح لقواعد الإيمان الكاثوليكي . وهذه الرسالة لبطرس الجريجري وهي رسالة مرتبة على سؤال وجواب في تصوير عقيدة الكاثوليكية وأدخل فيها أمورا لم يعرف في تلك الديانة من قبل ولكن مع ذلك قبلها علماؤهم في الشام فقام الشيخ ابن باجة على تفنيد مزاعم هذا القسيس ورد على تعليماته وتأويلاته[١] .

ب - في رد الرسالة المسماة "الأقاويل القرآنية في كتب المسيحية" ألف هذه الرسالة بعض علماء البروتستانت واستندوا بآيات من القرآن على سلامة التوراة والأناجيل من التحريف . وقد رد الشيخ ابن باجة عليهم وأثبت أن هذه الآيات حجة عليهم لا لهم[٢] .

جـ - في رد الرسالة المسماة "أبحاث المجتهدين بين النصارى والمسلمين" ألف هذه الرسالة "نيقولا يعقوب" وزعم فيها أن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تشهد على عدم تحريف التوراة والإنجيل ، وأن على المسلمين اتباع أمرهما وقد قصد في هذا التدليس على ضعفة العقول من المسلمين[٣] .

د - في رد الرسالة المسمات "بالرعاية" وهي لبطرس أبوكرم مطران الطائفة الكاثوليكية المارونية . وقد رد بها على أحد أمريكيين البروتستانت فرد ابن باجة فيما نسب هذا القسيس إلى ديانة المسيح - عليه السلام - من الأباطيل التي دخلت في ديانة المسيح - عليه السلام - بسبب تحريفها وتبديلها ، وقد ركز على المسائل التي رأى أن الحق مع البروتستنتي وأنها أقرب إلى الحق[٤] . وخلاصة القول: أن كتاب الفارق مع هذه الرسائل الأربعة ليبوئ الشيخ ابن باجة مكانة عالية في زمرة العلماء والباحثين في علم الملل في العصر الحديث .

---

(١) انظر: الرسالة في دليل كتاب الفارق ص ٢ .
(٢) انظر: المصدر السابق ص ٢١ .
(٣) انظر: المصدر السابق ص ٣٠ .
(٤) انظر: ذيل الفارق ص ٨٤ .

٧ - الشيخ محمد رشيد رضا: ١٣٥٤هـ/١٨٦٥م[1]:

كان الشيخ محمد رشيد رضا من أعلام المسلمين في عصر سيطرة الغرب علي العالم الإسلامي. وكان عالماً عاملاً وسياسياً بارعاً ومصلحاً كبيراً تتلمذ على يد الشيخ محمد عبده وشاركه في المنهج الإصلاحي، وإن خالفه في بعض آرائه[2]. وأفكاره العقلانية. حيث كان أي - رشيد رضا - يتخذ المنهج السلفي منهجاً[3].

جهود رشيد رضا في علم الملل: الملاحظ للآثار العلمية التي تركها رشيد رضا يجد أنها قد حوت مواقف رائعة لرشيد في الدفاع عن الإسلام ضد الأعداء وكشف مخططاتهم. فقد رد على اليهود والنصارى في خارج مصر وفي داخلها، ففي مواقفه عن اليهود نجد أنه كان من أوائل من تنبه لمخططات اليهود وأطماعهم في العالم الإسلامي، وكثيراً ما حذر العثمانيين من مغبة تساهلهم مع اليهود[4].

ولما أعلن وعد بلفور سنة ١٩١٧م جهر رشيد رضا بالدعوة إلى صد هذا العدو الجديد، وكتب سلسلة من المقالات الرائعة يكشف بها الستار عن الصهيونية وتحالفها مع إنجلترا، وجعل عنوان المقالات "ثورة فلسطين - أسبابها ونتائجها وحقائق بيان حال اليهود والإنجلير والعرب، والرأي في مستقبل العرب والشرق.

واستهل رشيد رضا هذه المقالات ببحث تاريخي عن حال اليهود من أقدم العصور، وبيان علاقتهم بالإسلام، وبلاد أوروبا كذلك، وتحدث عن الصهيونية ومؤسسها اليهودي المجري "تيودور هرتزل".

وخطورة ما دعا إليه من تأسيس دولة يهودية[5]. ثم إن مجلته المنار كانت وعاء لمواقفه الدفاعية ضد كلّ المعتدين على الإسلام، وإذا ما نظرنا في كتب رشيد رضا على

---

(١) هو محمد رشيد بن علي بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين القلموني الحسيني ولد في قرية قلمون في طرابلس الشام ١٢٨٢هـ ١٨٦٥م وتوفي سنة ١٣٥٤هـ ١٩٣٥م انظر الأعلام للزركلي: ٦/ ١٢٦

(٢) انظر: تفسير المنار ٦/ ٥٦ حيث خالف رأيه في التقريب بين أهل الكتاب والإسلام.

(٣) يقول الشيخ عن نفسه ((وأقول أنا مؤلف هذا التفسير إنني - ولله الحمد - على طريقة السلف وهديهم)) تفسير المنار ١/ ٢١١.

(٤) انظر مجلة المنار مجلد ١٧ ص ٣١٩ - ٣٢٠.

(٥) انظر: رشيد رضا الإمام المجاهد د. إبراهيم أحمد العدوي ص ٢٥٨ - ٢٦٠.

وجـه الخصـوص ، فإنـنا نجد أن أهم الكتب التي تطرق فيها الحديث عن الأديان الأخرى هي:

١ - تفسير المنار[١] . فقد وقف طويلا حول الآيات التي تحدثت عن أهل الكتاب نجد مـثال ذلك في المجلد السادس عند شرحه لقولـه تعالي: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَـــرْيَمَ رَسُـــولَ اللَّـــهِ وَمَـــا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾[٢] . حيث شرحها شرح العالم المتخصـص في عـلم الملل ثم أعقب على ذلك فصلا سماه "فصل في مباحث تتعلق بمسألة الصلب"[٣] واستغرق حديثه عنها ، أكثر من ثلاثين صفحة ، وفي حديثه عن التثليث تناول التثليـث عـند الأمم كالبراهمة والبوذيين وقدماء المصريين والفرس وغيرهم من أهل آسيا وأهـل أوروبـا والـيونان والـرومان[٤] . وهذا مما لم يسبق إليه من قبله من علماء التفسير ، والسـبب أن الشـيخ عـاش في زمـن الـتحدي والصـراع بين الإسلام والنصرانية ؛ فأحب كشف حقيقة النصرانية كلما سنحت لـه الفرصة .

٢ - الوحـي المحمـدي ، وصـف عباس العقاد هذا الكتاب بأنه من أفضل ما كتب في مباحـثه الديـنية توخـى فـيه - كمـا قال - أن يكون أمضى مدية لقطع ألسنة الطاعنين في الإسـلام مـن دعاة الأديان الأخرى[٥] . فالكتاب يرد شبهات أهل الكتاب ويكشف زيف أديانهم ويوضح

الأسباب التي تمنعهم عن الدخول في الإسلام ، ويثبت فيه حقيقة الوحي .

٣ - مجلـة المـنار: كانـت هـذه المجلة كما قلت وعاء لأفكاره وآرائه الإصلاحية ومنبرا لمواقفه هو ولشيخه محمد عبده .

---

(١) يختلف حـول المؤلـف تفسـير المـنار هل هو الشيخ محمد عبده أم الشيخ رشيد رضا؟ ويظهر - والله أعلم - بدأ إملاءه للشيخ رشـيد رضـا ثم كمل الشيخ رشيد رضا بنفسه ؛ ولهذا يقول: "هذه الآية أخر ما فسره الإمام محمد عبده{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا} سورة النساء الآية ١٢٦ . انظر تفسير المنار ٥/ ٤٤١ وهذا ما تدل عليه عبارة المؤلف السابقة ، وأقول: وأنا مؤلف هذا التفسير" الهامش السابق .

(٢) سورة النساء الآية ١٥٧ .

(٣) تفسير المنار ٦/ ٢٣ .

(٤) تفسير المنار ٦/ ٧٢ .

(٥) انظر: رشيد رضا الإمام المجاهد ص٢١٤ .

٤ - المسلمون والقبط والمؤتمر المصري . فقد فضح فيه مخططات المبشرين ، ومطالب الأقباط في مصر[١] .

٥ - شبهات النصارى وحجج الإسلام . ذكره صاحب الأعلام[٢] . ولم أقف عليه .

وهكذا بدأت بداية هذا العلم في العصر الحديث وعلى أيدي هؤلاء العلماء والباحثين ، وهكذا كان سدا منيعا أمام هجمات الأعداء ، ولم يكن هؤلاء الذين ذكرتهم وحدهم في هذا الدرب ولكن ما حيلتي في أن أؤرخ لكل الذين ساهموا في هذا الميدان . فما ذكرت هنا فهو من باب ضرب الأمثلة . واستمرت هذه الجهود الفردية حتى إنشاء الجامعات فبدأت فترة جديدة بالنسبة لهذا العلم ولغيره من العلوم حيث بدأت حركة التأليف والنشر والتحقيق ، والدراسات المنتظمة في الجامعات ، وقد حمل لواء هذا العلم في هذه الفترة أساتذة الجامعات .

المطلب الثاني: أساتذة الجامعات

وبعد هذه البوادر التي قدمها الرواد والمصلحون في مجال العلم الملل ومع اشتداد قبضة الاستعمار على العالم الإسلامي ، واتساع رقعة التحدي العقدي بين المسلمين وبين الغرب الكافر ، ظهر دور علم الملل عند المسلمين وقيمته في مواجهة الغزو الغرب وحمل لواءه في هذه المرحلة أساتذة الجامعات الإسلامية والعربية ، وبدأت دراسته بشكل منهجي منتظم ، ضمن ما عرف عند بعض الباحثين بالفلسفة الإسلامية[٣] .

وفي مقدمة هؤلاء الأساتذة أساتذة الجامعات المصرية كالدكتور مصطفى عبد الرازق ، وإبراهيم مدكور ، وعلي سامي النشار ، وعثمان أمين ، ومحمود قاسم ، وعبد الحليم محمود ، ومحمد مصطفى حلمي ، ومحمد عبد الله دراز[٤] .

---

(١) انظر: الشيخ رشيد رضا السلفي المصلح ، محمد عبد الله السلمان ص ١٤٤ .

(٢) انظر: الأعلام ٦/ ١٢٦ .

(٣) يرى بعض الباحثين أن من مجالات الفلسفة الإسلامية علم الكلام ، وأن من فروعه علم مقارنة الأديان . انظر: الفلسفة الإسلامية مدخل وقضايا د . حامد طاهر ص ٢٤ - ٢٦ ، الفلسفة الإسلامية في العصر الحديث بحث منشور ضمن أبحاث ندوة نحو فلسفة إسلامية معاصرة للمؤلف نفسه ص ٤٦٠ ، ٤٧٠ . وما زالت جامعات كثيرة تدرس علم الملل تحت اسم الفلسفة

(٤) انظر: الفلسفة الإسلامية في العصر الحديث د . حامد طاهر ص ٨٧ مكتبة دار النصر القاهرة .

وغيرهم ممن كان في الجامعات أو في خارج الجامعات كعباس محمود العقاد . وقد واجهت هؤلاء الأساتذة مشكلة افتعلها المستشرقون وهي "مشكلة عدم أصالة الفلسفة الإسلامية"، فبدأ هؤلاء سيرهم بالدفاع عن أصالة الفلسفة الإسلامية، وكانت أول محاولة في ذلك محاولة الدكتور مصطفى عبد الرازق حيث أصدر كتابه "التمهيد عن تاريخ الفلسفة الإسلامية سنة ١٩٤٤م محاولا تتبع آراء الغربيين حول الفلسفة الإسلامية وقدرة العرب على التفكير"[١] . ثم صدر بعد كتاب التمهيد بثلاث سنوات كتاب "الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق" للدكتور إبراهيم مدكور، وهو ينطلق من المنطلق ذاته: الرد على منكري الأصالة في الفلسفة الإسلامية[٢] .

وقد اختلفت آراء الباحثين حول نجاح هذه المحاولات وعدم نجاحها، ففي حين يشيد بها كثير، كالدكتور حامد طاهر[٣] . نجد آخرين يرون فشلها كالدكتور محمد عابد الجابري، الذي ذهب إلى أن هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح وأنها أدت إلى عكس المطلوب . والسبب يرجع - في رأيه - إلى أن المؤلفين لم يكونا قد تحررا من هيمنة الرؤية الاستشراقية، أو أنهما لم يكونا على وعي كاف بطبيعتها ومكوناتها، كما أنهما انطلقا من ردود فعل . . . دون نقد الاستشراق رؤية ومناهج وهذا أمر لا يكفي من الناحية العلمية[٤] . وأيا كان الأمر فإن المتتبع للبحوث التي كتبت في هذا المجال في العصر الحديث بدافع رد الفعل يجد قد وقع فيها أصحابها في أخطاء كثيرة .

فبسبب الدفاع عن الفلسفة الإسلامية أدخل في الإسلام أفكار وآراء غريبة عن الإسلام ومناهج لا تمت أية صلة بالإسلام كآراء ما يسمي بفلاسفة المسلمين، ومناهج أهل الأهواء من الفرق القديمة . وبذل جهود مضنية في إحياء تراثهم دون نقد ولا تمحيص . وبسبب الردود الفعلية انشغل أساتذة الجامعات والباحثون في مجال دراسات علم العقائد والملل، في مجالات بعيدة عن الصراع الحقيقي، وعن المهام الأساسية

---

(١) انظر: الرؤية الاستشراقية في الفلسفة الإسلامية للدكتور محمد عابد الجابري بحث منشور ضمن مباحث كتاب مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ١/ ٣٠٨ .

(٢) المصدر السابق ١/ ٣١٢ - ٣١٣ .

(٣) انظر: الفلسفة الإسلامية في العصر الحديث د . حامد طاهر ص ١١٥ .

(٤) انظر: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ١/ ٣١٥ .

لرسالتهم ورسالة الجامعات الإسلامية . ولو انطلق هؤلاء من المنهج القرآني ، لما وقعوا في تلك الأخطاء ولتحقق لهم ما أرادوا . ومع تطور الحركة العلمية في العالم الإسلامي وإنشاء الجامعات الإسلامية وفتح الأقسام العلمية التي تهتم بدراسة الملل ، زاد عدد المهتمين بعلم الملل وبرزت أعلام في مجالات هذا العلم فمنهم من اهتم في مجال تحقيق كتب الملل[١] .

ومنهم من برز في مجال المناظرات والجدال المباشر مع أهل الكتاب[٢] . ومنهم من كتب كتبا شبه موسوعات[٣] . ومنهم من اهتم في دراسة ديانة معينة أو دراسة مسألة معينة دراسة مقارنة بصورة أعمق وأشمل ، ويأتي في مقدمة هذا غالب الرسائل العلمية . وهناك طائفة من علماء أهل الكتاب المهتدين[٤] . وقد أسهموا في تطوير علم الملل وأثروا بمنهجهم المتميز حيث أنهم أعلم الناس بأديانهم السابقة ، وبالتالي فهم أقدر الناس على الرد عليها ، وقد استفاد علماء المسلمين قديما وحديثا ، من جهودهم وما قدموا من أدلة في الرد على أديانهم السابقة ؛ لهذا أشاد العلماء بهم ، يقول ابن تيمية:

«ومن أعلم الناس بمقالاتهم من كان من علمائهم وأسلم عن بصيرة بعد الخبرة بكتبهم ومقالاتهم»[٥] .

وبمجموع جهود هؤلاء شهدت المكتبة الإسلامية سيلا من الكتب والرسائل الخاصة

---

(١) أمثال: الدكتور أحمد حجازي السقا ، والدكتور محمد عبد الله الشرقاوي .

(٢) أمثال: الدكتور جمال بدوي ، والشيخ أحمد ديدات ، ولعل الشيخ أحمد ديدات أشهر عالم مسلم في هذا المجال .

(٣) ومن أشهرهم:

أ - عبد الأحد داود صاحب كتابي "الإنجيل والصليب" و"محمد في الكتاب المقدس" .

ب - محمد زكي الدين النجار صاحب "المنارات الساطعات في ظلمات الدنيا الكالحة" .

ج - إبراهيم خليل أحمد و له "التوراة والإنجيل والقرآن ، والغفران بين الإسلام والمسيحية" وغيرهما .

د - محمد فؤاد الهاشمي صاحب كتاب "الأديان في كفة الميزان" .

هـ - محمد مجدي مرجان صاحب كتابي "الله واحد أم ثالوث" و"المسيح إنسان أم إله" .

و - موريس بوكاي: وله "التوراة والإنجيل والقرآن والعلم" "ما أصل الإنسان إجابات العلم والكتب المقدسة

ز - رجاء جارودي ، وله كتب وبحوث ومن أهمها "الإسلام دين المستقبل" .

(٤) أمثال: الدكتور أحمد شلبي في سلسلة "مقارنة الأديان" وأحمد عبد الغفور عطار في كتابه الديانات والعقائد في مختلف العصور .

(٥) انظر: الجواب الصحيح ٢/٣١٣ .

بعلم الملل وبصورة لم تشهدها من قبل لا أقول ذلك من حيث الكيف ولكن من حيث الكم .

المطلب الثالث: تقويم للجهود الفردية

وأمام هذا الكم لابد من تقويم يميز الصحيح من السقيم ، وهذا ما لا يتأتى في مثل هذا المبحث القصير ، لذا أقتصر بالإشارة إلى ثلاثة أمور:

الأمر الأول: من حيث المذهب "العقدي": نجد أن المساهمين في دراسات علم الملل في العصر الحديث ينتمون إلى اتجاهات مختلفة وإلى مذاهب عقدية قديمة ومدارسها العقلية ، كالشيعة ، فقد قيل عن جمال الدين الأفغاني بأنه شيعي[(١)] والمعتزلة والأشاعرة ، وقد اختلف الباحثون في مذهب الشيخ محمد عبده ، فمنهم من قال: إن منهجه في العقيدة هو منهج المعتزلة ، وممن قال ذلك الدكتور عبد الحليم محمود حيث قال في كتابه " الإسلام والعقل ": «ولا مناص من الإقرار بأن مدرسة الشيخ محمد عبده إنما كانت هي مدرسة اعتزالية في مبادئها وأصولها ، وهي مدرسة اعتزالية في غاياتها وأهدافها»[(٢)] .

ويرى آخرون أن الشيخ محمد عبده كان أشعرياً . يقول الدكتور: أحمد محمود صبحي في كتابه في علم الكلام دراسة فلسفية: «ويعد الشيخ محمد عبده في العصر الحديث مجدداً في إطار المذهب الأشعري»[(٣)] ولعل السبب في هذا الاختلاف أن كلّ طرف نظر إلى أمور وافق الشيخ على مذهب المعتزلة أو المذهب الأشاعرة . والمؤكد أن الشيخ محمد وأستاذه جمال الدين يعد من أبرز مؤسسي المدرسة العقلية الحديثة[(٤)] السالكة مسالك المدرسة العقلية القديمة ، وإذا كان هؤلاء الرواد أمثال الشيخ محمد عبده لا يتهم في نياتهم وإنما الذي أوقعهم في هذه الآراء العقلية كان سببه الواقع الجامد الذي واجهوه والحماس

---

(١) انظر: تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ١/ ٩٠ ، الإسلام والحضارة الغربية ومحمد محمد حسين ص ٦٦ .

(٢) الإسلام والعقل ، د . عبد الحليم محمود ص ٣٢ ، مطبعة مخيمر .

(٣) انظر: في علم الكلام دراسة فلسفية ص ٢٩٤ .

(٤) انظر: العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب ، لمحمد حامد الناصر ص ٣٣ - ٤٠ مكتبة الكوثر ط الأولى ١٤١٧هـ ١٩٩٦م . وهناك كتب أخرى اهتمت بنقد المدرسة العقلية يمكن أن يرجع إليها في هذا الموضوع على سبيل المثال: منهج المدرسة العقلية في التفسير للدكتور فهد الرومي ومنهج المدرسة العقلية الحديث ، للدكتور ناصر العقل (رسالة علمية قسم العقيدة كلية أصول الدين بالرياض) دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام ، لمصطفي فوزي غزال ، وكتب الدكتور محمد محمد حسين .

الشديد في الدفاع عن الإسلام ضد الغربيين[١] .

وإذا كانوا لم يصرحوا انتماء عقدياً لفرقة من الفرق وإنما وافقت آراؤهم بآراء المدرسة العقلية فإنه قد جاء بعدهم تيارات عقلية غالية قد استغلت آراءهم العقلية ، وأعادت مناهج المدارس العقلية مرة أخرى في العالم الإسلامي ، وبدأ الصراع بين المنتمين إلى الفرق لكن بصورة أكثر هدوء عن ذي قبل ، وبدأ كلّ اتجاه اهتمامه بإحياء تراث الاتجاه الذي ينتمي إليه ، وإبراز منهجه ، ووجد من يصرح ذلك علنا من أساتذة الجامعات . انظر على سبيل المثال هجوم الدكتور سامي علي النشار على دكتور محمود قاسم بسبب أن الأخير هاجم الأشاعرة ومجد المعتزلة ، ثم إعلانه على انتمائه للأشاعرة وهجومه على المعتزلة يقول الدكتور النشار: «إنني لا أوافق محمود قاسم في آرائه عن ابن رشد ولا في مهاجمته للأشاعرة وتمجيده للمعتزلة ، إنني كمفكر أشعري . يرى عمله الأساس في الحياة المحافظة على كيان المذهب الأشعري ، مذهب الجمهور العظيم من المسلمين ورباط حياتهم ، أنكر كلّ الإنكار فكرة محمود قاسم الرئيسية ، وهي أن المذهب المعتزلي من ناحية ، والمذهب الرشدي من ناحية ثانية أقرب عقلاً وروحَ الإسلام من مذهب الأشاعرة .

إنني أرى أن الأشعرية هي آخر ما وصل إليه العقل الإسلامي ، الناطق باسم القرآن والسنة ، المعبر عنها في أصالة وقوة ، وأن ما بقي للمسلمين في الحياة الدنيا حتى نهاية الدنيا ، هو الأخذ بهذا المذهب كاملاً ، وتطويره خلال العصور ، وعلى حسب مقتضيات الأجيال المقبلة . ونحن في أشد الغنى عن تحجر المعتزلة العقلي»[٢] .

فإن هذا الثناء المغالي وهذا الهجوم بين الأساتذة لدليل على أن المذاهب العقدية القديمة مازالت موجودة وهذا الشاهد السابق لكاف في بيان الدور الذي يمكن أن تلعبه في التأثير على الساحة فهذين الأستاذين يعد من الرموز في مجال دراسة ما يسمى بالفلسفة الإسلامية التي تتضمن دراسة العقائد وعلم الملل . ولهم وزنهم كما لهم طلاب في هذا المجال ، وإلى جانب هذه المذاهب نجد الاتجاه السلفي قد أسهم بجهوده في هذا العلم وقد

---

(١) انظر: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته سيد قطب ص ١٧ - ٢١ .

(٢) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، د . سامي علي النشار جـ١ صفحة "و" .

مثله أمثال الشيخ عبد العزيز بن معمر، ومحمد رشيد رضا، وجمال الدين القاسمي وغيرهم ثم الجامعات الإسلامية التي اتخذت منهج أهل السنة نهجا.

إن اشتراك الاتجاهات المختلفة المنتمية إلى الفرق القديمة في دراسة هذا العلم عامل سلبي في دراسته للأسباب التالية:

١ - عودة أخطاء الفرق المبتدعة من خلال هذا العلم إلى الساحة الإسلامية خاصة وأن هذا العلم من العلوم التي اهتم بها الفرق قديماً.

٢ - إن هذا العلم علم وظيفته الدفاع عن الإسلام فإذا استخدم فيه منهج غير سليم - كمناهج أهل الأهواء - كان ذلك مضراً للإسلام.

٣ - إن وجود الاختلافات المذهبية بين المهتمين في هذا العلم من الأمور التي تحول بين تجميع الجهود فيه.

والمقصود هنا أنه إذا كان يريد المسلمين أن يؤدي هذا العلم دوره فلابد أن يقدم بالمنهج الصحيح - منهج القرآن -.

الأمر الثاني: من حيث الأخطاء المنهجية: يرى المتتبع للمناهج التي تناول فيها الباحثون المعاصرون دراسة علم الملل أن أكثرها بعيدة عن المنهج الصحيح، بل هي تعبر عن المستوى الذي وصل تأثر المسلمين بالمنهج الغربي الوافد والتقليد الكامل لمناهج المستشرقين منهجاً ومحتوى، كما يعبر عن حالة الضعف والهزيمة النفسية التي أصابت المسلمين فجعلت كثيراً منهم ينطلقون من موقف الضعيف المغلوب، والحديث من هذا الأمر طويل، لكني أقتصر بسرد بعض الأخطاء التي لها صلة بدراسة الملل وبمناهجها.

١ - الاهتمام بالديانات القديمة وبذل الجهود في معرفة تاريخ الأديان منذ أقدم العصور، وهذه الدراسات تقوم على مجرد افتراضات وظنون وتخرصات[1] كما أن دراستها عديمة الفائدة، وسبب هذا الاهتمام يرجع إلى تأثر المعاصرين بمنهج الغربيين الذين اهتموا بالديانات القديمة بحثاً عن عقيدة الإنسان الأول ليقرروا ما يسمى بنظريات التطور الديني، وللأسف نجد من المعاصرين من ينتقد تصنيف علماء المسلمين القدامى

---

(١) انظر: أخطاء المنهج الغرب الوافد، لأنور الجندي ص ٧٩، دار الكتاب اللبناني - بيروت.

الأديـان إلى أديـان صـحيحة وأديـان باطلـة ، ويـرى أن طـرق الغربيين أفضل ، يقول طه الهـاشمي بعـد حديـثه عـن تصـنيف عـلماء المسـلمين للأديان «يبدو أن هذا التصنيف لا يسـاعد الباحـث في الأديـان عـلى الوقـوف عـلى منشـئها ، وتطورها والعلاقة التي تربط بعضها ببعض»[1] .

٢ - عـدم الاستدلال بالأدلة الشرعية والاعتماد على المصادر الأجنبية من كتب أهل الكتاب وغيرها . يقول الدكتور أحمد حجازي السقا: «وقد كتبنا على طرائق أهل الكتاب في الكـتابة»[2] والمـراد بطرائق أهل الكتاب نقد الكتب المقدسة ومعرفة حقيقتها من خلال نصوصـها ، أو عـلى ضـوء الدراسـات العلـوم الحديـث ، وإذا كان يمكن أن يثبت بذلك بطلان الأديان الباطلة فإن هذا لا يغني عن المصادر الشرعية .

٣ - الدعـوة إلى تطبـيق المـنهج الغـربي في نقـد الكتـب المقدسـة عـلى الإسلام فهذا الدكتور حسن حنفي يذكر في مقدمة ترجمة الكتاب "رسالة في اللاهوت والسياسة" أن من أغـراض عمله في تلك الترجمة: إسقاط المادة التي عمل عليها سبينوزا وإحلال مادة أخرى محـلها مـع الإبقـاء عـلى نفس المنهج ؛ يعني إسقاط التراث اليهودي ، وإحلال تراث ديني آخـر ، ولـيكن الـتراث الإسـلامي ، . . . ويزعم أن سبينوزا نفسه كان يود تعميم تحليلاته عـلى الديانـات الأخـرى . . ."[3] والغالب أن اليساريين والعلمانيين هم الذين يدعون إلى ذلك ويطبقونه عمليا .

٤ - التأثر بالأفكار التي روجها الغربيون من خلال علم مقارنة الأديان كنظرية تطور الأديان كما سيأتي بيانه في الفصل الرابع من هذا الباب ، والتوفيق بين الأديان .

٥ - المسـاواة بـين الإسـلام والأديـان الأخـرى ، وعـدم ذكـر أن الإسلام هو الدين الصحيح الذي لا يقبل دينا سواه[4]

٦ - تـرجمة الكتـب الـتي تعنى فيها بدراسة الأديان وعدم نقدها ، يقول مترجم كتاب

---

(١) انظر: تاريخ الأديان وفلسفتها ، لطه الهاشمي ص ٣٣

(٢) انظر: حقيقة النصرانية من الكتب المقدسة ، د . أحمد حجازي السقا ص ٥ .

(٣) انظر: رسالة في اللاهوت والسياسة ، لسبينوزا ترجمة د . حسن حنفي ص ٧ .

(٤) انظر: مقدمة د . عبد الرحمن بدوي لكتاب "التسامح الديني" ، لجون لوك ص ٨ .

"ابـن الإنسـان" أو "حياة نبي": «ومما كان يجعلني أتهيب نقل الكتاب إلى العربية ما أبصرته من سـلوك المؤلف طريقا قد لا ترضي رجال "الأديان" غير أنني رأيت بعد امتناع أن ما وسعته المكتـبات الألمانـية والإنجلـيزية والفرنسـية والتركـية وغيرهـا، لا تضـيق المكتبة العربية به ذرعا»(١)

ويقـول: «وإنـني ككـل مسـلم، لا أوافـق المؤلـف عـلى مـا ذهـب إليه في أمر السيد المسـيح، ويـدرك القارئ مما تقدم أن إقدامي على ترجمة هذا الكتاب الذي يمثل ناحية من الـتفكير العربي، هو حرصي على عدم خلو المكتبة العربية من ترجمة لـه، وإنني إذ أقتصر في عملـي عـلى الترجمـة أتـرك البحـث في آراء المؤلـف لغيري»(٢) فالمترجم هنا يعترف أن الكتاب يحتوي على آراء مخالفة لعقيدة المسلمين، لكن مع ذلك يترك نقدها لغيره ويكتفي بعرضـه، وهـذا نهـج خطـير إذ مـن الممكـن ألا يوجد من ينقده، وفي ذلك هضم للحق وترويج للباطل.

٧ - الـتأثر بالمـنهج التجردي: فالقارئ لكتابات المعاصرين في علم الملل أول ما يقرأه في ديـباجة هـذه الكتـب هو اشتراط المؤلفين على أنفسهم بالتزام التجرد وعدم التحيز في دراسـتهم لـلملل الـباطلة، يقـول الدكـتور أحمـد شـلبي - وهـو من المشهورين في ميدان دراسـات الأديـان - في مقدمـة الجزء الثالث من كتابه "مقارنة الأديان" وهو الجزء الخاص بالحديـث عـن الإسـلام: «وأشـهد لقد حاولت بقوة وإصرار، أن أجعل هذا الكتاب بحثا علمـيا لا دينـيا؛! أي أن أجعله غير متأثر بعاطفتي واعتناقي لهذا الدين، وسرت فيه على الـنحو الـذي اتبعته في بحث الأديان التي أتممت بحثها، فكنت أقرأ المراجع الأصلية وأجمع المادة منها وأعرضها دون تحيز . . .».

وقد استمر الدكتور في كلامه على بيان التزامه بالحيدة والتجرد حتى قال: «وعلى كلّ حـال فـتلك المحاولـة - محاولـة البحـث العلمي دون تحيز - كانت هدفي منذ بدأت العمل حـتى أتممـته وأرجو أن تكون هذه المحاولة قد نجحت؛ لأنه قد يشق على الإنسان أن يخلع نفسـه مـن عقـيدته ولكـني - عـلى كلّ حال - لم أكتب هذا الكتاب للدفاع عن الإسلام!

---

(١) ابن الإنسان "حياة نبي" أميل لود فيغ ترجمة عادل زعتير ص ٦ - ٧.
(٢) المصدر السابق ص ٧ - ٨.

وإنما كتبته بحثا علميا كرفاقه من الأجزاء الأخرى في هذه السلسلة»[١] .

فالدكتور شلبي - هنا - يبين لنا أنه يكتب بحثا علميا لا دينيا ، وأنه غير متأثر بعقيدته الدينية أو يحاول ذلك على الأقل ، وأنه يعرض دون تحيز كما أن بحثه ليس دفاعا عن الإسلام ، وأنا أتساءل إذا كان الأمر كذلك فما هي الفائدة التي تعود إلى الإسلام من هذه الدراسة؟ وما الفرق بين البحث العلمي والبحث الديني؟ وإذا كانت دراسته هذه في الأديان فلماذا ينفيها أن تكون بحثا دينيا؟ أم أن التسمية ستخرجه من الحيدة إلى التعصب والتحيز؟! . إنني لا أعرف هدف الدكتور من هذه الدراسة إلاّ أن يكون غرضه "العلم للعلم"! كما هو عند بعض الغربيين ، والدكتور ذاته يؤكد أنه تلقى بذور هذا العلم في جامعة "كمبرج" بإنجلترا[٢] .

وهذا الشيخ محمد أبو زهرة - رحمه الله - يقول: «وعلم الله أني لبست رداء الباحث المنصف ، ونظرت بالنظر غير المتحيز ، وتخليت عن كلّ شيء سواه لأصل إلى الحق وصول المجتهد الحر ، لا مقلد التابع المأسور بسابق فكره ، والمأخوذ بسابق اعتقاده . . .»[٣] ، ويقول في مكان آخر: «ولكن البحث العلمي يتقاضى الباحث الحر المنصف أن يدرس المسيحية إن أراد أن يعلنها كما يعتقد أهلها مجردا من نزعاته السابقة على الدراسة غير جاعل لعقيدته سلطانا على حكمه حتى لا تسيره في دراسته وتتحكم في اتجاهاته ؛ لأن ذلك قد يدفعه لأن يتزيد على القوم ، والتزيد ليس من شيمة العلماء ، أو يدفعه لأن يتناول كلامهم بغير ما يريدون»[٤] .

إن التزيد أو حمل الكلام على غير وجهه أمر مناف للعدل والإنصاف اللذان أمر الشرع بهما ، لكن ذلك لا يستلزم أن يتجرد الإنسان عن عقيدته ودينه ، والإسلام عند المسلم هو الميزان الذي يزن به الأمور ويعرف الحق والباطل عن طريقه ، فإذا تجرد عنه فكيف يعرف الحق من الباطل في الأديان ، إن الشيخ محمد أبو زهرة - وإن كان من المعاصرين الذين نقدوا النصرانية - يبدوا أنه قد تأثر بفكرة التجرد في البحث .

---

(١) موسوعة مقارنة الأديان "الإسلام" ، د. أحمد شلبي ص ٢٢ .
(٢) انظر: مقارنة الأديان "اليهودية" ، د. أحمد شلبي ص ١٩ .
(٣) محاضرات في النصرانية ، محمد أبو زهرة ص ٩ .
(٤) المصدر السابق ص ١٠ .

٨ - التأثر بالواقع المرير الذي يعيشه العالم الإسلامي والانطلاق من موقف الضعف المنساق وراء شبهات الغربيين المتخذ المنهج التسويغي منهجا ، ويظهر ذلك جليا عندما يتناول الباحثون الموضوعات التي يثير حولها الأعداء الشبهات كالجهاد ، والجزية ، والرق ، وتعدد الزوجات ، وتطبيق حدود الشريعة الإسلامية وغيرها ، فإن كثيرا منهم يتناولونه من منطلق المتهم ؛ فيجتهدون على تبرئة الإسلام مما اتهم به وإظهاره بالصورة التي يرضى عنها الغربيون ؛ فيقعون بنفي أمور من الدين ، أو يحملون النصوص بما لا تحمله من المعاني والمفاهيم ، ثم على ضوء هذه المفاهيم التي ابتدعوها يقارنون الإسلام مع الأديان الأخرى ، والذين يسلكون هذه الطريقة في الغالب هم التيار المسمى بالعقلاني أو العصراني[1] .

ثالثا: مقارنة بين الكتب القديمة والكتب المعاصرة في علم الملل.

١ - الكتب القديمة كتبها علماء أجلاء لهم باع طويل في العلوم الشرعية ؛ ولهذا تنحصر أخطاؤهم في الغالب على أخطاء سببها الاتجاه أو المذهب العقدي الذي ينتمي إليه المؤلف ، أما المعاصرون فهم أقل علما ، ومن ثم جاءت كتبهم أقل قيمة من الناحية العلمية ، وأكثر أخطاء . يقول الدكتور جعفر شيخ إدريس: «إن الغرب لا يروننا تحديا ، وإنما كانوا يرون الماركسية أيديولوجية غربية انتقدت الرأسمالية وانتقدت الحياة الغربية بمستوى فكري كبير ، أما نحن الآن لا توجد لدينا كتب تضاهي كتب الأقدمين في نقد النصرانية ، أو في نقد الفلسفة ككتب الغزالي أو ابن حزم وابن تيمية وغيرهم في مواجهة الفكر غير الإسلامي ، حتى كتابات الدعاة الكبار التي ذكرناها لا تكفي ، فلا يوجد لدينا شيء يمكن أن يقرأه المثقف الغربي ويعتبره نقدا قويا»[2]

٢ - الكتب القديمة كتبها أصحابها من مركز القوة والثقة بالدين ، فقد كانت الأمة الإسلامية الأمة الغالبة ، بينما المعاصرون يكتبون كتبهم في كثير من الأحيان بنفسية مهزومة متأثرة بالواقع المرير الذي يعشيه العالم الإسلامي .

٣ - بعض كتب القدامى تجمع بين الملل والنحل ، أو الأديان والأهواء والفرق ،

---

(١) يراجع فصل (التجديد العصراني): مزاعم ومنطلقات من كتاب "العصرانيون ، لمحمد الناصر .

(٢) انظر: مجلة البيان ص ١١ - ١٢ العدد ٥٥ ربيع الأول ١٤١٣هـ "لندن"

فجاءت شبه دوائر معارف يرجع إليها فيما يتعلق بالعقائد والأفكار، وتاريخ الفرق الدينية[١] أما المعاصرون فكتبهم تتسم بقصر النفس، وفي الغالب تفرق بين علم الملل وعلم الكلام الذي يدرس فيه الفرق الإسلامية.

٤ - الغالب في الكتب القديمة أنها ألفت عند توفر الأسباب والحاجة إلى تأليفها، كأن ترد أسئلة من أهل الملل، أو تأليف كتاب يطعن الإسلام أو يدعو إلى ملة باطلة، وهذا يفسر لنا عدم كثرة كتب علم الملل كغيرها، بل إن بعض العلماء[٢] صرح أن عدم إكثاه في التأليف في الملل لما ورد في حديث عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - من غضب النبي ﷺ لما رأى عمر وفي يده شيء من التوراة[٣]. أما الكتب المعاصرة فقد ألفت في غالبها سواء وجد لها سبب أم لا، وهذا يفسر كثرة الرسائل في بعض موضوعات هذا العلم.

٥ - كتب المعاصرين أحسن من الكتب القديمة من حيث الدقة والمنهجية، ومن حيث جودة التبويب والترتيب، ومن السهولة ووضوح العبارات.

٦ - تناولت الكتب المعاصرة موضوعات جديدة لم تتناولها الكتب القديمة، إما لكونها استجدت في العصر الحديث كظهور المذاهب الجديدة في الملل كالبروتستانتية في الديانة المسيحية، وإما لكونها خفيت من القدامى، مثال ذلك ظهور كتاب إنجيل برنابا[٤] حيث لم يرد ذكره في كتب القدامى مع أهميته في احتجاج المسلمين على النصارى من كتبهم.

وعلى العموم فإن المتأمل في كتب المعاصرين يجد أن أغلبها إما من نوع الدراسات المتخصصة سواء كانت رسائل جامعية أو بحوثا خاصة في موضوعات معينة عالجها أصحابها بنوع من الجدية، فهذه جيدية، أما الباقي فهي دراسات أغلبها لا ترقى إلى

---

(١) أمثال: كتاب الملل والنحلل، للشهرستاني، وكتاب الفصل، لابن حزم.

(٢) منهم: إمام الحرمين الجويني انظر كتابه "شفاء الغليل" ص ٦٣ تحقيق د. أحمد حجازي السفا.

(٣) تقدم تخريج الحديث.

(٤) إنجيل برنابا هو نسخة يتفق مع القرآن في نقاط الخلاف بين الإسلام والنصرانية وقد أنكر النصارى وعدوه من تدسيس أحد المسلمين في النصرانية، نشره الشيخ محمد رشيد رضا سنة ١٣٢٦هـ ١٩٠٨م وأعيد طبعه بتحقيقات أخرى كتحقيق سيف الدين أحمد فاضل، دار القلم الكويت ط الأولى ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م.

المستوى المطلوب سواء من الناحية العلمية أو حتى من الناحية المنهجية . وتبقى الساحة خالية من الدراسات المتكاملة التي تروي الغليل ، وتسعد الباحثين في علم الملل ، تبقى الساحة خالية من موسوعات خاصة في علم لملل رغم الحاجة الماسة إليها ، إذ إن علم الملل من العلوم ذات الفروع المتشعبة التي لا يدرك دقائقها ودفائنها إلاّ المتخصصون ، ورغم غزو الموسوعات الغربية ودوائر معارفهم العالم لينشر بذلك الغرب أفكاره وتصوراته عن طريق هذه المصادر ، وآخر ما صدر - حسب علمي - من هذا الدوائر العلمية الغربية الموسوعة الفرنسية المسماة "الأطلس الكبير للأديان" **le grand Atlas des Religion** " وتقع هذه الموسوعة بأربعمائة وثماني صفاحات ، موضوعها الأديان سواء السماوية أو الوضعية ، وقد أسهم في تحريرها مائة وأربعون باحثاً تنوعت إختصاصاتهم ، وتكاملت ، بينهم علماء في الآثار ، وفي فقه اللغة ، وفي علم الاجتماع ، وفي علم الإنسان(١) . هكذا الغربيون يجمعون جهودهم لتكون أعمالهم على الوجه المطلوب ، ومن خلال هذا العرض للدراسات المعاصرة تظهر الحاجة إلى بذل الجهود ، وأن تكون هذه الجهود جهودا جماعية ليكون هذا العلم على مستوى التحديات التى تواجه الإسلام والمسلمين في هذا العصر(٢) .

* * * * *

(١) انظر: مقال الدكتور حسن صعب عن الموسعة في مجلة الفصيل العدد ١٦٦ ربيع الأخر ١٤١١هـ نوفمبر ١٩٩٠ ص ٣٩ .

(٢) مما يبشر في هذا المجال مشروع موسوعة "الوسيطة" القائم إعدادها بإشراف الدكتور ناصر العقل ونرجو من الله تعالى أن ييسر على إتمامها لتسد هذه الثغرة .

الفصل الثاني

دراسات الملل في الغرب وتقويمها

المبحث الأول: نشأة دراسة علم الملل في الغرب أسبابها وأهدافها

أولا: نشأة دراسة علم الملل في الغرب وأسبابها: قبل بيان نشأة دراسة علم الملل أو "مقارنة الأديان" يحسن أن نبين أولا مفهوم الدين عند الغرب.

المطلب الأول: مفهوم الدين عند الغربيين

أ - مفهوم الدين من حيث اللغة: يستعمل الغربيون كلمة "**Religion**" مقابل لكلمة "الدين" في اللغة العربية، وهذه الكلمة مقتبسة من اللغة اللاتينية، وهي تفيد في معناها الربط بين شيئين، وتطلق ويراد بها أحد معان ثلاثة:

١ - نظام اجتماعي لطائفة من الناس، يؤلف بينها إقامة شعائر موقوتة، وتعبد ببعض الصلوات، وإيمان بأمر هو الكمال الذاتي المطلق، وإيمان باتصال الإنسان بقوة روحانية أسمى منه حالة في الكون، أو متعددة، وهي الله الواحد.

٢ - حالة خاصة بالشخص مؤلفة من عواطف وعقائد، ومن أعمال عادية تتعلق بالله

٣ - احترام في خشوع لقانون أو عادة أو عاطفة.

ولعل المعنى الأخير هو أقدم هذه المعاني مع أن دلالته على معنى الأول أغلب في بعض الأحوال، وغلبة المعنى الثاني أحيانا[1].

مفهوم الدين اصطلاحا: اختلف الغربيون في تعريف الدين اصطلاحا، وتضاربت أقوالهم في تعريفه، وهذه أشهر تعريفاتهم لكلمة الدين كما أوردها دراز وغيره. يقول سيسرون: «الدين هو الرباط الذي يصل الإنسان بالله» ويقول كانت: «الدين هو الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر إلهية» ويقول شلايرماخر: «قوام حقيقة الدين شعورنا بالحاجة والتبعية المطلقة» ويقول الأب شاتل: «الدين هو مجموعة واجبات المخلوق نحو الخالق، واجبات الإنسان نحو الله، وواجباته نحو الجماعة، وواجباته نحو

---

(١) انظر: الدين والوحي والإسلام، لمصطفي عبد الرازق ص ١١ - ١٢ بتصرف.

نفسه» ويقول روبرت سبنسر: «الإيمان بقوة لا يمكن تصور نهايتها الزمانية ولا المكانية، هو العنصر الرئيسي في الدين» ويقول تايلور: «الدين هو الإيمان بكائنات روحية» ويقول ماكس ميلر: «الدين هو محاولة تصور ما لا يمكن تصوره، والتعبير عما لا يمكن التعبير عنه، وهو التطلع إلى اللانهائي، وهو حب الله» ويقول إميل برنوف: «الدين هو العبادة، والعبادة عمل مزدوج، فهو عمل عقلي به يعترف الإنسان بقوة سامية، وعمل قلبي أو انعطاف محبة، يتوجه به إلى رحمة تلك القوة» ويقول ريفيل: «الدين هو توجيه الإنسان سلوكه، وفقا لشعوره بصلة بين روحه وبين روح خفية يعترف لها بالسلطان عليه وعلى سائر العالم، ويطيب له أن يشعر باتصاله بها» ويقول جويوه: «الديانة هي تصور المجموعة العالمية بصورة الجماعة الإنسانية والشعور الديني هو الشعور بتبعيتنا لمشيئات أخرى يركزها الإنسان البدائي في الكون» ويقول ميشيل مابير: «الدين هو جملة العقائد والوصايا التي يجب أن توجهنا في سلوكنا مع الله ومع الناس وفي حق أنفسنا» ويقول سلفان بيريسية: «الدين هو الجانب المثالي في الحياة الإنسانية» ويقول سالوموك ريناك: «الدين هو مجموعة التورعات التي تقف حاجزا أمام الحرية المطلقة لتصرفاتنا».

ويقول دوركايم: «الدين هو مجموعة متساندة من الاعتقادات والأعمال المتعلقة بالأشياء المقدسة "أي المعزولة المحرمة" اعتقادات وأعمال تضم أتباعها في وحدة معنوية تسمى الملة»[1]

ففي هذه التعريفات التي أوردها "دراز" يرى المدقق في مدلولاتها الاختلاف الشديد حتى لا يكاد يجد بأن اثنين منهم يلتقيان على معنى ناهيك عن الألفاظ، ولعل قصد "دراز" من إيراد هذا الكم الكبير من تعريفات الغربيين للدين هو بيان مدى اضطراب الفكر الغربي في مفهوم الدين، وقد ناقش "دراز" بعض هذه التعريفات وبين أنها من بين بالغ في التفريط ومقابل له في الإفراط، فلقد عرف البعض بدين يفصل بين العقيدة والعقل فصلا تاما فيفرض على معتنقيه أن يؤمنوا بما لا تقبله عقولهم ولا تتصوره أذهانهم، بينما حذف البعض عقيدة "الإله" عن الدين[2].

(١) انظر: الدين دراز ص ٣٤ - ٣٦.
(٢) انظر المصدر السابق ص ٣٨.

إن هذه التعريفات نابعة عن عدم وجود دين صحيح لدى الإنسان الغربي، وعن الاضطراب الفكري والعقدي الناتج عن ذلك، فكل واحد من هؤلاء عرف الدين على حسب هواه ووفق اتجاهه الفكري، وللأسف فإن علم الملل "مقارنة الأديان" في الغرب قد نشأ في هذا العصر الحديث على أيدي هؤلاء المختلفين في تحديد معنى الدين.

المطلب الثاني: أسباب نشأة علم الملل في الغرب

لم يعرف الغرب دراسة علم الملل بمفهومه العلمي قبل عصر الحديث والسبب في ذلك هو أن النصارى لم يكونوا يعترفون بوجود الديانات الأخرى، بل كانوا يعتبرون ماعدا النصرانية "هرطقة" وكان جل اهتمام رجال الدين في ذلك ينصب على الدراسات اللاهوتية، وتفنيد الآراء أو الأديان التي يرون أنها تشكل خطورة على عقائد النصرانية، أضف إلى ذلك أن النصرانية كانت مصونة - عندهم - بقدسية تمنع توجيه أي انتقاد إليها.

لكن بدءا من عصر النهضة الأوروبية بدأ تحول كبير فبدأ الإنسان الغربي ينتقد الديانة النصرانية كما بدأ اهتمامه بمعرفة الديانات الأخرى وعقائد الأمم المختلفة وكان لهذا التحول أسباب أهمها:

أ - **الانفتاح على العالم الآخر**: فبعد ظلام طامس خيم على الغرب فيما يسمى بالعصور الوسطى الأوروبية، بدأت أوروبا تستيقظ من هجعتها، ولفتت أنظارها إلى العالم من حولها - خاصة العالم الإسلامي الذي كانت حضارته مزدهرة في تلك الفترة - فبدأت حركة الكشوف الجغرافية الأوروبية أو ما يسمى بحركة الملاحة البحرية في بلاد أوروبا الغربية والتي بدأت في القرن الثاني عشر الميلادي، وتطورت في القرون: الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر، وبلغت أوجها في القرن السادس عشر الميلادي[١].

وكان من بين الرحالين رجال الدين من الفرنسيسكان والدومنيكان[٢] ووصل هؤلاء في رحلاتهم بلاد الهند والصين، واطلعوا على دياناتها.

واستمرت الرحلات وزادت عناية الغربيين بالأقطار الجديدة.. حتى كان آخر

---

(١) انظر: تاريخ الأمريكتين، د. عبد الفتاح حسن أبو علية ص ٩.

(٢) الفرنسيكان والدومنيكان: هيئتان من الرهبان المسيحيين الأرورويين حاولا إصلاح الكنيسة عن طريق إزالة الأخطاء والمفاسد، انظر: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر ص ٢٦.

القرن الثامن عشر ، فبدأت فيه حركة التأليف في وصف عقائد الأمم التي وصل الغربيون في رحلاتهم إلى بلادهم ، وهناك إشرأبت العقول إلى السؤال عما كانت عليه ديانة الإنسان الأول ، وبذلت محاولات لتحديدها في ضوء المقايسة على ديانة هؤلاء البدائيين ، كما بذلت محاولات لاستنباط

الطريق الذي سارت فيه الديانات منذ النشأة ، ومعرفة أسلوب تطورها ، أو تولد بعضها عن بعض[١] وبذلك كانت هذه الرحلات واختلاط الغربيين بأمم مختلفة الأديان والعقائد سببا حافزا للغربيين بدراسة الأديان ، كما كان إطلاعهم بتلك العقائد والعوائد مادة ثرية لنظرياتهم في علم مقارنة الأديان .

ب - حركة احتجاج الدينية "البروتستانتية": ظهرت حركة الاحتجاج الديني الأوروبية على يد "مارتن لوثر" في منتصف القرن السادس عشر الميلادي في ألمانيا ، ثم انتشرت في سائر بلاد أوروبا ، وأصبحت تتألف من عدد من الكنائس البروتستانتية القومية ، وكان سبب ظهورها الفساد الديني ، وطغيان رجال الدين الذين كانوا يسيطرون على الحياة الفكرية والدينية والثقافية في أوروبا . بدأت هذه الحركة فوجهت نقدها الشديد إلى رجال الدين وطلبت العودة إلى الكتاب المقدس وحده في أمور الدين ، وبدأت دراسة اللغة العبرية واللغات السامية الأخرى ، بغية تفهم لنصوص التوراة والإنجيل التي كان رجالها يتمسكون بحرفيتها[٢] . كما ركزت على حرية الفرد واستقلاله في الرأي وحقه في أن يتصل بالله اتصالا مباشرا[٣] .

وقد عرضت حركة لوثر وغيرها من الحركات الدينية في أوروبا[٤] . الديانة النصرانية للجدل الفكري ، وأصبحت موضوعا للنقاش العقلي ، والمذاهب الفلسفية[٥] . فبدأ الفلاسفة في القرن السابع عشر الميلادي هجومهم ونقدهم للنصرانية بسبب أخطائها ،

---

(١) انظر: الدين دراز ص ٢٣ بتصرف .

(٢) انظر: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر ص ٢٦ دراسات في الفلسفة الحديثة ص ٢٠ ، الدين دراز ص ٢٣ ٢٤ .

(٣) انظر: دراسات في الفلسفة الحديثة ص ٢٠ .

(٤) منها: كحركة زونجلي (١٤٨٤هـ / ١٥٣١م) وحركة جون كالفن (١٥٠٩م - ١٥٦٤م) المناهضتين للكنيسة ، انظر: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر ص ١٠٠ - ١٠١ .

(٥) انظر: الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي ص ٢٥٠ .

وساورهم الشك في صحة الكتب المقدسة ، فأخضع للعهدين الفحص والتمحيص علي أيدي فلاسفة مشهورين كـ"سبينوزا" **Spinoza** " و" ليبنيز " **Leibniz** " و"لوك" **Locke** " لكن هؤلاء رغم نقدهم ذلك لم يكونوا ينكرون سيادة الدين كمصدر للمعرفة[1] .

وهذا يبين أن أول ديانة تعرضت للنقد في الغرب كانت الديانة النصرانية ، كما أن سبب هذا النقد كان بما احتوت النصرانية من أخطاء ، ولم يزل الدين المصدر الأول للمعرفة حتى جاء النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وهو عصر " التنوير " في تاريخ الفلسفة الأوروبية[2] .

حيث تحرر الغرب من الدين كلية ، وجعل للعقل السيادة التامة بدلا من الوحي ، وظهر في الغرب أشد الفلاسفة عداء للدين كـ" فولتير " الذي انتقد عقيدة النصرانية[3] وسخر بكل تعاليمها ، وغيره من الفلاسفة الذين أخضعوا النصرانية للنقد التاريخي ، وفي هذا القرن انتشر الإلحاد في الفكر الغربي ، واحتد الصراع بين الكنيسة الممثلة للدين وبين الفلاسفة الممثلين للعلم ، واشتد ذلك الصراع كلما تقدم الإنسان نحو العلم الحديث ، وفي هذا الصراع ظهر رجحان كفة العلم على كفة الدين ، وبدأ الفلاسفة يتبجحون بأن مصدر الأديان والعقائد هو الإنسان[4] وأن العقلية الإنسانية في دورها الثالث دور الفلسفة الواقعية ، وهو آخر الأدوار وأسماها «بعد دور الفلسفة الدينية والفلسفة التجريبية»[5] .

إن علم الملل في الغرب ولد في هذه الظروف ومهدت له تلك العوامل آنفة الذكر ويحدد بعض العلماء أن ظهور المصطلح "مقارنة الأديان" أو "الدين المقارن" **Comparative Religion** عند الغربيين كان في نهاية القرن التاسع عشر ليدل عندهم على الدراسة العلمية للأديان للتفريق بين هذا النوع الجديد من الدراسة وبين الدراسات اللاهوتية التي عرفتها النصرانية منذ نشأتها .

---

(١) المصدر السابق ٢٥١ ، مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي ، د . عبد الرحمن بن زيد الزبيدي ص ١٢٧ .
(٢) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ٢٥١
(٣) انظر: العلمانية ص ١٦٠ ، أفكار ورجال جرين برنتن ترجمة محمود محمود ص ٤٧٤ مصر ١٩٦٥م .
(٤) انظر: مصادر المعرفة ص ١٢٩ .
(٥) الدين دراز ص ٨٤ .

ثـم اتسـع نطـاق علم مقارنة الأديان في القرن العشرين ليشمل: "تاريخ الأديان"، و"فلسفة الأديان"، و"علم اجتماع الديني"[1] و"علم نفس الدين" و"فينومولوجيا الدين".

وهـذه ليسـت علومـا مسـاعدة لكـنها أقسام أو حقول لعلم الدين المقارن[2] أو علم الملـل، ويقـال إن أول من أطلق مصطلح "مقارنة الأديان" على هذا العلم في الغرب وهو الفيلسـوف الألمـاني "ماكس موللر" صاحب كتاب "الأساطير المقارنة" الصادر ١٨٥٦م و"مقدمـة في عـلم الأديـان" الصادر سنة ١٨٧٠م[3] وهذا التاريخ وإن كان تاريخا فاصلا بين ماضـي هذا العلم وتاريخه بعد هذه الفترة في الغرب إلاّ أنها لا تعني كما يظن الغربيون - نشأة وابتكارا لـه - ذلك أن المسلمين سبقوا إليه قبل قرون عديدة.

وخلاصة القول: أن عـلم الأديان في الغرب في العصر الحديث كان وليد الصراع بين الديـن النصـراني وبـين رواد النهضة الأوروبية، ولم يكن الذين تبنوه رجال الدين، وإنما كـانوا الفلاسـفة المناهضـين ضـد الكنيسـة ورجالها. ومن هذا العرض لظروف نشأة هذا العـلم عـند الغـرب تـتحدد ملامـح أهـداف هـذا العـلم، وأنهـا تختلف عن أهدافه عند المسلمين، والسؤال المهم هنا: ما هي أهداف دراسة علم الأديان عند الغرب؟.

المطلب الثالث: أهداف علم مقارنة الأديان في الغرب

تختلف وتتباين أهـداف هـذا العـلم في الغـرب تبعا لتطور فكره وتنوع مواقفه من الديـن، فليسـت أهدافـه من هذا العلم في بداية النهضة الأوروبية أهدافه في عصر التنوير "عصـر الإلحـاد" كمـا اختلفـت أهدافه في العهود التالية لعصر التنوير عن أهدافه في عصر التنوير، ويمكن أن نلخص ذلك في ثلاث مراحل:

المـــرحلة الأولى: بداية النهضة الأوروبية: ففي هذه المرحلة كانت أهداف الغربيين مـن دراسـة الأديـان ونقدها تصحيح الديانة النصرانية وتصفيتها من الأخطاء ووضع حد

---

(١) عـلم اجتماع الديـني: هـو العـلم الذي يتناول الوظائف الاجتماعية للأديان في مختلف المجتمعات ولا سيما فيما يتصل بالضبط الاجتماعي لمختلف أنماط السلوك، انظر: علم الاجتماع الديني، د. زيدان عبد الباقي نقلا عن علم الاجتماع الديني، د. مصطفى شاهين ص ٣٩.

(٢) انظر: مناهج مقارنة الأديان في الفكر الإسلامي، للشرقاوي ص ٥٠٨.

(٣) انظر تاريخ الأديان وفلسفتها ص ٢١.

لسلطة رجال الدين ، لكن كما رأينا كان لهذه المرحلة آثار عكسية على الفكر الأوروبي ، وكانت بمثابة تمهيد لما حدث في العهود التالية لها .

المرحلة الثانية: تبدأ بشكل واضح في عصر سيادة العقل وظهور الفلسفات الإلحادية ، وفي هذه المرحلة كانت أهداف الغربيين من دراسة الأديان هدم الدين وإحلال العقل محله ، والكفر "بالإله" وعبادة الطبيعة بدلا عن عبادته ، وقد بلغ الغربيون من عدائهم للدين حتى وصف به بعضهم أنه «من أساسه شر محض ، وداء عضال يجب أن يستأصل ويزال لأنه مخدر للشعوب وعائق عن التطور . . .»[١] وذهب البعض في الفكر إلى أبعد حد حتى طلب بحذف اسم الله نفسه ، وفي هذا يقول "دولباخ": «إن عقيدة الله المأثورة نسيج من المتناقضات ، إن فكرة الله هي الضلالة المشتركة للنوع الإنساني»[٢] . إن دراسة الأديان في هذا الجو كان الهدف الحقيقي منها محاربة الدين ؛ فكانت عاملا من عوامل الهدم والتدمير للأديان كلّ الأديان ، وفي ظل هذه الظروف ارتبط علم الأديان بنظريات فاسدة كنظرية تطور الأديان والعقائد ، وقدم بالمنهج الغربي الذي يفسر الدين تفسيرا ماديا ، ويلاحظ أن الاهتمام الأكبر في تلك المرحلة كان مركزا على الأديان البدائية[٣] .

المرحلة الثالثة: العودة إلى المسيحية: لما أراد الغرب غزو العالم الشرقي - خاصة العالم الإسلامي - أدرك ضرورة دراسة هذا العالم دينا وثقافة واقتصادا وجغرافيا ، وغير ذلك من الجوانب التي تساعده في بسط السيطرة عليه ، فقام المستشرقون بهذا الدور ، يقول الدكتور علي النملة: «واشتغل فريق من المستشرقين بهذا المجال مدفوعين من قبل حكوماتهم التي دعتهم إلى معاونتها في استعمار الشرق ؛ فكانوا لها مخلصين في تقديم المعلومات التي احتاجت إليها وهي في طريقها إلى اجتياح الشرق معلنة الهيمنة عليه»[٤] .

وإذا كان من أهم المعلومات المطلوب للمستشرقين في هذه الفترة معرفة مواطن القوة والضعف في تلك الشعوب والعوامل المؤثرة في ذلك ، وإذا كان الدين أهم مؤثر في الشعوب ، فقد أدرك المستشرقون أن قوة المسلمين تكمن في تمسكهم بدينهم ، وأن

---

(١) العلمانية ، د . سفر الحوالي ص ٢٢١ .

(٢) المشكلة الأخلاقية والفلاسفة كرسون ترجمة عبد الحليم محمود ص ١٣٨ ط الثانية - القاهرة .

(٣) انظر: الإسلام في منهج البحث الغربي هلمر رنكرن مقال منشور في مجلة المسلمون سويسرا ص ٤٦ - ٤٩ .

(٤) الاستشراق في الأدبيات العربية ، د . علي بن إبراهيم النملة ص: ٣٨ .

ضعفهم في تركهم لهذا الدين ، فقد بدأوا بدراسة الإسلام دراسة مغرضة هدفها معرفة المنافذ التي يمكن الدخول في هذا الدين لتشكيكه وإضعافه في قلوب المسلمين «ومن جهة أخرى رغب المسيحيون في التبشير بدينهم بين المسلمين ، فأقبلوا على الاستشراق ليتسنى لهم تجهيز الدعاة وإرسالهم للعالم الإسلامي ، والتقت مصلحة المبشرين مع أهداف المستعمرين ، فمكن لهم واعتمد عليهم في بسط نفوذهم في الشرق ، وأقنع المبشرون زعماء الاستعمار بأن المسيحية ستكون قاعدة الاستعمار الغربي في الشرق ، وبذلك سهل الاستعمار للمبشرين مهمته وبسط عليهم حمايته ، وزودهم بالمال والسلطان ، وهذا هو السبب في أن الاستشراق قام في أول أمره على أكتاف المبشرين والرهبان ثم اتصل بالاستعمار»[1] ففي هذه الفترة جمع المستشرقون بين غرض التنصير وغرض الاستعمار ، ويلاحظ أن أهم الدراسات التي قدمها المستشرقون في مجال الأديان في تلك الفترة كانت دراستهم بالإسلام ، كما أن أهدافهم تتلخص بما يلي:

١ - خدمة الديانة النصرانية .
٢ - خدمة الاستعمار الغربي .
٣ - محاربة الإسلام .

وفي هذا الفترة كتبت أهم كتابات الغربيين عن الإسلام ، والدراسات المقارنة بين الإسلام والأديان الأخرى . وفيها تبلور منهج الغربيين في دراسة الأديان على أيدي المستشرقين هذا المنهج الذي مازال تأثيره في الغرب وفي الشرق على السواء ، وإذا كان أهم ما يهمنا منه في هذا البحث منهجهم في تناول دراسة الإسلام فإنني أقتصر في الكلام على أهم ملامح منهجهم في دراسة الإسلام ومنطلقاته في المبحث الآتي:

* * * * *

(١) انظر: الفكر الإسلام الحديث وصلته بالاستعمار ص ٤٣٠ .

المبحث الثاني

منهج المستشرقين في دراسة الملل وتقويمه

رغم تعدد اتجاهات المستشرقين واختلاف مشاربهم وتباين مجالاتهم وتفاوت قدراتهم العلمية إلا أنهم في الغالب ينتهون في دراساتهم للملل - خاصة الإسلام - إلى نتائج واحدة، وذلك أنهم ينطلقون من مسلمات واحدة ويصدرون من أسس منهجية خطت لأهداف محددة.

المطلب الأول: المسلمات التي انطلق منها المستشرقون

١ - الانطلاق من النصرانية المحرفة كمعيار لتقويم الأديان الأخرى التي هي موضع البحث والدراسة - خاصة الإسلام - بحيث لاتكون هذه الأديان مقبولة ما لم تتفق مع المقولات الرئيسة للنصرانية، واعتبار كلّ ما يشذ عن النموذج الروحي النصراني نقصاً أو قصوراً يعبر عن فساد هذا الدين وضعفه وعدم معقوليته[١]. فهم بذلك يجعلون النصرانية الميزان الذي

لا ميزان غيره، وهذا نابع من كون الأوربيين يؤمنون كأسلافهم أن النصرانية هي شريعة الفضل[٢]. وأنها آخر الديانات السماوية.

٢ - إنكار نبوة محمد ﷺ واعتبار القرآن من تأليفه[٣]. فالمستشرقون إما علمانيون لا يؤمنون بالغيب، أو أهل كتاب لايؤمنون بصدق الرسالة التي أعقبت النصرانية[٤].

٣ - مساواة الدين الإسلامي بغيره من الأديان الوثنية كأديان الهند والصين، والمحرفة السماوية. يقول المستشرق جب: «إن الدين الإسلامي في ذاته واحد من مجموعة الأديان التي تشتمل إلى جانب المجوسية واليهودية والمسيحية، وهو يقاسمها نفس المبادئ

---

(١) انظر: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر د. أحمد سمايلوفتش ص ٢٠٩ دار النهضة العربيةط الثا نية ١٩٨٢م.

(٢) انظر: الجواب الصحيح ٣/ ٢٢٨.

(٣) انظر: المنهج الغربي الوافد أنور الجندي ص ٧٧.

(٤) انظر: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية ١/ ١١٩.

الأساسية»[١] . بل في رأي أكثرهم دون اليهودية والنصرانية[٢] .

٤ - الانطلاق من نظرة عنصرية عرقية تختزل الإنسانية في عرقين "نحن" و"هم" حيث قسمت شعوب الأرض إلى أجناس راقية وأخرى متخلفة ، فالأولى شعوب آرية والثانية شعوب سامية[٣] . تجد ذلك في أفكار أرنست رينان ، وهانوتو ، وغيرهما ممن نهج نهجهما وقد حاول هؤلاء إظهار الجنس الآري بأنه أهل العقل والابتكار والحضارة والتفوق ، بينما وصفوا الساميين بالسطحية وقلة العقل .

٥ - اعتبار الخبرة الأوروبية نموذجاً معياريا للتطور البشرى ، وقد ساد الدراسات الاستشراقية نوع من المقارنة غير العلمية حيث أخضع تاريخ الإسلام ونظمه الاجتماعية للمعايير الغربية بحيث صارت التجربة الأوروبية تمثل المرجع الذي يجب أن تحتذيه المجتمعات الأخرى[٤] .

٦ - الانطلاق من الموقف المعادي للإسلام ونبيه ﷺ والمسلمين . فقد كان أكثر المستشرقين ينطلق من منطلق عقدي يؤججه الحقد الصليبي على الإسلام ، والتعصب الذي يعمي الأبصار عن الحقائق . يقول محمد أسد وهو من أعلم الناس بطبيعة المستشرقين وأهداف الغربيين من دراسة الإسلام: «لاتجد موقف الأوروبي بالنسبة للإسلام موقف كره في غير مبالاة فحسب ، كما هي الحال في موقفه من سائر الأديان والثقافات ، بل هو كره عميق الجذور ، يقوم في الأكثر على صدود من التعصب الشديد ، وهذا الكره ليس عقلياً فحسب ، ولكنه يصطبغ أيضاً بصبغة عاطفية قوية . قد لا تتقبل أوروبا تعاليم الفلسفة البوذية أو الهندوكية ، ولكنها تحتفظ دائماً فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلي متزن ، ومبنى على التفكير . إلاّ أنها حال ما تتجه إلى الإسلام يختل التوازن ، ويأخذ الميل العاطفي بالتسرب ، حتى إن أبرز المستشرقين الأوروبيين جعلوا أنفسهم فريسة للتحزب غير العلمي في كتاباتهم عن الإسلام ويظهر في جميع بحوثهم علي

---

(١) مناهج علم الكلام في مواحهة القضايا الفكرية المعاصرة ، لرزق يوسف ص ٢٠٢ - ٢٠٣ ، رسالة دكتوراة في كلية دار العلوم - القاهرة نقلا عن كتاب وجهة الإسلام للمستشرق جب .

(٢) انظر: الإسلام في منهج البحث الغربي هلمر رنكرن ص ٤٨ .

(٣) انظر: نظريات التنمية السياسية المعاصرة د . نصر محمد عارف ص ١٢٣ .

(٤) انظر: المصدر السابق ص ١٢٣ .

الأكثر كما لو أن الإسلام لايمكن أن يعالج على أنه موضوع بحث في البحث العلمي، بل على أنه متهم يقف أمام قضاته.

إن بعض المستشرقين يمثلون دور المدعى العام الذي يحاول إثبات الجريمة، وبعضهم يقوم مقام المحامي في الدفاع، فهو مع اقتناعه شخصيا بإجرام موكله لايستطيع أكثر من أن يطلب له - مع شيء من الفتور - اعتبار الأسباب المخففة. وعلى الجملة فإن طريقة الإستقراء والاستنتاج التي يتبعها أكثر المستشرقين تذكرنا بوقائع دواوين التفتيش "محاكم التفتيش" تلك الدواوين التي أنشأتها الكنيسة الكاثوليكية لخصومها في العصور الوسطى»[1]. ويقول أيضا: «أما تحامل المستشرقين على الإسلام فغريزة موروثة وخاصة طبيعية تقوم على المؤثرات التي خلفتها الحروب الصليبية بكل مالها من ذيول، في عقول الأوروبيين»[2].

بل إن بعض الغربيين أنفسهم يعترفون هذا الأمر، يقول نورمان دانييل: «على الرغم من المحاولات المخلصة التي بذلها بعض الباحثين في العصور الحديثة للتحرر من المواقف التقليدية للكتاب النصارى من الإسلام فإنهم لم يتمكنوا أن يتجردوامنها تجردا تاماً»[3]. فهذه شهادة شاهد من أهلهم.

إن الانطلاق من هذه المنطلقات وتلك المسلمات عندهم هي التي أدت بالمستشرقين إلى استخدام أساليب غير علمية ومناهج لا تؤدي إلى نتائج صحيحة في مجال الدراسات الإسلامية وسأشير هنا إلى عدد من تلك المناهج.

المطلب الثاني: منهج المستشرقين في دراسة الملل[4]:

استخدم المستشرقون في دراسة الملل بصفة عامة والدراسات الإسلامية بصفة خاصة مناهج عديدة مجتمعة أو متفرقة وأهم هذه المناهج:

١ - المنهج النقدي التاريخي: فقد بدأ النقد التاريخي للكتب المقدسة عند الغرب في

(١) الإسلام على مفترق الطرق محمد أسد ترجمة عمر فروخ ص ٦٠ دار الاعتصام القاهرة.
(٢) المصدر السابق ص٦٠.
(٣) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ص ٧٣.
(٤) يركز البحث منهجهم في دراسة الإسلام.

القرن السابع عشر على يد «ريتشارد سيمون، وجان استريك» وذلك بعد نشر الكتب المقدسة بلغات عدة على عوامد متقابلة حتى يمكن المقارنة بين النصوص المختلفة . . . من أجل البحث عن النص الأصلي، فأخضع نصوص العهدين لنقد التاريخي بدءا من نشأتها، واشتمل هذا النقد، على كلّ ما يتعلق بالعهدين من ترجمة أو شروح، وكان أشهر الناقدين الغربيين في هذا القرن الفيلسوف الهولندي اليهودي "سيبنوزا" واستمر هذا النقد في القرن الثامن عشر حيث تبناه فلاسفة أمثال "فولتير، و لسبخ" وفي القرن التاسع عشر أخذ هذا المنهج يتسع ويتحول إلى ماسموه بالنقد العلمي القائم على تحقيق النصوص والمقارنة بينها، والاعتماد على فقه اللغة، وعلم الأساطير المقارنة وفي هذا القرن، تم وضع قواعد هذا المنهج وبرزت مدارسه المختلفة، واستمر حتى ظهر ما يسمى بالمنهج "الفينومولوجي" وقد عد بعض الباحثين أن ظهور هذا المنهج كان نصراً ومكسباً من الحضارة الأوروبية بالنسبة لدراسة التوراة والإنجيل[١] . والعكس هو الصحيح .

فقد قاد هذا المنهج الغربيين إلى الإلحاد، وذلك عند ما عرف أن ديانته غير صحيحة . ومهما يكن من أمر فإن الغرب ممثلا بالدراسات الاستشراقيه قد طبق هذا المنهج على الدراسات الإسلامية، يقول بارت: «ونحن في هذا نطبق علىالإسلام وتاريخه، وعلى المؤلفات العربية، التي نشتغل بها المعيار النقدي نفسه، الذي نطبقه على تاريخ الفكر عندنا، وعلى المصادر المدونة لعالمنا نحن»[٢] . ومع هذا الادعاء من "بارت" فإن تطبيق هذا المنهج على الدراسات الإسلامية لم يكن كتطبيقه على الدراسات النصرانية أو اليهودية لما قلنا من أن الغرب انطلق في دراسته من منطلق عدائي للإسلام، ولما كان يحمله المستشرقون من أحكام مسبقة . ولذا نقول: إن أغلب الغربيين لم يخلصوا لهذا المنهج في دراساتهم للإسلام ولو أخلصوا لقواعده لأمكن لهم الوصول إلى نتائج صحيحة[٣] .

---

(١) انظر: مقدمة الدكتور حسن حنفي لرسالة اللاهوت والسياسة ص١٨ - ١٩ بتصرف، منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص ١٦٧ .

(٢) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية رودي بارت ترجمة مصطفي ماهر ص ١٠ .

(٣) إن سيبنوزا عندما طبق المنهج النقدي التاريخي على التوراة توصل نفس النتيجة التي توصل بها ابن حزم، وما ذلك إلاّ أنه استخدم منهجا عقليا صحيحا، وإن مورس بوكاي عندما استخدم المنهج العلمي الصحيح في دراسة القرآن والتوراة والإنجيل توصل إلى صحة القرآن وبطلان التوراة والإنجيل، وما ذلك - بعد توفيق الله - إلاّ أنه استخدم عقله صحيحا، والتزام بنتائج القواعد المنهجية الصحيحة .

فاستخدام هذا المنهج وتطبيقه على الدراسات الإسلامية لم يكن من أجل معرفة حقيقة هذا الدين ، وإنما كان من أجل جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات التي تتصل بالإسلام أو المصنوعة الملفقة بالإسلام ، ثم دراستها وتحليلها وتفسيرها على نحو يحقق لهم أهدافهم . يقول سياسي: «إن تطبيق المنهج التاريخي لا يؤدي إلى نتائج علمية صحيحة لأنه طوع لخدمة أغراض لا علاقة لها بالموضوعية العلمية»[1] . وكما سنرى إن تطبيق هذا المنهج علىالدراسات الإسلامية أدى إلى إنكار الوحي ونبوة محمد ﷺ .

٢ - **المنهج التحليلي**: المنهج التحليلي هو أحد المناهج التي طبقها المستشرقون على الدراسات الإسلامية ، ويعني هذا المنهج تفتيت الظاهرة الفكرية ، أو الموضوع المطلوب دراسته إلى مجموعة من العناصر يتم التأليف بينها في حزمة لا متجانسة من العوامل أو الوقائع التي أنشأها . أي أن هذا المنهج يقوم بتفتيت الظاهرة الفكرية وردها إلى عناصرها الأولية كالظروف الاجتماعية ، أو السياسية ، أو الدينية . فإذا طبق المستشرق هذا المنهج وهو متأثر بمزاجه وثقافته وبيئته ودينه الذي نشأ فيه فإنه يصل به في الدراسات الإسلامية إلى نتائج غير سليمة[2] . وذلك أنهم من خلال هذا المنهج يأتون بكل تفسير غريب ، ويعيدون المفاهيم الإسلامية إلى غيرأصول إسلامية .

٣ - **المنهج الإسقاطي**: أعني إسقاط الرؤية الوضعية العلمانية والتأثيرات البيئية المعاصرة على الوقائع التاريخية حيث درس الإسلام ، سواء عقيدة أو سيرة وتاريخ بمفاهيم غربية معاصرة ، ومقارنته بالمعطيات التاريخية الغربية[3] . فبين الرواسب الدينية والنزعة العلمانية ، والآراء الفلسفية ، درس الإسلام من خلال رؤية وضعية منحصرة على المنظور ، ترفض كلّ ما هو روحي ، أو غيبي ، على أساس أنه سقوط في مظلة الخيال ، والخرافة ، واللاعلمية[4] . فلم ينتج من تطبيق هذا المنهج على الدراسات الإسلامية إلاّ أحكام تعسفية لا صلة لها بالتحليل العلمي السليم[5] .

---

(١) الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية سياسي سالم الحاجي ١/ ٢٠١ .

(٢) الظاهرة الاستشراقية في الدراسات الإسلامية ١/ ٢٠٢ .

(٣) انظر: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية ١/ ١٠٩ - ٢٠١

(٤) المصدر السابق ص ١١٩ .

(٥) انظر: الظاهرة الاستشراقية ص ١/ ٢٠٢ - ٢٠٣ .

٤ - **منهج الأثر والتأثر**: يرى بعض الباحثين المعاصرين أن من شروط الباحث في علم الأديان أن لا يسرع عند المقارنة في تحديد الصلة بين ظاهرتين في دينين قبل أن يظهر له نوع العلاقة بينهما، أهي مشابهة أم مماثلة أم تضاد أم تناقض حتى لا يقع في الخطأ(١). وهذا ما يقتضي العدل والإنصاف، لكن عند ما نأتي إلى منهج المستشرقين في الدراسات الإسلامية نجدهم يطبقون هذا المنهج بطريقة ماكرة وبدون ضوابط. فهم من خلال هذا المنهج يتوصلون أن الإسلام ليس إلاّ مزيج مستمد من الأديان الأخرى والنحل الباطلة.

يقول ساسي مبينا بعض الأسباب التي حملت المستشرقين استخدام هذا المنهج وتطبيقه على دراسة الإسلام: «تأثر المستشرقون بمنهج الأثر والتأثر؛ لأنه طبق بصورة صارمة في بيئتهم، ذلك أن النهضة الأوروبية قد تأسست على الحضارة اليونانية، وكلما أنشأ مذهب فكري وديني جديد، خاصة فيما يتعلق بمقاومة سلطان الكنيسة، وجد له نظير في الحضارة اليونانية القديمة... ومن هنا رسخ في أذهان المستشرقين أن كلّ حضارة حديثة تستمد أصولها من الحضارة اليونانية، ومن خلال هذا الحكم طبقوا هذا المنهج على الحضارة الإسلامية وحاولوا تفسير أفكارها ومناهجها طبقا لمنهج الأثر والتأثر... ومع عدم صحة هذا المنهج بالنسبة للحضارة الإسلامية؛ لأنها حضارة ذات أصول وحدود واضحة مؤسسةعلى معايير دينية»(٢).

إن هذا السبب الذي ذكره الدكتور سياسي ليس بكاف في تعليل ذلك الأمر، فالأمر أبعد من ذلك، وهو أن المستشرقين فعلوا ذلك عن عمد وإصرار، وعلى وفق خطة مرسومة لهم، الهدف منها التشكيك في أصالة الإسلام وكونه دينا جاء من عند الله.

إن هذه المناهج التي استخدمها المستشرقون في الدراسات الإسلامية - من النقد التاريخي، والمنهج التحليلي، ومنهج الأثر والتأثر - تخالف عن تلك المناهج التي استخدمها علماء المسلمين في مجال دراسة الأديان، وإن تشابهت في الظاهر، أو اتفقت معها في المسمى، ذلك أن الهدف الذي استخدمه علماء المسلمين من أجله يختلف عن أهداف الغرب منه، حيث كانت مناهجهم مبنية على العدل والإنصاف، فلم يحدث من

---

(١) دراسات في اليهودية بين الملة والنحلة والحركة، د. جبر محمد حسن جبر ص ٨ - ٩.

(٢) الظاهرة الاستشراقية ١/ ٢٠٤.

علماء المسلمين أن تقولوا على أهل دين ، ولم يحرفوا تاريخ أمة .

كما لم يأتوا بتحليلات واستنتاجات ليس لها أساس من الصحة ، وكيف يمكن عنهم ذلك وقصدهم معرفة حقيقة الأديان كما هي في الواقع ؛ ليمكن لهم تطبيق شرع الله على أهلها . أما المستشرقون فهم إما قوم أكل الحقد الصليبي أكبادهم ، أو يهود ملأ الحقد قلوبهم ، وأعماهم الكبر ، أو علمانيون ، وملحدون ينطلقون من خلفية دينية مع الإلحاد والكفر ، فازدادوا كفرا مع كفرهم .

المطلب الثالث: أساليب المستشرقين في الدراسات الإسلامية

ومما يكشف لنا حقيقة أهداف المستشرقين من خلال منهجهم هذا ، الأساليب التي استخدموها لتحقيق هذه المناهج ، أو السمات الدالة على الخيانة المنهجية ، وأبرز هذه الأساليب:

١ - **الأسلوب الانتقائي:** إن المستشرقين لا يدرسون الإسلام كوحدة متكاملة[١] . وإنما يدرسون منه موضوعات انتقوها ، فيهتمون بالموضوعات التي يرون أنهم يستطيعون توظيفها على حسب أهوائهم وخاصة الموضوعات التي تمثل جانبا سلبيا في تاريخ الأمة الإسلامية كالفرق المبتدعة ، يقول أنور الجندي: «إن المنهج الغربي الوافد يتحدث في حفاوة ضخمة عن الاعتزال والمعتزلة ، ويرى أن سقوطهم كان مصدر خطر كبير على الفكر الإسلامي ، وأن منهجهم هو أصدق المناهج التي عرفها هذا الفكر . . .»[٢] . ويقول عن اهتمامهم بالتصوف: «ويقف المنهج الغربي الوافد من التصوف موقفا مماثلا لموقفه من الاعتزال ، بل أشد عنفا وأكثر عمقا ، ويركز على التصوف الفلسفي ، ويعلي من شأن مفاهيمه وأعلامه إلى الحد الذي يبلغ بعالم . . . مثل "ماسنيون" أن يركز حياته كلها على دراسة الحلاج وآثاره ، وأخباره . كما يركز الكثيرون من مفكري الغرب على وحدة الوجود ، والإشراق ، والاتحاد ، والحلول ، والفناء ، ويعتبرون هذه المفاهيم مفاهيم إسلامية ، بينما هي في الواقع مفاهيم وافدة»[٣] .

---

(١) الإسلام في منهج البحث الغربي ص ٤٧ .
(٢) أخطاء المنهج الغربي الوافد ص ١٣٠ .
(٣) المصدر السابق ص ١٣٧ .

ومن الانتقاء أيضا انتقاء المصادر: فهم ينتقون المصادر التي يعتمدون عليها في الدراسات الإسلامية، هذا إذا لم يلقوها كليا، فمصادرهم المفضلة هي كتب الأدب، وكتب الفرق المنحرفة عن المنهج الصحيح، ومن ذلك أيضا انتقاء الأدلة، وذلك أنه قد يرد في الموضوع الذي يدرسونه أدلة صحيحة وأدلة ضعيفة، أو شاذة؛ فيختارون الأدلة الشاذة لكونها توافق أهواءهم، ويتجاهلون، أو يتعامون عن الأدلة الصحيحة، أو يشككون في صحتها، يقول الدكتور عبد العظيم الديب: «فحينما يكون الدليل قائما على الرأي الذي لا يوافق هوى المستشرق تجده يتعامى عنه، ويتجاهله، ويشكك فيه، حتى لو كان صحيحا بين الصحة، كأن يكون حديثا في الصحيحين، بل لو كان قرآنا كريما صريح الدلالة، فمن ذلك مثلا:

قول "مونتجمري وات": «وكان يقال في الإسلام: المهر كان ملك المرأة...» فتعبيره بلفظ "يقال" صيغة التشكيك في هذا الحكم، ويوحي بأنه غير مصدق أن يكون ذلك من شريعة الإسلام وأحكامه، مع قراءته قطعا للآية الكريمة في سورة النساء: ﴿ وَآتُواْ النَّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾[1]. ولكن يغض بصره عن هذه الآية الكريمة - وهو قد قرأها قطعاً بدليل استشهاده بآيات من السورة نفسها - التي تأمر بغاية الوضوح والصراحة بإعطاء النساء مهورهن[2]. وغرض هذا المستشرق من تشكيك هذا الدليل هو الترويج بالفرية التي تقول: الإسلام ظلم المرأة، ويقول الدكتور جواد علي عن اعتمادهم على الأخبار والروايات الشاذة: «لقد أخذ المستشرقون بالخبر الضعيف في بعض الأحيان وحكموا بموجبه واستعانوا بالشاذ والغريب، فقدموا على المعروف المشهور. استعانوا بالشاذ ولو كان متأخراً، أو كان من النوع الذي استغربه النقد، وأشاروا إلى نشوزه. تعمدوا ذلك لأن هذا الشاذ هو الأداة الوحيدة في إثارة الشك»[3].

٢ - **التحريف وقلب الحقائق:** يحرف المستشرقون النصوص... تحريفاً مقصوداً، أو يقلبون معانيها حين لا يجدون مجالاً للتحريف[4].

---

(١) سورة النساء الآية ٤.

(٢) انظر: المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي د. عبد العظيم محمود الديب ص ١٠٩ - ١١٠.

(٣) مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية ١/ ١٣٢.

(٤) انظر: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي مصطفى السباعي ص١٨٨.

وذلك باستعمال ما يسمى منهج العكس وهو أن يأتي المستشرق إلى أوثق الأخبار وأصدق الأنباء فيقلبها - متعمداً - إلى عكسها[١]. وقد ذكر ناصر الدين دينيه أن هذا الأسلوب كان أسلوب القسيس اليسوعي المتعصب "لامانس"[٢]. ولكن هذه الآفة المنهجية ليست خاصة به، بل تكاد تكون عامة في أساليب المستشرقين.

٣ - **الكذب والاختلاق**: من الأساليب الماكرة الدالة على سوء الطوية، والمخلة للمنهجية عند المستشرقين استخدام أساليب الخداع والتمويه، كالعزو إلى مصادر ومراجع غير موجودة، من ذلك ما ذكر الدكتور عبدالرحمن بدوي عن المستشرق "لامانس" حيث يقول: «وأبشع ما فعله "لامانس" خصوصاً في كتابه فاطمة وبنات محمد ﷺ هو أنه يشير في الهوامش إلى مراجع بصفحاتها وقد راجعت معظم هذه الإشارات في الكتب التي أحال إليها، فوجدت أنه إما أن يشير إلى مواضع غير موجودة إطلاقاً في هذه الكتب، أو يفهم النص فهماً ملتوياً، خبيثاً أو تستخرج إلزامات بتعسف شديد، يدل على فساد الذهن، وخبث النية، ولهذا ينبغي ألا يعتمد القارئ على إشاراته إلى مراجع، فإن معظمها تمويه وكذب وتعسف في فهم النصوص»[٣]. فهذا التلفيق المغرض لاينتبه إليه كلّ أحد ولاينكشف إلاّ الجهابذة من العلماء الخبيرين بأساليب التدليس والتمويه.

٤ - **الاعتماد على الفرضيات والتخمين**: إن الاعتماد على الفرضيات والتخمينات سمة مميزة لمنهج الغربيين لدراسة الأديان وهو أحد الأسباب التي أوقعتهم الاضطراب المنهجي، وهو الأسلوب المفضل عند المستشرقين في الدراسات الإسلامية. يقول المستشرق مونتجمري وات: «لما كانت معارفنا مبتورة تعتمد على مصادر إسلامية ما عدا النقوش، فهناك مكان كبير للافتراض والتخمين، ولن نعالج هنا هذا الموضوع يكفي أن نذكر بأنه من المتفق عليه عادة أن عبادة الأوثان لم يعد لها تأثير أيام محمد»[٤]. فهم اعتمادا على الفرضيات والتخمينات يصدرون أحكاما تعسفية، وها أنت ترى زعم هذا المستشرق الذي يزعم الاتفاق على عدم تأثير عبادة الأوثان في أيام النبي ﷺ ولا أدري من

---

(١) أوربا والإسلام د. عبد الحليم محمود ص ١٣٦.

(٢) انظر: المصدر السابق ص ١٣٧.

(٣) موسوعة المستشرقين د. عبد الرحمن بدوي ص ٣٤٨.

(٤) محمد في مكة، مونتجمري وات ترجمة شعبان بركات ص ٥١.

أين لـه هـذا الاتفـاق؟ وهـل هـو اتفـاق المستشـرقين؟ ونحن نعرف أنهم أبعد الناس في الاتفـاق عـلى شـيء ، إن هـذا الاتفاق الذي حكاه هذا المستشرق ليس لـه حقيقة وحتى على فرض صحته فلا يعتمد إلاّ على الافتراض والتخمين .

٥ - ادعـاء الموضـوعية والـتجرد: مـن الأسـاليب الخادعـة الـتي يسـتخدمها المستشرقون ادعاء الموضوعية والتجرد عن الأهواء لكن إذا جئنا إلى الواقع لن نجد لـه أثراً بـل العكـس الصـحيح وهـو أمـر يعترفه المستشرقون أنفسهم كما مر بنا في كلام "دانييل"، والغريـب أنـنا نجـد في أغلـب مقدمات مؤلفات المستشرقين الزعم بالالتزام الموضوعية في دراسـاتهم للإسـلام . بـيد أنـك لا تخطـو خطـوة واحـدة بعـد المقدمـة إلا ويفاجئك هذا المستشـرق نفسـه مـا يـناقض ادعـاءه . انظر مثلاً كلام "بارت" حيث يقول: «فنحن معشر المستشـرقين ، عندما نقوم اليوم بدراسات في العلوم العربية والعلوم الإسلامية لا نقوم بها قـط لكـي نـبرهن على ضعف العالم العربي الإسلامي بل على العكس ، نحن نبرهن على تقديـرنا الخـاص للعـالم الـذي يمـثله الإسلام . ومظاهره المختلفة ، والذي عبر عنه الأدب العـربي كـتابه ، ونحـن بطبـيعة الحـال نـأخذ كلّ شيء ترويه المصادر على عواهنه دون أن نعمـل فـيه الـنظر ، بل نقيم وزناً فحسب لما يثبت أمام النقد التاريخي أو يبدو وكأنه يثبت أمامـه»[١] . فـبارت هذا نفسه يقول: «لقد كانت معلومات الناس في مكة - في عصر النبي - عـن النصـرانية محـدودة وناقصـة ، ولم يكن النصارى العرب سائرين في معتقداتـهم في الاتجـاه الصحيح ولهذا كان هناك مجال لظهور الآراء البدعية المنحرفة . ولولا ذلك لما كان محمـد عـلى عـلم بأمثال تلك الآراء التي تنكر صلب المسيح وتذهب إلى أن نظرية التثليث النصـرانية لا تعني الأب والابن وروح القدس ، وإنما تعني الله وعيسى ومريم . وعلى أية حـال فـإن المعـارف الـتي اسـتطاع محمـد أن يجمعهـا عـن حـياة المسيح وأثره كانت قليلة ومحـدودة . وعـلى العكس من ذلك كان محمد يعرف الشيء الكثير عن ميلاد عيسى وعن أمه مريم»[٢] .

فالمستشـرق بـارت يـزعم أن الـنبي ﷺ اقتـبس المعلومـات التي وردت في القرآن عن

---

(١) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ص١٠ .

(٢) المصدر السابق ص١٠ .

عقائد النصرانية وعيسى عن العرب النصارى، وقصده الخبيث أن محمداً ﷺ هو مؤلف القرآن[١]. دون أن يعطينا أي دليل على ذلك إنه مجرد خضوع لهواه، وتحقيق غاية حددها لنفسه من قبل. ومع ذلك كما رأينا يدعي لنفسه التجرد والموضوعية وعدم الأخذ إلاّ بما يثبت أمام النقد التارخي. و«البحث عن الحقيقة الخالصة»[٢]. إن هذا الادعاء ادعاء ليس له رصيد من الواقع وقصده خداع المسلمين.

إن المستشرقين تناولوا الأديان بهذه المناهج - آنفة الذكر - واستخدموا تلك الأساليب في الدراسات الإسلامية خاصة، فجاءت نتائج دراساتهم بالنسبة للإسلام مملوءة بالتشكيك والطعن، والقول ببشرية مصدره، فجوستاف في كتابه عن محمد النبي (١٨٤٣م)، وألـيوس سبرنجر في كتابه عن حياة محمد وتعاليمه (١٨٦١م)، وتيودر نولدكه في كتابه عن تاريخ القرآن (١٩٠٩م)، وصموئيل مرجليوث في كتابه عن حياة محمد وظهور الإسلام (١٩٠٥م) ووليام موير في كتابه عن حياة محمد (١٨٥٨م - ١٨٦١م)، ومالدونالد في مجلة المنصرين (يناير ١٩٣٣م)، وجب في كتابة المحمدية (١٩٤٧م)، ومونتجمري وات في كتاب محمد النبي، ورجل الدولة (١٨٦٤م)، كلّ هؤلاء وغيرهم كثير، وصفوا النبي ﷺ بأقبح الأوصاف، وزعموا أنه منتحل للنبوة[٣]. ولكن فارسهم وأستاذهم في هذا المنهج المعوج هو أجناس جولد زيهر[٤].

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية والصراع الحضاري زقزوق ص٨٥.

(٢) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ص ١٠.

(٣) انظر: رؤية إسلامية للاستشراق د. أحمد غراب ص ٣٨ - ٣٩.

(٤) وهو أحد أساطين الاستشراق ولد سنة ١٨٥٠م وتوفي سنة ١٩٢١م جنسيته مجرية، وديانته يهودية، تعلم اللغات السامية، ودرس في جامعات الغرب، كما تعاون مع ٨٥ دورية، وثماني موسوعات علمية، وكتب ثلاثين مقالا في الموسوعة الإسلامية، وبلغت مقالاته العلمية ٢١٠ مقالات، وكتب ٣٥ كتابا، ومن كتبه عن الإسلام: العقيدة والشريعة، نقله إلى العربية د. محمد يوسف موسى، والأستاذ عبد العزيز عبد الحق، وله: الإسلام بالألمانية، وآداب الجدل عند الشيعة بالألمانية، وبحث فلسفي في فقه اللغة العربية وغيرها، ونشر كتبا كثيرة في العقائد، والشرائع المرجئة، والقدرية، والمعتزلة . . . ونشر في المجلة الشرقية الألمانية: الكتابة في الجاهلية، وأمثال العرب، والصحيفة الكاملة المنسوبة إلى زين العابدين، والشيعة، وكتاب الملل والنحلل، كما نشر في الإسلام: إخوان الصفا وفخر الدين الرازي، ورسالة الحسين منصور الحلاج، والبخاري، والمعتزلة، والمترادفات العربية، ونشر في مجلات أخرى عددا من المقالات عن الإسلام، ويلاحظ من أسماء هذه الموضوعات الأسلوب الانتقاء الذي ينبئ عن غرضه في هذه الدراسات، وعلى أية حال فإن مكتبة التي حوت ما يربو على ٤٠ ألف مجلد قد نقلت بعد وفاته إلى الجامعة العبرية في القدس، انظر المستشرقون نجيب العقيقي ٣/ ٤٠ - ٤٢ دار المعارف ط الرابعة، الظاهرة الاستشراقية ١/ ٢٠٧.

ولنأخذ به كمثال طبق هذا المنهج بحذافيره، فقد عده المستشرقون أنه المؤسس الفعلي للدراسات الإسلامية الحديثة في أوروبا، وأنه الأب الروحي لجيل المهتمين بالدراسات الإسلامية[١]، يقول جولد زيهر: «إننا قد تعرفنا إلى الإسلام بمنهجية تختلف عن تلك التي طبقها أسلافنا، وبعبارة أخرى فإننا ندرسه بمنهجية أخرى»[٢] ويقصد "جولد زيهر" بالمنهجية الجديدة المطبقة على الدراسات الإسلامية كما يذكر الدكتور سياسي: تلك المنهجية التي تعتمد على منهج "النقد التاريخي" وعلى منهج مقارنة الأديان[٣].

وسأورد هنا ملامح من تطبيقه هذا المنهج على الدراسات الإسلامية، ومن خلال كتابه "العقيدة والشريعة في الإسلام" فجولد زيهر في كتابه هذا يتناول الإسلام بمنهج النقد التاريخي، وبمنهج المقارنة. ففي المنهج التاريخي نجده يتناول الإسلام بدءا من بدء الوحي، فيزعم أن الوحي ليس إلاّ تأملات شقت طريقها إلى الخارج في شكل أمثال مضروبة للحياة الآخرة.. كانت تفرض على مخيلة النبي ﷺ بقوة تزداد يوما بعد يوم.

وهذه التأملات هي التى كونت الفكرة الأساسية التي بنى عليها تبشيره[٤] إذاً الوحي لمحمد ﷺ ليس إلاّ تخيلات، وتأملات، أما طبيعة ما كان يبشر به على حد زعم "جولد زيهر" فهي «مجموعة موارد استقاها بصراحة من الخارج يقينا، وأقام عليها هذا التبشير»[٥]، ثم يحدد هذا العامل الخارجي بقوله: «لقد أفاد من تاريخ العهد القديم»[٦]، ولكن هل أتى جولد زيهر دليلا واحدا يثبت ما ذهب إليه أم هو مجرد إطلاق الأحكام جزافا، إن كلامه ليس جديدا، وإنما هو ترديد لتلك الافتراءات التي كانت كفار قريش تطلقها في عهد النبي ﷺ ثم استمر جولد زيهر بحديثه عن القرآن فوصفه بأنه أثر من آثار الأدب العالمي[٧]، ثم يتحدث عن الرسالة في العهد المكي، وفي العهد المدني، فيزعم أن

---

(١) انظر: الظاهرة الاستشراقية ١/٢٠٨.

(٢) المصدر السابق ١/٢٠٩.

(٣) المصدر السابق ١/٢٠٩.

(٤) انظر: العقيدة والشريعة في الإسلام جولد زيهر ترجمة د. محمد يوسف موسى، وعلي حسن عبد القادر، وعبد العزيز عبد الحق ص ١٤، الناشر دار الكتب الحديثة بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد.

(٥) المصدر السابق ص ١٥.

(٦) المصدر السابق ص ١٥.

(٧) المصدر السابق ص ١٦

محمدا في العهد المكي لم يكن يشبر إلى دين جديد، وإنما كان يطلب من المسلمين أن يكونوا من المتقين، لكن هذه التقوى كانت تبدو في شكل شعائر عملية زهدية، كما كان الحال لدى اليهود، ولدى المسيحيين(١).

انظر كيف ينتهز الفرص ليكون كذبا لا أساس له؛ وليلقي الحقائق. إن المعروف في التاريخ الإسلامي أن النبي ﷺ ظل في مكة مدة طويلة، وفيها نزلت عليه الآيات التي قررت أصول عقيدة الإسلام. ثم ينتقل إلى الحديث عن العهد المدني، فيزعم أن العصر المدني قد أدخل تعديلا جوهريا حتى في الفكرة التي كونها محمد عن طابعه الخاص، ففي مكة كان يشعر أنه نبي يتمم برسالته سلسلة رسل التوراة...(٢)، أما في المدينة فقد تغيرت الظروف الخارجية، فتغيرت مقاصده وخططه، واتجهت اتجاها آخر كذلك، بحكم تلك الظروف الخارجية(٣)، ولخص مظاهر هذا التغير: بالدعوة إلى إصلاح دين إبراهيم - عليه السلام -(٤).

والجدل ضد اليهود والمسيحيين، والهجوم على الرهبان، والأحبار... والذين كانوا في الواقع أساتذة له(٥)!!، واستخدام السيف ضد الخصوم(٦)، وأخيرا تغيير أسلوب القرآن البلاغي(٧)، ويقول: «وفي هذا العهد وضعت المذاهب، والقواعد الوضعية الواقعية، فكانت ذات طابع انتخابي»(٨) ويفسر هذه القواعد الأركان الإسلام التي أعاد أغلبها إلى المصادر الخارجية فهو يقول: عن الصلاة أنها بصورتها الأولى من قيام وقراءة، وبما فيها من ركوع وسجود، وبما يسبقها من وضوء، تتصل بالمسيحية الشرقية، والصوم كان محاكاة للصوم اليهودي ثم نقل إلى شهر رمضان، أما الحج فهو كما يدعي احتفظ به محمد عن الوثنية، لكنه جعله متفقاً والتوحيد، وعدل معناه مسترشدا في ذلك ببعض

(١) المصدر السابق ص ١٧.
(٢) المصدر السابق ص ١٨ - ١٩.
(٣) المصدر السابق ص ١٩.
(٤) المصدر السابق ص ١٩.
(٥) المصدر السابق ص ٢٠.
(٦) المصدر السابق ص ٢١.
(٧) المصدر السابق ص ٢٢.
(٨) المصدر السابق ص٢٢.

الأساطير الإبراهيمية[١] .

وهكذا صور "جولد زيهر" الإسلام في عهديه المكي والمدني ، وهكذا طوع التاريخ الإسلامي ليتفق مع أحكامه وأفكاره المسبقة التي تسلح بها قبل دراسته "فجولد زيهر" متأثر بمنهج الأثر والتاثر ، ذلك المنهج الذي طبقوه على دراساتهم في الكتب المقدسة عندهم ، ذلك المنهج الذي يتفق مع دراستها ، إذ أنها مزيج من الوثنيات .

إن " جولد زيهر " يأتي هنا ؛ ليستخدم منهج الإسقاطي ؛ وليزعم أن أي نظام مهما كان نوعه ولونه يتأثر بنوعين من التأثيرات التي تحدد الاتجاه الذي يسير فيه ، وهذه التأثيرات داخلية وخارجية ، وبما أنه لا يستطيع أن يبرهن حيقيقة أن الإسلام تأثر فعلا بالعوامل الخارجية . أتى بتلك الأكاذيب المغطاة بغطاء التاريخ ، ومراحل التدرج التشريع الإسلامي . إن أي أحد له إلمام بأصول الإسلام وبتاريخه مسلما كان أم يهوديا أم نصرانيا ليدرك كذب جولد زيهر ، إن الغرض الذي ألجأه إلى دراسة ا لإسلام ، ليس الوصول إلى الحقيقة ، وإنما ليقرر أن محمدا ﷺ مصلح وليس بنبي[٢] ، وأن الإسلام مزيج مقتبس من اليهودية ، والنصرانية والوثنيات[٣] ، وأن القرآن «مجموعة مزيج من الطوابع المختلفة اختلافا جوهريا والتي طبعت كلا العصرين الأولين من عهد طفولة الإسلام»[٤] وأنه لم يحكم - أي القرآن - الإسلام إلاّ في خلال العشرين سنة الأولى من نموه»[٥] ، وإن كان محل الاحترام في جميع العصور[٦] . ثم واصل افتراءاته في العصور التي بعد النبي ، وماذا تظن أن يقول ، إذا كان قد وصل بافتراءاته على الإسلام في عهد النبي ﷺ هذا الحد الذي رأيت ، إنه يبدأ بقوله: «وسندرس عن كثب ، في الأقسام المقبلة ، أطوار نموه - أي الإسلام - التي تجاوزت حدود القرآن»[٧] . إن هذه الجملة لكافية في تصور منهج هذا المفتري ، فهو سيدرس إسلاما بلا قرآن ، إسلاما جاوز حدود القرآن ، أما السنة فقد

---

(١) المصدر السابق ص٢٢ .
(٢) المصدر السابق ص ١٣ .
(٣) المصد السابق ص ٢٦ .
(٤) المصدر السابق ص ٢٢ .
(٥) المصدر السابق ص ٤١ .
(٦) المصدر السابق ص٤١ .
(٧) المصدر السابق ص ٤١ .

وضع - على حد زعمه - نتيجة للتطور الديني، والسياسي، والاجتماعي للإسلام، في القرنين الأول والثاني[١].

وقد رد هذه الافتراءات الدكتور مصطفي السباعي - رحمه الله تعالى - في كتابه القيم "السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي" والملاحظ أن المفتري قد وجد للدعاية الباطلة مجالا خصبا بعد ظهور البدع في الأمة الإسلامية، مما يمكنه أن يصور الإسلام بأي صورة يريدها، فتارة يصور صورة إسلام اعتزالي، وتارة إسلام شيعي، وأخرى صورة إسلام صوفي.

وإذا كان العدل والإنصاف يقتضي التفريق بين حقيقة الدين الذي يدرس حقيقته حين جاء به نبيه أو مؤسسه وبين ما ألصق به، إذا كان هذا هو العدل، وهو ما حرص عليه علماء المسلمين في دراسة الإسلام، فهل ننتظر أحدا من المستشرقين أن يفعل ذلك عند دراسته للإسلام؟، إن الجواب عن هذا السؤال في كتاب الله، فكتاب الله قد وضح لنا منهج هؤلاء في تعاملهم مع الإسلام، كما بين لنا منهجنا الذي ينبغي أن نسلكه في تعاملهم.

فالقرآن يبين لنا أن هذا النهج الذي سلكه "جولد زيهر" نهج الكافرين في تاريخ الرسالات. قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[٣] وبين لنا القرآن أن نهج أهل الكتاب في التعامل مع الكتب التحريف، ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾[٥]، والتلبيس، والكتمان، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ

(١) انظر: السنة ومكانتها. ص ١٩٥.
(٢) سورة الذاريات الآية ٥٢ - ٥٣.
(٣) سورة البقرة الآية ١١٨.
(٤) سورة البقرة الآية ٧٥.
(٥) سورة المائدة الآية ٥.

بالْـباطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(١) ، والتشكيك ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾(٢) .

إنـي أعـلم أن "جولـد زيهر" وأمثاله يعلمون حقيقة الإسلام ولكن الحقد والحسد هو الذي أعماه ، وحمله إلى هذا الافتراء ، والكذب ، والتشكيك ، والتلبيس .

ومهمـا يكـن مـن أمـر فـإن الاستشـراق قد مثل في العصر الحديث رأس الحربة التي استخدمها الأعـداء ضـد الإسـلام . ولا تخفـى آثـاره الخبيـثة في الأمـة الإسـلامية عـن أحـد؟؟؟(٣) والمؤسـف لـه أن نجـد في المسلمين من يمجد مناهج المستشرقين ، ويدعي أن منهجهم هـو المنهج العـلمي الصـحيح ، ومـن المؤسـف أن يمـلأ إنتاج هؤلاء المتعصبين السـاحة الإسـلامية ، وأن يكـون مـنهجهم معيارا للتقويم ، وللنقد في كثير من المؤسسات العلمـية في العـالم الإسـلامي ، وأن يكـون "علم الملل" الذي وظيفته مواجهة تحدي هؤلاء محاكما في بعض دور العلم على منهج هؤلاء .

والمقصـود هـنا مـن بـيان مـنهج المستشـرقين هـو أن هـؤلاء المستشـرقين أخطر على الإسـلام مـن أي قـوة أخـرى ، وأنـهم دخلوا في هذا المجال وهم ليسوا أهلا لـه ؛ لأنـهم مجردون عن الموضوعية ، والأمانة العلمية ، ناهيك بما يضمرون ، أو يعلنون ، للإسلام من حقد ، وكيد نابع عن عداء عقدي قديم قدم هذا الدين ، ومع ذلك - وللأسف الشديد - لـن نعـدم مـن بـين المسـلمين مـن يمجد بهذا المنهج ، ويجمع لـه ألوانا من المدح والثناء ، ويجعلـه معـيارا وميزانا للبحوث العلمية ، حتى العلوم الشرعية كعلم الملل الذي وظيفته الدفاع عن الدين ، يقول عمر عبيدة مبينا التبعية

والتقلـيد للمـنهج الغـربي: «لقـد نجحـت العقلـية الأوروبـية بدايـة في السيطرة على مصـادر الـتراث العـربي الإسـلامي ، وعـن طـريق الاستشـراق والمستشـرقين بادرت إلى التحقـيق ، والتمحيص ، والنشر لمجموعة من أكبر وأهم المصادر التراثية ، وعلى الرغم من أن بعـض الدراسـات كانـت تقـرب مـن صـفة الـنزاهة والحياد ، إلاّ أنها في النهاية وبكل

---

(١) سورة آل عمران الآية ٧١ .
(٢) سورة النحل الآية ١٠١- ١٠٢ .
(٣) ؟؟؟

المقاييس تبقى مظهرا من مظاهر الاحتواء الثقافي .

ولقد نجحت العقلية الأوروبية . . . في فرض شكلية معينة من التحقيق ، والتقويم ، والنقد ، وأوجدت القدوة ، والأنموذج . . .»[١] إن الخروج عن تبعية وتقليد الأعداء ليفرض علينا أن نعود إلى أصالتنا ، وذلك بالعودة إلى الإسلام ، والتحرر عن المناهج الوافدة . وإذا كان من أخطر المناهج الوافدة علينا منهج دراسة الأديان ، أو تاريخ الأديان ، أو مقارنة الأديان حسب ما يسمونه في الغرب لكونه يهتم دراسة هذا الدين عقيدة ، وشريعة ، وسياسة وغيرها ، فإن ذلك ليضع علم الملل ، وتصحيح نهجه في بداية سلم منظومتنا الإسلامية ، ولن يتم هذا التصحيح إلاّ بالعودة إلى الضوابط الشرعية التي رأينا ، وبالتحرر عن مناهج الغرب جملة وتفصيلا ، ولن يكون التحرر كاملا إلاّ إذا جاء بديل في هذا المجال من موسوعات علمية ، ودوائر معارف ، تغني الباحثين عن المصادر الغربية .

* * * * *

(١) انظر: الاستشراق والخلفية الفكرية: ص ٩ .

الفصل الثالث

فكرة التقريب بين الأديان وصلتها بعلم الملل

المبحث الأول: الجذور القديمة لفكرة التقريب بين الأديان

توطئة:

فكـرة التقريـب بـين الأديـان مـن الأفكـار الخطيرة التي تستهدف الإسلام في مبادئه وقواعـده الثابـتة في هـذا العصر ، وتأتي الدعوة إلى هذه الفكرة الخبيثة تحت أسماء براقة ، ومصطلحات مضللة ، مثل: زمالة الأديان ، وحدة الأديان ، والدين الإبراهيمي ، والإخاء الديـني ، والـتعايش بين أتباع الأديان ، وغير ذلك من الأسماء التي لا يفطن لمضمونها إلاّ الحذاق ، ومن لـه خبرة ودراية لأساليب الأبالسة .

هـذه الأسمـاء كـلها مسـميات لحقـيقة واحدة ، وترمي إلى هدف واحد هو تقويض الإسـلام وتمـيـيع مـبادئه ، وإزالـة الفـوارق بينه وبين غيره من الملل الباطلة ، وهذه الفكرة رغـم أنها تبدو ظاهرة جديدة جاءت نتيجة للحوارات ، والمؤتمرات المشتركة بين المسلمين والنصـارى في العصـر الحديـث ، إلاّ أننا نجد أنها فكرة قديمة كانت تمثل أحد مواقف أهل الـباطل في محاولاتهم صد الناس عن الحق ، ووضع حد لانتشار الإسلام ؛ لذلك سأتناول في هـذا الفصل الجذور القديمة لهذه الفكرة ، ثم واقعها ، ومراحلها في العصر الحديث ، ثم نقدها .

المطلب الأول: التقريب بين الأديان في عهد النبي ﷺ

بـدأت الدعـوة إلى التقريـب بـين الأديـان في حياة النبي ﷺ وفي العهد المكي ، وذلك عـندما رأى المشركون صلابة النبي ﷺ وقوة إيمانه واستعلائه بالحق ، وعزمه على المضي في طريقه ، رغم ما لحق به منهم من أذى ، ومن إغراء ، فكروا في حيلة ماكرة ؛ فعرضوا عليه ما

رأوا أنـه حـل وسط بينهما ، وهو أن يعبد أوثانهم سنة ، وأن يعبدوا إلهه سنة ؛ فأنزل الله سـورة "الكافرون" ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ *

وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[1] .

قال الواحدي: نزلت سورة "الكافرون" في رهط من قريش قالوا: يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك، تعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة فإن كان الذي جئت به خيرا مما بأيدينا قد شاركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيرا مما في يدك قد شاركتنا في أمرنا وأخذت بحظك فقال: معاذ الله أن أشرك به غيره، فأنزل الله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾، فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه، الملأ من قريش، فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة فيئسوا منه عند ذلك[2] وهكذا رفض النبي ﷺ هذه المحاولة اليائسة رغم ظروفه الصعبة، ورغم ما كان يعانيه المسلمون من المشركين من اضطهاد في هذا الزمن . إن استعاذة النبي ﷺ من ذلك وتسميته له شركا وإسراعه بإعلان البراءة منه أمام الملأ ليدل على خطورة هذا الأمر .

قال ترجمان القرآن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - في شأن سورة "الكافرون" «ليس في القرآن أشد غيظا لإبليس منها، لأنها توحيد وبراءة من الشرك»[3] قال ابن القيم - رحمه الله -: «إن هذه السورة، سورة الكافرون تشتمل على النفي المحض وهذه خاصية هذه السورة، فإنها سورة براءة من الشرك كما جاء في وصفها، ومقصودها الأعظم، البراءة المطلوبة، بين الموحدين والمشركين، ولهذا أتى بالنفي في الجانبين تحقيقاً للبراءة المطلوبة، مع تضمنها للإثبات بأن له معبودا يعبده وانتم بريئون من عبادته، هذا يطابق قول: إمام الحنفاء ﴿ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾[4] فانتظمت حقيقة لا إله إلاّ الله .

ولهذا كان النبي ﷺ يقرنها بسورة الإخلاص في سنة الفجر وسنة المغرب وحين أخبر الله أن لهم دينهم وله دينه، هل هو إقرار فيكون منسوخا أو مخصوصا؟ أو لا نسخ في الآية ولا تخصيص؟ هذه مسألة شريفة من أهم المسائل، وقد غلط في السورة خلائق، وظنوا أنها منسوخة بأية السيف لاعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم!

---

(١) سورة الكافرون الأية: ١ - ٦

(٢) أسباب النزول للواحدي ص٥٤٣، سيرة ابن هشام ٢/ ١٠

(٣) انظر: تفسير القرطبي: ٢٠/ ٢٢٥ .

(٤) سورة الزخرف الآية: ٢٦، ٢٧ .

وظن آخرون: أنها مخصوصة بمن يقرون على دينهم وهم أهل الكتاب، وكلا القولين غلط محض، فلا نسخ في السورة ولا تخصيص، بل هي محكمة وهي من السور التي يستحيل دخول النسخ في مضمونها، فإن أحكام التوحيد التي اتفقت عليه دعوة الرسل يستحيل دخول النسخ فيه.

وهذه السورة أخلصت التوحيد، ولهذا تسمى أيضاً سورة الإخلاص ومنشأ الغلط، ظنهم أن الآية اقتضت إقرارهم على دينهم، ثم رأوا أن هذا الإقرار زال بالسيف فقالوا منسوخة. وقال طائفة: زال عن بعض الكفار، وهم من لا كتاب لهم فقالوا هذا مخصوص، ومعاذ الله أن تكون الآية اقتضت تقريرا لهم أو إقرارا على دينهم أبداً، بل لم يزل رسول الله ﷺ في أول الأمر وأشده عليه، وعلى أصحابه أشد على الإنكار عليهم، وعيب دينهم وتقبيحه، والنهي عنه، والتهديد والتوعيد في كلّ وقت وفي كلّ ناد، فكيف يقال إن الآية اقتضت تقريرا لهم؟

معاذ الله من هذا الزعم الباطل. وإنما الآية اقتضت البراءة المحضة كما تقدم، وأن ما أنتم عليه من الذين لا نواقكم عليه أبدا، فإنه دين باطل فهو مختص بكم لا نشرككم فيه ولا أنتم تشركوننا في ديننا الحق. فهذه غاية البراءة والتنصل من موافقتهم في دينهم، فأين الإقرار حتى يدعى النسخ أو التخصيص. أفترى إذا جوهدوا بالسيف كما جوهدوا بالحجة لايصح أن يقال: لكم دينكم ولي دين؟ بل هذه الآية قائمة محكمة ثابتة بين المؤمنين والكافرين إلى أن يظهرالله منهم عبادة وبلاده[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - قوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ اللام في اللغة العربية يدل على الاختصاص فأنتم مختصون بدينكم لا أشرككم فيه، وأنا مختص بديني لاتشركوني فيه كما قال تعالى: ﴿ لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[٢] وليس في هذه الآية أنه رضي بدين المشركين، ولا أهل الكتاب كما يظنه الملحدون، ولا أنه نهى عن جهادهم كما ظن بعض الغالطين،

---

(١) انظر: بدائع الفوئد لابن القيم ١/ ١٣٨ - ١٤١ بتصرف، وانظر: الولاء والبراء في الإسلام محمد بن سعيد القحطاني ص ١٨٠ - ١٨٢.

(٢) سورة يونس الآية: ٤١.

وجعلوها منسوخة بل فيها براءة من دينهم وبراءتهم من دينه . . .»[١] . وفي القرآن آيات كثيرة تؤيد هذا المبدأ - مبدأ البراءة من الأديان الأخرى - من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[٢]

وبذلك حدد الإسلام الحدود بين الإسلام وغيره من الأديان من صدر الإسلام وعن أول محاولة من المشركين للخلط بين الحق و الباطل .

ثم لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة واجه من أعدائه الجدد - أهل الكتاب - لاسيما اليهود صورا من العناد والاستكبار عن الحق والكيد ، واستخدموا بأخبث الوسائل وأمكرها ، من ذلك أن بعضهم كان يتظاهر بالإيمان كما أخبر الله عنهم في قوله: ﴿ وَإِذَا جَآؤُوكُمْ قَالُوَاْ آمَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴾[٣] .

فهؤلاء منافقون يصانعون المؤمنين في الظاهر ، وقلوبهم منطوية على الكفر[٤] وقد كشف الله قصدهم وهدفهم الحقيقي في إظهارهم الإيمان في قوله: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[٥]

قال ابن كثير - رحمه الله - عند تفسيره لهاتين الآيتين: «هذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم ، وهذا أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ، ويصلوا مع المسلمين ؛ صلاة الصبح ، فإذا جاء النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس إنما ردهم إلى دينهم إطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين ولهذا

---

(١) انظر: الجواب الصحيح ٢/ ٣٠

(٢) سورة يونس الآية: ١٠٤ - ١٠٥ .

(٣) سورة المائدة الآية: ٦١ .

(٤) انظر: تفسير ابن الكثير ٢/ ٧٠ .

(٥) سورة آل عمران الآية: ٧٢ ، ٧٣ .

قالوا: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في قولـه تعالى إخبارا عن اليهود بهـذه الآيـة ؛ يعني يهودا صلت مع النبي - صى الله عليه وسلم - صلاة الصبح ، وكفروا آخر النهار مكرا منهم ؛ ليروا الناس أنه قد بدت لهم الضلالة منه ، بعد أن كانوا اتبعوه .

وقـال العـوفي عن ابن عباس: قالت طائفة من أهل الكتاب: إذا لقيتم أصحاب محمد أول الـنهار فآمـنوا ، وإذا كان آخره فصلوا صلاتكم لعلهم يقولون: هؤلاء أهل الكتاب ، وهـم أعـلم مـنا ، وروي عـن غيرهمـا ذلك . وقولـه " ولا تؤمنوا إالا لمن تبع دينكم " بين أنهـم أوصـوا بينهم بألا يطمئنوا ، أو يظهروا سرهم ، وما عندهم إلاّ لمن تبع دينهم ، وألا يظهروا ما بأيدهم إلى المسلمين ؛ فيؤمنوا به ، ويحتجوا به عليهم»[١] .

وعـندما نـزل قولــه تعـالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[٢] زعـم أهل الكـتاب أنهـم مسلمون . قال الإمام الطبري عند تفسيره لهذه الآية: «ذكر أن أهل كلّ ملة ادعـو أنهـم هـم المسلمون لما نزلت هذه الآية ، فأمرهم الله بالحج إن كانوا صادقين ؛ لأن مـن سـنة الإسـلام الحـج ، فامتنعوا ؛ فأدحض الله حجتهم ، ثم أورد بإسناده عن عكرمة قـال: قالـت الملل - وفي رواية اليهود - فنحن المسلمون! فأنزل الله عز وجل لنبيه ﷺ أن يحجهم ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾[٣] ، فحج المسلمون ، وقعد الكفار»[٤] .

إن هـذه المواقـف تعـبر عن الأساليب الماكرة التي اتخذها أهل الكتاب ضد الإسلام ، ولكـن الله - سبحانه - كـان يكشـف للمسـلمين دسائسـهم اللئيمة ، وهو العليم بذات الصـدور ، وهو أعلم بما يكتمون في قلوبهم من كيد ، وحقد وحسد ومكر وخداع . وكان القـرآن يتـنزل عـلى رسول الله محذرا للمؤمنين ، ومبينا لهم حيقيقة أهل الكتاب ، قال الله تعـالى: ﴿ وَلَـن تَرْضَـى عَـنكَ الْـيَهُودُ وَلاَ النَّصَـارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُـدَى ﴾[٥] ، فهذه الآية إخبار من الله لرسوله ﷺ أنه لا يرضى منه اليهود ولا النصارى

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٣٢٨ بتصرف بسيط .

(٢) سورة آل عمران الآية: ٨٥ .

(٣) سورة آل عمران الآية: ٩٧ .

(٤) انظر: تفسير الطبري ٣/ ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

(٥) سورة البقرة الآية: ١٢٠ .

إلاباتباعه دينهم ؛ لأنهم دعاة إلى الدين الذي هم عليه ، ويزعمو أنه هو الهدى[(١)] - ولكن - " هدى الله هو الهدى " وما عندهم ليس إلاّ أهواء وأباطيل لا يجوز للمسلم أن يتبعه . قال تعالى: ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾[(٢)] ففي هذه الآية النهي العظيم عن اتباع اليهود والنصارى ، والتشبه بهم فيما يختص به دينهم ، والخطاب - وإن كان لرسول الله ﷺ فإن أمته داخلة في ذلك ؛ لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب ، كما أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[(٣)] .

إن هذه الآيات وغيرها قد بينت للمسلمين حقيقة أهل الكتاب ، وعلى هذا الأساس تربى الجيل الأول ، فلم يكن يعرف إلاّ سبلين: سبل المؤمنين ، وسبل الكافرين من أهل الكتاب وغيرهم ، ولم يكن يخطر في قلوب المسلمين إمكان التقاء هذين السبيلين ، وعلى هذا النهج سار السلف الصالح ، واجتمعت كلمة الأمة على أن أهل الكتاب - فضلا عن غيرهم - كفار مخلدون في النار . ولم يعرف مخالف لهذا الإجماع إلاّ بعد ظهور البدع ، وتفرق كلمة الأمة ، حيث ظهر من بين المسلمين أناس يزعمون أنهم مسلمون ، والإسلام منهم براء ، زعموا بصحة الأديان الأخرى ، وبنجاة غير المسلمين ، كغلاة الصوفية والباطنية .

المطلب الثاني: غلاة الصوفية ووحدة الأديان

فغلاة الصوفية القائلين بنظرية وحدة الوجود يرون أن الاختلاف في العقائد الدينية لا يعدو كونه اختلافا في وجهات نظر تهدف إلى حقيقة واحدة ، وهي حب الله الذي يجب اتخاذه مذهبا ، وبه تتوحد المعتقدات ، ولا يعود هناك من فرق بين عقيدة وأخرى[(٤)] . قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «وهؤلاء المتفلسفة ومتصوفوهم كابن سبعين وأتباعه يجوزون أن يكون الرجل ، يهوديا ، أو نصرانيا ، أو مشركا يعبد الأوثان ، فليس الإسلام عندهم واجبا ، ولاالتهود والتنصر والشرك محرما ، لكن قد يرجحون شريعة الإسلام على

---

(١) انظر: تفسير ابن سعدي ١/ ١٣٣ .
(٢) سورةالبقرة الآية: ١٢٠ .
(٣) تفسير ابن سعدي ١/ ١٣٣ ، ١٣٤ .
(٤) انظر: سلسلة أعلام التصوف ابن عربي لسميح عاطف ص ١٠٠ .

غيرها، وإذا جاء المريد إلى شيخ من شيوخهم، وقال: أريد أن أسلك على يديك، يقول له: على دين المسلمين، أو اليهود، أو النصارى؟، فإذا قال له المريد: اليهود والنصارى أماهم كفار؟ يقول: لا، ولكن المسلمون خير منهم»[1].

ويقول الدكتور عبد الرحمن بدوي: «يمتاز التصوف الإسلامي بنزعة إنسانية عالمية منفتحة على سائر الأديان والأجناس، وإذا كان الإسلام في جوهره دينا متفتحا على كلّ الأجناس، لا فرق عنده بين مسلم ومسلم يختلفان جنسا أولغة أومكانا أو زمانا، فإن الصوفية المسلمين قد وسعوا في الآفاق التي يستشرف إليها الإسلام، فامتدوا بها إلى الأديان الأخرى»[2]، وأورد البدوي أقوال أقطاب وحدة الوجود كأبي يزيد البسطامي، ومحيي الدين ابن عربي، وجلال الدين الرومي، وابن الفارض، ثم علق كلامهم بقوله: «وهكذا يحقق الصوفية المسلمون - وإلى أعلى درجة - ذلك المجتمع المفتوح الذي تحدث عنه برجسون في كتابه المشهور "ينبوعا الأخلاق"؛ لأنهم منفتحون على كلّ التجارب الدينية الإنسانية، متعاطفون مع سائر التيارات الروحية، مستشعرون للأخوة الإنسانية الجامعة بين الناس جميعا على اختلاف الأزمنة والأمكنة»[3].

إن إيمان الصوفية - أصحاب وحدة الوجود - بأن الله سبحانه هو عين خلقه تستلزم عندهم الإيمان بوحدة الأديان، سواء منها ما نسجته عناكب الأوهام، وافترته أساطير الخيال، وفارت به الشهوات، أو ما أوحاه الله إلى رسله... فالتوحيد عندهم عين الكفر والشرك، والإسلام على هداه، وقدسه عين الدين المجوسي في ضلاله ورجسه... ولذا يحذر أحد أقطابهم - ابن عربي - أتباعه أن يؤمنوا بدين خاص، ويكفروا بما سواه، فيقول: «فإياك أن تتقيد بعقد مخصوص، وتكفر بما سواه؛ فيفوتك خير كثير، بل يفوتك العلم بالأمر على ما هو عليه، فكن في نفسك هيوليا لصور المنعقدات كلها، فإن الله تعالى أوسع وأعظم من أن يحصر عقد دون عقد، فالكل مصيب، وكل مصيب

(١) الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٢٨٢.
(٢) تاريخ التصوف لعبد الرحمن بدوي ص ٢٧.
(٣) المصدر السابق ص ٣٠.

مأجور، وكل مأجور سعيد، وكل سعيد مرضي عنه»[1].

إن هذه الدعوى الفاسدة تسوي بين من يعبد الله وحده لا شريك له، وبين من يعبد الشيطان، وتجمع بين المؤمن الموحد وبين المشرك والملحد، وإليك أيها القارئ بعض الأبيات التي عبر بها هؤلاء عقيدتهم، فهذا ابن عربي يقول:

لقد صار قلبي قابلا كلّ صورة ::: فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان، وكعبة طائف ::: وألواح توراة، ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أني توجهت ::: ركائبه، فالحب ديني وإيماني[2]

ويقول ابن الفارض:

وما عقد الزنارحكماً سوى يدي ::: فإن حل بالإقرار بي فهي حلت
وإن نار بالتتريل محراب مسجد ::: فما بار بالإنجيل هيكل بيعة
وأسفار توراة الكليم لقومه ::: يناجي الأحبار في كلّ ليلة
وإن خر للأحجار في البد عاكف ::: فلا وجه للإنكار بالعصبية
وما زاغت الأبصار من كلّ ملة ::: وما زاغت الأبصار من كلّ نحلة[3]

وهؤلاء بإعلانهم هذاالكفر الصريح خرجوا من دائرة الإسلام، ولسنا هنا في مقام رد فكرتهم - وحدة الوجود - التي جرتهم إلى القول بوحدة الأديان، وإنما نثبت أن الأمة الإسلامية لم تشهد من قال بوحدة الأديان، أو التقريب بينها إلاّ أمثال هؤلاء المنحرفين، والغريب أن عقيدة هؤلاء شبيهة بأفكار الماسونية التي تدعو إلى الوحدة الإنسانية وترك الاختلاف بسبب الأديان[4].

المطلب الثالث: إخوان الصفا ووحدة الأديان

ومن الطوائف التي ظهرت في العالم الإسلامي في أوائل القرن الرابع الهجري جماعة إخوان الصفا السرية، وهي جماعة باطنية[5]«من الصابئة المتفلسفة

---

(١) هذه هي الصوفية عبد الرحمن الوكيل ص ٩٣ - ٩٤.
(٢) المصدر السابق ص ٩٤.
(٣) المصدر السابق ص ٩٧ - ٩٨، وتاريخ التصوف الإسلامي ص ٣٠.
(٤) انظر: الصوفية نشأتها وتطورها لمحمد عبده وطارق عبد الحليم ص ٦٨.
(٥) انظر: محمد عمارة في ميزان أهل السنة والجماعة، لسليمان بن صالح الخراشي ص ٣٥٨.

المتحنفة جمعوا بزعمهم بين دين الصابئة المبدلين، وبين الحنيفية، وأتوا بكلام المتفلسفة، وبأشياء من الشريعة[١]. قال الدكتور عمر فروخ: «يرى إخوان الصفا أن الإختلاف في الرأي الديني وفي الشرائع والمذاهب أمر طبيعي لتفاوت المقدرة الذين وضعوا تلك الشرائع ولاختلاف الناس الذين وضعت تلك الشرائع لهم ولاختلاف الآراء والمذاهب فوائد، منها أن كلّ صاحب شريعة يغوص بعقله على استنباط الغايات من دينه ومذهبه، ثم يحاول أن يألف البراهين للدفاع عما يعتقد، ولإبطال حجج خصوم دينه، ومذهبه ويحاول أتباع الأديان والمذاهب في أثناء ذلك أن يبعث بعضهم عن عيوب بعض فيتحنبوا مايرونه عيباً، ويتمسكوا بما يرونه فضيلة[٢].

فكأن الأديان آراء اجتهادية قابلة للخطأ والصواب، وإذا صح هذا في الأديان الباطلة فإنه لايصح في دين الله الحق المهيمن على الأديان كلها. ثم يذكر عمر فروخ أنهم يرتاحون إلى تعدد الشرائع والمذاهب؛ لأن وجود شريعة واحدة في البيئة يجعل الأمور ضيقة على الناس في حياتهم الاجتماعية ولقد وقف إخوان الصفا من الأديان والمذاهب موقفا عمليا؛ إنهم لايعادون علما ولا مذهبا وقد أمروا أتباعهم بألا يعادوا علما من العلوم أو يهجروا كتابا من الكتب، وألا يتعصبوا لمذهب على مذهب، إن رأيهم ومذهبهم يستغرقان المذاهب كلها ويجمعان العلوم جميعها، ويرى إخوان الصفا أن الإنسان العاقل حر في أن يعتقد من الآراء والمذاهب مايشاء»[٣]

والمقصود هنا أن دعوة الصوفية، أصحاب وحدة الوجود، وإخوان الصفا إلى هذه الفكرة الفاسدة لم تمثل وجهة نظر لأناس مستقيمين - فضلا - أن تكون رأيا لعلماء معروفين بالعلم، وإنما كانت تمثل أفكاراً لزنادقة وملحدين لم يكن لهم تأثير كبير في ساحة الأمة الإسلامية، ذلك أن المسلمين كانوا على يقين ببطلان جميع الملل غير ملة الإسلام، وكان الجمع بين الحق والباطل أو التقريب

---

(١) الفتاوى ٤/ ٧٩.

(٢) انظر: تاريخ الفكر العربي، لعمر فروخ ص ٣٩٢.

(٣) المصدر السابق ص ٣٩٢.

بينهما من المستحيلات ، وكان الكفار - لاسيما أهل الكتاب - يعرفون هذه الحقيقة ؛ ولذلك لم يكونوا يلجأون إلى تلك الأفكار لاعتقادهم عدم جدواها مع المسلمين ؛ فكان صراعهم مقتصرا إما حروبا علنية في ساحات النزال ، وإما بث أفكار فاسدة لايستطيعون إعلانها على وجه يثير حفيظة المسلمين ، وإنما كانوا يحاولون إلباسها بلبوسات إسلامية .

وخلاصة القول أن المسلمين كانوا يدركون معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾(١) ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾(٢) .

كانت معاني هذه الآيات ماثلة أمام المسلمين ، وعلى ضوء هديها كانوا يعاملون مع أهل الكتاب إلى أن جاء العصر الحديث ، وقد تغيرت فيه الموازين ، وليس إلاّ أن غالب المسلمين تركوا نهج الحق ، واختفت من أعينهم معالم الطريق ؛ فصاروا كحاطب ليل .

* * * * *

(١) سورة البقرة الآية: ١٢٠ .
(٢) سورة البقرة الآية: ١٤٥ .

المبحث الثاني

فكرة التقريب بين الأديان في العصر الحديث

كان الخط صحيحا في العموم في علاقة المسلمين بغيرهم من أهل الملل، ولم يشذ عنه إلاّ من لايعتد بقوله في الإسلام، واستمر هذا الخط ثابتا حتى جاء العصر الحديث، وقبيل سقوط الخلافة الإسلامية، بدأت تظهر في الساحة دعوات مشبوهة تشاركه أطراف كثيرة من الداخل ومن الخارج، فكانت الدعوة إلى القومية، والدعوة إلى الوطنية والدعوة إلى الحرية وإلى الإنسانية أو العالمية. لكن كانت أخطر هذه الدعوات وأخفاها وأشدها مكرا الدعوة إلى التوفيق أو التقريب بين الأديان.

والسؤال المهم هنا ماهي تلك الأطراف المشاركة، وما هي أهداف كلّ طرف منهم، وما مكاسب كلّ طرف أوخسارته؟

المطلب الأول: الأطراف المشاركة لفكرة التقريب بين الأديان ومراحل تطورها

أهم الأطراف المشاركة لما يسمى الحوار من أجل التقريب بين الأديان، والمنظمين للمؤتمرات والندوات المهتمة لهذه الفكرة هم ممثلون لأتباع الأديان الثلاثة الإسلام واليهودية والمسيحية، وقد مرت هذه الفكرة بمراحل عديدة أهمها:

المرحلة الأولى: بداية فكرة التقريب بين الأديان: بدأت هذه الفكرة في غالب صورها بتخطيط من اليهود، وبتنفيذ من النصارى، وبعض المؤسسات، والحركات الفاسدة التي استخدمها اليهود، كالماسونية، والبهائية فالنصارى هم أول من دعا علنا إلى الحوار بين الأديان من أجل التوفيق والتقريب بينها. يقول الدكتور محمد محمد حسين: «أما الدعوة إلى التوفيق بين المسيحية والإسلام فهي دعوة قديمة نرى طلائعها في مذكرات "بلنت"»[(١)] إذ أثبت فيها بتاريخ ٣ أبريل سنة ١٩٠٤م حديثا جرى بينه وبين الشيخ محمد عبده قال فيه: «في أثناء نفي في دمشق سنة ١٨٨٣م، كان أحد القسيس في إنجلترا، واسمه "إسحاق تيلور" يقوم بالدعاية لتوحيد الإسلام والنصرانية على فكرة التوحيد الموجودة في

---

(١) المستر ويلفرد بلنت ولد سنة ١٨٤٠م، وتوفي سنة ١٩٢٢م، عاش في مصر، وكان من المهتمين بقضايا المصرية، انظر: الاتجاهات الوطنية ٢/ ٣٠٤ مكتبة الآداب ط الثانية ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م

الإسلام، والموجودة عند الكنيسة الإنجليكية»[١].

ويروي الطبيب حسين الهراوي نقلا عن الشيخ فتح الله صورة أخري لهذه الدعوة وهي «أن أحد الفرنسيين زار مصر في أوائل هذا القرن، وأخذ يفاوض أعلام الإسلام في فكرة توحيد الأديان، حتي لقي الشيخ حسن الطويل، وكان يتناول طعام الإفطار فولا مدمسا وبصلا وخبزا، وأخذ المبعوث الفرنسي يحدث الشيخ عن فكرته، قائلا:

إن الفروق بين الأديان لاتتجاوز مسائل هينة غير أساسية، وأن الغرض من الأديان كلها هو الدعوة إلى الخير، والنهي عن الشر، فلما فرغ الفرنسي من حديثه، وفرغ الشيخ من طعامه، وكرع من قلة ماء بجواره، لم يزد على أن قال: هل لك يا خواجة في أكلة لذيذة من الفول المدمس؟، فانصرف الداعية الفرنسي خجلا، يجر أذيال الفشل»[٢]. وهذه الدعوة التي أعلنها أفراد من النصارى كانت بإيعاز من اليهود، والدليل على ذلك أمران:

الأول: أن الماسونية - وهي حركة يهودية - كانت تبث هذه الدعوة في الناس، وتجعلها ستارا تختفي وراءه في مناهضتها للأديان غير ديانة اليهود تحت شعارات (الحرية - الإخاء - المساواة . . .)

الثاني: أن قرارات المجمع المسكوني الثاني للفاتيكان كانت لصالح اليهود كما سيأتي بيانه

المرحلة الثانية: مرحلة الضعف: لم تزل هذه الدعوة ضعيفة خافتة الصوت، تثار بين حين وحين، تثيرها الصحف حينا، ويثيرها دعاة الغرب حينا آخر[٣] حتى جاء منتصف القرن التاسع عشر، فبدأت تظهر بشكل قوي، وذلك «حين قام جماعة من المعروفين بميولهم الصهيونية بعقد تؤتمر للتأليف بين الإ سلام والنصرانية في بيروت سنة ١٩٥٣م ثم في الأسكندرية سنة ١٩٥٤م، وبدأ الناس يشكون في أهداف هذه الجماعة وفي مصادر تمويلها، وتنبه بعض العلماء أمثال الحاج أمين الحسين الذي أصدر بيانا أثبت

---

(١) انظر: المصدر السابق ٢ / ٣٠٤، الإسلام والحضارة الغربية لمحمد محمد حسين ص ١٨٢،
(٢) الاتجاهات الوطنية ٢/ ٣٠٥، الإسلام والحضارة الغربية ص ١٨٢، ١٨٣.
(٣) الإتجاهات الوطنية ٢/ ٣٠٥.

فيه صلة القائمين على هذه الدعوة بالصهيونية العالمية»[(١)]

المرحلة الثالثة: بعد مجمع المسكوني الثاني وقرار الانفتاح بالأديان الأخرى: بعد انعقاد مجمع الفاتيكان الثاني الذي عقد في روما بين عامي ١٩٦٢م و ١٩٦٥م وصدور قرارات جديدة في علاقة الديانة المسيحية مع الأديان الأخرى بدأت دعوة التقريب بين الأديان تظهر بصورة أشد وأوسع، وذلك أن هذا المجمع كان بداية تحول عجيب في موقف النصارى من الأديان غير النصرانية، ذلك أن هذا المجمع الذي يعتبر آخر المجامع المسكونية المقدسة عند الكنائس الكاثوليكية، لم يكن هدفه أن تدافع الكنيسة عن نفسها ضد ما يسمونه الهرطقات والإنقسامات كما كانت عادة المجامع السابقة، وإنما كان هدفه كما تقول: "ما ري جيلامور" مجمع كنيسة تطرح ذاتها للمناقشة أمام التغيرات التي طرأت على العالم الحديث، ولذلك كانت الموضوعات التي نوقشت في هذا المجمع قضايا كثيرة مثل: مصادر الوحي، وسائل الإتصالات الاجتماعي، وحدة الكنيسة، إصلاح الطقوس والكهنوت، الحركة المسكونية، الحرية الدينية، الأديان غير المسيحية، الكنيسة في مواجهة العالم الحديث[(٢)] وأكثر هذه القضايا جديدة ومعاصرة، وقد حاولت الكنيسة استيعابها بأساليب مختلفة عن أساليبها السابقة.

وكان من أهم نتائج التي اتخذ في هذا المجمع تكوين لجنة من يهود وبروتستانت وكاثوليك لإعادة ترجمة الكتاب المقدس. كما تجاوبت الكنيسة مع الدراسات النقدية لتاريخ نصوص الكتاب المقدس.

ومن خلال إعادة تفسير النصوص وتحت الاختراق اليهود للكنائس الغربية... سواء المباشرة من خلال الكرادلة الأمريكيين على وجه الخصوص أو غير المباشرة من خلال الفهم الإنجيلي البروتستاني الألفي لضرورة قيام دولة اليهود الثانية في فلسطين لأجل عودة المسيح، أصدر المجمع وثيقة تبرءة اليهود من دم المسيح - عليه السلام -[(٣)]

وكما ترى يكون اليهود قد كسبوا هدفاً من أهدافهم، ومن النقاط الهامة التي يلاحظ

---

(١) انظر: الإسلام والحضارة الغربية ص ١٨٢.

(٢) انظر: مفاهيم معاصرة في ضوء الإسلام د. محمد هلال ص ٧٤ دار البشير ط، الأولى ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

(٣) المصدر السابق ص ٧٥، ٧٦.

من ذلك المجمع ، والتي ينبغي أن ينتبه له المسلم عند محاورته للنصارى في أي وقت ومن أي فرقة من فرق النصارى ما يلي:

١ - أن الكنيسة تمنح نفسها حق التشريع وحق التغيير والتبديل لنصوص الأناجيل ، وفي هذا المجمع بدلت بعض نصوص الأناجيل المعتمدة أوعلى الأقل أولت إلى معان تخالف مخالفة صريحة للمكتوب من ذلك «تناسي حكم المسيح الذي لعن اليهود في أربعة عشر موضعا . . . وتعديل قرارات مجامع مسكونية سابقة بشأن اليهود ، وقد قبل المجمع استمرارية عهدالله وميثاقه مع اليهود جيلا بعد جيل ، المفهوم من العهد القديم ، ونفى استمرار لعنهم بسبب جريمتهم في حق المسيح - محاولة قتله و عندنا - جيلا بعد جيل المفهوم من العهد الجديد ، بل وحتى من العهد القديم القائل في سفر الخروج: «أنا الرب إلهك إله غيور افتقد ذنوب الآباء في الأبناء»[1] .

٢ - أن الوثيقة الخاصة بالتسامح وشجب الاضطهاد والدعوة إلى الحوار بين الأديان كانت في أصلها كما قدمها الكاردينال (بيا) خاصة عمليا بالشعب اليهودي وعدلت فيما بعد بناء على طلب كرادلة الشرق .

والصيغة النهائية في الوثيقة شجبت في الأصل اضطهاد اليهود ، ودعت إلى الحوار الأخوى معهم وكأنما هو الأصل . . . والأغرب من ذلك أن الوثيقة الأصلية والخاصة باليهود كما ذكر ، وردت ضمن المشروع الخاص بوحدة الكنيسة ، مع أن اليهود ليسوا طائفة مسيحية ، مما يدل على أن الدافع من وراء إصدار الوثيقة ، لم يكن رغبة الكنيسة في نشر روح المحبة ، وإنما كان

رغبتها في محو ما أشيع من ارتباطها باضطهاد اليهود ، خصوصا في عهد النازية[2] .

إن هذا التحول الكبير في موقف الكنيسة نحو اليهود يدل على أن لليهود دورا كبيرا ، ويدا طولى ، في مثل هذه المؤتمرات . واليهود مازالوا يتمتعون بتأييد النصارى المطلق حتى الساعة وفي ظل النظام العالمي الجديد ، والذي يتابع اليوم ما يسمى بمؤتمرات السلام بين اليهود والعرب - بين اليهود والمسلمين - يجد أن حرص النصارى على إنجاح هذه

---

(١) المصدر السابق ص ٧٦ ، ٧٧ نقلا من كتاب (النبوءة والسياسة) لغريس هالسل .

(٢) المصدر السابق ص ٧٦ - ٧٧ .

المؤتمرات فاق حرص أي طرف آخر وما ذلك إلاّ أن العالم الغربي النصراني صار مسخرا لليهود منذ ذلك المجمع .

وإذا رجعنا إلى وثائق المجمع المسكوني الثاني فإننا نجد فيها أنه خصص للإسلام جزءا وقد قابله بعض الناس بالترحيب ، ورأى أن في هذا محمده للإسلام وأهله ، لأنه اعتراف من النصارى أتباع إحدى الديانات الكبرى ، ولكن إذا أتينا إلى ذلك الجزء نجده يحمل استعلاء النصرانية على الإسلام فالكنيسة هي التي تنظر بعين الاعتبار إلى المسلمين وبذلك جعلت نفسها الحاكمة على الإسلام ، والإسلام كما أراد الله له هو الدين المهيمن على جميع الأديان فمن العبارات التي جاءت في وثيقة المجمع:

«إن الكنيسة تنظر أيضا بعين الاعتبار إلى المسلمين الذين يعبدون الله الأحد ، الحي القيوم ، الرحمن القدير ، فاطر السماوات والأرض ، والذي خاطب البشر ، والذين يجتهدون في أن يخضعوا من صميم الفؤاد لأحكام الله ، حتى لوكان خفية ، كما خضع له إبراهيم الذي بشر إليه الإيمان الإسلامي بطيب خاطر ، وهم وإن كانو لايعترفون بالمسيح إلها ، إلاّ أنهم يجلونه كنبي ويكرمون والدته العذراء مريم»[(١)] .

ودلالة عبارة وهم وإن كانوا لايعترفون بالمسيح إلها إلاّ أنهم يجلونه كنبي» واضحة في مرادهم وهو أن النصارى الذين يعتبرفون له الألوهية - تعالى الله عما يقول الظالمون - أفضل من المسلمين الذين يكتفون بأجلاله وأضاف تصريح المجمع إلى ذلك قوله: «وإن كانت نشبت منازعات وعداءات غير قليلة بين النصارى والمسلمين على مدى الأجيال ، فإن المجمع المقدس يهيب بالمجمع أن ينسوا الماضي ويعملوا بإخلاص على إحلال التفاهم المتبادل بينهم ، ويتعاونوا على حمايته وتعزيز العدالة الاجتماعية والقيم الأدبية والسلام والحرية للناس أجمع»[(٢)]

ويذكر أنه بعد عامين من هذا المجمع أي سنة ١٩٦٧م أصدرت سكرتارية الفاتيكان لغير المسيحيين كتيبا تعلن فيها أن الفكرة التي كانوا يعلنونها عن الإسلام مشوهة وغير

---

(١) انظر: للقاءات الإسلامية والمسيحية شبهات ومحاذير د . أحمد على المحجوب مقال منشور في مجلة الأمة - القطر ص ٥٦ عدد ٧٠ شوال سنة ١٤٠٦هـ .

(٢) المصدر السابق

صحيحة وأنهم أخذوا في تصحيح كثير من المفهومات عنه في الوقت الحاضر[١] .

لكننا إذا رجعنا إلى الواقع فإننا لانجد لهذا التحول أن أثر في علاقة النصارى مع المسلمين وليس هذا إلاّ من باب محاولات الخداع .

يقول الدكتور محمد محمد حسين متعجبا من تناقض هؤلاء النصارى «والعجيب المريب في هذه الدعوة أن الذين ينادون بتألف الإسلام كانوا هم أنفسهم الذين يوجهون إليه المطاعن الظالمة ويذيعون عنه التهم الباغية ، وكانوا أنفسهم الذين يخضون في دماء المسلمين بيد تمتد بالبطش والنهب ، ويد تمتد بالسلام فأي اليدين يصدق المسلمون؟»[٢] .

وعلى أية حال فإن بداية جادة في لقاءات المسلمين مع النصارى كانت بعد هذا المجمع . فقد شكلت سكرتارية المجمع الفاتيكاني لغير النصارى بمساعدة لجنة الحوار مع أتباع العقائد المختلفة لجنة استشارية نصرانية - اسلامية بدأت أول اجتماعاتها في جنيف سنة ١٩٦٩م وضمت عددا من الشخصيات العربية بعضها نصراني وبعضها الآخر مسلم وكان من أهم نتائج هذا اللقاء إصدار توصيات بإلغاء المشكلة الكريهة والشائكة التي تتعلق بانتزاع واستقطاب المؤمنين وقوانين الردة ، والاحترام المتبادل في حرية الاختيار ، والعمل على إجراء حوار مثلث يشمل الجانب اليهودي أيضا[٣] ، ثم تتابعت اللقاءات ، فكان اللقاء الثاني في برناما بلبنان سنة ١٩٧٢م ، والثالث في أكرا في غانا سنة ١٩٧٤م ، وأصدر في هذا اللقاء الدعوة إلى إقامة صلاة مشتركة ، والرابع كان في مدينة قرطبة بإسانيا ، والخامس في تونس في نفس السنة ، وفي سنة ١٩٧٥م عقد اللقاء السادس في مدينة هونج هونج ، وفي فبراير سنة ١٩٧٦م عقد مؤتمر في طرابلس الليبية ، وفي حزيران من نفس السنة عقد في جنيف مؤتمر آخر وفي سنة ١٩٧٧م عقد مؤتمر قرطبةالثاني الذي كان موضوعه "قيمة محمد نبي الإسلام"

وكانت نتيجة المناقشات «اعتبار محمد ﷺ نبيا من الدرجة الثانية ، وليس نبيا رسولا ، مثل إبراهيم ، وموسى - عليهما الصلاة والسلام - . . . ، وفي نفس السنة عقد مؤتمر آخر

(١) انظر: الميزان في مقارنة الأديان لمحمد عزت الطهطاوي ص ٣٢٠ .
(٢) الاتجاهات الوطنية ٢/ ٣٠٥ ، ٣٠٦ .
(٣) انظر: اللقاءات الإسلامية المسيحية شبهات ومحاذير ص ٧٥ .

في بيروت، وفي سنة ١٩٧٨م عقد مؤتمر في مدينة القاهرة، وحضره كبار علماء الأزهر، ثم عقد في تونس ما سمي بالملتقى الإسلامي المسيحي الثاني سنة ١٩٨٠م، وفي سنة ١٩٨١م عقدت المنظمة الدولية للتقدم ندوة في روما أسمتها: "الندوة الإسلامية المسيحية" وتناولت موضوع: "وحدانية الله في الإسلام والمسيحية"[(١)]، وهذا يدل على أن هذه المؤتمرات، والندوات لم تكن مختصرة على مؤسسات تحمل لافتة دينية.

وقد بدأت ثمار هذه اللقاءات، تظهر في السنوات الأخيرة على شكل تأسيس جمعيات، ومراكز مشتركة لتأكيد العلاقة بين أتباع الديانتين، الإسلام والمسيحية، فقد دعا البابا في ٢٧/ ١٠/ ١٩٨٦م، في قرية أسيس[(٢)] إلى صلاة مشتركة، قدم نفسه فيها للعالم بأنه القائد الروحي للأديان جميعا، وأنه حامل لرسالة السلام للبشرية جمعاء، وقد كان له ما أراد، فقد لبى حضورها عدد من المسلمين واليهود، والبوذيين وغيرهم[(٣)]، وبعد تلك الدعوة من البابا استمرت اللقاءات على أكثر من صعيد وجدت في خلال سنة واحدة ما يلي:

أ - **اللقاء الإبراهيمي في قرطبة:** بمناسبة افتتاح "معهد قرطبة لوحدة الأديان في أوروبا"[(٤)] عقد ما سمي ب"مؤتمر الحوار الدولي للوحدة الإبراهيمية" وذلك في ١٢ - ١٥ / ١/ ١٩٨٧م[(٥)]. والمفهوم عن هذا اللقاء حسب إطاره الأصلي بأنه مجرد حوار إسلامي مسيحي[(٦)]، ولكن كان المدعوون إليه من اليهود والنصارى والمسلمين، مما يشكك المسلم في أهداف هذا اللقاء لأول وهلة، ولكن يجزم

---

(١) المصدر السابق ص ٧٥، ٧٦.

(٢) قرية في إيطاليا.

(٣) انظر: مجلة البحوث الإسلامية ص٢١٣.

(٤) هذا المعهد عبارة عن مكان أثري قديم قدمته بلدية قرطبة لجارودي؛ ليكون مقرا لما سماه جارودي في مقابلته بـ "معهد قرطبة لوحدة الأديان في أوروبا" أو "المركز الثقافي الإسلامي"، أو "مركز قرطبة للأبحاث الإسلامية" وذكر جارودي أن المعهد سيكون له "توجهات عالمية لنشر تعاليم ونتاج الثقافات الثلاثة: اليهودية، والنصرانية، والإسلامية، من خلال علاقة الإنسان بالإله، والطبيعة، والفرد" انظر: سلسلة التقارير تصدرها وزارة الأوقاف والشؤونالإسلامية الكويت الرقم المسلسل ٣/ ٨٧ التاريخ ٥/ ٢/ ١٩٨٧م ص ١٥.

(٥) المصدر السابق ص ١٥.

(٦) مجلة البحوث الإسلامية ص ٢١١ العدد ٢٣.

يقينا عندما يقرأ كلام جارودي، وتصريحاته بعد هذا اللقاء، بأن أهدافه كانت مجانبة للصواب، فقد جاء نص منسوب لجارودي في مقابلة صحفية مع مجلة كامبوا "**Comboi** ١٩/ ٢/ ١٩٨٧م"، ص ١٦ وهذا ترجمته: «لقد عرفت الإيمان الإبراهيمي عن طريق "**Kierkegaard**"، واليوم أقوم بهذه المبادرة - الحوار الإبراهيمي - بالاشتراك مع أصدقائي اليهود والكاثوليك، والبروتستانت، فإني أتابع المسيرة بقصد تجميع الإيمان الإبراهيمي، وما أجده اليوم في القرآن من أن إبراهيم هو أب الأنبياء قد وجدته منذ عشرين عاما»[(١)]، والواقع أن جارودي متأثر في فكرته هذه بذلك التيار العام الداعي إلى تقارب الأديان، بل إن فكرته - الدين الإبراهيمي - بالذات دعا قبله إليها مفكرون من اليهود، والنصارى أمثال:

١ - لويس سينيون الذي دعا إلى ربط الأديان التوحيدية الثلاثة بنفس الشبكة، وذلك من خلال وصلها بالإيمان الإبراهيمي.

٢ - ميشال حايك في كتبه العديدة، وضمن ثلاثة كتب له نشرت باللغة الفرنسية عام ١٩٦٤م، ١٩٧٢م، ١٩٧٨م.

٣ - مكسيم رودنسون في كتاب "العرب" المنشور في باريس عام ١٩٧٩م الموافق للعام ١٤٠٠هـ[(٢)]، يقول مؤكدا لهذه الفكرة تحت عنوان "الأصل الإسماعيلي": «غالبا ما يجري التشديد في الأوساط المسيحية المناضلة لأجل تقارب "مسكوني" مع الإسلام، ولإصلاح الإساءات التاريخية التي ارتكبتهاالمسيحية تجاه الإسلام، على واقعة أن العرب ينحدرون من إسماعيل بن هاجرة المطرودة من سارة أم إسحاق جد اليهود» ويقول أيضا: «إن نظرية

الإسماعيلية استمرت لدى الإسرائيليين، وجرى تقديسها بأدراجها في كتبهم المقدسة، وصارت لكلمة "إسماعيل" لدى اليهود مرادفة لكلمة عربي، ثم تبنى المسيحيون

---

(١) انظر: سلسلة التقارير الرقم المسلسل ١٤/ ٨٧ التاريخ ١٢/ ٧/ ١٩٨٧، ومجلة البعث الإسلامي عدد ١ مجلد ٣٤ رمضان ١٤٠٩هـ ص ٢٤.

(٢) انظر: مجلة البحوث الإسلامية العدد ص ٢١٢، مجلة البعث الإسلامي العدد ١ رمضان ١٤٠٩هـ، وسلسلة التقارير الرقم المسلسل ١٤/ ٨٧ ص ٩٧.

هـذه الـنظرية ، وهـم ورثـة الكتـب الـيهودية المقدسـة ، فـأسموا العـرب "الهاجرين" أي المـنحدرين مـن هاجـر[١] وبذلـك نـدرك أن هـذه الفكـرة التي تبناها جارودي ليست إلاّ تكمـيلا وتنفـيذا لفكـرة هؤلاء وقد انخدع به بعض المسلمين ، وما دروا أن الرجل حديث عهد بكفر ، ولم يكن قد فقه في الدين .

ب - المؤمنون متحدون "الجماعة العالمية للمؤمنين بالله" .

تأسسـت هـذه الجماعة في ٢١ مارس سنة ١٩٨٧م[٢] ، والقائمون على هذه الجماعة لهـم مـيولات صهيونية ، وهذه الجماعة تخالف الإسلام في مبادئها ، وأنظمتها ، وأهدافها ، كما يبينه التقرير الآتي:

١ - القـائمون علـيه هـم الذيـن عرضـوا عـلى "رابين" وعلى "السادات" إقامة معبد للأديـان في سـيناء ، وهـم الذين يدعون لاجتماع المجمع المسكوني القادم في بيت لحم عام ٢٠٠٠م .

٢ - يعتـبرون "هـنري دومونت **Henri Dumont**» مؤسس الصليب الأحمر ، رمز الإحسـان ، و"دارون" صـاحب نظرية الارتقاء والنشوء ، رمز التطور ، و"كارل ماركس" رمز المسـاواة ، وهـؤلاء كـلهم يهود الانتماء ، ومعلومة أفكارهم ، ومبادؤهم ، فهم يعتبرونهم من رموز الإنسانية .

٣ - يـرون أن كـلّ الأديـان بمسـتوى واحـد ، ويعـدون مـنها اليهودية ، والنصرانية ، والإسلام ، وكذلك البوذية ، والماسونية ، والمؤمنون الأحرار بإله واحد في النصارى .

٤ - يضـعون صـلاة مشـتركة اخترعوهـا مـن عـند أنفسـهم ، يمارسها من ينتمي إلى دعوتهـم ، وأسمـوه "صلاة روح القدس" ، وكذلك نشيدا يردده الجميع أسموه "نشيد الإله الواحد": رب ، وأب .

٥ - اللوائـح الـتي وضـعوها داخلـية ، تسـعى لإذابـة الفـوارق الديـنـية ، ومسـخ الشخصية .

---

(١) سلسلة التقارير ص ٩٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١٠٠ ، وانظر: مجلة البحوث الإسلامية العدد ٢٣ ص ٢١٤ .

٦ - يعتبرون يوم صلاة البابا في أسيس ٢٧ أكتوبر ، عيدا لكل الأديان ، كما يعتبرون يوم أول يناير يوم التآخي .

٧ - شعارهم يتمثل في راية عليها شعار الأمم المتحدة ، وقوس قزح ، وإشارة "V" رمز النصر

وهو اسم أول سفينة اكتشفت القارة الأمريكية ، وحملت رسالة النصرانية إلى تلك البلاد .

٨ - في الفقرة ١١ تذكر الأهداف ، وعلى رأسها وحدة الأديان .

جـ - الناس متحدون ، تكونت في إبريل عام ١٩٨٧م[(١)] .

د - نادي الشباب المتدين:

في صيف عام ١٩٨٧م ، عقد مؤتمر نادي الشباب المتدين في البرتغال بعد أن عدل عن كينيا ، وكان شعار الدعوة إليه " من أجل عالم يسوده السلام ، ومن أجل تآلف الأديان "[(٢)] يضاف إلى ذلك الحوارات الفردية التي جرت بين المسلمين والنصارى ، والتي لا تعد ولا تحصى . إن معرفة الحقيقة لدعوات الحوار من أجل التقريب بين الأديان ، ومعرفة نتائج تلك الحوارات لتوضح لنا حقيقة من يقف وراء تلك الدعوات وأهدافهم الحقيقية .

المطلب الثاني: أهداف التقريب بين الأديان

إن فكرة التقريب بين الأديان ، أو الدعوة إلى وحدة الأديان من الأفكار الخبيثة التي تأتي من أعداء الإسلام - اليهود والنصارى خاصة - ، وهدفهم الحقيقي من ورائها هو فتنة المسلمين عن دينهم ، وهم لا يألون جهدا في تحقيق هذا الهدف الخبيث ، وقد أخبرنا الله - سبحانه - في آيات كثيرة حرص أهل الكتاب على فتنة المسلمين عن دينهم حقدا وحسدا ، قال تعالى: ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ**

---

(١) انظر: سلسلة التقارير الرقم المسلسل ١٥ / ٨٧ التاريخ ٥/ ٨/ ١٩٨٧م ص ١٠٠ - ١٠١ ، وأيضا مجلة البحوث الإسلامية العدد ٢٣ ص ٢١٩ .

(٢) سلسلة التقارير رقم ١٥/ ٨٧ ص ١٠١ .

قَدِيرٌ ﴾[(١)] . وقال تعالى: ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[(٢)] ، وقال تعالى: ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ ﴾[(٣)] وقال تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾[(٤)] .

فهذه الآيات توضح لنا أن كثيرا من أهل الكتاب يحبون ردة المسلمين عن دينهم ، ولتحقيق هذا الهدف فإنهم يسلكون جميع السبل الملتوية من إثارة للشبهات وبث للإشاعات ، والجدال والمراء ؛ لتلبيس الحق بالباطل ، وفتنة المسلمين عن دينهم وهو الهدف الثابت لهم في علاقاتهم مع المسلمين ، بل بين لنا القرآن أنهم لايرضون عنا إلاّ إذا اتبعنا دينهم وتركنا ديننا الحق إن إضلال المسلمين وصدهم عن سبيل الله هو الهدف المشترك الذي يجمع أعداء الإسلام في كلّ زمان ومكان ، ولكن لايمنع ذلك من أن يكونوا مختلفين في الوسائل أو يكون لبعضهم أهداف خاصة بهم ، والمتأمل لسير قضية الحوار بين الأديان يجد أن اليهود هم الطرف الأقوى في الأطراف المشاركة ، وأن هدفهم احتواء جميع الأديان ، فقد اخترقوا الكنائس الغربية واستطاعوا أن يؤثروا في قرارات الكنيسة ، وتفسيرها لنصوص الأناجيل ، وتضاءلت سلطة البابا أمام ضغطهم ففي مارس ١٩٦٥م القى البابا موعظة في كنيسة "سانتا ماريا" في روما جاء فيها:

«إن الاصطدام بين المسيح والشعب اليهودي كان صفحة محزنة . . ذلك أن الشعب الذي لم يكتف بأنه لم يعترف بالمسيح بل حاربه وأهانه ، وفي النهاية قتله»[(٥)] ،«فاحتجت الجالية اليهودية في إيطاليا على هذه الموعظة ، فسارع الفاتيكان إلى التأكيد على أن ما وقع لم يكن سوى زلة اللسان وأن ما قيل قد قيل عرضا»[(٦)]

إن إشتراك مفكرين من اليهود فيما يسمى الدعوة إلى الدين الإبراهيمي ، بل سبقهم إليها قبل غيرهم[(٧)] واشتراكهم في اللقاء الذي دعا إليه البابا سنة ١٩٨٦م وتكوينهم

(١) سورة البقرة الآية: ١٠٩ .

(٢) سورة آل عمران الآية: ٦٩ .

(٣) سورة البقرة الآية: ٢١٧ .

(٤) سورة البقرة الآية: ١٢٠ .

(٥) هذا حسب إعتقاد النصارى أما في العقيدة الإسلامية فإن الله رفعه إليه .

(٦) انظر: المفاهيم المعاصرة في ضوء الإسلام ص ٧٦ .

(٧) انظر: تأصيل اليقظة وترشيد الصحوة أنور الجندي ص ١٧٢ دار الاعتصام - القاهرة ١٩٨٧م .

للحركات المشبوهة التي تدعو إلى وحدة الأديان، للوصول إلى تدميرها ما عدا الدين اليهودي، وحصولهم على تلك التنازلات من النصارى، إن هذا كله ليدل دلالة واضحة، على أن اليهود أكبر المستفيدين من تلك الدعوة الباطلة، وأنهم هم المحركون لهذه الأفكار، وإن كانوا لايظهرون في الساحة كظهور النصارى.

أما النصارى وهم أشد الناس حماسا إلى الحوار بين الأديان والتقريب بينها، فالهدف الحقيقي الذي ألجأهم إلى ذلك؛ هو أنهم عندما رأوا أن أسس العقيدة النصرانية قد تزعزعت عندالشعوب الغربية، وأن دينهم صار هدفا لنقد المفكرين، والفلاسفة، مما أظهر بطلانه، وتعارضه بالعلم والعقل. ورأوا على العكس بوادر الصحوة الإسلامية، مع إدراكهم أن الإسلام بمحاسنه، وحقائقه سوف يكون له تأثير في عقول الناس السليمة[1]، لما رأوا ذلك كله بحثوا عن وسائل يصرفون بها أنظار الغربيين عن نقد دينهم، ويشوهون بها صورة الإسلام؛ فيجعلونه دينا كتلك الأديان المحرفة.

إذاً كان إخفاء الحقائق عن الإنسان الغربي هدفاً من أهداف النصارى من الحوار. هذا من جانب ومن جانب آخر كان النصارى يعتبرون الحوار وسيلة شرعية للتنصير[2] يقول عمر فروخ: «إن النتائج العملية لذلك الحوار لم تكن بعيدة الأثر في تحقيق الهدف الذي نصب لها، ذلك أن المخلصين أدركوا أن هذا الحوار وسيلة جديدة من وسائل التبشير السياسي والديني معا»[3] لذا فهم يرون وجوب إعداد رجال دين عندهم استعداد للحوار[4] مع أتباع الأديان - خاصة المسلمين - ومن يقرأ بحث "دانيل آيري بروستر" المعنون بـ "الحوار بين النصارى والمسلمين وصلته الوثيقلة بالتنصير" والمقدم للمؤتمر التنصيري الذي عقد في مدينة "جلين آيري" بولاية كولورادو، في الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٧٨م يلاحظ الاهتمام البالغ الذي يوليه مجلس الكنائس العالمي لموضوع الحوار مع المسلمين، باعتباره وسيلة مفيدة للتنصير[5] وأن النصارى لايدخلون فيه إلابعد

---

(١) انظر: مزالق التحدي العقدي وسبل التغلب عليها د. محيي الدين الألوائي، ص ١٥٢.

(٢) انظر: التنصير خطة لغزو العالم الإسلامي ص ٧٧٢.

(٣) التبشير والاستعمار عمر فروخ ومصطفى الخالدي ص ٢٥٧ المكتبة العصرية ببروت ط الثالثة ١٩٨٢م

(٤) المصدر السابق ص٢٥٨

(٥) انظر: التنصير خطة لغزو العالم الإسلام ص ٧٦٩.

دراسة وتأكد من أن الحوار يحقق لهم أهدافهم أما إذا كان هناك احتمال أن يتحول النصراني إلى دين المحاور فالحوار مرفوض عندهم(١).

ومما يؤكد ذلك امتناع البابا عن حوار أحمد ديدات؛ فقد سئل أحمد ديدات في مقابلة: «دعوت البابا أكثر من مرة لمناظرتك فكيف كانت ردود فعله تجاه هذه الدعوات؟ فأجاب: أجل، لقد فعلت ذلك مرارا، ولكن دون جواب، رغم أن البابا هو الذي أعلن مرارا عن ضرورة إجراء حوار بين الديانتين: الإسلامية والمسيحية، حين صرح بذلك في تركيا ونيجريا وغيرها، ولكن في حقيقته لا يعني بالحوار المناظرة والنقاش، بل ما يقصده، ويوضحه لأتباعه: أن اذهبوا ونصروا المسلمين، وحولوهم لديننا، ولو استخدم كلمة "حولوا" لما أعجبت الناس، فاستبدلها بكلمة - حوار -، ذلك المعني الجميل المقبول، وقد كشف أمره حين قبلت دعوته، ووجهت له الرسائل أطلب فيها محاورته امتثالا لأمر الله لنا بذلك(٢).

إن فكرة التقريب بين الأديان فكرة خادعة، لا تعني في الحقيقة إلاّ اعتراف المسلمين بهذه الأديان بوضعها الحالي(٣)، وإنزال الإسلام إلى مستوى الديانتين: اليهودية والنصرانية المحرفتين، بل إلى مستوى الأديان الوضعية الوثنية كالبوذية والهندوسية، إن الهدف الحقيقي هو إزالة الخلاف العقدي، وإسقاط الفوراق الأساسية فيما بين الديانات»(٤).

تلك بعض أهداف اليهود والنصارى من فكرة التقريب بين الأديان. أما في جانب المسلمين فقد وجدت هذه الفكرة قبولاً من رجال المدرسة العقلية الحديثة بدءاً من جمال الدين الأفغاني وانتهاء بالعصرانيين الجدد. وإليك نماذج من هؤلاء: ممن يذكر في هذا المجال جمال الدين الأفغاني، يقول محمد عمارة: «لقد راودت الأفغاني أحلام السعي لتوحيد المؤمنين، وأبناء الشرائع السماوية الثلاث، سداً للثغرات أمام الأعداء، وتعبيراً عن اتحاد مقاصد الشرائع السماوية نحو الخير والحق والعدل... وعن هذا الهدف كتب

---

(١) التنصير خطة لغزو العالم الإسلامي ص ٧٧٢

(٢) مجلة البلاغ - الكويت - العدد ٩٨١، ١٣ رجب ١٤٠٩هـ ١٩ فبراير ١٩٩٠م ص ١٥.

(٣) انظر: تأصيل اليقظة وترشيد الصحوة ص ١٧٤.

(٤) نواقض الإيمان القولية والعملية، د. عبد العزيز محمد العبد اللطيف ص ٣٧٧.

فيلسوفنا العظيم يقول: "لقد لاح لي بارق أمل كبير: أن يتحد أهل الأديان الثلاثة، مثلها اتحدت الأديان في جوهرها وأصلها وغايتها ولهذا الاتحاد يكون البشر قد خطوا نحو السلام خطوة كبيرة في هذه الحياة القصيرة»[1] .

ومن أقواله أيضا: «إن الأديان الثلاثة: الموسوية، والعيسوية، والمحمدية، على تمام الإتفاق في المبدأ والغاية وإذا نقص في الواحدة شيء من أوامر الخير المطلق استكملته الثانية . . .»[2] إن اتفاق الأديان في المبدأ والغاية إذاكان المراد في الأصل أي قبل تحريف اليهودية والنصرانية، فهذا صحيح، أما أن يكون ذلك بعد تحريق اليهودية والنصرانية أونسخهما فهذا مما لا يعقل، وهو المعنى الذي ينصرف إليه كلام جمال الدين الأفغاني فهو يتكلم عن الخلاف الحاضر وعن الكتب الحاضرة[3] ويدعو إلى التوحيد بين معتنقي الأديان على أساس التخلي عن المعتقدات الخلافية في كلّ دين للوصول إلى حل وسط ولذا يقول:

«وإذا نقص في الواحدة شيء من أواصر الخير المطلق استكملته الثانية . . .» فهو يقرر وجود نقص في كلّ دين على حدة وكمال هذا النقص موجود في دين آخر، فعلينا البحث عنه لتصبح الأديان جميعا كاملة وهكذا يمكن الاتحاد ونبذ الخلاف بين الأفراد، وهذا كلام لا يقوله سليم العقل فمتى يمكن الوصول إلى هذا الأمر مادام هناك تناقض جذري بين الأديان فالدين الذي يدعو إلى تأليه البشر يناقض تماما الدين الذي ينزه الإله عن التجسيد، والدين الذي يدّعي أن الله فقير يناقض الدين الذي يقول بأن الله غني ونحن فقراء»[4]

ثم إن ما ادعاه الأفغاني من النقص يناقض قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾[5] . ثم تلقف هذه الفكرة تلاميذة جمال الدين الأفغاني كالشيخ محمد عبده فقد أنشأ محمد عبده في بيروت جمعية سياسية دينية سرية هدفها التقريب بين

---

(١) العصرانيون محمد حامد الناصر ص ٣٠٦

(٢) العصرانيون ص ٣٠٦، دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام مصطفى فوزي غزال ص ٢٤٤ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٤٤

(٤) انظر: دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام ص ٢٤٦ - ٢٤٧

(٥) سورة المائدة الآية: ٣

الأديان الثلاثة (الإسلام والمسيحية واليهودية) واشترك معه في تأسيسها ميرزا باقر، وبيرزاده، وعارف أبي تراب، وجمال بك نجل رامز بك التركي قاضي بيروت ثم انضم إليها مؤيد الملك أحد وزاء إيران، وحسن خان مستشار السفارة الإيرانية بالأستانة، والقس إسحاق طيلر وجي بليو لينتر، وشمعون موبال وبعض الإنجليز واليهود[١].

ومن أقوال الشيخ **محمد عبده**: «وإنا نرى التوراة والإنجيل والقرآن ستصبح كتبا متوافقة، وصحفا متصادقة يدرسها أبناء الملتين ويوقرها أرباب الدينين فيتم نور الله في أرضه ويظهر دينه الحق على الدين كله»[٢].

ويقول الشيخ مبينا كيفية نشأة هذه الفكرة: «وفي أثناء نفيي في دمشق» سنة ١٨٨٣م كان أحد القسس في انجلترا يدعى (إسحاق تيلور) يقول بالدعوة إلى توحيد الإسلام والنصرانية، على أساس فكرة التوحيد الموجودة في الإسلام والموجودة عند الكنيسة الانجليكية وكان لي صديق فارسي اسمه (ميرزا باقر) يعتقد بإمكان تحقيق هذه الفكرة، وقد تمكن هذا من إقناعي أنا وآخرين من علماء دمشق بكتابة رسالة إلى تيلور في الموضوع، وما أن وصلت هذه الرسالة إلى القس تيلور حتى فرح بها ونشرها، مستعينا بها على إثبات صحة دعواه، لكن لم ينشر أسماء الكاتبين، إلا أن السلطان عبد الحميد كلف سفيره في انجلترا معرفة تلك الأسماء، وكان سهلا عليه، فقد عرفها من القس نفسه، فحاق بي وبهؤلاء العلماء اضطهاد عظيم»[٣]

ولعل لهذا الردع من السلطان عبد الحميد كان له أثر في كبح جماح هذه الدعوة الباطلة إلا أنها كانت تسري في عقول المخدوعين من العلاقنيين ومن عميت بصيرته، لكن كانت آثارها خفية حتى جاء العصرانيون الجدد فتحمسوا إلى هذه الفكرة وتجاوزوا فيها كلّ حد[٤] فوجد فيهم من يزعم أن اليهود والنصارى مؤمنون موحدون، ووجد من يقول بنجاتهم من النار، كما وجد من يقرر بوجوب المحبة والمودة بين المسلمين وبين

---

(١) انظر: الفكر الإسلامي المعاصر غازي التوبة ص ١٩، ط الأولى ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م، وانظر أيضا: منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير ١/ ١٣٧.

(٢) الأعمال الكاملة، لمحمد عبده جمع وتحقيق محمد عمارة ٢/ ٣٦٣.

(٣) الإتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢/ ٣٠٤

(٤) انظر: العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب ص ٣٠٨.

اليهود والنصارى ، وهذه نماذج من أقوالهم: يقول الدكتور عبد العزيز كامل: «ونحن في منطقة الشرق الأوسط ، نؤمن بالتوحيد بطريقة أو بأخرى ، وأقولها واضحة ، يستوي في هذا: الإسلام ، والمسيحية ، واليهودية ، حتى الإيمان بالأقانيم الثلاثة في الفكر المسيحي يختم بإله واحد ، هذه منطقة توحيد ، والصور تختلف ، وتفسيرها الفلسفي يختلف»(١) .

وهذا الدكتور محمد عمارة يعلن فكرة التقريب بين الأديان ، أو وحدة الأديان تحت شعار "وحدة الدين الإلهي" ، فهو - بداية - يرفض تقسيم الناس على أساس الإيمان والكفر ، ويرى أن ذلك التقسيم قد ارتبط بالعصور الوسطي وعهود الظلام(٢) ، ويرى أن رفاعة الطهطاوي قد قدم فكرا مستنيرا في هذا الجانب ، قدم: "تقسيما جديدا ، لا يقوم على معايير" الكفر " والإيمان "وإنما يقوم على مقاييس التحضر والخشونة"(٣) ، بل يزعم الدكتور أن اليهود والنصارى مؤمنون موحدون ؛ فيقول: «فإذا ما وقف أهل الكتاب من أتباع شرائع الرسل الذين سبقوا محمدا ﷺ عند التصديق برسالة رسلهم ، وأبوا التصديق برسالة محمد ونبوته مع توحيدهم ، وعملهم الطاعات ، فإن هذا التوقف لا يخرجهم من إطار الدين الواحد ، ولا حظيرة التدين بالإسلام ، موقفهم هذا هو "انحراف" والفرق بين من يؤمن بمحمد ، وبكل الرسل ، وبين الذين يجحدون بنبوة محمد ورسالته ، مع توحيدهم ، وعملهم الطاعات ، كمثل الفرق بين إيمان المؤمن الخالي من البدع ، وبين إيمان من تشوب البدع إيمانه»(٤) . فاليهود والنصارى مؤمنون "- في زعمه" - وإن لم يؤمنوا بنبوة محمد ﷺ ورسالته ، ويؤيد فكرته تلك بقوله: «والفروق بين المسلمين ليست من الخطر بحيث تخرج الكتابيين من إطار الإيمان والتدين بالدين الإلهي»(٥) .

وهذا توفيق الحكيم يزعم أن القرآن رغم كونه خاتم الكتب السماوية إلاّ أنه لم ينسخها ؛ فيقول: «مع أن القرآن ختام كتبك السماوية ، فما قصدك من ذلك بقدر علمي ، وفهمي ، تريد أن نتذكر دائما أن ما خلقت وأوجدت في الماضي لا تريد إلغاءه ، أو

---

(١) العصريون معتزلة اليوم ، يوسف كمال ص ٣١ دار الوفاء - المنصورة ١٤٠٦هـ .

(٢) انظر: غزو من الداخل ، جمال سلطان ص ٦٤ دار الوطن للنشر ط الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١م .

(٣) المصدر السابق ٦٤ .

(٤) الإسلام والوحدة الوطنية ، د . محمد عمارة ص ٥٠ - ٥١ .

(٥) تجديد الفكر الإسلامي ، د . محمد عمارة ص ٨٢ نقلا من كتاب "غزو من الداخل" جمال سلطان ص ٦٥ .

إعدامه . . . إنما أنت تضيف وتعدل ، ولا تلغي ما أوجدت . . .»[١] ، بل يزعم أن حكمة الله أرادت حث المسلمين على قراءة الكتب السماوية ، ؛ فيقول: «ولقد أرادت حكمتك حث المسلمين على قراءة كتبك السماوية للتقريب بين أديانك ، كما لم تفرق بين أجناس مخلوقاتك»[٢] .

وممن ساهم في الدعوة إلى التقريب بين الأديان روجيه جارودي الذي دعا إلى الدين الإبراهيمي ، أو بما سماه بالإسلامي الأزلي[٣] ، كما ورد في وثيقة أشبيلية التي قدمها للمؤتمر الدولي للمسلمين الأوروبيين الذي انعقد في أشبيلية ١٨ - ٢١ يوليو سنة ١٩٨٥ م[٤] هذه أمثلة لمن أصابتهم لوثة التقريب بين الأديان ، وهم كثيرون ، ولو أردنا تتبع أقوالهم لطال بنا المقام ، وكما يتضح من أقوالهم ؛ فقد وقع هؤلاء في ذلك الشراك الذي وضعه أعداء الإسلام ؛ فصاروا مشاركين في المؤامرة ضد الإسلام .

* * * * *

(١) الإسلام والأديان ، محمد عبد الرحمن عوض ص ٢٤ ، دار البشير - القاهرة .
(٢) المصدر السابق ص ٢٥ .
(٣) انظر: لا لجارودي ووثيقة أشبيلية سعد عبد المقصود ظلام ص ١٧ .
(٤) انظر: المصدر السابق ص ١٣ .

المبحث الثالث

نقد فكرة التقريب بين الأديان

الدعوة إلى التقريب بين الأديان دعوة باطلة، هدفها تلبيس الحق بالباطل، وهي وسيلة يلجأ إليها أعداء الإسلام، كلما أعيتهم الوسائل الأخرى، وسواء جاءت هذه الدعوة باسم الحوار، أو باسم زمالة الأديان، أو التعايش بين الأديان، أو الوحدة بين الأديان؛ فإن الهدف منها واحد، وهو النيل من هذا الدين، ومن مبادئه الأساسية؛ فلمتأمل لهذه الدعوة يجد أنها تناقض لنصوص الكتاب والسنة التي تقرر أن الإسلام وحده هو الدين الحق الذي لا يقبل الله دينا سواه، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾(١)، وأنه مهيمن لما سبقه من ديانات وناسخ لها، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾(٢)، وأنه دين عالمي يجب على كافة الناس الإيمان به، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾(٤).

كما أن الدعوة إلى التقريب بين الأديان تؤدي إلى موالاة الكفار، وعدم تكفيرهم، والتودد إليهم، وفي هذا مخالفة للنصوص التي تحرم موالاة الكفار، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾(٥) قال تعالى: ﴿ لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ ﴾(٦).

قال الشيخ حمد بن عتيق - رحمه الله -: «إنه ليس في كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم - أي الولاء والبراء - بعد وجوب التوحيد، وتحريم

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٨٥.

(٢) سورة المائدة الآية: ٤٨.

(٣) سورة الأنبياء الآية: ١٠٧.

(٤) سورة الأعراف الآية: ١٥٨

(٥) سورة المائدة الآية: ٥١.

(٦) سورة آل عمران الآية: ٢٨.

ضده»[١]، وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله -: «إن الإنسان لا يستقيم له إسلام ولو

وحد الله وترك الشرك إلاّ بعداوة المشركين، كما قال تعالى في سورة المجادلة: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾[٢][٣].

ورغم أن تحريم موالاة الكفار بهذه الصورة من الوضوح والبيان، إلاّ أن مخالفة دعاة التقريب بين الأديان له أشد وأظهر من أي حكم آخر، والسبب في ذلك أن بعض هؤلاء يرون عدم تكفير أهل الكتاب، وكأنهم لم يقرأوا قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾[٤].

وقد ذكر ابن حزم - رحمه الله - أن العلماء «اتفقوا على تسمية اليهود والنصارى كفاراً، واختلفوا في تسميتهم مشركين»[٥] ومنهم من خلط بين التسامح الذي أباحه الإسلام وبين المودة التي حرمه أن تكون بين المسلمين والكفار.

قال سيد قطب - رحمه الله -: «وإن الذين يحاولون تمييع هذه المفاصلة الحاسمة باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديان السماوية يخطئون في فهم معنى الأديان كما يخطئون في فهم التسامح، فالدين هو الدين الأخير وحده عند الله، والتسامح يكون في المعاملات الشخصية لا في التصور الاعتقادي ولا في النظام الاجتماعي... إنهم يحاولون تمييع اليقين الجازم في نفس المسلم بأن الله لايقبل دينا إلاّ الإسلام»[٦]

والمؤسف حقا أن يقع في هذا المزلق علماء كبار فيقرروا وجوب مودة الكفار فقد قال الشيخ محمد أبو زهرة - رحمه الله -: «إن المودة ليست واجبة بالنسبة لأبناء الأمة الواحدة، بل هي واجبة للمخالفين في الدين ماداموا لم يعتدوا على المسلمين ولم

---

(١) انظر: الولاء والبراء في الإسلام، محمد بن سعيد القحطاني ص ٩

(٢) سورة المجادلة الآية: ٢٢.

(٣) مجموعة التوحيد ص ١٩.

(٤) سورة البينة الآية: ١.

(٥) مراتب الإجماع، لابن حزم ص ١١٩، ١٢٠.

(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٩١٠.

يعادوهم»[١].

أما الشيخ محمد عبده فقد جعل مودة المخالفين في العقيدة أصلا من أصول الإسلام[٢].

ويستدل هؤلاء العلماء على ذلك قوله تعالى: ﴿ لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾[٣]

ولكن في استدلالهم هذا خلط بين البر والمودة، يقول الدكتور العلياني: «وهذا استدلال غريب حقا فإن البر لايعني المودة، بل يعني العدل والإحسان إلى الغير بأي نوع من أنواع الإحسان والمسلم مأمور بالعدل مع من يبغضه ويعاديه قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾[٤][٥] وقال ابن الجوزي: «قال المفسرون وهذه الآية - آية الممتحنة - رخصة في صلة الذين لم ينصبوا الحرب للمسلمين وجواز برهم وإن كانت الموالات منقطعة منهم... وأن تبروهم وتقسطوا إليهم أي تعاملوهم بالعدل فيما بينكم وبينهم»[٦]

ففرق بين الإحسان إليهم، والعدل لهم الذي أشارت الآيات السابقة وبين محبتهم ومودتهم. فقد نفى الله أن تقوم مودة بين مؤمن بالله واليوم الآخر وبين من يعادي الله

- سبحانه - ورسوله، فقال تعالى: ﴿ لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾[٧]

إن البراءة من الكفار - على اختلاف مللهم ونحلهم - وبغضهم ومعاداتهم من

---

(١) تنظيم الإسلام للمجتمع، لأبي زهرة ص ٥٣ - ٥٤.

(٢) انظر أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية، د. علي بن نفيع العلياني ص ٣٥١، دار طيبة، ط الأولى ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م

(٣) سورة الممتحنة الآية: ٨

(٤) سورة المائدة الآية: ٨

(٥) أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية ص ٣٥٤.

(٦) زاد المسير، لابن الجوزي ٨/ ٢٣٧

(٧) سورة المجادلة الآية: ٢٢

أصـول هذا الدين العظيمة ، والتي تحدد العلاقة بين المسلمين وبين غيرهم ، من أهل الملل والأديان . بل إن تحريم مولاة الكفار من الأحكام المعلومة من الذين بالضرورة[(١)]

وكذالك فإن الدعوة إلى التقريب بين الأديان تتضمن إلغاء الدعوة إلى الله ويترتب من ذلـك إلغـاء أعظـم صفة تميزت بها الأمة الإسلامية عن سائر الأمم وهي صفة ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ وذلـك أن الأمة المحمدية استحقت هذه الصفة لكونها أمة داعية كما قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[(٢)] فـإذا نزلـت هـذه الأمة إلى مستوى الأمم الأخرى بدعوى التقريب بين الأديان ، فلا مجال للدعوة إلى الله إذ الأديان - حسب مقولة دعاة التقريب - متفقة في المبدأ والغاية ولا فرق بينها إلاّ في أمور فرعية ، ومن ثم فلا فضل لأمة على أمة ولادين على دين .

ومما تتضـمن الدعـوة إلى التقريـب بين الأديان تعطيل الجهاد في سبيل الله الذي هو ذروة سنام الإسـلام[(٣)] وذلـك أن فكـرة التقريب تنافي الجهاد لأن هدف الجهاد هو إعلاء كـلمة الله وإظهـار الإسلام على سائر الأديان[(٤)] . كما قال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّه ﴾[(٥)] بينما الهدف من هذه الفكرة جعل الأديان بمنزلة واحدة .

كما أن هذه الفكرة تلعب دورا كبيرا في صرف الناس عن الدخول في الإسلام يقول الدكـتور العلياني: «وجوهرها وهدفها في الحقيقة هو أن يكسب اليهود والنصارى في هذا العصـر اعترافـا مـن المسلمين بصحة دينهم ، وهذا لـه دور كبير في صد النصارى واليهود عن الدخول في الإسلام ، وذلك لأن كثيرا من النصارى وبعض اليهود متعطشون إلى دين شـامل كـامل كالإسلام ، وقد سئموا مما يسمى عندهم بالمسيحية أو اليهودية التي هي من صـنع الأحـبار والرهـبان ، ولـيس الديـن الصـحيح الذي أنزلـه الله على موسى وعيسى علـيهما السـلام . فـإذا سمـع هـؤلاء تلك الشنشنة التي تصدر من أشخاص يطلق عليهم ألقـاب علمـية ودينية كبيرة والمتضمنة لاعترافهم بالدين النصراني والدين اليهود والبحث

---

(١) انظر: نواقض الإيمان القولية والعملية ص ٣٧٩

(٢) سورة آل عمران الآية: ١١٠ .

(٣) ورد هذا الوصف في حديث معاذ الذي رواه الترمذي انظر تحفة الأحوذي ، الحديث رقم ٢٧٤٩ ، ٧/ ٣٠٣ - ٣٠٦ .

(٤) انظر: الوافي في شرح الربعين النووية ص ٢٠٨

(٥) سورة البقرة الآية: ١٩٣ .

عـن مزاملـته بـأي ثمـن ، ومحاولـة تقريبه من الإسلام ، خاب ظنهم وقالوا لماذا ننتقل إلى الإسـلام وهـو كدينـنا الـذي نشـعر فـيه بالتعاسـة؟ بل إن ديننا أفضل منه بدلالة حرص أصحابه على تقريبنا ليكسبوا بذلك عزا وشرفا»[١] .

إن خلاصـة القول في هذه الفكرة أنها مؤامرة خبيثة وحيلة ماكرة من أعداء الإسلام هدفهـا تفـريغ المؤمن من عقيدته ، وزعزعة مبادئ الإسلام في النفوس ، والدعوة إلى هذه الفكـرة دعـوة كاذبـة يخـالف ظاهرها باطنها ، فاليهود والنصارى غير صادقين في دعواهم التقريـب بـين الأديـان ، فهـم لا يتخلون عن معتقداتـهم ولايرضون عن المسلمين إلا أن يتركـوا ديـنهم . وقد بين لنا ذلك القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾[٢] وقال تعـالى: ﴿ وَلَـن تَرْضَـى عَـنكَ الْـيَهُودُ وَلاَ النَّصَـارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى ﴾[٣] .

إن العداء العقدي بين المسلمين وبين أهل الكتاب لن ينتهي إلا إذا تخلى طرف منهما عـن ديـنه ، أمـا أن يحدث جمع أو تقريب بين الإسلام واليهودية والنصرانية فهذا من نسج الخيال ومـن حـاول ذلـك فهـو كمـن يحاول الجمع بين النقيضين بين الحق والباطل وبين الكفـر والإيمـان[٤] بقـي أن نتسـاءل مـا صـلة هـذه الفكرة بعلم الملل . وللإجابة عن هذا التساءل أقول:

المعـروف أن مـن أهـم عناصـر موضـوعات علم الملل عنصر المقارنة بين الأديان التي تتـناول بالدراسـة لمعـرفة ما بينها من النقاط اتفاق أو اختلاف ووقع هذا العلم في العصر الحديـث في أيـدي اليهود والنصارى ، فاستغبلوه لبث أفكارهم وسمومهم ، فتجدهم تارة يـزعمون أن الإسـلام لـيس إلاهـرطقة أو مـزيج مـن اليهودية والنصرانية ، وحينا نجدهم

---

(١) أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية ص ٤٤٩ .

(٢) سورة البقرة الآية: ١٤٥ - ١٤٧

(٣) سورة البقرة الآية: ١٢٠ .

(٤) انظر: فتاوى اللجنة الدائمة ٢/ ٨٥ الرئاسة العامة لادارات البحوث العلمية ط الأولى ١٤١١هـ

يـزعمون أن الأديان الثلاثة تنتسب إلى أصل واحد - الدين الإبراهيمي - وهو زعم دعاة التقريب فهي على الوفاق وليست على الاختلاف، وبناء على ذلك ينبغي التقريب بينهما ومـن ثـم يبحـثون نقـاط الاتفـاق ويحاولون تضييق الخلاف - كما يظهرون - ويرون أن دراسـة الديـن المقـارن هـي إحـدى الوسـائل المعيـنة على تحقيق التفاهم والاندماج - أو الانمـياع عـلى الأصـح - فيدعون إلى التوسع في دراسة الدين المقارن ويقررون في وضوح أنهـا تسـاعد عـلى تقريـب مـا بين الأديان من فوارق، كما تعين إلى إنشاء علاقات دولية تقـوم على التفاهم. فقد ذكر ولفرد كانتويل سميث «أن عددا كبيرا من المسيحيين يتمنون لو أن مسلما تناول المسيحية المعاصرة بالدراسة المقارنة»[1].

كمـا نجـد ميشـال الحـايك يدعـو المسـيحيين إلى دارسـة الإسـلام وأن يعـرفوا ما بين الإسـلام والمسـيحية مـن قـربى[2] وبناء على ذلك فإن علم الدين المقارن يعتبر من أخطر العلـوم الـتي تحقـق مـن خلالهـا المؤامـرات، كما أن بيان الحقائق، وتوضيحهم الحق عن الـباطل يقـع عـلى عـلماء المسلمين - وعلى وجه الخصوص - المتخصصين منهم في علم الملـل. بـل إن مـتابعة مـثل هذه الأفكار والترصد لمخططات الأعداء التي تنفذ من خلال عـلم الأديـان ليتطلـب مـن المسلمين إعداد علماء متخصصين في هذا العلم لهم القدرة في الدفاع عن الإسلام وتفنيد الباطل.

* * * * *

(١) انظر: الإسلام والحضارة الغربية ص ١٥٤.

(٢) انظر المسيح أمام المسلمين ميشال الحايك ص ١٣، دار الشراع - بيروت.

الفصل الرابع

فكرة التطور الديني وصلتها بعلم الملل

المبحث الأول: حقيقة فكرة التطور الديني

المطلب الأول: معنى التطور

قال صاحب معجم مقاييس اللغة: «الطاء، والواو، والراء، أصل صحيح يدل على معنى واحد وهو امتداد في شيء من مكان وزمان»[١] . وورد في المعجم الوسيط في مادة: طوّر، تطور: تحول من طور إلى طور. والتطور: التغير التدريجي الذي يحدث في بنية الكائنات الحية وسلوكها، ويطلق أيضا على التغير الذي يحدث في تركيب المجتمع، أو العلاقات، أو النظم، أو القيم السائدة فيه[٢] . وفي الصحاح في اللغة والعلوم: التطور" نمو بطيء التدرج يؤدي إلى تحولات منتظمة ومتلاحقة تمر بمراحل مختلفة يؤدي سابقها للاحقها كتطور الأفكار والأخلاق والعادات، وهو في الجملة: انتقال من المختلف إلى المؤتلف ومن غير المتجانس إلى المتجانس.. "أو العكس" والمذهب التطوري هو المذهب الذي يؤمن الصيرورة والتحول[٣] .

فالتطور إذاً هو تغير شيء من حالة إلى حالة أخرى. والملاحظ في عبارات المعاجم السابقة أن التطور يشمل الأمور المعنوية: كالأفكار، والقيم، والأخلاق، والعادات، كما يشمل الأمور الحسية. وبهذا تعني مقولة القائلين "بتطور الدين" أن الأديان والعقائد نشأت في صورة مخالفة لما هي عليه الآن.

المطلب الثاني: أصل نشأة فكرة التطور الديني

نشأت نظرية التطور الديني في الغرب في نهاية القرن الثامن عشر[٤] وسببها أن الثبات كان في العصور الوسطى هو الطابع المسيطر على الحياة كلهافي الغرب وكان مفهوم الثبات

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٣/ ٤٣٠

(٢) المعجم الوسيط ٢/ ٥٧٠ .

(٣) الصحاح في اللغة والعلوم نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي ص٦٨٣ .

(٤) انظر: نشأة الدين، علي سامي النشار ص ١ .

هـذا مستمدا مـن الديـن[١] وكـان الجهـل والأسـاطير والخـرافات الـتي كـان يؤمـن بهـا الأوروبيون تزيد هذا المفهوم ثبوتا ورسوخا . وأول هزة تعرض لها هذا المفهوم كانت على يـد "كوبرنـيق" الـذي جـاء بنظرية دوران الأرض ثم جاء "أوجست كونت" بنظرية التطور العقلـي "مـن الخـرافة إلى الديـن ثـم إلى الوضـعية" وجـاء "هوبـز" الـذي زعم أن المجتمع الإنساني تطور من الوحشية الغابية إلى الحالة الاجتماعية .

ولم تغـير هـذه الـنظريات هـذا المفهـوم كلـيا ، ولكـن كانت بمثابة تمهيد لهذا التحول العنيـف الـذي حدث في العقلية الغربية ، والذي كان على يد "داروين" حيث جاء بنظرية الـتطور العضـوي ، فانتقلـت أوروبـا مـن الإيمـان بالثـبات المطلـق إلى الاعتقاد في التطور المطلق[٢] .

قـال "وست" في وصف كتاب "أصل الأنواع" الذي بث فيه "داروين" نظريته الشائنة: «لقـد كـان تـأثير هذا الكتاب عظيما ، ولا شك ، فعن طريق وضع مبدأ جديد للدراسة ، وهـو مبدأ ديناميكي ، وليس مبدأ استقراريا ، أو استاتيكيا ، استطاع أن يحدث ثورة في كلّ فـروع المعـرفة من علم الفلك إلى التاريخ ، ومن علم الحفريات القديمة ، إلى علم النفس ، ومن علم الأجنة إلى علم الدين»[٣] .

وبذلك استولت فكرة حتمية التطور في كلّ شيء على عقلية الأوروبيين ، فاصطدمت فكـرة الـتطور مع الكنيسة ، وقام صراع بين الدين والعلم - كما يزعمون - وفي ظل هذا الصـراع أسـس الغربيون نظرياتهم في المعارف كلها على أساس لا ديني ، وتناولوا العلوم كـلها مـن مـنطلق مفهـوم التطور دون استثناء ، وإذا كان "داروين "وقبله" جوليان هكسلي" ابـتدع لهـم مقولـة "أن الإنسـان مـن بـين المخلوقـات الـتي تطـورت من الخلية الأولى إلى مخلوقـات أولـية ، ثـم إلى مخلوقـات مركـبة ، ثـم إلى حيـوان"[٤] . حـتى وصل إلى صورته الحالـية ، فارتـاحوا لهـا فـترة مـن الـزمن ، وإذا كـان الـتدين من الخواص اللازمة لطبيعة الإنسـان ، وكـان مـن المسـتحيل أن يتصـور ماهية الإنسان دون أن يتبادر إلى الذهن فكرة

---

(١) التطور والثبات ، محمد قطب ص ١١ .
(٢) انظر: العلمانية ، د . سفر الحوالي ص ٢٠٠ - ٢٠١ بتصرف .
(٣) انظر: المصدر السابق ص ٢٠١ نقلا عن سلسلة التراث الإنسانية .
(٤) انظر العلمانية ص ١٩٦ .

التدين، وهو أمر مسلم لدى الجميع بغض النظر عن نوعية هذا التدين - كان عليه أن يبحثوا عن ظفرة تحدد لهم الصورة الحقيقية لبدء العقيدة - وأنى لهم ذلك -؟!

من هنا، وفي هذه الظروف قدم الباحثون الغربيون دراسات حول الأديان، وقد قصدوا من ورائها تفسير الدين تفسيرا يخالف تفسير الكنيسة، بله الكتب السماوية جميعا، فتوصلوا بنظريات مختلفة متضاربة تحمل كلّ واحدة منها نقيض الأخرى، بل تقيض نفسها، ولا يجمعها إلاّ الغاية، والمنهج في إطار مفهوم التطور المطلق.

المطلب الثالث: الغاية

كان هدف الباحثين من دراسة الأديان تحديد الصورة التي ظهرت فيها الأديان، أول ما ظهرت في الوجود، ومعرفة الأصل الأصيل للعقائد، والمظاهر التي ظهرت به أول ما ظهرت[1]. وذلك للاستدلال على فكرة تطور الدين، ولكن هذا أمر بعيد المنال، ولا يمكن لأحد كائنا من كان أن يصل إليه إلاّ عن طريق الوحي، إلاّ أن الغربيين اقتحموا تلك المنطقة، مما يدل على أن دراساتهم، لم تكن في هذا البحث عن الحق، وإلا لوجدنا فيها - ولو إشارة - ذكر مبدأين مرتكزين في بداهة العقول بهما تستند ظاهرة التدين، وهما قانونا السببية والغائية، فإن هذين القانونين متى فهما على كمالهما انتهيا إلى إثبات العقيدة الصحيحة، عقيدة التوحيد، ونفي عقيدة الشرك؛ فقانون السببية يقرر أن شيئا من "الممكنات" لا يحدث بنفسه من غير شيء؛ لأنه لا يحمل في طبيعته السبب الكافي لوجوده، ولا يستقل بإحداث شيء؛ لأنه لا يستطيع أن يمنح غيره شيئا لا يملكه هو، كما أن الصفر لا يتولد منه عدد إيجابي، فلا بد له في وجوده، وفي تأثيره من سبب خارجي، وهذا السبب الخارجي إن لم يكن موجودا بنفسه احتاج إلى غيره، فلا مفر من الانتهاء إلى سبب ضروري الوجود يكون هو سبب الأسباب، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ﴾[2]. أما قانون الغائية فمن موجبه أن كلّ نظام مركب متناسق مستقر لا يمكن أن يحدث عن غير قصد، وأن كلّ قصد لابد أن يهدف إلى غاية، وأن هذه الغاية إذا لم تحقق إلاّ مطلبا جزئيا إضافيا منقطعا،

---

(١) انظر: الدين، د. دراز ص ١٠٦.

(٢) سورة الطور الآية: ٣٥ - ٣٦.

تشوفت النفس من ورائها إلى غاية أخرى . . . حتى تنتهي إلى غاية كلية ثابتة ، هي غاية الغايات . . .[١] قال تعالى: ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[٢] .

إن البحث إذا كان وفق هذين القانونين أدت نتائجه إلى الاعتراف بالحقيقة الكبرى ، حقيقة وجود الخالق والتسليم بها ، وإلا كان مكابرة ومخالفة لمقتضى العقل والفطرة السليمة ، إن الغربيين لم يهتدوا إلى الحق ، ولم يجنوا من دراساتهم ، وبحوثهم في مجال الدين إلاّ اضطرابا ، وحيرة ، وبعدا عن الله سبحانه ، ذلك أنهم خاضوا في قضايا الدين ، وهم هاربون عنه ، وقاطعون صلتهم مع الله ، وواضعون لأنفسهم غاية معينة ، هي تحقيق زعمهم أن الدين مصدره الإنسان ، وما بحوثهم إلاّ جمع أدلة لنتيجة سابقة .

المطلب الرابع: المنهج

سلك أصحاب نظرية التطور الديني للوصول إلى هدفهم منهجا أسسه افتراضات مبنية على افتراضات أخرى ، لم تقم عليها أدلة صحيحة ، فهم ينطلقون في الأساس من هذه المنطلقات الخاطئة:

المنطلق الأول: تقديرهم أن الإنسان الأول خلق خلقا ناقصا غير مؤهل لأن يتلقى الحقائق العظمى كاملة ، بل إن تصوراتهم عن الإنسان الأول تجعله أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان[٣] .

المنطلق الثاني: ظنهم بأن الإنسان اهتدى إلى العقيدة بنفسه بدون معلم يعلمه ، أو مرشد يوضح له ، وما دام الأمر كذلك ، فلابد أن يترقى في معرفته بالله كما ترقى في العلوم والصناعات[٤] .

المنطلق الثالث: ظنهم أن ديانة الأمم المتخلفة حضاريا أقرب إلى ديانة الإنسان الأول ، فاستدلوا عقائد القبائل المعاصرة المتخلفة على عقائد الإنسان الأول ، وقصروا بحوثهم عليها ، واستدلالهم هذا مبني على افتراض أن هذه الأمم كانت منذ بدايتها على

---

(١) انظر: الدين ، د . دراز ص ١٠٤ – ١٠٥ بتصرف .
(٢) سورة الحديد الآية: ٣ .
(٣) انظر: العقيدة في الله ، د . عمر الأشقر . ص ٢٤٤ .
(٤) المصدر السابق ص ٢٤٤ .

الحالة التي وصلت إليها بحوثهم ، وأنها ظلت بمعزل عن التيارات الحضارية ، وبذلك فهي لا تزال تمثل الإنسان الأول ، وهذا الاستدلال غير مقبول من الوجهة العلمية ؛ لأنه مبني على افتراض لم يقم عليه دليل ، إذ إن المجتمعات الإنسانية تتطور بحكم أنها مجتمعات إنسانية .

وقد أثبت التاريخ ، وعلماء الآثار أن فترات التخلف التي كان يعانيها تجمع إنساني كانت مسبوقة بحضارة مزدهرة ، وأن هذه الحضارة قامت بدورها على أنقاض حضارة بائدة قريبة ، أو بعيدة ، ثم إن علماء الأجناس لم يتفقوا فيما بينهم على تحديد أي المجتمعات البدائية الموجودة الآن أقدم عهدا ، أو أيهما أقرب إلى الحالة الأولى؟ . فنظرية "دوركايم" مثلا بنيت على أساس أن قبائل استراليا الوسطى أقدم هذه التجمعات ، ولكن البحوث العلمية التي أتت بعده أثبتت أن هذه القبائل لا تمثل أقدم القبائل[١] ، كما يذهب آخرون إلى أن قبائل الزنوج الأقزام هي التي تمثل الآن أكثر المجتمعات بدائية[٢] .

ولقد أنصف بعض الباحثين حين اعترفوا على فشل هذا المنهج ، من هؤلاء "هوفدنج" الذي قال: «إنه يبعد كلّ البعد أن ينجح تاريخ الأديان في حل مشكلة بزوغ الدين في النوع الإنساني . . . فإن التاريخ لا يصور لنا هذه البداية الأولى في موضع . . . وكل ما نجده إنما هو سلسلة من صور مختلفة الديانات متقدمة قليلا أو كثيرا . . . حتى إن أحط القبائل الهمجية التي نعرفها قد مرت بأدوار شتى ، وتطورت تطورا بعيدا»[٣] .

أما قياس الأديان على العلوم الأخرى كالفنون ، والصناعات فهو قياس فاسد ، يجمع بين أمرين لا تؤلف بينهما حقيقة نوعية مشتركة ، بل تتباين طبائعها ، ووسائلها ، فبينما حقائق العلوم ثروة واسعة ترحل النفس في طلبها ، واكتسابها ، ويتطلب اقتناؤها ، وتنميتها علاجا ، ومثابرة ، واستعانة بأدوات منفصلة في غالب الأمر ، حقيقة الدين توجد عناصرها قارة بين الجوانح ، وتعرض دلائلها لائحة أمام الحس ، حتى إن التفاتة يسيرة لتكفي للظفر بها في حدس سريع كالبرق الخاطف ، وليس إدراك هذه الحقيقة الكبرى

---

(١) انظر: الأديان دراسة تاريخية مقارنة ، د . رشدي عليان ، وسعدون الساموك ص ٤٢ - ٤٣ ، الدين د . دراز ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(٢) المصدر السابق ص ١٠٩ .

(٣) انظر: الدين ، د . دراز ص ١٠٩ .

محصول إدراكات لحقائق الكون، ودقائقه الجزئية، ولا هو أشق منها كما ظن، بل إنه يتقدمها، ويمهد لها، في نظرة كلية تلم بها جملة، قبل أن تفحص أجزاءها، وتفصيلاتها؛ ولذلك يستوي العالم والجاهل في أصل هذا الإحسان: كلٌ على فهمه، يجد في الكون ما يبهره، ويستولي على مشاعره[1]. أما تقديرهم - الخاطئ - بأن الإنسان خلق خلقا ناقصا، أو تطور من مخلوق آخر، والزعم بأنه اهتدى إلى العقيدة بنفسه فسيأتي نقده في المبحث الثالث.

وخلاصة القول: إن المنهج الذي سلكه أصحاب فكرة التطور الديني للوصول إلى أدلة تبرهن على دعواهم منهج غير علمي، ولا يستند إلى أية أدلة عقلية كانت أو نقلية، ولم تكن آراؤهم نتيجة بحث وتمحيص؛ لذا فقد جاءت آراؤهم متضاربة متناقضة كما سيأتي في المبحث الثاني.

وهذا خير برهان على خطأ منهجهم وفساده، وأنه مبني على الظنون ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾[2]، ﴿ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾[3].

* * * * *

(١) انظر: المصدر السابق ص ١١٠.
(٢) سورة النجم الآية: ٢٨.
(٣) سورة ص الآية: ٢٧.

المبحث الثاني

آراء الباحثين الغربيين في نشأة الدين ومصدره

المطلب الأول: اختلاف الباحثين الغربيين في مصدر الدين

لقد انعكس هذا المنهج الذي أسلفت ذكره - على الآراء والنتائج التي توصل بها الباحثون الغربيون في دراسة الأديان فقد أدت نتائجه إلى تعدد الآراء والافكار وكثرة الاتجاهات . وفي الجملة يصنف الباحثون هذه الآراء في اتجاهين رئيسين:

الاتجاه الأول: يرى أصحابه أن أصل الدين ومصدره الإنسان ، بمعنى أن الإنسان وصل إليه بنفسه ولم يتلقه من جهة خارج عالمه الحسي . ولذا يسمى هذا الاتجاه (بالاتجاه الإنساني) أو (المذهب الوضعي) .

الاتجاه الثاني: يرى أصحابه أن أصل الدين الوحي ، بمعنى أن الله قد أوحى به إلى عباده بواسطة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ويسمى هذا الاتجاه (بالاتجاه التعليمي) أو (مذهب الوحي)[1] .

والذي يعنينا هنا هو الاتجاه الأول - الزاعم - بأن الدين قدوصل إليه الإنسان بنفسه عن طريق عوامل إنسانية سواء أكانت تلك العوامل من نوع الملاحظات والتأملات الفردية أم من نوع التأثيرات والضرورات اللاشعورية[2] .

وقد استند هذا الاتجاه في نظرياته الأبحاث الأنتروبولوجية والانتولوجية وغيرها من أبحاث إنسانية ، وقد عارضت الأبحاث بعضها بعضا ، وكذبت الواحدة منها الأخرى وحلت اللاحقة مكان السابقة ،[3] . فانقسم هذا الاتجاه إلى فريقين:

فريق استنتج من أبحاثه أن الدين - بزعمه - بدأ في صورة الخرافة والوثنية وأن الإنسان بدأ يترقى في عقيدته عبر الزمان حتى وصل إلى عقيدة التوحيد ، ويسمى مذهب هذا الفريق (بمذهب التطوري التقدمي أوالتصاعدي) وكانت السيادة لهذا المذهب في

---

(١) انظر: الأديان دراسة تاريخية مقارنة ص ٢٩

(٢) انظر: الدين د . دراز ص ١٦٤ وانظر الأديان دراسة تاريخية مقارنة ص ٢٩

(٣) انظر: نشأة الدين للنشار ص ٣٢ .

أوروبا في القرني التاسع عشر، وطبق نظرياته في أكثر فروع العلوم، وحاول تطبيقه على الدين عدد من الباحثين منهم (سبنسر) و (تايلور) و (فريزر) و (دوركايم) وغيرهم مع اختلاف وجهات نظرهم في تحديد صورة العبادة الأولى وموضعها[١] . و يعتبر هذا الفريق أسوء المذاهب .

أما الفريق الآخر: فقد توصل من أبحاثه «أن فكرة التوحيد أوعقيدة الإله الأعلى هي البداية الحقيقة للدين، وأن الوثنيات أعراض طارئة بجانب هذه العقيدة، وحجتهم في هذا هو أن عقيدة الإله الأعلى لم تخل منها أمة من الأمم في القديم والحديث»[٢] .

ويسمى الباحثون مذهب هذا الفريق (بالمذهب الفطري)[٣] . وتنسب هذه النظرية إلى كثير من باحثي علم الأجناس، وعلم الإنسان وعلم النفس منهم (لانج) الذي أثبت في بحوثه وجود عقيدة (الإله الأعلى) عند قبائل الهمجية في أستراليا، وإفريقيا، وأميريكا. ومنهم (شريدر) الذي أثبتها عند الأجناس الآرية القديمة و (بروكلمان) الذي وجدها عند الساميين قبل الإسلام. و (لروا) و (كاتر فاج) عند أقزام أواسط إفريقيا و(شميدث) عند الأقزام وعند سكان أستراليا الجنوبية[٤] ، وهذا الفريق وإن قالوا بفطرية التوحيد إلاّ أنهم يوافقون الفريق الأول، القول بتطور الدين، فالتطور في نظرهم (يبدأ من البسيط إلى المركب من التوحيد إلى التعدد) كما أن الدين في نظرهم ليس وحيا من الله للإنسان وإنما فكرة أودع الله في النفس البشرية)[٥] .

وقد ذكر بعض الباحثين أن نظرية هؤلاء تشبه أقوال بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾[٦] .«حيث قالوا إن الميثاق الذي أخذه الله

---

(١) انظر: الأديان دراسة تاريخية مقارنة ص ٣٠ وانظر الدين ص ١٠٧

(٢) انظر: الدين ص ١٠٧

(٣) انظر الأديان دراسة تاريخية مقارنة ص٣٠

(٤) انظر الدين: ص ١٠٧ – ١٠٨ وانظر: الأديان دراسة تاريخية مقارنة ص ٣٠ – ٣١

(٥) انظر: الأديان دراسة تاريخية مقانة ص ٣٥ .

(٦) سورة الأعراف الآية: ١٧٢ – ١٧٣ .

على الخلائق في طور الذر إنما قصد به أنه - سبحانه - قد وضع في الإنسان مبدأ التعقل والتمييز الذي يدرك به إلهه وخالقه إذا كان سوي العقل سليم الفطرة...»[١].

والراجح أن المراد بالإشهاد هنا الفطرة على التوحيد كما هو المشهور من الآثار وأقوال السلف[٢]. بيد أن هذه الفطرة ليست حجة مستقلة بحيث يرتب عليها العقاب والثواب إذ لو صح ذلك لما كانت هناك حاجة إلى إرسال الرسل وإنزال الكتب، لذا فدين الله الحق هو ما جاءت به الأنبياء والرسل والفطرة السليمة لا تخالفه بل تؤيده.

ولعل مراد الباحثين في قولهم هذا "المعتزلة" الذين يقولون بوجوب فعل ما أدرك العقل حسنه وتحريم ما أدرك العقل قبحه، ولو لم يرد الشرع به، وترتيبهم العقوبة على ذلك، حيث جعلوا ما أدرك العقل حسنه بمنزلة ما أمر الشارع به. وهذا قول باطل إذ قد علم أن ترتيب العقاب على فعل القبيح أوترك الواجب مشروط؛ بالسمع وأن انتفاءه عند انتفاء السمع من انتفاء المشروط لا نتفاء شرطه، لا من انتفاء المسبب لانتفاء سببه، وعلى هذا فكونه متعلقا للثواب والعقاب والمدح، والذم عقلي، وإن كان وقوع العقاب موقوفا على شرط وهو ورود السمع.

فلازم قول المعتزلة قيام الحجة بدون الرسل، وهذا خلاف ما جاء في صريح القرآن قال تعالى: ﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[٤]. وقال تعالى: ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾[٥]. فلم يسأل أهل النار عن مخالفتهم للعقل بل سئل مخالفتهم للنذير[٦]. والفرق واضح بين قول المعتزلة وبين المذهب الفطري، وهو أن المعتزلة يرون أنه يجب على الإنسان أن يصل إلى معرفة الرب وتوحيده معرفة صحيحة بالنظر والاستدلال. وذلك

(١) الأديان دراسة تاريخية مقارنة ص ٣٥.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٢٤٣.
(٣) سورةالنساء الآية: ١٦٥.
(٤) سورة الإسراء الآية: ١٥.
(٥) سورة الملك الآية: ٨، ٩.
(٦) انظر: موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة، ١/ ٣٣٨ - ٣٣٩.

«أن العقل وحده هو مناط التكليف في هذا»[١] . أما مذهب الفطري فيرى أصحابه أن الإنسان عَبَدَ إلها واحدا ، لكن ما حقيقة هذا الإله؟ هل هو الله الذي خلق الكون أم هو إله من حجر أو شجر؟ .

إنهم لا يفرقون بين هذا وذاك ، وغاية ما يقررونه عبادة معبود واحد ، بغض النظر عن كونه مستحقا للعبادة أم لا ، وهم عموما أقرب إلى الحق من الفريق الأول ، ومقتضى الفطرة التطلع والميل إلى التوحيد ، وهو الأصل في عقيدة الإنسان - كما يأتي - وهذا الفريق غير مشهور كشهرة الفريق الأول ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى مخالفتهم للاتجاه العام في النهضة الأوروبية الذي كان طابعه العام الوثنية والإلحاد ، فعلى أية حال فإن المذهب الفطري حجة على المذهب التطوري التصاعدي ، حيث يدل على أن نظرياتهم لم تكن مسلمة من النقد ، حتى من الغربيين أنفسهم ، بل إن من أدل الدلائل على تهافت واضطراب المذهب التطوري التصاعدي أن أصحابه تفرقوا إلى مذاهب شتى ، ينقض بعضها بعضا ، وسأعرض هنا أهم المذاهب للاتجاه التطوري التصاعدي:

المطلب الثاني: أهم المذاهب للاتجاه التطوري

١ - **المذهب الطبيعي**: تدور بحوث أصحاب هذه النظرية حول كون الإنسان - بحكم خلقه - المخلوق الوحيد المميز بالعقل ، والوحيد بين جميع المخلوقات ، المدرك بأن الموت هو مصيره المحتوم ، فأخذ يبحث عن قوة تساعده ضد أهوال الطبيعة[٢] ، فالنظر في مشاهد الطبيعة هو السبب في إثارة الفكرة الدينية ؛ ولذلك فإن الدين أول محاولة قام بها العقل الإنساني لتفسير ظواهر الطبيعة ، وأصحاب هذه النظرية فريقان:

فريق يرى أن العامل الأول في إثارة الفكرة الدينية ، هو التأمل والنظر في مشاهد الطبيعة ، تأملا يجعل الإنسان يشعر بمزيد من الدهشة ، والإعجاب ؛ فيخلص من التفكير إلى أنه محاط بقوي مستقلة عن إرادةالبشر ، يخضع أفراد المجتمع لتأثيرها ، ولا قدرة للأفراد على تعديل نظامها ، ولشدة نفوذها ، وتأثيرها في نفسه نبهت فيه فكرة الدين ؛ فعبد

---

(١) انظر: الجواب المفيد في حكم جاهل التوحيد ، عبد الرحمن بن عبد الحميد ص ٣٢ مطبعة المدني .
(٢) انظر: مقال في الإنسان والتوحيد د. السيد أحمد فرج ص ١١٥ - ١١٦ .

الطبيعة[١] . وينسب هذه النظرية إلى "ماكس ميلر" الألماني[٢] .

وفريق يرى أن النظر في الظواهر الطبيعية الشاذة والعنيفة، التي تبعث الفزع والخوف في نفس الإنسان، فتحفزه إلى السؤال عن مصدرها، فينسبها إلى قوة خفية غيبية؛ فيعبد الإنسان هذه القوة الخفية[٣] التي خافها أو ظنها قادرة على دفع الخوف، والرهبة من نفسه، فحرص على التقرب لها؛ ليتقي شرها ويضمن نفعها، ويستدر عطفها عليه؛ فأصبحت جميع قوى الطبيعة وكأنها آلهة تعبد[٤] .

وأصحاب هذا المذهب طبقوا على الدين المبدأ التجريبي القائل: «لا شيء في العقل ما لم يكن من قبل في التجربة»؛ لذا قال "مولر": «ينبغي أن يبدأ الدين بتجربة حسية؛ لكي يأخذ مكانه الذي يرده إلى عنصر مشروع بين معارفنا، فقرر أنه لا شيء يتحقق في عقيدة الإنسان، ما لم يكن قد أتى قبل عن حواسه»[٥] .

فالعقيدة تبدأ عند هؤلاء من النظر إلى الطبيعة، ثم تنتقل إلى الإيمان بقوى روحية خفية يرمز لها بصور شخصية من الطبيعة، واستمدوا من نظريتهم هذه من دراساتهم المقارنة للأساطير، والتماثيل القديمة - لا سيما - من دراسة الفيدا "كتاب الديانة البراهيمية" حيث وجد "مولر" أن أسماء الآلهة فيها هي في الغالب أسماء لتلك القوى الطبيعية العظيمة: السماء والنار ونحوها وأن هذه الأسماء بعينها تتشابه في سائر اللغات المسماة بـ "الهندية الأوروبية"؛ فخلص من ذلك إلى أنه قبل تشعب الشعوب الإنسانية، وخروجها من مواطنها الأولى، كانت هناك لغة واحدة تعبر عن هذا التقديس العام لقوى الطبيعة الكبرى؛ فتكون إذاً هي الفكرة الأولى قبل ظهور الحضارات[٦] .

٢ - المذهب الروحي الحيوي: ينسب هذا المذهب إلى الباحث الإنجليزي "تايلور"

---

(١) انظر: الأديان دراسة تاريخية مقارنة ص ٣١ .

(٢) انظر: الدين دراز ص ١١٤ .

(٣) انظر: المصدر السابق ١٢٥ - ١٢٦ وانظر أيضا الأديان دراسة تاريخية مقارنة ص ٣٢ .

(٤) انظر: الإنسان في ظل الأديان د. عمارة نجيب ص ٣٣ مكتبة المعارف، الرياض ط ١٤٠٠هـ ١٩٧٩م .

(٥) انظر: نشأة الدين للنشار ص ٧٠ - ٧١ .

(٦) انظر: الدين دراز ص ١١٤ - ١١٥ .

Tylor" وتابعه عليها "سبنسر" مع اختلاف بينهما[١]. ويقصدون" بالروح" هنا «مبدأ حياة التفكير، والإرادة المنظمة، والعاطفة والضمير أو بتعبير آخر: مبدأ الحياة العاقلة، لا مبدأ الحياة الحيوانية التي تقوم عليها وظائف النمو، والتنفس، أو الحركة»[٢]. ويرى أصحاب هذا المذهب أن الإنسان الأول كان كالطفل في تخيله للأشياء، وتمثله لها في صور الأحياء[٣]. فآمن أن في الوجود كائنات عاقلة لايقع عليها الحس، سواء أكانت في الأصل أرواحا إنسانية انتقلت عن أبدانها، أم كانت منذ بدايتها أرواحا مستقلة كالجن والملآئكة، أم كانت روحا أعلى من ذلك وأسمى، وأن هذه الكائنات الغيبية المزودة بتلك القوة الخارقة[٤]. تتصل بالناس فتؤثره سلبا أو إيجابا، وأن جميع ما يصيب النفس الإنسانية من نجاح وتوفيق، أو من آلام، ومصائب إنما يرجع إلى تلك الأرواح أو العالم الروحي[٥] وارتبطت عبادة الأرواح بعبادة الأجداد، حيث اعتقد الإنسان البدائي - حسب زعمهم - أن أرواح الأجداد لا تزال تحيط بأبنائهم، ثم أحاط الأبناء سيرة الأجداد، والأسلاف بالخرافات، والأساطير حتى تحولت إلى آلهة تعبد، وترمز إلى قداسة الأسلاف[٦].

أما كيفية نشأة هذه الفكرة عند الإنسان البدائي؛ فقد زعم "تيلور" «أن حالات النوم واليقظة كانت سببا في تنبيه البشر إلى الروح، فعندما كان الإنسان ينام يتصور أصحابه أنه مات، وعندما يستيقظ يظنون بأن قوة خفية ما أحيته، وحيث إن الجسد لا يتغير في النوم أو اليقظة، وإنما هنالك شيء خفي يحركه، فلابد أن يكون ذلك الشيء منفصلا، ومختلفا عنه، وذلك الشيء هو النفس، وهذه النفس رغم قدرتها المادية لا يمكن أن نلمسها، أو نحسها، ولا يمكن أن يتصل بها الإنسان إلاّ بمراعاة طقوس خاصة، والنفس لا تصبح روحا إلاّ في حالات الموت؛ ولذا فإن أول عبادة إنسانية كانت عبادة الموتى أي عبادة نفوس الأسلاف»[٧].

---

(١) انظر: الله للعقاد ص١٦ دار المعارف بمصر ط السابعة، وأيضا نشأة الدين للنشار ٣٣.
(٢) انظر: الدين دراز ص ١٢٨.
(٣) الله للعقاد ص ١٦.
(٤) انظر: الدين دراز ص ١٣١.
(٥) انظر: نشأة الدين ص ٣٩.
(٦) انظر: مقال في الإنسان والتوحيد، السيد فرج ص ١١٦.
(٧) انظر: الأديان دراسة تاريخية مقارنة، ص ٣٢ - ٣٣ بتصرف.

٣ - المذهب التوتم[١]: يرى أصحاب هذه النظرية وأكثرهم من الباحثين الوضعيين الاجتماعيين وعلى رأسهم (دوركايم) أن الدين من صنع المجتمع، أي أن الحاجة الاجتماعية هي الباعث على التدين فالدين ضرورة تحتمها الحياة الاجتماعية للإنسان لذلك اتخذت العشائر البدائية لنفسها النظام التوتمي رمزا لها، وأهم العناصر في التوتمية، أن أفراد العشيرة يعتقدون أنهم ينحذرون فعلا من هذا التوتم. ويترتب من هذا قرابة اصطلاحية معنوية تقوم على أساس اشتراكهم في اتخاذ التوتم اسما لهم، واتخاذهم في النظم الاجتماعية، واشتراكهم في نفس العادات والتقاليد، والطقوس الدينية، التي يلتزمون بأدائها نحو التوتم[٢].

وهذا التوتم قد يكون حيوانا أو نباتا أوجمادا يعطي القداسة كالأنصاب، وهو نظام معروف في الشعوب القديمة، بل لا يزال منتشرا في القبائل غير المتحضرة في أمريكا، وأستراليا[٣] لذلك يرى مقرر هذه النظرية "دوركام" أن التوتمية أقدم الأديان على الإطلاق، وأنها أصل الأديان البدائية الأخرى. وأنها متصلة اتصالا وثيقا بكل تكوين اجتماعي، وأن نظام القبيلة أقدم من نظام الأسرة كما أن قبائل أستراليا الوسطى تمثل أقدم نظام معروف للقبائل[٤]. ويعتبر (دوركايم) أن أخصب مكان لدراسة هذه الظاهرة، تلك القبائل باعتبارها أقل تطورا وأقرب إلى الطبيعة الأولي من غيرهم[٥].

* * * *

---

(١) هكذا يكتبه بعض الباحثين ويكتبه آخرون بـ "الطوطم" والاسم مأخوذة في الأصل من لغة هنود الحمر في أمريكا الشمالية وهو اسم لم يتفق بعد على ضبطه ولاتحديد معاناه فهو في المشهور **totem** ولكن يكتب أيضا: **totam** أو **tootaim** أو **dodaim** أو **ododaim** ويفسر تارة بمعنى موطن العشيرة ومستقرها، وتارة بمعنى العلامة والشعار، انظر الدين لدراز ص١٥١. ويقال إن أول مرة وردت هذه الكلمة في الدراسات والبحوث كانت سنة ١٧٩١م في كتاب نشره "لونج" كاتب هندي أمريكي في أثناء كلامه عن النظم الدينية للهنود الحمر الأمريكان. انظر الأديان دراسة تاريخية مقارنة ص ٣٤، وانظر نشأة الدين للنشار ص ٩٢.

(٢) انظر: الله للعقاد ص ٢١، وكذلك الدين لدراز ص ١٥١.

(٣) انظر: الله للعقاد ص٢١، وكذلك الدين لدراز ص١٥١.

(٤) انظر: الدين، دراز ص ١٥٥، الأديان دراسة تاريخية ص ٣٤.

(٥) انظر: الأديان دراسة تاريخية ص ٣٢ - ٣٤.

المبحث الثالث

آثار فكرة التطور الديني

المطلب الأول: انتشار الالحاد:

لقد أدت آراء الغربيين - التطوريين - في نشأة الدين ومصدره إلى تزلزل العقيدة لدى الإنسان الغربي، وأسهمت في انتشار الإلحاد، وأفكار الماديين؛ فأنكر عقيدة الله، والملائكة، وإنزال الكتب، وإرسال الرسل، واليوم الآخر، وكل ما هو غيبي. وأصبح الدين عند الغربيين عامة أساطير وخرافات تطورت مع تطور الإنسان، إلى أن وصل إلى درجة الكمال في عصر العلم، وفي هذا العصر تمكن الإنسان أن يودع تلك الأساطير. بهذا نادى كثير من فلاسفة الإلحاد، والتطور، منهم "جوليان هكسلي" الذي ألف كتابه "الإنسان في العالم الحديث" زاعما أن الإنسان اختلق فكرة الله إبان عصور عجزه، وجهله، أما الآن فقد تعلم وسيطر على الطبيعة بنفسه، ولم يعد بحاجة إليه، فهو العابد والمعبود في آن واحد[(١)].

وقال رأس الإلحاد "كارل ماركس" قولته الشائنة: "«لا إله والحياة مادة»[(٢)]. وقال خلفه في الإلحاد "لينين": «إن الدين أفيون الشعوب»[(٣)]. إن هذه الأقوال، والآراء الفاسدة، وجدت شرعيتها - لدي الغربيين - من نظريات أصحاب فكرة التطور الديني.

المطلب الثاني: إلغاء الغاية من خلق الإنسان:

من البديهيات المسلمة عند أصحاب العقول، والفطرة السليمة، أن الإنسان ما خلق إلاّ لغاية مقصودة، وهدف محدد، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[(٤)].

وقال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ﴾[(٥)].

فالله خلق الإنسان لعبادته، ولم يتركه هملا دون أمر، ونهي، فالعبادة هي الغاية التي

---

(١) انظر: العلمانية د. سفر الحوالي ص ١٩٢.

(٢) الماركسية بين النظر والتطبيق د. عبد المنعم النمر ص ٦٣ دار الأندلس للإعلام.

(٣) المصدر السابق ص ٦٤.

(٤) سورة الذاريات الآية: ٥٦.

(٥) سورة المؤمنون الآية: ١١٥.

كانت ترسل من أجلها الرسل، كلما ضلت البشرية عنها - وكثير ما تضل عنها - وفي هذا

العصر لما ظهرت نظريات التطوريين التي تزعم أن الإنسان صانع عقيدته، استبعدت فكر الغاية والقصد من خلق الإنسان، وأهملت في دراسات الغربيين، وحل محلها فكرة " المصادفة " قال برتراند رسل، وهو أحد رموز الملحدين: «بالرغم من أنه لا يزال في إمكان الفيلسوف، أو عالم اللاهوت أن يقول إن لكل شيء غرضا ظهر، إن الغرض ليس فكرة نافعة حين نبحث في القوانين العلمية، وقد قيل في الإنجيل إن القمر قد خلق لينير بالليل، ولكن العلماء مهما كانوا متدينين، لا يعتبرون ذلك إيضاحا علميا لأصل القمر، ولقد كان عمل داروين فاصلا بهذه المناسبة فالذي فعله جاليلو ونيوتن من أجل الفلك فعله دروين من أجل علم الحياة»[1].

وبسبب إلغاء الغائية للوجود الإنساني، بل الكون في الفكر الغربي " تزعزعت قيمة الحياة لدى الناس لاسيما ذوي الإحساس المر هف واستبد بهم شعور يائس بالقنوط، والضياع، وظهرت في أروبا أجيال حائرة مضطربة لاتطمح إلى غاية، ولاتفكر في هدف، وخيم الخواء الروحي على المثقفين بصفة خاصة، وأصبح شغلهم الشاغل هو البحث عن الذات واستكناه أسرار النفس... واستغل اليهود من هذا المناخ الخصب لبذر نظرياتهم الهدامة،. فجاء "فرويد" بالتحليل النفسي و"برجسون" "بالروحية" و"سارتر" "بالوجودية "[2]، وزادت نظرياتهم للإنسان شقاء وبلاء، وصارت الحياة بلا قيمة، والإنسان بلا كرامة.

المطلب الثالث: تدمير الأخلاق والقيم الأساسية في الأديان:

الأخلاق تنبثق من العقيدة، ومصدرها الدين، وحارسها الشريعة، ولا أخلاق فاضلة بدون عقيدة ودين؛ لذلك اعتنت الرسالات السماوية عناية فاقت كلّ عناية، حتى قال خاتم الأنبياء ﷺ: **«إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»**[3]، وما ذلك إلاّ لما للأخلاق من قيمة في صلاح حياة الفرد، واستقامة نظام المجتمع، وقيام الحضارات، ولا يدرك الإنسان

---

(١) انظر: أثر العلم في المجتمع، برتراندرسل د. تمام حسان ص ١٢ مكتبة نهضة مصر - القاهرة.

(٢) العلمانية للحوالي: ص ١٩٥.

(٣) رواه البخاري، الحديث رقم ٢٧٣ ص ١٢٢ تحقيق محمد هشام البرهاني.

قيمة الأخلاق إلاّ إذا عرف حقيقة ما يصيب حياة الأمم، وانهيار الحضارات نتيجة التفسخ الخلقي .

والغرب خير مثال في هذا في العصر الحديث، فالغرب حارب الدين، والأخلاق بعد ظهور نظريات التطور الديني، التي زعمت أن الدين من صنع الإنسان، وعزم فلاسفة على إنشاء مجتمع جديد متطور، مجتمع بلا دين، بلا أخلاق، بلا تقاليد[1] . وفعلا أنشئ ذلك المجتمع الذي لا يعرف للقيم العليا وزنا، إلاّ القيم المادية المنفعية، ولا يعرف تعاملا إجتماعيا إلاّ ذلك التعامل القائم على الرابطة المصلحية وحدها، ممثلة في "عقد اجتماع" أو "أخلاق تجارية". ذلك المجتمع الذي تحكمه فلسفة الذرائع - "البراجماتيزم" تلك الفلسفة التي لا ترى للأخلاق قيمة ذاتية[2] . وقد ذاق الغرب بسبب ذلك الويلات . . . حروبا تطحن المئات، وأمراضا تفتك بالآلاف، وحيرة واضطرابا، وتفككا، وتمزقا .

تلك بعض الآثار السيئة التي خلفتها نظرية التطور في المجتمع الغربي، ومعروف أن الغرب لم يكن على ديانة صحيحة، وإنما ازداد في ضلاله ضلالا، ولكن المهم هنا أن نعرف ما إذا كان لهذه النظرية صدى، وأثرا في العالم الإسلامي .

* * * * *

---

(١) انظر: التطور والثبات لمحمد قطب ص ٥٨ دار الشروق ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م .

(٢) انظر: العلمانية للحوالي ص ٤١٠ .

المبحث الرابع

العالم الإسلامي وفكرة التطور الديني

لقد غزا العالم الغربي العالم الإسلامي بكل جيوشه، وأحكم عليه هيمنته العسكرية، والفكرية، والحضارية، وتسللت أفكاره ونظرياته بشتى أنواعها وأشكالها إلى أذهان المسلمين، وكان من تلك النظريات والمصطلحات التي تسللت لواذا إلى عالمنا الإسلامي مصطلح تميز بشدة البريق، واللمعان بقدر ما تميز بشدة الخداع، ذلكم هو مصطلح "التطور"، والتطور له معان كثيرة، ويدخل في مجالات كثيرة بعضها مقبولة فيه، وبعضها غير مقبولة فيه. وما جاءنا منه كان في مجال الدين، جاءنا باسم "تطور الأديان" أو "تطور العقائد" كما جاءنا باسم "تطوير الدين". وهناك فرق بين "تطور الأديان" وبين "تطوير الدين" فالأول يعني: الدراسات التي تبحث في تاريخ الأديان، بينما "تطويرالدين" يعني: تسييره مع المناهج، والأفكار الوافدة من الغرب، وتطويعه للواقع دون مراعاة لقواعد الشريعة، وضوابطها.

وقد خدع بهذا المصطلح البراق بعض كتاب المسلمين، ووجد بمعنييه السابقين صدي، وأثرا في العالم الإسلامي. والذي يهمنا هنا هو "تطور الأديان" والحق أن القارئ المتأمل لكتابات المعاصرين المسلمين - لاسيما - المهتمين بدراسات الأديان يجد أن كثيرا منهم تأثر بنظرية "تطور الدين" وأن العبارات المستخدمة فيها صارت مسلمة عند كثير منهم، بل يجد ذلك حتي في كتابات الذين نقدوا نظرية التطور بمفهومها الغربي، يجد وكأنهم يقررون تطور الإنسان، وتدرجه في الكمال، من حيث لا يشعرون؛ فيقولون: "مرحلة الطفولة" و"مرحلة الرشد" أو "سن الرشد"، فيلتقون في النهاية مع المفهوم الغربي من حيث لا يدرون.

والسبب في هذا أن المصادر المعتمدة في تاريخ الإنسان منذ أقدم العصور، وكذلك تاريخ الدين، والعقيدة، وتاريخ المدنيات، عند كثير من الكتاب، هي تلك الكتب التي كتبها الغربيون، والتي تملأ المكتبات الإسلامية، ومعظم كتاب تلك الكتب ممن يعادون الدين، وينطلقون من منطلقات فكرية منحرفة، ومن خلال نظريات تخالف دين الله

مخالفة صريحة ، كنظريات التطور الديني[١] ، ولعل - حسب ظني - نظرية تطور الدين تظهر أكثر ما تظهر في بعض كتب "عباس محمود العقاد" فهو القائل في كتابه " الله ": «ترقى الإنسان في العقائد كما ترقى في العلوم والصناعات . فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى ، وكذلك كانت علومه وصناعاته ؛ فليست أوائل العلوم والصناعة بأرقى من أوائل الأديان والعبادات ، وليست عناصر الحقيقة في واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة في الأخرى .

وينبغي أن تكون محاولات الإنسان في سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته في سبيل العلوم والصناعات ؛ لأن حقيقة الكون الكبرى أشق مطلبا وأطول طريقا من حقيقة هذه الأشياء المتفرقة التي يعالجها العلم تارة والصناعة تارة أخرى» ويقول: «فالرجوع إلى أصول الأديان في عصور الجاهلية الأولى لايدل على بطلانه التدين ولا على أنها تبحث عن محال . وكل ما يدل عليه أن الحقيقة الكبرى أكبر من أن تتجلى للناس كاملة في عصر واحد ، وأن الناس

---

(١) من هذه الكتب:

١ - تاريخ العالم: تأليف عدد من أساتذة الجامعات ، أشرف على إعداده: جون . أ . هامرتن .

٢ - معالم تاريخ الإنسان . تأليف عدد من أساتذة الجامعات . أشرف على إعداده: هـ . ج . ولز .

٣ - موجز تاريخ العالم . تأليف هـ . ج . ولز .

٤ - موسوعة تاريخ العالم . إعداد لانجر .

٥ - الموسوعة الأثرية العالمية . تأليف: ليوناردكوتريل .

فهذه المصادر - وغيرها - مما تعج به المكتبات الإسلامية ، تتناول تاريخ الإنسان ، وتاريخ الأديان ، والعقائد ، وتحمل أفكارا ومفاهيم تتعارض وأصول الدين ، وقد فحص بعض الباحثين هذه المصادر التي سبق ذكرها - فوجد أن أهم الأفكار والمفاهيم التي خالفت فيها الشريعة الإسلامية هي:

١ - لا خالق لهذا الكون .

٢ - الإنسان من سلالة الحيوان " القرد " وأنه تطور عن الأحياء الدنيا التي نشأت في البرك فالمستنقعات على مدار الملايين السنين .

٣ - إن الإنسان "القرد" كان في بدايته نشأته محدود التفكير لايتعدى تفكيره تفكير طفل بلغ الخامسة من عمره ولم يكن يميز بين الجمادات والكائنات الحية .

٤ - أن الإنسان الحيوان لم يكن لديه إلاالقليل من الحديث واللغة .

٥ - إن الإنسان البدائي كان وثنيا ، تخيل له آلهة على قدر نضوجه الفكري ثم تطورت هذه الأفكار إلى أن وصل إلى فهوم الدين .

انظر: أخطاء يجب أن تصح في التاريخ د . جمال عبد الهادي د . وفاء محمد رفعت ص ٢٨ ، ٢٩ .

يستعدون لعرفانها عصرا بعد عصر وطورا بعد طور ، وأسلوبا بعد أسلوب ، كما يستعدون لعرفان هذه الحقائق التي يحيط بها العقل ويتناولها الحس والعيان[١] .

فالعقاد يقرر أن العقيدة تطورت عبر الأزمنة االطويلة وترقت ، بل يؤكد أن تطورها أشد وأشق وأطول من تطور العلوم والصناعات ، ولو لم يؤكد هذا بقوله: إن الحقيقة الكبرى - ويقصد الحقيقة الإلهيبة - لم تتجل للناس مرة واحدة "لقلت لعله يقصد من التطور بطور الأديان الوثنية . وهذا النص في بداية الكتاب ، وبعد أن استعرض الكاتب آراء الباحثين في تاريخ العقيدة توصل في خاتمة المطاف إلى نتائج أهمها:

«أن التوحيد هو أشرف العقائد الإلهية وأجدرها بالإنسان في أرفع حالاته العقلية والخلقية . ولكن الإنسان لم يصل إلى التوحيد دفعة واحدة ، ولم يفهمه على وجهه الأقوم عند ماوصل إليه . بل تعثر في سعيه ، وأخطأ في وعيه ، ولم يزل مقيدا بأطوار الاجتماعية وحدود المعرفة عصرا بعد عصر وحالا بعد حال . . .»[٢] .

إن هذا الكلام يدل من غيره شك أن العقاد "كان متأثرا في تفكيره بنظرية تطور الأديان . وكذلك نجد محمد عبده ينحو إلى هذا المنحى ففي تفسيره للخلق والتكوين "عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ الآيات[٣] ذكر أنه يصح أن يراد بآدم نوع الإنسان ، كما يطلق اسم أبي القبيلة الأكبر على القبيلة ، ثم ذكر أن الأطوار التدريجيه التي ذكر الله في قوله: ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾[٤] . هي طور الطفولية ، وطور التمييز طور العقل والتدبر يقول الشيخ بالنص:

«فحاصل القول أن الأطوار الفطرية للبشر ثلاثة: طور الطفولية وهو طور

---

(١) انظر: الله: عباس محمد العقاد ص ١٣ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٨٠ .
(٣) سورة البقرة الآية: ٣٥ .
(٤) سورة نوح الآية: ١٤ .

نعيم وراحة ، وطور التمييز الناقص وفيه يكون الإنسان عرضة لاتباع الهوى بوسوسة الشيطان ، وطور الرشد والاستواء وهو الذي يعتبر فيه بنتائج الحوادث ويلتجئ فيه عند الشدة إلى القوة الغيبة العليا التي منها كلّ شيء وإليها يرجع الأمر كله ، فهكذا كان الإنسان في أفراده مثالا للإنسان في مجموعة . كأن تدرج الإنسان في حياته الاجتماعية ، ابتدأ سادجا سليم الفطرة ، قويم الوجه مقتصرا في طلب حاجاته على القصد والعدل ، متعاونا على دفع ما عساه يصيبه من مزعجات الكون ، وهذا هو العصر الذي يذكره جميع طوائف البشر ويسمونه بالذهبي ، ثم لم يكلفه هذا النعيم المرفه ، فمد بعض الأفراد أيديهم إلى تناول ما ليس لهم ، طاعة للشهوة وميلا مع خيال اللذة ، وتنبه من ذلك ما كان نائما في نفوس سائرهم ، فثار النزاع ، وعظم الخلاف واستنزل الشقاء ، وهذا طور العقل والتدبر ، ووزن الخير والشر بميزان النظر والفكر وتحديد حدود لأعمال تنتهي إليها نزعات الشهوات ويقف عند سير الرغبات ، وهو طور التوبة والهداية»[1] .

ويقول أيضا مبينا أن الإنسان نشأ أول ما نشأ ساذجا سذاجة لاتمكن إداراك المعاني العالية والمعارف السامية: «ما جاءنا من أنباء الأمم وما رأيناه من آثارهم ، وما عرفناه من حال بعضهم اليوم يشهد شهادة لايرتاب فيها من أديت إليه ؛ أن العناية الإلهية صارت بالإنسان كما سارت به في أفراده . . . فكما ينشأ الفرد قاصرا في جميع قواه ضعيفا في جميع أعضائه ، كذلك نشأت الجمعية البشرية على ضرب من السذاجة لاتبلغ بها إلى تناول الشؤون الرفيعة والمعاني العالية ، والمعارف السامية ، غير أن الذي يربي الفرد ويسوس قواه إلى أن يبلغ رشده هو الأبوان ، أو من يقوم مقامهما ، والذي يكفل الجمعية ويربي قواها ويشد بناها إنما هو الكون!!

وما يمسها من حوادثه ، والحاجات ووقعها والضرورات ولذعها ، وكما يؤدب الصبي أبواه يؤدب الجماعة شدة وقع الحوادث الكونية منها ، وهي في هذا الطور لاهم لها ، إلاّ المحافظة على بنيتها الجسمية ، وحاجاتها البدنية ، وليس عندها من الزمن ما تتفرغ

---

(١) انظر تفسير المنار محمد رشيد رضا ١/ ٢٨٢ ، ٢٨٤

فيه لأدنى من ذلك، كما هو شأن الطفل في صباه[١].

ثم يمضي الشيخ يبين أن الأديان جاءت في طور أشبه بطور الطفولية فيقول: «جاءت الأديان والناس من فهم مصالحهم العامة، بل والخاصة في طور أشبه بطور الطفولية للناشئ الحديث العهد بالوجود، لا يألف منه إلاّ ما وقع تحت حسه، ويصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمسه، وأن يتناول من المعاني ما لا يقرب من لمسه... فهو من الحرص على ما يقيم بناء شخصه في هم شاغل عما يلقى إليه فيما يصله بغيره اللهم إلا يدا تصل إلى فمه بطعام أوتسنده في قعود أوقيام، فلم يكن من حكمة تلك الأديان أن تخاطب الناس بما يلطف في الوجدان أويرقى إليه بسلم البرهان، بل كان من عظيم الرحمة، أن تسير بالأقوام وهم عيال الله سير الوالد مع ولده في سذاجة السن لا يأتيه إلامن قبل مايحسه بسمعه أوببصره، فأخذتهم بالأوامر الصادعة والزواجر الرادعة وطالبتهم بالطاعة وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعة كلفتهم بمعقول المعنى جليّ الغاية وإن لم يفهموا معناه ولم تصل مداركهم إلى مرماه وجاءتهم من الآيات بما تطرف له عيونهم وتنفعل به مشاعرهم وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه»[٢].

وهكذا - في رأي الشيخ - بدأت الديانات مع الإنسان في مرحلة الأولى مواكبة مع عقليته تنتقل معه من مرحلة إلى أخرى حسب تطوره وتدرجه نتيجة لحوادث الكون حتى انتهى إلى مرحلة سن الرشد "جاء الإسلام يخاطب العقل"[٣].

إن القارئ لهذا النصوص - التي أوردتها مع طولها حتى لايظن أن هناك تجنيا على الشيخ - لايخرج منها إلاّ أن يجزم بأن الشيخ تأثر بذلك التيار الغربي الجارف الذي كان يحمل لواء التطور. وهو وإن لم يقل - بتطور العقيدة من الوثنية إلى التوحيد لكنه يقرر بأن العقيدة في الله لم تكن كاملة قبل الإسلام،

(١) المصدر السابق ٢/ ٢٩١، ٢٩٢.
(٢) رسالة التوحيد: محمد عبده ص ١٦٠.
(٣) المصدر السابق ص ١٦٢.

وهذا مخالف ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة - كما يأتي - ثم إن تشكيكه بأن آدم أبو البشر يفتح طريقا للذين يزعمون بتطور الإنسان من الحيوان أو من أجناس شتى وهذا مخالف لما دلت النصوص. وقد ذكر الشيخ رأيه هذا في أكثر من موضع ولعل أصرحها عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء ﴾[١]. حيث ذكر أن الآية لاتدل بالنص ولابالظاهر أن يكون المراد بالنفس آدم إذ لوكان آدم أبا البشر كلهم لما قال: ﴿ رِّجَالاً وَنِسَاء ﴾ بل قال جميع الرجال والنساء، ولما صح الخطاب إلى نفس معهودة إذ إن من الناس من لا يعرفون آدم ولاحواء ولم يسمعوا بهما، كما أن العلم والبحث في آثار البشر مما يطعن في تاريخ العبرانيين الذين جعلوا للبشر تاريخا متصلا بآدم[٢].

ومحمد عبده ليس وحده في هذا الرأي بل إن بعض تلاميذه ذهبوا إليه فالسيد محمد رشيد رضا نقل في تفسيره أخبارا تؤيد رأي الشيخ ولم يرد على رأيه[٣]. وفسر المراد بالنفس «بالماهية أو الحقيقة التي كان بها الإنسان هو هذا الكائن الممتاز على غيره من الكائنات. أي خلقكم من جنس واحد وحقيقة واحدة. ولافرق في هذا بين أن تكون هذه الحقيقة بدئت بآدم كما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين، أو بدئت بغيره وانقرضوا كما قاله: بعض الشيعة والصوفية، أوبدئت بعدة أصول أنبث منها عدة أصناف كما عليه بعض الباحثين. ولابين أن تكون هذه الأصول أو الأصل مما ارتقى عن بعض الحيوانات أوخلق مستقلا على ما عليه الخلاف بين الناس في هذا العصر»[٤].

ويرى الشيخ أحمد مصطفى المراغي أن جمهور العلماء لم يأخذوا قولهم من نص الآية، وإنما أخذوه تسليما، وهو أن آدم أبو البشر، ثم قال: «وقال بعض العلماء: أبهم الله تعالى أمر النفس التي خلق الناس منها، فلندعها على إبهامها. فإذا ثبت ما يقوله

---

(١) سورة النساء الآية: ١

(٢) انظر: تفسير المنار: ٤/ ٣٢٣، ٣٢٤

(٣) انظر: المصدر السابق ٤/ ٣٢٥، ٣٢٦.

(٤) انظر: المصدر السابق ٤/ ٣٢٧.

الباحثون .

من أن لكل صنف من أصناف البشر أبا كان ذلك غير مخالف لكتابنا ، كما هو مخالف للتوراة التي نصت على أن آدم أبو البشر ، فحمل ذلك بعض الناس على الطعن في كونها من عند الله ووحيه[١] . إن هذه الآراء تنم عن هزيمة داخلية في هؤلاء العلماء أمام النظريات الحديثة التي لم تثبت صحتها - إن لم يثبت بطلانها - عندهم ، إنهم يحترمون آراء الباحثين أكثر من احترامهم

لأقوال جمهور المفسرين ، وإنهم ليقلقون من مخالفة القرآن للنظريات الحديثة ، وكأن تلك النظريات وحيا من عند الله ، أو حقائق علمية لا جدال فيها ، إنهم في آرائهم تلك يعطون الضوء الأخضر - كما قال فهد الرومي -[٢] . لمن يريد أن يدخل نظرية داروين وغيرها من نظريات تطور الأديان في أذهان المسلمين ، ويفتحون بابا للعلمانيين الذين ينادون بتحرير الإنسان من الدين ، فإن بعضهم يدعي بلوغ البشرية سن الرشد ، ومن ثم عدم حاجتها إلى الدين . يقول الدكتور محمد خلف الله: «إن البشرية لم تعد في حاجة إلى من يتولى قيادتها في الأرض باسم السماء ، فلقد بلغ سن الرشد وآن لها أن تباشر شؤونها بنفسها»[٣] . كما يفتحون بابا لدعاة التنوير .

* * * * *

(١) انظر: تفسير المراغي أحمد مصطفى المراغي ٤/ ١٧٥ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده .

(٢) منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير ، د . فهد الرومي ٢/ ٦١١ .

(٣) انظر: غزو من الداخل ، جمال سلطان ص ٥١ .

المبحث الخامس

نقد نظرية التطور الديني

إن فكرة التطور الديني لا تحتاج منا بذل جهد كبير لبيان تناقضها مع دين الله، بل إن تصورها كاف في الرد عليها، ولكن نظرا لما لهذه الفكرة من رواج في العالم، حيث دخلت أغلب مجالات العلوم، وخاصة في علم الاجتماع، وعلم النفس، ناهيك عن علم التاريخ، وعلى وجه الخصوص علم تاريخ الأديان، ولما لها من أثر ظاهر عند بعض كتاب المسلمين؛ فإن من الضروري توضيح أصل المشكلة، وتجلية الحق فيها.

المطلب الأول: أصل الإنسان كما بينه القرآن

الغاية عند الباحثين - التطوريين - هي معرفة أصل العقيدة في الإنسان، ولا يمكن تحقيق هذا المطلب إلاّ بمعرفة أصل الإنسان، ومعرفة تاريخه معرفة تامة، وهذا مما لا يمكن للإنسان أن يعرفه، أو يدركه بعقله المجرد، أو بعلمه البشري؛ للأسباب الآتية:

١ - أن ما نعرفه عن التاريخ الإنساني قبل خمسة آلاف عام قليل، أما ما نعرفه قبل عشرة آلاف عام؛ فيعتبر أقل من القليل، وما قبل ذلك؛ فيعتبر مجاهيل لا يدري علم التاريخ من شأنها شيئا؛ لذا فإن كثير من الحقيقة ضاع بضياع التاريخ الإنساني.

٢ - إن الحقائق التاريخية التي ورثها الإنسان اختلطت بباطل كثير، بل ضاعت في أمواج متلاطمة في محيطات واسعة من الزيف، والدجل والتحريف، ومما يدل على ذلك أن كتابة تاريخ حقيقي لشخصية أو جماعة ما في العصر الحديث تعتبر من أشق الأمور، فكيف بتاريخ يمتد إلى فجر البشرية؟.

٣ - إن قسما من التاريخ المتعلق بالعقيدة لم يقع في الأرض، بل في السماء[(١)].

لذلك فإن الطريق الوحيد لمعرفة أصل الإنسان، وتاريخه؛ لنعرف العقيدة، وتاريخها هوكتاب الله الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾[(٢)]. وقد فصل الله فيه تاريخ الإنسان تفصيلا لا يبقى معه أدنى غموض، أو لبس، فالله - سبحانه - أخبرنا أن

---

(١) انظر: العقيدة في الله للأشقر ص ٢٤٥.

(٢) سورة فصلت الآية: ٤٢.

خلق آدم أبي البشر كان من تراب ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾(١) . ثم من طين ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ ﴾(٢) . ثم من طين لا زب ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾(٣) .

ثم من حمأ مسنون ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾(٤) . ثم من صلصال كالفخار ﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾(٥) . ثم نفخ فيه الروح ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾(٦) . ثم سجدت له الملائكة إلاّ إبليس ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾(٧) .

وأخبرنا الله – سبحانه – أنه أحاط آدم علما بالأسماء تمهيدا لممارسة خلافته في الأرض ، وإظهارا للملأ الأعلى فضل البشر ، ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾(٨) .

كذلك أخبرنا الله أنه خلق من آدم زوجه حواء ، قال تعالى ﴿ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾(٩) . ثم أمر آدم أن يسكن في الجنة هو وزجه ، قال تعالى ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾(١٠) . لكن آدم عصى ربه ، وأكل من الشجرة التي نهاه عنها ، ثم تاب الله

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٥٩ .
(٢) سورة ص الآية: ٧١ .
(٣) سورة الصافات الآية: ١١ .
(٤) سورةالحجر الآية: ٢٦ .
(٥) سورة الرحمن ، الآية: ١٤ .
(٦) سورة الحجر ، الآية: ٢٩ .
(٧) سورة ص ، الآية: ٧٣ - ٧٤ .
(٨) سورة البقرة الآية: ٣٠ - ٣٣ .
(٩) سورة النساء ، الآية: ١ .
(١٠) سورة البقرة ، الاية: ٣٥ .

عليه ، وأمره بالهبوط إلى الأرض نبيا كريما مؤمنا بالله وحده لا شريك لـه[١] ، وقبل الهبوط وعـد الله لآدم بـأن يـنزل علـيه وعـلى ذريـته هـداه ؛ كـي يعرف الناس بربه ، ومنهجه ، وتشـريعه ، ووعـد المسـتجيبين بالهداية في الدنيا ، والسعادة في الآخرة[٢] ، وتوعد المكذبين بالشـقاء في الدنيا ، والعذاب في الآخرة ، قال تعالى ﴿ قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُـدًى فَمَـن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[٣] .

وقـال تعـالى: ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُـدَايَ فَـلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَـى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴾[٤] .

هكـذا كـان خلـق الإنسـان الأول - آدم عليه السلام - وهكذا أعلى شأنه عند الملأ الأعـلى ، وهكـذا بـدأ اتصـاله بخالقـه ، مـنذ بـدء حياته الأولى ، وفي كلّ هذا يختلف عن الإنسـان الـبدائي ، الذي تصفه الكتب المتصلة بالدراسة الإنسانية كالتاريخ والجيولوجيا ، والسـلالات ، والاجـتماع ، وعـلم الـنفس ، والذي لا يخرج عن كونه - بزعمهم - قردا راقيا ، أو وحشا قبيح المنظر[٥] ، أو على أفضل الحالات إنسانا همجيا ساذجا .

ولايمكـن أن نحصـر النصـوص التي تحدثت عن خلق الإنسان ، وعن أحواله ، سواء عـن آدم ، وعـن ذريـته ، ولكـن مـا قدمنا عن خلق الإنسان ، وبدء حياته في هذا الكون ، لكـاف في الدلالـة عـلى أن خلـق الإنسان مخالف بما يذهب إليه أصحاب نظريات التطور الديني .

---

(١) انظر: الإنسان في ظل الأديان ص٥٠ - ٥٢ .

(٢) انظر: العقيدة في الله ، للأشقر ص ٢٤٦ .

(٣) سورة البقرة ، الآية: ٣٨ - ٣٩ .

(٤) سورة طه الآية: ١٢٣ ، ١٢٦

(٥) انظر: الإنسان فظل الأديان ص ٥٣ .

المطلب الثاني: الأصل في عقيدة البشرية التوحيد والشرك طارئ

في ضوء - ما سبق تبين لنا أن الإنسان الأول - آدم - عليه السلام - خلق خلقا كاملا مستقلا، وأنه لم يترك بنفسه أوعقله بل الله سبحانه أكرم آدم بالهداية، ووضح له منهجه في الحياة وفطره على التوحيد الكامل، وأخذ الله العهد على التوحيد من ذريته وهم في عالم الذر قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾[1].

وبدأت ذرية آدم الحياة على الأرض، أمة مؤمنة مجتمعة على التوحيد، قال تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾[2].

وفي تحديد الفترة التي كان أبناء آدم على التوحيد قبل حدوث الشرك، أخرج ابن حبان في صحيحه من حديث أبي أمامة رضي الله عنه «أن رجلا سأل رسول الله ﷺ قال: يا رسول الله: أنبيّ كان آدم؟ قال: "نعم مكلم" قال: فكم بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون»[3]. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين، ومنذرين، قال: وكذلك هي في قراءة عبدالله: «كان الناس أمة واحدة فاختلفوا» وكذلك كان يقرأها أبي بن كعب - رضي الله عنه -»[4]. ويشهد لهذه القراءة قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[5].

ومقدار القرن كما يتبادر إلى الذهن مائة سنة، وعلى ذلك يكون بين آدم ونوح ألف سنة. وقد يكون المراد بالقرن الجيل من الناس، كما في قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ

---

(١) سورة الأعراف الآية: ١٧٢ - ١٧٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.
(٣) أخرجه ابن حبان، الحديث رقم ٦١٧٥.
(٤) انظر: تفسير ابن كثير ١/٢١٩.
(٥) سورة يونس، الآية: ١٩.

الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ﴾(١) . وقوله تعالى: **﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾**(٢) . وقوله تعالى: **﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾**(٣) . وكان الجيل قبل نوح يعمرون الدهور الطويلة ، وعلى هذا قد يكون بين آدم ونوح أكثر من ألف سنة(٤) .

والمقصود أن ذرية آدم كان أمرها على السداد ، والاستقامة ، وكان دينها واحدا ، ومعبودها واحدا ، وكانت على التوحيد الخالص ، مدة عشرة قرون قبل حدوث الشرك .

أول انحراف طرأ على العقيدة: بعد تلك الاستقامة على منهج الله حدث زيغ وانحراف عن الجادة ، وكان أول انحراف طرأ هو الغلو في تعظيم الصالحين ، ورفعهم إلى مرتبة الآلهة المعبودة(٥) .

جاء في صحيح البخاري من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى: **﴿ وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾**(٦) .«قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ، ففعلوا فلم تعبد حتى هلك هؤلاء وانتسخ العلم عبدت»(٧) .

فهذا الحديث دل على أن أول شرك حدث في البشرية كان في قوم نوح - عليه السلام- لذلك كان نوح أول رسول بعثه الله تعالى لتصحيح العقيدة قال تعالى: **﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾**(٨) .

والدليل على ذلك أن نوحا كان أول رسول إلى الناس حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما وفيه: «... **فيأتون نوحا فيقولون: يا نوح**

---

(١) سورة الاسراء ، الآية: ١٧ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية: ٣٨ .

(٣) سورة مريم ، الآية: ٧٤ .

(٤) انظر: البداية والنهاية ، لابن كثير ١/ ٩٤ .

(٥) انظر: العقيدة في الله ، للأشقر ص ٢٤٧ .

(٦) سورة نوح الآية: ٢٣ .

(٧) أخرجه البخاري ٨/ ٥٣٥ الحديث رقم ٤٩٢٠ .

(٨) سورة الأعراف الآية: ٥٩ .

أنت أول الرسل إلى أهل الأرض... »[١] .

ثم تتابعت الرسل وتعاقب الأنبياء بعد نوح فكلما ضلت أمة كان من رحمة الله عليها أن يرسل إليها رسولا قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾[٢] .

وقال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾[٣] . وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[٤] . وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[٥] . وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾[٦] .

فهذه الآيات تدل أنه ما من أمة على مدار التاريخ إلاّ وبلغ الحق ، ومما يدل على ذلك أن الأمم المكذبة في يوم القيامة تقر وتعترف بتبليغ الرسل لها دعوة الله: ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾[٧][٨] .

التوحيد أساس دعوة الرسل: بين القرآن الكريم أن التوحيد أصل دعوة الرسل جميعا ، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[٩] ، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ ﴾[١٠] .

فالتوحيد كان قاعدة دين الله كله في الرسالات كلها ، على مدار العصور

---

(١) أخرجه البخاري ، الحديث رقم ٣٣٤٠ انظر: فتح الباري ٦/٤٢٨ . وأخرجه مسلم ، الحديث رقم ٣٢٧ ، انظر ، شرح النووي ٣/٦٦ .
(٢) سورة المؤمنون ، الآية: ٤٤ .
(٣) سورة يونس الآية: ٤٧ .
(٤) سورة فاطر ، الآية: ٢٤ .
(٥) سورة الرعد ، الآية: ٧ .
(٦) سورة غافر ، الاية: ٧٨ .
(٧) سورة الملك ، الآية: ٨ - ٩ .
(٨) انظر: العقيدة في الله ، للأشقر ص ٢٤٩
(٩) سورة الأنبياء ، الاية: ٢٥ .
(١٠) سورة النحل ، الاية: ٣٦ .

والقرون[(١)] . ولم يمر تدرجا ، ولا تطورا ، كما يزعمه علماء علم الأديان المقارنة ، إن القارئ للقرآن الكريم يجد أن الأنبياء والرسل جاءوا كلهم بعقيدة واحدة ، عقيدة التوحيد الكامل الخالص لله - سبحانه - ، وكل رسول كان يفتتح دعوته بهذا التوحيد ، يقول سيد قطب: «لم يكن التوحيد - في الرسالات السماوية - قط تطورا في العقيدة انتهى إليه التعدد والتثنية ، أو انتهت إليه في الأرواح ، ثم الآلهة الكثيرة ، أو انتهت إليه شتى مدارج والخطوات التي يختلف علماء الأديان المقارنة في ترتيبها ، وفي تعليلها ، ويذهبون في شأنها كلّ مذهب ، وبخاصة بعدما سيطر مذهب النشوء والارتقاء في عالم الأحياء ، حوالي قرن من الزمان - بعد داروين - وما جره على الفكر الأوروبي من لوثة في تعميمه على كلّ ما في الوجود ، وكل من في الوجود .

لقد أرسل الله الرسل - منذ فجر البشرية - بالتوحيد الخالص الكامل . . . وقد عرف التوحيد - في صورته الخالصة الكاملة - هؤلاء الرسل - صلوات الله عليهم - وعرفه كذلك منهم أتباعهم الذين آمنوا بهم على مدار الرسالات . . .»[(٢)] .

ويقول أيضا: «إن الذين يتحدثون عن تطور المعتقدات ، وتدرجها ، ويدمجون العقيدة الربانية في هذا التدرج والتطور ، يقولون غير ما يقول الله . فهذه العقيدة . . . جاءت دائما بحقيقة واحدة ، وحكيت العبارة عنها في ألفاظ بعينها ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾[(٣)] . وهذا الإله الذي دعا الرسل كلهم إليه هو رب العالمين ، الذي يحاسب الناس في يوم عظيم ، فلم يكن هناك رسول دعا إلى رب قبيلة ، أو رب أمة ، أو رب جنس ، كما أنه لم يكن هناك رسول من عند الله دعا إلى إلهين اثنين ، أو آلهة متعددة ، وكذلك لم يكن هناك رسول من عند الله دعا إلى عبادة طوطمية ، أو نجمة ، أو أرواحية ، أو صنمية . ولم يكن هناك دين من عند الله ليس فيه عالم آخر ، كما يزعم من يسمونهم "علماء الأديان" ، وهم يستعرضون الجاهليات المختلفة ، ثم يزعمون أن معتقداتها كانت هي الديانات التي عرفتها البشرية في هذه الأزمان دون غيرها . لقد جاءت الرسل - رسولا بعد رسول - بالتوحيد الخالص ، وبربوبية رب العالمين ، وبالحساب في يوم الدين . . . ولكن الانحرافات

---

(١) انظر: مقومات التصور الإسلامي سيد قطب ص ٩٨ .

(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ٨٤ .

(٣) سورة هود الآية: ٥٠

في خط الاعتقاد مع الجاهليات الطارئة، بعد كلّ رسالة، بفعل العوامل المعقدة المتشابكة في تكوين الإنسان ذاته، وفي العوامل التي يتعامل معها، هذه الانحرافات تمثلت في صور شتى من المعتقدات الجاهلية... هي هذه التي يدرسها "علماء الأديان" ثم يزعمون أنها الخط الصاعد في تدرج الديانات، وتطورها»[١].

وهكذا بين القرآن تاريخ العقيدة، وهكذا تبين أن التوحيد هوالأصل في البشرية، وأن الشرك لم يحدث إلاّ بعد قرون، هذا ما يقرره كتاب الله ﴿ لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ﴾[٢]. أما ما يقوله علماء الأديان المقارنة من تطور العقيدة من الشرك إلى التوحيد فليست إلاّ فروضا وتخيلات مبنية على الأوهام. وللأسف؛ فإن نظريات التطور الديني من الأفكار التي شكلت تحديا خطرا على العقيدة الصحيحة في العصر الحديث، ولا زالت خطورتها، فنظرية التطور في جانبها المادي المتعلق بالكائنات الحية - نقدها علماء الغرب قبل غيرهم، وظهرت على حقيقتها، وعرف الجميع كذبها، أما ما يتعلق في مفهومها الذي نتحدث فيه؛ فإن هذه النظرية ما زالت راسخة في الفكر الغربي، بل يعتبر أخطر وسيلة يتخذها علماء الغرب في محاربة الدين، وجعله مجموعة من الأساطير التي لا تصلح إلاّ للتلهية، وإمتاع الخيال[٣]. ومما يزيد خطورة هذه النظرية في العالم الإسلامي وقوع بعض الشارحين للإسلام، أو المدافعين عنه فيها، وقراءة الراغبين في الإسلام لمؤلفات هؤلاء المنزلقين، وهم يحسنون الظن بهم؛ لأنهم متحمسون للإسلام، مدافعين عنه، فينزلقون وراءهم[٤]. في حمأة هذه النظرية المناقضة للقرآن والسنة.

إن نقد هذه النظرية تقع على عاتق علماء المسلمين، وعلى وجه الخصوص المتخصصين منهم في علم الملل والنحل؛ ولكي يكون نقد هذه النظرية قاطعا لدابر الشبهات، فلابد أن تتوفر على ناقدها الأهلية - كما سبق في الباب الثاني.

* * * * *

---

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ٣/ ١٣٠٤ - ١٣٠٥.

(٢) سورة فصلت، الاية: ٤٢.

(٣) انظر: أخطاء المنهج الغربي الوافد، لأنور الجندي ص ٧٣.

(٤) مقومات التصور الإسلامي ص ٩٨ - ٩٩.

الفصل الخامس
الغزو الفكري وصلته بعلم الملل

توطئة:

إن الحديث عن الغزو الفكري بأبعاده المختلفة ، وما يشمله من أساليب ملتوية ، وما يدخله من مجالات ، مما لا يمكن الادعاء بإمكانية الإحاطة به في حدود فصل واحد ، بل ولا في كتاب واحد ، وهنا وأمام هذا الموضوع الطويل أريد أن لا أدخل في تفصيلاته ، فأقتصر عن الغزو الفكري بالقدر الذي يبين أنه أحد الأسباب الداعية إلى دراسة علم الملل المبينة لقيمته في العصر الحديث .

* * * * *

المبحث الأول

الغزو الفكري المعاصر

المطلب الأول: مفهوم الغزو الفكري

إن مصطلح الغزو الفكري من المصطلحات الحديثة، حيث لم يسمع به بهذا الاسم قبل هذا القرن، بيد أن معناه، ومفهومه قديم قدم الأمم، والشعوب، والثقافات(١).

وقد كتب كثير من الباحثين المعاصرين في الغزو الفكري، وحددوا مفهومه، ومعناه، ومن أقوالهم في تحديد معنى الغزو الفكري ما يلي:

١ - قال الأستاذ عبد الرحمن حبنكة: «إن الغزو الفكري.. معناه ومضمونه، وغايته التضليل الفكري للمسلمين، ببث المفاهيم الفاسدة عن الدين، والحياة، والوجود، وعن الاجتماع، والأخلاق، والسلوك، وعن شروط التقدم الحضاري، ووسائله، وعن النفس، والوجدان، والضمير، وعن الغاية من هذه الحياة، ووسائل الاغتنام السعادة فيها، إلى غير ذلك مما يمكن أن يهدم شخصية الفرد المسلم، والأمة الإسلامية»(٢).

- وقال الدكتور عبد الستار فتح الله: «الغزو الفكري واحد من شعب الجهد البشري المبذول ضد عدو ما لكسب معارك الحياة منه، ولتذليل قياده، وتحويل مساره، وضمان استمرار هذا التحويل حتى يصبح ذاتيا إذا أمكن هذا، وهذا هو أقسى مراحل الغزو الفكري بالنسبة للمغلوب، وإن كان في نفس الوقت هو أقصى درجات نجاح الغزاة.

وسلاح هذا الغزو هو: الفكرة، والكلمة، والرأي، والحيلة، والنظريات، والشبهات.

٢ - وخلابة المنطق، وبراعة العرض، وشدة الجدل، ولدادة الخصومة، وتحريف الكلم عن مواضعه، وغير ذلك مما يقوم مقام السيف، والصاروخ في أيدي الجنود». ويستمر الدكتور فتح الله مبينا حدود الغزو الفكري فيقول: «ويتميز الغزو الفكري

---

(١) انظر: الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، د. توفيق يوسف الواعي ص ٦٧٩.

(٢) الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام - القسم السادس - الأستاذ عبد الرحمن بن حسن حبنكة الميداني ص ٤٩٩.

بالشمول والامتداد ، فهو حرب دائمة دائبة ، لا يحصرها ميدان ، بل يمتد إلى شعب الحياة الإنسانية جميعا ، وتسبق حروب السلاح ، وتواكبها ، ثم تستمر بعدها ، لتكسب ما عجز السلاح عن تحقيقه ، فتشلّ إرادة المهزوم وعزيمته حتى يلين ويستكين ، وتنقض تماسكه النفسي حتى يذوب كيانه ، فيقبل التلاشي والفناء في بوتقة أعدائه ، أو يصبح امتدادا ذليلا لهم ، بل ربما تبلغ حدا من الإتقان يصل بها إلى أغوار النفس ، فتقلب معاييرها ، ومفاهيمها ، وتشكل لها أنماطا جديدة في السلوك ، والأخلاق ، والأذواق إلى الدرجة التي تجعل المهزوم يفخر فيها بتبعيته ، ويراها شرفا خليقا بالرضا والشكران . .»[١] .

٣ - ويقول نذير حمدان: «الغزو الفكري يعني هجمات فكرية متلاحقة ذات صلة بتاريخ المسلمين وحاضرهم تطرح شبهات وأفكارا مزيفة مستوعبة تراث الإسلام ، وأحوال المسلمين ، وقد انطلقت من البلاد الأجنبية شرقية أو غربية ، على أيدي المنصرين ، وأقلام المستشرقين ، وأعمال المستعمرين ، بعيدة عن العمل العسكري المسلح»[٢] .

فهذه التعريفات في غالبها تنصرف إلى الغزو الفكري المنظم الذي خطط له الأعداء ، لكن هناك غزو فكري آخر ، وهو انتقال علل التدين ، وبعض انحرافات ، وتصورات التي ابتليت بها الأمم السابقة ، إلى الأمة الإسلامية ، وهذه قد تكون من دون قصد من الأعداء ، وإنما تأتي بأسباب راجعة إلى المسلمين أنفسهم .

وقد حذرت النصوص الشرعية في أكثر من مناسبة ، فقد عرض له القرآن هذا النوع من تسرب الأفكار بأكثر من أسلوب وحديث ، وقدم دروسه ، وعبره من قصص الأنبياء ، ومجتمعات الأنبياء ، واعتبر ذلك نوافذ للمسلمين للإطلالة على واقع الأمم السابقة ، والتعرف على أسباب هلاكها ، وسقوطها ، واكتشاف سنة الله في النهوض والسقوط ، لذلك شرع السير في الأرض ، والتوغل في التاريخ الإنساني ، وذلك لتحقيق الوقاية الفكرية ، والحصانة الحضارية ، من غزو ، وانتقال علل التدين ، التي كانت سبب هلاك الأمم السابقة ، وسقوط حضارتها ، نجد السنة النبوية تحذرنا من هذا الغزو الفكري

---

(١) المصدر السابق - القسم الثاني - للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد ص ١٧٩ - ١٨٠ .
(٢) في الغزو الفكري ، لنذير حمدان ص ٦ - ٧ ، مكتبة الصديق - الطائف .

في أحاديث كثيرة، منها قوله ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قالوا يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»[١][٢].

فهذا النوع من الغزو الفكري يمكن أن نسميه الغزو الفكري الخفي، بينما نسمي النوع الأول: الغزو الفكري الجلي، ذلك أن الغزو الفكري المنظم قد يفطن له كثير من المسلمين بسبب ما ينكشف من مخططات الأعداء بين فينة وأخرى، ولأنه يقع في الغالب في ظروف صراع قائم بين المسلمين وغيرهم. أما النوع الخفي فيقع فيه المسلمون، ويسلكون مسالك الأمم الكافرة في العقائد، والأفكار، والتقاليد، والعادات، ودون أن يكون للكفار دور في ذلك، ولذلك يمكن أن نعتبر هذا النوع أخطر أنواع الغزو الفكري.

وعلى العموم فإن جميع أنواع الغزو الفكري - حتى في المجالات التي يظن بعض الناس أنها جوانب مادية ليس لها علاقة بالدين - مقصود في هذا البحث، ذلك أن الإسلام لا يعرف جانبا من جوانب الحياة منفصلا عن الدين، كما لا يوجد إنتاج - ولو كان ماديا - بريئا عن أفكار منتجيه. يقول الأستاذ عمر عبيدة: «ولعل من التوهم الظن، أن الإنتاج المادي والعلوم التجريبية هي منتجات وعلوم بريئة محايدة، ومجردة عن العبور بثقافة أهلها ومنتجيها إلى السوق الاستهلاكية وبالتالي فهي لا تشكل خطورة ثقافية على المتعاملين معها، مع أن الحقيقة: أن الإنتاج المادي كائنا ما كان هو ثمرة للمكون الثقافي وسبيل إليه، ذلك أن أي إنتاج مادي لا يمكن أن ينشأ في فراغ، وبدون خلفيات فكرية وشاكلات ثقافية.

لذلك يمكن القول: بأن أي إنتاج مادي لا بد أن يكون متشبعا بثقافة المنتج، وحاملا لبصماته، وقسماته الثقافية، وهو بالتالي يصبح أحد المعايير الرئيسة، لإشاعة القيم الثقافية بطبيعة استعمالاته في المجالات المختلفة، وبذلك يعيد وإلى حد بعيد بناء النسيج الاجتماعي للأمة، كما ينشئ شبكة علاقات اجتماعية جديدة، لأن الإنتاج المادي وآفاق الارتقاء به، والتعامل معه تغرس قيما، وتنشئ علاقات اجتماعية، ومكونات نفسية،

---

(١) رواه البخاري، الحديث رقم ٧٣٢٠، انظر: فتح الباري ١٣/ ٣٠٠.

(٢) انظر: الغزو الفكري، د. أحمد عبد الرحمن السايح ص ١٤ - ١٥.

تتسق معه، وتتشكل ثقافتها وأفكارها به[١].

الغزو الفكري في عهد النبي ﷺ: إذا كان مصطلح "الغزو الفكري" مصطلحا جديدا فإنه لا يعني إطلاقا أن مسماه جديد، بل نجد أن المعاني، والمفهوم الذي ينطبق عليه الغزو الفكري كان موجودا في عصر النبي ﷺ، وأن الوحي قد اشتمل على أوفى تفصيل لجوانبه، وشقيه: الهجومي، والدفاعي، تعليما للمؤمنين، حتى يواصلوا الدعوة إلى الله تعالى: على هدى وبصيرة، وردا على الكافرين والمنافقين، وأضرابهم من أهل الكتاب، خاصة اليهود الذين احترفوا الدسيسة، ومردوا على الشبهات وإثارة الفتن..

وقد دمغ القرآن الكريم، قادة هذا اللون من العرب بأسماء وصفات غاية في النكارة، مثل: الشياطين، والسفهاء والمعوقين، والمرجفين، وأكابر المجرمين وأئمة الكفر، والذين في قلوبهم مرض وسمي هذا اللون ذاته بصفات أساليبه الخسيسة، ونتائجه الخبيثة مثل: زخرف القول، والغرور، والخبال، والفتنة[٢].

فهذا النوع من الحرب الذي وصفه القرآن لم يكن إلا ما نسميه اليوم الغزو الفكري.

والمتتبع للتاريخ الإسلامي يرى أن الغزو الفكري لم يتوقف يوما، ولكن كان يمر بفترات يكون فيها بين قوة وضعف، حيث يشتد ويقوى حين يكون الجو مناسبا، ويضعف حين يلقى من المسلمين قوة وردعا.

المطلب الثاني: أسباب الغزو الفكري

تتلخص أهم الأسباب التي وراء الغزو الفكري ضد الإسلام والمسلمين فيما يلي:

١ - **العداء الصليبي للإسلام**: الغزو الفكري لا يقتصر بالغرب النصراني، ولكن الغرب باعتباره رأس الفتنة في هذا يكون أول من يعنيه الحديث، وعلى أية حال فإن العداء الصليبي للإسلام شكل الصعار الوبائي لدى الأمم الغربية، فأخذوا مستميتين يوزعون السموم ذات اليمين وذات الشمال، ويفترون الأكاذيب، ويطمسون العقائد، ويدبرون المكائد، ويتصيدون السقطات، ثم يدخلون في روع أنفسهم وفي عاطفة بني

---

(١) المصدر السابق ص ١٣ - ١٤.

(٢) الغزو الفكر والتيارات العادية المعادية للإسلام القسم الأول - ص ١٨١ - ١٨٢

جلدتهم أنهم أرقى عنصرا ، وأفضل عقلا ، وأملح دينا وأنهم أوصياء على البشرية ، وسادة الإنسانية ، وهداتها ، ومرشدوها[١] .

ولا شك أن العداء الصليبي من الأمور البديهية لدى المسلمين الذين يقرأون القرآن الكريم ، لكن ما ينبغي أن ننبه إليه هو أن هذا العداء صار أشد ما يكون بعد الحروب الصليبية التي فشلت فيها مخططات النصارى ، وانهزمت جيوشهم ، والتي على إثرها تحول صراعهم من الميدان العسكري إلى ميدان الفكر ، والكلمة ، أي إلى الغزو الفكري[٢] . ولا يمكن إحصاء أقوالهم المعلنة صراحة عدائهم الشديد للإسلام ، ولكن لنأخذ منها طرفا لنرى مدى حقدهم للإسلام ، ومن هذه الأقوال: قول جلادستون رئيس وزراء بريطانيا: «ما دام القرآن موجودا فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق ، ولا أن تكون هي نفسها في أمان»[٣] .

وقال وليم غيفورد بلغراف الإنجليزي: «متى توارى القرآن ، ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه»[٤] . فهذا العداء ، والحقد الدفين في صدور النصارى هو الذي يؤجج فيهم دائما روح الحماس إلى الغزو الفكري .

٢ - الخوف من انتشار الإسلام وقوته: لقد أدرك النصارى أن الإسلام دين دعوة عالمية ، وأنه دين سريع التأثير على المدعوين ، كما أدركوا حقيقة ما أصاب دينهم المحرف من زعزعة مبادئه لدى الإنسان الغربي بسبب ما لقي هذا الدين من نقد وجه إليه الإنسان الغربي نفسه ، ومن ثم اشتدت حاجتهم إلى الهجوم على الإسلام ، والتشكيك في أحقية الحضارة الإسلامية ، وتشويه سمعته لصرف أنظار الغربيين عن نقد ما عندهم من عقائد وكتب ، وإدخال الوهم ، والشك في نفوس المسلمين[٥] . ومن أقوالهم في هذا ما قاله

---

(١) الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية ص ٧٠٤ - ٧٠٥ .

(٢) انظر: في الغزو الفكري ، نذير حمدان ص ٨٠ - ٨١ .

(٣) انظر: أضواء على الثقافة الإسلامية ، لنادية شريف العمري ص ١٦٧ .

(٤) الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية ص ٧٠٥ .

(٥) انظر: مزالق التحدي العقدي وسبل التغلب عليها ، د . محيي الدين الألوائي ، وهو بحث منشور ضمن وقائع ندوة التحديات الحضرية والغزو الثقافي لدول الخليج ص ١٥٢ .

غاردنر: «إن القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف أوروبا»[(١)].

وقال لورانس براون: «إن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام، وفي قدرته على التوسع والإخضاع، وفي حيويته، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الغربي»[(٢)]. ثم بين أن خطر المسلمين هو الخطر العالمي الوحيد في هذا العصر الذي يجب أن تجتمع له القوى، وتجيش له الجيوش، وتلتفت إليه الأنظار فيقول حاكيا آراء المبشرين: «إن القضية الإسلامية تختلف عن القضية اليهودية، إن المسلمين يختلفون عن اليهود في دينهم، إنه دين دعوة، إن الإسلام لينتشر بين النصارى أنفسهم، وبين غير النصارى، ثم إن المسلمين كان لهم كفاح طويل في أوروبا، فأخضعوها في مناسبات كثيرة، إننا من أجل ذلك نرى المبشرين ينصرون اليهود على المسلمين في فلسطين»[(٣)]. إن هذا الخوف من انتشار الإسلام، وذلك الهلع من قوته من أهم الأسباب التي تدفع النصارى إلى الغزو الفكري.

٣ - التقدم المادي عند الغرب وتخلف المسلمين عن ركب الحضارة: إن التقدم المادي الذي وصله الغربيون أهلهم للسيطرة على العالم سياسيا، ثم شجعهم على بث أفكاره على الشعوب المستعمرة لتظل خاضعة له قلبا وقالبا. هذا من جانب، ومن جانب آخر كان ضعف المسلمين، من الناحية الفكرية، والمادية، سببا لهزيمة كثير من أبنائه أمام الغزو الفكري الغربي فكان ذلك سببا من أسباب نجاح الغزو الفكري في المسلمين.

٤ - الفراغ العقدي: إن أقوى قوة يواجه بها الإنسان على الأفكار الوافدة عليه هي قوة عقيدته فيما يؤمن به، لا سيما إذا كانت هذه العقيدة العقيدة الإسلامية؛ لكونها عقيدة شاملة، بريئة عن التناقضات، أما إذا تطرق إلى عقيدته ضعف، أو خلل فإنه يصبح فريسة سهلة لعقائد الأمم الأخرى، وللأفكار الغازية عليه، وفي هذا العصر لما أصابت الأمة الإسلامية الانحرافات العقدية، وانتشرت البدع والخرافات نجحت كثير من الأفكار الغازية عليها في التغلغل.

---

(١) أجنحة المكر الثلاثة، لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ص ١٣، دار القلم - بيروت، ١٩٧٧م.

(٢) الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية ص ٧٠٥.

(٣) المصدر السابق ص ٧٠٦.

المطلب الثالث: أهداف الغزو الفكري

الغزو الفكري المعاصر مهما تعددت صوره، ومجالاته فإنه غزو ديني بالدرجة الأولى، يهدف أول ما يهدف إلى فتنة المسلمين، وإخراجهم عن دينهم، وإفساد أخلاقهم، وأفكارهم وهذا أمر بين الله سبحانه لنا في كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[3].

فالله سبحانه في هذه الآيات وغيرها بين لنا حقيقة كيد الأعداء، سواء كانوا أهل كتاب أم مشركين، إن كيدهم لا ينتهي إلا بإخراج المسلم عن دينه حسدا، وحقدا من عند أنفسهم، وفي قوله تعالى: ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ إشارة إلى أن هذا الكيد والعداء يظهر من أفواههم، ولا يستطيعون إخفاءه مهما حاولوا، لكن ما يخفون في صدورهم أكثر وأعظم شناعة، ومصداقا لهذه الآيات نجد اليوم إعلانهم وتصريحهم بعض هذا البغضاء، من ذلك قول المنصر «زويمر» موجها للمنصرين: «إن مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام، ليصبح مخلوقا لا صلة له بالله، وبالتالي لا صله له تربطه بالأخلاق»[4].

ويقول مسيو شاتليه صاحب كتاب "الغارة على العالم الإسلامي": «إنه مهما اختلفت الآراء في نتائج المبشرين من حيث الشطر الثاني من خطتهم وهو "الهدم" فإن نزع الاعتقادات الإسلامية ملازم دائما للمجهودات التي تبذل في سبيل التربية النصرانية[5].

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٠٩ .

(٢) سورة البقرة الآية: ١٠٥ .

(٣) سورة آل عمران الآية: ١١٨ .

(٤) الزحف إلى مكة حقائق ووثائق، د. عبد الودود شلبي ص ٢ .

(٥) الغارة على العالم الإسلامي ا. ل شاتليه، تعريب محب الدين الخطيب، مساعد الباقي ص ٩ .

ويرى شاتليه: «أن إخراج المسلمين عن دينهم أمر طبيعي ممكن التحقيق»[١] .

أما عن الأسلوب المتبع في هذه الفتنة ، فقد قال عنه "زويمر": «لتكن لكم نعومة الأفعى في الزحف إلى قلوب المسلمين ، إن المسلم لا يغير دينه بسهولة ، لذلك كان لا بد من تخديره قبل فتح بطنه ، كما يفعل الجراحون»[٢] .

وهذا الأسلوب لا يتأتى إلا عن طريق الغزو الفكري ، وإذا كانت تلك الأقوال تمثل موقف النصارى ، فإن موقف اليهودي أشد تطرفا ، وأكثر كيدا ، فاليهود يعملون وفق بروتوكولات حكماء صهيون الهادفة لتحطيم العقائد الدينية المخالفة لهم ، وهدم جميع المذاهب[٣] . وتدمير أخلاق الشعوب .

المطلب الرابع: مجالات الغزو الفكري

ركز الأعداء غزوهم العقدي والفكري على العالم الإسلامي في مجالات عديدة ، ولكن الهدف في كلها واحد ، وهو هدم الدين الإسلامي ، وإضعاف مقومات نهوض الأمة الإسلامية ، ومحاولة فصلها عن دينها ، وأهم هذه المجالات:

١ - **الدين:** فقد أدرك الأعداء أن سر قوة المسلمين تكمن في تمسكهم بدينهم ، وأن الانتصار عليهم مرهون بفصلهم عن هذا الدين ، ومن ثم وجهوا كل جهودهم بحرب هذا الدين ، وأشد ألوان هذا الحرب هو الغزو الفكري الذي يهدف إلى تشويه مصادر الدين الإسلامي من قرآن وسنة ، وفقه ، وتاريخ ، والطعن في هذه المصادر من حيث المتن ، والمضمون ، وإنكار أصالتها . ويمكن أن نستغني عن ذكر الأمثلة بما ذكرنا عند ذكر منهج المستشرقين في الدراسات الإسلامية ، ذلك أن ما يذكره المستشرقون من الطعون تنفذ في كثير من الأحيان عن طريق الغزو الفكري الخبيث الماكر ، فالاستشراق ليس إلا أداة من أدوات الغزو الفكري ، وإنما خصصناه هناك في فصل خاص لأهميته في موضوع دراسة علم الأديان في الغرب .

٢ - **التعليم:** يعد مجال التربية والتعليم من أهم المجالات التي حرص الأعداء على

---

(١) المصدر السابق ص ٣٩ .

(٢) الزحف إلى مكة ص ٣٩ .

(٣) انظر: بروتوكولات حكماء صهيون ، ترجمة وتقديم ، د . إحسان حقي ص ٥٠ ، ٨٦ .

سيطرتها، وبث أفكارهم وعقائدهم فيها، وذلك لما لهذا المجال من أهمية في السيطرة على الأمم حاضرا ومستقبلا، ولهذا كان من ضمن مخططات المنصرين إنشاء مدارس تنصرية في البلاد الإسلامية أولاً، وثانياً السيطرة على مناهج التربية والتعليم، وقد نجحوا في هذا المجال إلى حد كبير، فهذا القس المنصر "زويمر" يقول: «لقد قبضنا أيها الإخوة في هذه الحقبة من الدهر ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في المماليك الإسلامية، وإنكم أعددتم نشأ في ديار المسلمين، لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام، ولم تدخلوه في المسيحية، وبالتالي جاء النشؤ الإسلامي طبقا لما أراده له الاستعمار المسيحي...»[1] وبسيطرتهم على التعليم استطاعوا تكوين أجيال تتنكر للإسلام، وتنبهر بالغرب وثقافته. وتدعوا بحماس إلى الأفكار الجاهلية.

ولعل أهم المظاهر التي أخذها الغزو الفكري في مجال التعليم ما يلي:

١ - محاصرة التعليم الديني ماديا ومعنويا.

٢ - توسيع دائرة التعليم المدني أو "للاديني"[2].

٣ - الابتعاث إلى الدول الكافرة وقد كان لهذا الابتعاث نتائج سلبية بالنسبة للمسلمين أهمها:

أ - الاستسلام للغرب والمبالغة في تأكيد التبعية للغرب التي أرادها في بادئ الأمر وتحققت لهم في نفوس المبعوثين.

ب - رجوع كثير من المبعوثين بروح الغرب وفكره..

جـ - تنفيذ المبعوثين بعد عودتهم لأغراض أعداء الأمة ودعوتهم الأخذ بالحضارة الغربية خيرها وشرها.

د - الانحراف العقدي والانهيار الخلقي اللذان يصاب بهما كثير من المبتعثين في ديار

---

(١) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، د. علي محمد جريشة، محمد شريف الزيبق ص ٦٣.

(٢) المصدر السابق ٦٤، أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي، د. صابر طعيمة ص ٤٥.

الغرب[١].

٤ - إنشاء المدارس الأجنبية في البلاد الإسلامية التي تروج أفكار الغرب قال أحد المبشرين: «المدارس أحسن الوسائل لترويج أغراض المستشرقين»[٢].

٥ - الاختلاط بين الجنسين المنافي للشريعة الإسلامية والآداب الفاضلة.

٦ - إدخال الفلسفات الهدامة في المناهج التعليمية.

٣ - اللغة والأدب: اللغة هي وعاء الفكر والحضارة، فبدونها لا يمكن التعبير عن المعاني، وتعتبر إحدى المقومات الرئيسة التي تكون شخصية الأمة وتعطيها ملامحها وهويتها، وترسي دعائم التفاهم بين أبنائها وتحقق وحدتها، وكلما ارتقت لغة الأمة ونمت واتسعت مفرداتها وكثر الاشتقاق والتوليد فيها كلما دلت على حيوية الأمة وتحضرها، ومن هنا حظيت لغة الأمم الراقية باهتمام بالغ، فلها مجامعها العريقة ومعاجمها المتطورة النامية، ودورياتها المستجدة التي توضح ما استجد فيها وما طرأ عليها[٣] أما الأدب فهو مجال فسيح يعبر فيه الأدباء أحاسيسهم وأذواقهم ويعبرون فيه آمال شعوبهم وآلامها، بأساليب مختلفة كالقصة والرواية. ولقد أدرك أعداء الإسلام أهمية اللغة العربية في الإسلام ودورها في حفظ الدين وهوية المسلمين فحاربوها وحاولوا إحلال العامية محلها.

كما حرصوا في الجانب الآخر نشر لغاتهم، لتكون وسيلة لنشر عقائدهم في المسلمين يقول شاتليه: «ولا شك أن إرساليات التبشير من بروتستانتية وكاثوليكية تعجز عن تزحزح العقيدة الإسلامية من نفوس منتحليها، ولا يتم ذلك إلا ببث الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوروبية، فبنشرها اللغات الإنجليزية والألمانية، والهولندية والفرنسية يتحكك الإسلام بصحف أوروبا وتتمهد السبل لتقدم إسلامي مادي وتقضي إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية التي لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها

---

(١) انظر: الغزو الثقافي للأمة الإسلامية ماضيه وحاضره، لمنصور بن عبد العزيز الخريجي ص ١٢٢ - ١٢٣ بتصرف.
(٢) الغارة على العالم الإسلامي ص ٣٧.
(٣) التراث والمعاصرة ص ٧٢.

وانفرادها»[١] .

أما الأدب فقد استغله الأعداء حيث وجهوه توجيها يخدم لمآربهم فصار أغلبه وسيلة لترويج المذاهب الأدبية الغربية المنحرفة ، ونشر الفساد الأخلاقي والتغريب ، وعن طريق الأدب ظهرت آراء بالغة في الخطورة ، كآراء الدكتور طه حسين في كتابه في "الشعر الجاهلي" يقول أنور الجندي: «لقد حاولت حركة الغزو والثقافة والتغريب إخراج الأدب العربي من أصوله وقيمه وعزله عن ارتباطه العضوي بالفكر الإسلامي ، في محاولة للادعاء بأن هناك أدبا عربيا حديثا لا صلة له بالأدب العربي في مراحله المتصلة منذ بزوغ الإسلام إلى اليوم»[٢] .

ويقول أيضا: «ومن أخطر التحديات التي فرضت على الأدب العربي الحديث نظرية "لا أخلاقية الأدب" حيث أخذ الغربيون نظرية أرسطو في الأدب القديم من فصل بين الأدب والأخلاق ، حيث قال: إن جمال الأدب لا صلة له بالأخلاق وأنه معنى منعزل لا شأن له بأية قيمة خارجية ، وأنه لا دخل للمبادئ في الأدب . وقد أعلن الأدب الغربي عن اعتناق هذا المذهب المادي الأرواني ، الذي قامت عليه علوم الاجتماع والنفس والتربية ، بحسبان أن هذه العلوم كلها كانت تهدف إلى تعرية الإنسان وتصور تصرفاته بصورة الدوافع الغريزية ، والتحرر الكامل من كل ما يقال عن الأخلاق أو القيم والدين بهذا المذهب نظرية "فرويد" المتصلة بالغرائز والحيوانية»[٣] .

٤ - الحياة الاجتماعية: تعتبر الحياة الاجتماعية مرآة تعكس لما يدين به الإنسان من عقيدة ، كما هي أيضا صورة سلوكية لما يحمله من فكر وثقافة .

«ولقد كان هذا المجال من أكثر المجالات تعرضا لغزو الأمم الكافرة في العالم الإسلامي وتمثل الغزو الفكري في هذا المجال في إشاعة الفحشاء والمنكر ونشر الرذيلة بشتى صورها ، ونقل تصورات الحياة الغربية بما فيها من انحراف وانحلال لتطبيقه في مجتمعاتنا ، فأصيب المسلمون في تقاليدهم وعاداتهم ، فما كان أصيلا وقائما على الفكر

---

(١) الغارة على العالم الإسلامي ص ٨ - ٩ .
(٢) مقدمات الناهج العودة إلى منابع الفكري الإسلامي الأصيل ، لأنور الجندي ص ٢٢٤ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٢٨ .

الإسلامي القويم نبذوه جانبا، واتخذوا من عادات وتقاليد الغرب نبراسا يحتذونه ويسيرون في طريقه...»[(١)].

وقد جاءت أبرز مظاهر الغزو الفكري في هذا المجال بما يلي:

١ - تغريب المرأة المسلمة، وإخراجها عن دينها، وذلك أن إفساد المرأة إسراع بالمجتمع كله نحو الفساد[(٢)]. فالمرأة لها تأثيرها على الحياة الاجتماعية كلها، ولها من القدرات ما يمكن استغلالها في تحقيق أهداف الأعداء فهي أم ولها أثرها على أبنائها، وهي زوجة ولها أثرها على زوجها[(٣)].

وقد تم تغريب المرأة ببث الأفكار التي تدعو إلى حرية المرأة، ومساواتها مع الرجل في كل شيء، وخروجها عن البيت دون قيد، وكذلك بإثارة موضوعات مثل: تعدد الزوجات، وتقييد الطلاق، وإلغاء بيت الطاعة، وتسهيل قوانين الانحراف، وإلغاء عقوبة الزنا مادام ذلك برضى الطرفين.

- تغريب كل المظاهر التي تميز المجتمع الإسلامي عن المجتمعات الكافرة كاللباس والأكل والشراب، وأنماط السلوك المختلفة كطريقة التحرك والمشي، واللهو والعبث، واختراع الاحتفالات المختلفة التي سموها أعيادا بقصد إغراق الأمة في اللهو والباطل والتفاهات[(٤)].

٥ - الإعلام: لقد حرص أعداء الإسلام السيطرة على وسائل الإعلام الصريحة كالإذاعة، والصحافة، والتلفاز، أو غير الصريحة كالمسلسلات والأفلام والبرامج الوثائقية التعليمية التي تطبع دائما بنمط معيشتهم بما فيه من ثقافة وممارسات دينية[(٥)].

وهذا الحرص ينطلق من إدراكهم بقدرة تأثير الإعلام على الشعوب، مع سعة نطاقه فهو يخاطب الملايين ببرامجه، وأكثر هذه الملايين ساذجة تؤثر فيها الكلمة مقروءة أو

---

(١) الغزو الثقافي للأمة الإسلامية ماضيه وحاضره ص ١٤٩.
(٢) الغزو الفكر والتيارات المعادية للإسلام - القسم الأول، د. علي عبد الحليم محمود ص ١٢٢.
(٣) انظر: التنصير، د. علي بن إبراهيم النملة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
(٤) انظر: الغزو الفكري والتيارات المعادية - القسم الأول - د. علي عبد الحليم محمود ص ١٢٥.
(٥) التنصير، د. علي النملة ص ٥٨.

مسموعة، أو منظورة[1]. وهذا الإعلام المسخر في معظمه لإشاعة الفاحشة، والسعي بالفساد في الأرض، وتشويه الحقائق، والتعمد للكذب والافتراء، وإطلاق الشائعات الكاذبة بغرض البلبلة، في تطور وازدياد، فها هو اليوم يستعمل قنوات الإرسال التلفزيوني الفضائية التي تعمل على مدار الساعة، وأكثر من ٩١% منها تبثها شركات، أو شبكات من أوروبا الغربية، وأمريكا الشمالية، واليابان، واستراليا، والباقي لا تخرج عن أن تكون رجع الصدى، ولا شك أن هذا الإغراق الثقافي، والإعلامي سوف يوقع في الداخل الإسلامي الكثير من الضحايا ممن ينقلبون على المفاهيم، ويقررون الانساخ عن هذا الدين، في مناخ الغزو الديني، والحضاري، الرافع راية أعل "هبل"[2].

المطلب الخامس: تيارات الغزو الفكري

يذكر الباحثون أن التيارات التي مثلت الغزو الفكري الجاهلي هي الاستعمار، والاستشراق، والتنصير، والصهيونية، والمذاهب الهدامة التي نشأت في أحضان تلك التيارات، كالماسونية، والشيوعية، والوجودية، والعلمانية، فهذه التيارات هي الأعمدة التي نفذت الغزو الفكري، وعبر من خلالها إلى العالم الإسلامي، والمعروف أن المستشرقين غالبا من اليهود، والنصارى.

أما التنصير الذي يقوم بنشر النصرانية بين الأمم المختلفة في دول العالم بعامة، وبين المسلمين بخاصة، فهو ينطلق في غزوه للمسلمين من خلفية صليبية حاقدة.

بينما تنطلق الصهيونية في هذا الغزو من بروتوكولات حكماء الصهيون، ومن التلمود،

والتوراة المحرف، ومن خلفية الصراع التاريخي، والعداء التقليدي بين اليهود والمسلمين، وكل من التنصير والصهيونية تحالفوا مع الاستعمار الغربي الذي احتل العالم الإسلامي، والذي أخضع المسلمين وأذلهم، وشجع كل ما من شأنه هدم الإسلام.

وبناء على ذلك فإن الذين مثلوا الغزو الفكري هم اليهود، والنصارى، لكن لا

---

(١) انظر: الغزو الفكري – القسم الثالث – د. علي جريشة ص ٣١١.

(٢) انظر: الإسلام وصراع الحضارات، د. أحمد القديري ص ٤١.

يعـني ذلك أن أصحاب العقائد الأخرى من الهندوس ، والبوذية ، والزرادشتية ، بمنأى عن هـذا الغـزو ، ذلك أن لهؤلاء لهم وجود كبير في بعض البلاد الإسلامية ، ففي دول الخليج مـثلا قـل أن يوجد منزل من دون خادم ، أو مربية ، أو سائق أجنبي[1] ، وقد أثبتت بعض الدراسات التي أجريت

عـلى هـؤلاء أن نسبة ديانة المربيات في بعض تلك البلاد كانت النصرانية هي الأولى ، ثـم الـبوذية ، وأخـيرا الديانـة الإسـلامية[2] ، ومـن غـير شك أن الإنسان يؤثر الآخرين ، ويـتأثر بهم عند الاحتكاك ، والتعامل ، ناهيك أن يكون هذا الاحتكاك بين مربية وطفل ، أضف إلى ذلك بما يأتي من أصحاب تلك الأديان عن طريق الوسائل الإعلامية المختلفة ، وبقرب الجغرافي ، إذ كثير من البلاد الإسلامية لها حدود مع تلك البلاد ، زد على ذلك أن كـثيرا مـن المسـلمين يعيشـون في تلك البلاد ، وهؤلاء أكثر الناس تعرضا لهذا الغزو . كل ذلـك يعـني أن المسلمين تعرضوا وما زالوا يتعرضون لغزو عقدي وثقافي وحضاري ، من كل الأمم وأصحاب العقائد . ولكن السؤال هنا ما صلة الغزو الفكري بعلم الملل وكيف يساهم هذا العلم في مقاومة الغزو الفكري؟

* * * * *

---

(١) انظـر: الـتحدي الاجـتماعي ، د . ناصر ثابت ، وهو بحث منشور ضمن بحوث ندوة التحديات الحضارية والغزو الثقافي لدول الخليج العربي ص ٣٤٦ - ٣٤٧ .

(٢) انظر: المصدر السابق ص ٣٤٩ .

المبحث الثاني

صلة الغزو الفكري بعلم الملل

المطلب الأول: وجه صلة بين الغزو الفكري وعلم الملل

الغزو الفكري لـه صلة وثيقة بعلم الملل ولعل أبرز الوجوه التي تظهر هذه الصلة هي:

الوجه الأول: الغزو الفكري بجميع صوره ومجالاته يمثل صراعا عقديا بين الإسلام وبين مختلف الملل الغازية - لاسيما الملل الكتابية ، بل إن صور الغزو الفكري الخفية أكثر ما تشبه بالغزو الديني الذي حدث في القرن الثاني من قبل أهل الملل الذي اتسم بالدس والمكر وإشاعة العقائد الباطلة والذي واجه المسلمون بكل قوة وصرامة ، فكان سببا من أسباب نشأة علم التوحيد وعلم الملل . واليوم ما دام التحدي قائم فلأن يكون سببا من أسباب دراسة علم الملل أمرطبعي .

الوجه الثاني: أن الغزو الفكري بنوعه المنظم يتخذ بعد دراسة على أوضاع المغزوين الدينية ، والسياسة ، والاجتماعية ، والثقافية ، والحضارية ، وبعد معرفة تامة على نقاط القوة والضعف في الغزو ، والمنافذ التي يمكن أن يغزو فيه . ولنأخذ التنصير مثلا فالمنصرون في هذا العصر لا يقومون بعملية التنصير إلا بعد مدارسات ومحاورات ومقترحات وإعداد خطط ذات أهداف قريبة أو بعيدة ، وذات مراحل متدرجة ، ولا يقوم بها - في الغا لب - إلا أناس مدربون لذلك . وخير دليل على ذلك المؤتمرات التنصيرية التي أصبحت نموذجا في حسن الإعداد ووضوح الخطة .

وخذ مثلا مؤتمر كولورادو الذي أقيم في الولايات المتحدة الأمريكية . فقد كان المشاركون في هذا المؤتمر يمثلون قطاعات متباينة ، حيث ضم إداريين لإرساليات تنصير ، ومنصرين عاملين وأساتذة إرساليات تنصير ، متخصصين بالشؤون الإسلامية ، وعلماء أجناس بشرية ، ولاهوتيين ، وخبراء في وسائل الاتصال والإعلام ، وعدد كبير من الرجال والنساء من أعضاء الكنائس المختلفة في الشرق الأوسط وآسيا وإفريقيا ، وقد قدم في هذا المؤتمر أربعين بحثا عرض فيها جميع القضايا المعقدة التي تتعلق بمهمة التنصير ، وإن من أهم ما ركزت هذه الأبحاث الاهتمام البالغ في المقارنة بين الإسلام والنصرانية في

العالم لا سيما وضع النصرانية والإسلام في الغرب وفي وسط وجنوب إفريقيا، وفي شمال القارة الإفريقية، وفي الشرق الأوسط،

وفي تركيا وإيران، وفي شبه القارة الهندية وجنوب شرق آسيا، وفي روسيا والصين[١] كما ركزت أيضا الحديث عن سبيل الوصول إلى خدمة نصرانية مؤثرة بين المسلمين وذلك بالاهتمام على الموضوعات المتعلقة بالتخطيط واستراتيجيات والطرق والوسائل المناسبة لتنصير المسلمين[٢] .

كل ما سبق يبين لنا أن التنصير المعتمد على الغزو الفكري باعتباره وسيلة مهمة في تنفيذ خطط المنصرين لم يعد ينطلق من فراغ ولا من دون تخطيط وأن من أهم الدراسات المساعدة لوضع خططه هي الدراسات المتعلقة بالعقائد والأديان مما يعني أهمية دراسات الأديان المقارنة في مجال التنصير والغزو الفكري الخبيث وأهمية الدور الذي يلعبه رجال علم الأديان المقارن أو تاريخ الأديان في هذا المجال، ولهذا كان إعداد هؤلاء المنصرين وتدريبهم، وإنشاء المدارس لهم من الأمور ذات الأولوية لدي المتهمين بالتنصير فقد ورد في مجلة "العالم الإسلامي" الإنجليزية:

«إن أول ما ينفذ من قرارات مؤتمر ادنبرج إنشاء مدرسة تبشير مشتركة بين كل الفرق البروتستانتية وتكون خاصة بتعليم مبشري الأقطار الإسلامية . . . وتعلم فيها اللغة العربية، العلوم الإسلامية وتاريخ الأوضاع الإسلامية والأمور الاجتماعية التي اقتبسها المبشرون من بلاد الإسلام وسيكون لهذه المدرسة مكتبة تحوي أمهات الكتب العربية وغير العربية المتعلقة بالإسلام»[٣] . فهذه المدرسة تقوم بعملية استشراقية تساعد المنصرين على معرفة الإسلام واللغة العربية، وورد في كتاب التنصير خطة لغزو العالم الإسلامي «إن قدرة الأفراد النصارى على تنصير بقية العالم بدون تدريب ومعرفة بالثقافات المختلفة غير كافية لتأدية هذا العمل»[٤]

---

(١) انظر: التنصير خطة لغزو العالم الإسلامي ص ٤٧ - ٤٩

(٢) المصدر السابق ص ٤٩ - ٥٠ .

(٣) الغارة على العالم الإسلامي ص ٤٨ .

(٤) التنصير خطة الغزو العالم الإسلامي ص ٨٤٠

ومما يدخل في مجال تدريب المنصرين اختيار كتب منتقاة من الكتب المقارنة بين الإسلام وبين
الأديان الأخرى أو المتحدثة عن الإسلام لكن من وجهة نظرة غربية[١] .

أما اليهود الصهاينة الذين يتعاظم دورهم في ظل ما يسمى النظام العالم الجديد ، والذين يحاولون السيطرة على العالم فكريا وثقافيا وإعلاميا واحتواء الأديان فهؤلا مازالوا يوجهون تحدياتهم ضد الإسلام وغالبا ما يكون هذا بث أفكار وشبهات عن طريق التحدي الغزو الفكري .

الوجه الثالث: من قواعد الإسلام المقررة في الشريعة والتي أجمع عليها المسلمون النهي عن التشبه بالكفار والأمر بمجانبة هديهم على العموم[٢] ، مما يعني أن على المسلمين أن يكونوا حذرين عما عليه أهل الملل الباطلة من حولهم ، من عقائد ، وعبادات وعادات ، وتقاليد ، وأخلاق منحرفة ، وإن لم يكن ذلك موجودا في القديم أصلا[٣] ، ومما يفرض على المسلمين شدة الحذر عن ذلك ، أن النبي ﷺ قد أخبر أن من أمته من سيتبع سنن الأمم الماضية من اليهود والنصارى ، وأن ذلك أمر حتمي وسنة من سنن الله القدرية . ثم إن المسلم قد يقع في التشبه بالكفار دون أن يقصد ذلك كأن يعمل عملا مما يتميز به الكفار عن المسلمين أو يتخذ شعارا من شعاراتهم ، لا سيما في هذا العصر الذي ابتعد المسلمون عن دينهم ، ومع هيمنة الغزو الفكر الجاهلي على ديار الإسلام مما أدى إلى اختلال الموازين لدى المسلمين حيث صار كثير منهم لا يفرقون بين ما هو من هدي الإسلام عما هو من ضلالات الأعداء الغزاة .

كل ذلك يقتضي من المسلمين أن يكون من بينهم من يبين لهم الحق في ذلك ومن دون شك أن ذلك يتطلب منهم معرفة الغزو الفكري وما يتسرب من خلاله من عقائد وأفكار وعادات ، وهذا يستلزم معرفة الأديان الغازية علينا ليمكن الحذر منها ، و لاشك

---

(١) انظر المصدر السابق ص ٥٦٩ - ٥٨٦ ، بحث وارين ويبستر بعنوان "مراجع المختارة للمنصرين العاملين بين المسلمين .

(٢) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ١/ ٨٣ .

(٣) انظر: تأملات في كتاب اقتضاء الصراط المستقيم ، د . ناصر بن عبد الكريم العقل ص ٣٧ ، دار إمام الدعوة ط الأولى ١٤١٢هـ .

هذه المعرفة تتم بدراسة تلك الأديان .

المطلب الثاني: دور علم الملل في مقاومة الغزو الفكري

يسهم علم الملل في مقاومة الغزو الفكري ، ويؤدي دورا مهما في صده ، ولعل هذا الدور يبرز في الأمور الآية:

١ - دوره في تكوين عقيدة المسلم ، وتقويتها ، وتنقيتها من الشوائب والبدع ، وصيانة فكره وسلوكه من كل شيء يخرجه عن السمت الإسلامي ، يتم ذلك ببيان هذا العلم الانحرافات العقدية ، والأنماط السلوكية ، والآراء الباطلة التي تأتي عن طريق الغزو الفكري الجاهلي ، وبيان صلة هذه الأمور بالملل والمذاهب الباطلة .

٢ - تزويده المسلم قدرة وملكة يستطيع بها الكشف عن العقائد ، والآراء ، والأفكار المتسربة إلى المجتمع الإسلامي .

٣ - كونه يقدم الإسلام على حقيقته مما يدحض الشبهات التي تصدر عن الغزو الفكري .

٤ - كون هذا العلم يبرز مزايا الإسلام ، ومحاسنه ، ومخالفته لجميع الأديان الباطلة ، وهذا يكشف زيف المحاولات التي تبث عن طريق الغزو الفكري ، والتي يقصد من ورائها إظهار الإسلام كغيره من الأديان الباطلة .

٥ - كون هذا العلم يخرج علماء متخصصين ومؤهلين لأن يقوموا بدور الكشف عن الغزو الفكري ، وعن العقائد الغازية ، والآثار المترتبة عن الغزو الفكري في حياة المسلمين

٦ - دوره في دعم المؤسسات العلمية في مقاومة الغزو الفكري ، حيث تساهم الجهات المتخصصة بعلم الملل ، - أو ينبغي أن تساهم - الجهات العلمية غير المتخصصة في إقامة الدورات ، والمؤتمرات المعنية بمواجهة الغزو الفكري ، وذلك بمدهم العلماء والباحثين المتخصصين باعتبار هؤلاء أعلم الناس بعقائد الأمم الأخرى .

٧ - دوره في كشف حقيقة المذاهب ، والتيارات الداخلية ، التي نشأت بسبب التأثيرات الخارجية كالبابية والبهائية مثلا ، وربط هذه المذاهب بالعقائد والفلسفات التي كانت سببا لظهورها .

* * * * *

الفصل السادس

صلة علم الملل بالسياسة

توطئة:

لقد خلق الله الإنسان، وجعله خليفة في الأرض لإصلاحها، وتهيئتها لمعيشة بني جنسه، ولما كان الإنسان مجبولا على اتباع الأهواء، والشهوات، تكفل الله تعالى بهدايته لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، قال تعالى: ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾[1] . وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾[2] .

وقد كان الرسل - عليهم السلام - يتولون رعاية مصالح الناس، والحكم بينهم بالقسط، حيث إن ذلك كان الغاية من إرسالهم، كما قال تعالى على لسان نبيه شعيب - عليه السلام: ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾[3] ، فالله تعالى خلق العباد لعبادته كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[4] ، والعبادة كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»[5] ، فهي بذلك تشمل جميع سلوك البشر، وتصرفاتهم في حياتهم الخاصة والعامة، ويدخل في ذلك بطريق الأولى الحكم، والسياسة، قال تعالى: ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾[6] ، وقال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[7] .

---

(١) سورة طه الاية: ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) سورة الحديد الآية: ٢٥ .

(٣) سورة هود الآية: ٨٨ .

(٤) سورة الذاريات الآية: ٥٦ .

(٥) العبودية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق علي بن حسن بن عبد الحميد ص ١٧ .

(٦) سورة يوسف الآية: ٤٠ .

(٧) سورة المائدة الآية: ٥٠ .

فإن مقتضى تحكيمه تعالى وحده ألا تتجه البشرية إلى غيره بأي نوع من أنواع العبادة، والقربات، وألا تتجه، وتسير في حياتها كلها، إلا وفق ما شرع لها في كتبه، وعلى لسان رسله[١]، من ذلك يتبين لنا أن السياسة من صميم الدين، وأصل من أصول الأديان التي بعث الله تعالى بها رسله في جميع الأديان، مما يعني أن الباحث في دراسة الأديان، ومقارنتها معني ببحث موضوعات السياسة، وموقف الأديان منها، مما يعني ضرورة الاهتمام بالمواقف السياسية، وصلتها بالأديان، واقعا أو ادعاء، والمقصود في هذا البحث بيان أن من دواعي اهتمام الأمم بدراسة أديان خصومهم كون الدين من أهم العوامل التي تحدد العلاقات بين الدول، سلما وحربا، باعتبار الدين المكون للفكر السياسي العملي الموحد في الأمة، أفرادا وشعوبا[٢]، وهذه الرؤية من أهم دوافع دراسة الغرب للإسلام في هذا العصر، يقول العالم اللاهوت الألماني "هانزكونج": «لن يكون هناك سلام بين الأمم ما لم يكن هناك سلام بين الأديان..»[٣].

ويهدف البحث هنا إلى أن إدراك المسلمين للبعد الديني لسياسات الدول الكافرة خاصة - أهل الكتاب - أمر ضروري لفهم حقيقة السياسة الدولية المعاصرة، وحقيقة الصراع السياسي بين المسلمين وبين أهل الكتاب لاسيما اليهود وطوائف النصارى المنحازين لهم، ومن دون شك أن ذلك يتطلب من المسلمين دراسة الخلفية الدينية لسياسات تلك الدول، ودراسة الصلة بين قراراتهم، وبين فكرهم الديني، ولا شك أن علم الملل هو المعني في أداء هذا الدور.

وقبل أن ندخل لعرض العلاقة بين الدين والسياسة المعاصرة، نعرض شيئا عن السياسة في الأديان السماوية في المبحث الآتي:

* * * * *

---

(١) العلمانية، د. سفر الحوالي ص ٦٧٦.
(٢) انظر: دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، د. فتحي الدريني ١/ ٣٤٩.
(٣) انظر: الإسلام والمسيحية، أليكس جورانسكي، ترجمة خلف محمد الجراد ص ٧.

المبحث الأول

السياسة في الأديان السماوية

لقد جاءت الأديان السماوية - ولا سيما الثلاثة الكبرى منها - متحدة في أصولها وغاياتها ، كما قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾[1] وقد قدمنا أن الله تعالى أمر رسله بأن يحكموا بين الناس بما شرع لهم من الدين ، وقد جاءت نصوص الكتاب وسنة النبي ﷺ زاخرة بذلك ، وسنعرض ذلك بشيء من التفصيل .

المطلب الأول: السياسة في الديانة اليهودية

لقد شاء الله تعالى أن ترتبط الديانة اليهودية بأعظم رسلها موسى - عليه السلام - وأن ينزل عليه التوارة ، وشاء الله تعالى أن ينشأ موسى - عليه السلام - في عقر دار فرعون حاكم الدولة . وقد ذكر الله تعالى ذلك في مستهل سورة "القصص" التي شملت تفاصيل قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وقومه ، وذكر الله تعالى أنه أراد بإرسال موسى - عليه السلام - الانتصار للمستضعفين من بني إسرائيل ، والتمكين لموسى ومن معه ، قال الله تعالى: ﴿ طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾[2] .

ولقد صدق الله وعده ، فهزم فرعون وجنوده ، وأورث موسى - عليه السلام - وقومه أرض مصر ، قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾[3] وقد أنزل الله تعالى على موسى - عليه السلام - التوراة والألواح ، وشرع له فيها شرائع الدين ، وأمره بالعمل بها ، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا

---

(١) سورة الشورى الاية: ١٣ .

(٢) سورة القصص الآية: ١ - ٦

(٣) سورة الأعراف الآية: ١٣٧ .

التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء ﴾[١]

وقال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾[٢] . وقد أسس موسى - عليه السلام - دولة قوية، وكون جيشا ودربه على السلاح، كما ذكر ذلك ابن خلدون في تاريخه: «وقد جاءوا إلى موسى - عليه السلام - بإحصاء بني إسرائيل من يطيق حمل السلاح منهم ابتداء من سن العشرين فما

فوقه، فوجدهم ستمائة ألف أو يزيدون، وضرب عليهم الغزو، ورتب المصاف، والميمنة والميسرة، وعين مكان كل سبط في التبعية، وجعل التابوت والمذبح في القلب، وعين لخدمتها بني لاوي من أسباطهم، وأسقط عنهم القتل لخدمة القبة»[٣]، ولم يقبض الله تعالى موسى - عليه السلام - إلا بعد أن أكمل الله له الشريعة والأحكام والوصايا[٤]، ثم كان الأنبياء يسوسون بني إسرائيل من بعد موسى - عليه السلام - كما أخبر النبي ﷺ: «**كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي**»[٥]، وبناء على ذلك يمكن القول بأن الديانة اليهودية ما انفكت عن الممارسة السياسية طوال تاريخها.

المطلب الثاني: السياسة في الديانة النصرانية

لقد أرسل الله تعالى عيسى بن مريم - عليه السلام - إلى اليهود بعد انحرافهم وتحريفهم لديانتهم، وطغيانهم ماديا، فجاء المسيح - عليه السلام - ليعيد التوازن لذلك المجتمع المختل، فكانت دعوته تقوم على الزهادة والأخذ من أسباب الحياة بأقل قسط يكفي لأن تقوم عليه الحياة.

وكان يحث على الإيمان باليوم الآخر، واعتبار الحياة الآخرة الغاية السامية لبني

---

(١) سورة المائدة الآية: ٤٤ .
(٢) سورة الأعراف الآية: ١٤٥ .
(٣) تاريخ ابن خلدون ٢/ ٨٥ .
(٤) المصدر السابق ٢/ ٨٦ .
(٥) رواه البخاري، الحديث رقم ٣٤٥٥ انظر: فتح الباري: ٦/ ٥٧١ .

الإنسان في الدنيا ، فقد كان كثير من اليهود يفهم أن الحياة الدنيا هي غاية الإنسان ، وأن التوراة التي كانت بأيديهم قد خلت من ذكر يوم الآخر ، ومن فرقهم من كان يعتقد بأن عقاب الله الذي وعد به العاصين ، وثوابه الذي وعد به المتقين ، إنما زمانه في الدنيا لا في الآخرة ، وقد قال "رينان" الفيلسوف الفرنسي في كتابه "حياة المسيح": «الفلسفة اليهودية كانت من مقتضاها السلطة الفعلية في نفس هذا العالم ، فإنه يؤخذ من أقوال شيوخهم أن الصالحين يعيشون في ذاكرة الله والناس إلى الأبد ، وهم يقضون حياتهم قريبين من عين الله ، ويكونون معروفين عند الله تعالى ، أما الأشرار فلا ، . . . ويزيد الفريسيون على ذلك على أن الصالحين ينشرون في هذه الأرض يوم القيامة ليشتركوا في ملك المسيح الذي يأتي لينقذ الناس ، ويصبحوا ملوك العالم وقضاته ، وهكذا يتنعمون بانتصارهم ، وانخذال أشرار أعدائهم ، وعلى ذلك تكون مملكتهم في هذا العالم نفسه»[1] .

لهذه الأسباب جميعها جاء المسيح - عليه السلام - بالنصرانية ، وهي مليئة بالدعوة إلى الزهد ، والإيمان بالآخرة ، والمحبة ، والسلام ، خلافا لما آلت إليه اليهودية من غلو وانغماس في الحياة المادية ، ولعل الاهتمام بهذا الجانب هو الذي أدى إلى أن يظن بعض الناس أن دعوة عيسى - عليه السلام - كانت دعوة روحية لا صلة لها بأمور الحياة ، وأن عيسى - عليه السلام - كان رسولا ، ولم يكن ملكا ، ولا حاكما ، لكن هذا ظن خاطئ ، فعيسى - عليه السلام - كما يقول مؤرخو الأديان لم يمكث سوى ثلاث سنين وثلاثة أشهر ، وثلاثة أيام[2] ، وهي مدة قصيرة في الحساب والجهد البشريين لإقامة دولة تحت سلطان المسيح - عليه السلام - ، زد على ذلك أن النصرانية جاءت امتدادا لأحكام التوراة ، وبانية عليها ، وقد جاء في إنجيل متى: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض ، بل لأكمل»[3] .

وبذلك ندرك أن عدم تأسيس المسيح - عليه السلام - دولة كالدولة التي أسسها موسى - عليه السلام - أو محمد ﷺ لا يعني أنه ما جاء برسالة تشمل الجانب السياسي ، بل أن الأديان جميعها - كما تقرر فيما مضي - جاءت لرعاية مصالح الناس ، وإدارة

---

(١) انظر: محاضرات في النصرانية ، لأبي زهرة ص ١٣ - ١٤ .
(٢) الملل والنحل ، للشهرستاني ص ٢٢١ .
(٣) إنجيل متى الإصحاح الخامس فقرة ٨ .

شـؤون حـياتهم ، وهـذا مـا قـرره الله تعـالى في القرآن الكريم ، إذ يقول تعالى عن رسالة عيسـى - عليه السلام -: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ * وَلْيَحْكُمْ أَهْـلُ الإِنجِـيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[١] ، وقـال تعـالى: ﴿ كَـانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾[٢] .

فالحكم بالكتاب في كل اختلاف ، وتحكيمه في كل شأن من شؤون الحياة ، واستمداد كل القيم ، والتشريعات منه هو الغرض والغاية القصوى من إنزاله ، والكتب السماوية - كمـا بينـت الآيـة - تعـد كالكتاب الواحد بالنظر إلى منزلها ، وهو الله تعالى ، وموضوعها واحـد ، وهو تقرير حقيقة أساسية لا تختلف هي توحيد الله تعالى ، وإفراده بالعبادة وحده لا شريك لـه ، بالمعنى الواسع للعبادة .

وقـد كان الجديد في شريعة الإنجيل التخفيف من بعض التشريعات المثقلة التي كانت عـلى الـيهود ، حيث كانت عقوبة مؤقتة عليهم ، مع اشتماله على مواعظ بليغة تناسب ما آل إلـيه الـيهود مـن القسـوة والماديـة ، أو التشـبث بالحـياة الدنيا[٣] . وبناء على ذلك فإن شريعة عيسى - عليه السلام - هي التوراة مضافا إليها ما جاء في الإنجيل .

نخلـص ممـا سـبق أن هذه الشريعة النصرانية لم تجد حظها من التطبيق في حماية دولـة منذ زمن عيسى - عليه السلام ، وحتى بداية القرن الرابع الميلادي لما يلي:

١ - أن المسـيح - علـيه السـلام - لم يمـتد به العمر الدعوي إلا بثلاث سنين وبضعة أشهر ، إذ توفاه الله تعالى ، ورفعه إليه قبل أن تقوم لـه دولـة .

٢ - أنـه علـيه السـلام قـد بعـث إلى قـوم عـتاة عصـاة مـردوا على الإجرام وتقتيل الأنبـياء ، كمـا أن المـنطقة الـتي بعـث فـيها عيسـى - علـيه السـلام - كانـت جـزءا مـن الإمبراطورية الرومانية الوثنية .

---

(١) سورة المائدة الآية: ٤٦ - ٤٧ .

(٢) سورة البقرة الآية: ٢١٣ .

(٣) انظر: العلمانية ، د . سفر الحوالي ص ٥٧ - ٥٨ .

فجاءت النصرانية في محيط شديد العداء له، ولمن آمن معه مما أدى وقوع المكائد بهم، حتى أنهم كادوا أن يقتلوه، لولا أن توفاه الله ورفعه إليه، ثم عاش أتباعه من بعده بين كيد اليهود واضطهاد الروم[١].

لكل ما سبق فإن المسيحية لم تجد متنفسا تعيش فيه، كما لم تجد حماية سلطان، فلم تجد أحكامها طريقا للتطبيق في دولة إلا بعد اعتناق الإمبراطور قسطنطين الروماني لها، وتبنيه لها.

المطلب الثالث: السياسة في الإسلام

لقد اختار الله تعالى الإسلام دينا خاتما للبشرية إلى قيام الساعة، وتكفل حفظه، وحماية رسوله ﷺ فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾[٣].

واختار لصحبة نبيه جيلا فاضلا حفظ الله بهم هذا الدين بأن حفظ كتابه في صدورهم، ورسموه في صحفهم، وكذلك حفظوا سنة رسول الله ﷺ وسيرته، وبذلك توفر للبشرية حفظ الدين الخاتم بحفظ مصادره وتسجيل نماذجه العملية، ومما يلاحظ أن نصوص الإسلام وتطبيقاته العلمية تقوم شاهدا قويا على أن الإسلام لم يعرف قط السياسة مما لا يدخل في الدين، بل على النقيض من ذلك. فإن الرسول لم يلحق بالرفيق الأعلى حتى كانت للإسلام دولة، يقوم كل جليل ودقيق من أمرها على هدي الإسلام، وذلك تطبيقا لأحكام الله تعالى التي أنزلها على رسوله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾[٤]. وقوله تعالى: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾[٥]. وقد كان أول ما فعله النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة، بعد بناء المسجد أن وضع اتفاقية سياسية

---

(١) المصدر السابق ص ٥٨ - ٥٩.
(٢) سورة الحجر الآية: ٩.
(٣) سورة المائدة الآية: ٦٧.
(٤) سورة المائدة الآية: ٤٨.
(٥) سورة المائدة الآية: ٤٩

تنظم العلاقة بين الطوائف والكيانات الموجودة بالمدينة ، وأهم ما اشتملت عليه هذه الاتفاقية المسماة بصحيفة المدينة ما يلي:

١ - المسلمون أمة واحدة من دون الناس .

٢ - إنه لا تغيير ولا تبديل للوضع الاجتماعي ، ولا مصادرة للأموال والأراضي ، فهي أقرت المهاجرين على حالهم ، وأقرت الأنصار على حالهم .

٣ - نظمت العلاقة بين المسلمين أنفسهم وحددتها ، فهم متضامنون متكافلون .

٤ - الرسول ﷺ هو صاحب السلطة العليا ، وكل أمر يختلفون فيه يكون مرده إلى الرسول ﷺ ليفصل فيه .

٥ - حددت العلاقات بين البطون اليهودية وبين العرب في يثرب ، واليهود يشتركون مع المؤمنين في الإنفاق على مدينتهم ، وهم أمة لهم دينهم ، وللمسلمين دينهم .

٦ - نصت الصحيفة على اشتراك المسلمين واليهود في الدفاع عن المدينة إذا هوجمت ، ولا ينفرد فريق من الفرق بعقد صلح إذا دعي إليه .

٧ - المدينة دار أمان ، فمن خرج منها فهو آمن ، ومن بقي فهو آمن إلا من ظلم وأثم[1]

وبالنظر في هذه البنود نجد أنها أسس دستورية كما تسمى العصر الحاضر ، وقد كان النص على هذه البنود ، وتطبيقها عمليا ، يعد عملا بأحكام الدين ، مما يؤكد أن هذه الممارسة السياسية هي أصل من أصول الدين الإسلامي قام به الرسول ﷺ ، وهي جزء من النظام الإسلامي في السياسة ، فقد جاءت نصوص الكتاب والسنة حاكمة على العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية ، قال الله تعالى: ﴿ **لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾[2] ، وقال الله تعالى: ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ**

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام ٢/١١٩ - ١٢٣ ، الدين والسياسة في الأديان الثلاثة ، د . عبد الغفار عزيز ص ١٢٣ .

(٢) سورة الممتحنة الآية: ٨ - ٩ .

اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾[١] .

كما تحدثت النصوص الشرعية عن اختيار ولي الأمر، وواجب الطاعة له، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾[٢] .

وقال النبي ﷺ في حديث أنس بن مالك: «**اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة..** »[٣] . كما بين الشرع مصادر تمويل الدولة، ووضع ضوابط لتلك الموارد، ثم بين مصارفها، كما هو معروف في أبواب الزكاة والخراج، والجزية وغيرها وكل هذه الأمور من اختصاصات الدولة وواجباتها. وفوق ذلك كله جعل سلطة التشريع لله تعالى ولرسوله، قال الله تعالى: ﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ** ﴾[٤] . وقال تعالى: ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾[٥] . بهذا يتبين أن السياسة في الإسلام تعد من أصوله التي قد يكفر منكرها أو مستبدلها بما تواضع عليه البشر من أحكام الجاهلية، كما قال الله تعالى: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾[٦] .

* * * * *

(١) سورة التوبة الآية: ٦ .

(٢) سورة النساء الآية: ٥٩ .

(٣) رواه البخاري، الحديث رقم ٧١٤٢، انظر: الفتح ١٣/ ١٣٠ .

(٤) سورة يوسف الآية: ٤٠ .

(٥) سورة الحشر الآية: ٧ .

(٦) سورة المائدة الآية: ٤٤ .

المبحث الثاني

السياسة والدين في المجتمعات المعاصرة

سبق أن أشرت أن الأديان السماوية جميعها اشتملت كتبها وشرائعها على كثير من قضايا سياسية وبينت أن الأديان - لا سيما اليهودية والنصرانية والإسلام - كان من غاياتها العليا جعل السلطان لله تعالى بتحكيم شرائعه . وقد ظلت السياسة محل الصدارة في تاريخ تلك الديانات حتى بعد تحريف اليهودية والنصرانية ونسخهما ، فالمعتنقون لليهودية ما انفكوا عن السعي لتطبيق أحكام شريعتهم المعروفة لا سيما النصوص التي تحتوي البشارات المتعلقة بإيجاد وطن قومي لليهود والعودة بما يسمى بأرض الميعاد "أرض فلسطين" وما زال اليهود يؤسسون قديما وحديثا الحركات الدينية السياسية ، لذلك[1] .

أما النصرانية فرغم أن شريعتها - كما أشرنا - لم يطبق في عالم الواقع في أيام عيسى - عليه السلام - ورغم أنها حرفت إلا أنها كانت ذات تأثير في عالم السياسة ، فقد كانت للكنيسة آراؤها السياسية التي يمكن أن يستخلص من مجموعها نظرية سياسية تعبر عن وجهة

نظرها الذاتية ، وإن كانت - طبعا - لا تعبر عن أحكام الدين كما أنزل من عند الله وكانت عاجزة عن تنظيم شؤون الحياة بسبب تحريفها وإهمالها لشريعة الله ونظرتها الخاطئة إلى الحياة ، وإيمانها بقاعدة "أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله" ومانفك الملوك والأباطرة في القرون الوسطى يخضعون في صورة ما لرجال الدين ، ولا يعدون أنفسهم مسيحيين فحسب بل جنودا للمسيحية . .[2] ومن الشواهد التي تدل على دور رجال الدين في السياسة عند النصارى الدور الذي قام به البابوات في الحروب الصليبية ، فقد كانت الكنيسة هي التي دعت لها وغذتها ، وأعدت لها وسارت الجيوش كلها تحت لواء

---

(١) من الحركات القديمة حركة المكابيين التي أعقبت العودة من السبي البابلي (٥٨٦ - ٥٣٨) قبل الميلاد وحركة باركوخبا (١١٨ - ١٣٨) وكانت أهداف هذه الحركات تجميع اليهود في فلسطين وتأسيس دولة لهم وبناء هيكل سليمان ويعد مثل هذه الحركات جذورا للحركات اليهودية السياسية المعاصرة ، انظر الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب ص ٣٣١ .

(٢) انظر: العلمانية ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

الصليب لنصرة الدين الحقيقي - حسب زعمهم - واسترجاع قبر السيد المسيح ، وقتل واستئصال الكفرة - يقصدون المسلمين - وأخذت هذه الحروب تسميتها من صليب صغير أحمر مصنوع من القماش كان يلصق على كتف الفارس المزمع السفر إلى بلاد الإسلام للحرب[1] .

ومن الأمور المشهورة في الكتب التي أرخت للحروب الصليبية الخطب الحماسية التي ألقاها البابوات كالخطبة الشهيرة للبابا "إيربان الثاني" وغيره[2] فاتخذت هذه الحروب بذلك طابعا دينيا شكلا وموضوعا[3] .

لكل ما سبق يتبين لنا أن الفصل بين الدين والسياسة لم يكن معروفا عند أتباع الأديان التي سبقت الإسلام حتى بعد تحريف تلك الأديان ، أما الإسلام فهو الدين الذي تكفل الله بحفظه ، فقد اتخذه المسلمون دين عقيدة وعبادة وشرعة ، ولم يحصل أن فرق المسلمون بين العقيدة والشريعة ، وقد اتفقت أقوال العلماء أن التحليل والتحريم والتشريع للناس من خصائص رب العالمين جل جلاله[4] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية مبينا وجوب الحكم بما أنزل الله: «ولا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر ، فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلا من غير اتباع لما أنزله الله فهو كافر»[5] .

وقال ابن القيم الجوزية: «وتقسيم بعضهم طرق الحكم إلى شريعة وسياسة كتقسيم غيرهم الدين إلى شريعة وحقيقة ، وكتقسيم آخرين الدين إلى عقل ونقل ، وكل ذلك تقسيم باطل ، بل السياسة والحقيقة والطريقة والعقل كل ذلك ينقسم إلى قسمين: صحيح وفاسد .

فالصحيح قسم من أقسام الشريعة لا قسيم لها ، والباطل ضدها ومنافيها ، وهذا الأصل من أهم الأصول وأنفعها ، وهو مبني على حرف واحد ، وهو عموم رسالته ﷺ

---

(١) انظر: وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ، د . محمد ماهر حمادة ص ١٨ - ١٩ .

(٢) انظر: الغزو الصليبي والعالم الإسلامي ، د . عبد الحليم محمود ص ٢٦ .

(٣) أساليب الغزو الفكري ص ١٦ .

(٤) انظر: الولاء والبراء في الإسلام ص ٧٠ .

(٥) مجموعة التوحيد ، الرسالة الثالثة عشر ص ٢٧٨ ، دار الفكر .

بالنسبة ما يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم، وأعمالهم، وأنه لم يحوج أمته إلى أحد بعده، وإنما حاجتهم إلى من يبلغ عنه ما جاء به، فلرسالته عمومان محفوظان، لا يتطرق إليهما تخصيص: عموم بالنسبة إلى المرسل إليهم، وعموم بالنسبة إلى كل من يحتاج إليه من بعث إليه في أصول الدين، وفروعه، فرسالته كافية شافية، عامة، لا تحوج إلى سواها، ولا يتم الإيمان به إلا بإثبات عموم رسالته في هذا وهذا، فلا يخرج أحد من المكلفين عن رسالته، ولا يخرج نوع من أنواع الحق الذي تحتاج إليه الأمة في علومها وأعمالها بماجاءبه[١].

هكذا ظلت السياسة في الأديان السماوية جزءا من أصولها ومبادئها، حتى جاء العصر الحديث فانتشر ما يعرف بعلمانية الدولة.

والسؤال هنا هل العلمانية قد قضت على تأثير الدين في الحياة كليا وفي السياسة بالذات عند من يتبناها ويزعم تطبيقها؟

قبل أن نجيب عن هذا السؤال نذكر هنا معنى العلمانية:

فالعلمانية كما وردت في دائرة المعارف البريطانية: «هي حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمامات بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها»[٢] وعللت تلك الدائرة سبب ظهور هذا المبدأ بأنه كان لدى الناس في العصور الوسطى رغبة شديدة في العزوف عن الدنيا والتأمل في الله واليوم الآخر وفي مقاومة هذه الرغبة طفقت "العلمانية" تعرض نفسها من خلال تنمية النزعة الإنسانية، حيث بدأ الناس في عصر النهضة يظهر تعلقهم الشديد بالإنجازات الثقافية والبشرية وبإمكانية تحقيق مطامحهم في هذا الدنيا القريبة، وظل هذا الإتجاه إلى "العلمانية" يتطور باستمرار خلال التاريخ الحديث كله، باعتبارها حركة مضادة للدين ومضادة للمسيحية»[٣].

وورد في قاموس "العالم الجديد" لوبستر أن العلمانية:

---

(١) علام الموقعين ٤/ ٢٨٥.

(٢) العلمانية ص ٢٢

(٣) المصدر السابق ص ٢٢.

١ - الروح الدنيوية، أو الاتجاهات الدنيوية، ونحو ذلك، وعلى الخصوص نظام من المبادئ والتطبيقات يرفض أي شكل من أشكال الإيمان والعبادة.

٢ - الاعتقاد بأن الدين والشؤون الكنسية لا دخل لها في شؤون الدولة وخاصة التربية العامة[١]

من هذين التعريفين يتضح أن العلمانية تقوم على نسف العلاقة بين الدين والحياة بعامة، مما يعني عدم وجود أي صلة بين الدين والسياسة في الدولة العلمانية. ومما يعني أيضا أن الدين ليس له أي تأثير في حياة الأمم والدول التي تزعم تطبيق العلمانية، لكن المتأمل لسياسات الدول وقراراتها ومواقفها العملية يجد خلاف ذلك حيث يجد أن دور الدين في توجيه السياسة واضح، وهذا مما يجعل الإنسان يقف أمام واقع متناقض، القول أو المبدأ المعلن شيء والفعل شيء آخر، إن مما لا ينكر أن العلمانية قد أبعدت مجتمعات كثيرة عن الدين وظهرت آثارها النكدة في كثير من نواحي الحياة حتى المجتمعات التي طبقت عليها، ناهيك عن المجتمعات الغربية التي ظهرت فيها العلمانية أساسا، لكن رغم ذلك فإن دور الدين في توجيه سياسات الدول المعاصرة أمر لامرية فيه، ولعل ذلك مما حدا ببعض الباحثين أن يقول عن العلمانية في الدول التي تدعيها ثم يعميها التعصب الديني: «أن العلمانية صارت من باب تسمية الأشياء بأضدادها، كما يسمى الأعمى بصيرا والملدوغ سليما...»[٢]

ولندلل على مقولتنا نلقى الضوء على ثلاث دول تمثل لثلاثة ديانات مع بيان العلاقة التي يكونها البعد الديني بين الدول ونمثل لذلك البعد الديني في العلاقة بين أمريكا وإسرائيل، والدول الثلاثة التي نختارها للحديث هنا هي: الهند، وإسرائيل، وأمريكا:

أ - الهند:

فالهند دولة علمانية - كما تدعى - شعبها يتدين بأديان كثيرة وإن كانت الهندوسية

---

(١) المصدر السابق ص ٢٢.

(٢) انظر: علمانية الهند: لشريف المجاهد ترجمة د. إحسان حقي ص٢٣ - ٢٤، مؤسسة الرسالة ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

هـي ديانة معظم أهل الهند[١] . فرغم أن الدولة الهند تعلن العلمانية كمبدأ لسياستهاإلا أن الهندوسـية هـي الـتي توجـه السياسـة ندرك ذلك من خلال مواقفها السياسية ومن خلال تصـريحات زعمائهـا ، يقـول صـاحب كـتاب علمانية الهند: «تدعي هند أنـها بلد علماني والحقـيقة أنهـا الـيوم أمـة متعصبة جائرة تمثل أسوأ حالات التعصب»[٢] . وهذا التعصب لـيس قاصـرا عـلى الشـعب بـل إن رؤسـاء الهـند وزعماءها قد أعلنوا التلازم بين الدين والسياسة .

فهـذا غـاندي يقـول: «إنـه لا معـنى لاسـتقلال الهـند إذا لم يحـرم ذبـح الـبقر»[٣] . وكـان غـاندي يعتـبر «أن أولـئك الذيـن يقولـون إن الديـن لا يـتعلق إطلاقـا بالأسـاليب السياسـة لايعـرفون مـا يعنـيه الديـن تمامـا بالنسـبة لـه . وكـان يقـول ليس هـناك سياسـة مجـردة عـن الديـن بـل هـي تسـاعد الديـن؟ والسياسـة المجـردة من الدين مـا هـي إلا أفعـى سـامة لأنهـا تقـتل الـنفس»[٤] . أمـا الزعـيم الهـند نـهـرو فـبرغم أنـه كـان شـيوعيا عـاش في روسـيا إلا أنـه قـال: «إن الـبقرة جديـرة بالـتقديس»[٥] . بـل إن ممـا «يصـبغ سياسـة دولـة الهـند بالصـبغة الدينـية أن دسـتورها في المـادة ٤٨ مـن الجـزء الـرابع مـن القـانون ص ٥٠ الـوارد تحـت المـبادئ التوجيهـية لسياسـة الدولـة يحـرم ذبـح الـبقرة»[٦] . فهـل يعقـل أن يقـال بعـد ذلـك إن الحكـم في الهـند حكـم علماني لا صلة لـه بشؤون الدين .

بــ - إسرائيل:

أمـا دولـة إسـرائيل الـتي تمـثل الـيوم الكـيان الـيهودي والديانـة الـيهودية فقـد قام نظامهـا السياسـي عـلى أسـس مسـتمدة مـن العقـيدة الـيهودية ، ومـا احـتوته مـن تعلـيمات ونـبوءات ، وقـد تم صـياغة هـذه الفكـرة ذات الأسـاس الديـني في قالـب

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب ص ٥٣١ .
(٢) علمانية الهند ص ٢٣ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٨٨ .
(٤) انظر: المصدر السابق ص ٤٩ - ٥٠ .
(٥) انظر: المصدر السابق ٢٨٨ .
(٦) المصدر السابق ص ٥١ .

سياسي هو "الصهيونية" كما تم صبغ كل ما يتعلق بالدولة والمجتمع بالصبغة اليهودية ابتداء من اسم الدولة وحتى شعارها وعلمها ولغتها. وقد أدى هذا إلى وضوح الهدف لدى كافة المواطنين اليهود و إلى وحدة الفكر والعقيدة لدى كل الأحزاب مهما تعددت، واختلفت شعاراتها وبرامجها(١).

ودولة إسرائيل بقدر ما تسعى لقيام دولتها الدينية بقدر ما تسعى لمقاومة الأديان الأخرى، بل وتحطيمها فأسست لذلك وزارة خاصة سموها بوزارة الأديان، وجعلوا فيها دائرة خاصة لمكافحة الأديان والإرساليات النصرانية ونشر الحركات الدينية على شاكلة جماعة شهود يهوه(٢)(٣). وهذا ما تفرض عليهم بروتوكولاتهم. فقد ورد في البروتوكول الرابع عشر ما يلي: «حينما نمكن لأنفسنا فنكون سادة الأرض فلن نبيح قيام أي دين غير ديننا، أي الدين المعترف بوحدانية الله الذي ارتبط باختياره إيانا، كما ارتبط به مصير العالم.

ولهذا السبب يجب علينا أن نحطم كل عقائد الإيمان، وإذا نشأ عن ذلك وجود ملحدين عصريين فإنهم سيكونون عناصر انتقالية، وهذا لا يضر مخططنا لأنهم سيكونون مثالا للأجيال التي ستعتنق تعاليم دين موسى الذي بفضل قوته وعقلانيته يجب أن ينتهي بنا إلى التسلط على العالم كله(٤).

وهو توظيف للبشارات التوراتية المغلوطة، كالعبارة الواردة في سفر التكوين في الكلام عن الوعد الإلهي بمنح الأرض المقدسة لإبراهيم - عليه السلام - وذريته «في ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقا قائلا: لنسلك أعط هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات»(٥).

---

(١) انظر: النظام السياسي في إسرائيل فوزي محمد طايل ص ١٨٣.

(٢) هي منظمة عالمية تقوم على سرية التنظيم وعلنية الفكرة، دينية وسياسية، ظهرت في أمريكا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهي تدعي أنها مسيحية، والواقع أنها واقعة تحت سيطرة اليهود وتعمل لحسابهم، وتعرف أيضا باسم "جمعية العالم الجديد" انظر: الموسعة الميسرة في الأديان والمذاهب ص ٢٩٣.

(٣) انظر: أصول المسيحية كما يصورها القرآن د. داود علي الفاضيلي ص ٢٩١.

(٤) انظر: بروتوكولات حكماء صهيون ص ٨٦، إسرائيل حرفت الأناجيل واخترعت أسطورة السامية للواء أحمد عبد الوهاب ص ١٧.

(٥) سفر التكوين الأصحاح الثاني عشر فقرة ١٨.

يقـول بـيغن في كـتابه "الـثورة": «منذ أيـام الـتوراة وأرض إسـرائيل تعتـبر أرض الأمـم لأبـناء إسـرائيل، وقـد سميت هـذه الأرض فـيما بعـد فلسـطين، وكانـت دوما تشـتمل ضـفتى نهـر الأردن، ولبـنان الجـنوبي، وجـنوبي غـربي سـوريا، إن تقسـيم الوطـن عملـية غـير مشـروعة، وسـوف تعـود أرض إسـرائيل إلى شـعب إسـرائيل بـتمامها إلى الأبـد»[1]. وقـال ابـن جوريـون: «أمـا السـيف الـذي أعدنـاه إلى غمـده فإنـه لم يعـد إلا مؤقـتا، إنـنا سنسـتله حـين تـتهدد حريتـنا في وطـنـنا، وحـين تـتهدد رؤى أنبـياء الـتوراة...»[2]. يتـبين مـن خـلال مـا سبق أن دولـة إسـرائيل بحـركاتـها السياسـية دولـة تقـوم عـلى عقـيدة الـتوراة، وعـلى تفسـير الأحـداث، والـتاريخ تفسـيرا توراتـيا دينـيا، وأن وجودهـا لـيس إلا تحقـيقا لنـبوءة الـتوارة المحـرفة في أرض الميعاد، مما يدل أن سلوكها السياسي مبني على هذه الرؤية الدينية المحرفة.

جـ - أمريكا:

أمـا أمـريكا الـتي انـتقل إليها الثقل السياسي بعد انهيار نظام الاتحاد السوفيتي، فعلى الـرغم مـن إعـلان علمانـية الدولـة في دسـتورها[3]. إلا أن دور الكـنائس - لا سـيما البروتسـتانتية - في توجـيه السياسـة الأمريكـية يعد من الأمور التي لا يختلف فيها اثنان. وقد تناول بعض الباحثين هذا الموضوع بالدراسة، منها: دراسة الدكتور يوسف الحسن في أطروحـته للدكـتوراه بعـنوان "الـبعد الديـني في السياسـة الأمريكـية تجاه الصراع العربي الصهيوني" فقد تناولت الأصولية النصرانية وخلصت إلى الآتي:

عن طريق تحليل أهمية الكنيسة في المجتمع الأمريكي وعلاقتها الدستورية والعملية في الدولـة، ومناقشـة أهـم العوامـل الـتي أدت إلى نـهوض الحـركة النصـرانية الأصولية في العقديـن الأخيريـن ١٩٦٠م - ١٩٨٠م، والـتعرف عـلى مـنظمات وجماعـات ضـغط وقـيادات، ومنشورات هذه الحركة، وعلاقتها مع الجماعة اليهودية، وحركتها الصهيونية في الولايات المتحدة، تم التوصل إلى النتائج الآتية:

---

(١) قبل أن يهدم الأقصى عبد العزيز مصطفى ص ٧١، دار الوطن، الرياض، ط الثانية ١٤١٠هـ.

(٢) المصدر السابق ص ٧٢.

(٣) انظر: أمريكا وإسرائيل د. محمد معروف الدواليبي ص ٤٩.

ا - على الرغم من دستورية فصل الدين عن الدولة فإن ذلك الفصل كان واهيا ، وأن المقصود به حماية الدين من تدخل الدولة في شؤونه ، وأما تنفيذ ذلك الفصل عمليا فقد ظل عرضة للتغيير تبعا لموازين القوة داخل المجتمع ، ولأطماع الدولة والكنيسة ، وقد تبين أن للكنيسة الأمريكية نظام شمولي في أغراضه وأنشطته ، وعلاقاته ، وأنها تمزج الدين بالتعليم والخدمات الاجتماعية ، والفن والسياسة ، والحرب والسلم ، كما تم استنتاج أن البروتستانتية هي التي تمثل الأكثرية الغالبة للشعب الأمريكي ، وتمكن فيها مصادر النفوذ السياسي ، لا لكثرة أتباعها فحسب ، بل لأنها كنيسة الطبقة العليا ، لذا تسمى كنيسة الانجلوسكسون البيض .

وقد استخدمت الكنيسة الوسائل ، والأساليب التي تستخدمها المنظمات والمؤسسات المدنية من حيث التأثير في السياسات العامة في المجتمع ، كما ملكت إدارة جامعات ومؤسسات تربوية ، وتعليمية ، وإعلامية ، واستثمارية ، فوفرت بذلك إمكانات مالية ضخمة ، فهي بذلك استطاعت أن تصل إلى انتخاب رئيسين أمريكيين أصوليين هما: " جيمي كارتر" الذي أعلن عن إيمانه واعتقاده بـ" الولادة الثانية "كنصراني أصولي ، وجسد ما في هذه العقيدة من اتجاهات صهيونية نظريا وعمليا .

و " رونالد ريغان " الذي عبر عن ذلك ومارسه ، واعتبر أن للدين وظيفة أساسية في الحياة السياسية للولايات المتحدة . وقد نتج عن كل ذلك أن كثر استخدام الرموز التوراتية الخطابية في العقدين الأخيرين في العمل السياسي الأمريكي ، نتيجة لتأثير التيار النصراني الأصولي على المجتمع الأمريكي ، وثقافته ، بحيث صور الصراع العربي الإسرائيلي على أنه امتداد للصراع التاريخي بين اليهود وغير اليهود ، وأن إسرائيل الحالية هي إسرائيل التوراة نفسها التي يبشر قيامها بمجيء المسيح ثانية .

ب - وأن لانتصار إسرائيل في حرب يونيو ١٩٦٧م ، واحتلالها لمدينة القدس أثر محوري في بعث الحركة الأصولية النصرانية في الولايات المتحدة التي قدمت هذه الحرب على أنها حرب بين قوى الخير وقوى الشر ، ثم ذكر الباحث أن أهم العوامل التي أسهمت في نهوض الحركة الأصولية النصرانية ما يلي:

١ - توجه الرأي العام الأمريكي نحو الكنيسة، وما تطرحه من قيم وتعاليم نتيجة لما عاناه الشعب الأمريكي من هزائم عسكرية في فيتنام، وفضيحة أرغيت التي أسقطت الرئيس نيكسون عام ١٩٧٤م، الأمر الذي أدى إلى ولادة عديد من المؤسسات والتنظيمات... الكنسية حتى أنه سمي عام ١٩٧٦م عام المسيحية الأصولية.

٢ - وصول رئيس جيمي كارتر وإعلانه من جديد كنصراني، مؤمنا بأن تأسيس إسرائيل هو تحقيق للنبوءات التوراتية.

٣ - تولى مناحيم بيغن رئاسة الوزراء في إسرائيل في عام ١٩٧٧م. حيث أعطى مجيئه شرعية للحكم الديني اليهودي المتطرف، واستخدامه الإشارات التوراتية لتبرير الاستراتيجية الصهيونية وحرصه على إقامة علاقات متينة مع قادة الحركة المسيحية الأصولية.

٤ - تنبه المنظمات الصهيونية إلى تنامي تأثير الحركة الأصولية المسيحية على المجتمع، ومسارعتها لإقامة تحالف متين معها، باعتبارها أضخم وأسرع كتلة مؤيدة لإسرائيل نمت في الولايات المتحدة.

٥ - وصول اليمين السياسي المحافظ لحكم الولايات المتحدة ممثلا في رونالد ريغان عام ١٩٨٠م فقد أسس هذا اليمين برامجه السياسية والاقتصادية والثقافية على تحالفات مع الحركة الأصولية النصرانية[١].

إن هذه التحولات وهذا التنامي الكبير لدور الأصولية النصرانية في المجتمعات الغربية خاصة الولايات المتحدة الأمريكية ليوضح لنا دور العقيدة في سياسة الدول الغربية، فما يقال عن أمريكا يقال عن بقية الدول الغربية الأخرى، كما يوضح لنا أن الدعم الأمريكي وانحيازه التام للدولة الإسرائيلية إنما يعود إلى الجذور العقدية، والتفسير المغلوط للتوراة، وهذا يعني أن أسطورة فصل الدين عن الدولة صارت خرافة، وخدعة يغرر بها السذج، والجدير

(١) انظر: البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي الصهيوني د. يوسف الحسن١٨٨ - ١٩٠

بالذكر هنا أن البعد الديني في السياسة الأمريكية واهتمامها بموضوع الأديان ودوره في الصراع السياسي ما زال يتطور، وها هي الآن، وفي ظل ما يسمى بالنظام العالمي الجديد تركز في سياستها الخارجية ما يسمى بملف الأديان أو "الحريات الدينية".

فقد أوردت جريدة الشعب المصرية تحت عنوان "الدين يقود السياسة الأمريكية بأمر كلينتون وبه يتحدد الثواب والعقاب" «أن منظري السياسة الأمريكية الخارجية في تحديدهم للقضايا التي على أساسها ستركز السياسة الخارجية الأمريكية قد اهتدوا إلى معيارين يمكن الاعتماد عليهما في المستقبل وهما:

الأول: ملف حقوق الإنسان الذي بدأ التعامل معه مبكرا بواسطة تقارير الوزارة الخارجية الأمريكية السنوية عن دول العالم.

الثاني: ملف الأديان أو كما يطلقون عليه "الحريات الدينية" وقد بدأ التعامل مع هذا الملف منذ عهد وزير الخارجية السابق "وارين كريستوفر" فقد شكل في نوفمبر ١٩٩٦م لجنة استشارية معنية بالحريات الدينية في العالم، وضم إليها شخصيات أمريكية بمن فيهم المسلمون واليهود. وكان الهدف الأساسي من وراء ذلك هو - كما أعلن - السعي نحو تفهم أكبر للمشكلات الدينية في العالم. وبعبارة أدق جمع الأمريكان معلومات أكثر عن هذا الملف، وقد كان أول عمل قدمت هذه اللجنة إعداد تقرير عن اضطهاد النصارى في العالم، وفي لقاء بين تلك اللجنة ورئيس كلنتون أكد أن العمل لتعزيز الحرية الدينية في شتى أرجاء العالم سوف يمثل جانبا مهما في السياسة الأمريكية المتعلقة بحقوق الإنسان، كما أنه سيكون موضع تركيز دبلوماسيتها. أما وزيرة الخارجية الأمريكية "مادلين أولبريت" فقد ذكرت في المقدمة التي كتبتها لتقرير الحرية الدينية - السابق ذكره - أن الكونجرس سيمنع المساعدات عن الدول التي تضطهد النصارى، أو تعجز عن كفالة سلامة حماية أي جماعة دينية[1].

وذكرت جريدة المسلمون الدولية: «اتخاذ الحكومة الأمريكية قرار رقم

---

(١) انظر: جريدة الشعب المصرية بتاريخ ٢٦ أغسطس ١٩٩٧م ص ٧ "بتصرف".

١٦٨٥ يدعو لتأسيس مكتب حكومي لمراقبة الاضطهاد الديني في العالم، يكون له - دون الرجوع للكونجرس - إعلان المقاطعة الاقتصادية الكاملة لأي دولة في العالم يرى أنها تضطهد الحرية الدينية»[١] . فهذه السياسة تظهر أن أمريكا صارت راعية الأديان لكن هل هذه الرعاية تشمل جميع الأديان وعلى قدم مساواة؟ الجواب بديهي لدى المسلم فقد أجاب عنها القرآن ﴿ وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾[٢] .

والواقع يشهد على ذلك فقد أعلنت أمريكا موقفها من الإسلام بصورة أكثر وضوحا مع بدء ما يسمى بالنظام العالمي الجديد حيث صرح "دان كويل" نائب الرئيس بوش: «إن العدو الوحيد المتبقي في وجه الغرب هو الإسلام» أما أجهزة إعلامها فقد ابتكرت فكرة الربط بين الإسلام والإرهاب وسودت على أغلفة صحفها بعناوين تحذر من الخطر الإسلامي[٣] .

وفي ختام الكلام عن السياسة والدين في المجتمعات نخلص إلى أنه ليست هناك سياسة مجردة عن الدين، فالدين سواء كان وضعيا كالهندوسية، أو كان سماويا محرفا كديانتي اليهودية والنصرانية، أو الإسلام، يوجه سياسة أتباعه، ويحدد علاقاتهم مع الأمم الأخرى.

* * * * *

---

(١) انظر: جريدة المسلمون الدولية عدد ٦٥٢ بتاريخ ٢٨ ربيع الأول ١٤١٨هـ، ١ أغسطس ١٩٩٧م.

(٢) سورة البقرة الآية: ١٢٠ .

(٣) انظر: النظام العالمي الجديد في القرن ٢١ لفريدا عزيز ص ٢٦٨ .

المبحث الثالث

وجه صلة علم الملل بالسياسة

بعد أن تقررت العلاقة الوثيقة بين الدين والسياسية نبين هنا وجه صلة علم الملل ، أو دراسة الأديان بالسياسة ، ويبدو لي أن صلة علم الملل بالسياسة تبرز في أوجه أهمها:

الوجه الأول: كون علم الملل يقوم بدور الكاشف للأصول العقدية التي تكون الفكر السياسي .

لكل أمة ، فمن أراد على سبيل المثال معرفة العلاقة السياسية بين إسرائيل والدول الغربية خاصة أمريكا لابد أن يدرك البعد الديني في هذه العلاقة التي تجعل هذه العلاقة فوق كل المصالح والاعتبارات الأخرى كما صرح "جيمي كارتر" حين قال في أمام الكنيست الإسرائيلي عام ١٩٧٩م: «إن علاقة أمريكا بإسرائيل أكثر من مجرد علاقة خاصة لقد كانت ولا تزال علاقة فريدة ، وهي علاقة لا يمكن تقويضها لأنها متأصلة في وجدان وأخلاق وديانة ومعتقدات الشعب الأمريكي نفسه»[(١)] . ولا يكون ذلك إلا بدراسة الديانة اليهودية والنصرانية لمعرفة المفاهيم التي تكون العلاقة السياسية الدينية ، وهذا الأمر ما فعله الغرب واليهود متمثلا بالمستشرقين والمخابرات والدبلوماسيين حيث درسوا الإسلام بجميع جوانبه مع التركيز في الوقت الراهن خاصة بعد ظهور الصحوة الإسلامية في العالم الإسلامي على الجانب السياسي وقصدهم من وراء هذه الدراسات هو:

١ - محاولة تضليل المسلمين ، فقد أدرك أعداء الإسلام أن للإسلام مبادئ وقيم وهدي واضح في سياسة المسلمين مع الأمم الأخرى ، كما أدركوا أن التزام المسلمين بالإسلام في هذا الجانب يعطيهم قوة ، ومن ثم حاولوا عزل الإسلام عن إدارة السياسة المعاصرة .

٢ - محاولة معرفة السياسة الإسلامية وخطرها عليهم .

٣ - معرفة ما مدى تأثير الإسلام في الصراع السياسي بين المسلمين وغيرهم في هذا

---

(١) أمريكا وإسرائيل ص ٢٣ .

العصر(١) .

الوجـه الثاني: تصحيح المواقف السياسية التي تستغل الدين لمصالح معينة باستدلال تفسير خاطئ أو مغلوط لنصوص دينية ، كما فعلت الصهيونية بأتباع الكنائس النصرانية في العصر الحديث ، ولا يتأتى ذلك إلا بدراسة تلك النصوص دراسة تاريخية تحليلية مقارنة وكشف حقيقتها ، وبذلك يمكن أن تفشل التحالفات السياسية التي تعتمد على المفاهيم الخاطئة . ومن هنا أقترح من أجل مقاومة التحالف الأصولي المسيحي الصهيوني بما يلي:

١ - بما أن الحركة الأصولية المسيحية تهتم بالمسائل الاجتماعية والسياسية والمواعظ التقليدية ، فإنه لابد من إعداد دراسات جادة ومفصلة حول التعليم في مدارس الأحد والمدارس الدينية ، إن مواد هذه المدارس تستند إلى تفسير المواد التراثية ، وبخاصة العهد القديم ، ومن ثم كشف الاتجاهات الصهيونية ونشرها للمجتمعات الغربية بجميع الوسائل(٢) . وللتدليل على أهمية هذه الخطوة نذكر قضية العداء بين اليهود والنصارى ، وأن النصارى يتهمون اليهود بقتل المسيح - عليه السلام - تلك التهمة التي كثيرا ما حاول اليهود التخلص منها لكونها تعيق سبيلهم لتنفيذ مشاريعهم التوراتية التي يؤمن بها النصارى ، كما أنها تفقدهم تحالفهم مع الأصوليين النصارى .

وقد استطاع اليهود التخلص منها عن طريق من دسوهم بين الأساقفة حتى استطاعوا إصدار قرار الانفتاح على اليهود من الفاتيكان ، ولكن جميع أساقفة العرب عارضوا هذا القرار ، وذلك لما في عقائد اليهودية حتى اليوم من مطاعن وسباب للمسيح ولأمه العذراء الطاهرة . . . لذلك طالب أساقة العرب بقوة على الانفتاح على الإسلام الذي يقدس المسيح وأمه ، مما جعل البابا بولس السادس وأعوانه يطلبون من الأساقفة

---

(١) من الدراسات التي أجريت في إسرائيل في هذا المجال كتاب "أثر الإسلام في السياسة الأفريقية في الماضي والحاضر" وأثر الفكر الإسلامي في الصراع ضد الصهيونية" وكتاب "دور الإسلام كعنصر من عناصر الصراع العربي الإسرائيلي" انظر معالم قرآنية في الصراع مع اليهود ص ٢٦٣ . ومن دراسات الغربيين: الدراسات عن الأصولية أو الصحوة وهي كثيرة جدا منها على سبيل المثال: الأصولية في العالم العربي للمستشرق الأمريكي ريتشارد دكمجيان ، والصحوة الإسلامية في نظر الغرب وكتاب اللغة السياسية في الإسلام ، والغرب و الشرق الأوسط لبرنارد لويس ، أما ما تنشره الصحف والمجلات فحدث ولا حرج .

(٢) البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي الصهيوني ص ١٩٨ .

العرب أن يطلبوا مشروعا آخر بالانفتاح على الإسلام خشية انقسام جديد في الكنيسة الكاثوليكية، فصدر المشروع الذي دعا فيه البابا الحوار بين النصرانية والإسلام[1] كما سبق ذكره في الفصل الثالث من هذا الباب.

فإذا كان مثل هذا الأثر قد تحقق عن طريق النصارى العرب فلأن يتحقق ما هو أكبر منه وأجدى من علماء المسلمين أولى.

٢ - عقد مؤتمرات دينية سواء في البلاد الإسلامية أو في البلاد الغربية خاصة الولايات المتحدة والتركيز فيها على مسائل العلاقات بين الدين وحقوق الإنسان بهدف استكشاف وكشف استخدام الصهيونية التوراة المحرفة للسياسة وسوف تساهم هذه المؤتمرات إن وجدت الدعم اللازم في تصحيح كثير من المفاهيم المغلوطة لدى النصارى على جميع مستوياتهم.

٣ - محاولة الاتصال بالشخصيات المعتدلة في اليهود والنصارى وترتيب زيارات لهم في العالم الإسلامي حتى يقفوا عن المسلمين عن كثب، وبذلك تنفتح قنوات للاتصال تمكن من تصحيح المفاهيم وتوظيف هؤلاء لإيصال وجهة النظر الإسلامية عن الديانتين اليهودية والنصرانية.

٤ - دعم وإعداد معلومات مركزة وصحيحة عن الإسلام وتناوله للمسائل الاجتماعية والسياسية ونظرته للأديان[2].

٥ - إحياء سنة المراسلة بين الرؤساء، كما فعل النبي ﷺ مع الملوك و الأباطرة. وقد حدثت مثل هذه السنة في العصر الحديث من الملك عبد العزيز - رحمه الله تعالى - حيث أرسل إلى الرئيس الأمريكي روزفلت رسالة بعد لقاء بينهما بجدة أوضح فيها عدم أحقية إسرائيل بفلسطين وأن استنادها إلى التوراة ما هو إلا مؤامرة على الأمة العربية، وقد رد روزفلت على رسالة الملك.

وقد جاء في هذا الرد قوله: « . . . إنني مغتبط أن جلالتكم انتهزتم هذه الفرصة لالتفات انتباهي لآرائكم في هذه القضية، وقد أعطيت أدق الانتباه للبيانات التي

---

(١) انظر: أمريكا وإسرائيل ص ٤٢ - ٤٣.

(٢) البعد الديني في السياسة الأمريكية في الصراع العربي - الصهيوني ص ١٩٩.

أدرجتموها في كتابكم . . .» إلى أن قال «ولا شك أن جلالتكم تتذكرون أيضا أنه خلال محادثاتنا الأخيرة أكدت لكم أني لن أتخذ أي عمل بصفتي رئيسا للسلطة التنفيذية يتضح أنه عدائيّ للشعب العربي ، وإنه لما يسرني أن أجدد لجلالتكم التأكيدات التي تلقيتموها سابقا بخصوص موقف حكومتي بصفتي رئيسا للسلطة التنفيذية فيما يتعلق بقضية فلسطين وإني أعلمكم بأن سياسة هذه الحكومة غير متغيرة . . .»[1] .

كما كتب روزفلت خطيا إلى مساعديه قبل وفاته معلقا على رسالة الملك عبد العزيز قائلا: «يستحيل على مثل هذه الدولة اليهودية أن تقوم ثم تدوم إلا بالقوة . . . ولا يجوز لنا نحن الأمريكيين أن نكون طرفا في هذا القتال»[2] .

فكما تبين من رد روزفلت فقد غيرت رسالة الملك عبد العزيز موقف روزفلت حيث وعد حياده في الصراع العربي - الإسرائيلي . . .

وأخيرا أذكر أن تكون الجهات التي تعد وتتابع لما ذكرت من الاقتراحات جهات مؤهلة لهذا الأمر ، كالأقسام التي تعنى بعلم الملل أو المراكز الإسلامية بالتعاون مع العلماء .

* * * * *

---

(١) انظر: أمريكا وإسرائيل ص ٧٤ - ٧٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٧٦ - ٧٧ .

الخاتمة

وفي ختام هذه الرحلة المباركة - إن شاء الله - والتي عشت مع موضوع علم الملل أهميته وضوابطه، أسجل هنا بعد شكر الله - تعالى - الذي وفقني على إتمامه أهم نتائج البحث والمقترحات:

أولا: نتائج البحث: من خلال هذا البحث توصلت إلى النتائج التالية:

- تبين أن موضوع علم الملل أو الأديان: دراسة الأديان سماوية كانت أم وضعية وأن علم الملل أعم من علم التوحيد، ومخالف للفلسفة.

أن علم الملل من العلوم الشرعية التي دلت على مشروعيته الكتاب والسنة ومواقف السلف، وأن مشروعيته منوطة بموافقته للمنهج القرآني.

- أن علماء المسلمين هم أول من دون علم الملل ووضع مناهجه، وأنه بأيديهم ازدهر حتى بلغ غاية الكمال في أيام عز الدولة الإسلامية.

ومن خلال تتبعي لجهود علماء المسلمين في علم الملل ظهر لي أن أغلب الفرق الإسلامية قد ساهمت فيه وأن اليد الطولى كانت لعلماء الكلام وعلى رأسهم المعتزلة في فترة نشأته، ثم الأشاعرة في أوج ازدهاره، أما السلف فقد برزت جهودهم في مجال تأصيله ودراسته وفق المنهج الشرعي، وضوابطه.

- ومن خلال مناهج العلماء في علم الملل اتضح أن علماء السلف التزموا بالمنهج الشرعي أما علماء الفرق فقد تناول كل فريق منهم دراسة الملل وفق مذهبه العقدي، وإن اتفقوا على أسس عامة كالاعتماد على العقل وحده، وتقديمه على النقل وتأويل النقل أو تفويضه، واستعمال الفلسفة في تقرير العقائد.

- مر علم الملل طور الضعف كغيره من العلوم الإسلامية في عصور ضعف العالم الإسلامي والجمود الفكري، فغاب دوره، لكن بعد انقطاع عن العطاء لاحت بوادره مع فجر اليقظة الإسلامية ونفخ روح البعث في عروق الأمة، فبدأ مسيرته الجديدة في العصر الحديث. أما بأي صورة بدأ وعلى أي منهج وما واقعه في الوقت الراهن فهذا ما أجابه الفصل الأول من الباب الثالث حيث تناول البحث واقع دراسات علم الملل في العالم الإسلامي وذلك على مستويين هما:

١ - المؤسسات العلمية (الجامعات) .

٢ - الجهود الفردية .

وقد تبين أن الجامعات أولت اهتماما بعلم الملل بشهادة لوائحها وخططها الدراسية لكن لم يصل إلى المستوى المأمول لأسباب عديدة أهمها:

أ - الخلل في مناهج التدريس في بعض المؤسسات العلمية حيث تأثرت مناهج تدريسه بالمنهج الغربي الوافد

بـ - عدم وضوح الحكم الشرعي لتدريسه لدى بعض الباحثين حيث وجد من عارض تدريسه

جـ - الصعوبة المتوهمة لدى بعض طلبة العلم وعزوفهم عن علم الملل .

د - المواقف السياسية لبعض الدول الإسلامية التي تعتبر دراسة الملل مثيرا للطائفية والتعصب الديني .

وفيما يتعلق بالجهود الفردية تبين لي أن كثيرا من رواد الإصلاح والزعماء الذين قاوموا الاستعمار وبعثات التنصير ، قد قدموا جهودا مشكورة وإن لم ترق كلها إلى مستوى مصنفات ، لكن سبقهم إلى إحياء هذا العلم قد أعطاهم تقديرا خاصا ، كما ظهر الدور المتميز لأساتذة الجامعات والمتخصصين بعلم الملل ، وأن جهودهم تميزت بالتنوع ووضوح المنهجية . وفي تقويم الجهود الفردية أظهرت نتيجة البحث من جانب آخر وجود اختلافات في مناهج البحث وفي المذاهب العقدية لدى المعاصرين ، كما أظهرت وجود تأثير من المنهج الغربي الوافد على كثير من مناهج المعاصرين ، مما يقتضي ضرورة إعادة النظر وتصحيح المسار إذا كنا نريد استشراف عهد جديد لعلم الملل يقوم على أسس منهجية سليمة .

- وفي الفصل الثاني - دراسات الملل في الغرب تبين لي أن علم مقارنة الأديان في الغرب نشأ مع النهضة الأوروبية الحديثة ، وأن الكنيسة بأخطائها كانت السبب الرئيس لنشأته ، وفي خضم الصراع الذي احتدم بين رجال الدين ورجال العلم ، نما وترعرع وبانتصار رجال العلم على رجال الكنيسة وظهور فلسفات إلحادية تلبس هذا العلم عندهم بنظريات وأفكار إلحادية ، فنشأ نشأة أقرب إلى الإلحاد منه إلى الإيمان ، لكن

سرعان ما أعاد الغربيون قدرا من الاعتبار للديانة النصرانية ، ولو بغرض استغلالي محض عند بعضهم ، حيث وجدناهم يرفعون راية النصرانية في ديار المستعمرات ويصطحبون القساوسة والرهبان والمستشرقين الذين تكبدوا مشاق دراسات العالم الشرقي - أديانه وثقافته وحضارته - وبصفة خاصة العالم الإسلامي ، مستخدمين مقارنة الأديان ، وهنا نجد أهدافهم من دراسة الأديان تختلف عن أهدافهم في أيام نشأته ، حيث كانت أيام نشأته لمحاربة الدين وهدمه بدءا من النصرانية ، بينما في الفترة الأخيرة تحول إلى جعل النصرانية معيارا وميزانا لنقد الأديان الأخرى . وفي هذا الجو نشأ المنهج الإستشراقي .

- وتبين من خلال البحث أن من أخطر المسائل التي لها صلة وثيقة بعلم الملل سلبا وإيجابا مسألتي التقريب بين الأديان والتطور الديني وأنهما يشكلان تحديا خطيرا على المسلمين ، وبينت أن علم الملل أهم وسيلة لمقاومتهما .

- تبين من خلال البحث في موضوع الغزو الفكري وصلته بعلم الملل أن أي غزو فكري لأمة على أمة أخرى يسبقه - غالبا - وبالذات في هذا العصر دراسة على عقائد الأمة المغزوة ، للبحث عن المنافذ وجوانب الضعف ، وتبين أن الأمم الكافرة تبني غزوها على الأمة الإسلامية في هذا العصر على دراسات جادة ، كما تبين الدور الفعال الذي يمكن أن يقوم به علم الملل في صد الغزو العقدي ، والكشف عن العقائد الغازية وتسرب علل تدين الأمم على الأمة الإسلامية .

كما تبين من خلال الدراسة أن الدين أهم عامل في توجيه السياسة الدولية وإنشاء العلاقات بين الدول وأن دراسة دين ما قد تكون لغرض سياسي .

ثانيا: الاقتراحات: الاهتمام بعلم الملل منهجا ومحتوى ليصل إلى المستوى الذي يؤهله لأداء دوره ، وأرى أن يكون هذا الاهتمام على النحو التالي:

١ - أن تعنى جامعات العالم الإسلامي بتدريس علم الملل ، ورعاية جهود البحث العلمي في مجالاته ، وتوفير الوسائل اللازمة لخدمته ، من المكتبات الوثائقية ، وإصدار الدوريات ، وتبادل الزيارات والخبرات ، وتكوين المراكز المتخصصة في هذا المجال .

٢ - العناية بالمناهج الدراسية لمادة الملل وجعلها على المستوى الذي يؤهل الأقسام المتخصصة بعلم العقائد والأديان على تخريج علماء مؤهلين علميا .

٣ - توثيق عرى التعاون بين كافة الجامعات الإسلامية والمؤسسات العلمية التي تقوم بالبحث العلمي في مجال علم الملل .

٤ - إنشاء مركز عالمي يهتم بقضايا علم الملل وأن تكون أهم مهامه ما يلي:

أ - تقديم دراسات وبحوث علمية عن الأديان والمذاهب المعاصرة .

بـ - متابعة وجمع كل ما يكتب عن الإسلام ودراسته للرد عليه .

جـ - ترجمة الكتب الإسلامية خاصة كتب علم الملل ونشرها في العالم .

د - إعداد ندوات ومؤتمرات حول موضوع علم الملل والمناقشة فيما يستجد في هذا الحقل .

هـ - الاتصال بعلماء الأديان الأخرى وعقد الحوار معهم وتصحيح مفاهيمهم عن الإسلام .

و - إصدار مجلة شهرية متخصصة بدراسات الملل .

٥ - إصدار موسوعة عالمية في الأديان والمذاهب تكون بديلا كافيا عن الموسوعات الغربية .

* * * * *

فهرس المصادر والمراجع

١- آثار الحرب في الفقه الإسلامي، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر - دمشق، ط الثالثة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، طبعة مصورة عن ط الثانية ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٢- الإبانة للإمام أبي عبد الله محمد بن بطة العبكر، تحقيق رضا نعسان معطي، دار الراية للنشر ط الأولى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

٣- الإبانة في أصول الديانة للأشعري، تحقيق د. فوقية حسين محمود، دار الأنصار - القاهرة ط الأولى ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

٤- أبحاث ندوة نحو فلسفة إسلامية معاصرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرند ط الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م

٥- ابن الإنسان (حياة نبي)، أميل لودقيع ترجمة عادل زعتير، دار إحياء الكتب العربية ١٩٤٧م.

٦- ابن حزم الأندلس، د. عبد الحليم عويس، الناشر الزهراء للإعلام العربي - القاهرة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

٧- ابن حزم ومنهجه في دراسة الأديان، د. محمد علي حماية، دار المعارف، ط الأولى، ١٩٨٣م.

٨- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، د. محمد محمد حسين، مكتبة الآداب ط الثالثة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٩- الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، المكتبة الثقافية - بيروت ١٩٧٣م.

١٠- أثر العلم في المجتمع، لبرراندرسل، ترجمة د. تمام حسان، مكتبة نهضة مصر القاهرة

١١- أجنحة المكر الثلاثة، لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار العلم - بيروت ١٩٧٧م.

١٢- الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، لعلاء الدين بن علي، دار الكتب العربية - بيروت ط الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١٣- **أحكام أهل الذمة، لابن القيم الجوزية**، دار الكتب العلمية - بيروت ط الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م .

١٤- **الإحكام في أصول الأحكام، لسيف الدين أبي الحسن علي بن علي بن محمد الآمدي**، تحقيق إبراهيم العجوز ، دار الكتب العلمية - بيروت ط الأولى ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

١٥- **أحكام الذميين والمستأمنين، د. عبدالكريم زيدان**، مطبعة البرهان ط الأولى - بغداد

١٦- **أحكام القرآن، لأبي بكر أحمد الجصاص**، دار الفكر .

١٧- **أحكام القرآن، لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي**، الناشر عيسى البابي الحلبي ط الثانية ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م .

١٨- **إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي**، دار الكتب العلمية - بيروت

١٩- **أخبار مصر، للمسبحي**، تحقيق أيمن سيد ونباري بيانكي ، الناشر المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية - القاهرة .

٢٠- **أخطاء المنهج الغربي الوافد، لأنور الجندي**، دار الكتب اللبناني - بيروت

٢١- **أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، د. جمال عبد الهادي ود. وفاء محمد رفعت**، دار الوفاء للطباعة والنشر ، ط الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م .

٢٢- **أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي، د. صابر طعيمة**، عالم الكتب - بيروت ط الأولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .

٢٣- **الأدب المفرد للإمام البخاري، تحقيق محمد هشام البرهاني**، مطبعة العصرية ومكتبتها - الإمارات المتحدة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م

٢٤- **الأديان دراسة تاريخية مقارنة (القسم الأول)، د. رشدي عليان وسعدون الساموك**، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، جامعة بغداد .

٢٥- **الأديان القديمة في الشرق، د. رؤوف شلبي**، دار الشروق ط الثانية ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م

٢٦- **إرشاد الفحول، للشيخ محمد بن علي الشوكاني**، تحقيق أحمد عبد السلام ، دار

الكتب العلمية ط الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م .

٢٧- الإرشـــاد لـــلجويني، تحقيق د. محمد يوسف موسى وعلي عبد المنعم عبد الحميد، ص ٣٤٨ - ٣٥٩ مكتبة الخانجي ١٣٦٩/ ١٩٥٠م .

٢٨- الأزهـــار المتناثر في الأحاديث المتواترة، للإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار التأليف .

٢٩- أســـاس التقديس لفخرالدين الرازي، د. أحمد حجازي السقا، ص ٩٥ دار الجيل - بيروت

٣٠- أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، د. علي محمد جريشة، ومحمد شريف الزيبق ، دار الاعتصام - القاهرة .

٣١- أســباب الـــنـــزول للإمام أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق أحمد، دار القبلة للثقافة الإسلامية - جدة ، مؤسسة علوم القرآن - دمشق ، بيروت ط الثالثة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م .

٣٢- الاستشـــراق في الادبـــيات العربية، د. علي بن إبراهيم النملة، مركز الملك الفيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ط الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م .

٣٣- الاستشـــراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د. محمود حمدي زقزوق، مؤسسة الرسالة ط الثانية ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

٣٤- الاســـتعانة بغـــير المسلمين في الفقه الإسلامي، د. عبد الله إبراهيم الطريقي، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - الرياض ط الأولى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م .

٣٥- الإســـرائيليات في التفسير والحديث، د. محمد حسين الذهبي، دار الإيمان - دمشق ط الثانية ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

٣٦- الإســـلام والحضـــارة الغربـــية، د. محمـــد محمد حسين، مؤسسة الرسالة ط الثانية ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م

٣٧- الإسلام دين الله في الأرض وفي السماء، د. جمال عبد الهادي، د . وفـاء محمد رفعت ،

دار الوفاء للطباعة والنشر ط الثانية ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

٣٨- **الإسلام وصراع الحضارات**، د. **أحمد القديري**، سلسلة كتاب الأمة ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر ط الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م .

٣٩- **الإسلام والعقل**، د. **عبد الحليم محمود**، مطبعة المخيمر ، منشورات دار الكتب الحديثة

٤٠- **الإسلام على مفترق الطرق**، **لمحمد أسد**، ترجمة فروخ ، دار الاعتصام - القاهرة

٤١- **الإسلام والمسيحية**، **أليكسي جوارفكسي**، ترجمة خلف محمد الجراد ، سلسلة عالم المعرفة - الكويت جمادى الآخرة ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م .

٤٢- **الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية**، **لمحمد عبده**، ط الثالثة .

٤٣- **الإسلام والوحدة**، د. **محمد عمارة**، سلسلة الهلال ١٩٨٠م .

٤٤- **الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني**، دار صادر - بيروت ط الأولى ١٣٣٨هـ

٤٥- **الأصنام**، **لأبي المنذر هشام بن محمد الكلبي**، دار الكتب المصرية - القاهرة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م .

٤٦- **أصول الدين**، **لأبي منصور عبد القاهر البغدادي**، دار المدينة للطباعة والنشر - استانبول - مطبعة الدولة ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م .

٤٧- **الأصول الفكرية عند شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم**، **لخالد بن عبد الرحمن العك**، المكتب الإسلامي ط الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م .

٤٨- **أصول المسيحية كما يصورها القرآن**، د. **داود علي الفاضيلي**، مكتبة المعارف - الرياض ١٩٩٦م .

٤٩- **أضواء البيان**، **للشيخ محمد الأمين محمد المختار الشنقيطي**، طبعة الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - الرياض ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .

٥٠- **أضواء على الثقافة الإسلامية**، **لنادية شريف العمري**، مؤسسة الرسالة -

بيروت ١٤٠٦هـ.

٥١- **إظهار الحق، لشيخ رحمت الله بن خليل الرحمن الهندي**، تحقيق د. محمد أحمد عبد القادر ملكاوي الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - الرياض ١٤١٠هـ١٩٨٩م.

٥٢- **الاعتصام، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد الشاطبي**، دار الفكر.

٥٣- **الاعتقادات، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهاني**، تحقيق د. شمران العجلي، دار الأشرف للتجارة - بيروت، ط الأولى ١٩٨٨م.

٥٤- **اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، لأبي عبد الله محمد بن محمد فخر الدين الرازي**، دار الكتاب العربي - بيروت ط الأولى ١٤٠٧هـ.

٥٥- **الأعلام، لخير الدين الزركلي**، دار العلم للملايين ط الخامسة ١٤٠٠هـ/ ١٩٧٠م.

٥٦- **الإعلام للقرطبي تحقيق، د. أحمد حجازي السقا**، دار التراث العربي.

٥٧- **الإعلام بمناقب الإسلام لأبي الحسن العامري، تحقيق د. أحمد عبد المجيد غراب**، دار الأصالة للثقافة ط الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٥٨- **الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام بن تيمية، للبزار**، تحقيق صلاح الدين المنجد دار الكتاب الجديد - بيروت ط الاولى ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.

٥٩- **أعلام العراق، لمحمد بهجة الأثري**، المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٥هـ

٦٠- **أعلام الموقعين، لابن القيم الجوزية**، دار الكتب العلمية - بيروت ط الأولى ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

٦١- **الأعمال الكاملة، لمحمد عبده**، جمع وتحقيق د. محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت.

٦٢- **إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان، لابن القيم الجوزية**، تصحيح وتحقيق محمد عفيفي، المكتب الإسلامي ط الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

٦٣- **إفحام اليهود لسموءل، د. محمد عبد الله الشرقاوي**، الناشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - الرياض ١٤٠٧هـ

٦٤- **أفكار ورجال، لجرين برنتن**، ترجمة محمود محمود - القاهرة ١٩٦٥م .

٦٥- **الاقتصاد في الاعتقاد، لأبي حامد الغزالي**، المطبعة المحمودية التجارية - القاهرة .

٦٦- **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية**، تحقيق د . ناصر بن عبد الكريم العقل ، دار المسلم ط الخامسة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م .

٦٧- **أمريكا و إسرائيل - دراسة للدور الفكري الديني في الدعم الأمريكي لإسرائيل، د. محمد معروف الدواليبي**، دار الشامية - بيروت ، دار القلم - دمشق ط الأولى ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م .

٦٨- **الأم، لأبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي**، الدار المصرية للتأليف والترجمة طبعة مصورة عن طبعة بولاق ١٣٢١هـ .

٦٩- **الإنسان والأديان، د. محمد كمال جعفر**، دار الثقافة - الدوحة ط الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م

٧٠- **الإنسان في ظل الأديان، د. عمارة نجيب**، مكتبة المعارف - الرياض ١٤٠٠ هـ/ ١٩٧٩م .

٧١- **أوربا والإسلام، د. عبد الحليم محمود**، مطابع الأهرام التجارية

٧٢- **الأوضاع القانونية للنصارى واليهود في الديار الإسلامية حتى الفتح العثماني، د. حسن الزين**، دار الفكر الحديث - بيروت ١٩٨٨م .

٧٣- **أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية، د. علي بن نفيع العلياني**، دار طيبة ط الأولى ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

٧٤- **الأهواء والفرق والبدع عبر التاريخ الإسلام، د. ناصر عبد الكريم العقل**، دار الوطن ط الأولى ١٤١٥هـ .

٧٥- **الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي**، تحقيق أحمد حسن فرحات ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ط الأولى ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٩م .

٧٦- **البحر المحيط، لأبي الحيان،** دار الفكري ط الثانية ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .

٧٧- **بحـوث في الـثقافات الإسـلامية، د. حسن عيسى الطاهر وزملاؤه،** دار الحكمـة - الدوحة ط الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م .

٧٨- **بحـوث مؤتمر علوم الشريعة، في الجامعات المنعقد في عمان ،** الأردن ١٦ - ١٩ ربيع الأول - بحوث وقـائع نـدوة الـتحديات الحضـارية والغزو الثقافي لدول الخليج العـربي - في الفـترة من ١ - ٣ شعبان ١٤٠٥هـ الموفق ٢١ - ٢٣ أبريل ١٩٨٥ م . مكتب التربية العربي لدول الخليج .

٧٩- **بدائــع الصنائع في ترتيب الشرائع، لعلاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني،** الناشـر زكريا علي يوسف - القاهرة .

٨٠- **بدائع الفوائد، لابن القيم الجوزية،** دار الكتاب العربي - بيروت .

٨١- **الــبداية والــنهاية، لابن كثير،** تحقـيق د . أحمـد أبو ملحم وزملاؤه ، دار الريان ط الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

٨٢- **بــذل المجهود في إفحام اليهود، لسموءل بن يحيى المغربي،** تحقيق عبد الوهاب طويلة ، دار القلم - دمشق .

٨٣- **الــبرهان في أصول الفقه، لإمام الحرمين الجويني،** تحقيق عبد العظيم الديب ط الأولى ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م .

٨٤- **الــبرهان في علــوم القرآن، لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي،** تحقـيق محمد أبو الفضل إبراهيم مطبعة عيسى البابي الحلبي ط الثانية ١٣٩١هـ .

٨٥- **الــبرهان في معــرفة عقائد أهل الأديان، للسكسكي،** تحقيق ودراسة د . علي حسن ناصـر رسالة ماجستير في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، مكتوبة بالآلة الكاتبة .

٨٦- **بروتوكولات حكماء صهيون، ترجمة وتقديم د. إحسان حقي،** دار الـنفائس - بيروت ط الثانية ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م

٨٧- **الــبعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي الصهيوني، د. يوسف الحسن،**

مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت ط الأولى ١٩٩٠م .

٨٨- بغية الوعاظ، لجلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية - بيروت .

٨٩- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، لمحمود شكري الألوسي، المكتبة الأهلية بمصر ط الثانية ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م .

٩٠- بنو إسرائيل في الكتاب والسنة، د. السيد محمد الطنطاوي، ط الأولى ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م .

٩١- تاريخ الأدب العربي، لكارل بروكلمان، ترجمة يعقوب بك ، ود . رمضان عبد التواب ، دار المعارف - القاهرة ط الثالثة .

٩٢- تاريخ الأديان وفلسفتها، طه الهاشمي، منشورات مكتبة الحياة - بيروت ١٩٦٣م .

٩٣- تاريخ الأستاذ الإمام، لسيد محمد رشيد رضا، مطبعة المنار ط الثانية - القاهرة ١٣٤٤هـ .

٩٤- تاريخ الإسلام، للحافظ الذهبي تحقيق عبد السلام، دار الكتاب العربي - بيروت ط الأولى ١٤٠٧هـ .

٩٥- تاريخ الأمريكتين، د. عبد الفتاح حسن أبو علية، دار المريخ للنشر - الرياض ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م .

٩٦- تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، د. عبد الفتاح أبو علية، د . أحمد ياغي ، دار المريخ للنشر - الرياض ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣ .

٩٧- تاريخ بغداد، للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، دار الكتاب العربي .

٩٨- تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، لمحمد عزت دروزة، المكتبة العصرية - صيدا - بيروت ١٩٦٩م .

٩٩- تاريخ التصوف، لعبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات - الكويت ١٩٧٥م .

١٠٠- تاريخ الجدل، للشيخ محمد أبي زهرة، دار الفكر العربي ط الثانية ١٩٨٠م .

١٠١- تاريخ بن خلدون، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ١٣٩١هـ/ ١٩٩١م.

١٠٢- تاريخ الطبري، للإمام الحافظ بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية - بيروت ط الثانية ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

١٠٣- تاريخ الفكر العربي عمر فروخ، دار العلم للملايين، ط الثانية ١٩٨١م.

١٠٤- تاريخ المذاهب الإسلامية، للشيخ محمد أبي زهرة، دار الفكر العربي ١٩٨٩م.

١٠٥- تأصيل اليقظة، لأنور الجندي، دار الاعتصام - القاهرة ١٩٨٧م.

١٠٦- تأملات في كتاب اقتضاء الصراط المستقيم، د. ناصر بن عبد الكريم العقل، دار إمام الدعوة ط الأولى ١٤١٢هـ.

١٠٧- تأويل مختلف الحديث، لأبي مسلم عبد الله بن مسلم بن قتيبة، دار الجيل - بيروت ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٢م.

١٠٨- التبشير والاستعمار، لعمر فروخ ومصطفى الخالدي، المكتبة العصرية - بيروت ط الثانية ١٩٨٢م.

١٠٩- التبصير بالدين، لأبي المظفر الأسفراييني، تعليق محمد زاهر الكوثري، مكتبة الخانجي بمصر، والمثنا ببغداد ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م.

١١٠- تبيين كذب المفترى، لابن عساكر، مكتبة القدس - القاهرة.

١١١- تحصيل السعادة، لأبي النصر الفارابي، تحقيق وتقديم د. علي أبو ملحم، دار ومكتبة الهلال - بيروت ط الأولى ١٩٩٥م.

١١٢- تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي، لأبي العلاء محمد عبد الرحمن المباركفوري، في أبواب صفة القيامة، دار الكتب العلمية - بيروت ط الأولى، ١٤١٠ هـ/ ١٩٨٠م.

١١٣- التحقيق التام في علم الكلام، لمحمد الحسني الظواهري، مكتبة النهضة المصرية ١٩٣٩م.

١١٤- التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د. محمد بن عودة السعوي، شركة العبيكان للطباعة والنشر - الرياض ط الأولى، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

١١٥- ترجمان الأشواق، لابن عربي، ط ١٣١٢هـ بيروت .

١١٦- التراث والمعاصرة، د. أكرم ضياء العمري، رئاسة المحاكم الشرعية بدولة قطر ، ط الأولى شعبان ١٤٠٥هـ .

١١٧- التسامح الديني، لجون لوك، ترجمه وقدم له ، د . عبد الرحمن بدوي ، دار الغربي الإسلامي ط الأولى ١٩٨٠م .

١١٨- التطور والثبات، لمحمد قطب، دار الشروق ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م .

١١٩- التعريفات، لشريف علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية - بيروت ط الثالثة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

١٢٠- تفسير أبي السعود، لمحمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي - بيروت .

١٢١- تفسير ابن كثير، للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير، دار المفيد - بيروت ط الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .

١٢٢- التفسير الكبير، لأبي عبد الله محمد بن عمر فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية ، طهران ط الثانية .

١٢٣- تفسير المراغي، لأحمد مصطفى المراغي، دار المعرفة - بيروت .

١٢٤- تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم)، للسيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة - بيروت ط الثانية .

١٢٥- التفسير و المفسرون، د. محمد حسين الذهبي، دار الكتب الحديثة ط الثانية ١٣٩٦ هـ/ ١٩٧٦م .

١٢٦- التفكير الفلسفي في الإسلام، د. علي سامي النشار، دار الكتب الجامعية ط الأولى ١٩٧٢م .

١٢٧- التقريب لحد المنطق، لابن حزم، نشر وتحقيق د . إحسان عباس منشورات ، دار مكتبة الحياة ١٩٥٩م .

١٢٨- تكامل المنهجي المعرفي عند شيخ الإسلام ابن تيمية، لإبراهيم عقيلي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ط الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م .

١٢٩- التنصير خطة لغزو العالم الإسلامي، (أعمال مؤتمر كلورادو التبشيري)، الترجمة العربية .

١٣٠- تنظيم الإسلام للمجتمع، لمحمد أبي زهرة، دار الفكر العربي .

١٣١- تهذيب الخصائص النبوية، لجلال الدين السيوطي، دار البشائر ط الثانية ١٤١٠هـ .

١٣٢- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء ١٤١٠هـ .

١٣٣- الثقافة والعالم الآخر، د. عبد الله إبراهيم الطريقي، دار الوطن للنشر ، ط الأولى ١٤١٥هـ .

١٣٤- الجامعات الإسلامية، د. محمد جميل خياط رابطة الجامعات الإسلامية، ط الأولى ، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م .

١٣٥- جامع بيان العلم وفضله، للإمام أبي عمر يوسف بن عبد البر، الناشر المكتبة السلفية لصاحبها محمد عبد المحسن الكتبي - المدينة المنورة .

١٣٦- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، الثالثة .

١٣٧- جامع الرسائل لابن تيمية، تحقيق محمد رساد سالم، مطبعة المدني - القاهرة ، ط الأولى ، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م .

١٣٨- جامع العلوم والحكم، لعبد الرحمن بن شهاب الدين بن رجب الحنبلي، دار المعرفة - بيروت .

١٣٩- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، القرطبي دار الكتاب العربي ط الثالثة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م .

١٤٠- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لشيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية، مطبعة المدني - القاهره ، و طبعة دار العاصمة - الرياض بتحقيق د . علي بن حسن بن ناصر ، و د . عبد العزيز العسكر ، و د . حمدان بن محمد الحمدان ط الأولى ١٤١٤هـ

١٤١- الجواب الفسيح، لنعمان الألوسي، تحقيق د . أحمد حجازي السقا ، دار البيان العربية - القاهرة ١٤٠٨هـ .

١٤٢- الجواب المفيد في حكم جاهل التوحيد، لعبد الرحمن بن عبد الحميد، مطبعة المدني .

١٤٣- حاشية البيجوري على جوهرة التوحيد، لشيخ إبراهيم البيجوري، مطبعة دار إحياء الكتب العربية

١٤٤- حاشية التفتازاني لسعد الدين التفتازاني، تصحيح شعبان محمد إسماعيل، الناشر مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة ، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م .

١٤٥- حاشية الدسوقي عى أم البراهين، للسنوسي، دار إحياءالكتب العربية عيسى البابي الحلبي .

١٤٦- حاضر العالم الإسلامي للوثروب ستودارد، ترجمة الأستاذ عجاج نويهض، دار الفكر ط الثالثة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧١م .

١٤٧- حركة اليقظة الإسلامية، أنور الجندي، دار الاعتصام .

١٤٨- حرية الاعتقاد في الشريعة الإسلامية، لعبد الله ناصح علوان، دار السلام ، ط الأولى ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م .

١٤٩- الحضارة الإسلامية، آدم متز ترجمة د. محمد عبد الهادي أبو ريدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٦هـ/ ١٩٧٤م .

١٥٠- الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، د. توفيق يوسف الواعي، دار الوفاء للطباعة والنشر ط الأولى ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

١٥١- حقيقة النصرانية من الكتب المقدسة، د. أحمد حجاري السقا، دار القيصلية - مصر .

١٥٢- الحكمة في الدعوة إلى الله، لسعيد بن علي القحطاني، مطبة السفير - الرياض ط الأولى ، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م .

١٥٣- الحوار أصوله المنهجية وآدابه السلوكية، د. أحمد بن عبد الرحمن الصويان، دار الوطن ، ط الأولى ١٤١٣هـ .

١٥٤- الحوار مع أهل الكتاب، د. خالد عبد الله القاسم، دار المسلم - الرياض ط

الأولى ١٤١٤هـ .

١٥٥- خائص التصور الإسلامي ومقوماته، لسيد قطب، دار الشروق ط الثانية عشر ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢م .

١٥٦- الخصائص الكبرى لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق محمد خليل الهراس، دار الكتب الحديثة .

١٥٧- الداعي إلى الإسلامي لكمال الدين عبد الرحمن بن محمد الأنباري، دراسة وتحقيق سيد حسين باعجوان، دار البشائر الإسلامية ، ط الأولى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م .

١٥٨- دائرة المعارف الإسلامية البريطانية، لمجموعة من المستشرقين، نقلها إلى العربية محمد ثابت وزملاؤه .

١٥٩- دائرة المعارف القرن العشرين، محمد فريد وجدة، دار المعرفة - بيروت ، ط الثالثة ، ١٩٧١م .

١٦٠- دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، د. زاهر عواض الألمعي، ط الأولى ١٤٠٥هـ

١٦١- داراسات في الفلسفة الحديثة، د. محمود حمدي زقزوق، دار الفكر العربي - القاهرة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م .

١٦٢- درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم ، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م .

١٦٣- الدرر الكامنة، للحافظ أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، دار الكتب الحديثة مطبعة المدني .

١٦٤- الدعوة إلى الإسلام، لتوماس أرنولد، د . حسن إبراهيم حسن وأخرون ط الثالثة ، مكتبة النهضة الحديثة - القاهرة .

١٦٥- دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام، لمصطفى فوزي غزال، دار طيبة ط الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .

١٦٦- دفاع عن ثقافتنا، لجمال سلطان، دار الوطن ط الأولى ، ١٤١٢هـ .

١٦٧- الدليل المختصر عن جامعات العالم، حسين عبد الجليل علي، دار الاعتصام .

١٦٨- دور الجامعـات الإسلامية في مواجهة التحديات المعاصرة، د. مقداد ياجلن، دار علـم الكتب ط الثانية ١٤١١هـ/ ١٩٩١م .

١٦٩- الدين، د. محمد عبدالله دراز، دار القلم - الكويت ط الثانية ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م .

١٧٠- الديـن والوحـي والإسلام، مصطفى عبد الرازق، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م .

١٧١- الديـن والدولة في إثبات نبوة النبي ﷺ، لعلي بن ربن الطبري، تحقـيق عـادل نويهض منشورات دار الأفاق الجديدة - بيروت ط الثالثة ، ١٩٧٩م .

١٧٢- الديانات والعقائد في مختلف العصور، لأحمد عبد الغفار عطار، مكـة المكرة ط الأولى ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .

١٧٣- الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، رودي بارت ترجمة مصطفى ماهر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٧م .

١٧٤- دراسات في اليهودية بين الملة والنحلة والحركة، د. جبر محمد حسن جبر .

١٧٥- دراسـات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، د. فتح الديني، دار قتيـبة ، ط الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

١٧٦- الديـن والسياسة في الأديان الثلاثة، د. عبد الغفار عزيز، الحقيقة للإعلام الدولي - القاهرة ، ١٤٠٩هـ/ ١٩٩٨م .

١٧٧- رؤيـة إسـلامية للإستشـراق، د. أحمـد عبد الحميد غراب، المنتدى الإسلامي ط الثانية ١٤١١هـ .

١٧٨- الرحـيق المختـوم، لصـفي الـرحمن المـباركفوري، دار الكتب العلمية ط الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

١٧٩- الرد الجميل لألوهية المسيح، لأبي حامد الغزالي، تحقـيق وتقديم عبد العزيز عبد الحق حـلمي الهيئة لشؤون المطابع الأميرية ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م ، الناشر المكتبة العصرية صيدا - بيروت .

١٨٠- الــرد على الدهريين، لجمال الدين الأفغاني، تـرجمة الشيخ محمد عبده ، الناشر مكتبة الخانجي بمصر ، والمثنى ببغداد ، ط الثانية ١٩٥٥م .

١٨١- الــرد عــلى المخــالف مــن أصول الإسلام، دبكر أبو زيد، دار الهجرة للنشر ، ط الثانية ١٤١١هـ .

١٨٢- الــرد على المنطقيين، لشيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، مطـبعة المعارف - لاهور ، ط الثانية ١٩٧٦م .

١٨٣- الــرد عــلى النصــارى، لأبي الــبقاء الجعفري، تحقـيق د . محمد بن محمد حسانين المدارس ، ط الأولى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م .

١٨٤- رســالة التوحــيد، لشــيخ محمد عبده، الناشر السيد محمد رشيد رضا ، دار إحياء الكتب العربية ، لأصحابها عيسى البابي الحلبي وشركاه ط الثانية .

١٨٥- والرســل والرســالات، د. عمر سليمان الأشقر، مكتـبة الفـلاح - دار النفائس ط الخامسة ١٤١٢هـ .

١٨٦- الرســالة السبعينية بإبطال الديانة اليهودية، لإسرائيل سموئل الأورشليمي، تحقـيق عبد الوهاب طويلة ، دار القلم - دمشق .

١٨٧- رســالة في اللاهــوت والسياسة، لسبينوازا، تـرجمة د . حسن حنفي ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١م .

١٨٨- رشــيد ر ضا الإمام المجاهد، د. إبراهيم أحمد العدو، المؤسســة المصرية العامة لتأليف والأنباء والنشر دار المصرية لتاليف والترجمة .

١٨٩- زاد المعــاد، لابــن القــيم الجوزيــة، حققه وخرج أحاديثه شعيب الأرنؤوط عبد القــادر الأرنـؤوط مؤسســة الرســالة ، مكتـبة المـنار الإســلامية ، ط الخامســة عشر ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م .

١٩٠- زاد المســير، لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي البغدادي، المكتب الإسلامي ط الأولى ١٣٨٧هـم١٩٦٧م .

١٩١- الــزحف إلى مكة، حقائق ووثائق د. عبد الودود الشلبي، الزهراء للإعلام العربي -

القاهرة، ط الأولى ١٤٠٩هـ.

١٩٢- سبل السلام شرح بلوغ المرام، لشيخ محمد إسماعيل الصنعاني، دار الريان - القاهرة، دار الكتاب العربي - بيروت ط الرابعة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١٩٣- سلسلة الأحاديث الضعيفة، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف - الرياض، ط الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

١٩٤- سلسلة أعلام التصوف - ابن عربي، لسميح عاطف، الشركة العالمية للكتاب، دار الكتاب اللبناني.

١٩٥- سلسلة التقارير، تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت الرقم المسلسل ٣/ ٨٧ التاريخ ٥/ ٢/ ١٩٨٧م.

١٩٦- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، المكتب ط الرابعة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

١٩٧- سنن ابن ماجه، لأبي عبد الله محمد بن عزيز القزويني، الناشر فيصل عيسى البابي الحلبي مطبعة دار إحياء الكتب العربية، حققه ورقمه محمد فؤاد عبد الباقي.

١٩٨- سنن النسائي، مع شرح جلال الدين السيوطي، دار المعرفة - بيروت ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

١٩٩- سير أعلام النبلاء، للحافظ محمد بن أحمد عثمان الذهبي، تحقيق عدد من الباحثين، خرج أحاديثه شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط الثانية ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٢٠٠- السيرة الحلبية، لعلي بن برهان الدين الحلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط الأولى ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

٢٠١- سيرة ابن كثير، تحقيق مصطفى عبد الواحد، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه - القاهرة ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

٢٠٢- السير النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، دار القلم - دمشق، ط الأولى ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٢٠٣- **السنة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د. مهدي رزق الله أحمد**، ط الأولى، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢م الناشر مركز الملك الفيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

٢٠٤- **السيرة النبوية، لأبي المنذر عبد الملك بن هشام**، مراجعة وتعليق محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة التراث - القاهرة.

٢٠٥- **السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، لشيخ محمد علي الشوكاني**، تحقيق محمود إبراهيم زايد دار الكتب العلمية - بيروت ط الألى ١٤٠٥هـ.

٢٠٦- **الشامل في أصول الدين، لإمام الحرمين الجويني**، تحقيق علي سامي النشار وفيصل بدير عوم وسهير محمد مختار منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٦٩م.

٢٠٧- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي**، دار السيرة - بيروت ط الثانية ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٢٠٨- **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، لأبي القاسم هبة الله بن الحسن اللالكائي**، تحقيق أحمد سعد الغامدي، دار طيبة ط الثالثة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

٢٠٩- **شرح الأصول الخمسة، لعبد الجبار بن أحمد المعتزلي**، تحقيق د. عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة - القاهرة، ط الأولى ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م.

٢١٠- **شرح الدر المختار، شرح تنوير الأبصار لعلاء الدين الحصكفي**، مطبعة صبيح وأولاده بميدان الأزهر.

٢١١- **شرح صحيح مسلم، للنووي**، دار القلم ط الأولى.

٢١٢- **شرح العقيدة الطحاوية، لإبن أبي العز الحنفي**، تحقيق د. عبد الله التركي وشعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ط ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٢١٣- **شرح الكاشاني، على تائية ابن فارض**، ط حجر سنة ١٣١٩هـ.

٢١٤- **شرح الورقات في أصول الفقه، لعبد الله بن صالح الفوزان**، دار المسلم ط الثانية - ١٤١٤هـ.

٢١٥- **شرف أصحاب الحديث، للخطيب البغدادي**، تحقيق عمرو بن عبد المنعم سليم - مكتبة ابن تيمية - ط الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٢١٦- الشـريعة، لأبي بكر محمد الحسين الأجري، تحقيق محمد حامد الفقي ، دار السلام - الرياض ، ط الأولى ، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢م .
٢١٧- شـريعة الإسلام في الجهاد والعلاقات الدولية، لأبي الأعلى المودودي، دار الصحوة ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م .
٢١٨- شفاء الغليل، لإمام الحرمين الجويني، تحقيق د . أحمد حجاري السقا ، المكتبة الأزهرية للتراث ، ط الثالثة ، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م .
٢١٩- الشـيخ رشـيد رضا السلفي، لمحمد عبد الله السلمان، إدارة الثقافة والنشر جامعة الإمام ، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م .
٢٢٠- الصابئون، د. رشدي عليان، مطبعة دار السلام - بغداد ١٩٧٦م .
٢٢١- الصابئون، لعبد الرزاق الحسيني، الفرقان - صيدا ط الرابعة ١٩٧٠م .
٢٢٢- الصـارم المسـلول، لابن تيمية، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلمية - بيروت ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م .
٢٢٣- الصـحاح في اللغة والعلوم، نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي، دار الحضارة العربية - بيروت ط الأولى ١٩٨٥م .
٢٢٤- صحيح سنن ابن ماجة، للشيخ ناصر الدين الألباني، المكتب الإسـلامي - بيروت ط الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م .
٢٢٥- الصوفية معتقدا ومنشأ، د. صابر طعيمة، دار عالم الكتب للنشر - الرياض .
٢٢٦- الصـوفية نشـأتها وتطورها، لمحمد عيده وطارق عبد الحليم، دار الأرقم - بريهام - بريطانيا ط الثالثة ١٤١٣هـ .
٢٢٧- ضعيف الجامع الصغير للشيخ، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت ط الثانية ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .
٢٢٨- ضـوابط للدراسـات الفقهـية، لسـليمان بـن فهد العودة، دار الوطن للنشر ط الأولى ١٤١٢هـ .
٢٢٩- الظاهـرة الاستشـراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، لسياسي سالم الحاج، مركز

الدراسات العالم الإسلامي ط الأولى ١٩٩١م .

٢٣٠- **العبودية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق علي بن حسن بن عبد الحميد** ، دار الأصالة للنشر - الزرقاء - الأردن ط الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م .

٢٣١- **العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب، لمحمد حامد الناصر**، مكتبة الكوثر ط الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م .

٢٣٢- **العصريون معتزلة اليوم، ليوسف كمال**، دار الوفاء للنشر - المنصورة ، بمصر .

٢٣٣- **العقل والحرية، د. عبد الستار الراوي**، المؤسسة العربية ، للدراسات والنشر - بيروت ط الأولى ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م .

٢٣٤- **عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية، لأحمد سعد الغامدي**، دار طيبة - الرياض ط الأولى ١٤٠٥/ ١٩٨٥م .

٢٣٥- **العقيدة في الله، د. عمر بن سليمان الأشقر**، مكتبة الفلاح - الكويت ط الرابعة ١٩٨٣م .

٢٣٦- **العقيدة والشريعة لأجناس، جولد زيهر**، ترجمة د. محمد يوسف موسى ، وعلي حسن عبد القادر ، وعبد العزيز عبد الحق ، الناشر دار الكتب الحديثة بمصر ، ومكتبة المثنى - بغداد ط الثانية ، مطابع دار الكتاب العربي بمصر

٢٣٧- **العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وغير المسلمين، بدراسة أبو العينين**، دار النهضة العربية - بيروت ١٩٨٠م .

٢٣٨- **علم الاجتماع الديني، د. مصطفى شاهين**، دار إحياء التراث والطباعة مصطفى خطاب وشركاءه ط الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١م .

٢٣٩- **علم الأديان وبنبة الفكر الإسلامي، للمستشرق جيب**، د . عادل عوّا ، منشورات عويدات ١٩٧٧م .

٢٤٠- **علماء النجد خلال ستة قرون، لشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام**، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة ، مكة المكرمة ١٣٩٨هـ .

٢٤١- **العلمانية، د. سفر الحوالى**، دار الهجرة .

٢٤٢- علمانية الهند، للشريف المجاهد ترجمة إحسان حقي، مؤسسة الرسالة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٢٤٣- علم التوحيد، د. عبد العزيز بن الربيعة، الرياض ط الأولى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٢٤٤- العلم والبحث العلمي، لحسين عبد الحميد رشوان، المكتب الجامعي - الاسكندرية.

٢٤٥- العهد القديم والعهد الجديد، دار الكتاب، المقدس في الشرق الأوسط.

٢٤٦- عون المعبود شرح سنن أبي داود، لأبي الطيب محمد شمس العقل العظيم الأبادي، دار الكتب العلمية - بيروت ط الأولى ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٢٤٧- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، لأحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة، دار الثقافة ط الثانية ١٩٨١م.

٢٤٨- عيون المناظرات، لأبي علي عمر السكوني، تحقيق سعد الغراب، منشورات الجامعة التونسية - تونس ١٩٧٩م.

٢٤٩- الغارة على العالم الإسلامي، ا. ل. شاتليه تعريب محب الخطيب، مساعد اليافي، المطبعة السلفية ط الرابعة ١٣٩٨هـ.

٢٥٠- غاية المرام في علم الكلام، لسيف الدين الآمدي، تحقيق د. حسن محمود عبد اللطيف الشافعي ط مجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

٢٥١- الغزو الثقافي في للأمة الإسلامية ماضيه وحاضره، لمنصور بن عبد العزيز الخريجي، دار العصيمي للنشر - الرياض ط الأولى ١٤١٣هـ.

٢٥٢- الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، د. علي عبد الحليم محمود، شركة عكاظ للنشر ط الثانية ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٢٥٣- الغزو الفكري، د. أحمد عبد الرحيم السائح، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر

٢٥٤- الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، (بحوث مؤتمر الفقه الذي عقد في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سنة ١٣٩٦هـ)، إدارة الثقافة والنشر، جامعة

الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٤ه/ ١٩٨٤م .
٢٥٥- غزو من الداخل، لجمال سلطان، دار الوطن للنشر ط الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م .
٢٥٦- الفارق بين الخالق والمخلوق، لعبد الرحمن بن سليم بن باجة جي، تصحيح عبد المنعم فرج درويش ، دار البيان التاجرية - دبي ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م .
٢٥٧- فتاوى ابن الصلاح في التفسير والحديث، تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي، الناشر دار الوعي - حلب ، مطبعة الحضارة العربية - القاهرة ط الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .
٢٥٨- الفتاوى السعدية، للشيخ عبد الرحمن ناصر السعدي، مكتبة المعارف - الرياض ط الثانية ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢٢م .
٢٥٩- الفتاوى الكبرى، لابن تيمية، دار القلم - بيروت ط الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م .
٢٦٠- فتاوى اللجنة الدائمة، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ط الأولى ١٤١١هـ .
٢٦١- فتح الباري شرح صحيح البخاري، للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الريان للتراث ط الثانية ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م .
٢٦٢- فتح القدير، للشيخ محمد علي الشوكاني، دار الفكر - بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .
٢٦٣- فجر الإسلام، لأحمد أمين، الناشر دار الكتاب العربي - بيروت ط الحادية عشر ١٩٧٩م .
٢٦٤- فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية، لمحمد صالح الزركان، دار الفكر
٢٦٥- الفرق الكلامية الإسلامية، د. علي عبد الفتاح المغربي، مكتبة وهبة - القاهرة ط الثانية ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م .
٢٦٦- الفصل في الملل والأهواء والنحل، لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم، تحقيق د . محمد إبراهيم نصر ود . عبد الرحمن عميرة ، دار الجيل - بيروت .
٢٦٧- فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، لأبي الوليد بن رشد، دار الآفاق - بيروت ط الأولى ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م .

٢٦٨- فصوص الحكم، بشرح بالي، ط ١٣٠٩هـ.

٢٦٩- فقه التعامل مع المخالف، د. عبد الله بن إبراهيم الطريقي، دار الوطن للنشر ط الأولى ١٤١٥هـ.

٢٧٠- الفقيه والمتفقه، للخطيب البغدادي، تصحيح إسماعيل الأنصاري، دار إحياء السنة النبوية - القاهرة، دار الكتب العلمية - بيروت ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

٢٧١- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار، الغربي د. محمد البهي، مكتبة وهبة ط التاسعة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٢٧٢- الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، د. عبد المجيد الشرفي، الناشر الدار التونسية - تونس ١٩٨٦م.

٢٧٣- الفكر الإسلامي المعاصر، لغز توبة، ط الأولى ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

٢٧٤- فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، د. أحمد سمايلوفتش، دار النهضة العربية ط الثانية ١٩٨٢م.

٢٧٥- الفلفسة الإسلامية في العصر الحديث، د. حامد طاهر، مكتبة دار النصر - القاهرة

٢٧٦- الفلسفة الإسلامية مداخل وقضايا، د. حامد طاهر، دار الثقافة العربية ١٩٩٢م.

٢٧٧- في الغزو الفكري، لنذير حمدان، مكتبة الصديق - الطائف.

٢٧٨- الفوائد لابن القيم الجوزية، تحقيق محمد عثمان الخشب، دار الكتاب العربي - بيروت ط الرابعة ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٢٧٩- الفهرست، لابن النديم، تعليق إبراهيم رمضان، دار المعرفة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

٢٨٠- في ظلال القرآن، لسيد قطب، دار الشروق ط الثالثة عشر ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٢٨١- في علم الكلام ودراسة فلسفته، أحمد محمود صبحي، طبع ونشر دار الكتب الجامعية ١٩٦٩م.

٢٨٢- في الفلسفة الإسلامية: منهج وتطبيق، د. إبراهيم مدكور، دار المعارف - القاهرة.

٢٨٣- القائد إلى تصحيح العقائد، لشيخ عبد الرحمن المعلمي اليماني، المكتب الإسلامي ط

الثالثة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٢٨٤- قالوا عن الإسلام، د. عماد الدين خليل، الندوة العالمية للشباب الإسلامي - الرياض ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٢٨٥- القاموس المحيط، بحر الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، دار الريان للتراث ط الثانية ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٢٨٦- قاموس المصطلحات السياسة والاقتصادية والاجتماعية، لسامي دبيان وآخرين، الريس للكتب والنشر - لندن، الرياض - ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٢٨٧- قانون التأويل، لأبي حامد الغزالي، مطبوع في ذيل معارج القدس، مكتبة الجندي - بمصر.

٢٨٨- قبل أن يهدم الأقصى، لعبد العزيز مصطفى، دار الوطن - الرياض ط الثانية ١٤١٠هـ.

٢٨٩- القرطبي مفسرا، د. علي بن سليمان العبيد، رسالة ماجستير في قسم القرآن لكلية أصول الدين مكتوبة بالآلة الكاتبة.

٢٩٠- القواعد الكلية للأسماء والصفات، د. إبراهيم بن محمد البركان، دار الهجرة للنشر ط الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٢٩١- قواعد المنهج السلفي، د. مصطفى حلمي، دار الدعوة الإسكندرية ط الثالثة ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م - قواعد ومنطلقات في أصول الحوار د. عبد الله ضيف الله الرحيلي، دار المسلم ط الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٢٩٢- الكافية في الجدل، لإمام الحرمين الجويني، تحقيق د. فوقية حسين محمود، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي - القاهرة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٢٩٣- الكامل في التاريخ، لابن الأثير، دار الكتاب العربي - بيروت ط الثانية ١٣٨٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

٢٩٤- الكشاف، لأبي القاسم محمود عمر الزمخشري، دار المعرفة - بيروت، مكتبة المعارف - الرياض

٢٩٥- **كشـف الأسـرار عـن أصول فخر الإسلام البارودي، لعلاء الدين عبد العزيز أحمد البخاري**، دار التكتاب العربي - بيروت

٢٩٦- **كشـف الظـنون عـن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة**، طبعة وكالة المعارف الحلبية ١٣٦٠هـ.

٢٩٧- **الكفاية في علم الرواية، لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي**، منشورات المكتبة العلمية - المدينة المنورة لصاحبها محمد بن سلطان.

٢٩٨- **الكليات، لأبي البقاء الحسني الكفوي**، مطبعة العامرة - القاهرة ١٢٨٧هـ

٢٩٩- **كيف نتعامل مع القرآن، مدارسة بين الشيخ محمد الغزالي والأستاذ عمر عبيدة حسنة**، المعهـد العـالمي للفكـر الإسلامي - هرند - الولايات المتحدة الأمريكية ط الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٣٠٠- **الله، لعباس محمود العقاد**، دار المعارف بمصر ط السابعة

٣٠١- **لا لجـارودي ووثـيقة أشـبيلية، د. سـعد عبد المقصود ظلام**، دار المـنار ط الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م

٣٠٢- **لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور**، دار صادر - بيروت ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٣٠٣- **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، لأبي الحسن علي الندوي**، مكتـبة السـنة - القاهرة ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٣٠٤- **الماركسية بين النظر والتطبيق، د. عبد المنعم النمر**، دار الأندلس للإعلام

٣٠٥- **مـا يقـال عـن الإسـلام، لعـباس محمود العقاد**، منشـورات المكتـبة العصرية - صيدا+ بيروت.

٣٠٦- **مباحـث في علوم القرآن، للشيخ مناع القطان**، مؤسسـة الرسالة ط الثانية الثلاثون ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٣٠٧- **مباحـث في منهجية الفكر الإسلامي، د. عبد المجيد النجار**، دار الغرب الإسلامي ط الأولى ١٩٩٢م.

٣٠٨- مجموعة التوحيد، الرسالة الثالثة، دار الفكر .

٣٠٩- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، مكتبة القدس - القاهرة ١٣٥٢هـ .

٣١٠- مجموعة العروة الوثقى، لجمال الدين الأفغاني، دار الكاتب العربي - بيروت ط الأولى ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م .

٣١١- المجموعة الكاملة للمؤلفات، د. عبد الحليم محمود، دار الكتاب اللبناني - بيرروت ط الأولى ١٩٧٤م .

٣١٢- المجموع شرح المهذب، للإمام محيي الدين بن شرف النووي، الناشر زكريا علي يوسف ، مطبعة العاصمة - القاهرة .

٣١٣- مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحيليم ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، دار عالم الكتب - الرياض ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م .

٣١٤- المحصول في علم أصول الفقه، لفخر الدين الرازي، تحقيق د . طه جابر العلواني جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .

٣١٥- محاضرات في تاريخ المذاهب والأديان، لعبد العزبز الثعالبي، دار العربي الإسلامي ط الأولى ١٩٨٥م .

٣١٦- محاضرات في النصرانية، للشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي .

٣١٧- ١٤١٥هـ، جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي ط الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م .

٣١٨- محمد عمارة في ميزان أهل السنة والجماعة، لسليمان بن صالح الخراشي، دار الجواب ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م .

٣١٩- محمد، في مكة موتنجراى وات، ترجمة شعبان بركات منشورات مكتبة العصرية - صيدا - بيروت .

٣٢٠- المحيط بالتكليف، للقاضي عبد الجبار بن أحمد، جمع الحسن بن محمد بن أحمد بن متويه تحقيق عمر السيد عزمي مراجعة أحمد فؤاد الأهواني ، الدار المصرية

للتأليف والترجمة - القاهرة ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م .

٣٢١- **المختار في الرد على النصارى، للجاحظ تحقيق محمد عبد الله الشرقاوي**، دار الجيل - بيروت ط الأولى ١٤١١هـ / ١٩٩١م .

٣٢٢- **مدارج السالكين لابن القيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقي**، دار الكتاب العربي - بيروت ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م .

٣٢٣- **مدخل إلى الدراسات الإسلامية، د. محمد بلتاجي**، الناشر مكتبة الشباب ١٩٨٢م

٣٢٤- **المدخل إلى دراسات علم الكلام، د. حسن محمود الشافعي**، مكتبة وهبة - القاهرة

٣٢٥- **المدخل لدراسات الأديان، د. محمد سيد أحمد المسير**، دار الطباعة المحمدية - القاهرة ط الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م .

٣٢٦- **مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، لعثمان جمعة الضميرية**، مكتبة السوادي - جدة ط الأولى ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .

٣٢٧- **مراتب الإجماع، لابن حزم**، دار الكتب العلمية - بيروت .

٣٢٨- **المستدرك علي الصحيحين، للحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري**، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب ، محمد أمين دمج - بيروت .

٣٢٩- **المستشرقون، لنجيب العقيقي**، دار المعارف ط الرابعة .

٣٣٠- **مسلمو أهل الكتاب وأثرهم في الدفاع عن القضايا القرآنية، د. محمد عبد الله السحيم**، دار الفرقان ط الأولى ١٤١٧هـ .

٣٣١- **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مؤسسة التاريخ العربي ودار التراث العربي، بيروت ط الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م .

٣٣٢- **المسيح أمام المسلمين، ميشال الحايك**، دار الشراع - بيروت

٣٣٣- **مشكاة المصابيح، لمحمد عبد الله الخطيب التبريزي**، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي - بيروت ط الثانية ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .

٣٣٤- **المشكلة الأخلاقية والفلاسفة، كرسون**، ترجمة عبد الحليم محمود ط الثانية - القاهرة

٣٣٥- مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، د. عبد الرحمن بن زيد الزبيدي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ط الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٣٣٦- المصباح المنير، لأحمد محمد الفيومي، دار القلم - بيروت.

٣٣٧- المصطلحات الأربعة في القرآن، لأبي الأعلى المودودي، دار التراث العربي للطباعة والنشر - القاهرة ط الثانية ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٣٣٨- معارج الوصول، لشيخ الإسلام ابن تيمة، المطبعة السلفية ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م.

٣٣٩- المعارف، لأبي محمد عبد الله بن مسلم، تحقيق د. ثروت عكاشة، دار المعارف - القاهرة ط الثانية ١٩٦٩م.

٣٤٠- معالم في مسيرة الجامعات الإسلامية، د. عز الدين إبراهيم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية إدارة الثقافة والنشر ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٣٤١- معالم قرآنية في الصراع مع اليهود، د. مصطفى مسلم، دار المسلم ط الأولى ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٤م.

٣٤٢- معالم الهجرتين إلى أرض الحبشة، د. علي الشيخ أحمد أبوبكر، مكتبة النوبة - الرياض ط الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

٣٤٣- المعتزلة بين القديم والحديث، لمحمد العبده وطارق عبد الحليم، دار ابن حزم ط الأولى ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.

٣٤٤- المعتزلة، لزهدي جاد الله، مطبعة مصر - القاهرة ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م.

٣٤٥- المعتزلة وأصولهم الخمسة، لعواد بن عبد الله المعتق، مكتبة الرشد - الرياض ط الثانية ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

٣٤٦- معجم الأدباء، لياقوت الحموي، مطبوعات دار المأمون

٣٤٧- المعجم الفلسفي، د. جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني - بيروت ط الأولى ١٩٩٣م.

٣٤٨- المعجم الكبير، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق حمدي عبد الله السلفي، الدار العربية للطباعة، مطبعة الوطن العربي - بغداد ط الأولى ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٣٤٩- **معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة**، مكتبة المثنى - لبنان - ودار إحياء التراث العربي

٣٥٠- **المعجم المفهرس، لألفاظ القرآن لمحمد فؤاد عبد الباقي**، دار الحديث - القاهرة ط الثانية ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

٣٥١- **معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسن أحمد بن فارس**، دار الفكر ١٣٩٩هـ .

٣٥٢- **المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية**، القاهرة ، قام بإخراجه إبراهيم مصطفى وزملاؤه بإشراف عبد السلام هارون ، دار إحياء التراث العربي - بيروت

٣٥٣- **مع قصص السابقين في القرآن الكريم، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي**، دار القلم - دمشق ط الأولى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م .

٣٥٤- **المغني في أبواب التوحيد والعدل، للقاضي عبد الجبار المعتزلي**، تحقيق محمود محمد الخضري .

٣٥٥- **المغني لابن قدامة، هجر للطباعة**، ط الأولى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م .

٣٥٦- **مفاهيم معاصرة في ضوء الإسلام، د. محمد هلال**، دار البشير ط الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م .

٣٥٧- **المفردات في غريب ألفاظ القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني**، دار المعرفة - بيروت

٣٥٨- **المفصل في تاريخ قبل الإسلام، د. جواد علي**، دار العلم للملايين - بيروت ، ومكتبة النهضة - بغداد ط الأولى ١٩٧٠م .

٣٥٩- **مقارنة الأديان السيهودية - المسيحية - والإسلام، د. أحمد سعد الدين البساطي**، مطبوعات المعهد الدراسات الإسلامية ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م .

٣٦٠- **مقارنة الأديان - الإسلام -، د. أحمد شلبي**، مكتبة النهضة المصرية ، ط الثانية عشر ١٩٩٧م .

٣٦١- **مقارنة الأديان - المسيحية -، د. أحمد شلبي**، مكتبة النهضة المصرية ط العاشرة ١٩٩٣م .

٣٦٢- **مقارنة الأديان - اليهودية -، د. أحمد شلبي**، مكتبة النهضة المصرية ط

الثانية عشر ١٩٩٧م.

٣٦٣- مقالات الإسلاميين، للأشعري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٩م.

٣٦٤- مقالات في المذاهب والفرق، د. عبد العزيز العبد اللطيف، دار الوطن للنشر ط الأولى ١٤١٣هـ.

٣٦٥- مقال في الإنسان والتوحيد، د. السيد أحمد فرج، دار الوفاء للطباعة والنشر ط الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٣٦٦- مقدمات العلوم والمناهج، لأنور الجندي، دار الأنصار - القاهرة.

٣٦٧- مقدمات في الأهواء والإفتراق، د. ناصر عبد الكريم العقل، دار الوطن ط الأولى ١٤١٤هـ.

٣٦٨- مقدمة بن خلدون، لعبد الرحمن بن خلدون، تحقيق حجر عاصي، دار مكتبة الهلال - بيروت ١٩٩١م.

٣٦٩- مقدمة في علم مقارنة الأديان، د. السيد محمد عقيل المهدي، دار الحديث - القاهرة ط الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٣٧٠- مقدمة في الفلسفة الإسلامية، لعمر الشيباني، دار العربية للكتاب - ليبيا - تونس ١٩٧٥م.

٣٧١- مقومات التصور الإسلامي، لسيد قطب، دار الشروق ط الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٣٧٢- الملل والنحل، لأبي الفتح محمد عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق عبد العزبز محمد الوكيل، دار الفكر - بيروت.

٣٧٣- مناظرات أئمة السلف، لشيخ سليم عيد الهلالي، دار ابن الجوزي ط الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٣٧٤- مناظرة بين الإسلام والنصرانية، إعداد جمال عبد الهادي، طبعة الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والدعوة.

٣٧٥- مناظرات في الرد على النصارى، للرازي، تحقيق عبد المجيد النجار ، دار الغرب الإسلامي - بيروت ١٩٨٦م .

٣٧٦- مناهج الاستدلال وصوره لدى المتكلمين والفلاسفة، د. مختار عطا الله، رسالة دكتوراه بدار العلوم ، جامعة القاهرة مكتوب بالآلة الكاتبة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م .

٣٧٧- مناهج الجدل في القرآن الكريم، د. زاهر عواض الألمعي .

٣٧٨- مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، مطبعة مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

٣٧٩- منهج البحث في لعلوم الإسلامية، د. محمد الدسوقي، دار الأوزاعي .

٣٨٠- المنخول من تعليقات الأول، لأبي حامد الغزالي، تحقيق محمد حسن هيتو .

٣٨١- مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي .

٣٨٢- المنجد في اللغة والأعلام، دار الشروق، ط الثامنة والعشرون ١٩٨٦م .

٣٨٣- منحة القريب في الرد على عباد الصليب، لابن معمر، طبعة دار الثقيف للنشر والتأليف - الطائف ط الثالثة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م .

٣٨٤- منهاج السنة النبوية، لابن تيمية تحقيق د. محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ط الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م

٣٨٥- منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة، د. عثمان علي حسن، مكتبة الرشد - الرياض - ط الثالثة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م .

٣٨٦- منهج الإمام القرطبي في أصول الدين، لأحمد المزيد، رسالة ماجستير في قسم العقيدة بكلية أصول الدين جامعة الإمام ، مكتوبة بالآلة الكاتبة .

٣٨٧- منهج أهل السنة والجماعة في الرد على النصارى، د. عبد الرحمن بن محمد عبد المحسن، مكتبة التربية الإسلامية لإحياء التراث الإسلامي ط الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م .

٣٨٨- منهج البحث العلمي عند العرب، د. جلال محمد موسى، دار الكتاب اللبناني ط الأولى ١٩٧٢هـ .

٣٨٩- منهج ابن تيمية في الدعوة، د. عبد الرشيد الحوشان، مركز الدراسات والإعلام ، دار أشبيليا ط الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م .

٣٩٠- المنهج الحركي في السيرة النبوية، لمنيرمحمد غضبان، مكتبة المنار - الأردن ط السابعة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م .

٣٩١- منهج الرسول في دعوة أهل الكتاب، د. محمد سيدي حبيب الشنقيطي، مكتبة عمر أمين أحمد سالم - المدينة المنورة ط الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م ز

٣٩٢- منهج السلف بين العقل والتقليد، د. محمد السيد الحليند، مطبعة العمرانية للأوفست ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م .

٣٩٣- منهج الشهرستاني في كتابه: "الملل والنحلل"، لمحمد ناصر السحيباني، دار الوطن ط الأولى ١٤١٧هـ .

٣٩٤- المنهج في كتابات الغربيين عبر التاريخ الإسلامي، د. عبد العظيم محمود الديب، سلسلة كتاب الأمة ، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر ط الأولى١٤١١هـ .

٣٩٥- منهج كتابة التاريخ الإسلامي، لمحمد صالح العلياني السلمي، دار طيبة للنشر والتوزيع - الرياض - ط الأولى ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م .

٣٩٦- منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، د. فهد الرومي، مؤسسة الرسالة ط الأولى ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .

٣٩٧- منهج المسعودي في كتابة التاريخ، د. سليمان بن عبد الله السويكت، ط الأولى١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٦م .

٣٩٨- منهج نقد النص بين ابن حزم الأندلسي واسبينوزا، د. محمد عبد الله الشرقاوي، مكتبة الزهراء - القاهرة .

٣٩٩- موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، للحافظ الهيثمي، تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة ، المكتبة السلفية - القاهرة .

٤٠٠- الموافقات في أصول الشريعة، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، مكتبة التجارية

الكبرى - القاهرة .

٤٠١- المواقف في علم الكلام، لعبد الرحمن بن أحمد الإيجي، مطبعة العلوم - القاهرة ١٣٥٧هـ .

٤٠٢- مواهب الجليل شرح مختصر خليل، لأبي عبد الله محمد بن محمد المعروف بالخطاب، مكتبة النجاح - طرابلس - ليبيا .

٤٠٣- الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة، د. ناصر عبد الله الغفاري ود. ناصر عبد الكريم العقل، دار العصيمي للنشر والتوزيع ط الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م .

٤٠٤- الموجز في تاريخ الصابئة المندائيين، لعبد الفتاح الزهيري وفريد عبد الزهرة .

٤٠٥- الموسوعة الأثرية العالمية، تأليف مجموعة أشراف ليونارد كوثريل، ترجمة محمد عبد القادر محمد اسكندر زكي - القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب بـ ١٣٩٧هـ\١٩٧٧م .

٤٠٦- موسوعة الاصطلاحات العلوم الإسلامية (كشاف اصطلاح الفنون)، للمولوي محمد أعلى التهانوي، من منشورات شركة الخياط - بيروت .

٤٠٧- موسوعة الحضارة الإسلامية - المناهج الإسلامية، د. أحمد شلبي، مكتبة المصرية - القاهرة ط التاسعة ١٩٩٣م .

٤٠٨- موسوعة عباس محمود العقاد الإسلامية، دار الكتاب العربي، بيروت ط الأولى ١٩٧٠م .

٤٠٩- الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض ط الاولى ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .

٤١٠- موسوعة المستشرقين، د. عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين - بيروت ١٩٨٤م .

٤١١- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ط الثانية ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م .

٤١٢- الموطأ، للإمام مالك بن أنس تصحيح وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م .

٤١٣- موقف ابن تيمية من الأشاعرة، د. عبد الرحمن بن صالح المحمود، مكتبة الرشد - الرياض ط الثانية ١٤١٦هـ/ ١٩٩٤م .

٤١٤- موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة، د. سليمان عبد العزيز الغصن، دار العاصمة ط الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م .

٤١٥- موقف المعتزلة من السنة النبوية، لأبي لبابة حسين، دار اللواء للنشر - الرياض ط الأولى ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .

٤١٦- الميزان في مقارنة الأديان، حقائق ووثائق، لمحمد عزة الطهطاوي ، دار القلم - دمشق ، الدار الشامية ط الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م .

٤١٧- الناسخ والمنسوخ، لأبي جعفر النحاس، مطبعة السعادة ط الأولى ١٣٢٣هـ .

٤١٨- النجوم الزاهرة، لجمال الدين أبي الحسن يوسف بن تغري بردي، طبعة مصورة دار الكتب المصرية ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية العامة .

٤١٩- النسخ في القرءان الكريم، د. مصطفى زيد، دار الفكر - بيروت .

٤٢٠- نشأة التدين، د. علي سامي النشار، مكتبة الخانجي - بمصر .

٤٢١- نشاة الفكر الفلسفي في الإسلام، د. سامي علي النشار دار المعارف، ط الثالثة ، ١٩٦٥م .

٤٢٢- النظام السياسي في إسرائيل، فوزي محمد طابل معهد البحوث والدراسات العربية سلسلة الدراسات الخاصة، ١٩٨٩م .

٤٢٣- النظام العالمي الجديد في القرن ٢١ ، لفريدا عزيز، دار الرشيد دمشق - بيروت ط الأولى ، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م .

٤٢٤- نظريات التنمية السياسية المعاصرة، د. نصر محمد عارف، دار القارئ العربي - القاهرة .

٤٢٥- نظرية المنطق، د. محمد السيد الجليند، مطبعة التقدم - القاهرة ط الثانية ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م .

٤٢٦- النهاية في غريب الحديث والأثر، لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري بن الأثير، الناشر أنصار السنة المحمدية - لاهور .

٤٢٧- **نواقـض الإيمان القولية والعملية، د. عبد العزيز العبد اللطيف**، دار الوطـن ط الأولى ١٤١٤هـ.

٤٢٨- **هدايـة الحيارى، لابن القيم الجوزية**، تحقـيق أحمـد حجازي السقا، المكتبة القيمة ط الرابعة ١٤٠٧هـ.

٤٢٩- **هداية العارفين، لإسماعيل باشا البغدادي**، مكتبة الإسلامية - طهران، ومطبعة مكتبة المثنى - بغداد.

٤٣٠- **الـوافي بالوفـيات، لصـلاح الديـن خليل بن أيبك الصفدي**، تحقـيق مجموعـة من المستشرقين، دار النشر فرانز شتايز بفيسبادن ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.

٤٣١- الـوافي في شرح الأربعين النووية، د. مصطفى البغا، محيي الدين مستو، دار ابن كثير ط السابعة ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

٤٣٢- **وثـائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي، د. محمد ماهر حمادة**، مؤسسة الرسالة ط الثانية ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٤٣٣- **وفـيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس أحمد بن خلكان**، تحقـيق د. إحسـان عباس دار الثقافة - بيروت.

٤٣٤- الـولاء والـبراء في الإسـلام، لمحمـد بـن سـعيد القحطـاني، دار طيـبة ط الثالـثة ١٤٠٩هـ.

٤٣٥- **يـا أهـل الكـتاب تعـالوا د. رؤوف شلبي**، دار الثابـت للنشر - القاهرة ١٤١٠ هـ/ ١٩٨٩م.

٤٣٦- **الـيوم الآخر بين اليهودية والمسيحية والإسلام، د. فرج الله عبد الباري أبو عطاء الله**، دار الوفاء للطباعة والنشر ط الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٤٣٧- **الـيهودية والمسيحية، د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي**، مكتبة الدار بالمدينة المنورة ط الأولى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

* * * * *

الدوريات والنشرات

١- مجلة أصول الدين، بالرياض، العدد الخامس، العام الجامعي ١٤٠٣هـ/ ١٤٠٤هـ.
٢- مجلة الأمة القطرية الأعداد: جمادى الأولى ١٤٠٣هـ، والجمادى الآخرة ١٤٠٤ هـ، والشوال ١٤٠٦هـ.
٣- مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٢٣، تصدر من الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - الرياض.
٤- مجلة البعث الإسلامي، العدد ١، مجلد ٣٤ رمضان ١٤٠٩هـ.
٥- مجلة البلاغ - الكويت العدد ٩٨، ١٢ رجب ١٤٠٩هـ.
٦- مجلة البيان تصدر من المنتدى الإسلامي - لندن، العدد ٥٥ ربيع الأول ١٤١٣ هـ، والعدد ٩٥ رجب ١٤١٦هـ.
٧- مجلد جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية العدد السادس المحرم ١٤١٣هـ، يونيو ١٩٩٢م.
٨- دليل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لعام ١٤١٥هـ، إدارة الدراسات العليا والمعلومات.
٩- دليل جامعة أم القرى عام ١٩٩٦م وكالة الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي.
١٠- دليل رابطة الجامعات الإسلامية، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ط الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
١١- جريدة الشعب المصرية بتايخ ٢٥ أغسطس ١٩٩٧م.
١٢- مجلة الفيصل العدد ١٦٦ ربيع الآخر ١٤١١هـ/ نوفمبر ١٩٩٠م.
١٣- مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة مايو ١٩٥٩ - ١٩٦٣م.
١٤- حولية كلية أصول الدين بالقاهرة العدد الرابع ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١٥- جـريد المسـلمون الدولـية عـدد ٦٥٢ بتاريخ ٢٨ ربيع الأول ١٤١٨هـ أغسطس ١٩٩٧م .

١٦- المسلمون (سويسرا) العدد الخامس شعبان ١٣٨١هـ ، كانون الثاني ١٩٦٢م .

١٧- مجلة المنار ، مجلد ١٧ مطبعة بمصر ، ط الأولى .

١٨- منهج مقـرر" مـادة الملـل والـنحل في قسـم العقيدة والمذاهب كلية أصول الدين بالرياض .

١٩- نشرة العام الدراسي ١٤٠٢ - ١٤٠٣هـ . إذا التخطيط والميزانية والمتابعة .

٢٠- اليوميات بالأهرام في ٢٧/ ٢/ ١٩٨٧م .

* * * * *

فهرس الموضوعات

الموضـــوع **الصفحة**

المقدمـــة ٣

المبحث الأول مصطلحات علم الملل ١٠

المطلب الأول: تعريف الملة: ١٠

المطلب الثاني: تعريف الدين لغة: ١٣

المطلب الثالث: النحلـــة: ١٩

المطلب الرابع: المذهب: ٢٠

المبحث الثاني صلة علم الملل بعلم التوحيد ٢١

المطلب الأول: تعريف علم التوحيد في اللغة: ٢١

المطلب الثاني: غاية علم التوحيد: ٢٣

المبحث الثالث صلة علم الملل بالفلسفة ٢٤

المطلب الأول: تعريف الفلسفة: ٢٥

المطلب الثاني: موقف العلماء المسلمين من الفلسفة: ٢٦

الباب الأول مشروعية دراسة علم الملل وأهدافها الشرعية.......................... ٣٤

تمهيد: ٣٥

الفصل الأول دلالة القرآن على مشروعية علم الملل ٣٩

المبحث الأول: الأديان في عهد النبي ﷺ ٣٩

المطلب الأول: اليهودية ٤١

المطلب الثاني: تعريف النصرانية: ٤٥

تطلق النصرانية على الديانة التي أنزلت على عيسى عليه السلام، مكملة لرسالة موسى عليه السلام، متممة لما جاء في التوراة من تعاليم موجهة إلى بني إسرائيل.................... ٤٥

المطلب الثالث: الصابئة: ٥١

المطلب الرابع: المجوسية ٦٢

المطلب الخامس: المشركون ٦٤

المبحث الثاني منطلقات قرآنية في دراسة الملل.......................... ٧٠

المطلب الأول: دين الله واحد ٧٠

المطلب الثاني: الإسلام هو الدين الخاتم ٧٣

المطلب الثالث: الاختلاف والتعدد من سنن الله في الخلق ٨١

المطلب الرابع: لا إكراه في الدين.......................... ٨٤

المبحث الثاني دلالة منهج القرآن في جدال الخصوم على مشروعية علم الملل.......... ٨٩

الفصل الثاني دلالة السنة على مشروعية علم الملل.......................... ٩٩

تمهيد: ٩٩

المبحث الأول منطلقات دعوة النبي ﷺ ودلالتها على مشروعية علم الملل.......... ١٠١

المطلب الأول: دين الأنبياء واحد ١٠١

المطلب الثاني: خاتمية رسالته للرسائل السماوية.......................... ١٠٣

المطلب الثالث: عالمية دعوته ﷺ (أي عمومها) ١٠٥

المبحث الثاني اشتمال السنة على مباحث علم الملل.......................... ١٠٨

المطلب الأول: عرض السنة لتاريخ الأمم والأديان ١٠٨

المطلب الثاني: اشتمال السنة على المقارنة بين الأديان ١١٧

المطلب الثالث: اشتمال السنة على جدال الكفار ومناظرتهم.......................... ١٢٢

الفصل الثالث الأدلة من مواقف الصحابة والسلف على مشروعية ١٢٩

المبحث الأول: حجية مواقف السلف ١٢٩

المطلب الأول: حجية مواقف الصحابة.......................... ١٢٩

المطلب الثاني: حجية مواقف التابعين ومن بعدهم ١٣٣

المبحث الثاني مواقف السلف من أهل الملل ودلالتها على مشروعية علم الملل........ ١٣٤

المطلب الأول: الأسس في علاقة السلف بأهل الملل ١٣٤

المطلب الثاني: نماذج من مواقف السلف من أهل الملل ١٣٦

الفصل الرابع الأهداف الشرعية لدراسة الملل ١٥٦

المبحث الأول دعوة غير المسلمين إلى الإسلام ١٥٧

المبحث الثاني الرد على شبهات أهل الملل........................ ١٦١

المبحث الثالث استبانة سبيـــل المجرميـــن ١٦٥

المبحث الرابع العبـــــرة والعظـــــة........................ ١٦٧

الباب الثاني مناهج العلماء في دراسة الملل........................ ١٧٠

تمهيد.. ١٧١

أولا: دواعي دراسة الملل عند علماء المسلمين:........................ ١٧١

١ - الاحتكاك بين المسلمين وأهل الملل: ١٧١

٢ - دعوة غير المسلمين إلى الإسلام:........................ ١٧٢

ثانيا: دور علماء المسلمين في علم الملل: ١٧٣

١ - علماء المسلمين أول من دون في علم الملل:........................ ١٧٣

٢ - أهم مؤلفات المسلمين في علم الملل من بداية التدوين حتى القرن التاسع الهجري: ...١٧٦

٣ - مناهج البحث لدى علماء المسلمين في علم الملل: ١٨٦

الفصل الأول منهج علماء أهل السنة فى دراسة الملل........................ ١٩٢

المبحث الأول: الأسس المنهجية لدراسة الملل عند أهل السنة ١٩٢

المطلب الأول: مصادر الاستدلال على دراسة الملل عند أهل السنة: ١٩٣

أولا: القرآن الكريم: ١٩٤

ثانيا: السنة النبوية: ١٩٥

ثالثا: الإجماع: الإجماع لغة يأتي لمعنيين: ١٩٦

رابعا: العقل:........................ ١٩٩

المطلب الثاني: منهج الاستدلال على دراسة الملل عند أهل السنة وقواعده: ٢٠٤

١ - الإيمان بجميع نصوص الكتاب والسنة والتسليم لها: ٢٠٥

٢ - اشتمال الكتاب والسنة على أصول الدين:........................ ٢٠٧

٣ - أصول الدين واحدة لا نسخ فيها ولا في الأخبار:........................ ٢٠٩
٤ - رد التنازع إلى الكتاب والسنة:........................ ٢١٣
٥ - درء التعارض بين نصوص الكتاب والسنة:........................ ٢١٥
٦ - درء التعارض بين أدلة النقل وأدلة العقل: ٢١٦
٧ - الجمع بين الإيمان بالمتشابه والعمل بالمحكم:........................ ٢١٨
٨ - الأخذ بظواهر النصوص:........................ ٢٢٢
٩ - الإسلام هو الدين المهيمن لغيره من الأديان:........................ ٢٢٣
المطلب الثالث: خصائص منهج أهل السنة في دراسة الملل ٢٢٥
أولاً: العرض وخصائصه:........................ ٢٢٥
ثانياً - في المناقشة والرد: ٢٣٣
المبحث الثاني الضوابط الشرعية لدراسة الملل عند أهل السنة ٢٣٦
الضابط الأول: تقدير المصلحة والمفسدة في دراسة الملل: ٢٣٦
الضابط الثاني: الإخلاص: ٢٣٧
الضابط الثالث: الاستقامة: ٢٣٩
الضابط الرابع: الأهلية: ٢٤٠
الضابط الخامس: التزام المنهج الشرعي في تقرير الأحكام: ٢٤٤
الضابط السادس: العدل والإنصاف........................ ٢٤٤
الضابط السابع: الالتزام بالمصطلحات الشرعية: ٢٤٧
الفصل الثاني مناهج المخالفين لأهل السنة فى دراسة الملل ونقدها ٢٥٢
المبحث الأول اتجاهات المخالفين وأصنافهم ٢٥٣
المطلب الأول: الاتجاه الصوفي ٢٥٣
المطلب الثاني: الاتجاه الفلسفي........................ ٢٥٦
المطلب الثالث: الاتجاه الكلامي ٢٦٠
١ - المعتزلــة:........................ ٢٦٠

٢ - الأشاعـــرة:.. ٢٦٩
المبحث الثاني في الأسس المنهجية لدراسة الملل عند المخالفين ونقدها.............. ٢٧٥
المطلب الأول: مصادر الاستدلال عند المخالفين ٢٧٥
المطلب الثاني: تقديم العقل على النقل ٢٧٦
المطلب الثالث: التأويل الكلامي ٢٧٧
المطلب الرابع: الاعتماد على المنطق والفلسفة... ٢٨٠
المطلب الخامس: النقد.. ٢٨١
الباب الثالث دراسات علم الملل في العصر الحديث ٢٨٤
مقدمة مفهوم عصر الحديث ٢٨٥
الفصل الأول دراسة علم الملل فى العالم الإسلامي.................................. ٢٨٨
المبحث الأول: دراسة الملل في المؤسسات العلمية وتقويمها ٢٨٨
المطلب الأول: مفهوم الجامعة الإسلامية ٢٨٨
المطلب الثاني: أهداف الجامعة الإسلامية ٢٨٩
المطلب الثالث: المناهج الدراسية في جامعات العالم الإسلامي ٢٩٠
المطلب الرابع: الجامعات الإسلامية ودورها في دراسة علم الملل ٢٩٣
المطلب الخامس: تدريس علم مقارنة الأديان بين المؤيدين والمعارضين.................. ٢٩٦
المطلب السادس: علم مقارنة الأديان في جامعات المملكة العربية السعودية ٢٩٨
المطلب السابع: الجوانب الإيجابية لدور الجامعات في دراسة الملل ٣٠١
المطلب الثامن: جوانب القصور والضعف في دراسة علم الملل ٣٠٢
المطلب التاسع: أسباب ضعف علم الملل في الجامعات الإسلامية ٣٠٤
المبحث الثاني الجهود الفردية لدراسة الملل وتقويمها ٣١١
المطلب الأول: زعماء الإصلاح في العصر الحديث وعلم الملل............................ ٣١١
١ - عبد العزيز بن حمد بن معمر ت: ١٢٤٤هـــ ١٨٢٨م.................................. ٣١٢
٢ - محمد رحمت الله بن خليل الكيرانوي ت ١٣٠٨هـــ...................................... ٣١٤

٣ - جمال الدين الأفغاني ت (١٣٥١هـ - ١٨٧٩م)........ ٣١٧
٤ - نعمان بن محمود الألوسي البغدادي ت ١٣١٧هـ........ ٣٢٠
٥ - الشيخ محمد عبده ت ١٣٢٣هـ ١٩٠٥م........ ٣٢٢
٦ - الشيخ: عبد الرحمن بن سليم ابن باجة جي: ت ١٣٣٠هـ ١٩١١م........ ٣٢٥
٧ - الشيخ محمد رشيد رضا: ١٣٥٤هـ/١٨٦٥م........ ٣٢٧
المطلب الثاني: أساتذة الجامعات........ ٣٢٩
المطلب الثالث: تقويم للجهود الفردية........ ٣٣٢
الفصل الثاني دراسات الملل فى الغرب وتقويمها ٣٤١
المبحث الأول: نشأة دراسة علم الملل في الغرب أسبابها وأهدافها........ ٣٤١
المطلب الأول: مفهوم الدين عند الغربيين........ ٣٤١
المطلب الثاني: أسباب نشأة علم الملل في الغرب........ ٣٤٣
المطلب الثالث: أهداف علم مقارنة الأديان في الغرب........ ٣٤٦
المبحث الثاني منهج المستشرقين في دراسة الملل وتقويمه........ ٣٤٩
المطلب الأول: المسلمات التي انطلق منها المستشرقون........ ٣٤٩
المطلب الثاني: منهج المستشرقين في دراسة الملل........ ٣٥١
المطلب الثالث: أساليب المستشرقين في الدراسات الإسلامية........ ٣٥٥
الفصل الثالث فكرة التقريب بين الأديان وصلتها بعلم الملل........ ٣٦٦
المبحث الأول: الجذور القديمة لفكرة التقريب بين الأديان........ ٣٦٦
المطلب الأول: التقريب بين الأديان في عهد النبي ﷺ........ ٣٦٦
المطلب الثاني: غلاة الصوفية ووحدة الأديان........ ٣٧١
المطلب الثالث: إخوان الصفا ووحدة الأديان........ ٣٧٣
المبحث الثاني فكرة التقريب بين الأديان في العصر الحديث........ ٣٧٦
المطلب الأول: الأطراف المشاركة لفكرة التقريب بين الأديان ومراحل تطورها........ ٣٧٦
المطلب الثاني: أهداف التقريب بين الأديان........ ٣٨٥

المبحث الثالث نقد فكرة التقريب بين الأديان ٣٩٣
الفصل الرابع فكرة التطورالدينى وصلتها بعلم الملل........................ ٣٩٩
المبحث الأول: حقيقة فكرة التطور الديني ٣٩٩
المطلب الأول: معنى التطور ٣٩٩
المطلب الثاني: أصل نشأة فكرة التطور الديني ٣٩٩
المطلب الثالث: الغاية ٤٠١
المطلب الرابع: المنهج ٤٠٢
المبحث الثاني آراء الباحثين الغربيين في نشأة الدين ومصدره ٤٠٥
المطلب الأول: اختلاف الباحثين الغربيين في مصدر الدين ٤٠٥
المطلب الثاني: أهم المذاهب للاتجاه التطوري ٤٠٨
المبحث الثالث آثار فكرة التطور الديني........................ ٤١٢
المطلب الأول: انتشار الالحاد: ٤١٢
المبحث الرابع العالم الإسلامي وفكرة التطور الديني ٤١٥
المبحث الخامس نقد نظرية التطــور الدينــي ٤٢٢
المطلب الأول: أصل الإنسان كما بينه القرآن........................ ٤٢٢
المطلب الثاني: الأصل في عقيدة البشرية التوحيد والشرك طارئ ٤٢٥
الفصل الخامس الغزو الفكري وصلته بعلم الملل........................ ٤٣٠
المبحث الأول الغزو الفكري المعاصر........................ ٤٣١
المطلب الأول: مفهوم الغزو الفكري........................ ٤٣١
المطلب الثاني: أسباب الغزو الفكري ٤٣٤
المطلب الثالث: أهداف الغزو الفكري ٤٣٧
المطلب الرابع: مجالات الغزو الفكري........................ ٤٣٨
المطلب الخامس: تيارات الغزو الفكري ٤٤٣
المبحث الثاني صلة الغزو الفكري بعلم الملل ٤٤٥

المطلب الأول: وجه صلة بين الغزو الفكري وعلم الملل........................ ٤٤٥
المطلب الثاني: دور علم الملل في مقاومة الغزو الفكري........................ ٤٤٨
الفصل السادس صلة علم الملل بالسياسة........................ ٤٤٩
المبحث الأول السياسة في الأديان السماوية........................ ٤٥١
المطلب الأول: السياسة في الديانة اليهودية........................ ٤٥١
المطلب الثاني: السياسة في الديانة النصرانية........................ ٤٥٢
المطلب الثالث: السياسة في الإسلام........................ ٤٥٥
المبحث الثاني السياسة والدين في المجتمعات المعاصرة........................ ٤٥٨
أ - الهند:........................ ٤٦١
ب - إسرائيل:........................ ٤٦٢
جـ - أمريكا:........................ ٤٦٤
المبحث الثالث وجه صلة علم الملل بالسياسة........................ ٤٦٩
الخاتمة........................ ٤٧٣
فهرس المصادر والمراجع........................ ٤٧٧
الدوريات و النشرات........................ ٥١١
فهرس الموضاعات........................ ٥١٣

* * * * *